محمود عوض

بالعربي الجريح

دار المعارف

محمود عوض

بالعربى الجريح



دار المعارف

تصميم الغلاف الفنان
شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقـــدمة

الدعوة والفكرة .. والقلب بينهما

هـي تجربـة أمتعتني.. وأجهدتني.. تجربة معجونة من الشـوق والقلـق.. الحنين والتوتر.. الإقبال والتردد.

هـي تجربة بدأت بدعوة كريمة من صديق وأخ وزميل في المهنة ـ مهنة الكتابة والصحافة التي أخذت منا العمر والصحة والمشاعر والاعصاب و - بين وقت وآخر - بتكلفة فوق الاحتمال.

هـي تجربـة بدأت بدعوة مـن الكاتب الكبير عبدالوهـاب مطاوع الذي قبل على عاتقه سـابقا مسـئولية رئاسـة تحرير مجلة «الشباب» فأصبحنا نشـفق عليه من ضخامة المسـئولية. مسئولية التعامل بالكلمة المكتوبـة مع جيل تعددت أمامه مصادر الغواية والهواية.. فأصبح اغراؤه بالإقبال على وجبة مكتوبة شـهريا تحديا جديدا يضاف الى ما نجح فيه عبدالوهاب مطاوع من قبل.. وبكل جدارة ومهنية.

تكررت الدعوة مرة بعد مرة لكي أصبح كاتبا ضيفا على مجلة «الشباب» بمقال شهري اقترح له الصديق العزيز عنوانا ثابتا هو «قطعة من القلب».

بعد قليل وجدت نفسي أضع في الورق قلبي كله.. وليس مجرد قطعة منه. عشت تجربة التعامل مع تلك المرحلة البريئة القلقة بيننا.. والتي تطرح على مجتمعنا أسـئلة أكثر.. لكنها تحصل على اجابات أقل. رحلة التطلع الى المعرفة والفهم بأسـلوب قابل للمناقشـة والفهم. وشـهرا بعد شهر وجدتني أندمج في التجربة فيفرض مقالي في «الشـباب» نفسـه على قلمي سـابقا كل ارتباط آخر تقيدت به. اشـتكى زملاء أعزاء في صحف تصدر في لندن والرياض وعواصم عربية أخرى من عدم انتظام مفاجئ في مقالاتي بصحفهم.. بينما الثابت الوحيد أصبح ارتباطي بمقال «الشباب». وحينما اقترح على بعضهم نشر مقالي بمجلة «الشباب» في صحفهم بالتزامن في نفس الوقت.. كنت أحيلهم إلى المضيف صاحب الدعوة من الأصل.

كان الحمـاس في داخلي يتجدد مع ذلك الفيض من رسـائل القـراء والقارئات الذي كنت أتلقاه شـهرا بعد شهر. وذات يوم اتصل بي المشـير الراحل محمد عبدالغني الجمسي وهو من أبرز نجوم

العسكرية المصرية الحديثة وله عندى احترام زائد. هو يناقشنى عن مقال كتبته تحليلا لما جرى فى مصر عسكريا وسياسيا فيما بين سنتى ١٩٦٧ و١٩٧٣.. حيث سمع عن المقال أصلا من عدة شبان يرتادون نفس النادى الذى يقضى فيه الجمسى بعض وقته كل صباح. والآن يستغرب المشير الجمسى بكل محبة: لماذا بعد ما لمسته من معلومات دقيقة كشفت عنها لا يكون المقال منشورا فى صحيفة كبرى بدلا من مجلة شهرية؟

وقلت له: يا سيادة المشير.. الشرح هنا يطول. لكن مجرد رأيك هذا اعتبره تحية متنكرة أعتز بها كثيرا وأصبح بعدها أكثر تفاعلا مع أولئك الشباب الذين أثاروا لديك هذا الاهتمام.

فى حينها كان مقال «رجال اليوم السابع» هو اجتهاد من جانبى لتوسيع أفق الرؤية لقضية. اجتهاد أطرحه أمام القارئ الشاب.. قبل أن أنتقل إلى قضايا أخرى تفرضها الكتابة الشهرية. لكن سيل التساؤلات وردود الأفعال دفعنى إلى تناول نفس الموضوع مرة ثانية.. وثالثة.. ورابعة.. وخامسة.. حتى أرغمت نفسى على التحرك نحو قضايا أخري. فى نهاية المطاف يكفى أن القراء الشباب تحركت لديهم إرادة الاستقصاء والمعرفة.. وهى أقصر وأضمن الطرق إلى مستقبل أفضل.

من هذا التفاعل استمرت مقالاتى هذه بمجلة «الشباب» لنحو ٥٢ شهرا حرصت خلالها على أن أتيح للقارئ رؤية متعددة الزوايا لما كنا فيه أو أصبحنا عليه أو نشتاق إليه. ربما أبدأ بالفن لأنتهى بالسياسة.. أو انتهى بالأدب لكى أعود إلى التاريخ.. أو أترك هذا كله لأقوم بتشريح أحداث جارية لا تهتم بها الصحف السيارة. فى جميع الحالات كان التواصل مع القراء يعطينى شحنة متجددة تجعلنى أكثر اندماجا وتفاعلا.. فى دفء استضافة كريمة لربان ماهر امتلك البوصلة المهنية الحقيقية لنجاح بعد نجاح.

عزيزى القارئ..

لقد اختار الناشر هنا أن يقدم لك تاليا مقالاتى فى «الشباب». لكننى أقدم لك قلبى فى «الشباب». قلب ينبض بالعربى الفصيح .. وغالبا بالعربى الصريح .. وأحيانا بالعربى الجريح . ومعذرة لو أراد القلب بعدها فرصة لقليل من الراحة.

محمود عوض



عزيزى عبدالحليم: .. وحشتنا

حكايات وروايات تعيدنى أحيانا إلى محطات مضت من رحلة الحياة. حكايات وروايات كانت تبـدو فى وقتها سـهلة التوالد علـى أبطالها بغير أن يدركـوا فى التو أنهم يرسـمون لوحة بالغة العاطفية والرومانسـية رغم الواقع الضيق الذى يتحركون فى إطاره. حكايات وروايات تمتزج فيها الكلمة بالشعر بالموسيقى بالأغنية.. وبالكثير من الانفعالات.

حكايـات وروايات سـجلت فى طياتهـا الكثير من الجمال الذى كنا نسـتعين به على مواجهة القليـل من القبح حولنا. حكايـات وروايات أخذت معها قطعا من قلوبنـا.. ثم تغوص فى اللاوعى إلى أن تقفز إلى السـطح من جديد بفعل ذكرى أو موقف. أو حتى كلمات عابرة. وفى التو واللحظة تسـتعيد الحكايات والروايات بريقها من جديد فى كل مرة كما لو كانت قد جرت قبل دقائق قليلة وليس منذ سنوات وسنوات.

أتحدث عن سـنوات أخيرة فى حياة عبدالحليم عرفته خلالها عن قرب شديد رغم فوارق عديدة بيننا. هناك مثلا فارق أجيال.

فبالنسـبة لى كان عبدالحليم هو الصوت الذى عشش فينا انفعالا وتفاعلا. وفى الإذاعة المدرسية بمدرسـة طلخـا الثانوية كنا نتسـابق على إدارة أغانـى عبدالحليم طوال فترة «الفسـحة الكبيرة» ونتدافـع إلى أفلامه السـينمائية فى عرضها الأول بسـينما عدن فى المنصورة. وحتى فى سـنوات دراستنا الجامعية كان أقصر الطرق أمام زميلى لكى يقوم بتحجيم زميل آخر هو أن يقول له ساخرا: «انت فاهم نفسك مين؟ عبدالحليم حافظ يا جدع؟».

فـى حينهـا لم يدر فى خلدى أن ظروفا سـوف تأتى فيما بعد لكى تجمعنـى فيها بعبدالحليم تجارب إنسـانية عميقة.. سـواء فى ليالى القاهرة أو خريف الاسـكندرية أو شـتاء لندن أو أمطار نيويـورك أو مفاجـآت الرباط ودفء الدار البيضاء. ولا كان فى بالى أيضا أن صداقة عميقة سـتربط بيننا على المستوى الشخصى فأكون ضيفا عليه فى بيته أو هو ضيفا على فى بيتى.

وعبارة «ضيفا على» فى بيتى هنا ربما تحتاج إلى هامش توضيحى. فمن حيث عبدالحليم «ضيفا» فهى صفة أكثر مما يجب، ومن حيث كونه ضيفاً علىّ فى «بيتى» فهو تشخيص أقل مما يجب.

ذلـك أن عبدالحليم عـادة يبدأ بالمجيء بمفـرده. لكن بعد دقائق يبدأ عبدالحليم في اسـتخدام التليفـون. ودقائق أخرى وأصبح أنا الضيـف وعبدالحليم صاحب البيت. فلقد تتابع وصول الأصدقاء الذين استدعاهم عبدالحليم.

أمـا عن «بيتي» وقتها فهو شـقة صغيرة بحي «العجوزة» في القاهـرة وهي بالدور الرابع بغير اسانسـير. والضيوف القادمون في كل مرة كبار في فنهم وبسـطاء في صحتهم. ثم إن المكان لا يتسع لأكثر من عشـرة مقاعد. وبقدرة قادر يتسـع المـكان أكثر وأكثر. البعض جالـس على الأرض.. في مقدمتهـم عبدالحليـم والبعض يتحرك إلى الشـرفة. البعض لا يجد مكاناً إلا في المطبخ.. للشـاى والقهوة والبوتاجاز (مصانع حربية. بخمسة وعشرين جنيها وقتها. رضا.) مع ذلك تستمر الجلسة حتى الفجر. الغناء أقلها. والحديث في الأدب والفن والسياسة أكثرها.

فـي اليوم التالي يجيء دائما صوت عبدالحليم في التليفـون: «أظن لخبطنا لك البيت في زيارة امبارح؟».

هاهاها..

– يا حليم دى مش زيارة دى كبسة.

– مظبوط. يبقى بعد كده لما أعزمك عندى تيجي.. هذا وإلا: كبسة.... هاهاها..

لم أكن محررا فنيا لجريدة «أخبار اليوم».

بـل إنـه حدث في ثلاث مرات، وأمـام كل الزملاء في الاجتماع الاسـبوعي، أن ألح عليَّ الكاتب الكبير الراحل احسـان عبدالقدوس – وكان هو في حينها رئيس التحرير الذى أعمل معه في جريدة «أخبـار اليوم» – بأن أتولى الاشـراف على الصفحـة الفنية بالجريدة.. والتي كان يتابعها بنفسـه. وثلاث مرات أعتذر عن عدم الاسـتجابة رغم كل محبتي واعتزازى باحسـان الكاتب والفنان ورئيس التحرير.

كان احسـان عبدالقدوس هو الذى قدمنى أصلا إلى الراحلة أم كلثوم .. وتلك قصة أخرى. لكنه بعدهـا أصبح يعرف أيضا العلاقة الحميمة التى أصبحـت تجمعنى بمحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وكمال الطويل وبليغ حمدى ومحمد الموجي.. من بين أسماء كبيرة تصنع حياتنا الفنية. وكنت أعـرف أن الصداقة الحميمة يجب أن يكون لها قوانينها الذاتية غير المكتوبة، وهو ما يتقاطع غالبا مع احتياجات تشابك المصالح التى قد تفرضها الصحافة الفنية. وكان كرما من احسان عبدالقدوس أن يتقبـل وجهة نظرى في النهاية. وكانت ثقـة زائدة من هؤلاء الأصدقاء – وفي مقدمتهم عبدالحليم حافـظ – أن يأتمنونى على بعض تلك الأشـياء الحميمة وشـديدة الخصوصية التـى يحرصون على الاحتفاظ بها لأنفسهم.

هكذا نشـأت وتعمقت العلاقة الشـخصية بين عبدالحليم حافظ وبيني.. وهي علاقة كان الفضل فيها يعود إلى عبدالحليم في الأساس.. ربما كان حريصا على أن يتابع الجديد فى كل ما يحيط به.. فيما هو أوسـع كثيرا من دائرة الغناء والموسـيقى. وإذا كنت سأسمح لنفسى الآن بأن أغوص قليلا مع عبدالحليم.. فلأن الصديق مجدى العمروسى – الطرف الثالث مع محمد عبدالوهاب وعبدالحليم فى الشـركة التى جمعت بينهم – قد شـاغبنى برقة فى كتابه الذى أصدره عن عبدالحليم بعنوان «أعز الناس». وحينما دعانى مجدى العمروسى إلى الغداء بعدها فى منزله مع الصديق صلاح منتصر، قال لى إنه يريد فقط أن يدفعنى إلى اسـتعادة ذكرياتى مع عبدالحليم. حتى حينما اتصلت بى «الحاجة علية» شـقيقة عبدالحليم التى كان يعتبرها بمثابة أمه فوق كونها شقيقته المقربة إلى قلبه.. ألحت علىّ هى الأخرى لكى أكتب عن عبدالحليم قبل أن تتوه الحقائق وتختلط المعايير.

وكانت مشكلتى دائما، وحتى الآن، هى أن ذكريات عبدالحليم لم تنفصل عنى بالدرجة الكافية لكـى أكتب عنه كما أعرف وأحب. ففيما عرفته وعاشـرته من عبدالحليـم لم يكن هو مجرد الفنان الذى أحاطته الملايين بحبها، ولكنه كائن انسانى متعدد التضاريس متدفق المشاعر سريع الانفعال، وأيضا شديد التراجع عن الانفعال، وشديد الاحتراق فعلا وانفعالا.

وعبدالحليم خاض مشوار نجاحه مرتين. أولا لكى يصل إلى القمة. وثانيا لكى يستمر فيها. فى المشوار الأول وجد عبدالحليم من شاركوه وكانوا جزءا من نجاحه.. ووجد من حاربوه أيضا. هكذا لا يمكن أن نفهم ظاهرة عبدالحليم بغير أن نفهم أساسا مشاركة كمال الطويل ومحمد الموجى، ثم بليغ حمدى، فى الوصول إلى قلوب الناس بلون جديد وسـط أسـماء كبيرة وقتها كانت لها أيضا قاعدتها الجماهيرية العريضة. فلنترك هنا أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب جانبا. يكفى أن نتذكر فريد الأطرش ومحمد فوزى وعبدالعزيز محمود وعبدالغنى السـيد من بين أسماء أخرى. هذا يعنى أن عبدالحليم اقتنع من البداية بأن عليه ألا يكون بديلا لأحد أو مزاحما لأحد لأن القمة تتسع لكل موهبة.

وفـى ذلـك الجانب نريد أن نتذكـر أيضا أن عبدالحليم لم يكن فى أى وقت مطرب السـلطة كما يحـاول بعض ضعاف النفوس تفسـير نجاحه. فبعـد الاختراق الأول الذى حققـه عبدالحليم الى قلـوب الجماهير كان هناك من تبنوا صوتا بديلا اسـمه كمال حسـنى. أقلام بـارزة وصحف كاملة حشدت نفسها لتقديم كمال حسنى كمنافس لعبدالحليم. وكمال حسنى نفسه تعاقد على بطولة أفلام سينمائية وقدمت اليه ألحان عذبة من ملحنين كبار ومضت فى سبيله حملة دعائية كبرى. لكنه فى النهاية توارى. واستمر عبدالحليم نجما أول فى المرمى الحاسم والنهائى: قلوب الجماهير.

وحينما عرفت عبدالحليم كان يتربع بالفعل، ومنذ سنوات طويلة، على عرش الغناء. ومع ذلك، وحتـى رحيله، لم تتوقف الحرب ضده. أقول إنها حـرب لأنها كانت كذلك فعلا بين وقت وآخر. اننى لن أتحدث هنا مثلا عن محاولات التشـكيك فى حقيقة مرضه والادعاء بأنه يتمارض استدرارا

لعطـف الناس. أتحدث فقط عـن مصالح حقيقية ظلت تمارس ابتزازهـا لعبدالحليم حتى النهاية. مصالح ضيقة؟ ربما. شـخصية؟ ربما. لكن المهم هنا هو أن عبدالحليم كان يعرف بالضبط أشـخاص ودوافع أصحاب تلك المصالح.. لكنه يتظاهر أمام الكاميرات بأنه لا يعرف.. ولا يهتم.

كان يعرف. وكان يهتم. والأهم من ذلك: كان يتعذب. كل المسـألة هى أنه لم يكن يريد أن يبدو مهتزا أو ضعيفا أمام تلك المصالح.

هل أقول مثلا إن صحيفة كبرى قاطعت أخبار وصور عبدالحليم لأكثر من سنة كاملة.. ليس عن موقـف من الجريدة ضده.. ولكن عن مصالح ضيقة ونفـوس ضعيفة؟ هل أقول، مثلا مثلا، أن بعض النافذيـن فى الصحافة الفنية أوهموا أنفسـهم ذات يوم بقدرتهم على ازاحـة عبدالحليم من قلوب الناس واحلال آخرين محله يكونون أكثر اذعانا لاحتياجاتهم الصغيرة؟

فـى بعض تلك اللحظات كان عبدالحليم يفاجئنى بعذابه، بل وبدموعه، لأنه متأكد مسـبقا من أننى لن أسـتخدم لحظات ضعفه هذه ضده ذات يوم، فلا مصالح بيننا لكى تتقاطع، ولا علاقة عمل تجمعنا لكى نختلف.

وقـد حـدث فى مرة واحدة أن جمعتنى علاقة عمل بعبدالحليم. وإذا كنت سـأتحدث عنها بعد قليـل فلأن آخرين أعفونى من الحرج حينما كتبوا ما عرفوه من عبدالحليم نفسـه، وما عاصروه هم أيضا. لكن ما أريد أن أسـتخلصه هنا هو أن الفن يختلف عن العلم. الفن ذاتى والعلم موضوعى. الفن تحكمه مشاعر بينما العلم تحكمه وقائع.

وبكلمة «الفن» هنا أقصد كل ما فيه ابداع.. من أدب الى رسـم الى صحافة إلى موسـيقى وغناء. وبهـذا التوصيف نخرج بأمرين. الأول: أن عبدالحليم لم يكن أقوى الأصوات الغنائية فى مشـواره ومـع ذلك انفتحت له قلـوب الملايين بامتداد العالـم العربى – وحتـى الآن – والثانى: أن الحياة الابداعية – ومن بينها الحياة الفنية – فيها الكثير من الضرب تحت الحزام. وآه لو حاول المضروب تحت الحزام أن يخرج بشكواه إلى الناس.

لقـد أتيح لـى أن أعيش فى «هوليود»، عاصمة السـينما الأمريكية، لفتـرات كافية. وهوليود، بالمناسـبة، هى مجرد حى من أحياء مدينة لوس انجلـوس الأمريكية، لكنها تتميز بكونها مركز الاستديوهات السينمائية الكبرى ومسكن نجوم الأفلام التى تنتجها تلك الاستوديوهات. ومن الملفت أننى وجدت نفس الآليات هناك بمثلها هنا.

بالطبـع ليـس نفس الامكانيات ولا نفس الأموال ولا نفس المصالـح، لكنها نفس الآليات ونفس الضراوة وبين وقت وآخر.. نفس الضرب تحت الحزام. هى منافسة ضارية على القمة، وعلى قلوب الجماهير، وعلى شباك التذاكر، وعلى الأضواء التى تسحر الجميع، وتسحق فى الطريق – أحيانا بلا رحمة ولا إنسانية – أى معترض.

لكـن مـن بين الفوارق مثلا بين الحيـاة الفنية فى هوليود ومثلها فى القاهـرة هو أن النجم فى هوليـود لابد له أن يكون عبدا - من العبودية - بالكامل لمن يفكرون له. هو عبد لوكيل أعماله الذى يقوم بتسـويقه. وعبد للاسـتوديو الذى يفكر له، وعبد لقسـم العلاقات العامة فى الاستوديو الذى يخطط له مسبقا أسلوب حياته ومضمون أحاديثه، وأحيانا من يصادق أو يتزوج.

فـى القاهـرة ومجتمعها الفنـى يصبح على الفنان أن يكون كل ما سـبق معا: هو يفكر لنفسـه ويخطـط ويتابع ويدرس وينافس ويتعذب أو يحترق.. بطولـه. بالطبع عبدالحليم هنا كانت خطوة متطورة لأنه اسـتفاد من محمد عبدالوهاب بأن أقام لنفسـه مبكرا شـركته الخاصة للإنتاج الغنائى والسينمائى، ثم أدمج شركته بعد ذلك فى شركة عبدالوهاب لكى يؤسسا معا شركة واحدة أكبر.

إن الحديث الموضوعى هنا يمكن أن يطول ويطول. فقط لا أحب أن أثقل على مجلة «الشباب» التى أضافت إلى الصحافة بصمة متميزة ولا على رئيس تحريرها الأستاذ عبدالوهاب مطاوع الذى شرفنى بدعوته لى إلى الكتابة فى المجلة.

أريد أن أختصر. من هنا أعود إلى قصة «أرجوك لاتفهمى بسـرعة» وهى العمل الدرامى الوحيد الذى سـجله عبدالحليم للإذاعة عن قصة كتبتها، فقط لأن هذا قد يضيف إلى القارئ بعدا آخر عن عبدالحليم المطرب والفنان الموهوب الذى يدير موهبته بنفسـه ويعرف من الأصل أن مرضا يسحقه، ولكنه يحتمى من المرض بحب الناس له. لقد اختصر البعض حياة عبدالحليم، خصوصا بعد رحيله، إلى ما هو تحت الحزام، لكن من باب التغيير أحكى هنا عن عبدالحليم.. فوق الحزام.

لقد تناول البعض المرة الوحيدة التى قام فيها عبدالحليم ببطولة مسلسـل إذاعى لشهر رمضان، إن شـهر رمضان هو الشهر الذى تصل فيه المنافسـة بين محطات الاذاعة المختلفة إلى ذروتها وكل محطة تركز اهتمامها أولا على المسلسـل الدرامى الذى تذيعه عقب الإفطار والمخرج الكبير الراحل محمد علوان مثلا كان يظل يفكر ويفكر طوال الأحد عشـر شـهرا فى قنبلته الدرامية التى يريد أن يفجرها فى شهر رمضان متجاوزا المحطات الأخرى. وبعد محاولات سنوية مستمرة مع عبدالحليم نجـح علوان فى إقناع عبدالحليم بالوقوف أمـام الميكروفون. ولأن عبدالحليم هو نجم الغناء العربى وجمهوره بالملايين من الخليج إلى المحيط فقد كان طبيعيا أن يبدأ علوان أولا بالاتفاق معه.

وحينما ذهب علوان إلى عبدالحليم حافظ بعقد الاتفاق ليوقعه حتى تبدأ الاذاعة خطواتها التالية قال له: يا أستاذ عبدالحليم هذا عقد تقليدى مطبوع، لكنك بالطبع تستطيع أن تضيف إليه أية بنود أخرى وسيسعد الإذاعة أن تنفذها لك.

كان علوان مهيأ نفسـيا لأن يطلب عبدالحليم مثلا ميزانية اسـتثنائية له أو لانتاج المسلسل لكن عبدالحليـم أمسـك بقلمه ليضيـف إلى العقد بنداً واحـدا بخط يده: أن يكتـب محمود عوض قصة

المسلســل. (إن مجدى العمروســى احتفظ لنفســه من وقتها بصورة من هذا العقد و: ياعم مجدى.. وعدتنى كثيرا بأن تبعث لى بصورة من هذا العقد، ومازلت فى الانتظار).

لــم أعرف شــيئا مما جرى لأن عبدالحليم طلب من علوان التكتــم الكامل. وذات صباح اتصل بى عبدالحليم قائلا: هل أمر عليك بعد نصف ســاعة لنذهب ســويا فى مشــوار؟ بعدها جاءنى سائقه عبدالفتاح: الأســتاذ تحت فى انتظارك. وفى السيارة راوغنى عبدالحليم فى الافصاح عن طبيعة هذا المشوار. لكن السائق انطلق إلى الجيزة. إلى شارع الهرم. ثم إلى اليمين بعد شارع الهرم. إنه الطريق الصحراوى لكن: إحنا رايحين فين يا حليم؟ قال: أبدا.. فكرت نروح العجمى (قرب الإسكندرية) نتغدى هناك ونقضى واجبا بسيطا، ونرجع.

أخذت كلماته على علاتها فقد ســبق له أن أشــركنى معه فى حكايات تهمه، وآخر مشوار منها كان إلى الإســكندرية فى الشــتاء – ليحضر عبدالحليم عقد قران فى أســرة يعتز بمساعدتها له فى مشــواره الفنى. يومها كنا فى عز الشتاء، وأصبحنا نحن النزيلين الوحيدين فى فندق سان ستيفانو لليلتين متعاقبتين.

لكــن فى هذه المرة يريــد عبدالحليم الذهاب إلى العجمى حيث كان له شــاليه هناك بدا لنا فى حينها كقصر منيف رغم بساطته الشديدة. وفى الصباح التالى استيقظت لأجد الهدوء طاغيا. وبحثت فى أنحاء الشاليه. لا أثر لعبدالحليم. نزلت إلى الجراج. لا سيارة. خرجت إلى عم فرج أسأله. إنه أيضــا لا يعرف. كل ما يعرفه هو ان «الأســتاذ» نبه عليه برعايتــى على مدار اليوم، وبعدها انطلق بالسيارة فى صحبة عبدالفتاح.

بعد ســاعات دق جرس التليفون. المكالمة ترنك. ثم المفاجأة: هاهاهاها.. خلاص ياعم أنا رجعت مصــر وأنت عنــدك محبوس فى العجمــى لغاية ماتكتب القصــة. بعدها فقط أبعث لــك عبدالفتاح بالسيارة يرجعك. رمضان قرب ومفيش وقت.. هاهاهاها..

كانت الكتابة لعبدالحليم مســئولية كبرى. فبعد كل شــىء يشــرف كبار كتاب القصة أن يكون «ناشــرهم» الدرامى هــو عبدالحليم حافظ وفى هؤلاء لم أكن واحدا مــن الكبار، ولا من الصغار. فى الواقــع كنت لا أزال احتفظ لنفســى باجتهاداتــى الأدبية رعبا من امتحان القــارئ. والآن يضعنى عبدالحليــم فى الامتحان بعفوية وطيب خاطر، وأيضا بثقة أصبحت ســيفا على رقبتى. وعلى مدار عــدة أيام بعدها أصبــح عبدالحليم يكرر اتصاله بى من القاهرة عدة مرات كل يوم.. نتحدث ونثرثر فى كل مرة عن أى شىء.. إلا عن مشروع القصة.

حينما أعادتنى ســيارة عبدالحليم إلــى القاهرة كان ينتظرنى معه مجدى العمروســى. إذن هو غــداء عمــل. ومجدى هو عين عبدالحليم وأذنه على الجمهور خصوصا إذا تعلق الأمر بفيلم جديد أو مشروع جديد.

بمجــرد أن قلت إن عنــوان القصة هو «أرجوك.. لا تفهمنى بســرعة» طلب مجدى التوقف مرة ومرتين قبل الدخول فى الموضوع. هذا مجدى العمروســى الذى لا يضيع وقتا. إن لديه مشــروع فيلم لعبد الحليم من إخراج يوســف شــاهين. وللفيلم عنوان مؤقت هو «وتمضى الأيام». الآن يريد مجدى - وهو مدير «صوت الفن» يتكلم - أن «يقترض» منى عنوانى ليعطيه إلى الفيلم والثمن ألف جنيه و: طبعا أنت مندمج الآن فى جو القصة وتقدر تختار لها عنواناً آخر جديداً وبنفس الجاذبية.

قلت:إيه؟ قال مكررا: آخذ منك أربع كلمات وأعطيك ألف جنيه.

كانــت ألف جنيه من مجدى العمروســى خصوصا هى معجزة فى حد ذاتهــا. والمعجزة الأكبر أن ألــف جنيه فى ذلك الزمن تعنى أن أصبح والمليونير أوناســيس فــى كفة واحدة، فكلانا يتحدث بالآلاف.. غايته.. سيبقى بيننا فارق العملة!.

وبصعوبة شــديدة قبل مجدى العمروسى اعتذارى. قبل أن ينصرف. وبصعوبة أقل بدأنا نفكر فى الأبطال المناسبين للقصة. إن عبدالحليم كان معتادا - وهذا حقه - على قصة البطل الواحد. لكنه فى هذه المرة يقبل فى سماحة أن يكون الأول بين متساوين، لأن القصة تعبر عن قضية جيل بكامله. وفيما بعد كان عادل أمام ونجلاء فتحى وآخرون شديدى الابهار فى تقمصهم لشخصيات الرواية. بل إنه فى واحدة من أغانى المسلسل الخمس اشترك الجميع فى الأداء مع عبدالحليم، فى لحن خفيف الدم وضعه منير مراد وشارك فيه بصوته أيضا وبكلمات محمد حمزة. أغنية تعبر بالضبط عن الطموحات المختلفة لهؤلاء الطلبة الذين تخرجوا فى الجامعة لتوهم ليبدأوا ملاطمة الواقع والحلم بتغييره.

كانت التجربة جزءا من نفوسنا وقلوبنا. وأصبحنا نعيشها على مدار النهار والليل. فى الافطار نحــن على مائدة عبدالحليم بعدها فى ســتوديوهات الاذاعة حتى الســحور. عندها نعود إلى بيت عبدالحليم أو إلى بيتى. فى الصباح.. صيام وعمل منفرد. على الافطار نتجمع من جديد.

ثم جاءت المفاجأة الكبرى ظهر اليوم العاشر من رمضان. إنها حرب أكتوبر. وأصبحنا نعيش عالمين. هناك عالمنا الصغير فى ستوديوهات الاذاعة. فرغم أن الاذاعة غيرت برامجها جميعا لتصبح فى خدمة الحرب إلا أن تسجيل الحلقات كان لابد أن يستمر ليتم شحنها فورا إلى جميع إذاعات العالم العربى التى اشــترتها مسبقا ومستمرة فى اذاعتها. ثم هناك عالمنا الكبير. عالم الحرب التى أصبحنا نعيشها بكل ذرة فى كياننا بعد ست سنوات من التمزق. كنا نتناقل كل خبر، ونحلل كل برقية. ونناقش كل تطور وكأن كل منا هو قائد الجيش شخصيا. وفى الشوارع اختفت العصبية والغربة فجأة من أحاديث الناس. فجأة أصبحوا منضبطين فى ســلوكهم. فبرغم حالة الاظلام الليلى التام فى القاهرة لم نشــاهد حادث مرور. وبرغم تقنين الســلع الأساســية ســكر وأرز وزيت وغيره - بالبطاقات التموينية - لم يتزاحم أحد على السوق السوداء للشراء أو التخزين. فى الواقع: اختفت السوق السوداء.

اكتشفنا في سياق الحرب أن هناك الكثير والكثير يجمع بيننا كمواطنين. واكتشفنا أن مصر تصبح أكبر أو أصغر بشعبها. بكل واحد فى شعبها. وفى دائرتنا الصغيرة يريد عبدالحليم أن يساهم بصوته وبليغ حمدى أسبق الجميع إلى عوده وموسيقاه. حتى كمال الطويل الذى كان اختار لنفسه منذ سنوات التوقف عن التلحين جاءته فجأة حالة جلوس إلى البيانو لكى يلحن. وفى ليلة واحدة كان عبدالحليم يبحث عن كلمات، وأنا أعود إلى بيتى لإعادة قراءة أى قصائد شعرية مطبوعة لعل بعضها يناسب انفعالات كمال الطويل -- وفجأة جاء إلينا كمال بلحن كطلقة مدفع. إنه مجرد دقيقتين أو ثلاث لكن الطلقة فى كلماته الأولى: «خلى السلاح صاحى.» فى الصباح التالى اتصل بى عبدالحليم ليقول: لقد نمت الليلة سعيدا مرتين. مرة لأن كمال عاد يلحن لى. ومرة لأننى بموسيقاه سأشارك فيما يجرى.

أصبحنا نعيش بآذاننا مع إذاعة القاهرة. نقفز متعانقين مع كل بلاغ جديد. نحتضن بعضنا مع كل انتصار يتحقق. نذهب إلى الاستوديو لنسجل بينما أحدنا يذهب إلى قسم الأخبار فى الاذاعة كل ربع ساعة. نعود إلى المنزل لنطارد فى الراديو كل محطات العالم. نفترق إلى بيوتنا لكل ننقل إلى بعضنا البعض بالتليفون كل خبر جديد. نصوم ونفطر ونتسحر وكل عقولنا فى الجبهة. وفجأة اكتشفنا أننا أصبحنا نحتسى كميات من القهوة والشاى عشرين ضعف ما اعتدناه. بعد قليل نفد السكر من عندى. بعده نفد أيضا من بيت عبدالحليم.

وجاءنا عبدالرحيم السفرجى ليقول لنا محذرا: من هنا ورايح مفيش سكر.. تشربوا القهوة والشاى سادة.

وبعفوية جاءه الرد منا جميعا: سادة سادة يا عبدالرحيم.. بس نحارب.

فيما قبل تلك الليلة وبعدها تتزاحم الحكايات والذكريات والمشاهد عن عبدالحليم. هذا الجريح فى أغنية «تخونوه». أو المشتعل فى أغنية «نار» أو الرقيق فى أغنية «فى يوم فى شهر فى سنة». أو المشتاق فى «رسالة من تحت الماء». أو المعذب فى أغنية «موعود» أو الثائر فى أغنية «حكاية السد». أو الحزين فى أغنية «قارئة الفنجان».. أو.. أو..

لكن الذى يجمع بين كل هذا هو ذلك الصوت القادم من أعماق عبدالحليم حافظ بالرقة حينما يتيسر. بالاصرار حين يلزم. بالشدة حين يحب.. وبالصدق فى جميع الأحوال.

و: يا عزيزى عبدالحليم..

من بعد الأشواق والسلامات والسنوات.. أنت معنا صوتا وأداء وصدقا ونجما أول.. مع ذلك يا أخى: وحشتنا.

□□□

زوربا: الحياة.. بالطول والعرض

نيويورك ليست هى المدينة المثالية لإقامة علاقة انسانية. نيويورك مدينة متوحشة. هادئة على السطح ومتوحشة فى الأعماق. ربما كان هذا هو ما دفع مثلا بالأديب الايرلندى الراحل برنارد شو إلى أن يختار أسلوب الصفعات اللفظية فى أول زيارة له إلى مدينة نيويورك. هى مدينة متوحشة ومع الغرباء تصبح متوحشة أكثر. وبرغم أنها تأوى أكثر من سبعة ملايين من البشر إلا أنهم يفضلون الحياة كغرباء حينما يولدون فى المدينة.. وغرباء حينما يعيشون فيها. وغرباء حينما يعبرونها.وفى كل مرات إقامتى فى نيويورك كنت أذكر نفسى دائما بأننى مجرد عابر سبيل. عابر إلى مقر الأمم المتحدة. أو إلى المكتبات الكبرى. أو إلى «الفيليدج» – القرية أو إلى مسارح برودواى. أو إلى حى السود (هارلم). وهو ما يعنى أننى أتذبذب يوميا بين القرن العشرين والقرن الخامس عشر. أو بين الثراء الفاحش والفقر المدقع.. أو بين فنادق الوالدروف استوريا والهيلتون وبلازا – أغلى الفنادق – وبين بيوت الشباب التى تناسب حذائى غير اللامع ودولاراتى المصرية القليلة، حتى لو كانت بالسعر التشجيعى.مع ذلك، ولدهشتى البالغة، ففى إحدى مرات إقامتى العابرة فى نيويورك أصبحت طرفا فى علاقة تحمل كل ملامح نيويورك. علاقة مفاجئة عريضة متسعة مبهرة مجهدة متقلبة ممطرة ومشمسة فى نفس اللحظة بالضبط كما هى نيويورك.أما الطرف الآخر فى تلك العلاقة الانسانية فهو أنتونى كوين.. شخص قادم من هوليود فى الساحل الغربى للولايات المتحدة وحرفته التمثيل وعرفناه فى العالم العربى من خلال أفلام هوليودية عديدة اشهرها فيلم «زوربا اليونانى».كان هناك صديق مشترك عرفته أصلا فى لوس انجلوس، وهوليود احد احيائها، وحينما اتصلت به من نيويورك لأعرف أخباره قال إنه قادم فى اليوم التالى إلى نيويورك فى «مهمة عمل».. والعمل هو تصوير فيلم سينمائى يقوم بانتاجه بالمشاركة مع أنتونى كوين، الذى هو ايضا بطل الفيلم. إذن نلتقى غدا.. وفى نيويورك.حينما التقينا أصبحنا ثلاثة: أنتونى كوين وصديقنا المشترك – مصرى الأصل – وأنا. فى البداية قال الصديق: أريد أن أعرفك بأنتونى كوين الذى..

قاطعته ضاحكا ومتوجها بحديثى إلى أنتونى كوين قائلا: مستر كوين.. دعنى أقدم نفسى إليك أولا: أنا كاتب ناشىء من مصر وموجود فى نيويورك بحكم الضرورة وجئت اليوم بدعوة من صديقى

فؤاد هذا لكي أتعرف إليك عن قرب.. إن لم يكن لسبب فلأني ساهمت بما يعادل ربع دولار في نجاح فيلم «زوربا اليوناني» بمصر ارجو أن تكون الشركة المنتجة للفيلم قد ذكرت لك هذا الربع دولار في فاتورة أجرك..

انفجر أنتوني كوين ضاحكا مما دفع الجالسين إلى بعض الموائد القريبة منا إلى الالتفات نحونا.. وفجأة توقف عن الضحك لكي يكتسي وجهه بتعبير مضاد تماما. تعبير من التجهم والجدية المفاجئة.. لقد سألني: هل قلت إنك كاتب؟ أجبته مصححا: نعم كاتب. لكني قلت أيضا أنني كاتب ناشيء.

رد أنتوني كوين: لا يهم ناشيء أو غير ناشيء هذه دعابة لا يقولها كاتب ناشيء حقا.. إنني أحسدك..

الآن جاء دوري في الاندهاش: تحسدني لأنني ناشيء؟ - لا.. لا.. احسدك لأنك كاتب.. هناك ملايين من الناس يعرفون أنني أنا - أنتوني كوين - ربما أكون ممثلا جيدا أو مشهوراً، لكن ما لا يعرفه أحد هو أن طموحي الأساسي هو أن أكون كاتبا. صدقني هذه الحياة التي نعيشها فيها قوانين خفية تستعصي على الفهم.. الناس جميعا يرونني ناجحا ومشهوراً وثريا. مع ذلك فأنا الوحيد الذي يعرف أنني ما أزال فقيرا لسبب بسيط. هو أنني كنت أريد أصلا أن أصبح كاتبا.. أصبح مؤلفا.. بل إنني في سنوات فقري المدقع وفرت دولاراتي القليلة لكي ألتحق بمدرسة خاصة لتعلم مهنة الكتابة والتأليف.. أربعون دولارا كاملة دفعتها من طعامي وقتها حتى أحقق هذا الحلم. في النهاية قالوا لي في المدرسة. لا حل.. دعك من حكاية الكتابة والتأليف وابحث لنفسك عن مهنة أخرى.

قلت له: مستر كوين.. أنت الآن ممثل ناجح وأفلامك رائجة بمستوى العالم. مع ذلك مازلت تتكلم عن حلم مضى، وبحرارة. ألم يعوضك نجاحك السينمائي كممثل عن فشل أحد أحلامك المبكرة؟

تكهرب وجه أنتوني كوين من جديد وبدأ يتحدث في المطلق كما لو أنه يناجي نفسه. قال: الفارق الأساسي هو أن الممثل يعزف لحنا وضعه موسيقار. الكاتب هو الموسيقار. هو المؤلف. أنا كممثل خياراتي محدودة في الأدوار التي أقوم بها على الشاشة أو في المسرح. وفي نهاية المطاف أنا محكوم برؤية المؤلف وفي الغالب أقبل كممثل أداء أدوار قد لا أكون مؤمنا بها لمجرد أن لدى أسرة ونفقات وأعباء مالية لن تنتظر حتى أخترع لنفسي الدور الذى أريد.. هذه هي هوليود.. هي السينما.

سكت أنتوني كوين لحظة قبل أن يضيف: ربما تراني أنت على الشاشة بطلا.. لكنني في الحقيقة كومبارس. عبد. أنا عبد للاستوديو وللشركة المنتجة ولشركة التسويق والتوزيع.

أمـا المؤلف، الكاتب، فشـيء آخر تماما. الكاتب المؤلف هو الفنـان الأصلي. أنا وغيرى نعزف فقط اللحـن الـذى وضعه هو وحتى الآن لايـزال الجزء الحقيقى فى داخلى هو أن اؤلف لنفسـى. أكتب لنفسى، ألا تعتقد أن هذا من حقى؟

– هذا سؤال متأخر يا مستر أنتونى كوين.

– قل لى تونى من فضلك.

– حسنا يا تونى. لكن ألا تدرك يا مستر أنتونى كوين أن الطعام والغداء تأخر كثيرا؟ أخشى أن هذا المطعم سيطردنا فى النهاية لأننا تجاوزنا موعد تقديم الغداء.

قـال أنتونـى كويـن بكبرياء: اطمئـن. لا أحد فى نيويـورك كلها يجرؤ علـى أن يرفض طلبا لأنتونى كوين.

قلت ضاحكا: هذه على الأقل ميزة كبرى للتمثيل والسينما والنجومية يجب ألا نضيعها.

طوال الأسـابيع الثلاثة التالية أصبحنا شـبه متلازمين – أنتونى كويـن وصديقى فؤاد وأنا – فباسـتثناء سـاعات تصوير الفيلم – وهو رقم مائة وخمسـة فى حياة أنتونى كوين السـينمائية – أصبحت فى حالة غوص يومية فى أفكار مسـتر زوربا. أقصد أنتونى كوين. ومع أننى لسـت غريبا تمامـا عن المجتمع الفنى إلا أنه من النادر أن تجد فى شـخصية ممثلـة أو ممثل ما يتجاوز الأدوار المرسـومة على الشاشة. وحتى فى اللحظات التى يقول فيها الممثل هنا جملة مفيدة.. غالبا ما تكون اقتباسا واعيا أو غير واع من سطور شخصية سابقة له على الشاشة.أنتونى كوين هنا استثناء مدهش. هذا انسـان يقرأ ويستمع ويناقش ويفهم ويتسـاءل ويندهش ويعيش حياته.. بالطول والعرض. فى بعض اللحظات نحن داخل الفندق. وفى لحظات أخرى على الرصيف. أحيانا نأكل السـيمون فيميه وأحيانا نأكل الفشار. غالبا يقرأ سؤالى قبل أن أنطقه والأكثر هو أنه يتمتع بروح من الفكاهة أقرب إلى الروح الشـرقية.هذا طبيعى لأن أنتونى كوين نفسـه من أصل مكسـيكى عن طريق الأم ونصف ايرلندى عن طريق الأب. والأب ذاته خرج من قاع الفقر لكى يطفو بين وقت وآخر على سطح الحياة فى وظيفة تسـمح له بالكاد أن يسد رمق أسرته. هذا يعنى أن الفقر بالنسبة لأنتونى كوين كان أكثر من مجرد كلمة. الفقر شبح وكابوس وشيطان ظل يطارده طوال الأربعين سنة الأولى من حياته على الأقل.وذات ليل، وعلى الرصيف، قال لى انتونى كوين ببسـاطة: فى النصف الأول من حياتى كان الواقع يلاكمنى. والآن فى النصف الثانى من حياتى أنا الذى ألاكمه. لقد عملت ماسح أحذية ونجارا وكهربائيا وجزارا وسائق تاكسى وترزيا وعامل أسمنت وملاكما محترفا ضمن دستة مهن أخرى.

قلت له: لكنك الآن ترسم وتنحت وتسافر وتكتب لنفسك إلى جانب التمثيل.

– نعم. نعم. لكن كل هذا بفلوسى. بالفلوس يستطيع الإنسان أن يحصل على أشياء كثيرة مفيدة. وهو ما لا يدركه أحيانا أصحاب الفلوس أنفسهم.

سألته: قل لى بالمناسبة.. لماذا تمثل؟

توقف أنتونى كوين فجأة وأمسك ذقنه بيده اليمنى وهو يتطلع إلى مبتسما: سوف أعطيك ثلاثين ثانية لتفكر فى سؤال أفضل.

– هذا هو سؤالى الأفضل: لماذا تمثل؟ أطرق أنتونى كوين قليلا، وصمت لحظة، واستأنف السير فى حديقة «البارك» معى للحظات أخرى قبل أن يجيب: أولا: لأننى أحب جدتى جدا جدا وهى كان من أحلامها أن ترانى ممثلا على الشاشة. وثانيا: لأن التمثيل يتيح لى شخصيات أتقمصها ربما تقول للناس شيئا مفيدا.

– وهل قلت للناس شيئا مفيدا؟

– ليس فى البداية. لقد بدأت أولا ككومبارس فى أحد أفلام المخرج الكبير الراحل سيسيل دى ميل. وحينما بدأت أقف على قدمى أصبح هذا يعنى أدواراً ثالثة أو رابعة فى أفلام هى بذاتها درجة خامسة. أدوار كانت تنتهى دائما بموتى على الشاشة. وفى بعض اللحظات وصل بى الإحباط إلى درجة أننى تصورت أنه لو قدر لى فى نهاية المطاف أن أخرج من هوليود بنصف عقل فسوف تكون تلك نعمة كبرى من الله

– لكنك حصلت على جائزة الأوسكار مرتين عن دوريك فى فيلمى «فيفا زاباتا» و«شهوة الحياة».

– آه.. آه.. لقد كان فيلم «فيفا زاباتا» هو نقطة التحول الكبرى فى حياتى السينمائية فعلا. بعده فقط بدأت هوليود تعاملنى كنجم. حتى ذلك الفيلم كانت حياتى سلسلة من البدايات الزائفة. كل بيت عشت فيه لم يكن هو أبدا البيت الأخير. كل علاقة كانت مجرد مقدمة لعلاقة أخرى. وحتى كل سيناريو كنت أنظر اليه على أنه مجرد خطوة نحو سيناريو آخر انتظره على أحر من الجمر. فيلم «فيفا زاباتا» مع مارلون براندو كان هو البداية الصحيحة بعد طول تعب وانتظار.

– والآن مازلت تتحسر لأنك لم تصبح كاتبا؟

– نعم. نعم. السبب بسيط: أعطنى مؤلفا جيدا.. وأنا أغير لك العالم.

من الغريب أننى لم أكن أحس بالمفاجأة فى معظم اجابات أنتونى كوين. فحتى لو كان هذا الفيلم الذى عاصرت تصويره معه فى نيويورك هو فيلمه الخامس بعد المائة.. إلا أن أداءه التمثيلى يكاد أحيانا يتساوى مع الأعماق التى رسمها المؤلفون لشخصياتهم. فيلم «الزيارة» مثلا مع انجريد بيرجمان عن قصة الأديب السويسرى دورينمات. فيلم «أحدب نوتردام» مع جينا لولو بريجيدا عن قصة الأديب الفرنسى فيكتور هوجو. فيلم زوربا اليونانى مع ايرين باباس عن قصة الأديب اليونانى نيكوس كازانتزاكيس. فيلم..

انتشلني أنتوني كوين من حالة السرحان بسؤال مفاجيء: بماذا تفسر ذلك النجاح الهائل الذى حققــه فيلم زوربا اليونانى فى أنحاء العالم؟ قلت له: لعمقه الانســانى. نحن أمام مثقف بريطانى أصبــح وريثا لأحد المناجم. وفــى طريقه إلى هناك وقع تحت تأثير زوربا، ذلك المتشــرد المحاصر بين متطلبات الروح ونداء الجســد. إنه يمتص لنفســه أكبر قدر من السعادة من اللحظة الراهنة فى الواقع الراهن. والفلوس عنده وسيلة لإسعاد نفسه واسعاد الآخرين. فى الواقع ان كازانتزاكيس رسم شخصياته فى الرواية بكل انسانية.

– آه.. آه هذا الأديب اليونانى العظيم. لقد التهمت كل كتبه قبل أن أبدأ بتمثيل فيلم زوربا. هل تعرف أننى الآن أحلم بإعادة تمثيل زوربا من جديد. الآن لم أعد احتاج إلى أن أصبغ شعرى باللون الأبيض.. والآن تضاعفت خبراتى بالحياة وبالبشر وبالمأزق الانسانى فى حياة كل منا.

قلت له: إننى أحيانا أتساءل هل أفلام مثل زوربا تعبر عن هوليود أو هى استثناء فيها؟

– هــى اســتثناء. مؤكد. هى اســتثناء. وفكرة تحويل القصــة إلى فيلم جاءت أصــلا من أيرين بابــاس والمخرج اليونانى الشــاب ميخائيــل كوكايانيس.. أما هوليود فهى مجرد الاســتوديوهات والتكنولوجيا والابهار.

– غريب أن اسمع هذا من شخص مدين بنجاحه لهوليود.

– لا.. لا.. أنا مدين بنجاحي لنفســى أولا. لإصرارى على رفض الهزيمة. هوليود مدينة مليئة بالنفاق. المثلون فقدوا صلتهم بإنســانيتهم. بالمعنى الانســانى للحياة. بالغضب الحقيقى أو بالحب الحقيقى. فقدوا صلتهم بالسعادة البسيطة أو بالخوف الإنسانى أو بالبساطة التلقائية.

– ولكن هوليود تقود صناعة السينما العالمية.

– تقودها بالتكنولوجيا لا أكثر ولا أقل. هل تعرف مثلا أننى كنت أزداد انســانية مع كل طفل أنجبــه. والآن بعد أن انجبتهم (كانوا ســبعة وقتها وفيما بعــد أصبحوا ١٣) فإن نصف همى هو أن أحميهــم مــن التأثيرات الضارة لبعض أفلام ومسلســلات هوليود.. فبكل هــذا العنف فى الأفلام.. والمخدرات.. والتدخين.. والجريمة.. لا يمكن الاطمئنان إلى وجود شــباب متوازن نفسيا ومتماسك إنسانيا..

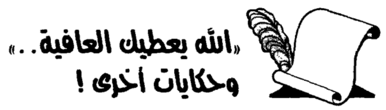
– ومن أين يبدأ العلاج؟

– مــن الصحــوة. من الالحاح على هوليــود بعقدة فيتنام. نحن ذهبنا إلــى فيتنام بنصف مليون مــن جنودنا. وقصفنــا ودمرنا فيتنام بكاملها لمجــرد ارغامهم على تقبل نظرتنــا نحن للحياة. لقد أدركنا، ولكن بعد تكاليف باهظة وتضحيات جسيمة، أن الشعب الفيتنامى ليس شعبا من الأبالسة والشــياطين. هو شــعب من الفلاحين الفقراء المعتزين بكرامتهم والمتمسكين بأرضهم والمدافعين عن

استقلالهم. فقط هم متمسكون بحقهم في أن تكون لهم قيم أخرى. قيم لا علاقة لها بالأيديولوجيا ولا بلعبة الأمم. قيم تتعارض مع الفردية الشديدة التى نجحت هنا - فى امريكا - ولكنها غير مضمونة النجاح بنفس القدر فى أماكن أخرى من العالم.ثم سكت أنتونى كوين قبل أن يضيف: الأسلوب الأمريكى فى صناعة السينما هو كالأسلوب الأمريكى فى حرب فيتنام. انفاق ضخم فى غير موضعه. أعمال مربحة وتسخير للتكنولوجيا ولكن مع الابتعاد عن الواقع الانسانى.

هكذا تلاحقت الحوارات مع أنتونى كوين. إنه «تونى» كما يحب أن أناديه. وهو زوربا كما التصق فى ذهنى. إنه مقتنع بأن التكنولوجيا مهمة ولابد منها. ولكن البعد الانسانى أيضا لا يقل أهمية. وهو مستعد للعب فى هوليود بقواعدها. لكنه فى أول فرصة للاستقلال لا يضيع وقته. وهو يحب الأموال - وبالملايين حيثما أمكن - ولكن باعتبارها وسيلة للسعادة وليست السعادة ذاتها. وهو يريد السعادة لكن بالتفاعل مع الآخرين وليس بالانفصال عنهم. وهو لم يعد ذلك الشاب مفتول العضلات الذى يحمل مسدسه ويقتحم البار - فأفلام هوليود تعشق البارات - لكى يطرد الأشرار. ولكنه فى الخمسين والستين والسبعين من العمر (الآن تجاوز الثمانين) يستطيع أن يطرح على الشاشة شخصيات انسانية بعمق زوربا وبفقر المكسيكى سانشيز أو حتى نقيضه المليارديرِ اليونانى أوناسيس أو.. أو..لقد طويت أوراقى مع أنتونى كوين. أوراق عن تلك الأسابيع الثلاثة التى جمعتنى به ذات صيف فى نيويورك. علاقة إنسانية عاد بعدها كل منا إلى عالمه الخاص وآماله المتقاطعة.وفى بعض اللحظات كان أنتونى كوين يقطع حواراتنا لكى يقول لى متأملا: إنك تذكرنى بشبابى. فى الواقع إننى حتى الآن لست متأكدا هل كان بقوله هذا يقصد الإطراء أو عكسه.. يبشرنى بالعذاب.. أو بالمتعة. لقد تابعت أخباره فيما بعد، وهو يتزوج فى الثمانين للمرة الثالثة، أو وهو يحلم بتمثيل شخصيات مثل الرسام بيكاسو أو الروائى تولستوى، أقول معه: هذا إنسان يعيش حياته بالطول والعرض. إنسان يؤمن بأن الحياة جميلة حين نحياها.. ولكن بشرط الاحتفاظ دائما بالبوصلة الصحيحة. بعدها فقط نستطيع أن نقول: إن أجمل الأيام كان.... غدا.

□□□



«الله يعطيك العافية..» وحكايات أخرى !

كنا نقترب من الحدود اللبنانية مع سوريا. والأجواء السياسية مكهربة، فهى ذروة الحرب الأهلية فى لبنان. أما الأجواء الطبيعية فزمهرير.. كل منا داخل السيارة يتمنى لو أصبح داخل موتور السيارة ذاته حماية من البرد والثلوج. وعند نقطة الحدود توقفت سيارتنا بينما جندى الحراسة داخل المركز الحدودى يشير إلينا فيما بدا أنه يلوح لنا بالمرور. هكذا بدأ السائق ينطلق. وخلال لحظات أحاطت بنا طلقات الرصاص من كل جانب مما أصابنا جميعا بصاعقة.

قدم نحونا جندى الحدود عصبيا وهائجا وهو يصيح فى السائق بغضب: أنا أعيط عليك.. أعيط عليك.. كيف ما توقف؟

تلعثم السائق قائلا بارتباك واعتذار: ما فهمت عليك.. سامحنى يا أخى.. اليوم ما أخدت ترويقة..

لكنى وجدت نفسى أقول لجندى الحدود باندهاش: ولماذا يا أخى تعيط عليه؟ أحنا هنا فى جنازة؟

بعدها اتضحت المفارقة الكبري. فباللهجة المصرية فإن «العياط» هو البكاء. أما فى اللهجة السورية فالعياط هو المناداة، أو الزعيق، أو الصراخ. ومن تلك المفارقة أفرغ جندى الحدود نصف مدفعه الرشاش إنذاراً للسائق بالتوقف فورا.

ومن تلك المفارقة تعلقت حياتنا للحظات بين الجبل والقبر.

□□□

وفى الصحف السعودية لفت نظرى انتشار نوع من الإعلانات، وبكثرة، من النموذج التالى: «للتقبيل» من الساعة ٦ الى الساعة ٨ يوميا. هاتف.... أو: مطلوب للتقبيل: ويفضل عرض مميز. للمفاهمة: هاتف .... أو: للتقبيل: خصوصا العائلات. الديكور جديد. والهاتف.. وهكذا. مع أول صديق سعودى زارنى فى القاهرة انطلق سؤالى: كل هذه الإعلانات؟ للتقبيل؟ وفى السعودية؟. ضحك الصديق السعودى بشدة وهو يشرح لى الأمر قائلا: عندنا التقبيل/ معناه البيع.

فهي اذن عروض إعلانية للبيع. بيع أماكن وعقارات يجرى البحث لها عن مشترين من خلال الإعلانات.

□□□

وفى القاهرة فوجىء صديقى الطبيب بشخص يدخل إليه عيادته صارخا: دكتور.. الحقنى. أنا اتنشلت..

رد عليه الطبيب باستغراب: وأنا مالي يا أخي.. بلغ البوليس..

لكن المفارقة اتضحت حينما تبين لصديقى الطبيب أن زائره هذا عراقى.

وباللهجة العراقية فإن «اتنشلت» تعنى «أصبت بنوبة برد»، أما باللهجة المصرية فهى تعنى «اتسرقت».

□□□

وفى المغرب كنا مدعوين ذات ليلة فى قصر فخم ضخم.صاحب القصر يحب الغناء والموسيقى وفى تلك الليلة أصبح الفنانون الزائرون ضيوفه، وأنا جالس وسط ساندويتش من الموسيقار محمد عبدالوهاب والمطرب عبدالحليم حافظ. بعد قليل طلب الداعى من فريد الأطرش الغناء. ورحب فريد بحرارة خصوصا وأن الداعى صاحب القصر سيقود له الفرقة الموسيقية.

بمجرد أن انتهى فريد الأطرش من الغناء اتجه إليه صاحب القصر ليشكره بحرارة قائلا: يا أخ فريد أنت أبدعت..

رد فريد الأطرش بتلقائية: أبداً والله.. ده مجرد إن سموك حساس جدا..

فى تلك اللحظة امتقع وجه صاحب القصر تماما وركبه سهم الله بينما فريد الأطرش ليس واعيا بالمرة بما جرى. ونظرت إلى محمد عبدالوهاب على يمينى فوجدته يكاد يصبح تحت الكرسى. تطلعت إلى عبدالحليم حافظ إلى يسارى فوجدته يتظاهر بأنه.. ولا هنا.. متشاغلا بحديث هامس مع بليغ حمدى. وللحظات قليلة مرت كأنها دهر بكامله.. خيم علينا الصمت المطبق.. إلى أن أشار صاحب الدعوة إلى فريد الأطرش قائلا بتماسك: تفضل يا أخ فريد.. اجلس.. تفضل..

فى سيارة العودة شرح لى محمد عبدالوهاب الموقف. فكلمة «حساس» فى لهجتنا المعتادة تعنى اطراء. بينما فى اللهجة المغربية تقال عن شخص شاذ. وليلتها لم يسلم فريد الأطرش من مداعبة عبدالوهاب: الله يجازيك يا فريد.. تقول للراجل إنه حساس؟ وكمان.. حساس جدا؟ هاهاها..

□□□

وفى السعودية هناك شخصيات وعائلات كبيرة ومحترمة اسمها أو لقبها الزامل، فى مصر أيضا أشخاص وعائلات لقبها «الطحان» لكن جرب أن تذهب الى تونس لتقول إن اسمك صلاح الزامل أو

سـيد الطحان. لحظتها ستكون المفاجأة الكبرى من نصيب الطرف التونسى. فكلمة «الزامل» دلالتها التونسية سيئة. وكلمة «الطحان» أسوأ وأسوأ.

حالة عكسـية: فى تونس مثلا هناك أشـخاص وعائلات لقبها «عكروت» وفى اللهجة المصرية كلمة «عكروت» تقال شـعبيا عن شخص «مدردح». يلعب بالبيضة والحجر، لكن.. اذهب إلى لبنان وقل للبناني: أنت رجل عكروت. بعدها جهز نفسـك لموال شـامى من الشتائم المنتقاة.. لأنه اعتبر أنك شتمته، بشدة، وهو بالتالى لن يكون أقل سخاء وكرما.

أو: جرب أن تذهب إلى سـوريا وتطلب قوطة.. طماطم ـ مثلا. ستكتشـف ثانياً أن الطماطم فى اللهجة الشامية اسمها «بنادوره». لكن قبل ذلك ستكتشف أولا أن كلمة «قوطة» فى اللهجة الشامية كلمة إباحية جدا.. جدا.

وفى مصر أستطيع مثلا أن أطلب الجمبرى. لكن إذا ذهبت الى الخليج فاسمه «روبيان» فى سوريا اسـمه «قريدس» فى تونس اسـمه «تريلية» تاء راء ياء. لام. ياء. تاء. مربوطة. فإذا وجدت النطق صعبا وناقصك تمرين إذن ابعد وخليك فى المضمون واطلب البديل التالى: حوت. ففى غياب الجمبرى يحب التونسيون أكل الحوت – يعنى: السمك.

فإذا راحت نفسك للبطيخ وأنت فى السعودية مثلا.. إذن اطلب: حبحب. أما إذا كنت فى تونس فقل: دلاع. وفى سوريا قل: جبس: لا.. لا.. ليس الجبس المعروف فى اللهجة المصرية وتجده عند مقاولى المبانى. لكنه «البطيخ» بالسورى.

والسـورى فـى مجاملاته العادية يمكن أن يقول لك: الله يعطيـك العافية، بما يعنى الله ينعم عليك بالصحة. أما لو قالها سورى لشخص فى تونس فسيحدث شيئان. أولا – سيرد عليه التونسى بغضب: الله يحرق باباك. ثانيا – إذا كان هذا التونسـى صاحب نفوذ فسـتقرأ فى اليوم التالى عن شكوى أمام الأمين العام لجامعة الدول العربية. تونس تحتج يا إخوان. كيف يتمنى سورى لتونسى العافية؟ إنن هو يتمنى له النار. يعنى جهنم.. أعوذ بالله وبالعروبة.

وفـى مصـر نقول عن الخبز إنه عيش. فـى اليمن هو خبز. وفى الكويت: مرقاق. فى سـوريا: مرقوق. فى العراق هو: صمون (صاد. ميم مشددة مرفوعة. واو. نون). وفى مرة كنا مجموعة أصدقاء عرب فى مطعم بتونس. فى البداية طلب أحدنا من الجرسون طحينة. يعنى: سلاطة طحينة. رمقه الجرسـون شذرا ولم يرد. بعد قليل ناداه أخونا الكويتى من جديد وقال له معاتبا: يا أخى.. طلبت منك سابقا طحينة ولم تأت بها الآن هات لنا طحينة.. وصمون.

عند هذا الحد قذف الجرسـون بالفوطة من يده الى الأرض وصاح غاضبا بمجموع كلمات لا نفهم مفرداتها ولكننا اجتهدنا لكى نفهمها بمضمونها. والمضمون هو أن الرجل يزمجر ويغضب لكرامته

الجريحة والمهانة. وبعد وساطة مصرية بين إخواننا في الكويت وإخواننا في تونس طلعت العروبة بريئــة. الحكاية ان «طحينة» في تونس لفظ من اختصاص شــرطة الآداب وصمون لفظ من اختصاص سجون الآداب.

❑❑❑

وأحيانا تطلب شيئا من شخص عراقي فيكون رده: تتدلل. أما المصري فيقول لك: تؤمر والمغربي يقول لك: على راســي. أما الســعودي فيقول لك: على خاشمي. و«الخاشم» هنا هو الأنف، وهي من الأنفة، أو العظمة، فالأنف عند الســعودي رمز للعزة، وإذا قال لك «على خاشــمي» فهو يجاملك.. وبشدة.

طبعا هذا حديث رجال. أما لو دخلت المرأة فخذ عندك. التونســية تقول لك: باهي. فإذا قالت لك العراقية «تتدلل» إذن انسى الكويت.

وإذا قالت لك السورية «تقبرني».. انن أعطها فرصة تقرأ لنزار قباني. هل هناك أحد يفتح سيرة القبور ومشــتقاتها في إطار الغزل؟ وإذا قالت لك اللبنانية «تكــرم» أو: «كرمال الله» هذا يعني أن عليك أن تنســى العروبة وتفكر في فرنسا فالخط مفتوح ومباشر على فرنسا.. صوت وصورة وتلحين ذاتي.. و«فيفا فرانس».. والعروبة بالها طويل. ستقدر موقفك.

❑❑❑

بالطبع فرنســا سابقا احتلت الشام «سوريا ولبنان» والمغرب «تونس والمغرب والجزائر» وإيطاليا احتلــت ليبيا وبريطانيــا احتلت مصر والســودان والعراق والأردن وفلســطين والخليج حتى عدن. والحائط الدفاعي الأول في كل حالة كان هو اللغة العربية.. التاريخ والجغرافيا..

وإذا كنا قد تجولنا لبعض الوقت في هذا المقال مع مفارقات اللهجات المحلية في البلاد العربية فــإن المفارقات تطــول وتنقلب أحيانا من الطرافــة إلى الهم والغم، ولكن هذا كلــه يظل مدخلا إلى المفارقة الأكبر والأخطر في الموضوع كله. ففي الشمال هم انطلقوا من لغات متعددة إلى الوحدة. ونحن انطلقنا من لغة واحدة إلى التمزق.

الآن يبدأ الحديث الجاد. فالســوق العربية المشــتركة مثلا فكرة هائلة انطلقت عندنا في العالم العربي من قبل أن تتحدث أوروبا عن الســوق الأوروبية المشــتركة لكي يعدلوا اسمها إلى «الاتحاد الأوروبي» ونحن انطلقنا من دول منفصلة الى دول أكثر انفصالا.. تجمع بينها لغة مشتركة.

و«الاتحــاد الأوروبي» يضم الآن ١٥ دولة أوروبية (تتزايد مع الوقت) ومؤسســات هذا الاتحاد لها ميزانية سنوية تساهم بها الدول الأعضاء سنويا وبانتظام.. ثلاثة أرباع الميزانية تذهب فقط إلى أعمــال الترجمة. فبحكم الاتفاق يجب ترجمة كل أعمال «الاتحاد الاوروبي» ومداولاته واجتماعاته

إلى أحد عشـرة لغة منفصلة.. هى لغات الدول الأعضاء. وهم يترجمون.. ويجتمعون.. ويتحملون.. حتى يحققوا فى النهاية المصلحة المشتركة.

والله أعطانا ميزة كبرى هى اللغة العربية.. لغة مكتوبة ومقروءة من المحيط إلى الخليج بلا مترجم، يعنى لغة تربط الآن بين مائتين وثمانين مليون عربي. هذه ميزة كبرى ليست متوفرة حتى للولايات المتحدة، وهى القوة العظمى المنفردة حاليا بمستوى العالم. فمع أن اللغة الإنجليزية سائدة بين تسعين بالمائة من الشعب الأمريكى إلا أنها حتى الآن لا تمثل اللغة الرسمية المتفق عليها. وفى السنوات الأخيرة فقط بدأ أعضاء فى الكونجرس الأمريكى يروجون لفكرة إصدار قانون يجعل اللغة الإنجليزية لغة رسمية للمجتمع الأمريكى. فى البداية كانت هناك معارضة قوية لهذا الاتجاه.. على أساس أن التنويع العرقى واللغوى كان جزءا من حيوية المجتمع الأمريكى. لكن الأمريكيين بدأوا يكتشفون مؤخرا أن اللغة الواحدة هى بالأساس مصدر قوة واندماج وتفاعل وانصهار بين أفراد المجتمع.

فى مقابل ذلك فإن الفرنسيين (والألمان أيضا) هم أكثر اعتزازا بلغتهم وأشد حرصا على حمايتها من تسلل الكلمات والمصطلحات الأجنبية، فى الواقع أن مصر حينما أقامت قبل عقود مجمع اللغة العربية كانت تتطلع إلى فوائد مماثلة كالتى استهدفتها فرنسا حينما بادرت إلى إقامة مجمع أكاديمى لحماية لغتها الفرنسية.

وحماية اللغة الوطنية والقومية لا تعنى بالمرة عداء للغات الأخرى أو خصاما معها. بالعكس. يجب أن يكون الاهتمام كبيرا بتعلم اللغات الأجنبية. ليس فقط من قبيل «من تعلم لغة قوم أمن شرورهم».. ولكن أيضا من قبيل أن تعلم اللغة الأجنبية هو باب إضافى إلى المزيد من المعرفة.

المسألة فقط هى أن تظل للغة الوطنية والقومية كرامتها الخاصة وسموها الخاص داخل بلدها، وتظل لها أيضا وظيفتها الحيوية كرابط ثقافى وحضارى وتأكيد للشخصية المتميزة. والزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول مثلا أقام أزمة فى عهده مع شركة هيلتون الأمريكية لادارة الفنادق. كانت الشركة تريد أن تسمى فندقها فى باريس «هيلتون دى باريس» ولكن ديجول أصر على أن يكون الاسم هو «باريس هيلتون» وقتها قال البعض إن هذه التفصيلة الصغيرة لا تعنى شيئا سوى عنجهية فرنسية فارغة.لكن ديجول كان يراها جزءا من إعلائه لفرنسا والفرنسية.. داخل عاصمتها.

والآن لننظر معا إلى إعلامنا العربى ككل. لندقق مثلا فى الإعلانات التليفزيونية والصحفية. فى أسماء الشركات. فى لافتات المحلات. بل حتى فى ملابس الصغار والصغيرات. أسماء وكلمات ومصطلحات بالإنجليزية غالبا وبالفرنسية أحيانا بدأت تعود إلى السيادة فى حياتنا اليومية..

وكأن التفرنج هنا أصبح أقصر الطرق إلى الموضة والعصرية.

غير صحيح. فباللسان العربى انفتح العرب فى لحظات قوتهم سابقا على الآخرين وأعطوهم حضارة. وبهذا اللسان العربى ذاته احتمى العرب فى لحظات انكماشهم وتمدد الآخرون. فى

الحالتين كان الفارق بين التقدم والتأخر هو المعرفة. العلم. التكنولوجيا. فى القرن الثانى عشر جاءت أوروبا إلى العالم العربى مستعمرة باعتبارها قوة بحرية فى مواجهة العرب كقوة برية. لكن العرب أحسنوا تنظيم ما فى أيديهم، وعوضوا بسرعة ما تخلفوا فيه عن الآخرين.. فهزموا الحروب الصليبية.

فى القرن الثامن عشر جاءت أوروبا من جديد. وهى فى هذه المرة سبقت العرب إلى عصر البخار. وحينما واجه نابليون بونابرت وجيشه المصريين وجيشهم فى سنة ١٧٩٨ لم تكن المواجهة بين شجاعة وجبن أو كثرة وقلة. كانت مواجهة بين المدفع والحصان. أى أنه فارق فى التكنولوجيا. من هنا جاءت الهزيمة.

لكن خلال أقل من جيل واحد، جيل واحد فقط، أفاق المصريون من سباتهم وعوضوا بسرعة فارق التكنولوجيا بينهم وبين أوروبا، ولم يجدوا غضاضة فى استخدام الأوروبيين أنفسهم أو التعلم من أوروبا لاختصار الطريق والزمن. هكذا أصبحت مصر الدولة المهزومة فى سنة ١٧٩٨ هى بذاتها الدولة التى تدق أبواب تركيا فى سنة ١٨٣١.

والتاريخ لا يتقدم غالبا فى خطوط مستقيمة. التاريخ يسلك أحيانا طرقا متعرجة. لكن عبرة التاريخ فى النهاية تظل هى نفسها: إن من ينسحب من العصر سيدوسه العصر، ومن يتراجع عن المعرفة، وسباق المعرفة، سيحكم على نفسه مسبقاً بأن يكون ملعوبا به.. بدل أن يصبح لاعبا.

هذا يعيدنا من جديد إلى اللسان العربي. إلى اللغة العربية. هناك لهجات محلية داخل الوطن العربى تتقاطع أحيانا مع بعضها البعض. بل إن هناك أحيانا لهجات فرعية داخل اللهجة المحلية الواحدة، عندك مثلا المنطقة الشرقية والمنطقة الوسطى فى السعودية أو الصعيد والمدن الساحلية فى مصر. أو جنوب وشمال السودان.. الخ.

واللغة العربية هى جسرنا الأساسى فوق هذا كله. هى رابطنا المشترك. دعك من البطيخ والدلاع. أو السمك والحوت. أو العيش والمرقوق. الحياة تمضى بمثل هذا وتستمد منه بعض ابتساماتها.

لكن لا تمضى الحياة – أو بالدقة: ما نريده من حياة ـ بأن نفرط فى سلاح أساسى أعطاه الله لنا كمصدر قوة، فهذه القوة التاريخية لحسابنا، ومن نصيبنا، وتجعلنا أقرب إلى بعضنا بأكثر مما نتصور.

وفى السابق قال الزعيم البريطانى ونستون تشرشل: نحن والولايات المتحدة شعبان حليفان تفصل بينهما لغة مشتركة. بالطبع كان تشرشل يقولها مازحا وساخرا فى المرات التى اختلفت فيها سياسته مع الولايات المتحدة.

الآن نريد أن نقول بجدية وبالعربى الفصيح: نحن ٢١ بلدا عربيا تجمع بينها لغة مشتركة. نعمة لا بأس بها.. كبداية.



قضية كل جيل..
وسؤال كل عصر

الكتب كالنســاء.. قليلها يستمر عطره معك بعد انصرافه. والكتب فيها من صفات النساء. هناك نساء تغلق عينيك حتى تراها وكتب تغلق عينيك وتفتح عقلك حتى تستوعبها. وكما أن هناك امرأة تذكرها بنوعها، فهى ككل النساء، هناك امرأة تذكرها بتميزها وتفردها. كذلك الكتب. هناك كتاب فيه كل شــىء من ملامح الكتب وليس أكثر. وهناك كتاب فيه، غير ملامح الكتب، صفات كاســحة الألغام.. فهو يطهر أمامك أرضا خطرة ويضيف إليك شجاعة لازمة.

هناك امرأة تحرك خيالك. تستثير غرائزك. فى الكتب أيضا القليل مما يضىء عقلك والكثير مما يقتحم حواســك. وهناك امرأة تكتفى من العصر بقشوره.. وأخرى تضيف إلى العصر لمسات تنقصه. كذلك فى الكتب.

هناك كتاب اســتوفى كل حيثيات الكتاب العصرى، غلافا وطباعة وإخراجا، لكن لا شــى أكثر. وهناك كتاب يدفعك إلى اقتحام العصر لكى تعيشه بندية وعقل مفتوح ورأس مرفوعة.

هنــاك امرأة متفرنجة حتــى ولو لم ترتد قبعة. وكتب لا هدف منها ســوى أن تضع على عقلك قبعــة. هنــاك امرأة تحس بأنها أضافت إلــى جمال الدنيا، وأخرى تحس بأنها عبء على ســخاء الطبيعة. فى الكتب أيضا ما يكشــف لك عن مصادر قوة كانت غائبة عنك، وكتب تشــدك إلى واقع قبيح لتجعلك جزءا منه، وبدلا من أن تخرج من قراءة الكتاب وأنت مؤمن بقدرتك على تغيير العالم من حولك.. تفاجأ بأنها تريدك أكثر استسلاما وخنوعا لكل ما فى حياتنا من نواقص.

ثم نأتى - اختصارا - إلى الحظ، أو النصيب، أو لعبة القدر.. حســب التســمية التى تختارها. هناك امرأة يصنعها حظها، وأخرى هى التى تصنع حظها. وفى الكتب أيضا شىء من ذلك. بل فيها أحيانا الكثير من ذلك.

ولأننى لا أريد هنا أن اتحدث عن النســاء.. ولكن عن الكتب.. فإننى ســأتوقف فقط عند تجربة ذاتية تصورت نفسى محركها فإذا بها تجعلنى مجرد الشاهد عليها. ومع أن الكتاب يؤلفون كتبهم على هواهم وحسب مشيئتهم.. إلا أننى فى هذه التجربة وجدت الكتاب - وأنا مؤلفه - يشدنى على

هواه ويسحبني إلى حياته الخاصة التي انفصلت عني تماما. وحتى الآن، برغم سنوات وسنوات، أجد هذا الكتاب يفاجئني حيث لا أتوقع ويدهشني حيث لا أحتسب ويؤكد في داخلي ذلك المعنى العريض الذي سيطر عليّ مبكرا. معني: أننا مدينون لماضينا لأنه هو الذي جعلنا على ما نحن فيه. وبنفس القدر فمستقبلنا مدين لنا لأننا من الآن نرسم خريطته.

كان الوقت عصرا والزمن صيفا وصديقي الكبير يسألني: أليس لديك كتاب جديد جاهز للنشر؟

لم يكن هذا أي صديق. لكنه الدكتور سيد أبوالنجا، وهو في حينها رئيس مجلس إدارة دار المعارف، إحدى أكبر دور النشر في العالم العربي وقتها. وكانت علاقتنا قد امتدت منذ كان مديرا عاما لمؤسسة أخبار اليوم وأنا مجرد واحد من صغار محرريها.وقلت لسيد أبوالنجا بتردد: نعم. عندي كتاب على وشك أن انتهي منه. لكنه ربما لا يجد الاقبال الذي تتوقعه من القراء اذا جرى نشره.

ضحك سيد أبوالنجا بشدة وسألني مستغربا: بقدر خبرتي العريضة.. فإن هذه مرة نادرة يقول فيها مؤلف عن كتاب له إنه مستمر في تأليفه برغم توقعه عدم نجاحه توزيعيا. لماذا اذن تضيع وقتك فيه؟

قلت له: أنا لا أضيع وقتي في كتاب. أنا أضيعه في قضية. فالكتاب يطرح قضية. ربما أكون أنا مؤمنا بها لكنني لست متأكدا بنفس القدر بأنها بنفس الأهمية عند غيري.

سكت سيد أبوالنجا قليلا ثم سألني فجأة: كم من الوقت أنفقت حتى الآن في تأليف هذا الكتاب؟

قلت له: سنتين..

رد قائلا: عظيم/ طالما أنك لم تبخل على هذا الكتاب بسنتين من عمرك.. فأنا لن أكون أقل سخاء منك.. مع أنكم - معشر الكتاب - تقولون عني إنني كاليهود بخلا.. ها ها ها.. سوف أضحي من ميزانية دار المعارف بخمسة آلاف جنيه لإصدار هذا الكتاب، وسأنشره في سلسلة «اقرأ» حتى تضمن له حدا أدنى من القراء.

في اليوم التالي فاجأني سيد أبوالنجا أكثر وأكثر بعقد مطبوع من دار المعارف لا ينقصه سوى شيئين: عنوان الكتاب.. وتوقيعي على العقد. واخترت للكتاب عنوانا مؤقتا، فلم أكن قد استقررت بعد على عنوان نهائي.

ثم وقعت، وتسلمت شيكا بمبلغ خمسة وثمانين جنيها، هي في الأصل مائة جنيه قبل خصم الضرائب، وهو أجري كمؤلف عن هذا الكتاب الذي لم أكن قد انتهيت منه.. بعد.

في نفس اليوم كنت أتصل بالدكتور طه حسين، ذلك الهرم الكبير في حياتنا الأدبية والثقافية، لكي يحدد لي موعداً أول في سلسلة من اللقاءات المطولة في بيته المتفرع من شارع الهرم بالجيزة.

كان تخطيطى أن يكون طه حسين جزءا من الفصل الربع والأخير فى الكتاب. أما الفصول الثلاثة الأولى فكنت قد انتهيت منها ونشرت قليلها فى جريدة «أخبار اليوم» ومجلة آخر ساعة. فى الفصل الأول كان الموضوع هو الأزمة التى أثارها قاسم أمين فى الحياة المصرية بكتابه عن «تحرير المرأة» الذى أصدره فى سنة ١٨٨٩. والفصل الثانى عن عبدالرحمن الكواكبى وأزمته بسبب كتاب «طبائع الاستبداد» الذى أصدره فى سنة ١٩٠٠. والفصل الثالث عن الشيخ على عبدالرازق وكتابه الذى أصدره من المنصورة فى أول أبريل سنة ١٩٢٥ بعنوان «الإسلام وأصول الحكم». أما الفصل الرابع – الذى كنت قد أصبحت مندمجا فيه ـ فيفترض أن يكون عن طه حسين وأزمته فى كتابه الذى أصدره فى سنة ١٩٢٦ بعنوان «فى الشعر الجاهلى».

لقد أصبحت تعيش فى عقلى تلك الكتب الأربعة، ليس من حيث هى كتب فيها الصواب والخطأ، ولكن من حيث اصرارى على فهم العلاقة بين الفكر والسياسة. بين حرية الرأى والسلطة. بين الثقافة والحكم.

كانت جريمة قاسم أمين هى أنه طلب الحرية للمرأة فى مواجهة الرجل. وجريمة الكواكبى هى أنه طلب الحرية للشعب فى مواجهة السلطان. وجريمة على عبدالرازق هى أنه طلب الحرية للدين فى مواجهة الملك. وجريمة طه حسين هى أنه طلب الحرية للأدب فى مواجهة السياسة، وأصبح المفتاح فى ذهنى لإعادة تشريح تلك الأزمات الأربع هو السؤال المطروح فى كل مرة. سؤال: كيف يجب علينا أن نفكر.. ونعيش؟

وبقدر بساطة السؤال تأتى صعوبته. فالسؤال متجدد. وهو سؤال يطرح نفسه على كل جيل فى حياتنا الثقافية والسياسية. والمشكلة دائما هى أن المجتمع يريد أن يجمع بين التطور وراحة البال لكن بمجرد أن يحدث تقاطع، يجد المجتمع أغلبية كافية بين أعضائه تتمسك براحة البال على حساب التطور. بينما تخرج أقلية محدودة إلى العراء لكى تقول إن التطور يستحق أن نضحى فى سبيله بين وقت وآخر.. براحة البال. وفى الحالات الأربع التى عشتها على الورق بكل أعصابى كانت تفاجئنى دائما بضراوة المعركة.

أحد تلك الكتب مثلا أدى الى انهيار ائتلاف وزارى وسقوط حكومة وتدخل المندوب السامى البريطانى فى مصر وقتها، حيث كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى.

أحدالكتب تسبب فى تهديد مؤلفه بالقتل.

أحدها جرى قتل مؤلفه فعلا.

وجميعها وضعت مؤلفيها فى القائمة السوداء سياسيا لسنوات طويلة.

ولأن طه حسين أصبح هو «البطل» الوحيد على قيد الحياة الذى أستطيع أن أحاوره وجها لوجه..

فقد أصبح عبئى كبيرا مرهقا على رجل بمثل مكانته وفى مثل سـنه. لكن طه حسـين، كعهدى به فى سنواته الأخيرة التى شرفت فيها بالاقتراب منه، كان أكثر من صبور معى ومتحمل لأسئلتى ومتسامح مع مراجعاتى له مرة بعد مرة.

والكتابة عن طه حسين هى فى حد ذاتها متعة مغرية.

فطه حسـين قمة متعددة الشـرائح. هناك طه حسين الذى حرمه الله من نعمة البصر، فاستعان على مواجهة محنته بنعمة أخرى منحها الله له هى نعمة البصيرة.

وطه حسين كتب وألف وحاضر وتحدث ودرس وعلم كثيرا، وهى شريحة أخرى من القمة التى صنعها بعقله وكفاحه واصراره.ولكن طه حسين عندى يتجاوز فى قيمته كل هذا لأنه أعطانا سلوكا وقيمة وصبرا وتفتحا ورعاية وأبوة وانتماء لثقافته العربية وايمانا لايتزعزع بأن مصر هى ما يضيفه المصريون اليها وليس ما يأخذونه منها.

لا أريد من القلم أن يسحبنى انن إلى الحديث عن طه حسين، فربما أفعل ذلك فى مرات تالية. أما فى هذه المرة فأريد التركيز فقط على هذا الكتاب المتواضع الذى سحب منى جزءا من عمرى.

حتى لحظة تسـليمى أصول الكتاب إلى دار المعارف لم يكن سـيد أبوالنجا قد سـألنى مطلقا عن مضمونه. وحينما تسـلم الأصل منى اكتفى بقراءة المقدمة، ثم عاد إلى العنوان الذى اخترته: أفكار ضد الرصاص.. وإلى غلاف الكتاب الذى تفاعل معى فيه صديقى الرسـام مصطفى حسـين، وهو على غير عادة الأغلفة التقليدية التى كانت دار المعارف قد اعتادت عليها.

ثم أخرج سـيد أبوالنجا قلمه وكتب تأشيرة مختصرة بنشـر الكتاب فى العدد القادم من سلسلة اقرأ. بعدها التفت إلى قائلا: الآن دعنا نتكلم فى كتابك التالى.

لم يكن فى ذهنى – بعد – أى مساحة لكتاب تال.

كنت أريد فقط أن التقط أنفاسـى وأنسـى الكتب وسـيرة الكتب لفترة أرمم فيها حالتى النفسية وأعود من جديد إلى أرض الواقع.والواقع هو أن الناشر اختار سلسلة اقرأ بالذات لأنها كانت عريقة فى تاريخها وشعبية فى طباعتها ومخفضة فى «سعرها»: عشرة قروش للنسخة.

ولأن لها قاعدتها المنتظمة من القراء بفضل مؤلفين كبار سبقونى اليها، ومنهم طه حسين نفسه، فإن دار المعارف كانت تكتفى باصدارها شـهريا، وبغير اعلان على الاطلاق فى أى مرة عن الكتاب الجديد، حرصا على اختصار تكاليف الاصدار إلى أدنى حد ممكن.

فى السنوات التالية أصبحت أفاجأ بخطاب مسجل بعلم الوصول يأتينى من دار المعارف فى مطلع كل سـنة، ويخطرنى بأن الدار أصدرت طبعة جديدة من سبعة آلاف نسخة. ثم سبعة آلاف نسخة أخرى. ثم خمسة عشر ألف نسخة، ثم ثلاثين ألف نسخة. ثم ثلاثين ألفا أخرى.. وهكذا.

وفـي كل مرة لم أكن أتوقف كثيـرا عند تعبير متكرر فى الخطابات يقـول ان الطبعة الجديدة مخصصة للخارج..

ثم اتصل بى ذات يوم صديقى الناشر إبراهيم المعلم مسئول دار الشروق للنشر فى القاهرة يسأل: هل يمكن له أن يصدر طبعة فاخرة من كتاب أفكار ضد الرصاص؟

قلـت له: فيمـا أتذكر من نصوص تعاقـد دار المعارف معى.. فإنها تحتكر بمفردها حق نشـر الكتاب لعشر سنوات على الأقل.. رد إبراهيم المعلم: أعرف تلك الصياغة فى العقود التقليدية بدار المعارف. لكن أرجوك.. قل للدكتور سـيد أبوالنجا إن طبعتنا الجديدة لن تزاحم طبعة دار المعارف. هـم يصدرون من الكتاب طبعات شـعبية بسـعر رخيص لكننـى أريد اصدار طبعـة مكتبة.. أنت تعـرف.. يعنى ورق مصقول وطباعة أغلى تكلفة لأنها موجهة لشـريحة مختلفة من القراء يهمهم الاحتفـاظ بالكتاب فى مكتبتهم.. ومرة أخـرى أصبحت تلك مفاجأة جديدة تأتينى من ذلك الكتاب غريب الأطوار ففى سوق النشر جرت العادة على أن تصدر الطبعة الأولى فاخرة وغالية لكى تتحول فيما بعد - إذا نجح الكتاب - إلى طبعة شعبية ورخيصة الثمن. الآن يحدث العكس.

ودار المعارف رفعت ثمن هذا الكتاب خصوصا ستة أضعاف.

أما فى الطبعة التى أصدرها إبراهيم المعلم فقد ارتفع الثمن إلى ثلاثين ضعفا.

وبينما استمرت دار المعارف، فى طبعاتها استمر إبراهيم المعلم فى طبعاته المتتالية من الكتاب.

وفى جميع الحالات لم يدفع أى من الناشرين جنيها واحدا لنشر اعلان واحد عن الكتاب.. حتى ولو من بضعة سـطور لمجرد الاعلام عن صدور كتاب جديد. وذات يوم جلسـنا فى منزلى - صديقى الرسـام مصطفى حسـين وأنا - وجاءت سـيرة كتاب «أفكار ضد الرصاص» بمناسبة أن صديقا له من عمان لجأ اليه فى طلب مجموعة من الكتب، فى مقدمتها أفكار ضد الرصاص.

وبأسـلوب مصطفى حسـين التلقائى قال لى: الكتاب ده كتاب شقى «من الشقاوة» يعنى أنت لك كتب كثيرة ناجحة وأنا رسمت أغلفة كتب لآخرين بعضها نجح.

المشـكلة هنا هى كالشـخص الذى ينجب عشـرة أولاد مثلا، فيجىء ولد منهم«أو بنت» وسـط انشغال الأم والأب بالأولاد السابقين، أو اللاحقين.

هذا الولد الصغير يفاجأ بحقيقة أنه ابن شرعى لأب وأم قيمة ومركز ووظيفة ميرى.. لكنه الأقل حظـا فى الرعاية والاهتمام من كل اخوته وفجأة يقرر هذا الابن أن يصنع لنفسـه حظه الخاص،،. وبقدراته الذاتية البحتة.. بهدف ان يقول لوالده فى النهاية: أنا هنا.. وناجح بمجهودى الخاص.. قلت لمصطفى حسـين: هذا يشـبه فيلما عربيا. باقى فقط أن يخرجه حسـن الامام أو من يشبهه.مع ذلك.. أصبح للفكرة وزن أكبر حينما أمسـكت ورقة مع مصطفى حسين وبدأنا نحسب مجموع النسخ التى صدرت من كتاب أفكار ضد الرصاص. وعلى الورق صعقنا.

مائتين وثمانين ألف نسخة.

معقول؟ هذا توزيع جريدة، وجريدة رائجة، وليس أبدا توزيع كتاب.

كيف حدث هذا؟

لم يجد أى منا اجابة تسعفه لدى الآخر.

وذات يوم وجدت نفسى فى المغرب، مدعوا لإلقاء محاضرة.

وفى المحاضرة حان وقت الأسئلة من جمهور الحاضرين ومعظمهم شباب لم يتجاوزوا العشرين من العمر، وخلال دقائق اكتشفت أن نصف الأسئلة عن كتب أخيرة أصدرتها حديثا. لكن النصف الآخر من الأسئلة بدا خارجا لتوه من كتاب أفكار ضد الرصاص الذى لم يكن فى ذهنى لحظتها مطلقا.

وتطلعت إلى محمد بن عيسى، وزير الثقافة وقتها فى المغرب والجالس إلى جانبى، بحثا عن تفسير. وفاجأنى محمد بن عيسى بإجابته: لا تندهش.. فهذا الكتاب يدرسه الطلبة هنا فى الجامعة وشكواهم الدائمة هى عدم وجود نسخ كافية منه فى الأسواق.وفى مدينة طنجة المغربية نزلت أتجول فى المكتبات وفوجئت من جديد بأن مكتبة واحدة فقط هى التى لديها نسخة، وأخيرة، من كتاب أفكار ضد الرصاص ويدخرها صاحب المكتبة لابن صديق له سيعطيها له بضعف سعرها المسجل على الكتاب.

فى القاهرة سألت الناشرين.

نعم هناك مشكلة أساسها صعوبة التحويلات النقدية بين الدول العربية وهو ما يضطر كل ناشر إلى أن يضبط صادراته من الكتب عند سقف معين.

لكن المسألة الأهم التى كانت تشغلنى هى البحث عن تفسير لهذا الكتاب غريب الأطوار الذى انفصل عنى وصنع لنفسه مساره الخاص ضد كل القيود والظروف والتوقعات.

هذا كتاب يستمد مادته من جيل سابق لكى يتم تشريح تلك المادة بواسطة جيل حالي، فيجد مثل هذا الصدى عند جيل ثالث، يتهيأ بدوره إلى إعطاء خلاصة دروسه الخاصة لجيل رابع.فى النهاية لم أجد داخلى سوى تفسير مؤقت. فقضية الحرية، وحرية الرأى خصوصا، ما تزال تفرض نفسها على حياتنا.

والعلاقة بين الفكر والسياسة.. أو بين الثقافة والسلطة.. هى قضية متجددة.. والتحدى الكبير المستمر معنا - جيلا بعد جيل - مايزال هو: كيف نحتفظ بجذورنا ونقتحم العصر فى الوقت نفسه؟

بكلمات أخرى: كيف نضيف إلى بلدنا فنصبح نحن أقوى بها.. بدل أن نخصم من بلدنا فتصبح هى أضعف بسببنا؟

إنها قضية كل جيل.

وسؤال كل عصر.



غرام .. يقصف العمر

شاغبتنى. لاطفتنى. طاردتنى. حاصرتنى. لكنها لم تتجاوز الحدود.

تابعتنى فى الصبا. لاحقتنى فى الجامعة. عاكستنى فى العمل.

ظل طيفها أمامى فى كل وقت . يحايلنى من على مسافة. يحاورنى فى مكان عام. يتسلل إلىّ فى مكان خاص. ومن قبل حتى أن أفتح فمى يصبح طيفها فى مسامى وتحت جلدى وسابحا فى شرايينى.

قاومتها مرة بعد مرة لكن منطقها المتكرر ظل يفحمنى دائما: لماذا لا تجرب حظك معى؟ سوف تجد أننى المتعة ذاتها. والأنس والانسجام. والراحة وروقان البال. جربنى مرة أو مرتين. إذا لم أعجبك لن تكون قد خسرت أى شيء. أما إذا راق بالك وهدأت أعصابك وتراجع توترك فسوف تبادر أنت نفسك بعد ذلك – وبإرادتك الحرة – إلى مصاحبتى.

جربت معى مئات المرات إغراء صريحا. ومئات أخرى من المرات إغراء غير مباشر. صوتا وصورة. نهارا وليلا. عبر أصدقاء ومعارف. وأيضا عبر كثيرين لا أعرفهم. صبرت علىّ طويلا طويلا. وفى كل مرة تختارنى وأنا فى حالة استرخاء. ومرة بعد مرة قلت لنفسى فعلا: لماذا أخشاها؟ لقد صمدت من قبل أمام من هم أكبر منها إغراء.. لماذا إذن لا أعطيها الفرصة معى.. أو أعطى لنفسى الفرصة معها؟:

ومددت يدى نحوها. ومن لحظتها لم تفارقنى. فى الأرض أو فى الجو أو فى البحر.. أصبحت معى. أقرأ أو أكتب أو أستريح فيما بين بين.. هى دائما معى. لم أشعر فى أى لحظة بالخطر منها. لا بالخطر ولا بالتحدى. ففى نهاية المطاف كنت متأكدا أن العصمة بيدى، والقرار فى سلطتى.

إذا كنت قد أصبحت أقاطعها تماما لثلاثين يوما فى السنة، هى شهر رمضان، فإننى قادر على مقاطعتها فى أى شهر آخر، أو حتى القطيعة الكاملة معها إذا تحمست لذلك.

لكن مع الوقت والاعتياد، بدأت أدرك أننى أسير فوق أرض خطرة. لقد أصبح غرامى بها هادئا ولكن مستمرا. وصحبتها لى تبدو مريحة غالبا لكنها متعبة أحيانا. وذات مرة قررت أن أبتعد

عنها وأستعين على غرامها بمن هم من فصيلتها وجنسها. لكن بعد تجربتين أو ثلاث عدت إليها من جديد.. فلا أنا نسيتها ولا هى نسيتنى. إننى لم أرفع الراية البيضاء تماما ولكننى فعلت ما هو أسوأ. لقد استسلمت لوهم كبير هو أن استمرار علاقتى بها لايزال تحت السيطرة وفى حدود الإرادة.

ثم جاءت لحظة إرادة، أو بالدقة عدم إرادة، لكى أكتشف انسحاقى أمامها. الآن فقط أدركت أن ما بدا لى سهلاً يزداد صعوبة يوما بعد يوم وملازمتها الدائمة لى لم تعد بتلك المتعة التى بدأت بها. لقد بدأت المتعة تختلط بشعور متزايد من التعب والإرهاق وتقطع الأنفاس. لقد انزلقت إلى غرام بها. وهى وحدها التى تعرف من البداية أنه غرام يقصف العمر.

ساعتها أدركت أن المواجهة معها قادمة لا محالة. مواجهة كنت أختار لها دائما أن تحدث غدا. أو بعد غد. بغير أن أجعل المواجهة تجرى الآن. فى هذه اللحظة وهذه الدقيقة. أخيرا اختارت هى لحظة المواجهة معى. إنها لم تختر الوقت فقط ـ الخامسة صباحا ـ ولكنها اختارت المكان أيضا: غرفة الإنعاش. يسمونها طبيا: غرفة العناية المركزة.

فيما بين مشهدى داخل سيارة الإسعاف واثنان من الأطباء يجربان حقنى بشىء ما مرة بعد مرة، وما بين إفاقتى من المخدر، أصبح هناك جزء ساقط تماما من ذاكرتى. أما الذى لن يسقط أبدا فهو ما أصبحت أتفرج عليه من نفسى. إنسان مهزوم، يرقد على سرير بمستشفى، بخراطيم هنا وهناك، وأجهزة طبية تحاصرنى من كل جانب، ومراجعة طبية كل ساعة، وصدرى يعلو ويهبط منهارا مرتين. مرة تحت تأثير الأصوات المتحشرجة فى رئتين أحس بهما كما لو كانا مجرد قطعتين من الخيش ومرة تحت تأثير الجهد الفائق الذى أختطف به ماتيسر من هواء نقى عبر جهاز الأوكسجين.

لم يكن مسموحا لى بالكلام - بعد - والأسوأ من ذلك أننى أصلا لم أكن قادرا على الكلام. لكن أخطر ما فى الموضوع كان كلامى أنا مع نفسى. كلام أنا وحدى الذى أسمعه وأعرف مضمونه ومتأكد من خلاصته.

والخلاصة هى أننى فى حالة غضب شديد. غضب من نفسى. هذا شبح الموت يراقصنى. لكن الموت لم يكن هو قضيتى فى لحظتها. فقبل كل شىء.. الأعمار بيد الله. والله أعطانا عقولا لنستخدمها وليس لكى نحنطها أو نرفض استخدامها. لكن أيضا لأننى واجهت شبح الموت من قبل مرات ومرات. واجهته برا وبحرا وجوا. فى بعض المرات كنت أطارد شبح الموت بقدمى. وفى مرات أخرى كان يفاجئنى حيث لا أتوقع، مع ذلك كنت فى كل مرة مقتنعا بأن الموت إذا جاءنى فإنه سيجىء فى إطار مبدأ أو قضية.. أو قدر. أما أن أواجه شبح الموت فى هذه المرة بسبب هذه التافهة، هذه

السـيجارة، فإن الأمر يصبح مختلفا تماما. كيف تجيء هزيمتي بهذا القدر من التفاهة؟ هذا القدر من الاستسلام والانقياد لما تصورت دائما أنني قادر في أي لحظة على التخلص منها. والآن أرقد في غرفة الانعاش.. فقط لأنني لم أصمم بالقدر الكافي على التخلص منها.

أصبحت غاضبا من نفسـي، وبشـدة، لأنني أصلا من المؤمنين بأن الإنسان موقف وقرار وإرادة. الآن.. كيف تبخرت الإرادة؟ إنها لم تتبخر عندي فقط ، ولكن عند ملايين غيري.

هكذا بدأت أعود إلى الشريط من أوله. وبين لحظة وأخرى أعود إلى الواقع حولي، وما أعرفه عن هذا الواقع. فشـركات السجائر تتحرك بميزانيات.. بعضها يتجاوز ميزانيات دول بكاملها. إنها صناعة أرباحها سـهلة وتفوق الخيال ومضمونة.. طالما تعرف تلك الشركات كيف تصطاد زبائنها.. أو بالدقة.. نوعاً خاصا من زبائنها.

إنهـا تركز دائما على اصطيـاد الزبون في وقت مبكر من حياتـه. الأصغر هو الأفضل. أولا لأن الأصغر هنا فلوسـه سـهلة، فهي غالبا مصروفه اليومي من والديه. ثم انه في سن الصبا. وفي الصبا تضعـف الإرادة أمام الرغبة في تقليد الآخرين.. والآخرون هنا ليسـوا فقط زملاءه في المدرسـة أو الجامعة، أو جيرانه في المسـكن. إنما الآخرون هم أساسـا نجوم رياضة أو سينما أو تليفزيون. مع نجوم الرياضة تدفع شركات السجائر ملايين الدولارات لكي تصورهم وهم ينفثون دخان سجائرهم بما يوحي بالمتعة والاسترخاء اللذيذ. في السينما والتليفزيون يصبح الإيحاء أقوى لأن التدخين هنا، من البطل أو البطلة، يصور السيجارة كما لو كانت جزءا لا غنى عنه من السلوك ولازمة عصرية تعبر عن القوة بالنسبة للرجل أو الأنوثة والنعومة بالنسبة للمرأة.

لكن شركات السجائر لم تكن تنتظر أن يأتي لها هذا الزبون. هذا الصبي أو الشاب في سن المراهقة مثلا. لقد كانت تذهب إليه وتطارده بألف طريقة وطريقة. وتحت سـتار رعاية الأنشـطة الرياضية والاجتماعية مثلا أصبحت تلك الشركات تذهب إلى النوادي متبرعة أو إلى البلاجات مسلية أو تلتقط المناسبات المهمة راعية وممولة. وكثيرا كثيرا ما تقوم بتوزيع عينات مجانية من سجائرها.

هناك جيش عرمرم من خبراء الدعاية والإعلان تسـتخدمهم كل شـركة وتدفع لهم بسخاء لكي يصمموا لها الحملات الترويجية المكثفة. والهدف هو أن تدفع هذا الزبون الجديد ـ صبيا أو شـابا ـ إلى المبادرة بالخطوة الأولى وشراء أول علبة سجائر. وبتلك الواقعة المنفردة تكون الشركة قد وضعت يدها على زبون مستديم لحسابها بطول ما تبقى له من عمر – خمسين أو أربعين أو ثلاثين سنة – من هنا يجيء حرص الشركات على التقاط الزبون في نقطة مبكرة من حياته وبعدها ستتكفل السيجارة وصفتها الإدمانية بالباقي.

وللحصول على تلك النتيجة أصبحت الشـركات الدولية لإنتاج السـجائر تعتمد على مسـألتين أساسيتين:

أولا: أن يستمر خطر السجائر على الصحة بعيدا عن الضوء. وثانيا: الزعم بأن مادة النيكوتين لا تؤدى إلى الإدمان.

وفى الجولات الأولى من الحرب بين سلطات الصحة العامة وشركات السجائر كانت الشركات تكسبها غالبا، أو على الأقل تتعادل فيها. فى الولايات المتحدة مثلا ثبت منذ سنة ١٩٦٤ أن التدخين خطر مؤكد على الصحة وسبب لأمراض قاتلة عديدة. فى تلك المواجهة قبلت الشركات أن تضع تحذيرا على كل علبة سجائر مضمونه أن التدخين قد يكون ضارا بصحتك. لكن فى مقابل ذلك اتفقت الشركات مع الحكومة الأمريكية على وقف أى توجه لإذاعة حلقات تليفزيونية أو إذاعية ضد أخطار التدخين. بعدها قررت السلطات الصحية منع الإعلان عن السجائر فى الصحف ثم فى الإذاعة والتليفزيون. لكن شركات السجائر استعاضت عن ذلك بالذهاب إلى المدارس والجامعات والنوادى الرياضية والاجتماعية وكل أماكن تواجد الشباب.

ومقابل كل تقرير طبى حكومى يؤكد العلاقة بين السجائر والأمراض القاتلة كانت شركات السجائر تستنطق أطباء كبارا ومتخصصين لكى يشككوا فى علاقة السببية هذه. ومقابل كل دعوة إلى إصدار التشريعات ضد منتجى السجائر كانت الشركات تستأجر أعضاء فى الكونجرس الأمريكى لكى يدافعوا عنها مقابل رشاوى ضخمة غير منظورة.

فى السنوات الأخيرة نجح عدد من المواطنين الأمريكيين، أو ورثتهم بمعنى أصح، فى إثبات أن تدخين السجائر كان سببا مباشرا فى الوفاة.. بما جعل إحدى المحاكم الأمريكية تلزم شركة سجائر بدفع ثلاثة أرباع المليون دولار تعويضا لورثة مواطن ثبت طبيا أن المرض القاتل له يعود إلى التدخين.

هنا بالضبط وقعت مفاجأة كبرى.. لقد قرأت إحدى شركات السجائر الرسالة جيدا فى هذا الحكم، وقدرت أنها شركة صغيرة لن تتحمل بمفردها دفع مئات الملايين فى القضايا التالية من مدخنين سابقين أو ورثة مدخنين توفاهم الله. هكذا بدأ ممثلو الشركة يتفاوضون مع مسئولى الصحة العامة وورثة بعض الضحايا. وفى سياق تلك المفاوضات كشفت الشركة عن أسرار مذهلة.

لقد تبين مثلا أن علاقة التدخين بالسرطان و٣٣ مرضا آخر ثابتة طبيا ومؤكدة علميا لدى هذه الشركات منذ سنة ١٩٦٤. لكن الشركات اتفقت سرا فيما بينها على اخفاء تلك التقارير الطبية وتزوير تقارير مضادة كلفت بها أطباء كبارا مقابل ملايين من الدولارات. وتبين أيضا أن نفس تلك الشركات لديها تقارير مبكرة، ومؤكدة عن أن النيكوتين الموجود فى دخان السجائر يمتصه الدم بسرعة هو مادة تؤدى إلى الإدمان. مع ذلك اتفقت تلك الشركات فيما بينها على إخفاء تلك التقارير. والأخطر أنها اتفقت على زيادة نسبة النيكوتين فى دخان السجائر لضمان درجة أكبر وأسرع من الإدمان.. لأن هذا يزيد المبيعات.

وفى البداية اعتبرت شركات السجائر الكبرى، أن هذه الشركة الصغيرة ارتكبت فى حقهم جريمة الخيانة العظمى بإفشائها أسرارا داخلية متفقا من قبل على كتمانها. لكن السيف كان قد سبق العذل.. لأن الشركة الصغيرة كانت قد سلمت إلى السلطات الصحية فعلا كل الوثائق السرية فى حوزتها.

هنا أيضا جاءت مناورة أكبر. لقد تضامنت أكبر ثلاث شركات منتجة للسجائر فى تشكيل وفد تفاوضى مشترك مع السلطات الصحية وجمعيات محاربة التدخين للدخول فى صفقة مغرية. فهذه الشركات الثلاث وحدها مستعدة لأن تدفع ثلاثمائة مليار دولار -أكرر: ثلاثمائة مليار دولار- خلال ٢٥ سنة من الآن، أى بمعدل ١٢ مليار دولار سنويا، لتمويل صندوق يخصص لتعويض ضحايا التدخين أو ورثتهم. لكن الشركات تشترط لكى تدفع هذا المبلغ أن يصدر الكونجرس أولا تشريعا يحصنها ضد الملاحقات القضائية فى المحاكم.

إنها واحدة من أغرب الصفقات فى هذا القرن. وهى لاتزال حاليا محل مساومات ومفاوضات. لكن الأكثر أهمية هنا هو الوعى المتأخر بالمدى الذى وصل إليه تآمر تلك الشركات الكبرى على الصحة العامة.. لمجرد أنها تريد تعظيم أرباحها. وتآمر لإخفاء الحقائق، والتشكيك فى الأدلة الحاسمة وتزوير التقارير الطبية الصريحة ورشوة جيش كامل من السياسيين والأطباء والمشرعين لحماية مصالحها.

أحد الأطباء الأمريكيين المتخصصين فى أبحاث السرطان كان صديقا للنجم السينمائى الأمريكى يول برينر الذى نعرفه هنا فى العالم العربى من خلال أفلام هوليودية عديدة فى مقدمتها «الملك وأنا». ومنذ نهاية سنوات الخمسينيات، وهذا الطبيب يناشد صديقه التوقف عن التدخين، لتأكد علاقته بالسرطان، فيرد عليه يول برينر: «لا تقلق. هذه السجائر لن تنال منى أبدا». منذ الخمسينيات ويول برينر يقول له «لا تقلق» ثم جاءت المرة الأخيرة التى ذهب فيها هذا الطبيب ليزور صديقه يول برينر. كان هذا فى سنة ١٩٨٥ ويول برينر أصبح فى المستشفى ويتحرك فقط بكرسى بعجلات، بهدف الحصول على علاج إشعاعى من المرض الذى أصابه بسبب التدخين.

وبصوت خفيض متقطع ولاهث همس يول برينر فى أذن صديقه: لماذا بحق السماء لم أستمع إلى تحذيراتك لى من قبل؟ بعدها توفى يول برينر فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٨٥.

نجم هوليودى آخر تسببت أفلامه فى ترويج السجائر حول العالم بشكل غير مباشر. إنه همفرى بوجارت. والآن تصر جمعيات محاربة التدخين فى الولايات المتحدة على أحد حلين: إما منع إعادة عرض تلك الأفلام فى التليفزيون الأمريكى نهائيا إلا بعد حذف وقص كل مشهد فيه سجارة يجرى تدخينها.. أو عرض الأفلام مع إشارة ثابتة على الشاشة طوال مدة عرض الفيلم. إشارة تقول: توفى همفرى بوجارت بمرض قاتل تسبب فيه إدمانه لتدخين السجائر.

والآن أصبحت هنـاك حملة كبرى في الغرب، ليس ضد التدخين فحسب، ولكن للتخلص من بعض أسباب الترويج له في الماضي. الآن أصبح يتسع يوما بعد يوم نطاق منع التدخين في الأماكن المغلقة.. خصوصا بعد أن ثبت أن التدخين ليس خطرا فقط على من يدخن.. ولكن أيضا على من يوجد أيضا في مكان واحد مع من يدخن.. كزوجته وأولاده في البيت مثلا.. أو زملائه في مكان العمل. بل إن إحدى مضيفات شركات الطيران توجد لها حاليا قضية منظورة أمام القضاء الأمريكي نتيجة لإصابتها بالسرطان بسبب «التدخين السلبي» .. أي استنشاقها دخان السجائر.. ليس لأنها شخصيا تدخن.. ولكن لأن ركاب الطائرة يدخنون وهي بالتبعية تدخن سلبيا من هواء الطائرة. وفي القضية تقول المضيفة: إنني أم لطفلين.. وفي التاسعة والأربعين من العمر.. ولم يحدث في حياتي أن دخنت سيجارة واحدة.. ولا على سبيل المزاح أو المداعبة. ومع ذلك هذا هو التقرير الطبي الذي سلمه لي المستشفى. التقرير يقول جازما إنني مريضة بسبب تدخين السجائر.

والآن أصبح ممنوعا على شركات الإنتاج السينمائي والتليفزيوني في الغرب، وجود أي مشهد يتضمن أي نوع من التدخين. أما بالنسبة للأفلام القديمة، فيجري حذف مشاهد التدخين منها قبل إعادة عرضها.. سواء في السينما أو التليفزيون.. بل وخصوصا التليفزيون لأنه يقتحم البيوت ويشارك الأب والأم في تشكيل سلوك الصغار.

وبالمناسبة: تبين أن شركات السجائر كانت تدفع مساهمات مالية ضخمة لمنتجي أفلام السينما في هوليود من أجل تصوير أبطال وبطلات الأفلام وهم يدخنون، تماما كما تفعل شركات الأزياء والعطور وكل ذلك النمط الاستهلاكي المتكرر.

حتى طوابع البريد.. أعادوا مؤخرا إصدار طابع بريد يحمل صورة الزعيم البريطاني الراحل ونستون تشرشل.. ولكن بعد حذف السيجار الشهير من فمه. وصدرت التشريعات المتلاحقة بمنع تواجد أي دعايات للتدخين في المسابقات الرياضية، أو النوادي الرياضية والاجتماعية، أو حتى بالقرب منها.. ومنع تواجد أي أماكن لبيع السجائر قرب المدارس والجامعات والنوادي، ومنع قبول أي مساهمات مالية من شركات السجائر في أي نشاطات تتعلق بالشباب.. إلخ.

إنها عشرات وعشرات من الإجراءات التي بدأوا يتخذونها مؤخرا لحماية شبابهم من ذلك الغرام المدمر الذي يجري دفعهم إليه بواسطة شركات كل ما يعنيها، هو أن تكسب مليارات أكثر وأكثر من الدولارات. وخلال الثلاثين سنة الأخيرة انخفضت نسبة المدخنين بين الأمريكيين من أربعين بالمائة إلى خمسة وعشرين بالمائة. لكن تبين أن هذه المقارنة الرقمية خادعة تماما.. حيث الانخفاض وقع بسبب إقلاع أمريكيين عن التدخين فعلا بعد سنوات من الإدمان. لكن نسبة المدخنين الجدد كل سنة استمرت كما هي عليه.

هذا يعنى أن شـركات السجائر مسـتمرة فى الوصول إلى أولئك المدخنين الجدد بوسائل أخرى. إحـدى تلك الوسـائل يعبر عنها – مثلا مثلا – مقال قرأته مؤخرا فـى جريدة أمريكية كبرى بقلم أستاذ فى جامعة «هارفارد».. وهى واحدة من أرقى الجامعات الأمريكية بغير أن ينسحب هذا بالمرة إلى كل ما تفعله ولا إلى كل أساتذتها.

الأستاذ الأمريكي في جامعة هارفارد هذه، يقول في مقاله ما خلاصته: أمريكا هى بلد الاقتصاد الحر والسـوق المفتوح وبتلك الصفة فإن شـركات السجائر خلت مسـئوليتها بتوجيه تحذير مطبوع على كل علبة سجائر يخطر المستهلك بأن التدخين ضار بصحته. هذا يكفى. ويكفى جدا. فالمستهلك هنا أصبح ذنبه على جنبه. إذا اختار التدخين فتلك مسئوليته هو وليست مسئولية الشركة المنتجة للسـجائر. ومن ناحية أخرى والكلام لا يزال للأسـتاذ الأمريكى فإن تسـبب تدخين السجائر فى قصف عمر المدخن ليس شرا كله.. لأنه بوفاته المبكرة يكون قد حقق وفرا فى نصيب الميزانية العامة من تكاليف رعايته الصحية.. وهو ما يساهم بدوره فى توفير العجز بالميزانية!.

وفسـاد هذا المنطق المتبجح واضح من أوله، ودعنا من فكرة أنه منطق مدفوع الأجر من الشـركات المسـتفيدة ذاتهـا. فاعتمادا على فكـرة أن «كل واحد ذنبه على جنبه» يسـتطيع كل بلد ـ أمريكا أو غيرها ـ أن يبيح .. مثلا مثلا.. بيع الحشيش أو الهيروين.. اكتفاء بسطر واحد مطبوع على كل عبوة يقول: إدمان الهيروين ضار بصحتك.

المهم .. أنه بعد أن أدركت شـركات السـجائر الكبرى، أن الحصار يضيق عليها شـيئا فشيئا.. اسـتمرت فى المناورة. فى أوروبا الغربية مثلا نشرت الشركات صفحات إعلانية كاملة فى الصحف الكبرى تحتج ضد منع التدخين فى الأماكن المغلقة، لأنه أولا انتقاص من حقوق شريحة من المواطنين ضـد حقوق شـريحة أخرى.. ولأن – وهـذا مهم فى بلاد تعانى من ارتفاع نسـبة البطالة – مصانع السـجائر فى أوروبا توفر فرص عمل منتظمة، وسـخية الأجر، لثمانية عشـر ألف مواطن ستؤدى الإجراءات الأخيرة إلى خطر الاستغناء عنهم.

فى نهاية المطاف انتهت شركات السجائر الكبرى إلى تكتيك مختلف. فإذا كان الحصار يضيق عليها فى دولها هى.. لا بأس ولا حيلة.. فلنتجه جنوبا.. حيث الدول النامية وأعداد المسـتهلكين بها ضخمة (الصين مثلا بها ١٣٠٠ مليون نسـمة. الهند ٩٠٠ مليون نسمة. كلام كبير كبير). ثم إن سـلطات الصحة العامة فى تلك الدول النامية ضعيفة، والوعى الصحى منخفض، والانبهار بالغرب يمكن أن يتضخم، ولا أحد متنبه ـ بعد ـ إلى المشـاهد السـينمائية والتليفزيونية التى تروج بشـكل غير مباشر للتدخين.

هكـذا تفجـرت فى بريطانيا فى العام الماضـى، مثلا فضيحة أن الحكومـة البريطانية أصبحت تربـط بين اسـتثماراتها الأجنبيـة فى بعض الدول النامية وبين السـماح أولا باسـتيراد منتجات

شركات صناعة السجائر البريطانية. هكذا قامت إحدى شركات السجائر أيضا باستخدام مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة مستشارا لها، وشركة أمريكية أخرى استخدمت مستشارا سابقا للرئيس الأمريكى رونالد ريجان للأمن القومى. والعقد فى كل حالة بملايين الدولارات. والهدف هو استخدام النفوذ السياسى السابق لهؤلاء من أجل فتح أسواق الدول النامية أمام السجائر.. وعلى وجه الخصوص تلك السجائر ذات النسبة الأكبر من النيكوتين التى تحقق الإدمان فى وقت أقصر.

الشعار الأخير الذى استخدمته شركات السجائر فى تكتيكها الأخير هذا - صدق أو لا تصدق - هو: حقوق الإنسان. فالدولة التى تحاصر شركات صناعة السجائر ترتكب جريمة كبرى، هى انتهاك حقوق الإنسان.. وما أدراك بفداحة هذه الجريمة الكبرى. بكلمات أخرى: على الحكومات المعنية أن تمتنع عن محاربة التدخين لأن «الحق فى الاختيار هو فى مقدمة حقوق الإنسان».

يا أولاد الإيه! حقوق الإنسان.. خبط لزق؟ لكن لكى يصبح للإنسان حقوق يجب أولا أن يبقى على قيد الحياة. وإلا يصبح الخيار الوحيد المطروح هو: اختيار الحياة.. أو اختيار الموت.

و... كم هو تافه حقا أن يموت الإنسان بسبب سيجارة.. فقط لمجرد أن هذا يملأ خزائن الشركات الكبرى بمليارات ومليارات من الدولارات.

□□□



هونج كونج ؟ غطينى يا صفية !

حينما رجانى صديقى المجاور لى فى المقعد أن يستعير مقعدى لبعض الوقت لم يدر فى خيالى ما يمكن أن يحدث فى اللحظات التالية. كل المسألة أننا فى الطائرة ذهابا إلى هونج كونج ومقعدى فى الطائرة ملاصق للنافذة التى يمكن عبرها مشاهدة المحيط الخارجى. الآن أضاءت العلامات: ممنوع التدخين واربطوا أحزمة المقاعد. فى تلك اللحظة جاء رجاء الصديق بأن نتبادل المقاعد. تبادلنا. نربط الأحزمة. ربطنا. نتابع الطائرة فى هبوطها الى أسفل. تابعنا. فجأة أمسك صديقى بيدى، وبشدة، بينما عيناه تتنقلان بين النافذة وبينى: هل ترى ما أراه؟ قلت له: تقريبا.

فى اللحظات التالية بدأت الكلمات تخرج من فمه متراشقة متصادمة مع بعضها البعض: لكن.. لكن.. الطيار نازل بنا فين؟ الله.. الله.. المياه.. البحر.. البحر.

قبل أن أرد، كانت يده اليسرى تضغط بشدة على يدى اليمنى، وعيناه تجحظان أكثر وأكثر بسرعة البرق بينما تتحركان بعصبية ما بين النافذة وبينى: الله.. الله.. فى البحر.. فى البحر.. احنا.. احنا متنا..

وسقطت رأس صاحبنا على صدره فى حالة إغماء وفقدان للنطق.

من مقعديهما على مسافة ثلاثة أمتار نظرت نحوى المضيفتان الأسيويتان – هما أيضا رابطتان لحزام المقعد – وبالاشارة سألتنى إحداهما مستفسرة عما يجرى لصديقى فى المقعد المجاور. وبالاشارة حاولت الاختصار فى الرد بقدر سرعة الطائرة فى الهبوط.فى اللحظة التى لا مست فيها عجلات الطائرة أرض المطار جاءت إلىَّ المضيفة بسرعة وهى تحرك عينيها بقلق بين جارى وبينى متسائلة: هل هو مريض بأى شىء ؟

قلت لها: لا على الاطلاق لكنها ربما تكون.. تكون خضة الهبوط فى مطار هونج كونج.

هدأت المضيفة قليلا ثم ذهبت لتعود بسرعة بأشياء ما بين النوشادر والبارفان. ثم جاءت زميلتها لتساعدها معى فى الامساك برأس أخينا الوافد إلى هونج كونج لأول مرة: يا مستر.. يا مستر..

أخيرا سمعها المستر. أخيرا نطق. أخيرا تطلع عبر النافذة إلى يمينه ثم تحرك بعينيه خلفا إلى باقى الركاب ثم اتجه نحوى بسؤال مستغربا: الظاهر بقينا على الأرض؟ معقول؟ لكن احنا كنا فى البحر بنموت فى البحر.. أنا شفت عزرائيل بعينى فعلا.

قلت له محاولا المداعبة: هذه مبالغة. فالناس فى هونج كونج يموتون برا. ثم إن عزرائيل هنا فى هونج كونج – يكون فى النهار مشغولا بما هو أهم..

سألنى مندهشا: وما هو الأهم عند عزرائيل من قبض أرواح الناس؟

قلت له: أن يقامر فى البورصة. بورصة هونج كونج.. اهدأ إذن وفكر فى البورصة و...

انفجرت المضيفتان ضاحكتين قبل أن تعلق احداهما: والله فكرة. هذا تفسير مريح سأقوله بعد ذلك لأمثال صديقك هذا من القادمين إلى هونج كونج لأول مرة.

لكن المشكلة كانت جادة فعلا. فالمر الذى تهبط إليه الطائرات القادمة إلى هونج كونج ممتد فعلا فى خط مستقيم تماما داخل البحر وفى حالة الهبوط فإن الجالس فقط فى كابينة الطيار هو الذى يرى المشهد أمامه كاملا، أما الراكب إلى يمين أو يسار الطائرة فلا يرى سوى المياه الزرقاء العميقة. مياه البحر. ومن تلك المفارقة قد يهيأ لغير المجرب أن الطائرة تهبط إلى مياه البحر مباشرة.

لم يفارقنى هذا المشهد أبدا وأنا أتابع مؤخرا، مع ملايين غيرى، الاحتفال بعودة هونج كونج إلى السيادة الصينية بعد ١٥٨ سنة من احتلال بريطانيا لها. فى النهاية. هونج كونج ذاتها حالة غريبة ومألوفة.. شاذة وعادية.. استثنائية وطبيعية.. فى وقت واحد.هذه جزيرة أخذت لنفسها وحدها اسم الشهرة مع أن لها أتباعا وحواشى. بالحواشى تصبح كل المساحة التى نتكلم عنها نحو ألف كيلومتر مربع. هناك جزيرة هونج كونج. وهناك كولون ـ مدينة أخرى توأم لها ـ لكنك تصل إليها من خلال معدية بحرية كتلك التى نعرفها بين بورسعيد وبورفؤاد. ثم هناك بعد ذلك امتداد برى لكولون هذه يسمى «المناطق الجديدة» وقد استعمرت بريطانيا تلك الأجزاء الثلاثة فى القرن الماضى بثلاث معاهدات متتالية فرضتها على الصين بقوة السلاح والغزو. وبالاتفاق الأخير أصبح محكوما على الصين أن تؤجر هونج كونج وملحقاتها إلى بريطانيا لمدة ٩٩ سنة تنتهى فى سنة ١٩٩٧. من هنا كان التعبير الشائع منذ سنوات هو أن هونج كونج مدينة مستعارة تعيش فى زمن مستعار.

وفى أى مرة ذهبت فيها إلى هونج كونج لم تزد اقامتى فيها على أيام قليلة. هذا كثير فى حالتى لأننى فى كل مرة كنت أذهب إلى هونج كونج لا بد من أحد أمرين: إما أن تكون فى صحبة مليونير أو تكون أنت نفسك مليونيرا. وكلاهما خير كثير نجانا الله من شروره.

هذا لا يعنى بالضرورة أن هونج كونج للأغنياء فقط. فى الواقع أن فيها منتهى الغنى ومنتهى الفقر جنبا إلى جنب. فيها ناطحات السحاب وفيها عشش القش والصفيح للفقراء. فيها التنقلات

بالهليكوبتر والأتوبيس الطائر جوا والأتوبيس ذى الطابقين أرضا والزوارق التى تنقلك بين جزيرة وأخرى بحرا كما فى فينيسيا. وفيها أيضا عربات «الريكشا».. التى تجلس فيها منتفخا بينما الذى يجرها أمامك واحد بنى آدم من لحم ودم، مقابل دولار أو اثنين من دولارات هونج كونج. والدولار الأمريكى مثلا يساوى ثمانية من دولارات هونج كونج وبالمصرى الشائع حاليا يعنى هذا أنك تستأجر مواطنا ـ صينيا قطعا ـ فى هونج كونج لكى يجر لك «الريكشا» بسعر يتراوح ما بين ٤٥ و٩٠ قرشا. ولا فيلم «الأرض» لمحمود المليجى.

ثم إنها جزيرة عجيبة من الناس والتضاريس. الناس فى هونج كونج نحو ستة ملايين معظمهم صينيون وقليلهم أربعون أو خمسون ألفا من الخواجات. هؤلاء الخواجات انجليز غالبا وأمريكان أحيانا ويابانيون بدرجة أقل.. ألخ. هؤلاء هم فى الغالب أصحاب الثروة الكبرى فى هونج كونج أو يعملون لدى الشركات والبنوك ذات الثروات الكبرى. ولأن الثروة ـ هذا النوع من الثروة ـ يحتاج غالبا الى محيط من الفقر لكى يتبادل معه المنفعة، فإن أهل هونج كونج يتكيفون مع هذا الوضع.. أو بعضهم حتى يتحسن معه.

فقط هناك أكثر من مائتى ألف تقريبا يسمونهم فى هونج كونج «أهل المياه» وهؤلاء يولدون ويعيشون ويتزوجون ويتعلمون ويموتون فى المراكب الراسية إلى الساحل والمتحركة منه والعائدة إليه. ومن فرط اعتيادهم على أسلوب حياتهم هذا أصبحوا لا يطيقون تغييره، فإذا كنا نعرف «دوار البحر» الذى يصيب غالبا من لا يعتادون ركوب السفن، فإن «أهل المياه» هؤلاء فى هونج كونج يصيبهم «دوار الأرض» لو بات الواحد منهم ذات ليلة بعيدا عن مركبه.. وعلى الأرض فعلا.

من وحى هؤلاء الناس كتبت ذات مرة فصلا كاملا عن هونج كونج فى كتاب سابق لى بعنوان «سياحة غرامية» عن مجموعة رحلات امتدت من اليابان إلى نيبال إلى الولايات المتحدة. لكن الذى يعيدنى الآن إلى الكتابة عن هونج كونج ليس أدب الرحلات.. وانما أوجاع التاريخ ودروس السياسة.

فمع اهتمام العالم بعودة هونج كونج إلى السيادة الصينية رسميا فى الأول من يوليو هذه السنة – ١٩٩٧ – بدا هناك وجهان مختلفان تماما لهونج كونج. هناك الوجه الرائج هنا من خلال المشاهد التليفزيونية المبرمجة سلفا وتذيب العقول ولو كانت من حجر. هذه هونج كونج الدجاجة التى تبيض ذهباً وتفيض رخاء وتتخلى عنها بريطانيا عن طيب خاطر إلى الصين، رغم أن الصين ليست هى الأصلح لهونج كونج لمعاناتها من فقر الدم والفلوس والحرية والديمقراطية. وهذا هو الاحتفال الكبير لتسليم وتسلم السلطة فى الساعة الأولى من صباح الثلاثاء أول يوليو، حيث العرش البريطانى يمثله الأمير تشارلز ولى العهد (لا داع لدينا الآن – الموضوع جاد) والصين يمثلها رئيسها جيانج زيمين.

وكبار المدعوين من دول العالم بالمئات – من بينهم حسنى مبارك الذى بعث بعمرو موسى وزير الخارجية، محسوبا كمصرى عند الصينيين ـ وليس اسرائيل ـ على جمال عبدالناصر الذى اعترف بالصين فى سنة ١٩٥٦ ضد مقاطعة أمريكا لها. والصينيون لا ينسون من وقف معهم فى لحظات الشدة. هنا أيضا كريس باتن آخر حاكم بريطانى لهونج كونج. وقد شاهدناه وهو يلقى بكلمته الوداعية فى الاحتفال.. ولا يوسف وهبى أيام تألقه فى مسرحه وشرف هونج كونج كعود الكبريت.. والدموع تترقرق فى عينيه.. بينما بناته الثلاث الحسناوات اللاتى – زيادة فى التأكيد – دمعت عيونهن هن أيضا و.. هات يا عياط على هونج كونج.

ثم هناك هونج كونج الأخرى التى تراها الصين نفسها – صاحبة هونج كونج – واضطرت لهذه المناسبة إلى إنفاق ١٥ مليون دولار لإنتاج فيلم سينمائى عن تاريخ هونج كونج عنوانه «حرب الأفيون» فقط لكى تذكر الجميع بالحكاية من أصلها وفصلها. وبالطبع لم يفتح إعلامنا المحترم نفسه – إذاعات وتليفزيونات – إلا لهونج كونج الواردة إلينا عبر القنوات الفضائية التى يتعامل معها والتى لا تتضمن – بصدفة غريبة حقا – إلا كل ما هو غربى المذاق والمضمون والإعداد والإخراج. وبامتداد عشرات من الشرائط الإخبارية التليفزيونية لم يتحدث عندنا أحد مطلقا عن علاقة هونج كونج بالأفيون وحرب الأفيون..

والقصة باختصار هى أن الصين صاحبة واحدة من أقدم وأعرق الحضارات فى التاريخ الإنسانى لكنها مثل كل عزيز قوم ذل تحولت فى الخمسمائة سنة الأخيرة إلى «ملطشة» لكل وافد جديد إلى عرش القوة فى العالم. لقد ذهبت إليها بقوة الغزو كل من البرتغال وأسبانيا وهولندا إبان ارتفاع نجم كل منهم. واعتبارا من القرن التاسع عشر دخل السباق وافدون جدد إلى عرش القوة العالمية.. بدءا من بريطانيا العظمى إلى فرنسا إلى المانيا إلى الولايات المتحدة إلى اليابان إلى روسيا.. حتى بلجيكا.

ومع حلول سنة ١٨٩٩ مثلا أصبحت معظم وأهم أراضى الصين مقسمة إلى مناطق نفوذ بين كل أقوياء الغابة الدولية الفرحين بقوتهم. وفى مدينة شانغهاى – الميناء والمدينة التجارية الأولى فى الصين – أصبح هناك ١٣ دولة ترفع أعلامها الخاصة إعلانا صريحا عن سلطتها المتميزة فى حماية رعاياها وأيضا حماية المتاجرين معها من الصينيين، حمايتهم من حكومتهم.

نعود إلى هونج كونج. فامبراطورية بريطانيا العظمى بمجرد ارتفاع نجمها طاحت فى العالم احتلالا وغزوا بما فى ذلك الهند وقتها ومصر بعد قليل. ومن هناك بدأت بريطانيا المتاجرة مع الصين. لقد وجدت فى سوق الصين ما تشتريه – الحرير والشاى وخلافه – لكنها لم تجد لديها الكثير الذى تغرى به الصين، على شرائه.ثم إن الصين، وهى الامبراطورية ذات الماضى الحضارى

القديــم لديها توجس غريزى ضد كل مــا هو أجنبى، وتعتبر أن كل الأجانب «برابرة» والتجارة مع البرابرة يجب أن تكون فى أضيق الحدود، وعبر مكان واحد فقط فى أرضها هو «كانتون». لم يكن هذا من فراغ فقد فتحت الصين أبوابها من قبل لبعض هؤلاء الأجانب حينما وجدتهم يبدأون الحديث عن الخير والإنسانية والمحبة والإخاء والسيد المسيح.. لكى تكتشف فى كل مرة أنهم أبالسة لا يبحثون إلا عن الربح من أقصر طريق.. وبالحرام. أو أنهم مجرد جواسيس يجمعون المعلومات لحساب أشرار قادمــين فى الطريق.. فرضت الصــين إذن قيودها الخاصة على التجارة مع «البرابرة» الأجانب. لكن الآن تجىء بريطانيا العظمى لكى تقول إن هذا الكلام لا يعجبها بالمرة لأسباب مجلجلة. فبريطانيا – المنتشــية بقوتها الطارئة – أصبحت ترى نفســها رســولا للحضارة والصين يجب أن تعرف أنها هــى التى تمثل البرابرة وبريطانيا لم تسـيطر على البحار ابتغاء مرضــاة الله ولكن لكى تتاجر مع الآخرين بشروطها. وبريطانيا مفوضة من السماء بأن تمطر بمدافعها وبوارجها المسلحة كل بلد على سـطح الأرض يهيأ له أنه ســيناقش معها شروط تبادل التجارة. يناقش؟ وشروط؟ وتجارة؟ إذن..هو الجانى على نفسه.

هكذا، وباســم حرية التجارة، بدأت بريطانيا تزرع الأفيون (بالدقة: نبات الخشــخاش الذى يجرى اســتخلاص الأفيون منه بعد ذلك) فى الهند وتنقله بســفنها إلــى الصين لكى تروج له بين ملايين الصين بأسعار مجزية وأرباح فاحشة وسريعة. وبمجرد أن يدمن الصينيون الأفيون يصبحون هم الأكثر إلحاحا على طلب المزيد منه.

هكذا امتلأت أسواق الصين بالأفيون وامتلأت فى نفس اللحظة خزائن بريطانيا بالأرباح. وأصيب امبراطور الصين بالذعر من ضخامة أعداد الضحايا بين شعبه فأصدر قرارا بتحريم الأفيون وهاجمت قواته التجار البريطانيين فى مدينة واحدة فاســتولت على عشــرين ألف صندوق من الأفيون وقامت بحرقهــا علنا. بعدها كتــب الامبراطور إلى الملكة «المتحضرة» فيكتوريــا ملكة بريطانيا التى تمنع زراعــة أو تــداول الأفيون فى بلادها هى.. متوقعا أن تنضم إليه فى منــع تلك التجارة التى تلعنها السماء.

وســرعان ما جاءه الرد عمليا.. ليس من الســماء ولكن من بريطانيا. لقــد كلفت الملكة بوارجها المســلحة بغــزو الصين فيما ســمى وقتها بـ «حــرب الأفيــون» – ١٨٣٩/١٨٤٢ – وانتهت بهزيمة عسـكرية مروعة للصين وإذعانها لواحدة من أغرب المعاهــدات فى التاريخ. لقد التزمت الصين أولا بفتح الموانىء الخمســة الكبــرى لديها أمام التجارة البريطانية بما فيهــا تجارة الأفيون. والتزمت بدفع ســتة ملايين دولار نقدا تعويضا عن صناديق الأفيون التــى أحرقتها. والتزمت بدفع تكاليف الغزوة العسكرية البريطانية ذاتها. و – فوق البيعة – احتلت بريطانيا جزيرة هونج كونج ثم مدت غزوها بعد ذلك إلى «كولون» المجاورة، ثم إلى المزيد من الأراضى المجاورة. وبمقتضى معاهدات ثلاث

متتابعة أصبحت هونج كونج ومحيطها مؤجرة لبريطانيا العظمى لتسعة وتسعين سنة تنتهى فى سنة ١٩٩٧. حكم القوى على الضعيف.

فى حينها بدت ٩٩ سنة دهرا كاملا يجعل الملاك الأكبر - بريطانيا - راضى النفس عن رعاياه الأضعف «نتذكر أيضا عقد امتياز قناة السويس كان لمدة ٩٩ سنة». ولأن التاريخ يجىء للقوى غالبا بمن هو أقوى منه فقد جاءت اليابان فى سنة ١٩٤١ واحتلت هونج كونج بعد طرد بريطانيا. لكن بعد هزيمة اليابان فى ١٩٤٥ عادت بريطانيا. فى هذه المرة شوكتها مكسورة قليلا لبزوغ قوة أكبر – وأن تكن حليفة – هى الولايات المتحدة. وفى البداية نصحت أمريكا بريطانيا بإعادة هونج كونج إلى الصين أخذا بالحق والعدل والأصول. لكن بمجرد استيلاء الشيوعيين على السلطة فى بكين سنة ١٩٤٩ نسيت أمريكا نصيحتها وكل ما يتعلق بالحق والعدل والأصول.وبالتدريج بدأت بريطانيا تحول هونج كونج إلى مركز تجارى يمزج رأس المال الدولى مع العمالة الصينية الرخيصة مع السوق المتسع.. وبالأساس سوق الصين ذاتها. وخلال حرب فيتنام وتورط أمريكا فيها أصبحت هونج كونج أولا قاعدة للسفن الحربية الأمريكية وفى الوقت نفسه ملهى ترفيهيا للجنود الأمريكيين القادمين فى إجازات من كابوس الحرب. كده مكسب، وكده مكسب. والأسم هونج كونج والسمسرة لبريطانيا التى كانت عظمى.

وفى سنة ١٩٨٢ أحست مارجريت تاتشر رئيس وزراء بريطانيا بأن الزمن يجرى وباقى منه ١٥ سنة فقط فى هونج كونج. ولأن تاتشر منبهرة قديمة بونستون تشرشل فإنها حفظت عنه قولته الشهيرة: «لا أحد يأخذ شيئا تحت يد بريطانيا إلا بحرب». ولأن تاتشر كانت قد قامت لتوها بحرب منتصرة ضد الأرجنتين بسبب جزر فوكلاند وهى من بواقى مستعمرات بريطانيا فى المحيط الأطلنطى فقد ذهبت تاتشر إلى الصين مشدودة القامة مرتفعة الصوت ومسلحة فى يمينها بانتصارها ضد الأرجنتين وفى يسارها بمقولة تشرشل. والموضوع باختصار هو: بريطانيا تريد من الآن موافقة الصين على استمرار السيادة البريطانية فى هونج كونج بعد سنة ١٩٩٧.

يومها سمعت تاتشر الرد من الصينيين بنفس الاختصار: هونج كونج أرض صينية تعود إلى الصين فى الموعد المقرر.. بالسنة واليوم والساعة.. وبالضبط لحظتها فوجئت تاتشر بالرد الصينى تماما – هدوءا وحزما واختصارا – إلى درجة أن قدميها تعثرتا بها وهى تهبط سلالم قاعة الشعب الكبرى فى بكين.. فى صورة تلخص ما جرى ونشرتها صحف العالم من أقصاه إلى أقصاه.

مرة بعد مرة ومفاوضات بعد مفاوضات.. وأخيراً صدر عن الجانبين اتفاق مشترك فى سنة ١٩٨٤.

فأما بالنسبة للسياسة الخارجية والسيادة العسكرية فليس لدى الصين مساومة أو فصال. لكن طالما ينحصر اهتمام بريطانيا بالتجارة فى هونج كونج – والتجارة الشرعية – إذن توافق الصين

على استمرار الحياة الاقتصادية فى هونج كونج على ما هى عليه، وطبقا لما تراه الصين ذاتها محققا لصالحها.

هذا هو ما رأيناه بالضبط فى الساعة الأولى من صباح أول يوليو ١٩٩٧. لكن السؤال هو: لماذا؟ هل خرجت بريطانيا من هونج كونج اقتناعا بفضائل الأخلاق.. وعادت إليها الصين انتصارا للحق والفضيلة؟

أبدا. ليس فى السياسات الدولية.. لا حق ولا أخلاق ولا فضيلة. كل المسألة أن كلا من الصين وبريطانيا تعلم درسا من الآخر. فالصين من ناحيتها تعلمت أن السياسة الدولية هى غابة للوحوش الكاسرة، البقاء فيها للأقوى. فلتكن الصين صاحبة حضارة عظيمة فيما مضى، ولتكن هى التى قدمت للإنسانية بعضا من أفضل ما عرفته. لكن هذا يشبه شخصا يعيش على سمعة أجداده وآبائه بينما هو ذاته لا هنا.. ولا هناك.

وفى لحظات انهيار الصين كان امبراطورها يستخدم فى مراسلاته مع الحكام الآخرين القول الصينى المأثور: «لا أحد يجرؤ على الشخير قرب سريرى». لكنهم كانوا يجرؤون. ويشخرون. ويرمونه هو نفسه من فوق سريره. بل ويحرقون قصره الصيفى الفريد فى العاصمة بكين.

ولقد كان الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو يقول إن كلا من الصين والهند شبه قارة فى ضخامتها، وبتلك الصفة فإن كلا منهما يشبه الفيل.. إذا سقط على الأرض احتاج إلى فترة طويلة من الزمن ليتمكن من الوقوف ثانية.

ولفترة طويلة اختارت الصين الانسحاب من العصر والانعزال وراء أسوارها. لكنها فى كل مرة كانت تكتشف أن انسحابها هذا يجعلها أكثر ضعفا وأقل معرفة بأسباب القوة الجديدة فى عالم متغير. فإذا كان على الصين أن تكسر مرحلة إذلالها وانتهابها على أيدى الآخرين يصبح عليها أولا أن تدرس بصرامة وجدية أسباب قوة الآخرين..وتعمل بهمة ليل نهار لكى تلحق بهم وتتقدم عليهم.

وبريطانيا هى الأخرى تعلمت درسها الخاص من الصين. فالجهل والتخلف والانكفاء على الذات ليس قدرا أبديا.. ولا المعرفة والتقدم والتكنولوجيا احتكاراً أعطته السماء لفصيلة من البشر ضد فصائل أخرى. لقد أخذت بريطانيا العظمى حظها من خلال قواتها البحرية باتساع العالم. لكن العالم ذاته يتعلم من هزائمه بقدر ما يستفيد الأقوياء من حظوظهم. لم تكن بريطانيا أول امبراطورية تستأسد على الآخرين.. ولن تكون آخر امبراطورية يمضى زمنها.

ومن بين الآف التعليقات التى ترددت حول العالم بمناسبة عودة هونج كونج للسيادة الصينية لفت نظرى تعليق واحد قاله كاتب بريطانى اسمه ايان جاك. قال: «إن الامبراطورية أعطت

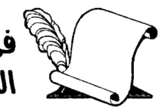
للطبقــة العاملــة البريطانية أفضل الأجور في العالم. وكان هذا شــيئا عظيمــا وفائق الأهمية حدث لنــا كبلد صغير. إن الدرس هو: لا تصدق أبداً دعايتك الخاصــة. فبريطانيا لم تحرز امبراطوريتها بســبب صفات اســتثنائية ورثها الشــعب البريطاني عن آبائه وأجداده. لقد أحرزت بريطانيا تلك الامبراطورية أساسا من خلال مركزها الذى حققته لنفسها كأول دولة صناعية. درس آخر هو: كن لطيفا دائما مع الناس وأنت تشــق طريقك إلى أعلى.. تحسبا لاحتمال أن تقابلهم بعد ذلك وأنت فى الطريق إلى أسفل..»

و.. لــم أكن أريد العودة إلى صديقى الذى بدأت به وهــو يفاجئنى بإغمائه لحظة هبوط الطائرة إلى مطار هونج كونج. لكن المشــكلة هى أنه كان من المؤمنين دائما بأن ســعد زغلول فى آخر لحظات حياتــه كان يائســا من كل ما حوله إلى درجة أنه قال لزوجته: ما فيــش فايدة.. غطينى يا صفية. ثم: مات.

ألف مرة أقول لصديقى هذا إن تلك الشــائعة غير صحيحة، ولا يمكن تصورها من زعيم بحجم ســعد زغلول، وانســانيا حتى هــى مقولة لا تعقل. لكنهــا من نوع الإشــاعات الموجهة التى كانت مارجريت تاتشــر تتمنى أيضــا ترويجها بين الصينيين.. حتى تنخلع قلوبهم ويســلموا لبريطانيا بملحق إضافى للبقاء فى هونج كونج.

لكن هونج كونج عادت فى الموعد المقرر بالسنة واليوم والساعة.. بالضبط.

□□□



في العاصفة :
الطالبة دينا تسأل .. والرئيس يشرح

توقفت كثيرا عند السؤال وموضوعه. هذه مواطنة مصرية أشاهدها على شاشة التليفزيون. مواطنة اسمها «دينا» طالبة في جامعة طنطا. والمسئول الذي يواجهها مع المئات غيرها من شباب الجامعات هو رئيس الجمهورية. وبكلمات محددة تسأل الطالبة دينا رئيس الجمهورية عن السوق العربية المشتركة. والرئيس حسني مبارك يرد. أو بالدقة: يشرح. وفي شرحه جاءت كلماته بسيطة ومحددة والأهم من كل شيء: احترام عقل هذه الطالبة، وهذا الجيل، في ذلك اللقاء الذي لفت نظري بين الرئيس وطلبة الجامعات في الأسكندرية وأذاعه التليفزيون مسجلا بعد وقوعه بيومين.

لقد توقفت عند هذا السؤال تحديدا ليس فقط لأنه سؤال الساعة، ولكن لأنه يتعلق بالمستقبل. هل للجيل الجديد مستقبل؟ وأي نوع من المستقبل؟ هل سيظل ١٤ مليون طالب وطالبة يذهبون إلى مدارسهم وجامعاتهم كل صباح في مصر وحدها؟ وحينما يتخرجون في معاهدهم وجامعاتهم هل سيحققون أحلامهم في الحياة العملية.. زائد أحلام أهاليهم الذين استثمروا فيهم تحويشة العمر - مالا وجهدا واهتماما وقلقا ورعاية؟ وهذا البلد الذي استثمر بلايين الجنيهات لكي يصبح الجيل الجديد أوسع وأعمق تعليما من جيل سابق.. هل سيرد إليه هؤلاء جزءا من التكلفة؟ هل سيفيض من دخلهم أصلا ما يعوضون به الأهل والمجتمع عن بعض التكلفة؟وهذه الطالبة التي تسأل، متوجهة باستفهامها إلى رئيس الجمهورية شخصيا، هل هي تعي فعلا مضمون تلك الكلمات الثلاث: سوق عربية مشتركة؟ أليس ملفتا هنا أن يشغل الجيل الجديد نفسه بأي شيء فيه عروبة.. في الوقت الذي يجري فيه محاصرته ليل نهار بكل ما يجعله يكفر بالعروبة ذاتها؟

إنها أسباب عديدة تلك التي جعلتني أتوقف بتأمل عند سؤال الطالبة دينا. ثم أسباب أخرى للتوقف عند شرح الرئيس. قلق الرئيس. هموم الرئيس. بالطبع هو يسعى لإقناع الآخرين بالمشاركة في إقامة سوق عربية مشتركة. إنه بحكم المسئولية مقتنع بحيويتها. وهو أيضا بحكم الواقعية يعرف مصاعبها. وفي إحدى النقاط كشف الرئيس عن قلقه العميق من إتفاقية «الجات» التي تحولت قبل سنتين إلى مؤسسة دولية باسم «منظمة التجارة العالمية». فإذا كانت الطالبة دينا تريد الحقائق

فأولها هو أن «اتفاقية الجات هذه – وأقولها بصراحة – هى لصالح الدول الغنية على طول الخط».. بما يعنى أنها تفرض على مصانعنا ومؤسساتنا الدخول فى منافسة غير منصفة على الاطلاق.. إلخ.

لا أريد الاسترسال هنا فى موضوعات يعتبرها المتخصصون ميدانهم. لكن الموضوع الآن أكبر من المتخصصين. أكبر كثيرا. وقبل أسابيع كنت مدعوا من إذاعة «صوت العرب» للتحدث فى ندوة كبرى مذاعة بعنوان «نحو سوق عربية مشتركة». ندوة أدار مناقشاتها كل من الصديقين الدكتور على الدين هلال عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وعصام الدين رفعت رئيس تحرير مجلة «الأهرام الاقتصادى» .. ونطاق المتحدثين يتراوح بين الأمين العام المساعد للجامعة العربية ورئيس مجلس الوحدة الاقتصادية بالجامعة العربية وأساتذة وخبراء متخصصين.

وفى الجزء الأول من الندوة رجوت الدكتور على الدين هلال إعفائى من الحديث رغبة فى متابعة المناقشات فأصر على أن أشارك فى جزئها الثانى. بعدها فوجئت ثلاث مرات. أولا بالحماس الساخن من جمهور الحاضرين. ثانيا بعدد الرسائل التى تلاحقت على من مكتبى بجريدة «أخبار اليوم» من مستمعين تابعوا الندوة عند إذاعتها. وثالثا لأن منتصف الليل ـ فى تصورى الذى اكتشفت خطأه ـ ليس وقتا مناسبا لجذب المواطن العادى بعيدا عن شاشة التليفزيون ليتابع مناقشة جادة فى موضوع غير مسلّ بطبيعته.. واعيا بأن فكرة السوق العربية المشتركة أصبحت الآن مسألة حياة أو موت. وبتلك الصفة فإنها أخطر كثيرا من تحميل مسئوليتها للمتخصصين وحدهم.

لقد أصبح على المحك الآن مئات من المصانع مهددة بإغلاق أبوابها أمام منافسة أجنبية غير منصفة، وفى أسواقنا نحن. هناك ملايين من الناس مهددون بالبطالة بامتداد العالم العربى خلال سنوات قليلة. هناك خدمات توفرها الدولة حاليا، ومن مصر إلى تونس إلى السعودية إلى الكويت، وقد لا تجد الدولة مستقبلا موارد تسمح لها بالاستمرار فيها. هناك عاصفة عاتية قادمة إلينا من الشمال. بل نحن فى قلبها منذ سنتين، باسم تحرير التجارة العالمية. كلمات وشعارات براقة وجذابة تقول لنا: افتحوا أبوابكم أمام المنافسة العالمية. مصانعكم. بنوككم. مدارسكم. جامعاتكم. مرافقكم. أسواقكم بالكامل يجب أن تصبح مفتوحة أمام السلع الأجود والأرخص.

منطق جذاب ومغر. عيبه الوحيد أنه أقصر الطرق إلى الجحيم. فأولا وأولا وأولا: لم يحدث فى تاريخ المائتى سنة الأخيرة أن حققت دولة واحدة فى العالم نهضة اقتصادية من خلال التحرير الكامل لتجارتها مع الآخرين. لا شرق ولا غرب ولا جنوب ولا شمال نهضت فيه دولة واحدة. – وأكرر: دولة واحدة – اقتصاديا بشعار تحرير التجارة المضلل هذا.

وقبيل أن أجلس لكتابة هذا المقال توقفت متأملا عند خبر منشور. الخبر يقول إن الحكومة بدأت لتوها تطبيق قانون جديد أصدرته بفرض الرسوم الجمركية على الواردات من الخارج. ومع

وصول أول باخرة فرنسية من الخارج فوجيء المواطنون العائدون بمندوبي الجمارك يتعاملون معهم بصرامة. فباستثناء السلع التي يأتي بها الركاب معهم لاستعمالهم الشخصي هناك رسوم جمركية باهظة على كل شيء آخر. ووسط سخط الركاب من معاملة مندوبي الجمارك وقفت سيدة تحتج بصوتها وبعينيها الدامعتين: هذه ملابس شخصية اشتريتها من باريس لاستخدامي أنا.. كيف تطلبون مني رسوما جمركية عنها؟ وأمسك مندوب الجمارك بأثواب السيدة يتفحصها بهدوء ثم قال لها: لا يا سيدتي. هذه الملابس لا يبدو عليها أنها مستعملة، وبالتالي فالرسوم هي الرسوم وعليك بتسديدها الآن وإلا سنصادر هذه الملابس طبقا للقانون الأخير.

بأمر من حدث هذا؟ كمال الجنزوري رئيس وزراء مصر؟ رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان؟ وأين جرت الواقعة؟ في عدن؟ في بومباي؟ في مرسيليا؟ أبدا. لقد حدث هذا في نيويورك بالولايات المتحدة والتاريخ هو: ٤ أغسطس سنة ١٨٩٧ – أي قبل مائة سنة بالضبط.

في اليوم التالي ونحن هنا مع جريدة «الهيرالد تريبيون» الأمريكية ـ نقرأ خبرا آخر بعنوان «الحرب الاقتصادية» والخبر بعث به مراسل الجريدة في باريس.. وهو ينقل عن الحكومة الفرنسية اعتراضها الغاضب على صدور القانون الأمريكي الأخير بفرض الرسوم الجمركية المرتفعة على الواردات، و: «مستر هنري بوشير وزير التجارة الفرنسي يعتبر أن هذا القانون الأمريكي الجديد هو إعلان أمريكي بالحرب الأقتصادية ضد أوروبا.. وبكل الغضب يرى الوزير الفرنسي أن الأمريكيين يغلقون أبوابهم أمام الواردات من أوربا فقط لأن لديهم أوهاما بأنهم أقل احتياجا لأوروبا، وهذا الوهم سببه اكتفاؤهم الذاتي من البترول والقطن. حسنا: «سوف نثبت لهم أننا أيضا نستطيع الاستغناء عنهم. فالبترول سوف نصنع بديلا عنه من الكحول، والقطن سوف نحصل عليه من المستعمرات»!.

مع ذلك لم تقيد الولايات المتحدة وارداتها بالقوانين فقط. إن ابراهام لنكولن مثلا، وهو من أبرز الزعماء الأمريكيين، كان يكرر في خطاباته العامة المعنى التالي: «باعتباري محاميا ورجل قانون سابق فإنني لا أفهم في الاقتصاد. لكن بصفتي رئيسا للولايات المتحدة أعرف ما يلي: إنك كمواطن أمريكي حينما تشتري سلعة مصنوعة في بريطانيا مثلا فإن الذي يستفيد من دولاراتك في هذه الحالة هو عامل بريطاني صنعها وصاحب مصنع بريطاني أنتجها وخزينة بريطانية أخذت عليها رسوما وصاحب سفينة بريطانية نقلها عبر المحيط. أما إذا اشتريت سلعة أمريكية فإن كل المستفيدين هؤلاء يكونون أمريكيين وتصبح الضرائب التي يسددونها هي ذاتها التي تقام بها خدمات ومرافق لك ولأولادك».

والآن قد يرد البعض هنا بالقول بأن أمريكا ـ كنموذج لغيرها ـ ربما فعلت ذلك في الماضي فقط لأنها كانت لاتزال ضعيفة وفقيرة فاضطرت إلى تقييد تجارتها مع الآخرين. يجوز. لكن ماذا عن

القرن الحالى؟ عن سنة ١٩٩٧؟ أليست أمريكا هى الآن القوة العظمى الوحيدة فى العالم؟ أليست حاملة الأسواط الثلاثة فى يديها - صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية - التى تلهب بها ظهور الآخرين دفعا إلى فتح أسواقهم؟

مع ذلك فحتى اللحظة الراهنة هناك مئات من القيود، المنظورة وغير المنظورة فى السوق الأمريكية ذاتها ضد واردات الآخرين. كيلو السكر مثلا تشتريه فى أى مدينة أمريكية بضعف ثمنه فى السوق العالمى لأن واردات السكر الأجنبى لو تدفقت إلى السوق الأمريكية فسوف تغلق صناعة السكر الأمريكية أبوابها. والمزارعون الأمريكيون بشكل عام تعطيهم الخزينة الحكومية الأمريكية مليارات الدولارات سنويا دعما لهم حتى يستمروا فى الزراعة فى بعض الحالات .. أو حتى يتوقفوا عن الزراعة فى حالات أخرى. عسل النحل: هل يوجد أبسط منه؟ مع ذلك اشتكى منتجو عسل النحل الأمريكيون من أن استيراد عسل النحل الأجنبى وهو الأجود والأرخص - سوف يؤدى بهم إلى الافلاس.. والحل؟ الحل هو أن تستمر الولايات المتحدة فى إغراق الدول الأخرى بمواعظ تحرير التجارة وترك المنافسة مفتوحة للأجود والأرخص. أما بالنسبة لعسل النحل فالمسألة بسيطة. لقد صدر قرار بمنع استيراده إلى السوق الأمريكية لأن حماية الانتاج الأمريكى من عسل النحل هو - صدق أو لا تصدق - مسألة يستلزمها حماية الأمن القومى.. الأمريكى.

فى صناعة السيارات مثلا اكتشفت أمريكا أنها تعانى عجزا تجاريا مع اليابان يصل إلى خمسين مليار دولار فى السنة، والسبب الأول فى ذلك هو مبيعات السيارات اليابانية فى السوق الأمريكية. لنتذكر هنا أن أمريكا هى التى ابتدعت صناعة السيارات قبل العالم كله. لكن الدنيا كده. يوم فى الطالع ويوم فى النازل. وفى عشرات المرات، ومن مستوى رئيس الجمهورية ونازل، تلاحق أمريكا اليابان بشكواها من غزو السيارات اليابانية للسوق الأمريكية. واليابانيون فى كل مرة يردون: يا سيادة الرئيس الأمريكى.. نحن لا نرغم مواطنا أمريكيا على شراء سيارة يابانية، أو فيديو يابانى، أو تليفزيون.. إلخ.. ألستم أنتم أكبر دعاة التجارة الحرة وأن البقاء فى السوق يجب أن يكون للأجود والأرخص؟

لكن على مين؟ حرية التجارة والأسواق شعار هائل يرفعه فقط من يعمل الشعار لصالحه. لكن ساعة المعمعة.. انس الأسواق والمنافسة والحرية. هنا: لا حرية. هكذا ضغطت أمريكا على اليابان لكى تفتح سوقها أمام السيارات الأمريكية. اليابان فتحت. ضغطوا عليها بعدها لكى تلزم معارض السيارات داخل اليابان ذاتها لكى تعرض السيارات الأمريكية فى نفس الأماكن . اليابان التزمت. وعرضت. بعدها صحب الرئيس الأمريكى-جورج بوش وقتها - رؤساء أكبر ثلاث شركات أمريكية منتجة للسيارات، كأعضاء فى وفده الرسمى الزائر لليابان.. فى سابقة خطيرة لاستخدام الضغوط السياسية رسميا لتحقيق منافع تجارية.. *وهو ما ترفضه أمريكا ذاتها من الآخرين*.. وبشدة.

وذات يـوم خرج رئيس وزراء اليابان يناشـد شـعبه: يـا جماعة أرجوكم اشـتروا أى حاجة أمريكاني.. اشـتروا سـيارات.. تليفزيونات.. حتى الأرز – وهو فى القاموس اليابانى مسـألة أمن قومي فعلا – أناشدكم لتشتروا أرزا أمريكانيا لأن الهدف مساعدة أمريكا فى تقليل عجزها التجارى مـع اليابـان.. وطبعا الزعل مع أمريكا يحرق الدم.. فأمريكا هى بابـا وماما وأنور وجدى.ومع ذلك استمر الحال على ما هو عليه. فالمواطن اليابانى استمر يشترى فقط انتاج بلاده.. والمواطن الأمريكى استمر هو الآخر يشترى.. إنتاج اليابان.

ولأنه لا شـئ عند أقوياء العالم اسـمه مسـتحيل فقد أصبح آخر اتفاق أمريكى مع اليابان يقوم علـى فكرتـين أولا – أن تلتزم اليابـان بعمل «قيود اختياريـة» على صادراتها من السـيارات إلى السـوق الأمريكية فلا تتجاوز قدرا متفقا عليه. والمضمون هنا هو وجود «قيود» لكن اللعبة اسـمها «اختياريـة» مفهوم؟ ولأن الفأر اسـتمر يلعب فى عب الواعـظ الأمريكى فقد فرض على اليابان حلا ثانيا – لزوم التأكد – وهو أن تشترى اليابان من مصانع السيارات الأمريكية حصصا سنوية محددة من أجزاء السيارات ، تقوم اليابان باستخدامها فى صناعة سياراتها هى. طبعا هذا حل مدهش لأن المواطن هنا – أمريكى أو حتى يابانى سيسـتمر فى شـراء السيارة على أنها يابانية عنوانا.. ولكن بعشرين أو ثلاثين بالمائة من أجزائها صناعة أمريكية.. مضمونا.

كل هذا اللف والدوران هدفه الاسـتمرار فى وعظ الآخرين بشـعارات حرية التجارة والأسـواق المنافسة.. إلخ.. وطبعا من لا يعجبه كلام أمريكا هو حر. لكن فى اليوم التالى سيدق أبوابه صندوق النقد الدولى. ثم البنك الدولى.. ثم منظمة التجارة العالمية. والنصيحة المتكررة فى كل مرة هى: اسمع كلام أمريكا. افتح السـوق. دع المنافسة تأخذ مجراها. اترك البقاء للأصلح والأجود والأرخص. فإذا أغلقت مصانعك وتشـرد عمالك لاتحزن. هذا جزاء الكسالى. وإذا جاع الناس وتحولوا إلى متسولين أو غاضبين.. لا يهم . التسول والغضب علاجهما بسيط. سلح الشرطة وتوسع فى السجون.

مـن المهم هنا أن نلاحظ أمرين: أولا ـ أن امريـكا لا تفعل ذلك حبا فى افقار الآخرين أو اصرارا على اضعافهم. لكنها تفعله أساسا لحماية مصالح شعبها. ولو كنا فى مكان الأمريكان لفعلنا مثلهم.. فالسياسـات الدولية يضعها أصحاب العقول الباردة وليس المبشرين وأصحاب الرسالات. ثانيا – ان هناك بين الأمريكيين أنفسهم من لديه من صفاء العقل ويقظة الضمير ما يسمح له برؤية التاريخ فى سياقه الأوسع.

ليس فى التاريخ أبدا منتصرون دائمون ولا مهزومون دائمون. ليس فى التاريخ أيضا أولاد تسعة وأولاد خمسـة. كلنا أولاد تسـعة. بالقليل.. أولاد سـبعة. وبتلك الصفة فإن مؤرخا أمريكيا كبيرا بحجم آرثر شـليزنجر مثلا، الذى كان واحدا من أبرز وألمع مستشـارى الرئيس الأمريكى الراحل

جون كينيدى، كتب ذات مرة معترضا بشدة على نصائح واشنطون للدول الأخرى، مباشرة أو من خلال صندوق النقد الدولى، فقال: «لو أن المقاييس التى يطبقها صندوق النقد الدولى حاليا على الدول النامية كانت قد طبقت على الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر فإن نمونا الاقتصادى كان سيستغرق وقتا أطول بكثير. والآن فإن قيامنا بإلقاء المواعظ على الدول النامية لتطبق سياسات انكماشية فى اقتصادها يضعنا فى موقف الغانية العاهرة التى بعد أن جمعت ثروة تسمح لها بالتقاعد - تبدأ فى نصح الآخرين بإغلاق بيوت الدعارة لأنها ضد الفضيلة».

الكلمات تبدو قاسية؟ أبدا. لأن الأكثر قسوة منها هو أن يقول أغنياء العالم الآن لفقرائه: افتحوا أسواقكم للتجارة الحرة. هذا يساوى أن تطلب من طفل فى الخامسة من عمره الدخول فى سباق جرى مع بطل أوليباد، أو تطلب من صناعات ناشئة أن تناطح رأسا برأس صناعات تملك أسواقا أوسع ولديها موارد أكبر وعندها عضلات أقوى تراكمت لمائتى سنة على الأقل.

ثم ان الحرية لا تتجزأ. فمن يريد من الدول النامية فتح أسواقها - عمال على بطال - أمام سلعه ومنتجاته هو.. عليه أيضا أن يفتح أسواقه أمام سلعتنا الأولى التى استثمرنا فيها تحويشة عمرنا. إنهم البشر.

ذات يوم تباحث الرئيس الأمريكى جيمى كارتر وقتها - مع المسئولين فى الصين. والعنوان المفضل لأمريكا وقتها هو: حقوق الإنسان، فباسم حقوق الإنسان يجب على الصين أن تفتح سماواتها وبيوتها للبرامج التليفزيونية والأفلام السينمائية الأمريكية.. ويجب على الصين أن تسمح لمواطنيها بحرية التنقل والسفر.. و.. و..

واستمع رئيس وزراء الصين إلى الرئيس الأمريكى باهتمام بالغ وأدب ملحوظ ولكن مألوف على الطريقة الصينية. أخيرا بدأ يرد قائلا: لنفترض يا سيادة الرئيس أننا نفذنا جانبنا من الصفقة ودخلت الأفلام والمسلسلات التليفزيونية الأمريكية إلى بيوت الصينيين تزكى لهم النموذج الأمريكى فى الحياة وكيف أن كل النساء جميلات ورشيقات وأصحاء، وكل الرجال مليونيرات أو فى طريقهم ليصبحوا مليونيرات. ثم حدث نتيجة لهذا أن انبهر الصينيون بهذا النموذج فى الحياة حيث الفقير يغتنى والجائع يشبع والجاهل يتعلم فى لمح البصر. هل تنفذون أنتم ساعتها جانبكم من الصفقة؟

لحظتها اندهش الرئيس الأمريكى تماما لأنه اعتقد أنه بدور الواعظ استوفى مهمته. لكن رئيس وزراء الصين استرسل قائلا: لنفترض يا سيادة الرئيس أن عشرة بالمائة فقط من الصينيين انبهروا بالنموذج الأمريكى فى الحياة واختاروا الهجرة إلى أمريكا. عشرة فى المائة يا سيادة الرئيس. يعنى مائة وعشرين مليون صينى. هل ستقبلون بهم عندكم إيمانا بحق الإنسان فى الاختيار؟ طيب..

لو خمســة فى المائة فقط هم الذين مارسـوا هذا الحق.. يعنى سـتين مليونا . طيب.. نصف الخمسة بالمائة؟ إذن ما نزال نتحدث عن ثلاثين مليونا. هل أنتم يا سيادة الرئيس تقبلون بفتح أبوابكم أمام ثلاثين مليون صيني؟ أو عشرين أو حتى عشرة ملايين؟

بالطبع لم يرد الرئيس الأمريكي وهو بالتأكيد لم يفاجيء بصمته رئيس وزراء الصين. كل المسألة هي أنه أراد أن يشـرح للرئيس الأمريكى الفارق الجوهرى بين مسـئوليات رجل السياسة فى دولة نامية.. ونظيره فى دولة متقدمة وغنية وقوية.

فى الدول النامية تصبح أهم مسـئوليات رجل السياسـة على الإطلاق هى أولا أن يُبقى مواطنيه على قيد الحياة. أن يلحقوا فى عشر سنين أو عشرين سنة بمن سبقوهم فى التنمية بمائتى سنة. أن يتعاملوا مع هذا العصر باعتبارهم شركاء فيه وليسوا عبئا عليه. أن تكون لهم أعمال كريمة وبيوت نظيفة وأولاد أصحاء يذهبون إلى المدارس والجامعات لأول مرة.

هذا يعنى أننا نتكلم عن البشر. عن الناس. فبحرية تجارة أو بغيرها يظل السؤال الملح هو: هل سـيصبح مجتمعنا غدا أقل فقرا وأكثر ثراء مما هو عليه اليوم؟ تلك هى المسـئولية الأولى لأى نظام سياسي على الإطلاق.. بلا فذلكة ولا لف ولا دوران.

لقـد كانت أنديرا غانـدى رئيس وزراء الهند الراحلة هى التى خاطبت ذات يوم وفدا زائرا لها من دول الشمال الغنية.. بقولها: هناك فارق جوهرى لا يجب أن تنسوه بيننا وبينكم. فأنتم حققتم الثورة الصناعية ودخلتم عصر الصناعة عندكم مبكرا وبرخص التراب. أنتم لم تكتفوا بوضع أيديكم علـى مجتمعاتنا نحن كمسـتعمرات لكـم.. ولكنكم أيضا أخذتم عرق وجهـد طبقتكم العاملة ذاتها برخـص التراب.. ولا رعاية صحية ولا اجتماعية ولا تأمينات ولا مسـاكن ولا مستشـفيات.. إلخ. فى بلادنا النامية لا نسـتطيع ذلك الآن ولا نريده.. لأن من يقيم مصنعا جديدا عندنا عليه فى نفس اللحظة التزام اجتماعى بأن يبنى لعماله مساكن ويقيم لأولادهم مدرسة ويوفر لهم مستشفى ويضمن لهم فى نهاية المطاف تأمينات ضد البطالة والشيخوخة.. إلخ.

ومـن غير أنديـرا غاندى والهند.. عندنا طلعت حرب وبنك مصر مثـلا. فحينما كانوا يأخذوننا كتلاميذ صغار فى رحلة إلى مصانع المحلة الكبرى للنسـيج مثلا.. كنا نشاهد داخل أراضى الشركة المساكن النظيفة للعمال.. وملاعب الكرة.. والمستشفى.. والمطاعم التى تقدم الوجبات بأسعار رمزية.

وكلها أشـياء لم نقرأ عن أى منها فى قصص تشـارلز ديكنز مثلا.. وهو يصور الحياة البائسـة للطبقة العاملة الإنجليزية فى السنوات التى كانت بريطانيا تبنى فيها نفسها كأول دولة صناعية.

سـيأخذنا الكلام هنا إلى بعيد. لكن فى اللحظة الراهنة أتوقف عند تلك المناقشـة التى تابعناها فــى التليفزيون ذات مسـاء من هذا الشـهر بين رئيـس الجمهورية ومن هم فى مقـام أولاده.. فى

الاســكندرية. لقد ســألته الطالبة «دينا» عن السوق العربية المشــتركة بإحساس عميق بالهم والقلق والمسـئولية والأمل. وفى إجابته ساقه الموضوع بطبيعته إلى «الجات» ومنظمة التجارة العالمية وعالم معاصر يصنعه الأقوياء لأنفسهم ولو على حساب الآخرين. أقوياء.. لا نستطيع الانعزال عنهم. وفى نفس الوقت لا نستطيع إغلاق عيوننا عن مصالحنا فى مواجهتهم.

و... معلهش.. أصل الكلام جاب بعضه.. وفى المرة التالية ربما نناقش هنا ماذا تعنى الســوق؟ والعربية؟ والمشتركة؟.

❑❑❑



سندريلا .. بالمقلوب

فــى البداية كان الخبر. ثم تحــول الخبر إلى عنوان. والعنوان إلى تفاصيل متلاحقة. والتفاصيل تشــكلت منها قصة. وخلال أيام قليلة تضخمت القصة لكن بعد تغيير جوهرى واحد: لقد أصبحنا نحن.. القصة... نحن القراء أو المشــاهدين أو الغربــاء أو القريبين أو البعيدين. ملايين بعد ملايين تتابع حدثا «جللا» يجرى من أجله قطع الإرســال وايقــاف المطابع وإذاعات على الهواء وملاحقات عبر الأقمار الصناعية وطبعات خاصة من صحف ومجلات. بل وكتب بكاملها جرى توليفها فى ٢٤ أو ٤٨ ســاعة كمــا لو كان كل هؤلاء مبرمجين مقدما فى انتظار صفــارة حتى يتوقف العالم – العالم الحقيقــى – ويحــل محله عالم بديــل . دنيا بديلة. همــوم بديلة.. فرضت نفســها على الجميع.. متجــاوزة البحار والمحيطات.. مخترقة الحدود والمســافات.. مقتحمة البيوت وغرف النوم: اصح يا نايم. انضم إلينا بسرعة. بحالك التى أنت فيها وملابسك التى ترتديها فسنجعلك تحلق معنا فى المدار الذى نحدده لك.

فقط انس كل شئ من قبل ومن بعد وركز معنا الآن وغدا ولمدة أسبوع كامل على الأقل. فاهم يعنى إيــه؟ ركــز. وركز بهمّة لأن العالم كله يركز وأنت لا تريــد أن تتخلف. فى الحرب العالمية الأولى أرادت الحكومة فى بريطانيا أن تشــحذ همم الناس للتطوع فى الأعمال العســكرية فصممت ملصقا كررته فى كل النواصى والشوارع والميادين. فى الملصق صبى صغير يسأل أباه بجدية وقلق: أين كنت أيام الحرب.. يا بابا؟

الآن شــىء آخر مختلف. ليس حربا ولا عالمية ولا بابا ولا ماما. فقط ســؤال جوهرى سيطاردك مستقبلا ويؤنب ضميرك: أين كنت حينما شهدت باريس مصرع ديانا.. يا سيد؟

عن نفســى وتحســبا لتحقيقات محتملة قد تشــرع فيها الأمم المتحدة – مســتقبلا – كنت فى السرير.

مشــوار كل يوم فى السادســة صباحا حيث أبحث فى الراديو عن أخبار العالم. إنها البى . بى. ســى هيئة الإذاعة البريطانية – والخبر خاطف وســريع – فلاش – يقول تعرضت الأميرة ديانا، أميرة ويلز، لحادث سير مفجع بينما هى فى السيارة مع صديقها الحالى «دودى» الفايد ومرافقيها

يعبرون نفقا فى الطريق من فندق «ريتز» إلى شـقة الفايد. مسـتر فايد توفى. أما الأميرة ديانا فقد جرى نقلها إلى المستشفى تعانى من إصابات خطيرة.

انتهـى الخبر الخاطف. بعدها تكرر كثيرا مع اضافـات متلاحقة. لكن لم يعد هناك «دودى».. ولا فايد. هناك فقط الأميرة ديانا والإذاعة تتصل على الهواء بمراسلين فى باريس.

لقد أدرت مؤشر الراديو إلى محطة أخرى وأخرى لعلى أعرف أخبار باقى العالم. لكن بدا الأمر كما لو أن كل محطة تقول لى: ارجع إلى البى. بى. سى. إلى باريس. وديانا.

لقـد ضـاع وقت الإفطار والصحف إلى أن اكتشـفت أن السـاعة أصبحت العاشـرة. هكذا مضت السـاعات الأربع الأولى وأنـا أتابع مرة ومرات.. وأندهش . وأتابع لأن الخبر سـاخن. وأحزن لأن الحادث مفجع ومأسـاوى. وأندهش لأننى حتى تلك اللحظة لم تكن ديانا هذه تمثل بالنسـبة لى أى شئ جاد. سيدة أنيقة وجذابة للكاميرا وتعيش حياة النجمة وتتصرف كنجمة. حتى وهى تقف أمام المصورين مؤخرا فى البوسـنة فى إطار الترويج لحملة منع الألغام البرية.. تحس أن جوهر المشـهد هو ديانا نفسها. أما الألغام البرية فمجالها الأخبار الجادة.

هى نجمة ومشـهورة. لكن: مشـهورة بماذا بالضبط؟ لم أجد فى أى وقت إجابة جادة على هذا السـؤال. أميرة مثل أخريات سـواء فى بريطانيا أو موناكو أو السويد. أنجبت صبيين أكبرهما ملك محتمل لبريطانيا يوما ما فى المستقبل؟ هذا صحيح لكنها واقعة مضت منذ سنوات ولم تكن بمفردها التى أنجبت.

هناك زوجها، وهو أمير أيضا والمرشـح الحالى الأسبق من ابنه ليكون ملك بريطانيا. لكن اسأل أى عشـرة أشخاص بشكل عشوائي: من يعرف الأمير تشارلز؟ ومن يعرف الأميرة ديانا؟ أنا راضى ذمتك. هذا واقع. ومن الواقع أن ديانا كانت امرأة مشهورة. لا يهم مشهورة بماذا أو لماذا. يكفى أنها مشهورة بكونها مشهورة وتلك قضية خطيرة تالية. أما قضية اللحظة فهى هذا الحادث المفجع حقا الذى فقدت حياتها بسببه. فى الساعات الأولى قالوا إن المذنب هو المصورون الذين كانوا يطاردونها مع رفيقها فى السيارة، وأصبح اسم الشهرة لهم «الباباراتزى» نقلا عن اسم اختاره المخرج الإيطالى فريدريكو فيللينى سنة ١٩٦٠ لبطل أحد أفلامه.. مصور رصيف جشع ومتطفل.

الآن أصبح هؤلاء المصورون المتطفلون ـ الباباراتزى – أول المدانين بالتسـبب فى إحراق السـيارة التـى تهشـمت وبداخلها ديانا. وليوم أو يومـين أدان العالم كله هؤلاء الباباراتـزى باعتبار أنهم سفاحون وقتلة ومصاصو أموال ودماء.

فى نفس الوقت خرج شقيق ديانا ليعلن غاضبا: «كنت طوال الوقت أعتقد أن الصحافة سوف تقتل ديانا فى نهاية المطاف». وفى لمح البصر تحول العالم لإدانة الصحافة. ذلك النوع من الصحافة الذى

يقصده شـقيق ديانا.. أى صحافة التابلويد، أو صحافة الإثارة والفضائح، أو حتى الصحافة الشعبية كما تطلق عليها الإذاعة البريطانية فى برنامج يومى.

وتوارى رؤسـاء تحرير صحف التابلويد تلك خلف مكاتبهم وتحت كراسـيهم هربا من غضب الرأى العام.

لكن بعدها بدأت التحقيقات البوليسـية فى باريس تشـير إلى أن سـائق السيارة كان مخمورا. هنا بالضبط تنفس رؤسـاء تحرير صحف التابلويد الصعداء واعتبـروا ذلك اعلانا لبراءتهم. لكنهم وبخبـرة المحترفـين حولوا اتجاه المدافع فورا إلى ملكة بريطانيـا. هناك جمهور انجليزى غاضب وبالملايـين ولابد من كبش فـداء يضع فيه هؤلاء غلهم. هكذا خرجت صحـف التابلويد البريطانية بعناوين رئيسية تتساءل: أين ملكتنا؟ صحيفة أخرى: شعبك يتألم. تكلمى إلينا يا مدام.

طيب.. المدام وعرفناها.. فهى ملكة بريطانيا. لكن: إلينا؟ إلى من؟ إلى نفس صحف التابلويد التى كانـت ديانا نجمتها وقتيلتها معا؟ نفس الصحف التى دفعت مئات الآلاف من الجنيهات ثمنا لصور تسجل ديانا فى حالة تلبس.. تلبس بالغراميات، أو بالقبلات، أو حتى بالتمرينات الرياضية.

هـؤلاء كانوا متهمين يوم السـبت فأصبحوا هم المدعين والقضاة يـوم الخميس. لقد ازداد توزيع صحفهم بالملايين بسـبب أخبار ديانا وهى ميتة. ديانا سـلعة رواج بالنسـبة لهم. هكذا كانت فى اشراقها. وهكذا تظل فى قبرها.المأساة الحقيقية أن ديانا نفسها لم تكن تدرك ذلك أبدا. هى بنصف تعليم وربع معرفة وصفر ثقافة هيىء لها أنها هى التى تسـتخدم صحافة التابلويد لمصلحتها بأكثر من العكس وأن هؤلاء هم سـبب نجوميتها، ونجوميتها هى سـلاحها الباتر ضد زوجها السابق أب ولديها وضد حماتها ملكة بريطانيا. لقد استمتعت كثيرا بصورها فى صفحات المجتمع. وتحولت إلى فتاة غلاف، فمجلة واحدة نشـرت صورتها غلافا ٤٤ مرة خلال سـنوات قليلة. الآن تجىء المأساة. فتاة الغلاف تنتقل من صفحات المجتمع إلى صفحات الحوادث.

وهؤلاء المصـورون، البابارانـزى، أو المتفرغون لاصطياد صور المشـاهير، كانـت ديانا تعرف معظمهم بالاسـم وتحفظ أرقام سياراتهم وبين وقت وآخر كانت تتبادل معهم المجاملات. وفى مساء نفس اليوم الذى لقيت مصرعها فيه اتصلت هى من باريس بصديق حميم لها فى لندن هو بذاته أحد محررى صحف التابلويد تلك.. وأسرت إليه بأنها تفكر فى التخلى عن جمعياتها الخيرية واعتزال الحياة العامة فى شـهر نوفمبر القادم. غالبا لم يأخذها ذلك الصديق بجدية لأنها قالت ذلك كثيرا من قبل ثم تراجعت فى كل مرة.

أما المصورون أنفسـهم فكانـوا يتعاملون مع ديانـا باعتبارها متقلبة المـزاج فى أفضل الحالات وغريبـة الأطـوار فى حالات أخـرى. وحينما حصلت ديانـا على الطلاق من زوجها قبل سـنة من

رحيلها المأساوى كان من طلباتها التى أصرت عليها هو إبعاد كل حراسة رسمية عنها. فإذا كان هذا - ربما - لخشيتها من أن يصبح الحراس جواسيس عليها لحساب مطلقها.. إذن هل اختارت هى حراسا لها وعلى حسابها؟ إنها فى نهاية المطاف شديدة الثراء فلديها ٦٤ مليون دولار أو ما يساوى ٢٢٠ مليون جنيه. لكنها لم تفعل..وذات يوم صحبت ولديها إلى دار سينما فى لندن. وبعد انتهاء الفيلم خرجت ديانا إلى الميدان المواجه للسينما فلمحت على الفور اثنين من المصورين - الباباراتزى - يوجهان نحوها كاميرات التصوير من بعيد. وحسب وصف أحدهما فى كتاب له فيما بعد فإن ديانا انطلقت تجرى نحوهما بوجه غاضب وشراسة حيوان جريح، بينما ولداها يجريان خلفها بغير إدراك لما تفعله. ديانا تجرى وسط الميدان والناس والحمام الذى طار من على الأرض ذعرا والسياح العابرون توقفوا يتفرجون باندهاش على مشهد غير متوقع. إن أحد المصورين فر هاربا بينما الثانى وقف فى مكانه مستغربا. وبمجرد أن اقتربت منه ديانا صرخت فيه بأعلى صوتها: لقد جعلتم حياتى جحيما. لقد جعلتم حياتى جحيما..

فى تلك اللحظة خلع المصور الكاميرا من كتفه ووضعها على الأرض أمامها قائلا لها: إننى آسف.. تفضلى الكاميرا والفيلم بداخلها يا مدام.. ولك ما تشائين.

هل كسرت الكاميرا؟ خلعت الفيلم؟ أبدا. فقط استدارت خلفا ووضعت وجهها بين كفيها حتى وصلت مع ابنيها إلى سيارتها.. وهناك بدأت تبكى.

أما الحكاية الأخرى الأكثر خطورة فقد وقعت بعد أن سجلت ديانا حوارها الشهير فى برنامج باسم «بانوراما» التليفزيونى الذى تحدثت فيه عن خيانة زوجها لها وخياناتها هى له فى سرير الزوجية.. وبالكثير من التفاصيل.

لقد تبعها نفس الشخصين المصورين وفى اتجاهها نحو الطريق السريع لمحتهما فورا فى مرآة سيارتها. لقد أعطت إشارة بتحركها شمالا وأبطأت سرعتها حتى ترغم هذين المصورين على تجاوزها بسيارتهما. بعدها وخلال خمس ثوان كانت ديانا تسرع بسيارتها لكى تلحق بهما ملامسة السيارة بالسيارة والصد يخبط فى الصد. أحد المصورين استدار فى كرسيه محاولا الإشارة اليها عبر زجاج السيارة بأن تهدأ فلا تصوير ولا يحزنون. الثانى على كرسى القيادة زاد من سرعته إلى ٩٠ ميلا. ثم ١٠٠ ميل. هو يسرع وهى أيضا تخبطهما بمصد سيارتها بعنف. بوم. بوم. بوم. هكذا ضد كل قوانين السير والسرعة والسلوك. أخيرا هدأت ونفست عن غلها فزادا هما من سرعتهما أكثر لكى يبتعدا عنها ويتحولا إلى طريق جانبى تفاديا لحادث يمكن أن يكون مروعا.

فى شهر مايو الماضى أعادت كاتبة انجليزية نشر تلك الواقعة مختتمة مقالها بقولها: إذا استمرت بتلك التحرشات فإن القصة لن تنتهى بالدموع فقط هناك شخص ما يمكن أن يموت وربما

لا يكون هذا الشـخص باباراتزى. هل كانت الكاتبـة تتنبأ؟ بالطبع لا يمكن، وحتى ما جرى لديانا فى باريس يتجاوز أى تنبؤ. لكن الكاتبة كانت تنبه وتحذر. ففى نهاية المطاف ديانا هى المسـئولة عن حياتها.

وحياة ديانا غير سـوية من بدايتها. طفلة فى أسـرة من أغنى العائلات الأرسـتقراطية قديمة الثراء فى بريطانيا. لكنها ولدت على غير رغبة لأن والديها كانا يريدانها ولدا. فى السادسة انفصل أبواهـا وتمزقت هى فى حضانتها بـين أم وأب أصبحا يتبادلان أقصى درجات الكراهية والاحتقار. فـى المدرسـة لم تكن ديانا فالحة ولا ناجحة ولا راغبة. يـادوب تنجح بطلوع الروح. لقد اختصرت كل أحلامهـا فـى واحد من اثنين: إما أن تصبح راقصة باليه.. أو تصبح زوجة للأمير تشـارلز ولى العهد.

هكذا ببسـاطة. ولم يكن هذا غريبا تماما حيث المعرفة قائمة بين الأسرتين. ولأن أحد الحلمين يحتاج إلى مران وتدريب ودراسة ومجهود فقد تحقق لها الحلم الأسهل وأصبحت عروسا لولى عهد بريطانيا فى سنة ١٩٨١.

وعلى طريقة الأسـر الملكية من هذا النـوع، وأيضا من باب التطويـر، أرادت العائلة الملكية أن تحول الزفاف إلى مناسبة احتفالية شعبية، فجعلت الاحتفال أسطوريا وتليفزيونيا ورواجا تجاريا ودعائيا لم يسـبق له مثيل. هكذا وجدت ديانا فتاة العشـرين نفسها محط اهتمام الكاميرات والعالم فجـأة.. وأيضا بصورتها مرسـومة ومطبوعة على القمصان وأدوات المطبخ وأزياء النسـاء.. الخ. لقد أصبحت مشـهورة فجأة، وبغير أى عمل جليل أنجزته. وهـذا هو المفتاح الحقيقى فى رأيى الذى يجب أن يبدأ منه فهم المأساة الحقيقية لديانا.

تلازم هذا أيضا مع وهم كبير لقى قبولا شعبيا عند فتيات كثيرات. وهم: سندريللا والأمير. فى القصة هنا أمير. لكن ديانا لم تكن سندريللا. على الأقل بمفهوم الأسطورة التى نعرفها. لكن الناس هنا تحب أن تخترع الأوهام لكى تصدقها. إذا خرجت ديانا تصبح سـندريللا هى التى خرجت. إذا ارتدت ديانا فسـتانا جديدا يتحول اسمه إلى فسـتان سندريللا . إذا احتجبت قليلا لا يفكر الناس فى أنها ربما تكون حاملا، لأن الحمل وحبوب منع الحمل ينزع الشـاعرية من أسـطورة سـندريللا وهكذا.

والأضـواء التى تجىء فجأة تصبح مصيبـة كبيرة غالبا. أما الأضواء التى تجىء فجأة لإنسـانة نصف متعلمة وغير مجربة ومتعلقة أصلا بذاتها فانها تصبح نذيرا مؤكدا بتطورات غير سوية.

لكن التطورات جاءت على دفعات. فى البداية لم تشعر ديانا براحتها مع طقوس القصر الملكى، وبين عائلة اندمجت فى هذه الطقوس لعشرات السنين وأصبحت تحتمى بها. هل سمع أحد مثلا أن

الملكة اليزابيث - وهى على عرش بريطانيا طوال ٤٥ سنة - غادرت قصرها فجأة بعد منتصف الليل لأنه طرأ على ذهنها أن تسهر فى ملهى ليلى بغير زوجها؟ هذا لم يحدث. لكن ديانا فعلته.ثم.. الملكة تذهب إلى البرلمان لتلقى بخطاب العرش، هى لا كتبته ولا مسئولة عنه ولا سيحاسبها عليه أحد.. فالملكية فى بريطانيا دستورية تملك ولا تحكم لكنها العادة والتقاليد.

فى ذلك المساء بالذات تحضر ديانا بتسريحة جديدة لشعرها ملفتة تماما. فى اليوم التالى يصبح هذا هو الخبر الأساسى عند صحافة التابلويد.. وليذهب خطاب العرش إلى الجحيم.

أو: تذهب العائلة الملكية إلى حفل موسيقى.. وبالتقاليد المقررة يسبق الأمراء والأميرات بالحضور ليكونوا فى استقبال الملكة. الكل ذهب. وتشارلز ذهب. والملكة ذهبت.. لكن ديانا لم تذهب وكعذر عابر قالوا: أصلها مرضت فجأة. لكن بعد عشرين دقيقة تصل ديانا، وفى زى جديد شديد الأناقة تلقفت صحف التابلويد مناسبة كهذه للتوسع فى الحديث عن ديانا.

والرئيس الأمريكى رونالد ريجان وزوجته نانسى أقاما حفل عشاء بالبيت الأبيض تكريما للأمير تشارلز وزوجته ديانا لدى زيارتهما لواشنطون. وحسب الأصول طلبت نانسى ريجان من كل من الزوجين أن يعطياها قائمة بمن يريد كل منهما دعوته. أما قائمة ديانا فأول اسم فيها هو: جون ترافولتا. بعد العشاء جاء من يهمس فى أذن نانسى ريجان: ديانا ترجوك.. نفسها ترقص مع ترافولتا. بس كده؟ قوم يا جون: أمريكا عايزة بريطانيا مبسوطة. شد حيلك وفتح عينيك وافتكر حلف شمال الأطلنطى.

قام ترافولتا. رقصت معه ديانا.. المدعوون بطلوا رقص وتنحوا جانبا متفرجين باندهاش.. هم: هات يا تصفيق. وديانا: هات يارقص.

طيب وتشارلز؟ عادى. الرجل يتكلم مع جاره فى المائدة عن الهندسة المعمارية. طب والناس؟ الناس تانى يوم كلهم لاحديث لهم فى أنحاء أمريكا إلا عن ديانا الراقصة وترافولتا العاشق لرقصها. طيب: والأمير تشارلز والهندسة المعمارية؟ والله.. الغاوى يقرأ عنهما فى جريدة الحزب الوطنى.. الأمريكى.

فى فصلها الأول تقمصت ديانا دور سندريللا. فى فصلها الثانى تحولت إلى «آنا كارنينا» بعد أن هجرها «فرونسكى».

لقد أنجبت ولدين أكبرهما سيصبح ملكا لبريطانيا فى نقطة ما مستقبلا. لكن هى فى واد والزوج تشارلز فى واد آخر. حاولت تنتحر مرة لجذب انتباهه ومرة لجذب انتباه حماتها. ومرة ألقت بنفسها على السلالم لجذب انتباه حماها وحماتها والجميع. الكل أجمع على أنها دلوعة ولا تعرف واجبات العرش الثقيلة. طبعا هى واجبات.. لا هى هنا ولا هناك. لكن الانجليز بالذات مزاجهم

متعكر طوال الخمسين سنة الأخيرة.. خصوصا بعد أن استقلت عنهم «هنا» التي هي الهند.. ثم أخذوا «شلوت معتبر» في مصر وقناة السويس التي هي «هناك». أكيد انهيار امبراطورية ضخمة في جيل واحد يجيب المرض.. ودعنا هنا من واحد متبلد كميخائيل جورباتشوف. الانجليز ـ ولا حتى غيرهم – ليس عندهم جورباتشوف – عندهم ملكة وعرش ونظام دستوري.

لو كانت ديانا أكثر تعليما، أو حرصا على استكمال التعليم. أو أكثر خبرة.. لربما اختلف الأمر. لكن مشكلة ديانا كانت ديانا. سألتها مرة كاترين جراهام صاحبة جريدة الواشنطون بوست الأمريكية بمنتهى اللطف والايحاء: بعد أن أنجبت ولدين وزاد وقت فراغك لماذا لا تفكرين في استكمال تعليمك؟

لكنها اعتبرت السؤال بحد ذاته لا محل له من الاعراب. تعليم واستكمال للتعليم؟ هذا لا يلزمها لأن لديها بدائل أهم.

بدائل مثل الذهاب إلى السحرة والمنجمين وقراء الطالع وأطباء النفس والمحللين النفسيين ومصاحبة نجوم السينما وعارضات الأزياء والإكثار من العطور وأدوات الماكياج والكوافير والمجوهرات والتسوق.. الكثير من التسوق. أما الفواتير، وكلها ساخنة نار، فالحل بسيط: قصر باكنجهام هو العنوان. بعد الخناقات والمصالحات والمشاجرات من جديد.. قررت ديانا ذات يوم أن تنتقم من إهمال زوجها الضمني وخيانته لها فلجأت إلى أشد الأسلحة فتكا بهذا النوع من الأسر الملكية: سلاح الأضواء. فبترتيبات سرية وخطط محكمة وتكتم كامل وتفكير جهنمي جلست ديانا أمام كاميرات التليفزيون تحكي على المفتوح: عانيت من الإهمال. من مرض الشراهة، من البوليميا. حاولت الانتحار. تليفوناتي مراقبة. لن أكون أبدا ملكة لبريطانيا. الأعداء لن يسمحوا لي بذلك. لكن أنا على قلبهم، لن أنصرف بهدوء.

نعم هي أحبت تشارلز وخانها. لكنها أيضا اضطرت لخيانته، ولسنوات، والخيانة ممتعة، خصوصا في فراش الزوجية. طبعا هو جيمس هيويت الضابط الذى قرأتم عنه في الكتاب الذى صدر مؤخرا عن سيرة حياتي. ثم نظرت إلى الكاميرا مباشرة وقالت ببساطة ورقة: «أحببت جيمس. عبدته. قضيت معه كل الأوقات الممتعة». لكنه هو أيضا ـ حسب قولها ـ خذلها وتركها وحيدة. وهي تسامحه.

والعالم قضى نحو ألفي سنة معذبا بسبب صلب المسيح. أما الذى شاهده جمهور التليفزيون، وبالملايين، فهو ديانا المصلوبة. هي ترى أنها مصلوبة وضحية وفي صلبها تحولت الخيانة الزوجية بقدرة قادر وسحر عينين زرقاوين إلى عمل من الأعمال الصالحات. وقبل أن تذرف ملايين المشاهدات على وجه الخصوص دموعهن أمام أجهزة التليفزيون تفاجئهن ديانا من جديد بأنها لن تهزم أبدا.

لـن تنصـرف بهدوء. إن لديها عملا ورسـالة وهدفـا: أن تكون ملكة القلوب. تعنى عندها عرشـا بديلا. هكذا اتسع نطاق جمهور ديانا. فى البداية كانت العذارى الحالمات بالأمير وسندريللا. الآن صاحبات القلوب المحطمة.. الوحيدات الجريحات عاطفيا ونفسـيا والأمهات المضحيات والراغبات فى الانتقام من رجال جاحدين لا يقدرون الاخلاص ويدوسـون على النعمة. شاطرة يا ديانا. فلتسقط الملكـة ولتحيـا حركة المرأة فكل الرجال غادرون غشاشـون. هكذا قالت يومهـا كل من لها تجربة عاطفية سيئة، وهو مايعنى كل النساء فى بريطانيا فوق سن الرابعة عشرة.

لكن المسألة كان لها وجه آخر. فببرنامجها هذا أثارت ديانا حسد كل أصحاب الشركات ورجال المال والأعمال على جانبى المحيط الأطلنطى. يابنت الإيه؟

هكـذا التفاوض واللا.. بلاش. ففـى نفس الفترة كانت ديانا تتفاوض مـع زوجها، ومن خلاله مع العائلة الملكية، على الطلاق. وهى لها شـروط وبملايين الجنيهات وكلما تجاوزت الملايين ثروة زوجها يكون أفضل. أليسـت الملكة أمه؟ خللى أمه تدفع له.بكلمات أخرى كانت ديانا تقول ضمنيا للعائلة الملكية شـيئا أخطر: كنتم تقولون عنى اننى مجنونة؟ هل تريدون أن تروا الجنون بأصوله؟ الليلة مارسـت بعضه أمام الملايين. لكن مازال عندى المزيد.. الملف كبير والفضائح بجلاجل.. وأنتم أحـرار فى الاختيار: طلباتى بالكامل ونقدا وبالملايين، مليون ينطح مليون. هذا.. والا؟ أنا لن أكرر وطلباتى عرفتوها.

نحن هنا لا نتكلم عن إنسـانة فقيرة. أو نص نص. والفلوس التى حصلت عليها فى النهاية ٢٦ مليون دولار بخلاف أشياء أخرى. لكنها لم تضف إلى حياة ديانا شيئا كان ينقصها. فقط هو الانتقام فى شكله التقليدى تماما وبوجهيه: غرام وانتقام.

فى آخر حديث مسـجل لها ولم ينشـر إلا بعد رحيلها بخمسـة أيام كان الوقت قد مضى على الطلاق وتشارلز أصبح يتطلع – صامتا – إلى الزواج بالمرأة الأخرى فى حياته، بينما ديانا دخلت فى علاقات غرامية متتابعة.. تقول عن كل منها فى حينها إنها العلاقة الأكبر والأعمق والأمتع.

برغـم كل هذا فإن ديانا – والحديث مسـجل مع صديقة لها بتاريـخ ٢٣ يونيو ١٩٩٧ – تتكلم بمـرارة واضحة عن تشـارلز زوجها السـابق، فهو فى رأيها يفتقر إلى أى صفـة قيادية وهى الآن تستثمر كل آمالها بشأن مستقبل الملكية فى بريطانيا فى ويليام ابنها الأكبر حيث: «أعتقد أن الوقت قد فات بالنسـبة لباقى الأسـرة» – تقصد زوجها السابق طبعا تشـارلز لأنه: «ولد للقيام بالوظيفة الخطـأ. كان يجب أن يكون سـعيدا بحياة يقضيها بمنزل فى توسـكانى مثلا، مسـتضيفا عددا من الفنانين» فهو باسـتمرار: «شـخص تابع» للآخرين.مع ذلك.. فبعد كل هذه القذائف طويلة المدى، والقاتلة، تأتى اللمسـات الدافئة. فهى آسـفة من كونها لن تصبح ملكة إذا اعتلى تشـارلز العرش.

«لأننا كنا سنصبح أفضل فريق معا فى العالم. أنا أستطيع أن أصافح الأيدى إلى أن تعود الأبقار إلى بيوتها وتشارلز يستطيع الإدلاء بكل الأحاديث الجادة».

وباستثناء النهاية المأساوية المفجعة التى شهدتها حياة ديانا فى باريس فى الساعة الأولى من صباح ٣١ أغسطس ١٩٩٧ يمكن تلخيص القصة كلها فى عنوان واحد تقليدى ومتكرر: غرام وانتقام. أو: الجمال والفراغ، والنجومية أقصر الطرق إلى الهلاك. أو: الجمال والفراغ أقصر الطرق إلى الملايين. أو: الجمال والفراغ والنجومية أقصر الطرق إلى قارات العالم. ففى كل تلك الحالة المأساوية الإنسانية لا مفر أمامنا من مواجهة سؤالين على وجه التحديد:

أى نوع من الشهرة تمثله ديانا؟ ثم: أى نوع من النموذج يتم هنا دفعنا إلى الإعجاب به؟

وفى الإجابة عن السؤال الأول يجب أن نفرق بين نوعين من الشهرة. هناك شهرة تأتى نتيجة لعمل. لانجاز. لموهبة. لإبداع. لعطاء واضح أو تضحية معترف بها. فى مقابل ذلك هناك سلالة أخرى مختلفة تماما وبازغة هى سلالة المشهورين بكونهم مشهورين. لقد قارن البعض بين ديانا وايفيتا بيرون ومارلين مونرو مثلا.

لكن ايفيتا بيرون كانت ممثلة تحولت إلى قضية حقيقية آمنت بها واستخدمت السلطة السياسية فى سبيلها. حتى مارلين مونرو كانت لديها موهبة. لكن ماذا كانت موهبة ديانا بالضبط؟ ذهبت إلى البوسنة ضمن حملة ضد الألغام الأرضية؟ لكن الحملة كانت قائمة فعلا وديانا ذهبت فقط للدعاية لمن يتحملون أعباء الحملة. قامت برعاية أعمال خيرية؟ لكن حماسها لذلك كان ينتهى فى اللحظة التى تتوقف فيها الكاميرات عن التصوير. تعاطفت مع مرضى الايدز؟ هى أيضا تعاطفت مع الشواذ جنسيا ومن بينهم مصمم الأزياء الايطالى القتيل فيرساك والمغنى ايلتون جون الذى غنى لها فى الكنيسة يوم جنازتها.

والفارق هنا بين نوعين من الشهرة جاء من السماء حينما فارقت الراهبة تيريزا الحياة بعد ديانا بأيام. لقد ذهبت تيريزا ضمن بعثة تبشيرية كاثوليكية إلى كلكتا أفقر مدن الهند. وهناك ظلت تعمل بإيمان حقيقى وإنكار مدهش للذات. ولم تقترب منها الأضواء الا بعد خمسين سنة من عملها الفذ هذا. مع ذلك لم تحظ الأم تيريزا فى رحيلها بواحد على عشرة ولا واحد على مائة من الاهتمام الاعلامى الذى جرى تخصيصه لديانا. شهرة تيريزا ومثلها مصباح ينير للآخرين. شهرة ديانا ومثلها مرآة تعكس الآخرين.

هؤلاء «الآخرون» هم نحن. وبذلك نصل إلى السؤال الثانى. ديانا مأساة مفجعة يجب أن نخرج منها بالدرس الصحيح. فحتى المرأة الجميلة - وأمامنا فى الحياة العادية جميلات كثيرات كثيرات - لا يعفيهن جمالهن من بعض الجدية. حتى المرأة الثرية.. لا يحق لها أن تجعل ثروتها مبررا للسطحية والتفاهة. حتى المرأة المشهورة لا تدوم شهرتها إلا بعطاء حقيقى وموهبة فعلية.

ديانـــا هنا غير مذنبة بالدرجـــة الأولى. لقد كانت ـ بمعنى من المعانى – ضحية لماكينة لا ترحم اســمها صحافة التابلويد. صحافة الفضائح. الإثارة. المتاجرة بأحلام الناس أحياء والمتاجرة بآلامهم أمواتا.

قبل أســبوع خرجــت صحيفة أمريكية – فصحافــة التابلويد لا تعرف الحدود – بشــكل يثير القشــعرة لكى تعلن لقرائها أن الأمير ويليام – الابن الأكبر لديانا وتشــارلز فى الخامســة عشــرة مــن العمــر – هو من الآن فصاعدا «الصبى المحبوب عالميا» يعنــي: الأميرة ماتت. عاش الأمير. فى الحالتين صحافة التابلويد مستمرة فى الرواج والانتشار ولو على جثث الآخرين.

أما المذنب الأكبر فى القصة كلها فهو: نحن. فباستسلامنا على هذا النحو المفجع لماكينة الإعلام العالمى الجهنمية.. نحن لا نعيش حياتنا.. نعيش حياتهم. والأســوأ: نعيش الجزء الأكثر ســلبية وظلاما فى حياتهم. هم ينشرون.. فننشر. هم على الهواء ونحن وراءهم. هم يملأون فراغهم فنخلق لهم فراغا عندنا. يروجون لأوهام فنشتريها منهم. يدخلون فى حالة هوس.. فندخل مثلهم.

والهوس فى هذه المرة لم يكن سندريللا. إنه: سندريلا بالمقلوب. ورحم الله تلك الإنسانة الشابة التى كانت – وماتزال – وقودا لآلة إعلام جهنمية أكبر من فهمها وادراكها.

و.. رحمنا الله نحن أيضا.

□□□

رجال اليوم السابع

الأسكندرية. نادى «سبورتنج». ذهبت ذات مرة إلى هناك مدعوا للتحدث عن «انعكاسات حرب أكتوبر». الجمهور شباب والعدد يقترب من الألف. لقد همس فى أذنى مسئول النادى الجالس إلى يمينى فى المنصة: هذا الحشد استثنائى تماما. قلت له: ربما لأن الموضوع نفسه استثنائى والجيش الذى خاضت به مصر تلك الحرب هو ما أسميه فى قاموسى الخاص «جيش اليوم السابع». جيش قامت مصر ببنائه مقاتلا مقاتلا، وطوبة طوبة، وسلاحا بعد سلاح.

وكل مقاتل فى ذلك الجيش، من أكبر ضابط إلى أصغر جندى، ظل سنة بعد سنة يرى من زملائه المقاتلين أضعاف مايراه من أسرته، ويأكل معهم فى الخنادق طعاما لايعرف مطلقا إذا كان سيعيش بعده حتى الوجبة التالية.

رجال ومقاتلون عرفوا وبثمن فادح وبغير فذلكة ولابغبغة أن مصير الوطن.. بل والعروبة.. كلها يتوقف تماما على مدى إيمانهم وإصرارهم. هناك جولة خسرناها بطريقة مفجعة سماها العدو دعائيا «حرب الأيام الستة»، الآن هو اليوم السابع، وهؤلاء مقاتلوه.إن كل الأيام تساوى ٢٤ ساعة، لكن فى حياة الشعوب تصبح بعض الأيام أطول أو أقصر من الأيام الأخرى. والفترة من اليوم التالى للهزيمة المدوية فى يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير من حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى بذاتها يوم واحد متصل، إنه: اليوم السابع. وكان الجيل الذى أنتمى إليه هو بذاته العمود الفقرى لتلك الحرب، جيل من المتعلمين وخريجى الجامعات الذين أصبح الجيش بكل فروعه يطلبهم بشكل فورى. ولحسن حظ مصر والعروبة فإن هذا الجيل كان أول إنتاج متراكم لنهضة كبرى بدأت قبلها بسنوات. نهضة عنوانها: مجانية التعليم.

وإذا كانت دفعتى فى الدراسة الجامعية مجرد نموذج هنا، فإن سبعين بالمائة منها على الأقل استمروا مجندين، جنودا وضباطا، فى يوم واحد متصل مابين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣. ولولا أنه كان هناك إصرار على أن تمضى الحياة المصرية، زراعة وصناعة واقتصادا ومرافق، كالمعتاد، فربما كان سيتم تجنيد مائة فى المائة من خريجى الجامعات. لكن الجيوش الحديثة لاتصبح حديثة من فراغ. إنها تعتمد على - وتعيش من - اقتصاد حديث أيضا.

وإذا كان سبعون بالمائة من دفعتى الجامعية أصبحوا مجندين فى هذا اليوم السابع فإن الثلاثين بالمائة الأخرى كانوا مجندين بشكل مختلف. الأولون يرتدون الكاكى والأخرون بملابسهم المدنية لكن هذا الخريج الجامعى بالملابس المدنية كان يدبر حياته فى حدود مرتبه المتواضع، عشرون جنيها شهريا. والمرتب متواضع ليس لأن جهده متواضع ولكن لأنه يتقبل حقيقة أن عليه أن يعيش فقط على الضرورات، لأن زميله فى جبهة القتال يشارك فى تحقيق المستحيل.

والمستحيل كان هو أن يصبح لمصر جيش عصرى. والاستحالة هنا طبيعية لأن مصر تتاح لها فقط ربع ساعة حرية فى كل قرن وإذا لم تستثمر مصر ربع الساعة هذه بسرعة فى بناء جيش حيث تواجه به أطماع الوحوش الكاسرة فى الغابة الدولية، يصبح مصير مصر هو الاضمحلال. هكذا التاريخ المصرى فى حالته الدرامية. فمصر إما فى القمة وإما فى الحضيض ولا وسط.

فى القرن الماضى تحالفت وحوش الغابة، كل أوروبا وقتها، لضرب مصر وتحجيمها. وبعد التحجيم باتت مصر محكوما عليها بأن تنسى تماما حلم الجيش الحديث القوى لأكثر من مائة سنة بعدها. فى ١٩٥٦ جرى تحالف جديد لكسر شوكة جيش مصرى مايزال فى مرحلة الحضانة. فى ١٩٦٧ جاءت الضربة الأكبر. بعد يونيو ١٩٦٧ بدأ اليوم السابع الطويل. أطول يوم فى تاريخ مصر، وعنوانه هو المقاتل المتعلم باتساع جيل بكامله.

إن بعضا من هذا جعلنى أرحب بالذهاب إلى الإسكندرية مدعوا من نادى «سبورتنج» وبعضاً من هذا جعلنى أختصر كلمتى المرتجلة قدر الإمكان لكى أعيش مناخ الأسئلة والتساؤلات.

فى إحدى النقاط وقف شاب متحمس لكى يسألنى عن شخص محدد بالأسم: سعد الدين الشاذلى. قبل أن يكمل سؤاله رأيت مسئول النادى إلى يمينى يكاد يخطف الميكروفون لكى ينهر الشاب قائلا: ياأخ مثل هذه الأسئلة لاتقال فى هذا المكان ثم إن الأستاذ المحاضر وصل من القاهرة مرهقا والباقى من وقته قليل وقصير.

ثم تجول بعينيه فى أنحاء القاعة ليقول آمرا: سؤال واحد آخر ياأخوان ثم تنتهى الندوة. بمجرد أن أعاد الميكروفون أمامى عدت أنا إلى الحديث قائلا: قبل أى سؤال آخر ياأخوان سوف أرد أولا على السؤال الأخير، أنا لم أعرف يا أخى مضمون سؤالك بالضبط لأنك قوطعت فى منتصفه، سمعت فقط اسم سعد الدين الشاذلى، إذن دعنى أفهم هنا أن الشاذلى هو ذاته السؤال. مضبوط؟

من تلك اللحظة فصاعدا أصبح الصمت فى القاعة مدويا. هؤلاء نحو ألف مواطن معظمهم شباب مع ذلك يكاد الصمت فى القاعة يجعلنى أسمع أنفاسهم. والشاذلى المسئول عنه هنا هو الفريق سعد الدين الشاذلى الذى كان أنور السادات قد اختاره رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية قبل حرب أكتوبر بسنتين، ثم أحيل إلى التقاعد فى الأسبوع الأخير من الحرب وعين سفيرا لمصر فى

بريطانيا. فجأة نشـأت حملة سياسـية عاصفة ضد الشـاذلى. حملة بخاتم النسـر. من هنا توجس مسئول نادى سبورتنج إلى يمينى شراً مستطيراً حينما استمع إلى سؤال يتعلق بسعد الشاذلى، ومن هنا فوجئ الحاضرون أيضا بأننى أرفض السـخاء والكرم الذى أراد هذا المسـئول أن يغمرنى به وهو يحمينى، أو يحمى نفسه، من عواقب الرد على السؤال.

قلت للشاب السائل والألف الآخرين الحاضرين: بالنسبة لى ياأخى هناك شخصان يحملان نفس الأسـم. شخصان كل منهما اسـمه سعد الدين الشاذلى. هناك أولا سعد الشـاذلى. الرجل العسكرى وهناك أيضا سـعد الشـاذلى رجل السياسـة. وكل الجدال المثار مؤخرا حول الشاذلى يتعلق أساسا بالشـخص الثانى. برجل السياسـة سعد الشـاذلى. فى السياسـة هناك قواعد مختلفة للعب عنها فى الحرب.فى السياسـة ياأخى الكريم يمكن لك أن تكون مخطئا ومع ذلك تسـتمر على قيد الحياة وتستمر سياسيا أيضا، وربما.. حتى.. يصفق لك بعض الناس. فى الحرب غير ذلك.

لا أحـد يصفق لأحد فى الحرب، هناك فقط منتصر ومهزوم. إذا أخطأت فى الحرب هذا يعنى: توفـاك الله. فإذا كنت قائدا، حتى ولو ضابطا صغيرا، وأخطأت، هذا لايعنى موتك فقط لكنه يعنى أيضا موت العشرات أو المئات أو الآلاف تحت قيادتك.

لا أريـد الإطالـة هنا لكننـى أحب فقط أن أحدد مضمـون الحديث. فى الجـدل المثار عن رجل السياسة سعد الشاذلى (وهو فى حينها سفير لمصر فى لندن) تصبح المسئولية فى صحته وخطئه هى مسـئوليته منفردا، وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنـا هو حرب أكتوبر. هذا يعنى أن من يعنينا هنا هو المقاتل سـعد الشـاذلى. هنا دعنى أقول لك أن الشاذلى بتلك الصفة هو أحد أعمدة العسكرية المصرية الحديثة ولو لم يفعل الشاذلى فى حياته سوى أنه كان رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية التى بدأت حرب أكتوبر لأصبح هذا يكفيه، ولانسـتطيع أبدا أن نسحبه منها لأن السياسة تغيرت أو لأن السياسيين يختلفون.

فـى اللحظة التى انتهيـت فيها من إجابتى غمرنى الحاضـرون بانفعالهم ومودتهم وحيويتهم مستمرين فى أسئلتهم الملتهبة لأكثر من ساعة بعدها. لكننى لم أتنبه إلى أن مسئول النادى الجالس إلى جوارى ركبه سـهم الله. تنبهت فقط وهو يوصلنى إلى سـيارتى قائلا بكلمات متقطعة مترددة. كنـت أحـب أن أصحبك إلى الفندق الذى حجزنـا لك فيه للمبيت هذه الليلة لكنه: فندق سيسـيل وسوف تجد الغرفة محجوزة وكل شئ على مايرام.

قلت له : أشكرك ياأخى. فى الواقع لدى شقتى الخاصة فى الإسكندرية وسوف أبيت فيها. وفر فلوس النادى إذن واتصل بالفندق لإلغاء الحجز.

أخذت مكانى فى السـيارة وبدأت تشغيل الموتور. وأخونا مسـئول نادى سبورتنج ينحنى لكى يسألنى هامسا: انما سيادتك.. أقصد.. سيادتك تقرب للشاذلى؟

قلت له ضاحكا: لست قريبا له.. ولا أعرفه بالمرة. لكن دعنى أقول لك إجابة أخرى. إن كل من حارب منذ اليوم السابع ليونيو١٩٦٧ حتى اليوم الأخير من حرب أكتوبر هو قريبى. فهمت يا أخ؟ لقد انطلقت بالسيارة قبل أن أتأكد بالضبط هل فهم الأخ.. أو لم يفهم. غالبا لم يفهم. بعد مسافة قصيرة توقفت بالسيارة لكى أبحث فى جيوبى متأكدا.. هل المفاتيح معى أو نسيتها فى القاهرة. الحمد لله. وجدتها.كان عبدالحليم حافظ يحتفظ معى بمفتاح الشاليه الذى يمتلكه فى العجمى، قرب الأسكندرية. كذلك كان بليغ حمدى يحتفظ معى بمفتاح شقته الخاصة بالأسكندرية. واخترت المبيت فى شقة بليغ، ليس فقط لأنها الأقرب.. ولكن لأن لدى شعورا طاغيا بالانقباض قد لاأصلح معه لقيادة السيارة ليلا فى الطريق الطويل المتعرج إلى العجمى.

❑❑❑

القاهرة. النادى الأهلى: اتصل بى حمدى الكنيسى، الآن رئيس الإذاعة، وقتها مذيع بمحطة صوت العرب. لقد فاز لتوه بعضوية مجلس إدارة النادى الأهلى وهو يريد افتتاح الموسم الثقافى بشئ له رنين. هكذا فكر فى استضافة المشير (متقاعد) محمد عبدالغنى الجمسى وزير الدفاع الأسبق لكى يتحدث عن ذكرياته عن الحرب. والآن يدعونى الكنيسى لكى أكون مشاركا فى الندوة.قلت له: سأحضر مستمعا وليس مشاركا فالجمسى ياأخى هو أحد الرموز الكبرى للعسكرية المصرية فإذا كان سيحضر فعلا فهذا تشريف لك ولكل من سيحضرون..

قاطعنى حمدى الكنيسى مستدركا: تلك هى المشكلة، أن الجمسى لم يعدنى بالحضور، وعدنى فقط بأن يفكر وأخشى أنه سيفاجئنى بعد ذلك بالاعتذار عن عدم الحضور، لهذا أطلبك لكى تضم صوتك إلىّ وتتصل بالجمسى محاولا إقناعه.. إننى أعرف أنه يقدرك بشدة.

قلت له ضاحكا: سوف أقبل منك الجملة الأخيرة على أنها مجاملة رقيقة منك أنت وليس من الجمسى. يا أخى.. الشئ الوحيد الذى يفعله الجمسى «بشدة» هو الانضباط العسكرى. مع ذلك.. هات رقم تليفونه وسأناشده الحضور فعلا عن نفسى والكثيرين الكثيرين الذين يكنون له كل تقدير واحترام.

فى التليفون أرهقنى الجمسى.. وبطلوع الروح تحمس، وبطلوع الروح ذهب إلى النادى الأهلى يقود سيارته الصغيرة. وبكل تواضع دخل إلينا فى الحجرة الجانبية التى جلسنا ننتظره فيها قبل الدخول إلى قاعة الندوة. وبكل انضباط تطلع الجمسى إلى ساعته وقال معتذرا: آسف لأننى تأخرت خمس دقائق عن الموعد لم أكن أعرف أن وسط القاهرة يصبح مزدحما هكذا فى المساء.

ثـم بصوتـه الجهورى قال لى الجمسـى أمام الحاضريـن: على فكرة أنا قـرأت كتابك الأخير «وعليكم السلام»، أقول لك حاجة؟ لو كنت الآن مستمرا كوزير للدفاع لكنت قررت هذا الكتاب على كل ضابط فى القوات المسلحة، من رتبة ملازم فما فوق.

لحظتها ركبنى سهم الله. لقد ألجمتنى كلمات الجمسى المفاجئة بالمرة. ألجمتنى امتنانا ومسئولية وعزاء عن عمر أعطيته لقضية كبرى فى ذلك الكتاب، وإذا كانت الكلمات فى قاموس اللغة تعنى رأيا. فإن تلك الكلمات من الجمسى خصوصا تعنى جائزة «نوبل». أطعم وأجمل وأمتع من نوبل.

فى الندوة بدأ الجمسـى متحفظا كالمعتاد. الكلمات تخرج مـن فمه بمغناطيس كالمعتاد. الوقائع والأرقام والتواريخ شـديدة الدقة، كالمعتاد. لم تكن أمام الجمسـى ورقة. لم يسـتعص عليه تاريخ. لم تعطله جغرافيا. أنه يتحدث عن وقائع حية، عن بشـر، عن سـلاح. عن تفاعل سـلاح مع البشر واسـتنطاق البشر للسلاح. فى كل جملة يقولها الجمسـى هناك تعظيم للمقاتلين الشهداء منهم قبل الأحيـاء. هذا رجـل منصف يتحدث عن حرب منصفة. عن قضية سـاخنة مسـتمرة. قضية، نحن موضوعها ماضيا وحاضرا ومستقبلا والناس تريد أن تسأل، أن تعرف المزيد، أن تناقش.

فى المناقشة بدأ الجمسى يسخن شيئا فشيئا. لقد أصبحت حرارة المشاعر فى القاعة تشحنه بالمزيد والمزيد من الحيوية والتفاعل. وإلى جواره جلسـت مسـتمعا ومستمتعا. هذا رجل لايقول أنا. يقول «نحن». رجل لايدخل جدلا. إنه يطرح وقائع. حرب الاسـتنزاف هى التى صنعت الجيش المصرى الحديث. هى – بكلمات اسـرائيل – أول حرب حقيقية تهزم فيها اسـرائيل. عبدالناصر يحسـب له إعادة بناء القوات المسـلحة المصرية بالكامل بعد ١٩٦٧. السادات يحسب له قرار حرب أكتوبر. نعم، كان اتفاقنا الرسمى مع سوريا هو التقدم فى سيناء حتى المضايق. نعم، تغير مسار الحرب بعد الاسـتطلاع الجوى الأمريكى لجبهتنا. نعم الثغرة كانت كبوة عابرة أساسـها نقص المعلومات لكننا بسـرعة أصبحنا قادرين على تصفيتها عسـكريا لو تلقينا أمرا بذلك. نعـم.. كادت الدمعة تفر من عينى فى أسـوان بعد الحرب لحظة المسـاومة السياسية التى قادها هنرى كيسنجر. حائط الصواريخ يا إخوان الذى أقامته مصر غرب قناة السويس كان معجونا بدمائنا، بتضحياتنا. كل متر إلى الأمام سقط فيه شهداء. كل قفزة كانت تعنى اقترابا أكيدا من اليوم الكبير يوم العبور الخ.. الخ.. الخ.

❑❑❑

القاهـرة. نادى التوفيقية للتنس. المشـير (متقاعد) محمد على فهمى. هـذا رجل كبير فى ناد صغير. تلك ليست المسألة. هو عقل كبير فى قضية أكبر.

كنت أريد اسـتيضاح بعض النقاط لمجموعة مقالات انشغلت بها لفترة، هناك فجوات وتساؤلات واستفهامات وثقافة عسكرية سعيت إليها عند صاحبها: محمد على فهمى.

مرة أخرى: الرجل عزوف بشـدة عن الحديث. عزوف.. لكن بمودة الأب وتواضع الخبراء. في سـياق اليوم السـابع (١٩٦٧/١٩٧٣) كان بعض زملائي في دفعتي الجامعيـة مجندين تحت قيادة محمد على فهمي بعضهم جنود. بعضهم أصبحوا ضباطا. الكل في حينها اعتبروا محمد على فهمي مجرد قائد عسكري آخر.

فـي الواقع إنه بعد أن قرر جمـال عبدالناصر أن يصبح الدفاع الجوى قيادة مسـتقلة في القوات المسلحة اختار محمد على فهمي مسئولا أول عن تلك القيادة والصورة الوحيدة المنشورة له وقتها هي صورته وهو يقابل جمال عبدالناصر وإلى جواره الفريق محمد فوزى وزير الدفاع (الحربية وقتها).

وانتشرت نكتة بين العسكريين: آه مسكين محمد على فهمي أخذ بمبة كبيرة.. أخذ الشايب. في حينها سـألت: يعني إيه.. الشايب؟ قال حسـني زميلي في الدراسة المجند في الدفاع الجوى: في الكوتشينة. من يسحب ورقة ويجد أنها «الشايب» يعني أنه خسر اللعبة.

التصـق في ذهني هذا التشـبيه الغريب تماما، والدارج والمألوف بمنطق الشـخص العادى. مع ذلك فيوما بعد يوم.. وليلة بعد ليلة.. وشـهداء بعد شـهداء.. بدأنا نسـتوعب لأول مرة ماذا يعني بالضبط دفاع جوى. الألفاظ واضحة. دفاع وجوى. لكن بحلول الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٧٠ بدأنا ندرك أن تطورا خطيرا قد حدث. تطور سيغير مسار الصدام في المنطقة كلها خلال ذلك اليوم السابع.. الطويل.

لقد وصلت مصر بحائطها الصاروخي الشـهير إلى أقرب نقطة من قناة السـويس. وفي أسـبوع واحد - سـمي عاليا: أسبوع تسـاقط الطائرات - أسقطت الصواريخ المصرية ١٧ طائرة اسرائيلية من طراز فانتوم وغيرها، ووضعت مصر أيديها على تسـعة طيارين اسـرائيليين أحياء. ووقف آباإيبان وزير الخارجية الاسرائيلي يتكلم بمرارة في الكنيست الاسرائيلي قائلا: الموقف خطير خطير، لقد بدأ سلاح الطيران الاسرائيلي يتآكل.

وعـرف المصريون لأول مرة معنى وطعم أن يكون لديهم دفاع جوى. وفي أول إجازة خاطفة (١٢ سـاعة بالتحديد) جاءني حسـني زميلي المجند في الدفاع الجوى فسـألته مازحا: هل مازال الرأى القديم رائجا بينكم.. من أن محمد على فهمي أخذ «الشايب»؟

انتفض حسـني بضحكة مجلجلة غابت عنه وعنا سنوات: «شايب مين ياعم»؟ الظاهر الحكاية كانـت تمويه في تمويه.. ده طلع أن محمد على فهمي «عقر» بصحيح.. أخذ «الولد» وكتم عليه وفي أول فرصة بدأ يقش كل الورق على الترابيزة.قالها حسـني بتأكد وثقة وكأنه هو شـخصيا: محمد على فهمي.

□□□

فــى حرب «اليوم الســابع» لــم تكن لدى المصريين ـــ وخصوصا المقاتلين فى القوات المســلحة ـ أية أوهام. هناك غابة دولية ونحن لســنا أقوى وحوشــها. والوحوش الأكبر لكل منها حســاباتها ومصالحهــا. من تلك المصالح مثلا أن تكفل الولايات المتحدة لإســرائيل، الغاصبة والمعتدية، تفوقا كاسحا فى الأســلحة على الدول العربية مجتمعة.. وخصوصا الطيران. وإسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكيــة وقتها تســتطيع اختراق مصر لكى تروع شــعبها وتفقدهم أى أمل فى قواتهم المســلحة الجديدة. فى المقابل تملك مصر طائرات «الميج» الســوفيتية الصنع. طائرة جيدة ولازمة وبنت حلال وتوجــع العدو أيضا لكنها فى نهاية المطاف لاتتيح للطيار المصرى نفس الإمكانيات المتاحة أمريكيا لدى الطيار الإســرائيلى.. والأســوأ من ذلك.. ليس مســموحا فى الغابة الدولية أن نحصل على أية طائرة أفضل من أى مكان آخر.

فى مثل هذا الموقف هناك حلان لاثالث لهما: نقفل الملف... أو نفتح الملف. فى حالة قفل الملف تصبح الخلاصة هى أن اســرائيل مســتمرة فــى الاحتلال ومصر فى «الطــراوة».. بل... ولاحتى فى «الطــراوة». مصر عليها فقــط.. وبعدها كل العرب.. الانتظار إلى جــوار التليفون حتى يملى عليها وزيــر الدفاع الاســرائيلى المطلوب منها ثمنــا للهزيمة. فى حالة فتح الملــف تصبح الخلاصة هى: نضــرب.. وننضرب.. نقع.. فنقوم من جديــد. يضربون لنا أطفالاً صغاراً فى بحر البقر فنضرب لهم طيارين بطياراتهم. هنا يصبح للدفاع الجوى بقيادته المستقلة حديثا محل من الإعراب. مايزال على الورق اســمه دفاع جوى. لكنه فى حرب «اليوم الســابع» المصرية أصبح دفاعا جويا فى مهمة أولى فعليه أن يقطع ذراع الطيران الإسرائيلى المستأسد ضد الاطفال المصريين فى بحر البقر وغيرها. لكن تلك فقط مجرد مقدمة للمهمة الأكبر: حماية القوات المصرية العابرة لتحرير سيناء.

بكلمات أخرى.. أصبحت اســرائيل ـ طوال حرب «اليوم الســابع» – تريد أن تقول للعســكرية المصرية. لكل حل.. مشكلة. بينما العسكريون المصريون عليهم أن يثبتوا أنه: لكل مشكلة.. حل.

بكلمات أخرى وأخرى: هناك امتحان كبير وفاصل للارادة المصرية بامتداد التاريخ. ربما يكون النموذج المناســب هنا هو الحروب الصليبية. مصر واجهت الحــروب الصليبية وانتصرت فيها فى نهايــة المطاف فــى ظل معادلة محددة.تفوق بحرى كاســح للصليبيين.. يواجهه تفوق برى كاســح للمصريين. أو بتعبير الظاهر بيبرس فى رســالة منه لأحد قادة الصليبيين: أنتم سلاحكم المراكب.. ونحن سلاحنا الخيول.

هذا يعيدنى إلى أحدث مجلد صدر بالغرب فى العام الماضى بعنوان «التاريخ العســكرى للعالم». تصفحت المجلد بســرعة ثم توقفت عند أحد فصوله بعنوان «الحروب العربية الإسرائيلية». الكتابة متحاملة ومنحازة ومن منظور موجه أساســا إلى القارئ الغربى. مع ذلك.. بعد الحديث عن حروب

١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ يجرى تقييم الفترة التالية.. من حرب الاستنزاف إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فتجئ هذه الكلمات: «هنا أيضا تعلم العالم دروسا عسكرية جديدة، فى هذه المرة محور الدروس الجديدة هو: كيف تستطيع الصواريخ أرض/جو والأسلحة المضادة للدبابات القيام بإذلال وقهر أحدث الطائرات والمدرعات المتاحة لإسرائيل.»

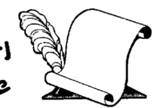
عدت مرة أخرى إلى تعبير «إذلال» و«قهر». عدت إلى عنوان المجلد، إلى أسماء مؤلفيه من الخبراء العسكريين. تأكدت مرة أخرى من البيانات. هذه ليست رواية. ليست إبداعاً من خيالات مؤلف. أن «إذلال» و«قهر» هنا تعبيران محددان تماما ومقصودان حرفيا ومن خبراء عسكريين غربيين وبعد سنوات طويلة مما جرى. كمواطن مصرى هنا تصبح الترجمة من الانجليزية إلى العربية هى: محمد على فهمى.. شخصيا. أما بالنسبة لمحمد على فهمى فقاموسه الخاص ليس فيه بالمرة كلمة «أنا». فيه فقط «نحن». يتكلم عن: جنودنا مهندسينا جيشنا طيراننا.. مدفعيتنا.. شهدائنا.. صواريخنا..و .. و.. كلها تنويعات وتنويعات للعنوان الرئيسى «نحن».

❑❑❑

دمشق. ١٩٩٧. دعانى العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى إلى الغداء فى منزله. قبيل الموعد صحبنى صديق سورى موهوب بسيارته إلى مكتب مصطفى طلاس فى وزارة الدفاع حتى يأخذنى الوزير من هناك فى سيارته إلى منزله، إلى الغداء.بينما نتحدث، تلقى مصطفى طلاس مكالمة تليفونية عاجلة. وبدأت أتطلع بعينى فى أنحاء المكتب. فجأة تسمرت عيناى عند صورة محددة ليست على حائط ولاضمن صور أخرى. هى صورة قائمة بذاتها، فى برواز بذاته، ولشخص مصرى محدد بذاته. شخص فى رحاب الله منذ سنة ١٩٦٨.

و.. عاد الشريط فى ذهنى من جديد. شريط «اليوم السابع».

❑❑❑



رجال اليوم السابع (٢)
عبدالمنعم رياض : نهاية البداية

القـاهرة - ١٩٦٨

زملاء الدفعة فى جلســة سمر بمناســبة وصول مصطفى فى إجازة من الجبهة مدتها ٢٤ ساعة. مصطفــى ضابط فى الجيــش الثانى وهو بيننا الأكبر ســنا والأكثر مرحــا. كان الأكثر مرحا. فبعد يونيو ١٩٦٧ اختفى المرح وســط بحر من السخرية. وكلما كانت السخرية أكثر قسوة، أصبحت أكثر انتشارا. إنها سخرية من العسكريين جميعا، حتى الزوجة تسخر من زوجها والأخت من شقيقها: «هو أنتم فالحين فى حاجة غير الانسحاب؟ وللخلف در؟ وبالخطوة السريعة ياجدع»؟

هذه المرة تختلف، هذه المرة يبادرنا مصطفى بالتساؤل: سمعتم آخر نكتة؟

ســلخه أحدنا برد باتر كحد الســيف: نعم؟ هو أنتم قاعدين فى الجبهــة تحاربوا.. أو تؤلفوا نكت؟

لم يرتدع صديقنا الضابط مصطفى فاســتمر متوســلا: طيب اسمعونى الأول، مرة واحد وقف فى طابور الجمعية (الاســتهلاكية) يشــترى كيلو ســمك. وبعد الزحام والانتظار ساعتين اشترى فعلا الســمك، وجرى على البيت لكى يبشــر زوجته بأن الأكل النهاردة سمك. فى البيت فرحت زوجته لكنها فى نفس اللحظة سألته: أين الزيت؟ حصتنا الشهرية من زيت التموين خلصت.

قال لها زوجها مغتاظا: تصرفى.. حاولى تستلفى شوية زيت من الجيران.

خرجت الزوجة تدق أبواب الجيران، جارة وأخرى وأخرى. مفيش زيت.

والعمل؟ قال لها الزوج إن عنده فكرة.. سيأخذ السمك ويذهب إلى أقرب محل يبيع السمك المقلى حتى يقلى له كيلو السمك بالفلوس.

فى الشــارع وجد الزوج محل الســمك المقلى مغلقا. تمر ساعة واثنتان والحيرة تأكله وهو يسعى على رجليه هائما فوجد نفسه إلى جوار النيل. وبكل سخط وغضب ويأس أمسك الرجل كيلو السمك بكلتا يديه وقذف به فى نهر النيل.

غاص السمك في مياه النيل، وفي اللحظة التالية قفز السمك إلى أعلى في الهواء وهو يهتف صائحا: يعيش جمال عبدالناصر! انفجر الجميع ضاحكين.. فالنكتة تعبر عمليا عن حالة التقشف وربط الحزام السائد فى البلد منذ يونيو ١٩٦٧. لكن فى اللحظة التالية عاد زميلنا المشاكس يسلخ مصطفى: على كده إنتم قاعدين فى الجبهة فايقين ورايقين وتؤلفوا نكت.. واحنا بنسمع ونقرأ أنكم داخلين مع العدو فى اشتباك ليل ونهار؟

صمت مصطفى قبل أن يقول كلماته المفحمة: لاياحبيبى اللى بنعمله فى الجبهة أكثر جدا من اللى انتم بتسمعوه وتقرأوه أما هذه النكتة فالذى نقلها إلينا هو الرئيس..

تساءل الزميل المشاكس: أى رئيس؟ تقصد (العميد) عبدالمنعم خليل قائدكم فى الجيش الثانى؟

رد مصطفى: أقول لك الرئيس ياجدع، يعنى جمال عبدالناصر.

جمال عبدالناصر بيحكى لكم نكتة عن جمال عبدالناصر؟ وانتم شفتوه فين؟

قال مصطفى: هو اللى شافنا.. لقيناه طب علينا فجأة فى عربية جيب لابس قميص وبنطلون يعنى لابس ملكى (مدنى) ومعاه محمد فوزى (وزير الحربية) وعربية جيب ثانية للحراسة. بس كده.

تذمر زميلنا المشاكس وقال معترضا: يعنى إيه بس كده؟ لازم تحكى لنا بالتفصيل.. رئيس الدولة لقيتوه فى وسطكم فى الخط الأمامى للجبهة ومن غير موكب ولا إنذار ولا إخطار؟

لا إخطار ولا موكب. مجرد سيارتين وكلمة السر لنقطة حراسة الموقع وسؤال من الرئيس للضباط أكلتم يارجالة؟ أنا جعان وعايز آكل مع العساكر والضباط.

فى أثناء الأكل – داخل الموقع – سجل الرئيس بضع ملاحظات طلب من سكرتيره تذكيره بها عند العودة إلى القاهرة ثم بدأ الدردشة قائلا للمجموعة المحيطة به من الضباط والجنود: عايز أسمع منكم عن أحوالكم بكل صراحة .. العسكرى قبل الضابط والضابط الأحدث قبل الضابط الأقدم.

وبدأ الرئيس يسمع الشكاوى. لا أحد يشكو من الجبهة، من القتال.. بالعكس الكل يتعجل يوم تحرير الأرض. لكن الكل يشكو من شئ آخر مفاجئ، النكات التى يطلقها الشعب على العسكريين وياسيادة الرئيس كل ماننزل أجازة نخاف نمشى فى الشوارع باللبس الميرى «العسكرى».. فى الشارع نكتة وسخرية.. فى بيوتنا نكتة أكثر وسخرية أوجع.

وبدأ الرئيس يطيب خاطر الجميع: معلهش ..من حق الشعب يسلخ جلدنا وسيستمر يسلخ جلدنا إلى أن نثبت له أننا نأخذ الحرب بكل جدية وإن فيه نتائج محددة على الأرض. أنا مثلكم أسمع النكات وأتألم لكن احنا عارفين شعبنا كويس وإن شاء الله يوم النصر سيأخذكم بالأحضان..

لكن النصر أولا. قبل النصر يهون كل شئ، وإن كان على النكات.. تبقى المسألة بسيطة، عن نفسى أسمع نكات كثيرة ولا آخذها بشكل شخصي، نكات يعبر فيها الشعب عن تضحياته فى سبيلكم مثلا.. هذه النكتة.

ثم حكى جمال عبدالناصر للجنود والضباط نكتة الأخ الذى اشترى كيلو السمك فضحك الجميع معه وتبخرت مرارتهم. وكما جاء الرئيس فجأة، انصرف فجأة. وفى اليوم التالى عرفنا أنه تركنا ليقوم بزيارة مماثلة للواء الجزائرى المشارك لنا فى الجبهة منذ النكسة.

هكذا استرسل مصطفى.

□□□

١٩٦٨. نيويورك. مجلس الأمن. الأمم المتحدة

جلست فى قاعة المجلس أتابع المناقشات مبعوثا من جريدتى، أخبار اليوم. فى الأمم المتحدة هناك جمعية عامة هى بمثابة البرلمان حيث لكل دولة - صغرت أو كبرت - صوت واحد. أما مجلس الأمن فهو بمثابة الحكومة أو السلطة التنفيذية، والمجلس مشكل من ١٥ دولة عشر منها يتم انتخابها للعضوية بالتناوب كل سنتين، أما الخمسة الباقون فهم الدول دائمة العضوية، وبتلك الصفة فإن للدولة دائمة العضوية امتيازاً خاصاً واستثنائيا اسمه حق النقض (الفيتو) فإذا وافقت ١٤ دولة مثلاً على مشروع قرار معروض على المجلس واعترضت عليه دولة واحدة دائمة العضوية وقالت «فيتو» يسقط المشروع تلقائيا.. ودون حاجة لإبداء أية أسباب.

ومنذ ١٩٦٧ على وجه الخصوص أصبحت الولايات المتحدة تمنع مجلس الأمن من إصدار أية قرارات لمعاقبة اسرائيل.. من خلال استخدام حقها فى النقض.

فى هذه المرة اسرائيل هى التى تشكو مصر إلى مجلس الأمن. تشكو من القصف المدفعى واغارات التسلل ضد احتلالها فى الضفة الشرقية لقناة السويس. فى البداية قامت قوات الصاعقة المصرية بمعركة حاسمة فى رأس العش. بعدها غارات محددة ومركزة بالطيران المصرى. بعدها قامت مصر بإغراق المدمرة الإسرائيلية، «إيلات». والآن أصبحنا فى سنة ١٩٦٨.

□□□

مجلس الأمن. نيويورك. الجلسة التالية.

المجلس يناقش ويستمع. اسرائيل لديها من يحميها بالفيتو فى مجلس الأمن ومصر أيضا. فى الواقع أن الأغلبية الطاغية فى كل الأمم المتحدة تساند مصر لكن الغابة هى الغابة والضعيف لاحقوق له إلى أن يصبح قويا. ومصر تشق طريقها حثيثا لتسترد قوتها. فى الجلسة طلب مندوب دولة بترولية عربية الحديث، ووجدت دبلوماسيا هنديا إلى جوارى يبتسم. لم أفهم. قال لى: انتظر قليلا.. وستفهم.

بـدأ المندوب البترولى العربى يتحدث. جملتين وعشـر جمل مع مصر بالكامل وضد اسـرائيل بالكامل ثم استدار إلى المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن وقال له ماخلاصته «والله ياأمريكان عيب عليكم. عيب كبير، عيب تسندوا حتة دولة مفعوصة اسمها اسرائيل وتقفوا ضد دولة هرم زى مصر. عيب. لازم تختشـوا وتبطلوا دعمكم لليهود وتشـخطوا فيهم فينسـحبوا. إنتم دولة كبيرة ومقامها كبير وكلمتها مسـموعة من القريب والبعيد. دولة تعرف ربنا زينا وأكثر ناس بتصلوا كل يوم أحد فى الكنيسة».

ثم اسـتدار الرجل من جديد بكرسـيه ليشـير بأصبعه نحو المندوب السـوفيتى قائلا: «إذا كان النـاس الـروس دول واقفـين مع مصر.. يبقـى عيب عليكم ياأمريـكا. بقى الـروس دول.. الكفرة الشـيوعيون الملحدون الداخلون جهنم بإذن الله لأنهم لايعرفون ربنا.. يقفوا مع مصر.. وانتم تقفوا مع اسرائيل؟» الخ.. الخ.

❑❑❑

نيويورك. وكالات الأنباء. نشرات الأخبار الرئيسية فى التليفزيون. الساعة السادسة والسابعة والخبر يتكرر بتوسـع واسـهاب: اسـرائيل قامت بغارة ناجحة ضد العمق المصرى نفذتها بقوات خاصـة محمولة بطائرات الهليكوبتر. الطائرات تسـللت إلى نجع حمـادى فى صعيد مصر. الغارة فشـلت فى تدمير قناطر النيل لكنها نجحت فى إصابة محطة كهرباء نجع حمادى. موشـى دايان وزير الدفاع الاسرائيلى يصرخ مهددا: إذا لم توقف مصر حرب الاستنزاف ضدنا فورا فسوف ننقل الحرب إلى كل مرافق مصر ومدنها. لن نسمح لمصر بأن تعيد بناء قواتها المسلحة.

❑❑❑

١٩٦٨. أسبوع آخر. نيويورك. شارع برودواى.

نزلت من الأوتوبيس أتمشى. كنت قادما من مقر الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة حاملا فى يدى مجموعـة من الصحف المصرية ترد من القاهرة كل أسـبوع. تفرجت على فاترينات المحلات واحدة بعد الأخرى بحثا عن راديو صغير ورخيص ويعمل بالموجة القصيرة أشتريه حتى أستمع إلى إذاعة القاهـرة. فى النهاية دخلت أحد المحلات ووضعت مجموعـة الصحف على المائدة حتى أجرب مع البائع راديو بعد آخر.

بعد لحظات تطلع البائع الأمريكى إلى مجموعة الصحف وفاجأنى بلغة عربية مكسرة: آه.. أنت مصـرى؟ إذن أنا أمام واحد مـن يهود نيويورك إياهم.. اللهم طولك ياروح. نعم مصرى.. انما خلينا فى موضوعنا.. الراديو ده.. بكم؟

رد الرجل بابتسـامة ثعبانية صفراء: لايهمك السعر.. سأعمل لك تخفيضا مخصوصا ياخبيبى.. بعدها وبلا اسـتئذان، أمسـك الرجل باحـدى الصحف المصرية وفردها أمامـه. فى الصفحة الأولى خريطـة تفسـر للقارئ المصـرى الثغرة الرادارية التى تسـللت منهـا الطائرات الاسـرائيلية إلى نجع حمادى.

تطلع الرجل إلى الخريطة أمامه وبكل غل وتشـفى قال لى: شوف خبيبى.. دايان يعملها فيكم وانتم تضربوا لخمة؟ شـوف خبيبى لازم تسـمعوا الكلام مفيش فايدة.. ناصر مفيش (ورفع الرجل يده اليمنى يجز بها رقبته كما يفعل الجزار مع الذبيحة) ناصر مفيش.. جيش لمصر مفيش.. مصر ذات نفسها مفيش.. عرب مفيش.. بترول مفيش..

طيب.. عبدالناصر والجيش ومصر والعرب مفهوم.. لكن بترول؟ أى بترول؟

قـال الرجل بكل ثقة وتأكد: بترول أويل.. مفيش.. شـوف خبيبـى.. البترول لأمريكا واحنا وأمريـكا كده كده.. أمريكا المخ.. واحنا العضلات. مفيش فايـدة.. دايان فاجأكم من العالى من فوق وانتم تضربوا لخمة فى الواطى..

خطفـت الصحيفة المصرية من يد الرجل، وباقى الصحف وقلت له: والله انت اللى رجل واطى. ودايـان بتاعـك ده جاى له يوم.ومنعت نفسـى بصعوبة من أن أبصق على الرجـل لكن النوم ليلتها فارقنى حتى الفجر من حرق الدم.

□□□

نيويورك. المساء التالى. منزل سفيرنا لدى الأمم المتحدة محمد عوض القونى.

هذه دعوة عشـاء من السـفير محرضا لى بأن محمود رياض وزير خارجيتنا وعبدالمنعم الرفاعى وزير خارجية الأردن سيكونان موجودين.

سألنى محمود رياض: لم ألمحك أمس فى الجلسة المسائية بمجلس الأمن.. خير؟

حكيت له قصة الراديو واليهودى الصهيونى الأمريكى صاحب المحل.

تابعنى محمود رياض بهدوئه المعتاد ثم قال مبتسما: إذا أخذت أنت حكاية كهذه بعصبية على هـذا النحو.. فمـاذا أفعل أنا كلما طلب جولد بيرج مقابلتى وهـو يهودى صهيونى أمريكى لايعمل سفيرا للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة بقدر مايعمل سفيرا لاسرائيل؟ ماذا يفعل أبناؤنا المقاتلون على ضفة قناة السويس وهم يرون الاحتلال الاسرائيلى فى مرمى النظر؟قلت له: أنا لم أتوقف عند شـماتة الرجل بقدر ما لفت نظرى شـيئان. أولا حينما يتكلم عن إسـرائيل – وهو يحمل الجنسية الأمريكية – يقول «نحن».. ثانيا كلامه عن البترول.

تدخل عبدالمنعم الرفاعى قائلا: يهود أمريكا، ويهود نيويورك خصوصا، فى حالة تعبئة مستمرة لحساب إسرائيل. فلنأمل أن يصبح العرب جميعا، وخصوصا عرب البترول، بمثل هذا الوعى بما يجرى. ثم إنهم هنا يركزون على مصر، وخصوصا أنها كبيرة العرب. وإذا كسروا شوكة هذا الكبير سيطيحون فينا جميعا بترول وغير بترول.

قلت لمحمود رياض والرفاعى: لماذا نجئ إلى الأمم المتحدة إذن؟ بماذا يفيدنا مجلس الأمن؟ هذا تضييع للوقت..

ابتسم محمود رياض مقاطعا: بالضبط أنت بلسانك قلتها: نحن هنا فعلا من أجل تضييع الوقت. أقولها لك جادا.. يلزمنا وقت لإعادة بناء الجيش. نحن نعرف من البداية أن إسرائيل احتلت الأرض بقوة السلاح ولن تخرج منها إلا بقوة السلاح. وحتى أى قرار نأخذه من مجلس الأمن، لن ينفذ القرار نفسه.. عندك القرار ٢٤٢ مثلا فى ظروفه كان لصالحنا لكن أحسن قرار فى العالم لابد أن نقرأه بطريقتين. نقرأه مرة من موقع الضعفاء فيصبح تنفيذه على حسابنا ونقرأه مرة من موقع الأقوياء فيصبح لصالحنا.. الكلام الجاد لن يكون هنا.. فى مجلس الأمن أو غيره، الكلام الجاد ستقوله قواتنا فى ميدان القتال. الخ.. الخ..

❑❑❑

٩ مارس. ١٩٦٨. القاهرة

خبر صاعق. فى اليوم السابق كانت مصر قد بدأت مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء. لخمس ساعات متواصلة استمرت المدافع المصرية من غرب قناة السويس تقصف التحصينات والتشكيلات الاسرائيلية فى شرق القناة. تطور قالت عنه وكالات الأنباء إنه يعكس قفزة جديدة فى قدرات مصر العسكرية. والآن فى اليوم التالى، يجىء الرد الاسرائيلى المضاد بالقصف الشامل لمواقع الخط الأمامى المصرى، فى أحد تلك المواقع على حافة قناة السويس مباشرة جاءت الإصابات محدودة: اثنان من الجرحى وشهيد واحد.. أما الشهيد فهو الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية.تكهرب الناس جميعا. تكهربوا مرتين. مرة لأن ارادة القتال تزداد قوة وصلابة فى لهيب المواجهة.. نضرب.. فننضرب.. فنضرب من جديد. ومرة لأن أكبر رأس فى العسكرية المحترفة المصرية الجديدة استشهد بين جنوده، وفى الموقع الأمامى من الجبهة.

لم يكن عبدالمنعم رياض منذ بدايته ضابطاً عاديا. كان عاشقا للعسكرية المصرية مؤمنا بأنه لاحياة لمصر بغير جيش قوى يحميها. والجيش القوى يعنى الجيش الذى يستعد لحرب قادمة وليس لحرب سابقة. يعنى التبحر فى العلم العسكرى. فى المعرفة. فى المزيد من المعرفة. يعنى أن يطلب القائد من جنوده بقدر مايعطيه لهم. يعنى أن يصبح القائد قدوة بسلوكه وليس بكلماته .يعنى أن

نتعلم دائما، حتى من العدو. يعنى ألا تقول لجنودك، تقدموا.. ولكن تقول لهم اتبعونى. يعنى أن يتفاعل القائد مع سلاحه وجنوده ومرؤوسيه. يعنى أن يؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك فى صنعه.

وعبدالمنعم رياض - كما عرفت فيما بعد - كان أول دفعته فى التخرج وكان تخصصه الدفاع الجوى وكان يزداد تواضعا كلما ارتفعت رتبته. وفى إحدى المرات مثلا عاد العقيد محمد على فهمى (أصبح مشيرا فيما بعد ورئيسا لأركان الحرب) من بعثة تدريبية فاتصل به اللواء - وقتها - عبدالمنعم رياض يسأله: عندك وقت أشوفك لأعرف منك الجديد الذى خرجت به؟ رد عليه محمد على فهمى بود ومحبة: دقائق ياسيادة اللوا، وأكون فى مكتبك. لكن عبدالمنعم رياض قاطعه قائلا: أنا الذى سأجىء إليك ياأخى فى مكتبك لأتعلم. فالمعرفة ليس فيها عقيد ولواء. فيها معلم ومتعلم وأنا يامحمد أريد أن أتعلم.

تلك - وغيرها كثير - حكايات عرفناها عن عبدالمنعم رياض فيما بعد. أما فى تلك اللحظة - لحظة الخبر الصاعق - فكل ما اكتشفناه، وبأثر رجعى، هو أن عبدالمنعم رياض بصفته رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية الجديدة بعد يونيو ١٩٦٧ كان يقوم بالعشرات والعشرات من الزيارات المفاجئة للضباط والجنود فى جبهة القتال. زيارات سرية لا يعلن عنها فى حينها ولا بعدها. الآن، فى صدفة درامية، نكتشف أن الفريق عبدالمنعم رياض استشهد بين جنوده وضباطه فى الخط الأمامى على حافة قناة السويس مباشرة بينما هو يتابع على الطبيعة النتائج الفعلية ليوم جديد من حرب الاستنزاف.

فى المكاتب والبيوت، فى الأتوبيسات والشوارع، فى القرى والمدن اهتز المصريون جميعا بنوعين من المشاعر متلازمين فى خيط واحد. هناك أولا الشعور بالذنب. لقد قسونا على العسكريين كثيرا وطويلا بسخريتنا ونكاتنا لكن عبدالمنعم رياض باستشهاده هذا أعاد الاعتبار إلى العسكريين جميعا. هذا النوع الجديد من العسكريين. لقد اختفت كل النكات فى لمح البصر.

أما الشعور الآخر فهو. الغضب. أقصى درجات الغضب. فى هذه المرة أصبح الغضب قوة ايجابية تماما. كنا نصر منذ يونيو ١٩٦٧ على أن الانتصار الإسرائيلى مجرد صفحة فى كتاب لكنه ليس آخر الكتاب. واسرائيل تريد من انتصارها أن يصبح النهاية. نهاية مصر أو حتى بداية النهاية. الآن يصر المصريون على أن استشهاد عبدالمنعم رياض هو نهاية البداية. نهاية النظر خلفا وبداية التطلع إلى الأمام. التطلع إلى تحرير الارض. كل الأرض.

❑❑❑

دمشق. يونيو. ١٩٩٧.

فــى مكتب العماد أول (الفريــق) مصطفى طلاس وزير الدفاع الســورى وصورة عبدالمنعم رياض تفاجئنى فى برواز خاص يضعه مصطفى طلاس على مكتبه.

ســألت وزير الدفاع السورى: لماذا تحتفظ بهذه الصورة أمامك وقد مضى على استشهاد عبدالمنعم رياض ٢٩ سنة؟

عــاد مصطفى طلاس إلــى مقعده وقال لى: هناك ســببان، أحدهما موضوعى والآخر شــخصى. أما الموضوعى فهو أن استشــهاد عبدالمنعم رياض لم يكن واقعة مصرية. هو واقعة عربية. ففى حالة البلبلــة والانهزامية واليأس التى حاولت اســرائيل فرضها علينا بعــد ١٩٦٧ كان عبدالمنعم رياض شــعاعا مضيئا فى الظلام. هذا عســكرى محترف، ومتبحر فى العلم العســكرى، يتابع القتال من الخندق الأمامى وهو يعرف مسبقا أنه فى بؤرة الخطر. أقصى درجات الخطر.

مثل هذا السلوك لايفعله إلا شخص مؤمن بجنوده وضباطه. مؤمن بجيشه. ببلده. بعروبته. وبأن إرادة النصــر يجب أن تبدأ من الرأس. ولو أخذتك الآن فجأة إلى مكتب رئيس أركان حرب الجيش الســورى، أو حتى فى أية كلية عســكرية فى بلد عربى يحترم نفســه، فسوف تجد صورة عبدالمنعم رياض باعتباره العملة الذهبية التى يقاس عليها الأداء العسكرى المحترف.

أما الســبب الشــخصى - ومازلنا مــع كلمات مصطفى طــلاس - فهو أننى شــاركت فى جنازة عبدالمنعم رياض مبعوثا من سوريا. لقد وصلت إلى القاهرة متوقعا أن تكون جنازته عسكرية تقليدية أعود بعدها فى المساء إلى دمشق.

فى القاهرة وجدت أن الرئيس جمال عبدالناصر قرر أن تصبح جنازة عبدالمنعم رياض عســكرية وشــعبية معا. وأنه هو نفسه فى المقدمة. ومع أننى عشت فى القاهرة من قبل إلا أننى فى ذلك اليوم فوجئت بأن شــوارع القاهرة وميادينها اتســعت فجأة لكى تضم مئات الآلاف من المصريين خرجوا بعفوية يشاركون فى الجنازة.

فــى إحدى النقاط ذاب عبدالناصر من بيننا وســط الناس وهم جميعــا يتدافعون إليه. كل واحد حريــص على الاقتراب منه ليقول له: البقية فى حياتك ياريس، ولا يهمك ياريس، الثأر ياريس. معك ثلاثين مليون عبدالمنعم رياض ياريس.. الخ.

توقــف مصطفى طلاس لحظة قبل أن يضيف: تطلعت حولى فوجدت أن طاقم الحراســة الخاص بالرئيس عبدالناصر ذاب هو الآخر وســط الناس. تطلعت من جديد فوجدت رؤســاء أركان الحرب القادمين من الدول العربية للمشــاركة تحولوا هم أيضا إلى مواطنين يغمرهم الانفعال. ومددت كلتا يدى يمينا وشــمالا لأقول لهم. فلتتشــابك أيدينا معا لنصبح طاقم حراسة للرئيس. نحيط بالرئيس نحمى الرئيس.

صمت مصطفى طلاس من جديد، ربما لأكثر من دقيقة، ثم قال: في المساء ذهبنا إلى الرئيس جمال عبدالناصر نستأذنه في العودة إلى بلادنا واقتربت من الرئيس.. لأقول له: سيادة الرئيس.. هذا التفاعل الذى شهدناه اليوم من الشعب المصرى هو أكبر عزاء لك في استشهاد عبدالمنعم رياض. قاطعنـى عبدالناصر قائـلا: لا ياطلاس .أنا ذهبت إلى الجنازة لمشـاركة الناس وليس لتقبل العزاء في رياض. بالنسـبة لى لاعزاء في رياض. العزاء الوحيد عندى، وعند عبدالمنعم رياض، وعند كل العسـكريين المصريين، هو تحرير الأرض. كل الأرض. لاأتكلم هنا عن سيناء فأمرها محسوم. أتكلم عن القدس، قبل سيناء والجولان، هى القدس ياطلاس.

قالها عبدالناصر بوجه من الجرانيت وعينين من النيران.. هكذا حكى لى مصطفى طلاس وبعدها صحبنى في سيارته إلى منزله متأخرين عن الغداء. على مائدة الغداء وأظنها الأطعم مذاقا فيما رأيته من دمشق، كنت متفاعلا تماما مع مصطفى طلاس والسيدة الفاضلة زوجته.

أما مخى وعقلى الباطن، فقد اسـتمر مسيطراً تماما عليهما شريط اليوم السابع الطويل من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣. إنهم رجال اليوم السابع.

❑❑❑



رجال اليوم السابع (٣)
من غزو مصر إلى الهيستيريا

١٩٧٠ . فبراير . القاهرة. فندق هيلتون.

جيمس رستون المعلق الأمريكى البارز ومدير تحرير جريدة «نيويورك تايمز» الأمريكية موجود فى القاهرة لمهمة صحفية لجريدته محورها: هل صحيح أن الشعب المصرى فى حالة انهيار وهزيمة ويأس؟

لم يكن السؤال من فراغ. فخلال الأشهر الخمسة الأخيرة قررت إسرائيل الرد على حرب الاستنزاف المصرية فى جبهة قناة السويس بنقل الحرب إلى عمق مصر.. مستخدمة فى ذلك طائرات الفانتوم الأمريكية. طائرات هى الأحدث عالميا وبدأت إسرائيل تتسلمها منذ سبتمبر الماضى. كما قامت إسرائيل أيضا بإنزال قوة بر/مائية فى نقطة مهجورة على ساحل البحر الأحمر جنوب مدينة السويس بمائة كيلومتر اسمها «الزعفرانة» لتبقى فيها عدة ساعات موثقة بفيلم سينمائى تسجيلى تذيعه إسرائيل بعنوان «غزو مصر». لم تكن للعملية قيمة عسكرية تذكر. لكن قيمتها الدعائية ضخمة. فالمواطن الإسرائيلى سيسترد ثقته بقواته المسلحة العاجزة عن وقف حرب الاستنزاف المصرية. أما المواطن المصرى فلابد أنه سيفقد ثقته فى قواته المسلحة لأنها بعد سنتين من يونيو ١٩٦٧ ماتزال تؤخذ على غرة.

بعد قليل استخدمت اسرائيل طائرات الفانتوم الأمريكية فى الوصول بغاراتها إلى التل الكبير وأنشاص ودهشور والخانكة.. بل ومشارف القاهرة ذاتها. كلها غارات خاطفة وضد مواقع مدنية. و.. هات يا دعاية. ثم خرج موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلى ليقول - على بلاطة - إن هدفه من هذه الغارات الاسرائيلية بعيدا عن جبهة المواجهة الفعلية فى قناة السويس هو: «أن نحافظ على معنويات الشعب الاسرائيلى ونقوض الزعامة السياسية والعسكرية فى مصر».

والآن فى فبراير ١٩٧٠ غارة اسرائيلية جديدة ضد مصنع مدنى قرب القاهرة. توقيت الغارة محسوب ولكن ليس بدقة كافية. فى المصنع ورديات تتناوب العمل. كل وردية من ألفى عامل يأتون وينصرفون فى موعد محدد بقطار محدد. والغارة الاسرائيلية تستهدف إلقاء حمولة المتفجرات على

العمـال فى الدقائق التى تجمع بين انصراف وردية وقدوم وردية أخرى. يعنى الهدف أربعة آلاف عامل.. مدنى. أقصى وأسفل أنواع الارهاب.. ضد المدنيين. لكن الله ستر والضحايا بضع عشرات.

بعد سـاعات من إذاعـة الأخبار فى إذاعة وتليفزيـون القاهرة نزل جيمس رسـتون الزائر من النيويورك تايمز وعدد من زملائه إلى شوارع القاهرة متوقعين حالة هلع أو ذعر أو تزاحم للهروب من القاهرة إلى الريف المصرى بمثل ما حدث لسكان لندن حينما حاول الزعيم النازى الألمانى هتلر ارهابهم بصواريخه فوق رؤوسهم فى الحرب العالمية الثانية لكنهم فوجئوا بأنه لا ذعر، لا تزاحم. انها الحياة الطبيعية بهدوئها المعتاد فى القاهرة.

ثم شـىء آخر. فى اليوم التالى - الجمعة - ذهب جمال عبدالناصر يؤدى الصلاة كالمعتاد، وفى سيارة مكشوفة كالمعتاد، وآلاف الناس يحيونه فى الشوارع. نفس الذين استمعوا بالأمس إلى أصوات الطائرات الاسرائيلية وهى تخرق حاجز الصوت لكى تشعرهم بوجودها.

على الورق سجل جيمس رستون حيرته من هذا الهدوء الذى واجه به الشعب المصرى القاذفات الاسـرائيلية وهى على حافة القاهرة. هل السـبب هو طبيعة الشعب المصرى، أو ايمانه، أو عقيدته الدينية، أو شعوره العميق بالوطنية، أو كل هذا معا؟ هكذا تساءل جيمس رستون كتابيا أمام قرائه الأمريكيين.

❑❑❑

فبراير. مارس - ١٩٧٠

اسـرائيل تلح على أمريكا، أمريكا تلح على مصر. مطلوب إلزام مصر بوقف إطلاق النار بلا قيد ولا شرط، وفورا. مصر ترفض. لا وقف لإطلاق النار إلا بقيود وبشروط. فلتخبط اسرائيل رأسها فى الحائط. القتال مستمر.

❑❑❑

٣٠ يونيو - ١٩٧٠

غارات اسـرائيلية متتابعـة ويومية. فى هذه الفترة لم تعد الغـارات موجهة ضد المدن والقرى المصريـة بعـد أن نجحت مصر فى نشـر الدفعة الأولى من شـبكتها الصاروخيـة الجديدة لحماية المدنيين. الآن تعود اسرائيل للتركيز على المواقع العسكرية المصرية فيما بين القاهرة وقناة السويس. الغـارات يومية. بطائرات متزايدة وحمولات تدميرية متضاعفة أحيانا ٤٠ أو ٨٠ أو ١٥٠ طائرة فى اليوم الواحد.. والهدف فى كل مرة هو نفسـه: المواقع الجديدة لشـبكة الصواريخ التى تقترب بها مصر من شاطىء قناة السويس. الشهداء كثيرون والخسائر ثقيلة والنتائج بطيئة.

الآن – فــى ٣٠ يونيــو – بدأت النتائج المفاجئة. لقد أســقطت الصواريخ المصرية الجديدة ثمانى طائرات قاذفة مقاتلة فانتوم وســكاى هوك مع أسر خمســة طيارين أحياء. بعد يومين: مصر تسقط طائرتين أخريين. وفى اليوم التالى: طائرتين أخريين. فى اجمالى أسبوع تساقط الفانتوم سبع عشرة طائرة أسقطها المصريون ووضعوا أيديهم على تسعة طيارين أحياء. كل واحد من هؤلاء تكلف تدريبه – فقط – مليون دولار.

لكن: ماذا عن «غزو مصر»؟ ألم يكن هو شعار اسرائيل المرفوع قبل تسعة أشهر؟ ماذا عن التليفون الــذى يجلس إلى جواره وزير الدفاع الاســرائيلى منذ يونيو ١٩٦٧ فــى انتظار مكالمة من مصر؟ أو بالقليل من الملك حسين فى الأردن باعتباره مع الأقوى غالبا؟ اسكت هس. اسرائيل سرها فى البير. والبير اسمه أمريكا. وأمريكا هى بابا وماما وفريد شوقى. ومن وقت لآخر استيفان روستى و: نشنت يا فالح؟

□□□

٩ أغسطس – ١٩٧٠. الصباح . القاهرة اجتماع سرى للغاية.

هــذا مقر قيادة الدفاع الجوى والاجتمــاع العاجل هو بذاته نموذج لما يجرى فى قيادات الطيران والبحرية والجيشين الميدانيين فى الجبهة و.. و...

ضبــاط وخرائــط ولوحات. ثم دخــل اللواء محمد علــى فهمى قائد الدفاع الجــوى متأملا وجوه مســاعديه وكبار ضباطه. بعضهم لم ينم بالمرة خلال الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة. كلهم تختلط فــى وجوههم ملامح الإعياء مع علامات الانشــراح. هذا طبيعى فالأيــام الأخيرة كانت أيامهم. فى الواقــع إنه منذ ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وهؤلاء الرجال يفاجئون اســرائيل فــى كل مرة يقفزون بحائطهم الصاروخــى إلى الأمام أكثــر وأكثر باتجاه قناة الســويس. ولم يعد هناك حديث للعالم كله ســوى تلك الصواريخ بعد أن خرج الساســة الاســرائيليون يتصايحون علنا فى حالة من الهيستيريا. حتى الولايات المتحدة قالت لإسحاق رابين سفير اسرائيل فى واشنطون: يلزمنا وقت لكى نساعدكم بأنواع جديدة من الأسلحة تواجهون بها حائط الصواريخ المصرى هذا.

لقد قبلت مصر واســرائيل بمبادرة أمريكية لوقف إطلاق النار والبدء فى مفاوضات غير مباشرة مــن خلال ممثل الســكرتير العام للأمــم المتحدة هدفها تنفيــذ قرار مجلس الأمن رقــم ٢٤٢ الملزم لإســرائيل بالانســحاب من الأراضى العربية التى احتلتها فى غزوة يونيو. واسرائيل تذعن بغصة فى حلقومها. ســيكون هناك وقف لإطلاق النار على الجبهة المصرية، وهذا ما كانت تريده اسرائيل طوال السنوات الثلاث السابقة. لكن هذا الوقف مشروط بمدة – ٣ شهور تحديدا – ومشروط بدخول إسرائيل فورا فى مفاوضات الأمم المتحدة بشأن الانسحاب.

لقد سـرى وقف إطلاق النار اعتبارا من السـاعة الاولى من صباح ٨ أغسطس. وقبل الموعد بدقائق نجحت مصر فى القفز سـرا وليلا بالجزء الأخير من حائطها الصاروخى إلى حافة قناة السـويس. هذا هو سـر الهلوسة الاسرائيلية لأن المعنى العسـكرى واضح. فبحائط الصواريخ هذا ضمنت مصر الحماية الكاملة للقوات المسـلحة المصرية عند عبورها القناة فى طريقها إلى تحرير الأرض. وطوال الأسابيع التالية سوف تتلاحق صرخات اسرائيل مطالبة بسحب الصواريخ المصرية هذه حتى تشعر هـى بالأمان. وأمريكا تقول لاسـرائيل: نحن أيضا نتمنى هذا مثلكـم. لكن ليس لدينا ـ بعد ـ دليل علـى أن مصر فعلت ذلك بعد موعد سـريان وقف اطلاق النار. الآن يجتمـع اللواء محمد على فهمى بكبار ضباطه. بالطبع هناك تهنئة وترحم على أرواح شهداء كانوا جزءا غاليا من الثمن الذى دفعته مصر لإقامة حائطها الصاروخى الجديد، هو فى لحظتها أصبح أكبر حائط صاروخى فى العالم حسب وصف وكالات الأنباء. لكن محمد على فهمى لم يسـتطرد كثيرا فى التهنئة . لقد اسـتدار إلى أحد معاونيه وطلب منه أن يتقدم إلى الخريطة العسكرية التى تتوسط قاعة الاجتماع ويشرح طبوغرافية سيناء من منظور الدفاع الجوى. ما هى العوائق داخل سيناء؟ ماهى المواقع؟ من أين سيجىء العدو، بالطيران أو بالمدفعية؟ كيف نناوره؟ نفاجئه؟ تلك وغيرها أسـئلة محددة تتطلب دراسـات محددة وإجابات واحتياجات محددة مطلوب انجازها خلال ثلاثة أشهر.

ثـم اختتم اللـواء محمد على فهمـى الاجتماع قائلا لضباطـه: «إن التفوق الجوى الاسـرائيلى حقيقـة يجب أن نعترف بها. لكن ينبغى أيضا ألا ننسـى أننا اسـتطعنا تحـدى هذا التفوق مرات عديدة خلال حرب الاسـتنزاف. بل واستطعنا تحقيق بعض الانتصارات عليه. وفى معركتنا المقبلة لـن يقتصـر دورنا على مجرد تحـدى هذا التفوق، بل سـيكون علينا أن نهزم هـذا التفوق ونحطم الأسـطورة». الكلمات محددة. فيها ثقة لكن بلا غرور . فيهـا تأكد لكن بلا أوهام. فيها تواضع لكن بعلم ومعرفة وقدرة على تحقيق النصر.

□□□

١٩٧٠. الاسكندرية. أغسطس.

الدكتور محمد حسن الزيات سفير مصر لدى الأمم المتحدة جرى استدعاؤه لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر فى الاسكندرية. فى الطريق إلى الاجتماع أعد الزيات فى رأسه عشرات من الأسئلة. إنه سـيعود خلال أيام إلى مقر عمله فى نيويورك ليمثل مصر فى مفاوضات الأمم المتحدة لتنفيذ المبادرة الأمريكية وقرار مجلس الأمن بشأن الانسحاب الاسرائيلى.

فى الاجتماع بدأ جمال عبدالناصر يشرح الموقف للدكتور الزيات. بعد دقائق أخرج الزيات علبة سـجائره. لكن أين الكبريت؟ نهض الرئيس عبدالناصر من كرسيه وخرج من الحجرة ثم عاد ومعه

علبة كبريت. الزيات فوجىء فعدل عن السيجارة لكن الرئيس كان قد أشعل له عود الكبريت قائلا له: احتفظ بالكبريت يادكتور فأنا امتنعت عن التدخين بتعليمات من الأطباء.

ثم دخل الرئيس فى الموضوع مباشرة: يادكتور هناك مفاوضات سيقوم بها السفير يارنج - ممثل الأمم المتحدة - معك فى نيويورك ومع مندوب اسرائيل. المفاوضات أساسها كما تعرف هو مبادرة أمريكية لتنفيذ القرار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. عندك صورة من المبادرة وملفها الكامل جهزه لك محمود رياض (وزير الخارجية). إذا جاءت لنا المبادرة بحقوقنا فى المدة المقررة أهلا وسهلا. لكن دعنى أنبهك من الآن إلى مسألة أساسية. لا تفاجأ إذا فشلت هذه المبادرة فى النهاية. فى الواقع إن توقعاتى بنجاحها لا تزيد على نصف بالمائة. لكننا قبلناها لأننا فى حاجة إلى الأشهر الثلاثة القادمة.

قال الدكتور الزيات: سيادة الرئيس.. لا تؤاخذنى إذا طلبت منك إجابة تلزمنى.. ليس لأننى سأذهب إلى نيويورك وأقولها إلى السفير يارنج.. أو أى مخلوق. فقط لمجرد أننى سأكون فى نيويورك على مسافة آلاف الأميال ولا أريد العودة إليك أو الوزير محمود رياض قبل كل صغيرة وكبيرة. سيادة الرئيس:. ما الحد الأدنى الذى سنقبله إذا كانت هذه المبادرة جادة فعلا؟

رد جمال عبدالناصر بحسم: القدس. هذا هو حدنا الأدنى يادكتور.

فيما بعد.. روى لى الدكتور الزيات تلك الواقعة وهو يضيف مبتسما: فى الواقع أنه بتلك الإجابة من الرئيس تبخرت من ذهنى عشرات الأسئلة التى كنت قد رتبتها فى عقلى. فبإجابته تلك اختصر الرئيس كل الأسئلة وحدد محطة الوصول. لكننى أيضا خرجت بنتيجة أخرى وهى أن الرئيس عبدالناصر لا يضع مخه مطلقا فى هذه المبادرة. مخه كله فى القوات المسلحة وفى تحرير الأرض بقوة المحاربين وليس بفصاحة الدبلوماسيين من أمثالى.

❑❑❑

أغسطس . سبتمبر. واشنطون. القاهرة. واشنطون

الهيستيريا الإسرائيلية من الصواريخ المصرية تتزايد. مع أن وقف اطلاق النار مستقر منذ تاريخه إلى الآن إلا أن اسرائيل تمطر أمريكا بالشكاوى. ما أدخلته مصر إلى «منطقة التسكين» - أى ٣٠ كيلو مترا من قناة السويس - ثلاث كتائب صواريخ. لا يمكن أن نتفاوض وتلك الصواريخ فى رأسنا. لا.. لا.. مصر أدخلت عشر كتائب صواريخ. ياخبر أسود؟ ما أدخلته مصر ١٤ كتيبة صواريخ. هل تصدق أمريكا أن مصر تفعل ذلك فى ليلة واحدة قبل وقف اطلاق النار؟ إذن.. ماذا ستفعله بنا مصر فى باقى الليالى. الحقونا بحل فورا.. وإلا.. على مصر أن تسحب الصواريخ.

أمريـكا تبلغ مصر. ووزير الخارجيـة محمود رياض يبلغ المنـدوب الأمريكى: نحن لم نخرق وقف اطلاق النار. وسـواء تعلق الأمر بكتيبة صواريخ واحدة أو بعشر أو بأكثر أو بأقل.. لن نسحب صاروخا واحدا.. وعلى المتضررَ أن يخبط رأسه فى الحائط.

ولـم يفهم المندوب الأمريكى يومها ـ دونالد بيرجس ـ أى حائط ينصح محمود رياض اسـرائيل بأن تخبط رأسها فيه: حائط المبكى.. أوحائط الصواريخ؟

❑❑❑

٢٨ سـبتمبر ١٩٧٠. بعد أحداث مفاجئة ـ ومريبة ـ فى الأردن بين الملك حسين وياسر عرفات، ودماء تسـيل، وقمة عربية فى القاهرة لوقف المذبحة ونجاح القمة، ومغادرة أمير الكويت القاهرة عائدا إلى بلاده باعتباره آخر الضيوف المغادرين الذين يودعهم جمال عبدالناصر فى المطار بنفسـه كالآخرين أصبح الخبر المدوى عالميا هو: رحيل عبدالناصر. أسبوع واثنان من الاجراءات وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية.

❑❑❑

١٥ أكتوبر ١٩٧٠. فندق «والدورف استوريا». نيويورك.

هذا وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكى موجود فى نيويورك لحضور الدورة السنوية العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة. وبمناسـبة وجود محمـود رياض وزير خارجية مصر أيضا فقد دعاه روجرز إلى الاجتماع به فى جناحه الخاص بالفندق.بعد دقائق من بدء الاجتماع دق جرس التليفون. رفع روجرز السماعة ليجد أن المتحدث اليه هو الرئيس (الأمريكى) ريتشارد نيكسون.

روجرز يرد: نعم ياسيادة الرئيس. بالضبط أنا الآن مجتمع مع مستر رياض.

قال نيكسون: أرجو أن تبلغه عزائى لوفاة الرئيس جمال عبدالناصر. إننى أعتز بمعرفتى بهذا الرجل العظيم والذى تبادلت معه الكثير من الرسائل والأحاديث. أرجو تكرار عزائى للوزير المصرى وللشعب المصرى . لكن.. اسمع.. دعنى أتحدث إلى الوزير رياض شخصيا.

ناول روجرز السـماعة لمحمود رياض فبادره نيكسـون بتكرار العـزاء مؤكدا مرة أخرى مدى الاحترام الذى كان يحتفظ به للرئيس عبدالناصر ومضيفا: لولا أننى اسـتلمت الرئاسـة والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين بلدينا لكنت جئت إلى القاهرة بنفسى للمشاركة فى الجنازة. لقد تابعتها على شاشـات التليفزيون ولم افاجأ بأنها أضخم جنازة شـاهدتها على الاطلاق. مرة أخرى أكرر لك وللشعب المصرى عزائى.

انتهـت المكالمـة وبدأ حديث العمل. مسـتر روجرز يبلـغ محمود رياض من جديد بالشـكاوى الإسـرائيلية من حائط الصواريخ المصرى. فى هذه المرة يضيـف: لدينا بعض الصور التقطناها نحن

جوا بوسائلنا الخاصة ترجح دخول بعض الصواريخ إلى مواقعها بعد سريان وقف إطلاق النار.. وأنا على استعداد لتقديم تلك الصور إليكم.

قاطعه محمود رياض قائلا: لست على استعداد لتبادل الصور والاتهامات. ويمكنني أن أكرر لك أننا لم نخرق ترتيبات وقف اطلاق النار ولم نحرك الصواريخ. على العكس.. لدينا نحن أيضا معلوماتنا الخاصة بأن اسرائيل أقامت تحصينات جديدة في سيناء بعد سريان وقف اطلاق النار.

أشار روجرز من طرف خفي إلى أنه من الممكن تهدئة اسرائيل بسحب صاروخ أو اثنين وبذلك يعود يارنج – ممثل الأمم المتحدة – إلى مهمته.

قال محمود رياض: مستر روجرز.. قلناها لكم في أغسطس وقلناها لكم في سبتمبر. والآن أقولها لكم من جديد.. نحن لن نسحب صاروخا واحدا. أما عن الأمم المتحدة فكلانا أكثر معرفة بالحقائق. كل الأمم المتحدة معنا، وكلها تقر بأن اسرائيل قوة احتلال عليها بالانسحاب الكامل من كل شبر أرض عربية.. بغير لف ولا دوران.

❑❑❑

١٩٧١. القاهرة . همسات وأحاديث.

هناك جدل يعود إلى السطح من جديد محوره هذا السؤال: هل نحارب بما لدينا من أسلحة.. أو ننتظر الحصول على المزيد منها؟ في الواقع إنه سؤال تقليدى كلاسيكي له دائما اجابتان. هناك جنرالات يصرون على المزيد من الأسلحة حتى ولو كانت ربما لا تأتي أبدا. وهناك جنرالات أخرون يرفضون من الأصل الدخول في هذه الدائرة المفرغة. فحتى لو حصلنا على أسلحة اضافية.. سيحصل العدو أيضا على أسلحة اضافية مضادة. وبامتداد التاريخ كله لم يحدث أبدا أن بدأ جنرال حربا وهو راض تماما عن أسلحته أو لا يتمنى المزيد منها.

❑❑❑

١٩٧٢. الربيع. مطار القاهرة الدولى

اللواء محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة انتهى لتوه من توديع أحد الرسميين الأجانب. فجأة وجد أمامه اللواء أحمد اسماعيل رئيس المخابرات العامة. سلامات وتحيات ومجاملات.. فالجمسى عمل مع أحمد اسماعيل من قبل في مواقع عسكرية عديدة وهناك مودة متبادلة.

والآن ينتحى أحمد اسماعيل بالجمسى جانبا ويسأله هامسا: قل لي يا جمسى.. متى ستحاربون؟

فكر الجمسى لحظة قبل أن يرد: سنحارب حينما تصبح أنت وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة.

الجمسـى حويط. صحيح الصداقة عميقة والود متبادل لكن أحمد اسماعيل ليس عابر سبيل. إنه رئيـس المخابرات العامة. وبتلك الصفة لابد أن تكون الصورة واضحة عنده كما هى عند الجمسـى. لازم يعنى نتكلم فى السياسة؟

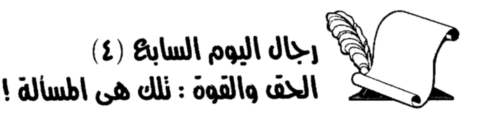
❑❑❑

١٩٧٢. أكتوبر. اجتماع غير معلن. القاهرة

أنور السـادات يجتمع بكبار قيادات القوات المسلحة المصرية. الحرب أصلا قرار سياسى والآن. القرار هو: نحارب بالامكانيات المتاحة.

بعدها بيومين أصبح أحمد اسـماعيل وزيـرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسـلحة. الآن بدأت عقارب الساعة تتحرك بعد طول توقف. الآن يعود «رجال اليوم السابع» إلى الاندماج فيما أعدوا من أجله وتدربوا عليه وحفظوه عن ظهر قلب وآمنوا منذ الدقيقة الأولى بأنه الخيار الوحيد.

❑❑❑



رجال اليوم السابع (٤)
الحق والقوة : تلك هى المسألة !

هذه عمارة من سـبعة طوابق. عرض وطول وارتفاع، سـبعة طوابق. ولسبب قاهر مطلوب نسف هذه العمارة بالكامل لتصبح بمستوى الأرض. كيف يحدث هذا؟ بأى نوع من المواد المتفجرة؟ وخلال أى مهلة زمنية؟

لكنها ليسـت مجـرد عمارة. هى بارتفاع سـبعة طوابق – صحيح – لكنهـا لاتضم أى فراغات ولا حتى أعمدة أو سـقوف بحيث لو جرى نسـف أسـفلها ينهار عاليها. أبدا. هى مكبوسـة كبسا بالرمـال والأتربة. وازالة العمارة يجب أن يبدأ من أعلـى، وبالتدرج. مرة أخرى أى نوع من المواد المتفجرة وخلال أى مهلة زمنية؟

ثـم مرة ثالثة: هذه ليسـت عمارة عادية ولا نسـفها يجرى على الراحة: هنـاك طائرات فوق الرءوس لمنع الاقتراب من العمارة وقذائف مدفعية من بعيد مسلطة على كل من يقترب منها. والفشل فـى إنجاز الهـدف هذا لايعنى فقط موت المقتربين من العمـارة ولا القريبين منها لكنه يعنى أيضا إصابة مليون مواطن بالشلل.

ويعنى أخيرا استمرار احتلال اسرائيل للارض المصرية.

تلـك كانت واحـدة من مئات المعضلات التـى واجهها المخططون المصريون من القوات المسـلحة المصريـة بعد الهزيمة المروعة فى ١٩٦٧. لقد أصبحت قناة السـويس مانعا مائيا حصينا يفصل بين الاحتلال الإسـرائيلى وبين القوات المصرية الجديدة. قناة طولها ١٦٠ كيلومتراً وبعرض ٢٠٠ متر. وعلى مسـافات متباعدة أقامت إسـرائيل سلسـلة من التحصينات القوية على الضفة الشرقية لقناة السـويس. وإذا كانت حرب الاسـتنزاف المصرية (١٩٦٧/ ١٩٧٠) قد دمرت «خط بارليف» هذا فى معظمه، إلا أن اسرائيل سرعان ما أعادت بناءه اعتباراً من سنة ١٩٧١.

لكن فيما بين تلك النقاط الحصينة أقامت اسـرائيل شـيئا آخر. فعلى حافة القناة مباشرة أقامت حائطا مرتفعا من الرمال بارتفاع عشـرين مترا كوقايـة إضافية. وقاية ضد رؤية القناصين المصريين على الضفة الغربية.

والأهـم من ذلك وقاية ضد أى محاولة مصرية للعبور إلى الشـرق بمدرعات ودبابات. الافراد، ممكن التعامل معهم لكن العبور بمدرعات ودبابات؟ مستحيل.

لكن «رجال اليوم السـابع» كانوا قد شـطبوا من قاموسـهم مبكرا كلمة مستحيل. ومع أن حرب الاستنزاف كانت لها جبهة قتال محددة هى خط قناة السويس إلا أن المواجهة سرعان ما أصبح لها بمرور الوقت جبهات شتى. هناك مثلا غارات اسرائيل فى العمق المصرى بهدف ترويع المدنيين فى قراهـم ومدنهم. هناك أيضا توحش يومى ضـد كل محاولة تتقدم بها مصر بحائطها الصاروخى إلى الأمام. إلى قناة السويس.

لكن قناة السـويس ذاتها أصبحت عقبة كبرى. فى نهاية المطاف هدف مصر من كل ماتفعله هو إعداد قواتها المسـلحة للحظة عبور القناة إلى الشـرق بدءا من تحرير الأرض. فى تلك اللحظة ليس المطلوب عبور أفراد أو مقاتلين فقط. مطلوب عبور مدرعات ومدافع ثقيلة ودبابات. إذن المطلوب إقامة كبار - جسور مائية فيما بين ضفتى قناة السويس - ثقيلة تتحمل عبور مركبات ثقيلة.

وطوال سنة ١٩٦٩ بدأت مصر سرا فى إجراء تجارب لإقامة هذا النوع من الكبارى. وحتى تكون التجـارب أقرب إلى الطبيعـة فقد اختيرت مناطق محددة على نهر النيـل لإجراء التجارب فيها للوصول إلى الإجابات المطلوبة: أى نوع من الكبارى نحتاج إليه؟ كم من الوقت يستغرق تركيبه؟ كم معدل الحمولات التى يمكن أن ينقلها خلال الساعة؟ الخ.

لكن هذا ليس كل شئ. فبافتراض أن الكوبرى أقيم والدبابات عبرت فوقه فإنها سوف تجد على الجانب الآخر حائطا سـميكا أصمـا مرتفعا من الرمال تغوص فيه وتتدفـن داخله إن لم يكن بفعل القذائف الاسرائيلية فهو بفعل الرمال ذاتها، وهذا هو الهدف الأصلى من إقامة هذا الحائط الرملى السـميك الكبير المرتفع بامتداد قناة السـويس. كيف يمكن إذن فتح ثغرة فـى هذا الحائط الرملى بعرض يكفى لعبور الدبابات والمدافع الثقيلة؟

أصبح هذا هو السؤال شديد الإلحاح والسرية معا، الذى يواجه «رجال اليوم السابع». لقد جربوا الديناميت والمواد الأخرى شـديدة الانفجار والتجريف اليدوى والقذف المدفعى لكن بلا حل يناسب قصر الوقت المتاح لحظة العبور والتعرض المستمر لقذائف العدو.

فى النهاية خرجت فكرة: لماذا لانجرب القذف بالمياه؟

هى فكرة اسـتثنائية بقدر بسـاطتها. لكن الفكرة نشـأت من مشـروع آخر بدا للعالم فى أوله مشـروعا اسـتثنائيا قبل أن يحوله المصريون إلى حقيقة. إنه السد العالى. فخلال العمل لإقامة السد العالى جنوب اسوان استخدمت طلمبات ضخمة من اجل تذويب الرمال جنبا إلى جنب مع استخدام المفرقعات لتفجير الصخور. وبمجرد أن اشار ضابط مهندس إلى تلك التجربة، حيث كان هو نفسه منتدبا فى حينها للعمل فى السد العالى، بدأت الاتصالات بسرعة وسرية فى أعلى المستويات.

وخلال شـهر يوليو ١٩٦٩ تلقى المهندس صدقى سليمان، رجل السد العالى الشهير.. تعليمات من جمال عبدالناصر بأن ينسـق فورا مع محمد فوزى وزيـر الحربية لعمل تجارب فعلية اختبارا للفكـرة فـى أرض الواقع. واختيـر موقع محدد فى منطقة اسـمها الخطاطبة لكى يقيم فيه سـلاح المهندسـين بالقوات المسلحة مايشبه خط بارليف والساتر الرملى فى سيناء. وجئ بالمعدات المطلوبة من أسوان بالسكة الحديدية على وجه السرعة وجلس مندوبو سلاح المهندسين ووزارتى الرى والسد العالى يتابعون التجربة الأولى.

نعم. الفكرة مدهشـة وتنفيذها اسـتغرق سـاعة وربعا من أجل عمل فتحة كافية تسـمح بمرور دبابة.. لكن التعليمات جاءت بسـرعة: كرروا التجربة باسـتخدام كبـار حقيقية على نهر النيل ومدرعات ودبابات حقيقية.

هكـذا تكـررت التجربة فى ٢١ أغسـطس ١٩٦٩ بحضور المهندس صدقى سـليمان، ولجنة من القوات المسـلحة برئاسـة اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين زائد مجموعة من مشاركين أخرين من القوات المسلحة ووزارتى الرى والسد العالى.

النجـاح أكبر. والوقت جرى اختصاره إلى ٥٥ دقيقة. لكن يجب اسـتبدال بالموتورات الضخمة ومولداتها الكهربائية نوع خاص من الطلمبات الكهربائية يكون أخف وزنا وأسـهل نقلا عبر قناة السـويس. بعد بحث ودراسـة، فى نفس الموقع ومن خلال خبرات مهندسـى الرى والسد العالى، تبين أن تلك الطلمبات يمكن شـراؤها من أحد مصدرين: ألمانيا (الغربية) أو بريطانيا. وبشـرط عدم الايحاء مطلقـا بالمهمة الحقيقية لتلك الطلمبات. لقد ابتكرهـا مصمموها لهدف مدنى محدد والآن يريد «رجال اليوم السـابع» استخدامها فى هدف آخر يحولها إلى مدفعية مائية، أو قذائف مائية تسحب المياه من قناة السويس ذاتها لكى تسلطها بقوة على الحائط الرملى المرتفع فى الضفة الشرقية لقناة السويس فتذوب الرمال أمام قوة المدافع وتتساقط إلى قناة السويس.

يومها التفت المهندس صدقى سـليمان إلى مسـاعده المهندس محب أبو قمر المسـئول عن إدارة التجريف الهيدروليكى بالسـد العالى وأشار نحو مصور سـينمائى جاء به قائلا: الآن عليك بأخذ الفيلـم السـينمائى من المصور وتحميضه فـورا ثم الذهاب به إلى وزير الحربيـة.. فالرئيس جمال عبدالناصر لن ينام الليلة قبل أن يشاهد هذا الفيلم بنفسه.

مـن لحظتها أصبحت فكرة مدافع المياه هذه واحدة من أسـرار الدولـة العليا المحظور تداولها أو الحديث عنها إلا فى الدائرة الضيقة تماما بين رئيس الجمهورية ومدير سـلاح المهندسـين. إن تجارب إقامة كبارى العبور على نهر النيل ستستمر. لكن فكرة «مدافع المياه» اسكت هس. الحرب أسرار وأرواح المقاتلين أمانة.

□□□

١٩٧٣. الحرب. ٦ أكتوبر

مصر وسوريا فى حالة حرب ضد الاحتلال الاسرائيلى من خلال جبهتين. الحرب قرار سياسى.

والسياسة لاتدور فى فراغ. هناك مليون مواطن تحت السلاح فى مصر. هناك شعب تحمل وضحى من أجل هؤلاء. هناك غليان فعلى انتظارا لخبر محدد. تحرير الأرض بقوة السلاح.

مع القرار خرجت آلاف التفاصيل. فى الجبهة المصرية مثلا للحرب عنوان معروف هو قناة السويس وسيناء.

لكن «رجال اليوم السابع» لم يكونوا فقط الطيارين الذين يريدون شفاء غلهم بضربة جوية أولى ولا فقط عشرات الآلاف من رجال المدفعية الذين سيمطرون المواقع الاسرائيلية بقذائفهم ولا فقط خبراء الصواريخ والدفاع الجوى الملتزمون بصمت كامل حتى تبدأ مهمتهم فى حماية القوات العابرة إلى سيناء، ولا فقط فرق المشاة والمدرعات التى تلاحم رجالها مع أسلحتهم طوال اليوم السابع الطويل.

هناك أيضا غواصات مصرية ومدمرات أخذت مكانها مبكرا فى باب المندب، المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لمنع وصول شحنات البترول إلى إسرائيل. هناك كذلك طائرات ميراج فى ليبيا بطيارين مصريين عليها حفظوها وحفظتهم. هناك طيارون مصريون تتابع تخرجهم فى كلية الطيران التى كان قد تم نقلها إلى السودان منذ سنة ١٩٧٠ حماية لهم من الغارات الإسرائيلية المحتملة. هناك طيارات مدنية يجب ابعادها عن مصر مسبقا بشكل لايلفت النظر تحسبا للغدر الاسرائيلى المعتاد. هناك حزام من البحرية المصرية فى عرض البحر الأبيض المتوسط تحسبا لأى محاولة من العدو للتسلل إلى الأسكندرية وهى فى حينها الميناء الرئيسى لامدادات مواد التموين وهناك رصيد مبكر من الامدادات الغذائية ذاتها. وهناك وهناك..

ثم: سلاح المهندسين بالقوات المسلحة المصرية والمكلف الآن بالمهمة الافتتاحية الخطيرة. مهمة إقامة الكبارى العائمة بعرض قناة السويس وفتح الثغرات فى الحائط الرملى المرتفع فى ضفتها الشرقية. هناك جيشان ميدانيان فى ساحة القناة. الجيش الثانى يتولى مسئولية النصف الشمالى من جبهة قناة السويس حتى الإسماعيلية ثم الجيش الثالث المسئول عن النصف الجنوبى. مع كل جيش أسلحته وامداداته. وكل جيش فى انتظار قيام المهندسين بمهمتهم العاجلة.

كانت المخابرات الاسرائيلية تقدر أن المهندسين المصريين يلزمهم ٤٨ ساعة على الأقل لعمل ثغرات فى الحائط الرملى على الضفة الشرقية. الآن يعملها المهندسون المصريون فى ساعتين. وقدرت المخابرات الاسرائيلية أيضا أن عدد الثغرات المحتملة سيكون محدودا بالضرورة. الآن

تفاجأ اسـرائيل بإقامة ٨٢ ثغرة فى الحائط الرملى، كل منها بعرض سـبعة إلى عشرة أمتار. وكل منهـا اسـتلزم أولا إزالة ١٥٠٠ متر مكعب من الرمال واسـقاطها فى مياه القنـاة. لقد عبر «رجال اليوم السـابع» أولا بمعداتهـم البر/مائية لكى يخترقوا تلك الثغرات بسـرعة إلى سـيناء. بعدها المدرعـات والدبابات من خلال الكبارى العائمة. بعدهم قوات المشـاة. وقبل منتصف الليل - مازلنا فى ٦ أكتوبر - أصبح لمصر خمسون معدية للدبابات بامتداد قناة السويس.

فى أحد الوجوه كان هذا انجازا أكبر مما توقعه المخططون المصريون. وفى وجه آخر كان انجازا أقـل. فبينمـا كانت الكبارى فى منطقة الجيش الثانى قد تمت بسـرعة وتعمل بكفاءة قبل منتصف الليـل، إلا أن نفـس النتيجة لـم تتحقق فى منطقة الجيش الثالث إلا فى التاسـعة من صباح اليوم التالي. والسـبب: أن الحائط الرملى هنا كان أقل اسـتجابة لعملية التآكل والتجريف التى تقوم بها قذائف المياه أو المدافع المائية، التى يستخدمها المصريون هنا فيما لم تصمم من أجله.

كانت اسـرائيل تعرف، مثل مايعرف «رجال اليوم السـابع» أن الامتحان الأساسـى هو عبور المدرعات والدبابات المصرية إلى سيناء. من هنا أصبح الصراع فى اليوم الأول يدور تحديدا حول هذه الكبارى العائمة والثغرات التالية لها فى الحائط الرملى بالضفة الشرقية لقناة السويس.

من هنا أصبح تركيز اسـرائيل الأساسـى خلال اليوم الأول من الحرب هو هذه الكبارى العائمة تحديدا. المهندسـون المصريون منهمكون فى إقامة الكبارى وسـلاح الطيران الاسرائيلى، وهو وجه التفوق المحورى الذى تملكه اسرائيل ضد مصر بطائرات أمريكية متطورة، يركز كل قصفه على تلك الكبارى حتى لاتكتمل أبدا. فى المقابل. عاد «حائط الصواريخ» المصرى الشـهير الذى كانت اسرائيل قد ولولت واستشـاطت رعبا منه منذ يونيو ١٩٧٠ - نتذكر؟ - عاد ليمارس المهمة الأساسـية التى أقيم من أجلها: مهمة حماية القوات المسـلحة المصرية لحظة عبورها قناة السويس متقدمة لتحرير سيناء بقوة السلاح.

خـلال الضربة الجوية المركزة الأولى التى بدأت بها مصر الحرب كان سـلاح الصواريخ المصرى وكل الدفاع الجوى مقيدا بالكامل فى صمت محسوب. هذا طبيعى. فقط بعد أن تعود جميع الطائرات المصرية إلى قواعدها سالمة تصبح حرية العمل متاحة لضباط حائط الصواريخ بالعمل لاسقاط أى هدف معـاد وبلا رحمة. وفعـلا جرى التصرف.. بلا رحمة. الحرب حرب. إمـا قاتل أو قتيل. وفى تلك اللحظة أصبح حائط الصواريخ هو القاتل. من بين كل خمس طائرات اسرائيلية جاءت تقذف الكبارى العائمة التى يقيمها المهندسون المصريون، كانت الصواريخ المصرية تصيب أربعة.

فى المحصلة: خلال ساعتين اثنتين فى هذا اليوم الأول ٦ أكتوبر أسقطت الصواريخ المصرية ٣٨ طائرة اسرائيلية. وقبل أن يحل المساء كانت الأجهزة المصرية قد سجلت مكالمة باللاسلكى من القيادة

الاســرائيلية إلى طياريها: ابتعــدوا تماما عن نطاق حائط الصواريخ المصريــة. يعنى، لاتتجاوزوا عشرين كيلو مترا من حافة قناة السويس.

وبتلك التعليمات أصبح هذا يعنى أن الطائرات الاسرائيلية – وهى أهم ماتملكه اسرائيل – عليها أن توجــه صواريخها أو قنابلها إلى الكبارى العائمة التى يقيمها المصريون فى القناة من مســافة ٢٠ كيلومترا. فى تلك الحالة هى لاتصبح طائرات تصبح فقط نوعا آخر من المدافع بعيدة المدى وهو فى حد ذاته مايلغيها كطائرات، ويجعلها تتساوى مع أى مدفعية أرضية بعيدة المدى وإن يكن بكفاءة أقل.

هذا يعيدنا إلى الكبارى العائمة التى يحاول المهندسون المصريون إقامتها فى الجزء الجنوبى من قناة الســويس داخل النطاق الذى يجب أن يعبر الجيش الثالث من خلاله إلى الشــرق. هناك قذائف تأتى جوا – وعشوائيا – من الطيران الاسرائيلى. هناك أيضا قذائف أخرى، أكثر فاعلية، من المدافع الاسرائيلية عيار ١٧٥ مم تأتى فوق رءوس نفس المهندسين المصريين لمنعهم من استكمال إقامة كبارى عبور الجيش الثالث إلى الشرق. فوق هذا وذاك هناك الصعوبة الثالثة، من التربة فى هذه المرة، التى تجعل فتح الثغرات مستعصية تماما أمام قذائف المياه أو مدفعية المياه التى ابتكرها المصريون.

فجــأة وجدت كتائب المهندســين المصريين بينهــم أحد قادتهم. هو لايحمــل رتبة على كتفه، ولا يتصرف مطلقا باعتباره قائدا لأى أحد. لكن تلك الكتيبة من المهندســين تعرف أنه اللواء أحمد حمدى. وبكل بســاطة يتناقش احمد حمدى مع ضباطه المهندســين وبكل ثقة يطرح معهم الحلول. لقــد عاش كل هذا منذ ١٩٦٩ حينما شــارك فــى مراجعة واختبار كل الصعوبــات المحتملة وغير المحتملة.. التربة تفاجئنا.. ممكن. لكننا أيضا نستطيع أن نفاجئ التربة حتى لا تستعصى علينا.

فى النهاية نجح المهندسون فى إقامة هذا الكوبرى المستعصى عليهم وبدأ عبور الدبابات وتنفس أحمد الصعداء قائلا لضباطه المهندســين: ســوف اغادركم الآن لأطمئن على باقى كبارى العبور.وفى لحظة انصرافه إذ بقذيفة عشــوائية من مدفع اســرائيلى – ضمن آلاف القذائف الأخرى المعتادة قبل ساعات – تصيب احمد حمدى فتسقطه قتيلا.

❑❑❑

حقيقة تتأكد مرة بعد مرة.

فــى القوات المســلحة المصرية الجديدة منــذ بدأ اليوم الســابع فى يونيــو ١٩٦٧ وطوال حرب الاســتنزاف وحتى الآن فى حرب أكتوبر فإن نســبة الضباط إلى الجنود بين الشــهداء هى من أعلى النســب المعتادة فى الحروب. حقيقــة تعكس فى حد ذاتها نوع الروح العســكرية الجديدة المؤمنة بحيوية تحرير الأرض بقوة السلاح.

❑❑❑

٨ أكتوبر. فيينا. النمسا.

اجتماع مقرر منذ مدة للوزراء الأعضاء في منطقة الدول المصدرة للبترول «أوبك» وكذلك مع رؤساء الشركات الغربية الكبرى المستوردة للبترول. والوزراء يسعون إلى اقناع رؤساء الشركات - معظمها امريكية - بقبول رفع سعر برميل البترول ولو عشرة سنتات (الدولار الأمريكي يساوى مائة سنت) لكن المستوردين رأسهم وألف سيف: السعر الحالى (ثلاثة دولارات وسنت واحد للبرميل) مستمر ولا مناقشة فيه قبل سنتين أخريين على الأقل.. مفهوم؟

مع أن الوزراء يمثلون الدول صاحبة البترول إلا أن رؤساء الشركات المستوردة يتصرفون وكأنهم هم أنفسهم أصحاب البترول والمال والجاه والنفوذ والسلطة والسياسة والاقتصاد والكلمة الأخيرة الحاسمة في كل شئ. طيب اسمعني يامستر.. أنتم تكسبون من ورائنا أضعاف أضعاف ماتدفعونه لنا.. عشرة سنتات زيادة نطلبها الآن فى سعر البرميل لن تؤذيكم فى شئ.

أبدا. و«لاسنت واحد». ومن منكم لاتعجبه أسعارنا هو حر.. اشربوا بترولكم فنحن فى غنى عنه والمعروض علينا كثير وبأسعار أرخص.

انتهى الاجتماع بقدرة قادر والوزراء عندهم الحق لكنهم لايملكون سوى مواساة بعضهم البعض. «معلهش يازهر ولك يوم ياظالم».

واليوم هو ٨ أكتوبر والصحف الغربية عناوينها الرئيسية جميعا عن حرب الشرق الأوسط: مصر تعلن اسقاط ٣٢ طائرة اسرائيلية والمدرعات السورية على مشارف نهر الأردن. اسرائيل تبدأ الهجوم المضاد فى الجبهتين.

□□□

٨ أكتوبر. المساء. التليفزيون الإسرائيلى. هذا ديفيد اليعازر رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية يتحدث عن الحرب فى مؤتمر صحفي: المصريون والسوريون بدأوا الحرب ضدنا مرة أخرى وسوف نجعلهم يندمون على ذلك. ثم بكل ثقة وتأكد قال اليعازر: إننا سوف نهاجم وسوف نضربهم وسوف نسحق عظامهم.

□□□

٩ أكتوبر. الثلاثاء. واشنطن.

الثانية والربع صباحا يدق التليفون إلى جوار السرير، وهنرى كيسنجر يرد متثائباً: أهلا ياسيادة السفير.. خير؟قال سيمحا دينتز السفير الاسرائيلى فى واشنطن: لاياهنرى.. لاخير ولا شالوم. عندى برقية وردتنى حالا من جولدا (يقصد جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل)، لا.. لا.. لا أستطيع البوح لك الآن بالتفاصيل حتى ولو كان تليفونك آمنا (أى محصنا ضد التنصت) أريد مقابلتك بصفة عاجلة وسرية.

في الثامنة والثلث صباحا بدأت المقابلة السـرية في غرفـة الخرائط بالبيت الأبيض الأمريكي. السفير يقرأ من برقية رئيسة وزرائه، إسرائيل خسرت حتى الآن - أي في ٦ و٧ و٨ أكتوبر فقط - ٤٩ طائرة منها ١٤ طائرة من طراز فانتوم.

لـم يكـن الرقم في حد ذاته مفاجئا على ضوء ماهو معروف مسـبقا مـن فعالية حائط الصواريخ المصري والدفاع الجوي السـوري.لكن هناك صدمة مروعة. اسـرائيل خسرت أيضا خمسمائة دبابة من بينها أربعمائة دبابة في الجبهة المصرية وحدها. الحقونا بأسـلحة بديلة فورا وبالجو قبل أي وسيلة أخرى.

ثم: رجاء خاص من جولدا مائير إلى كيسنجر. هذه الأرقام يجب أن تظل شديدة السرية ولايطلع عليها أي أحد آخر بخلاف الرئيس الأمريكي ريتشـارد نيكسون. لو عرفت الدول العربية الأخرى بهذا الانجاز من مصر وسوريا فسوف ينضمون إليهما.

وسـر آخر: موشي دايان (وزير الدفاع الاسـرائيلي) أصيب قبل ساعات بانهيار عصبي ومنعته جولدا مائير من عقد مؤتمر صحفي.

وسـر ثالث: الآن يهمس السـفير الاسـرائيلي في أذني كيسـنجر: تقول لـك (جولدا مائير) إنها تريد القدوم فورا إلى واشـنطن في زيارة سـرية لكي تقنع بنفسـها الرئيس نيكسـون بفداحة الموقف.قلت إيه؟

□□□

رجال اليوم السابع (٥)
ضباب الحرب والسياسة !

مع مساء الثامن من أكتوبر ١٩٧٣ كانت مصر قد حسمت لصالحها معركة عبور قناة السويس بقواتها المسلحة إلى سيناء والتقدم لمسافة ما بين ١٠ و١٢ كيلومترا. لقد أصبح لمصر فى تلك المساحة المحررة خمس فرق عسكرية كاملة إلى جانب ألف دبابة فى مواجهة انهيار اسرائيلى ملحوظ والأهم من ذلك هو ان هذا الانجاز تحقق بخسائر أقل كثيرا جدا عن ما توقعه المخططون المصريون. وحينما ردت اسرائيل بهجوم برى مضاد يوم ٨ أكتوبر أبادته القوات المصرية بعد أن وضعت أيديها على عدد متزايد من الأسرى الاسرائيليين من بينهم قائد لواء.

لكن السؤال الجديد الذى فرض نفسه هنا هو: ماذا بعد؟ سيناء شبه جزيرة صحراوية. وهى فى معظمها أرض منبسطة.. ومن وجهة النظر العسكرية فإن النقطة الحاكمة فى الموضوع كله هى مضايق سيناء الجبلية التى تبعد ٤٠ كيلومترا إلى الشرق من حافة قناة السويس. وبالتالى يصبح التقدم من الأرض المكشوفة إلى تلك المضايق هو الهدف المنطقى لمن يتقدم إلى الشرق.

وبدلا من ذلك توقفت القوات المسلحة عند مسافة ١٢/١٠ كيلومترا شرق القناة، تاركة ٣٠ كيلومترا ماتزال تفصلها عن مضايق سيناء. لماذا فعلت مصر ذلك؟ هل بقرار سياسى؟ هل برؤية عسكرية؟ إن كل حرب تلد فرصتها التاريخية المفاجئة. وهى فرصة تجيء كالومضة العابرة تصبح ميزة لمن يلتقطها وعبئا على من يتخلى عنها. وإزاء الانهيار الاسرائيلى الواضح فى أرض القتال بدا غريبا أن تعلن مصر أن قواتها فى حالة «وقفة تعبوية» - اصطلاح عسكرى يعنى عمليا أنها لن تتقدم بقواتها أكثر من ذلك فى اللحظة الراهنة.

لكن «اللحظة الراهنة» هى المفتاح، لأنها ليست لحظة دائمة من ناحية ولأن الحرب تدور بين طرفين.

وفى حينها احتار الخبراء العسكريون حول العالم كثيرا فى محاولتهم فهم هذا التطور المصرى.. أو بالدقة: عدم التطور. الخبراء الانجليز قالوا إن الفرصة «الذهبية» التى خلقها الانهيار الاسرائيلى أمام مصر قد تتبخر بسرعة. الروس قالوا نفس الشيء. الفرنسيون أيضا. الأمريكان

انقسموا. فخبراء وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية توقعوا تقدم مصر عسكريا، وبسرعة، نحو مضايق سيناء.. وهناك فقط يمكن لمصر أن تأخذ بفكرة «الوقفة التعبوية».

وحده هنرى كسنجر وزير الخارجية الامريكى وقتها هو الذى كان له توقع مختلف لم يفسر أسبابه إلا فى مذكراته بعدها بسنوات.

وقد استمرت «الفرصة الذهبية» فى أيدى مصر لخمسة أيام بالكامل من ٨ إلى ١٢ اكتوبر. فى تلك الفترة حولت اسرائيل هذا التطور لصالحها بمفهوم مختلف. لقد ركزت ضرباتها بشدة ضد الجبهة السورية، حيث خطورتها على إسرائيل أكبر لأنها الأقرب إلى المراكز السكانية. وليل نهار ركزت اسرائيل ضرباتها بتوحش.. بل وحتى ضد المنشآت المدنية لكى تعيد القوات السورية إلى موقف الدفاع.. بل والتقهقر. بعدها فقط نقلت اسرائيل تركيزها إلى الجبهة المصرية.

هنا صدر القرار السياسى للقوات المصرية بالخروج من وقفتها التعبوية واستئناف التقدم شرقا فى سيناء. لكن «الفرصة الذهبية» كانت قد تبخرت. فإسرائيل الآن استردت تماسكها وبدأت تخرج من انهيارها وضمنت لنفسها جسرا جويا أمريكيا عاجلا ومباشرا من المعدات العسكرية الجديدة. جسر يتضاعف يوما بعد يوم بهدف مقرر هو «انقاذ اسرائيل من الانهيار». فى المقابل أصبح هناك جسر جوى مماثل من موسكو إلى كل من دمشق والقاهرة. الحرب تزداد ضراوة واسرائيل تقول لأمريكا: اعطونا مهلة ٤٨ ساعة لكى نسحق مصر وسوريا معا.

❑❑❑

١٤ أكتوبر. موسكو. زيارة مفاجئة وغير معلنة.

هذا هوارى بومدين رئيس الجزائر مجتمع مع ليونيد بريجنيف الزعيم السوفيتى. الحرب هى القضية، بريجينيف يستغرب: حتى إذا كان هدف الحرب محدودا فى البداية فإن الانهيار الإسرائيلى هو الفرصة، نحن أصدقاء لكم.. لكننا لا نفهم مسار هذه الحرب.

بومدين يرد باختصار: نحن أيضا فى الجزائر لنا آراؤنا السياسية المختلفة مع السادات لكن الآن ليس وقت الجدل وهنا ليس مكان بحث السياسة. لقد جئت إليكم بهدف واحد لم أسأل فيه أحدا.. فلا السادات «فى مصر» طلب منى ولا حافظ الأسد «فى سوريا». هذا شيك مقبول الدفع بمائتى مليون دولار تدفعه لكم الجزائر مقدما تحت حساب ثمن أية أسلحة مطلوبة فورا لمصر وسوريا.

لم تكن الجزائر دولة غنية والمائتا مليون دولار «تساوى ألف مليون دولار بأسعار ١٩٩٨» لم تكن فائضة عن احتياجات شعب الجزائر. لكن شعب الجزائر يشعر بوفاء عميق لمصر لدورها المبكر أيام عبدالناصر فى مساعدتها قبل عشرين سنة لطرد الاحتلال الفرنسى. الآن يستوعب بومدين الدرس البسيط المحدد. لقد عاش العرب طويلا بقوة مصر. والآن على مصر أن تكون أكثر قوة بالعرب.

فى تطورات موازية وغير معلنة أيضا دفعت السـعودية لمصـر ٤٠٠ مليون دولار. الكويت ٢٠٠ مليون. الإمارات ١٠٠ مليون. قطر ١٠٠ مليون.. الخ.

❑❑❑

١٧ أكتوبر. خلافات ومشاجرات عبر شاطىء المحيط الأطلنطى.

الجسر الجوى الأمريكى إلى اسرائيل مستمر ومتزايد بشحنات أكثر من الأسلحة. حلفاء أمريكا فى أوربا الغربية – باسـتثناء البرتغال – يرفضون اسـتخدام أمريكا لقواعدهم العسكرية كمحطات للجسـر الجـوى. أوروبا لا تريـد أن يصيبها المزيد مـن الأذى نتيجة الانحيـاز الأمريكى الفاضح لإسرائيل ضد الحقوق العربية.

فى نفس اليوم يسـتقبل الرئيس الأمريكى نيكسـون فى واشـنطون وزراء خارجية السـعودية والجزائـر والكويت والمغرب ممثلين للجامعـة العربية، مطلوب التزام أمريكى محدد بانسـحاب اسرائيل الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة. الردود لطيفة. لكن النتائج مراوغة.

أيضا فى نفس اليوم: الملك فيصل من السـعودية يوجه رسـالة رسـمية إلى الرئيس نيكسـون مطالبا فيها بانسحاب اسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة بما فيها القدس. فإذا لم توقف الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل فإن العلاقات الأمريكية السعودية سوف تصبح «فاترة».

وقرأ كيسـنجر الرسـالة على رئيسه معلقا: إذا كان كل ما ستفعله السعودية معنا ـ بعد كل هذا الجسـر الجوى من جانبنا لدعم اسـرائيل عسـكريا ـ هو أن تصبح علاقاتها معنا «فاترة» فلا بأس.. فاترة.. فاترة.

فى المسـاء جـاءت القنبلة. وزراء البترول العرب اجتمعوا لتوهم فـى الكويت وأصدروا قرارين بالاجماع.

أولا: رفع سـعر البترول العربى بنسـبة سـبعين بالمائة دفعة واحدة من ٣,١ إلى ٥,١٢ دولار للبرميل الواحد.

ثانيا: خفض انتاج البترول العربى بنسبة خمسة فى المائة شهريا إلى أن تنسحب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة، وهو ما يصر عليه «رجال اليوم السابع» فى مصر منذ ١٩٦٧.

أصبحـت تلك أول مرة فى تاريخ البترول التـى تتخذ فيها الدول المنتجة قرارا من طرف واحد برفع سعر البيع. شاه إيران من فرط رعبه سارع إلى استنكار القرار العربى وتنصل منه وقال إنه من جانبه سيستمر فى توريد البترول بالسعر الرخيص ولن يقطعه مطلقا عن أمريكا وإسرائيل كما قرر العرب. الرجل معذور. عرشـه على كف عفريت ويد أمريكا طرشاء واستقواء العرب بمصر فى رأيه سراب لأن اسرائيل سرعان ما ستسحق مصر، وسوريا بالمناسبة.

كان الغرب من قبل، وباشــراف أمريكي، يحصل على البترول العربي بسعر التراب وفي بعض الاحيان كانت أمريكا تضرب المنتجين بعضهم ببعض. السـعودية مثلا تريد سعرا أعلى؟ إذن عليها أن تعرف أن شـاه ايران يعرض على أمريكا الالتزام لمدة عشـر سنوات بتوريد مليون برميل بترول يوميا، وبســعر مقطوع هو دولار واحد للبرميل، يعني هو ثلث الســعر الذى تشكو السعودية منه. هه؟ تقفلوا الملف.. أو نفتح على شـاه إيران؟ هكذا اسـتمر ملف البترول مغلقا، وقضيته الصحيحة العادلــة نائمة، طوال ربع القرن التالي للحرب العالميــة الثانية. ولم يكن إعادة بناء وإعمار أوروبا بعد خراب الحرب ممكنا في الفترة القياسـية التي جــرى فيها بغير هذا البترول الرخيص. والآن في حماية القوة المصرية ـ السورية بالتالى على أرض القتال اكتشف عرب البترول من جديد صحة قضيتهم العادلة النائمة قهرا وقلة حيلة. الآن بقرار رفع سـعر البترول والقرارات التالية سـوف يرتفـع ايراد دول البترول من ٢٣ مليار دولار ليصبح خلال سـنة واحــدة ٩٨ مليار دولار. انقلاب جــذرى جعــل الغرب يقول إن العرب بهذا الشـكل اصبحـوا لأول مرة في طريقهـم ليكونوا القوة الاقتصادية السادسة بمستوى العالم.

□□□

١٨ / ٢٢ أكتوبر – ١٩٧٣

إســرائيل في ذروة هجومها المضاد في سـيناء والجولان. الحرب تزداد ضراوة. مشـاورات بين موســكو وواشنطون. مراسلات بين أنور السادات وهنرى كيســنجر. اتصالات لكيسنجر باسرائيل. حلفاء أمريكا في أوربا ساخطون على كيسنجر ونيكسون وأمريكا. قلنا لكم إن العرب مصممون على تحريــر أراضيهم.. قلتم لنا إنكم أدرى. الآن نحن فــي أوربا واليابان ندفع الثمن. الآن انتهى عصر البترول الرخيص. كفاية علينا خراب بيوت.

هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكي يطير إلى موسكو مفوضا من الرئيس نيكسون للاتفاق على مشروع بوقف إطلاق النار. قبيل سفره بدقائق يرجوه سفير اسرائيل في واشنطون ألا يتعجل في المفاوضات لأن اســرائيل تحتاج ٤٨ ساعة أخرى لتسحق مصر وسوريا. كيسنجر يطمئنه: براحتكم على الآخر.. المهم السرعة والحسم والنتيجة.

في موسكو اتفق الطرفان أخيرا على مشروع بوقف اطلاق النار اعتبارا من ٢٢ أكتوبر.. من خلال قرار يصدر عن مجلس الأمن الدولي. اسـرائيل تبرق إلى كيســنجر في طائرته. نرجوك القدوم إلينا في طريق عودتك إلى واشـنطون. كيسنجر صهيوني متعصب وإسرائيل تعتبره عينها وأذنها في كل ما يجرى.

عدل كيسنجر مسار عودته متجها إلى إسرائيل بكل تفاؤل وثقة. لقد حصلت إسرائيل من أمريكا على كل ما تريده من وقت وأسـلحة وجسـر جوى مستمر. واسرائيل تروج تليفزيونيا في العالم كله

أنها بعد أن أفاقت من الضربة الأولى تقوم الآن بتعديل مسـار الحرب فى الاتجاه المضاد. الآن تذيع أخبارا بطول العالم وعرضه عن نجاحها فى شق ثغرة فيما بين الجيشين المصريين الثانى والثالث.. عبرت منها بقواتها قناة السويس إلى الغرب. والعنوان «اسرائيل تحارب الآن.. فى إفريقيا».

الثغرة صحيحة. أساسها نقص مبدئى فى المعلومات المصرية عنها زائد المركزية فى إدارة القتال. فى المســتوى السياسى هناك جزع شديد. لكن «رجال اليوم الســابع» لم تنخلع قلوبهم. الحرب هى الحــرب. كر وفر. هجوم ودفاع. اختراق والتفاف. مشــاكل وحلول.لقد بدت اللحظة الراهنة لصالح إســرائيل تماما - على الأقل - بمثل ما تبدو به على الســطح. لكن هنرى كيســنجر بمجرد أن هبط بطائرته فى اســرائيل قرأ المشــهد الحقيقى فورا فى وجوه مستقبليه من كبار الساسة والعسكريين. مشهد مروع.

إنهــا الواحدة والنصف ظهرا يوم ٢٢ اكتوبر. وكيســنجر - بكلماتــه - يلاحظ على الفور: «ان ثبــات اســرائيل واحتمالها كان يصل إلى نقطــة الانهيار. فأولئك الذين جــاءوا للترحيب بنا بدوا شاعرين بعمق كيف أصبحوا قريبين من الهاوية، وكيف أن أسبوعين من الحرب قد استنزفتهم. لقد كان الشعور بالوهن والاعياء طاغيا على اسرائيل، بصرف النظر عما تظهره الخرائط العسكرية».

وبمجرد أن انفردت جولدا مائير رئيســة وزراء اســرائيل بكيســنجر سألته على الفور: قل لى يا هنرى.. هل هناك صفقة عملتوها مع الروس فى موســكو؟ هل سنضطر أخيرا للإذعان لطلب مصر المطروح منذ ١٩٦٧ بضرورة انســحابنا الكامل من كل الأراضى فى سيناء والجولان والضفة الغربية؟ أريد الوضوح.. ومزيدا من الأسلحة.. و٤٨ ساعة أخرى قبل الالتزام بوقف إطلاق النار.

أما الأسلحة فتدفقها مستمر. أما الوضوح فالاتفاق هو وقف إطلاق النار الليلة حسب قرار مجلس الأمن. لكن لماذا ٤٨ ساعة أخرى؟

ردت جولدا مائير: لا تعرف لماذا؟ لأننا نريد تحقيق ضربة حاسمة واضحة نشفى بها غلنا من مصر. هل أكشف لك سرا حربيا؟ المصريون فى هذه الحرب أسقطوا لنا ألفى قتيل.تعرف ماذا يعنى هذا الرقم؟ لو ساوينا عدد السكان هذا يعنى ان تفقد أمريكا مائتى ألف قتيل فى ظرف أسبوعين.

قال كيسنجر: لكن معلوماتنا السياسية من القاهرة أنهم فى حالة جزع شديد مما تفعلونه بهم.. قاطعته جولدا مائير: دعنا من معلوماتك السياسية. معلوماتى أنا هى الأساس.. لأنها واردة لى من ساحة القتال. من ضباطنا وجنودنا وما يرونه بأنفسهم. ما يرونه مقاتلين مصريين شديدى الشراسة وهؤلاء يجب أن نلقنهم درسا موجعا..

ســألها كيســنجر: وماذا تفيدك ٤٨ ساعة أخرى؟ فى أى اتجاه تبحثين عن الضربة الموجعة ضد المصريين؟

أجابتــه جولدا مائير: قياداتنا العســكرية قادرة على حســم الموقف.. إما فى اتجاه بورســعيد شــمالا.. أو بحصــار الجيش المصرى الثالث من الخلف جنوبا فى الســويس وقطــع خطوط امداداته بالكامل.

وفكر كيســنجر للحظات قبل أن يعطى لإســرائيل حرية عدم الالتزام بموعد سريان وقف إطلاق النار حسب قرار مجلس الأمن. تصرف خطير لأنه انتهاك لاتفاقه مع موسكو.. لكن لا بأس.. هناك حجة احتياطية هى صعوبة الاتصال به فى طائرته العائد بها إلى واشنطون.

□□□

٢٣/ ٢٦ اكتوبر. القاهرة. واشنطون. تل ابيب . موسكو.

مصر تشكو من خرق اسرائيل لوقف إطلاق النار واستمرارها فى التقدم جنوبا نحو السويس. عسكريا لا يوجد جزع فاسرائيل لن تتمكن ابدا من محاصرة الجيش المصرى الثالث وقطع خطوط امداداته الخلفية بالكامل. لكن حتى فى ظل أسوأ الاحتمالات، إذا حاصرت اسرائيل الجيش الثالث من الخلف فإن مصر تستطيع أن تحاصر القوات الاسرائيلية من خلف الخلف. هؤلاء «رجال اليوم السابع» هؤلاء عرفوا طوال سنوات قدرة اسرائيل الفعلية فى قتال حقيقى. نضرب فننضرب فنضرب من جديد.

الخط الســاخن للاتصالات بين موسكو وواشنطون يزداد سخونة. فالمسألة تجاوزت مصر وسوريا واسرائيل. الآن هناك اتفاق ثنائى وواشنطون تغش فى قواعد اللعب.

موســكو تخطر واشنطون رســميا أنها تأكدت من «مصادرها الخاصة» – تعنى الأقمار الصناعية وغيرها – من اســتمرار اسرائيل فى خرق وقف اطلاق النار. ورسالة صريحة إلى الرئيس الأمريكى نيكسون: موسكو تريد «اجابة واضحة وفورية».

كيسنجر يبلغ جولدا مائير وهى تلح عليه من جديد: أرجوك.. لا تلزمنا بالعودة إلى خط ٢٢ اكتوبر الذى قرره مجلس الأمن لوقف اطلاق النار. أرجوك.. مزيدا من الوقت.. ولو ٤٨ ساعة أخرى.

هكذا أصبحنا فى ٢٥ أكتوبر. وكيســنجر يســتقبل السفير الاســرائيلى فى واشنطون فى الساعة الواحدة و٣٥ دقيقة صباحا. كيسنجر متلهف: للمرة العشرين أسأل متى بالضبط تنتهون من تدمير الجيــش المصرى الثالث؟ كــم يلزمكم من وقت اضافى؟ لا أريد منك ان تعطينى تقديرك الشــخصى. أريد إجابة تفصيلية من حكومتك على وجه السرعة. قدرتى على المناورة مع موسكو والتغطية عليكم فى مجلس الأمن تتبخر بســرعة. حلفاؤنا فى أوروبا وجعوا دماغ الرئيس نيكســون. الدول العربية توجه ســيلا من الامدادات العســكرية فى الطريق حاليا إلى مصر وسوريا. هات لى ردا تفصيليا من حكومتك فورا.

□□□

الخط الساخن للاتصالات بين موسكو وواشنطون يصاب بصمت مريب. ماذا يعنى هذا؟

بعد ساعات قليلة عرف كيسنجر ماذا يعنى هذا. لقد عبأت موسكو قوات محمولة جوا جاهزة للإقلاع من المجر فى اتجاه الشرق الاوسط. كيسنجر يجتمع فورا مع «مجموعة العمل الخاصة» التى تتابع مجريات الحرب من البيت الأبيض. أمريكا تعبىء هى أيضا قوات محمولة جوا.. زائد إعلان حالة الطوارىء القصوى فى كل قواعدها العسكرية حول العالم. حلفاء أمريكا فى أقصى درجات الغضب: كيف تفعل أمريكا هذا بغير تشاور معنا، فى النهاية هذه القواعد على أراضينا نحن. تريدون الذهاب فى داهية. هذا اختياركم. لكنه لن يكون بالمرة اختيارنا نحن.

❑❑❑

واشنطون. مكالمة تليفونية شديدة السرية . جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ماتزال مستمرة فى خرق وقف اطلاق النار وتلح على أمريكا بالحاجة إلى مزيد من الوقت أملا فى حصار الجيش الثالث المصرى. الموقف يزداد خطورة والعالم كله فى حالة غير مسبوقة من الغضب والعصبية. أخيرا تدخل الرئيس نيكسون وطلب المجىء إليه بجولدا مائير على التليفون عبر الخط المباشر المأمون (أى المحصن ضد التنصت).

لقد استمرت تلك المكالمة الخطيرة واحدة من أسرار الدولة العليا فى واشنطون إلى أن كشف عنها الرئيس نيكسون لأول مرة فيما بعد وهو يسجل مذكراته التليفزيونية مع ديفيد فروست.

إن المذيع – فى مايو ١٩٧٧ – يعيد الرئيس نيكسون المتقاعد إلى ذكرياته بشأن تلك المكالمة شديدة السرية فى اليوم الأخير من حرب أكتوبر ١٩٧٣ : سيادة الرئيس.. كيف أقنعت اسرائيل بالإذعان لوقف إطلاق النار؟

نيكسون يرد: أنا لم أحاول إقناع اسرائيل بأى شىء. فقط شرحت لرئيسة وزراء إسرائيل بعض حقائق الحياة.

لقد قال نيكسون لرئيسة وزراء اسرائيل عبر التليفون الآمن: مسز جولدا.. نحن حلفاء ولم نبخل عليك بأى شىء. ومنذ بدأت هذه الحرب وأنت تبشريننا بقدرتك على هزيمة مصر وسوريا بالضربة القاضية خلال يومين أو ثلاثة. صدقناك. طلبت أسلحة إضافية ومعلومات. أعطيناك. طلبت جسرا جويا. أقمناه. طلبت أسلحة أخرى وأخرى ومهلة يومين وثلاثة أخرى. هددنا الوفاق مع موسكو للخطر. أغضبنا حلفاءنا فى أوربا الغربية واليابان. تشجع عرب البترول لأول مرة على التمرد ضدنا. والآن ماتزالين مصرة على أسلحة أخرى ومهلة أخرى؟

ردت جولدا مائير : نعم ياسيادة الرئيس..

سـكت نيكسون لحظة قبل أن يضيف: إذن دعيني الآن افترض أننا سنسايرك من جديد. ونتيح لكـم مهلة أخرى من جديد. يومين أو ثلاثـة أيام أخرى. دعينا نفترض منذ الآن أنك حاصرت فعلا الجيش الثالث المصرى وهو أقصى ما تحلمين به حاليا. حسنا. لنفترض أن هذا حدث. ثم.. ماذا؟

قالت جولدا مائير باستغراب: ثم ماذا؟ تكون اسرائيل قد انتصرت ياسيادة الرئيس..

رد عليها نيكسـون: هذا رأيك أنت وقاموسـك أنت. لكن حقائق الحياة غير ذلك. أنت تضعين عينيك فقط على عشرين أو ثلاثين ألف جندى مصرى بهدف محاصرتهم، وربما إبادتهم. فى الواقع سـوف يفلت البعض من هذا الحصار. من هؤلاء ربما يكـون هناك كولونيل آخر. ناصر آخر (يقصد جمـال عبدالناصر الذى كان ضمن المحاصرين فى الفالوجا بفلسـطين سـنة ١٩٤٨) ناصر الآخر لن يعترف بالهزيمة. وسـنفاجأ به - نحن وأنتم - فى القاهرة. وخلال سـنتين أو ثلاثة سوف ينجح ناصر الآخر هذا، غصبا عنا وعنكم، فى بناء جيش مصرى جديد أحدث وأقوى. بمثل ما ترونه أنتم الآن فى اسرائيل عمليا.

والآن.. هكذا مضى نيكسـون فى حديثه التليفونى مع رئيس وزراء إسـرائيل: سـوف ألبى لك كل طلباتك من الأسـلحة والوقت لو أجبتينى بنعم على سـؤالين اثنين: أولا - هل اسرائيل مستعدة لرؤية ناصر جديد فى مقعد السلطة بالقاهرة؟ ثانيا - هل اسرائيل مستعدة مع قيام ناصر الجديد هذا بإعادة بناء الجيش المصرى من جديد.. وبنفس الاصرار الذى رأيناه من قبل.. هل اسرائيل مستعدة لمواجهة هذا الجيش الجديد فى ميدان القتال.. وبنفس الضراوة التى تعانى منها اسـرائيل الآن؟ ما إجابتك يامسـز جولدا؟ هالو.. مسز جولدا.. ماردك؟ مسـز جولدا.. هل تسمعينى؟ هل تفهمين ما أقوله؟ مسز جولدا..

خرسـت مسز جولدا. لكن اسـرائيل اذعنت فى التو واللحظة. أذعنت لرجال اليوم السابع. أما الباقى فهو سياسة.. وتفاصيل.

□□□

بعض رجال اليوم السـابع. صـورة تذكارية: عبدالمنعم رياض. أحمد حمـدى. ابراهيم رفاعى. شـطا. تيمور. محمد. صليب. عبدالعاطى. ميخائيل. الشـوان. مصطفى. حسين. سيد أحمد. رفعت. سـعيد. عبدربه. ويصا. عبدالعال. محمود. صدقى. عيسى. سليمان. ابراهيم.. و........ و....... و....... أحياء عند ربهم يرزقون.



مشاعر..
من لحم ودم

«هى ابنتى، المراهقة الشقية المرحة المدللة من كل الأسرة، لابأس. هى آخر العنقود. لكن فى تلك الليلة لم يحدث ما اعتدته منها فى كل مرة. لم يحدث أن تنبهت إلى عودتى إلى البيت، لم يحدث أن تركت ماهى فيه ـ حتى ولو مذاكرة ـ لكى تعانقنى. لم يحدث، بالتالى، أن سألتنى: هل أعد لك الطعام أو كوب شاى؟ لم يحدث أصلا أن تحركت من كرسيها الذى تجلس عليه منكفئة على مكتبها الصغير الخاص.

حتى حينما اقتربت منها مناديا لم يحدث أن سمعتنى من أول مرة. هى مندمجة بالكامل مع شىء تقرأه. ربما كتاب.. ربما مجلة.. ربما مطبوعة اشترتها أو اقترضتها من زميلة لها بمدرستها الثانوية الخاصة.

وحينما أفاقت ابنتى إلى أننى واقف إلى جوارها استدارت بوجهها نحوى وفاجأتنى الجدية الشديدة التى تكسو وجهها، على غير العادة. الجدية الأقرب قليلا إلى الحزن. بعدها أعادت عينيها من جديد إلى ماتقرأه لكى تقول لى بتساؤل معجون بالحيرة: معقول يابابا كان عندنا ناس زى دول؟

– زى مين ياحبيبتى ؟

– زى عبدالمنعم رياض ؟

– تصور يابابا لغاية النهاردة كنت أتصور أن عبدالمنعم رياض ده اسم حائط. اسم شارع.. اسم ميدان. لكن هذه أول مرة أراه أمامى بنى آدم من لحم ودم.. بنى آدم من مشاعر وإيمان. من تضحية ونكران للذات. لماذا لم أسمع عنه منك من قبل، لا منك، ولا من ماما.. ولا من المدرسة. ولا من الصحف؟ تفضل اقرأ. أعمل العشاء أو فنجان الشاى المعتاد؟

تلك هى باختصار الحكاية التى رواها لى صحفى صديق كبير الثقافة والمقام ـ هو سعد هجرس – بينما يحدثنى تليفونيا فى تلك الليلة. لقد كان يشير فى الواقع إلى مقال كتبته هنا فى عدد ديسمبر ١٩٩٧ من مجلة «الشباب» بعنوان «عبدالمنعم رياض نهاية البداية».

لم أكن قد سـمعت صوت هذا الصديق العزيز منذ شـهور. وفى تلك المكالمة ينقل لى ماحدث لتوه من حيرة ابنته القريبة إلى قلبه، ثم يستحلفنى بأن أزيد فيما كتبت وأفصل ماأجملت، فهذا الجيل شـديد الفراغ والقلق والتمزق. شـديد الاحتياج أيضا إلى أن يتعرف على نفسه وجذوره وانتمائه من خلال نماذج صحيحة فى تاريخنا القريب والمعاصر. نماذج من الوطنية والتضحية والإصرار والعطاء ونكـران الـذات. نماذج موجودة ولن نخترعهـا. فقط نريد أن نزيل من فوقها صدأ النسـيان وغبار التفرنج.

والواقـع أن تلك المكالمة تحديدا حسـمت فى داخلى ليلتها اختيـارا كان متأرجحا من البداية. فحينما كتبت مقالا فى عدد اكتوبر ١٩٩٧ فى مجلة «الشباب» بعنوان «رجال اليوم السابع» كان فى ذهنى فقط أن أضع على الورق شريحة حية من الرجال الذين صنعوا بأظافرهم، وضد كل الحسابات، ملحمـة إعادة بنـاء الجيش المصرى بعد الهزيمة المروعة أمام اسـرائيل فـى يونيو ١٩٦٧. هزيمة اسمتها اسرائيل «حرب الأيام الستة» وهؤلاء الرجال هم الذين رفضوا تماما تلك الهزيمة.

لـم يرفضوا حقيقة أنها حدثـت، لكنهم رفضوا فكرة أنها الكلمة الأخيـرة. من هنا، من اليوم السـابع مباشرة لحرب «الأيام السـتة» نذر أولئك الرجال أنفسهم تماما لجولة تالية رأوها حتمية. وفـى هذا اليوم السـابع الطويل، الممتد من يونيـو ١٩٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣، واجـه أولئك الرجال امتحان العمر كله، امتحانا لهم ولصلابتهم وايمانهم وانتمائهم ولتأكدهم الصلب بأن هزيمة يونيو ١٩٦٧ يجب أن تكون هزيمة فى جولة، وليسـت فى حرب. اسـتثناء وليس قاعدة. والقاعدة هى أن مصر قوية. وقوة مصر تبدأ من عقلها وإرادتها واصرارها على الإعداد ليوم سابع يكنس تماما «حرب الأيام السـتة». هؤلاء الرجال كان فيهم من هو على خط النار الممتد بطول قناة السـويس وكان فيهم مـن هو وراء خط النـار، وكان فيهم - بنفس الأهمية والصلابة والتضحية ونكران الذات - زوجات وأمهات وآباء وأولاد وبنات يتشـكل منهم الشـعب المصرى بمجموعه. هؤلاء أيضا قدموا التضحيات مـن حياتهم وقلقهم وحرمانهم من احتياجات أساسـية، لمعرفتهم بـأن المقاتلين أولى. هؤلاء كذلك تحملوا حربا نفسـية ضارية من العدو، وتوحشـا حقيقيا وصل إلى بيوتهم من خلال آلاف القنابل التى ظلت اسرائيل تمطر بها العمق المصرى، العمق المدنى قبل أن تنجح مصر فى قطع ذراع اسرائيل الطويلة بنجاحها فى إقامة حائطها الصاروخى الشهير فى سنة ١٩٧٠.

أقول إن الفكرة عندى كانت مقالا واحدا أضع فيه أمام قراء وقارئات مجلة «الشـباب» شـريحة إنسـانية وتاريخية من بعض ملامح «رجال اليوم السـابع». لكن المفاجآة جاءت من القراء. كثيرون بادرونى بالرسـائل البريدية أو المكالمات التليفونية اغلبهم فى حالة دهشة أو استغراب أو استفسار كلهم فى حالة رجاء بأن أفصل لهم بعض ماأجملت.

هـذا دفعني إلى مقال ثان. ومرة أخرى كنت أتصـور أنه يكفي. لكن نفس الموال تكرر. فألزمت نفسـي بمقال ثالـث.. ورابع. في النهاية جلسـت أكتب المقال الخامس عن «رجال اليوم السـابع» وعندى تصميم مسبق على أن يكون المقال الختامي.. ليس بالضرورة عزوفا عن الاستمرار في الكتابة عنهـم، فهناك مئات وآلاف الحقائق والتفاصيل والأسـرار التى لم تنشـر بعد، وبشـكل منصف. إنما كنت أريد أن أتفق مع نفسى أولا على أن هدفى الأساسى لم يكن التأريخ لرجال «اليوم السابع»، فهؤلاء لن تتسـع لهم مئات وآلاف الصفحات من مجلة «الشـباب». فقط يكفى - مؤقتا - أن أضع امام القارئ مؤشرا ومعيارا يستخدمه بنفسه لفرز الطيب من الخبيث.. والملفق من الصحيح.. والعابر من الدائم.. والمزيف من الحقيقى.

كان المقال الأول عن «رجال اليوم السـابع» هو بإحساسـى الخاص. أمـا المقالات الأربعة التالية فكانت بدافع من أحاسـيس القراء. ولبعض هؤلاء أوجه كتابتى فى هذه المرة، تعليقا على رسـائل أو مكالمات من قراء وقارئات عن مقالات سـابقة نشرت لى هنا وامتدت لعدة شهور منذ استضافتنى مجلة «الشباب».

❑❑❑

■■ المستشار حسنى عبدالواحد - القاهرة:

نعم ياأخى الكريم أفهم كلماتك تماما. تقول فى رسـالتك إنك كنت فى السـنوات ١٩٧٣/٦٧ مجندا جامعيا بالشرطة العسكرية الخاصة بالدفاع الجوى وأنك عشت فعلا جزءا صغيرا من ملحمة كبرى اسمها بناء الدفاع الجوى وحائط الصواريخ وأنك بين وقت وآخر تحكى لابنتك ولديك عن بعض ماجرى.

وأنت عاتب بشـدة علىَّ.. وربما بمرارة.. على المشـير محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى لأنه حتى الآن لم يكتب مذكراته. وتضيف إلى عتابك، أو مرارتك، التأكيد على أن تلك المذكرات ليست مـن حق محمد على فهمى وحده، ولا حتى كبار مسـاعديه وضباطه. لكنها من حقك أنت أيضا مع عشرات الآلاف الذين ضحوا. أنت تريد مذكرات صحيحة تضعها فى مكتبتك المنزلية تحت تصرف أولادك الصغار حتى يعيشوا بعض ماعشته أنت وملايين المصريين انتماء لوطنهم وايمانا بقوته.

أخى الكريم: صوتى معك. قلبى معك. عقلى معك. دعنا بعد ذلك نقول جميعا للمشير محمد على فهمى: مسئوليتك مستمرة عن جنودك وضباطك وعائلاتهم وتضحياتهم جميعا تحت قيادتك.

❑❑❑

■■ الطالبة سناء محمود كارم - دمياط:

تقولين فى رسالتكِ: إنها المرة الأولى التى تعرفين فيها أن قوة مصر هى التى مكنت العرب من رفع أسـعار بترولهم؟ نعم تلك حقيقة. أما لماذا لاتقال؟ ولماذا لاتتكرر؟ ولماذا لم يصبح العرب فعلا

القوة السادسة اقتصاديا بمستوى العالم كما كان يخشي الغرب؟ أسئلة كبيرة وعويصة يحتاج الرد عليها إلي الغوص أكثر وأكثر في بحار السياسات الدولية.

□□□

■■ محمد محب أبو قمر – القاهرة:

لا تشكرني يا أخي. اشكر الروح الوطنية المصرية التى صنعت كل هذا. فقط انتظر منك موافاتي بالتفاصيل والوقائع التي وعدتني بها في اتصالك التليفوني.

□□□

■■ أحمد شاكر سيد أحمد – مدرس ثانوى طنطا (وآخرون):

أخي الكريم.. أنت تطلب مني مالا أملكه. تطلب نسخة من كتابى «أفكار ضد الرصاص» لأنك لاتجده فى المكتبات. أنا معك، فأنا أيضا لا أجده ولو كان موجودا فى الأسواق لما سمحت لنفسى بالكتابة عنه. مع ذلك فحينما تصدر من الكتاب طبعة تالية أعدك بنسخة.

□□□

■■ فيصل الخالد. – الكويت:

لاتستغرب ياأخى الكريم، محمود عوض الذى ينشر مقاله فى جريدة «الحياة» فى لندن.. و«الرياض» فى السعودية.. و«الاتحاد» فى الامارات و«الشرق» فى قطر.. هو نفسه محمود عوض الذى يكتب هنا فى مجلة «الشباب».

استغرابك هذا ذكرني بقصة. لقد اتصل بى ذات يوم الاذاعى الكبير كامل البيطار يطلب المجيء إلى مصطحبا معه صديقاً له قادماً من تونس صديقاً اسمه صالح كيغام رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون في تونس وقتها.

حينما جاء الاثنان عرفت السبب، كان الأخ صالح كيغام قد قرأ فى تونس كتابين بالتتابع. كتاب بعنوان «سياحة غرامية» وآخر بعنوان «أفكار ضد الرصاص». بعدها أضاف قائلا لى: الآن تأكدت فعلا من أنك محمود عوض مؤلف «سياحة غرامية» وبنفس الملامح التى رسمتها لك فى خيالى، بل وحتى بنفس بنطلون الجينز والحذاء غير اللامع لكننى الآن أشك كثيرا فى أنك مؤلف كتاب «أفكار ضد الرصاص».

ولأنه كان يتكلم بنصف جد ونصف هزل فقد قلت له: لاتشك يا أخي. فقط. الكتابة فى أدب الرحلات شيء.. وفى الفكر السياسى شئ آخر. في الحالة الأولى أنت أمام غوص فى الحياة الانسانية بالاتساع.. من نيويورك إلى طوكيو إلى كاتماندو إلى باريس.. إلخ. أما فى الفكر السياسى فأنت أمام غوص في الحياة الإنسانية بالعمق. وفي أعماقنا الإنسانية هناك كثير من الجراح والأخطاء والآلام التي نتعلم منها بأكثر مما نتعلم من المرح والسعادة.

وعلى أى حال فأنت رسمت فى خيالك صورة لمؤلف «سياحة غرامية» واضح اننى لم أخيب ظنك فيها. لكنك توقعت أيضا أن مؤلف «أفكار ضد الرصاص» لابد حتما أن يكون من مشـوهى الحرب.. لابـأس. لكن.. لاتبالغ أكثر من ذلك.مـرة أخرى.. هذا يذكرنى بواقعة جـرت لمارك توين الكاتب السـاخر الأمريكى. لقد نشرت إحدى الصحف الأمريكية ذات يوم خبرا بوفاته. يومها كتب مارك توين برقية إلى الجريدة يقول فيها : أشـكركم على كتابة اسـمى.. أما عن وفاتى فهذا «خبر مبالغ فيه بعض الشىء».

□□□

■■ سحر تيمور ـ الاسكندرية (وآخرون):

لمـاذا لم أكتـب عن عبدالحليم حافـظ؟ فكرت كثيرا وترددت، السـبب؟ هناك حالة اسـترزاق انتشـرت بفجاجة فى الكتابـة عن عبدالحليم وغيره، أكثرها أكاذيـب وأقلها أنصاف حقائق. هذه واحـدة. أما الأخرى فهى أن من تشـرفت بمعرفتهم عن قرب إنسـانى حميم، من طه حسـين إلى أم كلثـوم وعبدالحليـم ومحمد عبدالوهاب وتوفيق الحكيم.. و.. ماتـزال ذكرياتى معهم لصيقة بى تحـت الجلد وحتى الآن لا أسـتطيع الأنفصال نفسـيا عن تلك الذكريات بما يسـمح لى بأن أصبها على الورق.

مـرة واحدة سـمحت لنفسـى بالتحدث عـن عبدالحليم حافظ بقـدر من التوسـع. كان هذا فى حوار صحفى أجراه معى قبل سـنتين الزميل العزيز إبراهيم عيسـى بصفته رئيس تحرير جريدة «الدسـتور». يومها كان فى داخلى عشـرة أسباب. السبب العاشر منها هو أن ابراهيم عيسى صحفى موهوب، وبقدر موهبته كان يسعى إلى الحقيقة.. لا أكثر ولا أقل.

قبلهـا وبعدها حاول معـى مندوبو محطـات تليفزيونية عربية عديـدة، آخرها المحطة الفضائيـة المصريـة. ومع اعتزازى الخاص بهـم جميعا.. من عرفان نظام الديـن فى لندن إلى المذيعـة الموهوبة الصاعدة إيمان عليان.. إلا أننـى عدت مرة أخرى إلى ماكنت عليه. عدت إلى تحت الجلد.

أما بالنسـبة لأم كلثوم فقد كان هذا بدعوة من نادى الصيد بالقاهرة مؤخرا، كما قرأت أنت فى الخبر المنشـور بجريدة «الاهرام». هنا كان السـبب الفاصل هو أن الدعـوة كانت من الدكتور يحيى الجمل المشـرف على النشـاط الثقافى فى النادى. والدكتور يحيى الجمل - يا آنستى كان استاذا لى بالجامعة. أسـتاذ.. ولا أى أسـتاذ.. وفى مرحلتنا العمرية التى يطغى عليهـا التمرد والرغبة فى المشاكسة وإثبات الذات.. كان يحيى الجمل صديقا لنا قبل أن يكون أستاذا جامعيا. هو متواضع بقدر علمه. أب بغير تسلط. صديق بغير زمن. أستاذ بغير املاء بسيط بغير ادعاء.

مع مثل هذا الرجل يا آنستى.. وبكل المحبة التى أشاعها هو فى كل دفعتى الجامعية.. فإنه لم يوجه لى دعوة. فى حقيقة الأمر: وجه لى.. استدعاء.

□□□

■■ السيدة/ سعيدة رمضان القاهرة (ورسائل ومكالمات أخرى):

تطرحين على سؤالين ياسيدتى سأبدأ بأسهلهما، الكتابة إلىّ تكون على عنوان مجلة «الشباب» التى أنا أحد ضيوفها..

نجئ إلى السؤال التالى: لماذا اخترت الكتابة فى مجلة «الشباب»؟

عندى إجابة مؤقتة.. وهى أن كلانا قد اختار الآخر. فإذا أخذت النصف المتعلق بى من الإجابة فهو: إن الكتابة بهدف النشر هى كركوب سفينة بهدف السفر عبر البحار والمحيطات. إن السفينة مهمة، لكن الأكثر أهمية هو قبطانها.

مع قبطان غائب عن الوعى لن يفيد مطلقا أن تكون السفينة ضخمة وفخمة بمثل «تيتانك». فى المقابل.. مع قبطان يقظ واع يقوم بواجباته الملاحية جيدا، إحساسه بضخامة المسئولية يعلو على إغراء الانتفاخ بعلو الرتبة، لديه خريطة واضحة، أمامه هدف محدد للوصول، يصبح السفر متعة.. والتحرك إلى ميناء الوصول يصبح مؤكدا أيا كانت العواصف والأنواء.

أقول هذا بحرية وبلا حساسية، لأن الزميل العزيز عبدالوهاب مطاوع دعانى إلى الكتابة فى مجلة «الشباب» قبل سنتين والدعوة تكررت بعدها. إذن.. نحن أمام قبطان يختار المسافرين معه. ونحن أيضا أمام قبطان يعرف جيدا نوع السفينة التى قبل هو مسئوليتها.. ويدرك بوعى كامل مدى صعوبة التحدى الذى تفرضه محطة الوصول.

هذه يا سيدتى مجلة متميزة لها قارئ متميز، هذان شيئان استثنائيان تماما فى حياتنا الصحفية بالقاهرة.. من النادر أن يجتمعا معا فإذا حدث واجتمعا معا.. لن تسألينى «لماذا تكتب فى مجلة «الشباب»؟ لكننى سوف أسأل نفسى: لماذا لا أكتب فى مجلة «الشباب»؟

وفى صبانا المبكر ياسيدتى كانت هناك صحف عديدة زاعقة وصاخبة.. مع ذلك كنا نحن نختار صحفنا الخاصة التى نصدقها، وكتابنا الخصوصيين الذين نقرأ لهم، بعيدا عن الزعيق والطبول والأضواء.

وفيما بعد استوعبت لنفسى من ذلك الصبا درسين بالغى الأهمية. أولا - إن حب القراءة هو المفتاح الأول إلى المعرفة. ثانيا - إن القراءة الصحيحة - كهواية ايجابية - هى الخطوة الأولى نحو التميز.. وإدراك المستقبل قبل موعده.

سكين في وجهي !

الوقت ليل والدنيا صيف والجو حار رطب مشبع بما هو أقرب إلى رائحة «الشياط». في الحجرة نافذة واحدة لكن الستارة مدلاة من أعلى بطول وعرض النافذة. ستارة بلاستيكية خضراء اللون في الأصل لكن الأخضر أصبح داكنا بمرور الوقت وكثرة الاستعمال.كنت جالسا إلى المكتب الصغير مندمجا فيما أكتب، أو أحاول أن اكتب، حتى أذهب به في الصباح إلى المطار لكي يدبر لي صديق هناك أمر إرسال المظروف المغلق إلى جريدة «أخبار اليوم» في القاهرة. النافذة إلى يميني وبعض الكتب إلى يساري والقلم في يدي يكتب ويصحح ثم يكتب من جديد.

فجأة سمعت صوتا إلى يميني. صوتا واهنا بطيئا لم يكن سماعه ممكنا بغير الهدوء الكامل داخل الحجرة الصغيرة التي أقيم فيها بمفردي. تطلعت يمينا نحو مصدر الصوت فلاحظت فورا شيئا أقرب إلى السكين ربما يشبه المطواة «قرن غزال» التي نعرفها.. ولكن على أمريكاني في هذه المرة! إن نصل السكين مطوى في داخلها وممسوك بما يشبه السوستة، لكن بمجرد الضغط على زرار ينعتق نصل السكين في لحظة استعدادا للتعامل مع الهدف.

والآن.. أنا الهدف.

فاليد التي تمسك بالسكين ترفع الستارة إلى أعلى بهدوء وثقة وتأكد. فوق. فوق. فوق. ثم.. شخص ما يدلف برأسه إلى داخل النافذة. ومن الظلام الدامس خلفه لم أستوعب أكثر من وجهه الأسود وعينيه الضيقتين الناريتين.

وضعت قلمي على المكتب واستدرت بجسمي قليلا نحو اليمين بغير أن يتحرك المقعد الذى أجلس عليه. ولعدة لحظات تالية تسمرت عينا كل منا على عيني الآخر بهدوء قاتل. لقد بدوت في داخلي كما لو كنت شخصا ثالثا يتفرج على هذا اللص المسلح الجرئ في محاولته هذه لاقتحام غرفة مضاءة بعد منتصف الليل، وأكاد أتفرج على نفسي أيضا كما لو كان شخص آخر تماما هو الذى يجلس في مكاني هذا.

أدار المذكور عينيه الناريتين في أنحاء غرفتي الصغيرة ربما للحظة أو لحظتين. لاشئ استثنائيا هنا. مجرد سرير ومكتب وصحف ومجلات وكتب. كثير من الكتب.ركز عينيه على وجهي من

جديد لعله يقرأ فيه شيئا لكن شيئا لم يسعفه. فجأة استدار بعينيه خلفا، وفي تلك اللحظة سقطت السكين من يد المذكور على أرض الحجرة. ومع ارتطام السكين بالأرض خرجت أنا فورا من حالة «الاندهاش» التي تفصلني بين وقت وآخر عن الواقع.

هنا فقط نهضت بسرعة متجها نحو النافذة التي تطل بدورها على منور داخلي في المبنى. مع الظلام الدامس لم أتبين أي شئ مؤكد أكثر من شبح يتحرك بسرعة فوق مواسير إلى أسفل وفي لمح البصر كان قد أصبح أرضا، حيث غرفتي هذه في الطابق الثاني، وفي لمح البصر أيضا كان قد اختفى.

الآن فقط انتهى انفصالي عن هذا المشهد العبثي، لكي أستوعب لتوي الفكرة من أساسها. فكرة أنني في مدينة نيويورك وحجرتي هذه أقيم فيها منذ أكثر من عشرين يوما. حجرة رخيصة الايجار في بيت شباب أهم مزاياه بالنسبة لي هي أنه لايبعد عن مقر منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بأكثر من خمسمائة متر. هذا يعني بالنسبة لي توفير تكاليف المواصلات، فضلا عن سرعة التحرك في قلب «مانهاتن» التي هي بدورها قلب مدينة نيويورك. لم يكن في الحجرة تليفون ولا حمام، فيها فقط سرير ومكتب وكرسي وجهاز تليفزيون. لابأس بالمرة لأنه في مقابل خمسة دولارات يوميا لا يطمح المرء إلى ما هو أكثر من هذا.

في الصباح أنزل إلى المطعم في بيت الشباب هذا فأختار إفطاري بنظام «اخدم نفسك» وأسدد ثمنه ثم أجلس إلى إحدى الموائد مع غيري متصفحا جرائد الصباح قبل أن انطلق إلى برنامجي اليومي. في العادة لابد أن أذهب إلى مقر الأمم المتحدة لزوم المتابعة الصحفية، حتى وقت الظهيرة، ثم اتناول الغذاء في كافتريا الأمم المتحدة وسط حشد من الدبلوماسيين من انحاء العالم. كافتريا تقدم وجباتها الممتازة بأسعار مدعمة. والنظام هنا أيضا هو «اخدم نفسك بنفسك». في وجبة العشاء لا توجد مشكلة، فإذا لم أكن مدعوا من أحد اصدقائي العديدين في المدينة.. فإن البديل الآخر – وربما الأكثر راحة بالنسبة لي – هو أن أشترى طعاما جاهزا من أقرب «سوبر ماركت» لكي أتناوله في حجرتي بينما أتابع برامج التليفزيون أو أتصفح بعض ما اشتريته من صحف، ومجلات وكتب طوال ساعات مابعد الظهيرة.

لكنني في تلك الليلة لم أفتح جهاز التليفزيون، لقد جلست إلى المكتب أكتب رسالتي الصحفية إلى القاهرة، ولم أدرك أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل إلا بعد أن حاول المذكور اقتحام الحجرة وسقط السكين من يده على أرضها.

أمسكت بالسكين في يدي واكتشفت لتوي أن السكين ليست غريبة عني بالمرة. لقد شاهدت منها العشرات قبل ذلك، حتى حينما طويت نصل السكين ثم ضغطت على الزر فانطلق النصل من جديد.. بدأ لي كما لو أنني عرفت هذا السكين من قبل.

في الواقع.. إنه سكين حاد تماما شاهدت مثله من قبل في عشرات من الأفلام السينمائية الأمريكية.. خصوصا أفلام رعاة البقر.. مع ذلك فلم يخطر على بالي من قبل أن نفس السكين سيخرج يوما من شاشة السينما لكي يستقر في حجرتي.

□□□

حينما جاء رجل الشرطة في الصباح الباكر لكي يعاين المكان بدا عليه ماهو أقرب إلى الشعور بالملل، أو بتضييع الوقت، ولولا أنني اجنبي فربما لم يكن رجل الشرطة هذا سيجئ من الأصل. أنت في نيويورك يامستر.. حيث العنف شئ عادي والقتل شئ نصف عادي ليلا وأكثر من عادي نهاراً.

شئ واحد لم يفهمه الأمريكي بالمرة وبدا عليه أنه يتوقف عنده مرة بعد مرة: يامستر هل تعرف ماذا يعني هذا؟ في نيويورك أنت لاتفكر مطلقا في مقاومة شخص مسلح، فقط عليك أن تستسلم إليه أو تهرب منه بالخطوة السريعة.

قلت له مصححا: لكنني أصلا لم اكن قد فكرت – بعد – في مواجهته..

تطلع إليّ «الشرطي الأمريكي واسمه هنري وتساءل مستغربا: إذن ماذا يعني استمرارك جالسا على مقعدك حتى بعد أن دخل بإحدى قدميه فعلا من النافذة؟ وإذا لم تكن هذه مواجهة في قاموسك.. إنها مواجهة في قاموس هذا النوع من اللصوص، إنه حتى لن يكون محتاجا إلى الاشتباك معك. كان يكفيه، ومن مكانه في النافذة، أن يقذفك بالسكين وأنت لاتبعد عنه بأكثر من متر ونصف متر. يامستر يكفينا هنا مانراه من دماء كل يوم في هذه المدينة الملعونة.. واحمد ربنا على أن هذا اللص لم يكن محترفا بما فيه الكفاية فهرب فورا بينما أنت الآن على قيد الحياة.

لم أستوعب بالضبط مايريد رجل الشرطة هذا أن يقول. هل أنا خيبت أمله لأنني على قيد الحياة؟ هل الروتين في عمله هو أن يرى الدماء تسيح ليل نهار فخاب أمله في هذه المرة؟

كنت سارحا لعدة لحظات في أفكار مثل هذه ولم ألحظ أن هذا الشرطي الأمريكي يتطلع في أنحاء الحجرة متفحصا بعينيه أكوام الكتب والمجلات في كل مكان. لقد تناول عدة كتب لمجرد أن يقرأ عناوينها.. وبعدها فقط سألني عن مهنتي بمجرد أن أجبته تغيرت ملامح وجهه على الفور.

لقد جلس على السرير محتفظا في يديه بكتاب محدد هو «قصة حب» إنها قصة تحكي عن شاب أحب زميلته في الدراسة الجامعية، لكن الأب الثري يرفض زواج ابنه من تلك الفتاة الفقيرة.. وهو مايؤدي إلى مزيد من القطيعة بين الأب وابنه. في النهاية تموت الفتاة الشابة بمرض نادر فتسحب معها من الشاب كل احساس بالحياة.. وعندها فقط يرق قلب الوالد لابنه.

القصة رومانسية تماما. ولأنها كذلك فقد جاء نجاحها ـ ككتاب أولا ثم كفيلم سينمائي شهير بعد ذلك بطلته آلي ماكجرو – مفاجئا تماما في السوق الأمريكية التي كانت قد هجرت قبل وقت

طويل مثل تلك الخيالات الرومانسية. هكذا وجد واحد من كل خمسة أمريكيين مؤخرا أن في عينيه شيئا من الدموع يذرفها على تلك الفتاة - آلي ماكجرو في الفيلم - وهي تموت أمامه على الشاشة.

لكن هنري هذا الشرطي الأمريكي الجالس الآن في حجرتي لايبدو عليه بالمرة أن عينيه عرفت الدمــوع من قبل. لقد تناول كتاب «قصة حب» من أمامي على المكتب، ثم بعد الغلاف توقف بعينيه على الصفحة الأولى ليقرأ باهتمام الإهداء الذي سجله أريك سيجال - مؤلف الرواية - باسمي.

الآن تنفرج أســارير الشــرطي الأمريكي هنري تماما وهو يســألني: هاها.. هاها.. أنت تعرف مستر سيجال وصديق أيضا؟ أين عرفته؟ قلت له: في لوس انجلوس..

- وانــت تعرف لوس أنجلوس أيضا؟ اذن هوليود ليســت غريبة عنك؟ هاها.. أقول لك ســرا؟ أنا أعمل في الشــرطة منذ أكثر من ربع قرن ولم يفارقني أبدا حلم الســفر إلى هناك ولو في إجازة. لا بأس. ربما أفعل ذلك عند التقاعد وأصحب اسرتي إلى هناك في اجازة.

عنــد هــذا الحد كانت لهجة ضابط الشــرطة هنري قــد تحولت من النقيض إلــى النقيض. الآن يتجــاذب معي الحديث بمودة ظاهرة ورغبة جادة في الثرثــرة.. متطلعا بين وقت وآخر إلى أكوام الكتب في كل ركن من أركان الحجرة الصغيرة.

بعدهــا قال لــي: الآن بدأت أفهم الصورة. إنكم معشــر الكتاب اناس حالــون تخلطون الخيال بالواقع.. ربما هذا هو بالضبط ما أنقذك من الموت قتيلا هذه الليلة.

قلت له مستغربا: ماذا تقصد؟

- أقصــد انه في المواجهــة بين مجرم وضحية هناك لحظة ســيكولوجية تجــئ وتختفي بلمح البصر، فحينما تطلع هذا اللص إليك بالســكين في يده ووجــدك ثابتا في مكانك انقلبت الآية وبدأ هو في الخوف!

استغربت أكثر وأكثر: يخاف.. من ماذا؟

- يخــاف مما تصور أن لديك ســلاحاً.. فبعقليتــه هو، وأقول لك هذا من طــول خبرتي، لابد أنــه تصور أن مواجهتك لــه بهذا الهدوء تعني حتما أن لديك في درج المكتب مثلا مسدســا جاهزا للانطلاق.. هذا طبيعي ومألوف تماما عند كثيرين من سكان هذه المدينة.

قلت له ضاحكا: لكنني انخلع قلبي فعلا بمجرد هروبه..

- صحيح.. صحيح، لكن اللحظة السيكولوجية كانت قد انتهت.. ولصالحك، ولو كان قد لمح في وجهــك أقل علامة خوف أو ذعر.. لكان للقصة في هذه الليلة نهاية أخرى، احمد ربنا إذن وحاول أن تنام الليلة بعمق.

قبل أن ينهض رجل الشرطة هذا مستعدا للانصراف طلبت منه السماح لى بالاحتفاظ بالسكين، ولو كذكرى لإحدى حالاتى الاندهاشية التى فهمها لص الليلة على غير مضمونها فانخلع قلبه..

اكتسى وجه هنرى بالجدية الكاملة مرة أخرى وهو يقول: لا بأس فأنت تستحق هذا السكين على أية حال، لكن اسمع..سأقول لك كلمات جارحة أرجو أن تنقلها إليه حينما تراه فى المرة القادمة..

سألته مندهشا: انقلها إلى من؟ إلى اللص؟

– لا.. لا.. أقصد اريك سيجال مؤلف هذه الرواية، هذا الفيلم «قصة حب».

لقد جلس هنرى من جديد وهو يضيف مسترسلا: لقد شاهدت هذا الفيلم وبالتالى أطلب منك أن تنقل إليه أن عليه أن يفيق من أوهامه، لا توجد فى أيامنا هذه قصص حب من هذا النوع ولا تضحيات بهذه الجسامة، قل له إن ما يجمع الفقر والغنى فى حياتنا الواقعية الآن ليس الحب.. ولكن القتال. قل له إنه لو كان يعيش فى نيويورك، وليس فى لوس انجلوس فربما لم يكن سيكتب مثل تلك الرواية مطلقا. إننى ضابط شرطة قديم وعجوز. وتسعون بالمائة من جرائم القتل فى هذه المدينة سببها الجوار اليومى بين منتهى الفقر ومنتهى الثراء، كلهم يعرفون ذلك ولكنهم يغالطون، فقط هم مفلحون فى اتهام الشرطة بالتقصير، والشرطة لاتصنع الجريمة، لكن الجريمة هى التى تصنع الشرطة.

نهض الشرطى هنرى من جديد بينما أقول له: على أى حال رأيك هذا لايبتعد كثيرا عن رأى المؤلف نفسه – اريك سيجال – لابد أنك تعرف أنه مدرس بالجامعة، وقد خاصمه الكثيرون من طلابه بسبب هذه القصة خصوصا.. حيث اعتبروها نوعا من الأدب الاستهلاكى الذى يسترضى الزبائن بالأوهام من خلال رواية لا علاقة لها بالواقع.

تهللت أسارير هنرى مرة أخرى.. وعاد إلى الجلوس مرة ثالثة.. قائلا لى بارتياح واستغراب: صحيح هذا شئ مهم للغاية.. شئ سأحكيه الليلة لابنتى سوزان.

فى تلك اللحظة كان وجه هنرى قد تحول إلى شئ مختلف شئ لاعلاقة له بعمله كشرطى، ثم بدأ يتحدث معى كما لو كانت تجمع بيننا معرفة ممتدة لسنوات سابقة.

قال هنرى: هذا الفيلم «قصة حب» تسبب لى فى صداع متكرر، سوزان «ابنتى» ذرفت الكثير من الدموع حزنا على مصير البطلة.. بينما جاك «ابنى» لم يعجبه الفيلم من أساسه، وليلة بعد ليلة كان الاثنان يتشاجران كلما وردت السيرة.. فى النهاية وجدت نفسى منضما إلى ابنى جاك فى الرأى ضد سوزان فالقصة فى هذا الفيلم لاتفعل أكثر من ترويج مخدرات عاطفية بين الجمهور. مخدرات لطبيعة العلاقة بين الفقر والغنى. صحيح أن الفقر يسعى دائما إلى الثروة لكن الثروة تسعى فقط إلى

المزيد من الثروة. وطوال عملي في الشـرطة لم أصادف حالة حب واحدة بين الفقر والثروة، لكنني عرفت فقط حالات من القتال بين الثروة والثروة.

سـكت هنرى للحظات كمـا لو كان يناجي نفســه، قبل أن يضيف: إنني أحب سـوزان، فهي تعوضنـي بحنانها عن والدتها التـي انفصلت عني في وقت مبكر، لكني ايضا لا أريد لها أن تعيش في الخيال والأوهام، والفكرة التي يطرحها فيلم «قصة حب» هي أوهام في أوهام، والليلة.. حينما سأنقل إليها على لسانك رأى مؤلف القصة نفسه.. فربما تقتنع أخيرا..

قلت له محاولا تخفيف شـعوره المفاجئ من الاكتئاب: لكن هذا ربما لايعجب مسـتر سـيجال المؤلف.. لقد قال لي رأيه هذا.. لكنه ربما لايريد أن تعرفه ابنتك سوزان..

لم يبتسم هنرى، فقط تغيرت ملامحه من جديد، في هذه المرة يسترد وجهه قناع ضابط الشرطة وبكل صرامة يقول لي: لابأس.. لابأس.. المهم.. اريد أن أطمئنك إلى أن هذا الشـخص سـوف يلقى جزاءه حتما.. واتمنى أن يلقاه على يدى أنا..

سألته: أى رجل؟ اريك سيجال مؤلف القصة؟

– لا.. لا.. أتكلم عن اللص الذى حاول اقتحام غرفتك الليلة، إننى متأكد من أنه سرعان ماسيقع في قبضة الشرطة. هذا لص مبتدئ، لص غشيم. لو لم يكن غشيما لما ساقه حظه إلى مثل هذا المكان. أمامه آلاف الأماكن التى تسـتحق السـرقة في نيويورك.. فيتركها جميعا لكى يأتي إلى السرقة من بيت شباب متواضع مثل هذا؟ ماذا سيجد في كل بيت الشباب هذا؟ إنه حتى كان مرتعشا فلم يحتفظ في يده بأداته في السرقة، لم يحتفظ بالسكين.

بعدهـا نهض هنرى واقفـا.. بتصميم على الانصراف في هذه المرة. عنـد الباب ربت بيده على كتفي، كما لو كان أبا ودودا يواسيني من أعماق قلبه.. قائلا: يابني.. لم أعرف من قبل أن هناك كتبا تسـاوى أن يعرض الانسان حياته للخطر بسببها، لابأس، لابأس حتى في حالتي وخبرتي كضابط شرطة عجوز.. ماتزال هناك ألغاز كثيرة في هذه الحياة لابد أن أفهمها.. احتفظ بكتبك هذه فلا بد أنها تساوى عندك الكثير، ثم حاول أن تنام الليلة بعمق.. فقد كتب لك عمر جديد. هذا في حد ذاته فرصة ثانية لا يحصل على مثلها الكثيرون من سكان هذه المدينة في هذه الأيام.

□□□



مصر .. ناقص واحد!

الســابعة صباحا ليســت موعدا مناسبا لتلقى خبر ســيىء أو قراءة خبر أسود. فإذا تعلق الخبر بقرار من النيابة العامة تطلب فيه من الشــرطة «ضبط واحضار» مواطن.. فهذا يعنى خبرا أســود فى حياتى، أما بالنسبة للحاج صلاح فهو يعنى ماهو أكثر، يعنى: فضيحة بجلاجل.

لم يكن «الحاج صلاح» سوى رجل أعرفه، وما أعرفه عنه هو كل خير، بل إن مايفعله هو شخصيا من أعمال الخير فى محيطه القريب يستحق استضافته فى الصفحة الأولى، والآن هو فيها، لكن من خلال قرار منشور بالضبط والإحضار. هذا يساوى عمليا قرارا بإلقاء القبض عليه.

فى البلد أزمة إســكانية خانقة. وهربا من الإيجارات المحددة بناء على أسعار التكلفة، وسعيا إلى الربح السريع، اتجه أصحاب الأموال إلى إشاعة نظام بيع الشقق السكنية بنظام التمليك. وبين البائع والمشترى.. يفتح الله.

و«الحاج صلاح» تاجر شــاطر وناجح. هو رجل عصامى بدأ حياته العملية مما يقترب من الصفر. لم يحصل على شهادة ولا تفذلك بلغة أجنبية ولا زوج أولاده فى حفلات صاخبة تقبل الصحف على تغطيتها والتبشير بالمزيد منها. رجل تضبط عليه الساعة. فى الثامنة صباحا هو فى مقر تجارته، وفى الثامنة مســاء هو فى طريقه إلى منزله. فى لحظاته مع زوجته وأولاده هو فى ســعادة هادئة. أحيانا يقلقه مايراه فى أولاد وبنات الجيران فيهتم أكثر وأكثر بالتعايش مع الأولاد.. يستمع إليهم ويحاورهم ويتابع أفكارهم.

فى حياته وجهان آخران للســعادة. أولا متابعة مباريات الكرة فى التليفزيون. وثانيا مشــاهدة أفــلام رآها فى التليفزيون عشــرات المرات لكنه مســتمر فى الاســتمتاع بها. أفــلام لفاتن حمامة وعبدالحليم حافظ ومحمد فوزى وليلى مراد وشــادية وسعاد حسنى وعبدالفتاح القصرى الخ، يصلى الفرض فى موعده كلما تيسر ويصوم رمضان حتما ويقرأ صحيفة أو اثنتين يوميا. وبين وقت وآخر.. ربمــا يتابع خمس أو عشــر دقائق من نشــرة أخبار التاســعة، ثم يغلق جهــاز التليفزيون من غير أن يعلق.

و«الحاج صلاح» أصبح حاجا حتى من قبل أن يذهب فعلا إلى بيت الله الحرام، وكما فى الريف المصرى التقليدى فإن معارف الحاج صلاح وزملاءه من التجار أعطوه لقب «الحاج» مبكرا من قبل أن يحج فعلا. عند البسطاء أبناء البلد مقياس واضح ومحدد تماما: إن الدين هو المعاملة. هذا رجل لايفرط أبدا فى حقه، لكنه لايريد ماهو أكثر. هو أيضا يفى بحقوق الآخرين.. لكن ليس أقل. يشترى ويبيع ويتاجر بالكلمة. فحتى لو لم يوجد ورق مكتوب.. فإن الحاج صلاح يحترم كلمته ولو بخسارة. ماذا تعنى الخسارة أو المكسب هنا إذا شاع عنه أنه لايصدق فيما يقول؟

أعطاه الله من الثروة مايفيض وفكر فى شراء أرض وبناء عمارة ينتقل إليها مع أولاده.. فكلهم يقتربون من سن الزواج. والأرض التى اشتراها هى فى موقع شديد التميز، فى واحدة من أرقى مناطق القاهرة وأغلاها. فى الشارع عمارات مرتفعة شاهقة كلها بيعت بنظام التمليك والأسعار هنا باهظة والأرباح السريعة مؤكدة.

لكن الحاج صلاح اختار السباحة ضد التيار. اختار أن يجعل السكن فى عمارته الضخمة بالإيجار. بالطبع هناك واقع منتشر اسمه «خلو الرجل» فمقابل العمارات القليلة المكنة بالإيجار يطلب ملاكها من الراغبين مبالغ مالية خارج نطاق التعاقد كشرط للحصول على شقة. مبالغ تسمى خلو رجل تزيد أو تنقص حسب موقع العمارة أو حالتها. مبالغ تجرى خارج نطاق القانون والشرع والأصول، لكن الواقع الصعب كان قد أصبح أكبر من أى قانون.. والناس تحكمها الضرورة والضرورة لها أحكام.

مع ذلك اختار الحاج صلاح أن يجعل عمارته الضخمة الفخمة بالإيجار. بالطبع له نظريته الخاصة فى ذلك. نظريته هى: أريد أن اختار جيرانى لا أن يختارونى هم. هذه عمارة سأقيم فيها.. وفيها سيتزوج أولادى، والجار.. ياأستاذ.. قبل الدار.. أما الفلوس.. فلكل مجتهد نصيب.

والآن هاهو الحاج صلاح يقرأ الجريدة فى الصباح فيفاجأ بأن النيابة أصدرت أمراً بضبطه واحضاره والتهمة هى: إنه تقاضى خلو رجل بألاف الجنيهات حسب شكوى محددة ضده. وطبقا للقرار بأن أى ساكن يشكو من اضطراره إلى دفع خلو رجل إلى صاحب عمارة سوف يسترد مادفعه فورا وإلا تعرض صاحب العمارة للحبس فى التو واللحظة. يكفى أن يأتى الشاكى بشاهدين يصدقان على كلامه فتدور عجلة السلطة بين حدين مقررين سلفا: الدفع أو الحبس.

هكذا اتصل بى الحاج صلاح فى السابعة صباحا.. وبغير كثير من الشرح خلجات صوته تعكس فى التو واللحظة حجم المصيبة التى يرى نفسه فى بؤرتها على حين غرة.

هذا رجل من مقام الأب سنا. مع ذلك أصبح يجلس أمامى متوتر الأعصاب زائغ العينين متقطع الكلمات مشوش الأفكار.. فى تناقض كامل مع كل ماعرفته عنه من قبل. والجملة المفيدة الوحيدة التى فتح الله بها عليه هى: قل لى يا أستاذ.. ماذا أفعل مع هذه المصيبة؟ هذه الفضيحة؟

سـألته مغتصبا ابتسـامة تسـبق كلماتي: ياحاج صلاح.. إذا كان هذا بلاغا كيديا ضدك.. فماهو الدافع؟

تصور الحاج صلاح للحظة أننى أيضا ربما صدقت الخبر المنشـور. فامتقع وجهه أكثر وأكثر وهو يجيبنى بقوله: حتى أنت يا أسـتاذ؟ هذا شـخص كان قد طلب منى شـقة ولكنى لم استرح لسمعته فرفضت وأعطيت الشقة لآخر هو الذى يسكنها الآن. لم أحصل من الآخر ولا من غيره على جنيه واحد لأننى لاأقبل الحرام على نفسى ولا على أولادى. صدقنى.. وحياة أولادى.. هذا كل ما حدث.

حينما يقول الحاج صلاح وحياة أولادى فهذا يعنى فى قاموسـه الكثير الكثير. ومن ناحيتى لم يخالجنى الشك لحظة واحدة فى كيدية البلاغ. فقط كنت أريد السيطرة على حالة الغليان فى داخلى حتى أفكر مع الحاج صلاح بهدوء. فمبدئيا أعرف أن الجريدة المذكورة لن تنشر أى رد يريده الحاج صلاح كمواطن أصيب فى سمعته. لن تكذب الجريدة نفسها، والحجة جاهزة: نحن لم نؤلف الخبر فهو صادر عن النيابة العامة. إذن.. هل أرشح له محاميا قديرا يقف إلى جانبه؟

قلت له: الموضوع هنا أمام محكمة أمن دولة، دعنا نصبح عمليين.. فالمسـألة هنا ليسـت فصاحة محام من عدمها.

لقـد أصبحت أكثر وأكثر غليانا فى داخلى وأنا أفكر من المنظور الآخر. هذه عمارة ضخمة فخمة فى شـارع كل عماراته تمليك.. إنها العمارة الوحيدة فى الشـارع بالإيجار، وبحسبة بسيطة لعدد الشـقق والطوابق نصبح أمام مليـون جنيه.. فى أقل القليل.. متاحة للحـاج صلاح كخلو رجل نقدا وبغيـر أى ورق مكتوب ولامستمسـكات. بالطبع أعرف تأكيدا.. أن الحـاج صلاح لم يتقاض جنيها واحدا.. لكن المشكلة هى: كيف يصدق وكيل النيابة المختص.. وهو فى النهاية بشر يعيش فى هذا المجتمـع ويعرف أحواله.. ان مواطنـا كالحاج صلاح رفض مليون جنيـه واكتفى بالإيجار المحدد حسب القانون؟

قلـت له: ياحاج صلاح.. سأشـير عليك بأمريـن أولا.. اذهب إلى النيابة فى موعد الاسـتدعاء المقرر، وبلا محام. ثانيا: اجمع لى توقيعات كافية على هذه الورقة.. ناولته ورقة كتبت فيها لتوى أسـطراً قليلة خلاصتها أن الموقعين أدناه هم السكان، وبتلك الصفة يتطوعون بالشهادة بأن أيا منهم لم يدفع للحاج صلاح أية مبالغ خارج نطاق عقد الايجار.

للحظـة أو للحظتـين بعد أن قرأ الحاج صلاح الأسـطر القليلة فى الورقة.. تطلـع إلىَّ بقدر من التشـوش وعدم التأكد. ربما المعرفة، أو التجربة، أو الثقة.. هى فقط ماجعلته يلتزم بما اقترحته. وفى الصباح التالى جاءنى ومعه الورقة بأسماء السكان وصفاتهم وتوقيعاتهم. فى هذه المرة جاء وفى صحبته اثنان من السكان.

قرأت الورقة مرة واثنتين وثلاثا ولأول مرة منذ أربع وعشرين ساعة يتبخر الغليان في داخلي، ولأول مرة أبتسم بحق وأنا أقول: اسمع ياحاج صلاح.. لقد ضاعت منك، وبخاطرك وضميرك، مليون جنيـه في أقل القليل لأنك لم تقبل الحـرام مؤمنا بأن الله الغني. والآن.. بهذه الورقة يعوضك الله بماهو أهم جدا جدا من المليون جنيه. الآن.. دعني اصب لك الشاى قبل أن اشرح لك باقى فكرتي..

كانت الفكرة بسـيطة، لقد اقترحت على السـاكنين أمامى أن يذهبا بمفردهما إلى أقرب مركز للشـرطة ويقدمان صورة من هذه الورقة.. الإقرار.. الشـهادة.. ويسـجلانها كبلاغ منهما نيابة عن سكان العمارة، فقط أريد رقما للبلاغ وخاتم مركز الشرطة.

بعدهـا فقط ذهبت إلى زملائى فى الجريدة أتشـاور معهم: تحبون الأخبـار ومصائب الناس؟ والبلاغات الكيدية حتى وهى ماتزال فى مرحلة التحقيق؟ إنن هذا خبر مهنى تماما. وبهذا المقياس أظن لن تكذب الجريدة نفسها. فقط السكان هم الذين يشهدون ضد البلاغ الكيدى. بهذا المقياس أيضا أظن أنه خبر يستحق النشر بالصفحة الأولى. إلا إذا كان هناك فى مهنتنا قانون خفى لا أعرفه يقرر أن الصفحة الأولى هى فقط لأشرار الناس.. وليست أيضا لأخيار الناس.

فى الصباح التالى جاءنى الحاج بلا تليفون ولا موعد، وهو فى حد ذاته حدث جلل لايفسره سوى فرحته بالنسخة فى يده من الجريدة، وفرحته أكبر وأكبر بالخبر المنشور تحت عنوان: «لأول مرة السـكان يتطوعون لانصاف صاحب عمارة». وفى الخبر تسجيل لواقعة بلاغ الشرطة وأسماء السكان جميعا وصفاتهم.

جلس الحاج صلاح وانضم إلينا بعد دقائق ثلاثة أخرون من السكان، وقبل أن أكمل لهم اقتراحى الجديد كانوا هم أسـبق منى فى الاسترسـال. نعم سوف نسبقك جميعا إلى مكتب وكيل النيابة فى موعد الاسـتدعاء. نعم. سوف نعرض على وكيل النيابة تسجيل شهاداتنا فيما سيجريه من تحقيق نعم.. نعم.

□□□

لقـد صدر قرار النيابة بعد ذلك بحفظ الشـكوى ضد الحاج صـلاح لأنها كيدية. لكن الجديد هو الحيثيـات التى صاغها وكيل النيابة واعتمدها رئيس محكمـة أمن الدولة، حيثيات اقترحت على زملائى فى الجريدة نشرها حرفيا، وبقدر كاف من الابراز.لم تكن الفكرة عندى تتعلق فقط بالحاج صلاح من حيث هو شـخص محدد أعرف شـخصيا مدى صدقه. لكن الفكرة الأكبر هى: لايكفى فى مجتمعنا أن نحب العدل فالوجه الآخر هو أن نصحح الظلم. لا يكفى أن نشـجع الجمال ولكن علينا أن نطارد القبح. لايكفى أن نؤازر الصدق لأن هذا لايكتمل إلا بأن نحاصر الكذب. لايكفى أن نتمسك بالخير، لأن الخير لن يصبح خيرا إلا بعد أن نؤكد مرة بعد مرة اننا نحارب الشر.

□□□

وتلـك التجربة تحديدا ربما جعلت الحـاج صلاح يتيح لى من دخائله وهمومه ماكان يحتفظ به لنفسه.. مع أننا من محيطين مختلفين تماما. هناك واقع مشترك يجمع بيننا. وهناك هموم وقضايا عامة أصبحت أكتشـف بين وقت وآخر أنها ليسـت خافية عن فطنة الحاج صلاح واهتماماته حتى ولو لم يكن متبحراً فيها. وكلما كان يبدأ حديثه معى بالاستفسار، «قل لى يااستاذ..» كنت أستوقفه مقاطعا: ياحاج صلاح لاتسـمنى أستاذا من فضلك لأسباب عديدة من بينها أننى حريص على أن اظل تلميذا أتعلم يوما بعد يوم.

وفى اللحظة التى يهيأ لى فيها انه مقتنع.. إذا به يفاجئنى من جديد: قل لى يا أستاذ.. بالأمس ذهبت إلى الصيدلية اشترى دواء لمقاومة نزلة البرد التى ألمت بى. دواء اسمه «كوزافيل» دواء بديع وفعـال وانتاج مصرى وبجنيهين اثنين فجأة قال لـى الصيدلى إنه غير موجود، وأعطانى بدلا منه دواء انجليـزى الصنع وبعشـرة جنيهات. دعنا هنا مـن حقيقة ان هذا الدواء البديل هو بخمسـة أمثال السعر، لكنه دواء أجنبى. كيف يحدث هذا؟ ماله الدواء المصرى؟ لقد كنا نصدر أدوية كثيرة مـن انتاجنا إلى الخارج قبل سـنوات وسـنوات. الآن كيف تنقلب الآية ونعـود مرة أخرى لنصبح مستوردين لما نجحنا فيه؟

أو : قل لى يا أسـتاذ.. زيت الزيتون الذى اشـتهرنا بإنتاجه منذ عشـرين وثلاثين سنة.. لماذا يختفـى ولاأجد فـى المحلات غير زيت زيتـون من إسـبانيا أو من اليونـان.. وبأضعاف أضعاف السعر؟

أو : قـل لى يا أسـتاذ.. أين منسـوجاتنا التى اشـتهرنا بها لأننا بلد ينتج أفضـل أنواع القطن فـى العالم ؟ متر الكشـمير من انتاج شـركة المحلة الكبرى كنت اشـتريه من زمـن لى ولأولادى بـ ٢٣٠ قرشـا وأهـدى منه لتجار عرب عديدين كانوا يجيئـون لزيارتنا.. قماش اللينوه من مصانع الشوربجى.. كنا نشتريه بالواسطة.. وبالحجز.. أين اختفى ؟

أو: قل لى يا أستاذ.. انا رجل تاجر، وأعرف أن عمولة التاجر فى بيع دواء بعشرة جنيهات هى خمسـة أمثال عمولته فى بيع دواء بجنيهين لكن المشـكلة هنا هى فى توفر الأول واختفاء الثانى.. وفى بلدنا. يوجد خلل كبير هنا.. ما هو ؟

أو: قل لى ياأستاذ.. موبيليات دمياط الشهيرة.. كنا إذا لم نجدها متوافرة فى القاهرة نذهب إلى دمياط لنشتريها بالتوصية.. لماذا لم نعد نرى الموبيليات المصرية ولا عدنا نسافر إلى دمياط ؟

أو: قل لى ياأسـتاذ.. مالها الثلاجة المصرية المشـهورة فى بيوتنا من ثلاثين سـنة، وكنا نصدر منهـا الآلاف إلى الخـارج، كيف تختفى أو تصبح نوعيتها أقل وسـعرها أعلى.. وفى نفس الوقت نترك مكانها عن طيب خاطر لعشرات من الماركات الأجنبية ؟

أو : قل لي ياأستاذ.. الخواجات يتكلمون كثيرا عن المنافسة. كلام عظيم. لماذا إذن يشترطون على من يعرض انتاجهم في محلاتنا أن يمتنع بالمرة عن عرض البديل المصرى الأرخص ؟

أو : كثيرا كنت أحكي لأولادى اننا زمان كانت عندنا حاجة اسمها «عقدة الخواجا»، تعبنا سنين لغاية مارينا شفانا منها، دلوقتي، الخواجة ذات نفسه موجود.. لكن حتى الدواء غير موجود..

أو : قل لى يا أستاذ.. التجارة شطارة، هذا صحيح. لكن التجارة وطنية ايضا. حينما أشترى الدواء المصرى أو الثلاجة المصرية أو الإنتاج المصرى عموما فإن هذا معناه أن الزارع والصانع والمنتج والبائع استفادوا، وكلهم مصريون.

يعنى المصانع فى بلدنا تكبر وتكثر والخير يزيد والشباب يشتغل والناس تكسب ومستقبلنا – يعنى مستقبل أولادنا – يصبح أفضل.

أو : تحب أقول لحضرتك مقياس مهم ولا مؤاخذة؟ تابع الإعلانات.. فى التليفزيون أو الجرائد أو المجلات. أحسب كم سلعة أجنبية قادرة تلح بإعلاناتها.. وقارنها بكم سلعة مصرية.. تعرف على طول أولادنا رايحين فين..

أو.. أو.. أو.. أو.. أو..

□□□

فجأة سمعت الخبر بالتليفون. بعد التليفون أمسكت بصفحات الوفيات. فى الصفحات بدعة جديدة منذ سنوات قليلة.. حيث مساحات النعى تكاد تصبح بالأفدنة تباهيا بالثروة والقدرة على الدفع والشراء والتباهي بالثروة.. حتى فى الموت.أما الحاج صلاح تحديدا فلم يزد خبر وفاته على عشرة أسطر. لو أراد أولاده لاشتروا من الجريدة صفحة بكاملها إعلانا لوفاة والدهم. لكن الخبر كان مختصرا، وفقط من قبيل الإعلام والتسجيل. فى آخر النعى جملة بسيطة تماما: الأسرة ترجو من يقرأ النعى أن يقرأ الفاتحة على روحه.

لم أدرك أن الجريدة سقطت من يدى. فقط أدركت أن الفقيد رحل لكنه لم يمت.. فقد أخذ عنه أولاده ذلك الادراك الغريزى لأبناء البلد بأن للثروة مسئولية اجتماعية، وانتماء وطنياً وهموماً عامة، وقانوناً خفياً يحكمها عنوانه: الحلال بين.. والحرام بين.وفى مجتمعنا كثيرون كثيرون من هذا الرجل العصامى الحاج صلاح. كثيرون فاهمون. كثيرون يكدحون ويكسبون ويعرفون الحلال من الحرام. هم لا يحبون أبدا مقاعد الصفوف الأولى. لا يحبون التباهى بثرواتهم ويرفضون التحول إلى نجوم مجتمع ملفق وطلاب شهرة كاذبة.. لأنهم سعداء بحياتهم ونجاحهم وسط الملايين من البشر.

لكن هذا كله لم يسحب منى فى ذلك الصباح إحساسا محددا. لقد نقص عدد المصريين واحدا. إنما: أى واحد ؟

أم أحمد زويل .. وبالعكس !

إجابة أولى: الإنسان مخلوق متزن. بجسم يرتكز على قدمين تضمان ٢٨ مفصلا، بمولد كهربائى كيميائى. تكمله خزانات معزولة من الطاقة.. فى بطاريات حاشـدة، بموتورات ملحقة. جسم يضم ٦٢ ألف ميل من الشـعيرات، وملايين من إشـارات المرور والإنذار. جسـم يحتوى على شبكة سكة حديدية وناقلات وروافع..حيث الذراعان فى الجسـم يضمان ٢٣ مفصلا ومحطات تشـحيم ذاتية، وشبكة تليفونات لا تحتاج إلى صيانة لمدة سبعين سنة إذا أحسن استخدامها.

«ان هذا التركيب المعقد وغير العادى لجسـم الانسـان يعمل كله بدقة بديعة من خلال برج يضم آلات تلسـكوبية وميكروسـكوبية، وملحق به أيضا شبكة لتسـجيل المعلومات والأحداث السابقة، وأجهزة لتحليل أطياف الأشعة، و.. و..»

❑❑❑

إجابـة ثانية: هناك أناس كثيرون يتصورون أن الطلاب الدارسـين فى الطب يجب أن يتفرغوا للطب وألا يلعبوا مثلا. أنا لا أوافق. إذا لم تكن لطالب الطب ألعاب وهوايات أخرى، وإذا كان يقضى كل وقتـه فى قراءة المراجع الطبية فقط، فإنه ربما يعرف كتبه أحسـن من الرجل المجاور له. أقول ربما. لأنه ليس من المؤكد أبدا انه سيعرف كتبه أحسن. إن من المحتمل أنه سيكون أكثر معرفة بما هو مكتوب فى الكتب. ولكن ليس أكثر معرفة بمعنى ما يقرأ. إن على رجل الطب أن يعرف الناس وأن يعرف الطبيعة الإنسانية».

❑❑❑

إجابة ثالثة: «العلم المفرط فى تخصصه لا ينتج عالما إنسـانيا. إن شـأن مثل هذا العالم مثلا هو كشأن الخراط أو النجار الذى يحسن الخراطة والنجارة إحسانا كاملا لا يجاريه فى ذلك أحد. ولكنه إذا ترك هذا المجال لم يكن بعد ذلك شيئا. انما العلم الذى أعتبره علما.. هو ذلك الذى لا يؤدى بمن يتخصص فيه إلى العزوف عن سائر أبواب المعرفة. إنه العلم الذى يجعل الرجل إنسانا، وهو الذى يجعل له من الحياة معنى، ويجعل له فى الدنيا فلسفة».

و... هيأت نفســى لأسمع إحدى الإجابات السابقة، أو شيئا قريبا منها من الدكتور أحمد زويل فيمــا تابعتــه له من حوارات تليفزيونية، أو فيما كنت مدعوا لــه من ندوة معه بدار الأوبرا حالت ظروفى الشـخصية دون تلبيتها. لكن الرجل لم يقل أيا من تلك الإجابات لأنه أصلا لم يســتمع إلى أسئلة تكون تلك إجاباتها. وكما نعرف.. فإن صياغة السؤال هى فى حد ذاتها نصف الإجابة.

والإجابة الأولى التى بدأت بها هى معلومات متاحة عن الإنسان من حيث هو كائن عضوى. أما الاجابة الثانية فصاحبها الكســندر فيلمنج مكتشف البنســلين. والإجابة الثالثة هى التى كنت قد ســمعتها من الدكتور أحمد زكى عالم الكيمياء المصرى الراحل.. والذى كنا فى صبانا نتابع كتاباته العلمية المبســطة فى الصحف.. بشغف وشــوق.. لأنه لم يكن يشرح لنا فقط ما هو العلم.. لكن أيضا كيف يجب أن يفكر العلماء.

مع ذلك لفت نظرى ما ســمعته من عشــق الدكتور أحمد زويل لصوت أم كلثوم وأغانيها، برغم حياته الأمريكية طوال ٢٩ ســنة. هو عالم فيزياء وأســتاذ فى جامعة أمريكية وسجل اكتشافا علميا مهما. لكن ضيق تخصصه العلمى لم يلغ اتســاع اهتمامه بالمشاعر الإنسانية كالحب والغرام والشجن والطرب والألم والمتعة.

ثم اســتوقفنى فيه شيء آخر. لقد تخرج فى كلية العلوم فى جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٧. ســنة زلزال يونيو ١٩٦٧ وغزوة إســرائيل الكبرى. لكن الدكتور زويل تحدث عن الزلزال باعتباره انكسارا للحلم المصرى الكبير. وزاد على ذلك بأن الهجرة المصرية الكبيرة إلى أمريكا لم تبدأ إلا بعد سنة ١٩٦٧ وربما بسببها. ومع أن كلماته هنا وردت عابرة وليست فى صلب الموضوع.. إلا أننى أريد أن أقول له: لحظة من فضلك. لحظة للمراجعة أو للفحص أو حتى للدقة العلمية.

فى سنة ١٩٦٧ واجهنا فى مصر زلزالا مروعا كنا بعضا من وقوده وضحاياه. وإذا كان من واجبنا أن نتحســب لزلزال من تلك النوعية بالأمس واليوم وغدا.. إلا أن التاريخ البشــرى كله لم يعط شعبا واحــدا حصانــة مطلقة ضد الزلازل والآلام. فى الواقع إن الشــعوب العظيمة حقا هى التى تتعلم من آلامهــا قبــل أن تتعلم من انتصاراتها. وفــى يونيو ١٩٦٧ جرى ضرب مصر بغزوة اســرائيلية. لكن المصريين الذين ضُربوا هم أنفســهم الذين لم يستســلموا، ورفضوا أن تكون تلك الضربة قاضية عليهم أو ساحقة لأحلامهم. وأبسط نموذج لذلك هو أحمد زويل نفسه.

هــو من دفعة ١٩٦٧ الجامعية. تلك الدفعة تحديدا وما تلاها هى التى قرر المصريون ان ينهضوا بها من جديد. هناك جيش عصرى جديد بدأ بناؤه على الفور. وبجنود جامعيين أصبحت تستلزمهم الأسـلحة الحديثة. فى كليتى بجامعة القاهرة مثلا جرى تجنيد أكثر من سبعين فى المائة من دفعة ١٩٦٧ والدفعات التالية. دفعات وكليات أخرى جرى تجنيد نسبة أكبر أو أقل من خريجيها.

والسبب في ذلك كان بسيطا وعمليا. السبب هو أن الحلم المصرى لم ينكسر. حلم النهضة والقوة والعصرية لم ينكسر. هذا يعنى أوليا التعامل مع زلزال يونيو ١٩٦٧ باعتباره صفحة في كتاب. صفحة سبقتها صفحات وستتلوها صفحات. ربما فات مصر أن تكون صاحبة الكلمة الأولى. لكن لن يفوتها أبدا أن تكون صاحبة الكلمة الأخيرة.

وأول مصادر قوة مصر في تلك المرة أصبحت مجانية التعليم بالكامل من الابتدائي حتى الجامعة، وهو ما كان قد بدأ فعلا قبل سنوات بعد أن أصبح الأقتصاد المصرى لأول مرة قادرا على تغطية تكاليف هذا التوسع التعليمي. وبغير تلك المجانية التعليمية المبكرة أشك كثيرا في أن أحمد زويل وكثيرين غيره كانوا سيعرفون الطريق إلى أية جامعة، فما بالنا بالسفر إلى الخارج على نفقة تلك الجامعة.

هؤلاء الخريجون الجامعيون الجدد، نتاج استثمار مصر مبكرا في نهضتها التعليمية، أصبحوا هم أنفسهم أول أسلحة مصر في الرد على زلزال يونيو ١٩٦٧. بعض هؤلاء الخريجين أصبحوا جزءا من إعادة بناء القوات المسلحة. والبعض الآخر جزءا من النهضة الأوسع في المجتمع الأعرض. هناك من ذهبوا إلى أسوان مثلا لاستكمال بناء السد العالي. هناك من ذهبوا إلى نجع حمادى للشروع في بناء مجمع الألومنيوم. هناك من بقوا في كلياتهم لاستكمال مشوارهم العلمي.

وأحمد زويل واحد من هؤلاء. لقد أصبح معيدا في كلية العلوم بجامعة الأسكندرية، وبمرتب عشرين جنيها شهريا حسب ما هو متاح وقتها. كانت مصر تغرق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» في عرض البحر الأبيض المتوسط، وفي نفس الوقت تفتتح المصانع الجديدة وتستكمل لجامعاتها هيئاتها التدريسية سعيا إلى مزيد من التعليم والعلم.

هل هذا سلوك شعب انكسر حلمه؟ لقد أصبح أحمد زويل معيدا واختار أن يراسل جامعات أجنبية، وحينما جاءت له منحة دراسية للحصول على الدكتوراة من جامعة أمريكية وافقت له كليته وجامعته بالإسكندرية. أكثر من ذلك فقد تحملت كليته وجامعته المصرية نفقات سفره إلى الولايات المتحدة ـ نفس الدولة التي كانت مصر قد قطعت معها العلاقات الدبلوماسية بسبب دورها في يونيو ١٩٦٧.

وحينما سافر أحمد زويل فعلا في سنة ١٩٦٩ كان حاصلا من كليته بجامعة الإسكندرية على إجازة دراسية.. بمرتب. هذا يعنى أن مصر، وهي البلد التي تحارب عدوا غاصبا لأرضها في حرب استنزاف دامية، هي أيضا مصر التي تبعث لأحمد زويل وزملائه بمرتبات شهرية بالدولارات الأمريكية، ليس لسنة واحدة أو سنتين.. وإنما لسبع سنوات متتابعة إلى أن توقف أحمد زويل عن طلب مد إجازته الدراسية.. لأنه اختار الاستقرار في الولايات المتحدة نهائيا.

والدول النامية، كحالنا فى مصر، لا تحول جزءا من أموالها إلى أبنائها الدارسين فى الخارج لأنهـا أموال فائضة عن شعبها فى الداخل. لكنها تفعل ذلك فقط لإيمانها بالمستقبل، وتريد من أبنائها أن يكونوا جزءا أساسيا من الاستثمار فى هذا المستقبل.

بعض هؤلاء الأبناء، بمجرد حصوله على الدكتوراة فى الخارج، تجعله الصدمة الحضارية يعجل بالعودة إلى مصر ليصبح جزءا من إصرارها على التقدم. الدكتور أحمد زكى مثلا، بعد أن حصل على دكتوراة فى الكيمياء العضوية فى جامعة ليفربول فى بريطانيا، ثم دكتوراة ثانية فى العلوم البحتة من جامعة لندن، عاد ليصبح أول عميد مصرى لكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد). فحتى ذلك الوقت كانت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر تصر على أن يكون العميد انجليزى الجنسية.

الدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن مثلا.. عاد لكى يثير فى مصر وعيا شاملا بأهمية التخطيط فى صناعة المستقبل. الدكتور عزيز صدقى عاد من جامعة هارفارد الامريكية لكى يترجم إيمانه بعصر الصناعة إلى دعوة صارخة بضرورة اقتحام مصر عصر الصناعة لكى تعوض ما فاتها بسرعة.

والآن.. لنتخيل معا المركز القومى للبحوث العلمية فى مصر بغير أحمد زكى. أو هيئة الطاقة النووية بغير إبراهيم حلمى عبدالرحمن. أو حال الصناعة المصرية بغير عزيز صدقى. وقبل هؤلاء جميعا.. لنتخيل حالة الأدب العربى الحديث لو كان طه حسين قد اختار البقاء فى فرنسا بعد حصوله على الدكتوراة.

هناك أيضا من الأبناء من يسرقهم الوقت سعيا إلى المزيد من المعرفة والتخصص.. أو يريحهم انضباط وسخاء المجتمع العلمى فى الغرب فيطيلون من الغربة أو يحصلون على الجنسية الجديدة فى البلد الذى اختاروا الاستمرار فيه. من هؤلاء مثلا أحمد زويل الذى أصبح عالما متميزا فى الفيزياء بجامعة كاليفورنيا، وقد تحدث مؤخرا عن سعيه إلى إقامة نمط جديد من المجتمع العلمى الأكاديمى فى مصر خلال سنوات قليلة.

وشرارة العالم هنا لا تكتمل إلا برؤية رجل السياسة. وما تابعناه مؤخرا، مثلا، من قدرة باكستان على صناعة القنبلة النووية على يد فريق علمى برئاسة الدكتور عبدالقادر خان لم يكن ممكنا إلا برؤية سياسية مبكرة فى سنة ١٩٧٤ من «ذو الفقار على بوتو» رئيس الوزراء فى وقتها. ودخول مصر عصر الصناعة الحديثة بقيادة عزيز صدقى لم يكن ممكنا إلا برؤية متكاملة خطط لها جمال عبدالناصر.

والآن تفاءل المصريون جميعا من الاهتمام الذى أعطاه حسنى مبارك رئيس الجمهورية وكمال الجنزورى رئيس الوزراء للدكتور أحمد زويل وافكاره.. اهتمام لابد أن له ارتباطا أوسع بالمجتمع

العلمي في مصر، وسـيصبح التفاؤل أكبر وأكبر حينما يتسـع الاهتمام ليشـمل فريقا متكاملا من العلمـاء المصريين باتسـاع العالم. نعـم..في أمريكا تبدو الحياة أسـهل والمرتبـات أعلى وأدوات البحث العلمي أوفر. لكن هذا كله تفعله أمريكا لحسابها ولحساب شعبها.. وليس لكي تتصدق به على الآخرين.

وقبل أيام سـئل الدكتور عبدالقادر خان، قائد وراعي البرنامج النووي في باكستان، مرتين. في المرة الأولى كان السؤال هو: باكستان بلد فقير.. فمن أين جئتم بالموارد المالية الكافية لإقامة برنامج نووي قادر على صناعة الأسلحة النووية ؟

وكان رده هو: بالضبط لأننا بلد فقير فنحن بلا أوهام. أما عن التكلفة المالية فيكفي أن أقول لكم ان ما يتكلف في امريكا مائة مليون دولار نصنعه نحن هنا بخمسة عشر مليون دولار.

وبتلك الإجابة الذكية المختصرة يريد عبدالقادر خان أن يوضح طبيعة التحدي المزدوج أمام رجل العلم في دولة نامية. إن العالم هنا ليس عليه فقط أن يناطح نظيره الأمريكي أو الأوروبي علما بعلم، ولكن أيضا بموارد محدودة لا يملك وطنه التبذير فيها أو الرفاهية في استخدامها.

أما السـؤال الثاني الأكثر أهمية، الموجه إلى عبدالقادر خان، فهو: كيف أقنعت نفسـك بترك المركز والجاه والمرتب الضخم الذي كان متاحا لك في جامعات اوروبا لكي تعود إلى باكسـتان قائدا لبرنامجها النووي.. وقانعا بمجرد أربعمائة دولار مرتبا شـهريا ؟ وأهمية السـؤال هنا تكمن في واقعيتـه. ففي الجامعات الأوروبية التي برز فيها عبدالقادر خان كان يحصل على آلاف الدولارات كمرتب شـهري، زائد إمكانيات علمية متاحة له وبقدر ما يطلب، وحتى سـكرتيرته كان مرتبها ألفي دولار.

صحيح. كيف يترك عبدالقادر خان كل هذا لكي يعود إلى باكسـتان قانعا بمرتب يساوي خمس مرتب سكرتيرته الأوروبية ؟ كيف أقنع نفسه ؟

ورد عبدالقادر خان: أقنعت نفسي بحقيقة بسيطة واحدة.. إن باكستان هي وطني. وبتلك الصفة فقد غامرت بالإنفاق على تعليمي مبكرا حتى من قبل أن تتأكد من أني سـأكون جديرا بهذا التعليم. كنـت طفـلا كالآخرين. وطالبـا كالآخرين.. ووطني أنفق علـى تعليمنا بلا تفرقـة ولا تمييز. فإذا أصبحت أنا متميزا في نهاية المطاف فإن البذرة الأساسـية هنا زرعتها أمي.. وجامعتي.. وبلدي.. ووطني.

والطفل فينا يكبر ويتعلم ويسـافر ويلف الدنيا بغير أن ينسـى للحظـة واحدة أن أمه هي التي ادخرت ليأكل.. وسـهرت ليكبر.. وتعبت ليسـتريح.. وجاهدت ليتعلم وشقيت ليتميز.. وتحملت ليتفوق.

حسنا.. دعنا هنا نأخذ الأم فى سياقها المصرى. فأحمد زويل من مدينة دسوق. هو مستقر وناجح فى أمريكا وبين وقت وآخر يأتى لزيارة مصر وبدأ يحلم لحسابها. لكن الحقيقة الأولى فى حياته ستظل هى أمه.. والحقيقة الأولى فى حياة أمه ستظل هى دسوق كمدينة.. ومصر كوطن.

فى دسوق، والقرى المجاورة، هناك أيضا أمهات أخريات. منهن من بعثت بابنها إلى شمس أسوان الحارقة ليستمر سنوات فى بناء سد عال بغير أن تعرف مسبقا أن هذا السد هو ذاته الذى سيقوم بعد ذلك، وطوال سبع سنوات عجاف، بحماية ملايين المصريين من أكبر مجاعة هددتهم طوال القرن العشرين.

ومنهن من شحنت ابنها بطاقة معنوية هائلة لكى يتخرج فى كلية الهندسة ويلتحق فورا بالقوات المسلحة ضابطا مهندسا فى أكبر حائط صاروخى تقطع به مصر ذراع اسرائيل الطويلة ضد ملايين المصريين.

وفيما بين هذه وتلك.. فى مصر الآن ١٦ مليون طالب يذهبون إلى مدارسهم وجامعاتهم كل صباح.. مشحونين مسبقا بطاقات نفسية هائلة تعطيها الأم المصرية لأبنائها اعتقادا غريزيا بأن التعليم والعلم، هما المفتاح إلى المستقبل.

نعم. هى الأم المصرية.

يلف ابنها العالم. يصول ويجول. يتفوق وينجح. يغترب ويبتعد، وبين وقت وآخر هو يزورها. لكنها فى نهاية المطاف لها خيار محدد. خيارها هو قريتها. وشارعها، وبيتها وجيرانها. بهؤلاء تنفست الهواء. ومع هؤلاء تقاسمت الهموم، ومن هؤلاء تأكدت أن المستقبل أصبح أفضل طالما الأبناء أصبحوا أنجح.هى الأم المصرية.

للوهلة الأولى يخيل لك أن التعليم فاتها.. والقدرة تخونها.. والحياة تلاطمها.. والزمن يهد حيلها.لكن: احترس من فضلك ولا تخطيء الحساب.

ففى لحظات الشدة تتحول هذه الأم البسيطة الوديعة رقيقة الحال إلى إرادة من فولاذ وصلابة من جبل .

هل يوجد مثل هؤلاء الأمهات في مصر ، ومن الإسكندرية حتى أسوان، وجيلا بعد جيل ثم يتحدث أحد بعد ذلك عن انكسار الحلم المصرى ؟

□□□



جول .. من غرفة الكونترول

فى الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا طرفا محاربا أساسيا إلى جانب فرنسا.. مقابل تحالف مضاد من ألمانيا وروسيا. ولأن الحرب طالت وجبهات القتال اتسعت فقد أرادت الحكومة البريطانية أن تشحذ همم أبناء شعبها للتطوع والمساهمة فى المجهود الحربى. وبدأت حملة إعلانية كبرى لصالح الحرب. فى تلك الحملة كان الإعلان الأكثر رواجا وانتشارا وشعبية و«إحراجا» هو ذلك الذى تحول إلى ملصق ضخم فى الميادين العامة والشوارع الرئيسية بكل المدن الكبرى.

والإعلان بسيط ومختصر، فهو عبارة عن لوحة لطفل صغير يستفهم فى براءة من والده الجالس أمامه متسائلا: ماذا كنت تفعل اثناء الحرب يا بابا ؟

ربما شىء قريب من ذلك هو الذى دفعنى إلى فتح جهاز التليفزيون لمشاهدة بضع دقائق من حفل افتتاح مباريات كأس العالم هذه السنة – الموندیال – فى فرنسا. لكن الدقائق القليلة التى تصورتها تحولت إلى ساعات وأيام متتابعة جعلتنى أتفرج فعلا على كل مباريات كأس العالم، فيما أصبح انقلابا جذريا فى كل برنامجى اليومى. لقد توقفت لغة الكتابة وحلت محلها لغة من الأجوال والفاولات وضربات الجزاء وركلات الترجيح.. الخ.

واتصل بى جورج نوفل من اذاعة «مونت كارلو» ليسألنى بقلق: أستاذ.. تأخرت فى تعليقك المنتظم. كرمال الله. هون بيصرخوا فى الاستوديو..

قلت له: ياجورج، هون بيصرخوا أيضا لكن من غير استوديو.. ألا تتابع مباريات كأس العالم؟

أجابنى المذيع المعروف: ولو.. قسمناها أنا وزوجتى.. هى يوم وأنا يوم.

أما الصديق عبدالوهاب بدرخان – لبنانى أيضا – فقد اتصل بى من لندن منزعجا: وين المقالات؟ صحتك مليحة؟ قلقانين عليك.. شوصار ؟

قلت له: صار كأس العالم ياعبد الوهاب.. فرنسا الأم الرءوم تكافح وأنت قاعد فى لندن؟ بعدين يزعل منك الرئيس (جاك) شيراك.رد عبدالوهاب: شيراك هنا مقدور عليه. لكن صاحب الجرنال غير هيك..

قلت له: على أية حال أنا هنا في القاهرة اتفرج لحسابك في لندن ولحساب جورج نوفل في مونت كارلو وبالمرة لحساب رفيق الحريري في لبنان. المهم خليك شاهد لوقت الحاجة.. إذا سألك أحد كان فين المذكور أثناء المعمعة، ترد فورا: كان مندمجا في كأس العالم. وصيتك الأولاد ياعبدالوهاب.

لم يكن للمذكور - كاتب هذه السطور - أي تعلق سابق بكرة القدم زائد عن حده. مع ذلك فقد اندمجت في هذه المرة على حين غرة وساعد على ذلك أن متعتي أصبحت مزدوجة. هناك مباريات على الهواء.. وهناك أيضا معلقون على الهواء.

في المباراة بين ايران والولايات المتحدة مثلا.. استمر المعلق التليفزيوني هادئا خفيض الصوت إلى أن أحرزت إيران هدفا في المرمى الأمريكي. هنا بالضبط تحول المعلق إلى مدفع بشرى سريع الطلقات. في الشاشة أمامنا ينهض حارس المرمى الأمريكي من الأرض متطلعا بغضب إلى الكرة التي دخلت مرماه. ينهض بعصبية وتوتر ويتجه إلى إحدى قوائم المرمى منحنيا نحو شيء تبين في اللحظة التالية أنه زجاجة مياه وبدأ يشرب منها بعصبية.

ومعلقنا التليفزيوني مرتفع الصوت سريع الطلقات يقول مخاطبا حارس المرمى الأمريكي: طبعا مش عاجبك.. لكن هو جول.. تشرب مياه.. تشرب بيبسي هو جول.. وجول هايل كمان.. عاجبك ولا لأ ؟

تصورت لثوى أن المعلق التليفزيوني سيترك مكانه متوجها نحو حارس المرمى الأمريكي لكى يصفعه فقط من باب زيادة الخير خيرين.

في مباراة أخرى بدأ المعلق يقول نبذة عن كل لاعب كلما تيسر له ذلك في مسار المباراة ثم توقف عند أحد اللاعبين قائلا: الراجل ده على فكرة مهم جدا شديد المهارة عنده ٣٢ سنة وطوله ١٨٢ سنتيمتر ماشاء الله، ١٨٢ سنتيمر يعني داخل على ١٩٠ سنتيمتر وحانشوف منه كثير وكثير.

قالها المعلق بشعور من الثقة والتأكد يوحي بأنه قبل نهاية المباراة سيصبح طول هذا اللاعب تأكيدا هو ١٩٠ سنتيمتر. ماشاء الله.

في مباراة ثالثة استعرض المعلق التليفزيوني أسماء اللاعبين ثم توقف عند لاعب محدد، اسمه «صانداى» وبدأ يشرح لنا، نحن جمهور المشاهدين، ما لديه من معلومات خاصة عن هذا اللاعب. قال المعلق: هو اسمه «صانداى»، يعني بالانجليزى يوم الأحد. مافيهاش حاجة أبدا هم هنا بيحبوا يوم الأجازة الأسبوعي، وهو يوم الأحد. علشان كده ناس كتير تسمى أولادها باسم يوم الأحد مافيهاش حاجة أبدا، إحنا كمان عندنا ناس تسمى أولادها خميس.. أو جمعة.. لا.. لا.. مافيهاش حاجة أبدا.

فـي مبـاراة رابعة ركز المعلـق التليفزيوني حديثه علـى فريق كرواتيا.. وكما هـي العادة بدأ باسـتعراض اسـماء لاعبي الفريق قائلا: طبعا عندنا بيلازيفيتش المدرب لافيتش حارس المرمى.. وعندنا كمان نوفيتش.. وبعدين سيفيتش.. فلاوفيتش.. فجأة توقف المعلق التليفزيوني عن استعراض باقي الأسماء مسجلا ملاحظته المدهشة: طبعا زى ماحضراتكم ملاحظين معظم الأسماء تنتهى بلقب فيتـش. دى مش صدفة لأن الظاهر أن عائلـة فيتش فى كرواتيا عائلة كبيرة جدا وأبناءها وقرايبها منتشرين فى كل كرواتيا..

ذكرتنى تلك التخريجة بالسـنة الأولى التى تحللت فيها جمهورية يوغوسلافيا السابقة وبدأت بعض ولاياتها تنفصل عنها معلنة الاسـتقلال كدول ذات سيادة. وذات يوم تابعت فى نشرة أخبار التاسعة بالتليفزيون عمرو موسى وزير الخارجية وقد خرج من اجتماع لكبار مساعديه فالتف حوله مندوبو الصحف لدى وزارة الخارجية يحاصرونه بالأسئلة.

يومها رد عمرو موسـى بأن مصر سـبق لها أن قررت الاعتراف باستقلال كرواتيا.. والآن تقرر الاعتراف بانفصال واسـتقلال البوسنة والهرسـك عن يوغوسلافيا.. وأن مصر ستختار سفيرها لدى البوسنة والهرسك خلال أيام.

وسـأله أحد المندوبين الصحفيين: سـيادة الوزير. بعد سفيرنا لدى البوسـنة.. من ستختارون ليصبح سفيرنا لدى الهرسك ؟

ظهرت علامات المفاجأة فورا على وجه عمرو موسـى وسكت لحظتين متدبرا أمره قبل أن يرد على الصحفى السـائل بغيظ كظيم: ياابنى.. البوسنة والهرسـك جمهورية واحدة.. دولة واحدة.. فحينما أتحدث عن سفيرنا لدى البوسنة فعليك أن تفهم ضمنا أنه سفيرنا لدى جمهورية البوسنة والهرسك.

والآن.. مالنا والسياسة ؟

فـي الواقع إننى استسـلمت لمباريـات كأس العالم فى رغبة متعمدة للابتعاد عن السياسـة.. أو الراحة من السياسـة. وحتى حينما خاضت نيجيريا مباراتها التى أصبحت الأخيرة بالنسـبة لها تلقيت فى البداية مكالمة تليفونية مختصرة، قلت لأصدقائى الجالسين معى بعدها: إننى سأبشرهم بالخبر القنبلة.. نيجيريا ستنهزم فى هذه المباراة وستخرج من كأس العالم.

توجـه اصدقائى بأبصارهم نحوى كما لو كنت قد أصبحت من غرائب الطبيعة.. فهم لم يعهدوا فـي من قبل بالمرة أية ثقافة كروية ولا حتى حماسـا كرويا. ثـم إن نيجيريا فريق مهم ومتميز فى أسـلوب لعبه.. وفوق هذا وذاك فقد أصبح الوحيد الممثل لإفريقيا. ولولا بقية اختشاء.. لكان أحدهم قـد قال لى مسـتنكرا: حتى أنت يابروتس؟ تتخلى عن نيجيريا وقـد أصبحت أمل افريقيا الوحيد الباقى أمام العالم؟

كان الشـوط الأول قد اقترب من نهايته حينما باغتنى أحد الأصدقاء بسـؤاله المفاجئ: من الذى كان يحدثك فى تلك المكالمة التليفونية الأخيرة التى كانت ردودك فيها مختصرة؟

قلبت المسـألة فى خاطـرى للحظات مترددا بين الافصاح من عدمه. فى النهاية الكرة أسـرار.. وليس كل ما يعرفه المرء قابل للنشر. أخيرا قلت له: من كان يحدثنى.. مصدر مطلع.

قبل أن يهم صديقى هذا بسؤال آخر كانت مجريات المباراة قد بدأت تفصح عن نفسها فى شاشة التليفزيون، والمعلق التليفزيونى من هناك فى فرنسا وعلى الهواء مباشرة يقول مغتاظا بحدة: لا لا يانيجيريـا.. ده مش لعب.. اللعب ده يصلح لو كنتم بتعملوا تمرين مع بعضكم لكن ده اسـمه كأس العالم فاهمين يعنى إيه كأس العالم ؟

أصيب أصدقائى الجالسـين معـى بمزيد من الاحباط مع المزيد من الدقائـق والمزيد من المعلق فى الشـوط الثانى: الحقيقة ياجماعة «الذين هم نحن - جمهور المشـاهدين» انـا مش قادر افهم فريق نيجيريـا الليلة دى خالص. هل هم يعاقبون أنفسـهم؟ أو يعاقبون جمهورهم؟ أو مدربهم؟ أو انهم يعاقبون إفريقيا ؟

لا.. لا.. لا..

وخرجت نيجيريا من الكأس.. وبانحدار مذهل مفاجئ فى مستواها الكروى.

□□□

أما فى مباراة البرازيل والنرويج فلم يكن مثل هذا الاحتمال واردا بالمرة. البرازيل هى البرازيل. علـى الأقل فى كرة القدم. لكن المكالمة التليفونيـة إياها وردتنى، بعدها فقط قلت لمجموعة الأصدقاء والصديقات فى منزلى: يبدو ياجماعة إن الليلة ستنتهى بفوز النرويج وهزيمة البرازيل.

انتفض الجميع بصوت واحد وكأننى أصبحت عدوا هبط عليهم بالمظلة فجأة لا.. لا.. هذا افتراء. أنت لاتقدر خطورة كلماتك فى هذه المرة.. لكن.. انظر فى الشاشة إلى لاعبى البرازيل، هم أول من يدرك خطورة الموقف. هم يعرفون أن هزيمتهم تعنى أن يعودوا إلى بلدهم أشلاء.

ثم تفتق ذهن أحدهم عن السؤال المتكرر المباغت: نريد أن نعرف سر هذا التليفون الغامض الذى يوحى لك بنتيجة كل مباراة مقدما..

قلت له: هذا خط ساخن مع غرفة الكونترول.. والطرف الآخر يحدثنى من الكونترول..

تهكم السـائل بحدة: كونترول؟ هو إحنا فى امتحانات الثانوية العامة؟ ده اسـمه كأس العالم. هذه فرق تعبر عن دول، والدول هنا تدافع عن رصيدها وتاريخها وسـمعتها الكروية، فى الآخر.. تقول كونترول ؟

لم أكن أقل غيظا منهم جميعا، إنما الكرة خبرة، والخط الساخن.. ساخن. فى نهاية المطاف سحب الجميع سخريتهم بمرارة حينما انتهت الليلة فعلا بفوز النرويج وهزيمة البرازيل. بعدها فقط بدأ اصدقائى يأخذون كلماتى الكروية بجدية، وقبل كل مباراة تالية أصبحوا هم الذين يتطلعون إلى التليفون بجوارى متسائلين: الخط الساخن مع الكونترول اشتغل؟

❑❑❑

لا لم يشتغل – بعد – والمسألة كلها أن لى صديقة مدهشة فنانة فى مجالها وناجحة فى فنها، لكنها متبحرة أيضا فى كرة القدم وتاريخها وأحوالها حول العالم. وحينما فوجئت بأننى أصبحت متابعا لمباريات كأس العالم فى فرنسا، وأننى أفعل ذلك بحثا عن استراحة عقلية من السياسة، فاجأتنى بأن الكرة هى أيضاً سياسة والأدلة عندها قائمة.. دليلا بعد دليل بعد دليل.. خصوصا بالنسبة لكرة المحترفين.

فى البداية كنت أندهش. لكن مع صدق توقعاتها فى المباريات الحاسمة بدأت أقلق ثم أنزعج. لقد أعادتنى المسألة إلى ذكريات الصبا حينما كنا نذهب، كمجموعة، لمشاهدة فيلم سينمائى جديد ثم يجئ إلى جوارى أو خلفى أو أمامى زميل لكى يهمس فى أذنى بين وقت وآخر: الآن سيقع البطل على الأرض.. بعد قليل سيصبح فى المستشفى ويخرج أعمى.. لاتقلق، بعد أن تحبه البطلة سيقع على السلم.. شفت؟ الآن سوف يسترد بصره.. الخ.

هو إذن.. هذا الزميل.. كان يسبقنا فى كل مرة لكى يشاهد الفيلم قبلنا جميعا، حتى يجئ معنا ويحكى لنا أولا بأول، فيفسد علينا متعتنا. لكن كأس العالم ليس فيلما مستمر العرض، وصديقتى هذه لاتقصد بالطبع إفساد شعورى بالمتعة، فقط هى مقتنعة بأن السياسة لم تترك شيئا إلا وتدخلت فيه.

وصديق آخر.. هو الزميل الصحفى عبداللطيف خاطر المحرر الرياضى بجريدة «الجمهورية»، كان قد أصدر كتابا بعنوان «المونديال الفرنسى ٩٨» وأهداه لى قبل سفره إلى فرنسا بأسبوع واحد ليتابع من هناك مباريات كأس العالم. كنت أجلت قراءة الكتاب إلى حين ميسرة لكننى فجأة وجدتنى أستعين به. وفجأة أيضا وجدت فى الكتاب تقييما للفرق المشاركة يكاد يتنبأ فيها بالمسار الفعلى لنتائج المباريات بعد ذلك.

إنما المهم هنا فى هذا الكتاب، والجديد حقا بالنسبة لى، هو ذلك التحالف العريض من الشركات العملاقة المستفيدة من «المونديال» فى ترويج سلعها ومنتجاتها، أكثر من ١٨٥ شركة من بينها ٨٠ فرنسية جرى اختيارها بواسطة الاتحاد الدولى لكرة القدم (الفيفا) لترويج نحو ٤٠٠ سلعة بهدف تحقيق مبيعات تتجاوز ١٣٠٠ مليون دولار ٤٠٠ منها فى فرنسا والباقى حول العالم.يعنى العنوان

كرة والمضمون اقتصاد والتنظيم سياسة والأدوات لاعبون وأندية والخلاصة دنيا المحترفين – التى تختلف بالكامل عن عالم الهواة – إنهم العاشقون الحقيقيون للرياضة.

أما بالنسبة لصديقتى المتبحرة كرويا فالمسألة – حتى – تتجاوز ذلك كله. هناك مصالح عاتية من شركات وعصابات وغسيل أموال ومراهنات وتبادل منافع وقتال على نفوذ ومئات الملايين من الدولارات يجرى كسبها أو خسارتها مباراة بعد مباراة. هذه كرة المحترفين التى لامكان فيها للهواة. لاعب ثمنه ٣٠٠ ألف دولار ولاعب ثمنه ثلاثون مليون دولار. شركة أحذية رياضية مثلا تتعاقد مع أكبر لاعب فى فريق البرازيل – رونالدو – لاستخدام انتاجها دعاية لها.. وشركة بطاقات ائتمان تستخدم بيليه – نجم البرازيل الأسطورة فى الستينيات – داعية لها.

هكذا لم أعد أتابع مباريات فقط، ولكن حركة اقتصادية وسياسة أيضا. فهمنا.. البرازيل هم السامبا، وفرنسا هم الديوك، وهولندا هم الطواحين، والمانيا الماكينات، وبريطانيا الأسد.. الخ.

لكن الجديد فى هذه المرة والاكثر انتشارا هم فريق «الشواكيش». فليلة بعد ليلة ومباراة بعد مباراة، هناك عشرات من الشركات تدفع ملايين بعد ملايين للترويج للسلع التى تنتجها قبل وأثناء وبعد كل مباراة. أصناف وأصناف من الساندويتشات والفطائر والبطاطس المقلية والأزياء والسيراميك والمنتجات الغذائية وأجهزة التكييف والثلاجات والسيارات والفيلات الفاخرة.. الخ. وكل اعلان تليفزيونى يحرض الأطفال والنساء خصوصا حتى تقول المرأة لزوجها الجملة الناقصة غير المنطوقة: بذمتك دى عيشة إللى احنا عايشينها؟ ياراجل قوم فز.. اتحرك.. هات لنا الأحلام السحرية دى حتى لانتخلف عن غيرنا..

وبالتدريج تصبح كل واحدة من هؤلاء السيدات عضوا فى فريق «الشواكيش». تخبط بانتظام رأس زوجها أو فتى أحلامها لكى ينهض ويصلب طوله ويهز عرضه ويفرغ جيبه. وبالتدريج أيضا نجد اللاعبين النجوم وقد تحولوا إلى مجرد وسائل للترويج والاعلان.. تماما كعارضات الأزياء اللاتى تصبح كل واحدة منهن ملتزمة بمقاييس محددة لرشاقتها طوال مدة سريان التعاقد معها.. قبل أن تحال إلى التقاعد لصالح فتيات أصغر وأجمل وأكبر قدرة على جذب المزيد من المستهلكين.

□□□

حينما انهزم فريق جنوب افريقيا فى مباراته الأولى كان نيلسون مانديلا رئيس جمهورية جنوب إفريقيا المخضرم هو الذى بادر بالاتصال تليفونيا بأعضاء الفريق فى باريس ليقول لهم مطيبا خواطرهم: ياأبنائى الأعزاء.. الفوز مهم فى الرياضة.. لكن المتعة أكثر أهمية.

وحينما انهزم فريق المانيا بحضور هيلموت كول، عاد كول ليعلن كمستشار (رئيس وزراء) لبلاده: هناك درس مهم خرجنا به فى هذه المرة.. فإذا كان علينا أن نعيد تأكيد مكانة كرة القدم

الألمانية فى المسرح الدولى يصبح علينا أن نبدأ فورا فى الاهتمام بجدية بمستوى الرياضة - كل انواع الرياضة - فى مدارسنا.

هـذه نظرة حكيمـة تتعامل مع كرة القدم، والرياضة عموما، باعتبارها هواية وليست حرفة، متعة وليست قتالا، روحا رياضية وليست قاتلا وقتيلا، توظيفا للرياضة لحساب ترقية البشر.. وليست تسخيرا لنجوم الرياضة لحساب شركات تريد أن تبيع وتبيع وتبيع.. بمن فى ذلك اللاعبون أنفسهم.

□□□

فى مقابل ذلك هناك نظرة أخرى يلخصها رد فعل الفائز والمهزوم فى بطولة كأس العالم الأخيرة. فى فرنسا مثلا هتف الجمهور «واحد اثنين ثلاثة صفر» إشارة إلى النتيجة الفعلية ضد البرازيل فى مباراة الختام، وبعدها رددوا النشيد الوطنى (المارسيلييز). أما فى البرازيل فقد خرجت صحيفة كبرى لكى تعلن أن مدرب الفريق البرازيلى خسر المعركة الحاسمة فى المونديال، هذه معركة ووترلو البرازيلية.. فى تشبيه بمعركة ووترلو التى خسر فيها نابوليون بونابرت حربه ضد أوروبا فى القرن التاسع عشر.

فى الصباح التالى ليوم «ووترلو» كنت أتابع ثلاثة أخبار. فى هونج كونج وحدها - ومع أن المراهنات غير مشروعة - خسر المقامرون ٥٢ مليون دولار أمريكى بسبب فوز فرنسا على البرازيل. فى المكسيك أشارت تعليقات الإذاعة بلهجة تشكك إلى أن البرازيل.. ربما تكون قد باعت المباراة وتساءل المعلق: كيف يمكن لمثل هذا الفريق وهو من الطراز الأول فى كرة القدم على مستوى العالم أن يظهر بهذا المظهر السيىء ؟ هل باعوا المباراة ؟

فى إيطاليا قامت جريدة كبرى باستطلاع آراء ألف من قرائها عن تفسيرهم لهزيمة البرازيل وأجاب ٥٢٪ أن تفسيرهم هو: التواطؤ.

أما فى القاهرة ؟ حسنا. طلبت صديقتى المتبحرة كرويا لأهنئها على صدق توقعاتها وأقول لها متسائلا: الآن عرفنا أن كأس العالم قد ذهب إلى فرنسا، لكن «سوزانا» خطيبة «رونالدو» لاعب البرازيل الأشهر لم تحضر المباراة النهائية. فى قاموسك الخاص.. هل كانت هى أيضا تعرف النتيجة مسبقا ؟

ردت صديقتى المتبحرة بتساؤل مضاد: ربما راحت مع الكأس ؟

وفى اللحظة التالية جاء تساؤلها الآخر: لماذا تستبعد، من قبل ومن بعد، أن سوزانا هذه مجرد مندوبة دعاية أخرى لدى «الفيفا» ضمن مئات من حالات جذب المستهلكين.. يا حضرات الرجال المحترمين ؟

أرز وحب ..
وحقوق إنسان !

قبل سنوات قليلة جرت في مصر موقعة كبرى، موقعة موضوعها هادىء مع أن الجدل الذى أثارته شديد الصخب. وطوال «الموقعة» لم يتردد - ولا لمرة واحدة - أى شيء من الكلمات والعناوين ثقيلة الوزن فضفاضة المضمون من التى يراها الشخص العادى بضاعة أهل الاختصاص. عناوين مثل «العولمة» أو «الكوكبة» أو «القرية الكونية» أو «الجات» أو «منظمة التجارة العالمية» أو «تحرير التجارة» أو «الاندماج» في الاقتصاد العالمى أو.. أو.. أو..

لا. لا. لا. الموضوع فى هذه المرة شديد البساطة وإن كان - فى بساطته - يقع بالضبط فى صلب السؤال الأكبر: كيف يجب علينا أن نعيش.. ونفكر؟

هناك حلقات تليفزيونية مسلسلة من انتاج أمريكى عرضت لفترة طويلة فى القناة الرئيسية بالتليفزيون المصرى، وفى وقت الذروة من حيث الإقبال الجماهيرى.

حلقات بعنوان «الجرىء والجميلات».

فأما «الجرىء» فاسمه «ريدج» ومعه عائلته التى تعمل فى تصميم الأزياء وانتاجها. فى هذا السياق طبعا هناك الكثيرات من الحسان الجميلات، بل ربما المبهرات فى الأناقة والجمال من وجهة نظر الجمهور الطبيعى الموجهة إليه الحلقات. جمهور من المراهقين والمراهقات. وهو بالفعل أكثر شرائح الجمهور التى تحقق شعبية سريعة وكاسحة لمثل تلك الحلقات اليومية.

يعنى لو جئنا مثلا بعارضات أزياء من نوع سيندى كراوفورد وكلوديا شيفر ونعومى كامبل وأخريات مثلهن بالعشرات - طولا ورشاقة وأناقة - فلن يكون الفارق كبيرا عن الحسان الجميلات فى هذا المسلسل.

فى الحلقات أيضا كل المبهرات المعتادة هنا من «مصنع الأحلام» المصورة - سينما وتليفزيون - فى هوليود. هناك جمال وأناقة وعطور تكاد تخرج من الشاشة لتخدر المتفرجين وتدغدغ حواسهم، وهناك أيضا جنس وعنف وجريمة وإثارة وثراء سريع وأموال سهلة مصدرها صناعة الأزياء.

ومن خلال سيناريو محبوك غالبا وحوار سريع الإيقاع يجد المتفرج أمامه أنماطا سلوكية جذابة ومغرية. فالمرأة العصرية مثلا – حسب ما يوحى به المسلسل ـ يعتمد جزء أساسى من عصريتها على أن تلاحق الموضة المتجددة فى الأزياء سنة بعد سنة، بل موسما بعد موسم. والمال هنا لا يهم.. فكلما دفعت المرأة أكثر حصلت على أزياء تجعلها أكثر أناقة. وخبراء الأزياء يبدون بأهمية علماء الطاقة النووية.. وربما أكثر فالأزياء صناعة استراتيجية عويصة ولها أسرار كبرى تستحق التجسس وأجهزة الأمن وجمع المعلومات ومطاردات المنافسين وتلصص الخصوم ورحلات بطائرات خاصة ويخوت وسهرات ومؤتمرات صحفية و.. فى لمح البصر تتدفق الثروة بملايين الدولارات مكافأة للجهد الخارق والابتكار المدهش من مصممى الأزياء!

❑❑❑

هناك الإباحية الخارجة عن كل إطار، والدخلاء الجدد من أصحاب بيوت الأزياء – الدخلاء الفقراء – كل طموحهم هو أن يصبحوا أعضاء جدد فى نادى الأغنياء.

لكن الباب الوحيد المكن أمامهم هو أن يتصرفوا كخدم أو كلصوص. أما إذا أرادوا الاختصار والسرعة فالطريق هو العلاقات الخاصة. مشروعة إذا أمكن، وغير مشروعة إذا لزم.

هناك طموح ونجاح. لكن الطموح محوره المال. والنجاح قيمة مستقلة بذاتها بصرف النظر عن المشروعية والارتباط بمجتمع. نجاح له طريق غير مضمون هو العمل المنتج. وطريق أسهل هو الانفصال عن القيم واختصار الطريق من خلال الجريمة أو الخيانة الزوجية أو التجسس داخل الأسرة الواحدة أو الحمل غير المرتبط بزواج.. آلخ.

هناك صحافة أيضا تخاطب قراء. لكن الصحافة الناجحة هنا هى التى تصبح جزءا عضويا من تلك الماكينة الكبرى الواصلة حتما إلى كل بيت والقادرة على ممارسة كل نفوذ. والصحافة الناجحة هنا يجب عليها أولا أن تكسب رضاء هؤلاء المخرجين – مصممى الأزياء والشركات الضخمة التى تديرهم – فتروج لأفكارهم وتبشر بمبتكراتهم وتكتب عن نجومهم وتلح على القارئات بأزيائهم.. الخ.

❑❑❑

هذه الحلقات – «الجرىء والجميلات» – جرى عرضها إذن فى التليفزيون المصرى يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر.. إلى درجة أن كثيراً من الأمهات اكتشفن فجأة أن بناتهن منبهرات بما يجرى فى كل حلقة. حينما يفور دم الأم من بعض ما تراه وتغلق التليفزيون تكتشف فى اليوم التالى أن البنات فى المدرسة أو عبر التليفونات يستكملن من بعضهن البعض ما يكون قد فات بسبب سطوة الأمهات.

❑❑❑

حدث أيضا – وبالصدفة البحتة – أن عرضت القناة الثانية فى التليفزيون المصرى حلقات أخرى بعنوان «أوشـين». حلقات يابانية الإنتاج كان قد سـبق عرضها فى وقـت «ميت» من حيث الإقبال والمشـاهدة.. فلم تلفت نظر كثيريـن. لكن أمام خلل مفاجىء فى خريطة البرامج بالقناة الرئيسـية رؤى إعـادة عرض حلقات «أوشـين» فى وقت الـذروة.. فقط لمجرد أن البديل المقـرر لم يكن جاهزا – بعد – لدى التليفزيون.

يوم واثنان.. أسبوع وأسبوعان.. وإذا بحلقات «أوشين» هذه تكسب شعبية متزايدة بشكل متضخم وغير مسـبوق.. بما جعلها تصبح موضوع مقارنة داخل البيـوت وعلى صفحات الصحف. الحلقات مستوفية لكل الشروط الفنية اللازمة لمسلسل تليفزيونى يعرض على ملايين الناس فى البيوت.. من حيث التصوير والإيقاع والسيناريو والحوار.. الخ.

□□□

لكن.. من تكون «أوشـين»؟ إنها بطلة الحلقات..كما أنها جدة أذهلها أن أحفادها بدأوا يتقاتلون على الثروة والفلوس من حيث هى. ومن ثم.. فقد بدأوا يتصرفون كرجال أعمال متوحشـين بصرف النظـر عـن علاقاتهم بعضهم ببعـض أو بعائلاتهم أو بالمجتمع.اختفت السـيدة «أوشـين» مع أحد أحفادها القريبين إلى قلبها. ومن خلال رحلتها نبدأ فى متابعة بدايتها كطفلة لدى أسـرة شـديدة الفقر كثيرة العيال تعمل بعيالها أجراء فى زراعة الأرز.

وقبل الاسترسال أريد هنا أن أفتح قوسين. فالأرز اليابانى هو من أسوأ أنواع الأرز التى تذوقتها فى العالم.

واليابانيون أنفسـهم لا يجادلون فى تلك الحقيقة. مـع ذلك، ورغم أن اليابان الآن من أغنى دول العالم، إلا أن السـائح اليابانى الذى يعود إلى طوكيو مثلا ومعه كيلوجرام واحد من الأرز المستورد، لا تجرى مصادرة الأرز فقط، ولا إلزامه بدفع غرامة، ولكن القانون يفرض عليه عقوبة الحبس!!

هذا لا يعنى أن اليابان تعامل مواطنيها بقسوة وغلظة، ولا أنها ترفض من مواطنيها السعى إلى حياة أفضل. أبدا. هذا يعنى فقط أن الأرز هو رمز تاريخى لصراع المواطن اليابانى مع قسوة الطبيعة وسوء التربة. رمز للبقاء. وللاستمرار وللاعتماد على النفس. فمهما اغتنت اليابان.. إلا أنها لا تريد من مواطنيها أن ينسـوا للحظـة واحدة أهمية الاعتماد على الذات، خصوصا فى سـلعتهم الغذائية الأولى وهى الأرز. هذا أرز أقل جودة من أى نظير مستورد. لكنه أرزنا. نحن نزرعه. نحن نأكله. نحن نعتمد عليه.

انتهى القوس.. ونعود إلى «أوشـين». فجأة بدأ الجدل سـاخنا على صفحات الصحف المصرية. هل ينقصنا هذا الحديث عن الفقر والفقراء؟ ثم أى أرز؟ المحصول قليل وعلى اليابانيين أن يشـغلوا

مخهم ويفتحوا خزانتهم ويستوردوا كل الأرز الناقص وعندهم أمريكا جاهزة تصدر لهم أرزاً أفضل وأرخص وبينهم وبينها فركة كعب. مش عاجبهم أمريكا؟ احنا مستعدين نصدر لهم أرزنا وبفلوسهم سنأكل جاتوه. ثم.. أي «أوشين؟» أهلها يبيعونها بشوالين رز؟ احنا ما لنا؟ أليس ريدج وجميلاته أفضل وأمتع؟ وإذا كان رجال التليفزيون المصرى معجبين إلى هذا الحد بأوشين وأرزها.. فلماذا لا نعطيهم إجازة مفتوحة ليهاجروا إلى اليابان؟

لم يكن رجال التليفزيون هم المعجبين بحلقات «أوشين» بدليل أنهم من قبل اختاروا لعرضها وقتا ميتا وهم فى هذه المرة يعرضونها فى وقت الذروة علاجا لورطة وليس اقتناعا بمضمون. لكنهم الناس.

الناس أنفسهم الذين يستمدون متعتهم وثقافتهم الشعبية من التليفزيون هم الذين أقبلوا على مشاهدتها بشكل غير مسبوق جعل الحلقات تصبح مثار نقاش فى البيوت. لقد شقت الحلقات طريقها إلى قلوبهم بغير عنف ولا جريمة ولا جنس صارخ ولا خيانات زوجية أو ثراء سريع يهبط من السماء بلا مجهود.

وأوشين صبية فقيرة جاهلة جائعة باعتها أسرتها إلى سمسار مقابل جوالين من الأرز. والسمسار باعها بدوره إلى أسرة فى المدينة تعمل فى تجارة الأرز. هى لا تعيش سنها ولا طفولتها ولا أحلامها. فقط هى تعيش لتعمل. وفى عملها، سواء كان بسيطا أو وضيعا، هى تريد أن تتقنه. الاتقان هنا هو المفتاح.. ليس فقط لكى تستمر هى لدى الأسرة.. ولكن أيضا لكى تبعث بأجرها أولا بأول إلى أسرتها فى أعماق الريف.

هى أيضا تتطلع حولها. لماذا الصبايا فى سنها أفضل؟ لأنهن يذهبن إلى المدرسة. إذن عليها أن تعتمد على نفسها وتتعلم القراءة والكتابة. عليها أن تكون أول من يستيقظ وآخر من ينام. لم يقل لها أحد ذلك لكن الحياة هى التى تفرض عليها قانونها غير المكتوب. والقيمة الأولى فى الحياة هى قيمة العمل. بالعمل تصبح أقوى وأصلب عودا. وبالإعتماد الكامل على النفس تجعل نفسها موضع اعجاب من الجميع. وموضع ثقة ايضا. طالما هى تعمل، وتعمل باتقان، فإن الحياة ستعطيها بقدر مجهودها. هى تكبر أمامنا على الشاشة حلقة بعد حلقة وفى تطورها يتعاطف المشاهدون معها لأنهم بالفعل أصبحوا يصدقونها. والمصداقية هنا هى أهم القيم على الإطلاق فى أى عمل فنى.

أما فى حلقات «الجرىء والجميلات» فإن الحياة لونها بمبى. لا أحد يعرق لأن الجميع فى مساكن ومكاتب مكيفة الهواء. ولا أحد يمرض لأن أفضل الأطباء جاهز للمجىء فورا بمجرد تليفون. ولا أحد يجوع لأن مجتمع صناعة الأزياء لا يعرف الجوع. يعرف فقط الموضة والأناقة والتباهى بأحدث الأزياء والتفاخر بأسرع الصفقات.

ومع أن المشاهد هنا - سواء مشاهد حلقات «أوشين» أو مشاهد حلقات «الجرئ والجميلات» - هـو مصرى يتكلم العربية. إلا أن دنيا الأزياء توهمه فقط لكنه يوهم نفســه أيضا بأنه أصبح جزءا من هذا الخدر اللذيذ الذى يتدفق أمامه فى شاشة التليفزيون. لا تفكير ولا إجهاد ولا عقل ولا وجع دماغ. فقط. عطور وجمال وأناقة وجنس وعنف وجريمة ونفوذ يسمح بالخروج من الجريمة فى كل مرة كما الشعرة من العجين.

❑❑❑

تلك كانت هى المشــكلة الحقيقية فى الواقع. مشــكلة أن كلا المسلســلين يعرض منظومة مختلفة تماما من القيم.

فى «الجرئ والجميلات» هناك الفردية الشــديدة ولا شــىء غيرها. الإنســان هنا صفته الأولى هى أنه جشــع. وطموحه الأساسى هو المال. والمال يجب أن يجىء على حساب أى اعتبار آخر.. فلا يهــم أن يكون النجاح على جثث الآخريــن. ليس هناك «آخرين». الموجود هو «أنت» و «أنت» فقط. وبتلك الصفة على المرء أن يســعى إلى المال من أســهل طريق ويتحول إلى مستهلك بأسرع ما يمكن. لا تفكر فى أســرة ولا فى مجتمع ولا حتى فى أب أو أم لأن مصير أى منهما - لحظة الشــدة - هو دار المسنين.

فى «أوشين» هناك أيضا حلم الخروج من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع، وقد تحقق هذا فى نهاية المطاف. لكنه تحقق من خلال العمل الشــاق والاعتماد على الذات والارتباط بالمجتمع والتضحية فى ســبيل الأســرة أو الجماعة والولاء للقيم العائلية. حينما تمرض أم «أوشــين» فإنها تصبح ممرضتها وطبيبتها. حتى لو كانت الأم تريد بجدية أن تخفف من حمل ابنتها.. لكن أوشين ترفض تماما لأن تخليها عن أمها فى لحظة ضعفها ومرضها هو منتهى العيب. وحينما تشتاق الأم مكانها الحبيب، مكان الصبا، فإن أوشين تحملها على ظهرها بتصميم وصلابة ومشقة. لكن كل المشقة تهون فى سبيل أن تدرك الأم لحظة سعادة.. تشتاق إليها قبل الرحيل إلى العالم الآخر.

هناك أيضا لحظات من الهزيمة. كثير من لحظات الهزيمة. أحيانا بسبب الطبيعة ذاتها، وهى فى الحالة اليابانية طبيعة شــديدة القســوة.. زلزال مثلا. بعده تعود «أوشــين» لتكتشف أن كل ما ادخرته وتعبت فى سبيله تبخر فى غمضة عين. الآن يعود شبح الفقر من جديد.

لكــن فى قاموس «أوشــين» يصبح الفقر مجرد امتحان آخر لصلابــة الإرادة وقوة العزيمة. الفقر امتحــان. لكن الجريمة الحقيقية هى أن نرضى به أو نستســلم لــه. والهزيمة واردة. لكن الأهم من الهزيمــة هو الإصرار على تحديها وتحويلها إلى انتصار مــن خلال العمل والابتكار والتكاتف مع الآخرين.

كل تلك المعانى تشـعها حلقات «أوشـين» بغير مواعظ ولا معلبات.. بل بالتزام كامل بمقتضيات الانتاج الدرامى التليفزيونى الناجح والجذاب.. وليس مطلقا بشكل مباشر.. أو قريب من المباشر.

❑❑❑

المهم هنا شـىء أساسـى، وهو أن معظم الذين روجوا لحلقات «الجـرىء والجميلات» وهاجموا حلقات «أوشـين» هم فى اليوم السـابق واليوم التالى الأشـخاص والأقلام نفسـها التى تروج لفكر «العولمة». وضرورة الانفتاح على الآخرين و.. كفانا تخلفا وانغلاقا وجمودا وانعزالا وتمسـكا بقضايا عفا عليها الزمن. لكن فى التطبيق تبين أن المقصود ليس انفتاحا على الآخرين، ولكن على نمط محدد من الآخرين. اذن: يعيش النموذج الأمريكى فى الحياة ويسقط النموذج اليابانى.

هذه هى المشكلة الأولى المثارة الآن بشأن «العولمة» والهوية الثقافية.

فالشـركات العابرة للقارات المتعددة الجنسـيات تروج حول العالم لنموذج محدد دون غيره من خلال وسائل الإعلام والثقافة الشعبية.

ليس الموضوع «يسـار فى مواجهة يمين».. أو «اشـتراكية فى مواجهة رأسـمالية». لكن الموضوع يتعلق بنموذج محدد من الرأسـمالية، هو تلك الرأسـمالية المتوحشة التى تضع الفرد قبل المجتمع، والاستهلاك قبل الإنتاج والمال قبل القيم.

ولو كانت حلقات «أوشـين» تلك فرنسـية أو ألمانيـة الإنتاج مثلا.. فإنها كانت سـتواجه أيضا الهجوم نفسه ومن الأشخاص والأقلام وأصحاب التوجه نفسه.

وبلادنا لم تكن فى أى وقت منعزلة عن الآخرين ثقافيا. لكن المشكلة ظلت هى الإلحاح عليها باستمرار للارتباط بالنموذج الغربى أولا.. ثم بالنموذج الأمريكى تحديدا مؤخرا، دون باقى النماذج الغربية.

والنموذج الأمريكى ناجح تاريخيا فى إطار حالته الخاصة، هو بالفعل يصلح لأهله. لكنه ارتبط بظروف محددة وسـياق تاريخى محدد وإطار قيمى محدد. الآن يريد هذا النموذج أن يفرض سطوته وهيمنته على مستوى العالم كله، بما فى ذلك النماذج الغربية الأخرى فى أوروبا. وهذا هو التحدى الكبير.. ليس بالنسبة لنا فقط فى دول الجنوب.. ولكن حتى فى دول الشمال ذاتها.

وأبسـط دليل على ذلك هو أن الخمس عشـرة دولة الأعضاء فى «الاتحاد الأوروبى» هى. جميعاً دول رأسـمالية، ومعظمها متحالـف مع الولايات المتحدة الأمريكية عسـكرياً ـ على الأقل ـ وكلها أجزاء من الحضارة الغربية. مع ذلك فأحد القوانين المعمول بها فى دول «الاتحاد الاوروبى» هو أن يكون واحداً وخمسـين بالمائة على الأقل من المواد الدراميـة المعروضة تليفزيونيا من إنتاج أوروبى. هذا بدوره فتح معركة كبرى، ما تزال جارية، خلال مفاوضات «الجات» التى أدت إلى قيام منظمة التجارة العالمية.

فباسم حرية التجارة العالمية تصر الولايات المتحدة على إزالة أية قيود تمييزية في دول «الاتحاد الأوروبي» لصالح الانتاج التليفزيوني المحلي وضد الانتاج الأمريكي.. ودول «الاتحاد الأوروبي» ترفض بإصرار هذا الطلب الأمريكي كجزء من إصرارها على أن تكون لها هويتها الثقافية الخاصة المحصنة ضد الذوبان في الهوية الأمريكية التي تروج بدورها لنموذج الرأسمالية المتوحشة والفردية الصارخة.

المشكلة الأخرى هي أن «العولمة» في هذا الإطار مطلوب منها أن تكون في اتجاه واحد ثقافياً واقتصادياً هو الاستقبال وليس الإرسال. وقد حدث مرة أن تفاوض جيمي كارتر أثناء رئاسته للولايات المتحدة مع الصينيين، ضاغطا عليهم بشعار عريض هو «حقوق الإنسان».. وأن من بين تلك الحقوق مثلا الانفتاح بدرجة أكبر على الإنتاج السينمائي والتليفزيوني الأمريكي، لأن المواطن الصيني يجب أن يكون له حق الاختيار.

يومها استمع إليه رئيس وزراء الصين بكل هدوء وتهذيب، ثم عرض على الرئيس كارتر فكرة بسيطة وعملية تماما.

قال رئيس وزراء الصين للرئيس الأمريكي: ماذا لو نفذنا هذا الانفتاح الثقافي الكامل الذي تلح به علينا تحت عنوان «حقوق الإنسان».. ثم حدث أن انبهر الصينيون بنمط وأسلوب الحياة الذي تروج له مسلسلاتكم التليفزيونية وأفلامكم السينمائية.. وصدقوا فعلا أن أمريكا هي أرض اللبن والعسل والمليون دولار تهبط على المرء في لمح البصر؟

ماذا لو أن مجرد عشرة بالمائة فقط من الشعب الصيني اختاروا الهجرة إليكم ليجربوا بأنفسهم؟ عشرة بالمائة من شعبنا تعني مائة وعشرين مليونا. كثير؟

طيب.. ماذا لو تكلمنا فقط عن ستين مليونا؟ أو ثلاثين مليونا؟ أو حتى عشرة ملايين؟ نحن من جانبنا سنعطيهم فورا تأشيرات خروج باسم حق الإنسان في حرية الانتقال والسفر. هل أنتم لحظتها مستعدون للوفاء من جانبكم بالصفقة، واستقبال هؤلاء الملايين العشرة في بلادكم؟ سيادة الرئيس.. من حقوق الإنسان أيضا حقه في اختيار المكان الذي يعيش فيه أو ينتقل إليه. فهل أنتم مستعدون؟

يومها لم يرد الرئيس الأمريكي وبدلا من ذلك فضل تغيير الموضوع!.

□□□



الفضيحة .. بجلاجل !

هذه الفضيحة تشبه - من بعض النواحي - ساندويتشات الوجبات السريعة التى تنشرها أمريكا حول العالم، وجبات تأكلها على الواقف، فى المطعم أو الشـارع أو البيت «لايهم» ولست مضطرا فى كل مرة إلى الذهاب إليها بنفسـك فهى تحت الطلب إلى مكانك مع فاتورة الدفع. سـريعة الإعداد مغرية الشـكل جذابة الدعاية. لها كل مظاهر الغذاء - لحم أو دجاج حسـب اختيارك - لكن فيها القليل من أى منهما. تعطيك وهم الشبع لكنها تصبح بعد فترة خصما من صحتك الغذائية. فى الواقع إن السـلطات الصحية داخل الولايات المتحدة ذاتها بدأت تحذر بشـدة من خطر تلك الوجبات على الصحة العامة.. وأيضا من لجوء بعض مطاعمها إلى إضافة مواد معينة إليها لخلق حالة من الإدمان لدى مستهلكها، كما النيكوتين فى السجائر.

لكـن حينما يتنبه المسـتهلك إلـى هذا كله تكون قد مضـت فترة كافية مـن الوقت جرى فيها الإدمـان - أو الاعتياد على الاستسـهال - وتكون تلك المطاعم قد تكاثرت بشـكل أكبر. فمقابل كل جنيه طعام تعطيه لك هى تكسب أربعة جنيهات، وبعد كل مرة من هذا الأكل «على الواقف» يكون المسـتهلك نفسه قد أصبح أكثر ابتعادا عن الغذاء الصحيح أو التعامل معه من خلال الحقيقة، وليس من خلال الصور اللامعة فى الإعلانات المكلفة التى تحاصرك على مدار اليوم.

فقط الفضيحة فى هذه المرة ممتدة معنا منذ عشـرة أشـهر على الأقل. وموادها هنا ليست مجرد نفايات لحوم أو دجاج. الآن نحن أمام بشـر حقيقيين ومتابعة على مدار الساعة وتنويهات متكررة عن أفعال تخدش الحياء.

وبالطبع.. هناك سياسـة وسـلطة ومراكـز عليا وعلامات اسـتفهام مفاجئة وشـهود يتفادون الكاميرات وقضاة ومحلفون. هذا ليس فيلما بوليسـيا آخر من انتاج هوليود. لكنه دراما فعلية على الهواء مباشرة فيها الكثير من بصمات هوليود.

لديـنـا أكبـر رأس فـى البلد، فهو «بيـل كلينتون» رئيس الولايـات المتحدة، ولدينـا فتاة فى الحادية والعشـرين عملت لبعض الوقت متدربة مرؤوسة لمرؤوسيه داخل البيت الأبيض الأمريكى

فى العاصمة واشـنطون، ولدينا تسـجيلات تليفونية ومكالمات بالهمس والرمز وهدايا تبطن بأكثر ممـا تعلن ومحقـق خاص مكلف من الكونجرس الأمريكي - البرلـمـان - بالتحقيق فى الفضيحة من طقطق إلى سـلام عليكم. طقطق.. وعرفناهـا.. ففى البداية أنكرها الرئيـس الأمريكي، وبالتدريج اعترف بها على دفعات.

فـى المـرة الأولى وقف الرئيس الأمريكي أمـام الكاميرات، وبكل ثبات وثقـة ركز عينيه على الكاميرا أمامه كمن يدب اصبعه فى عينى المشـاهد ليقول بكل تصميم وحزم: لم تكن لى أية علاقة حميمة مع تلك المرأة. وشـهرا بعد شهر استمرت التحقيقات والملاحقات والاستدعاءات والضبطيات والمحاصـرات، ذروتهـا محاصرة الرئيس الأمريكي ذاته لأكثر من أربع سـاعات. بعدها خرج هو نفسـه ليقـول بنفس الثقة والتأكد والتصميم: نعم كانت لى علاقـة غير ملائمة مع تلك المرأة وكنت مضطرا للكذب بشـأنها حماية لنفسـى ولزوجتى وابنتى، والآن دعونا ننسى هذا الموضوع ونستدير إلى القضايا الأكبر.

بعـد يومـين نبهه خلصاؤه إلى أنه، حتى، لم يعتذر.. فاعتذر. لم يذكر اسـم المرأة.. فذكره.لم يعبر عن ندمه. فعبر عنه. لم يعد بسلوك آخر.. فوعد. إذن .. ننسى الحكاية ونعود لشغلنا ؟

أبدا. فالرئيس الأمريكي ذاته أصبح هو «شغلنا». ليس شغل الأمريكان فقط داخل بلدهم، ولكن شغل العالم كله من أقصاه إلى اقصاه، وبتسهيلات أمريكية لتوصيل الوقائع والصور تليفزيونيا إلى المنازل.

❑❑❑

عند هذا الحد ظهرت ثلاث مدارس. هناك أولا مدرسـة «أنا عبدالمأمور» وخلاصتها هى: ما هذا الذى يحدث؟ هذا عيب كبير واقتحام للحرية الشخصية لمواطن شاء له حظه أن يصبح بدرجة رئيس للدولة. إخص.. لايجب أن يتعرض معاليه، رئيس النظام العالمى الجديد وسـيدنا وتاج رأسنا وبابا ومامـا وأنور وجـدى إلى كل هذه البهدلة. ثـم: من يكون هذا المحقق كينث سـتار؟ ابن مين فى واشـنطن ؟ والخلاصة: ولايهمك يا سيادة الرئيس.. ياسيادة الآمر والمأمور. عيال مفاعيص تتطاول عليك.. أصواتنا معك. قلوبنا معك. صحفنا معك. بترولنا فداك.

ثم هناك مدرسة ثانية خلاصتها هى: كم هى عظيمة أمريكا هذه. كم فيها من حرية وديمقراطية ومساواة أمام القانون بين أكبر رأس وأصغر هلفوت.. ناس منفتحين شفافين ليس على رأسهم بطحة ولا عندهـم مركـب نقص. إنهم حتى لا ينتظروا العالم لكى يتفـرج عليهم.. بل هم يلاحقون العالم برسائلهم الإخبارية المصورة.. طازة بطازة.. لكى تصبح الفرجة جماعة.. وعلى الهواء.

هناك مدرسـة ثالثة خلاصتها أن «الرئيس أيضا بشـر».. صحيح هو متزوج ولديه ابنة فى سنة أولـى جامعـة لكنه أيضا بشـر، عمل غلطـة؟ وماله. من فينا لـم يغلط؟ وعلى حـد تعبير باربارا

ستراپسند الممثلة اليهودية الصهيونية الأمريكية القريبة من كلينتون حينما صرخت في وجه المعترضين قائلة: نحن لم ننتخبه ليصبح بابا للفاتيكان في روما. لقد انتخبناه ليصبح رئيسنا في واشنطن.

□□□

هناك مدرسة رابعة. عيبها أنها ليست على البال وأحد رموزها صامت في قبره. إنه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية. وقتها دخلت أمريكا الحرب في جبهتين: في أوروبا ضد ألمانيا وإيطاليا.. وفي المحيط الباسفيكي ضد اليابان. واختار جورج مارشال ضابطا مقربا إليه تحت رعايته شخصيا لقيادة قوات الحلف في أوروبا هو الجنرال دوايت إيزنهاور. ومع أن إيزنهاور لم يكن ألمع زملائه إلا أن مارشال أسند إليه ذلك المنصب الخطير، حيث ستصبح مسئوليته هي قيادة قوات أمريكا وحلفائها ضد ألمانيا وإيطاليا.

وباختياره لإيزنهاور كان جورج مارشال يختار له مسبقا طريق الشهرة والمجد.. لأن الإعلام سيتابع صور وتحركات وإنجازات إيزنهاور بأكثر من رئيسه.. جورج مارشال نفسه.

ومع ذلك فقد تلقى جورج مارشال تقريرا من المخابرات الحربية بأن الجنرال دوايت إيزنهاور أصبح طرفا في علاقة غرامية مع ضابطة إنجليزية شابة، خصصها له الإنجليز بالذات لكي تصبح سائقا لسيارته في كل تحركاته داخل وخارج أوروبا. واكتشف جورج مارشال أن تلك العلاقة يدور بشأنها لغط كثير هامس بين الضباط الأمريكيين في لندن، ومنذ شهور عديدة سابقة.

وعلى الفور قام جورج مارشال باستدعاء الجنرال إيزنهاور لمقابلته في واشنطون. في المقابلة سأله مارشال مباشرة عن مدى صحة هذه العلاقة من عدمها.

وبشعور تلقائي من المفاجأة والضيق رد إيزنهاور: نعم ياسيادة الجنرال، لكن هذا شأن يخصني بمفردي. وبالكثير يخص زوجتي وأولادي هنا في واشنطن، هذه حياتي الشخصية، أليس كذلك؟

واحمر وجه جورج مارشال بلون الدم وبوجه صارم وعينين ناريتين خبط على المكتب أمامه مقاطعاً: لاياجنرال. أنت تعاني.. إما من جهل فاضح بمعنى الحرية.. أو بجوهر القيادة.. أو من كليهما معا. حينما تكون مواطنا عاديا في واشنطن جالسا في بيتكم تصبح تلك حياتك الشخصية والشأن فيها لزوجتك وأولادك.

لكن حينما تكون جنرالا في الجيش الأمريكي، وجنرالا بأربع نجوم، وتتولى مثل هذا المركز القيادي، فيجب أن تعرف أنه لم تعد لك حياة شخصية بالمرة، يجب أن تعرف أنه.. حتى حياتك الشخصية هنا.. تصبح من شئون القوات المسلحة الأمريكية، والآن عندي لك أمر عسكري محدد ومختصر.. اقطع هذه العلاقة فورا. مفهوم؟ انصراف.

لم يكن جورج مارشــال هنا متعســفا مع إيزنهاور - الذى أصبح نفســه رئيســا لأمريكا لثمانى ســنوات بعد ذلك - فقد كان مدركا بعمق لمعنى القيادة. فالقائد - على مســتوى شركة أو مؤسسة أو كلية أو محكمة أو محافظة أو دولة - لا يصبح قائدا لأنه أحد الملائكة لكن عليه أن يدرك أن القيادة تعنى القدوة والنموذج، واحترام منصبه ومسئوليته.

إنه قد يســتطيع الاستغناء بين وقت وآخر عن حب مرؤوسيه له طالما أن بعض قراراته لن تكون لها شــعبية. لكنه لو اســتغنى عن احترام الآخرين لسلوكه.. فإنه يتحول من «قائد» إلى «لص» فهو يسرق منصباً عاما من أشخاص آخرين مستعدين لإدراك مسئولية القائد.

أحيانــا تجد لصا لم يكتف بكونه لصا فزاد على ذلك التبجح فى تبرير لصوصيته. هو فاســد أو مرتش أو ســارق للمال العام أو عينه فارغة ويده فارغة. وبعد القبض عليه يقف فى المحكمة وفى تبجح يقول: ياسيادة القاضى.. لماذا أنا؟ البلد كلها لصوص.. لماذا أنا بالذات تحاكموننى ؟

طبعــا حينما تكون البلد «كلها لصــوص» فهى الكارثة وعلاجها الجذرى يكون خارج المحكمة. وإلى أن يحدث ذلك ففى المحكمة لابد لهذا اللص من العقاب لأنه جرى ضبطه متلبسا ولأنه يجب ردع الآخرين من خلال كل حالة تلبس.

فى حالة فضيحة الرئيس الأمريكى كلينتون مع المتدربة مونيكا كان يخرج من المشــكلة فى كل مرة كما الشــعرة من العجين. مرة لعدم توافر الأدلة أو لعدم وجود الشــهود أو لمضى المدة أو لبراعته هو نفســه فى اغتصاب اللغة والتحايل على الكلمات. إنه مثلا فى ســياق قضية سابقة، يقرر أنه لم تربطه مع مونيكا علاقة عاطفية، ثم يكرر نفس الشهادة فى سياق قضيته الأخيرة ولكن أمام محكمة فيدراليــة فى هذه المــرة. وحينما تحاصره الأدلة بعد الأدلة تكون حجته هى: لقد كانت شــهادتى السابقة صحيحة.. قانونا. والكلمات هنا دقيقة من حيث الصياغة اللفظية، لكنها كاذبة من الناحية الأخلاقية والموضوعية.

والمســتوى الأخلاقى فى فضيحة «كلينتون ـ مونيكا» هو المستوى الوحيد الذى يمكن أن يتسامح معه فيه الشعب الأمريكى، أو على الأقل نسبة كبيرة منه. والسبب هنا نؤجله لحظات قليلة. هناك أيضا مســتوى قانونى جوهره هو: هل كذب بيل كلينتون فى شهادته أمام المحكمة الفيدرالية بعد أن حلف اليمين، إذا كان كذلك يصبح الكونجرس مفوضا بمحاكمته.. وبالتالى عزله من منصبه.

هذا ينقلنا إلى المستوى الثالث فى الفضيحة. المستوى السياسى، فالكونجرس هنا - بمجلسيه - يســيطر عليه حزب المعارضة، الذى هو الحزب الجمهورى، وبتلك الســيطرة توجد أصوات كافية مــن الآن لعزل كلينتون. من هنا تبدأ المناورات السياســية، فالحزب الجمهورى مناورته هى خلق ضغط شعبى كاف ضد كلينتون يرغمه على تقديم استقالته (كما حدث مع ريتشارد نيكسون فى سنة

١٩٧٤). فإذا لم يستقل طواعية - وهذا مؤكد لأن كلينتون شديد التعلق بمنصبه - يصبح في إمكان الكونجرس البدء في محاكمته.

في التطبيق لاتصبح المسألة بهذا القدر من السهولة، فالخياران المطروحان أمام كلينتون أحلاهما مر بالنسبة للمعارضة الجمهورية. فحتى لو اضطر كلينتون إلى الاستقالة، فهو لن يفعل ذلك إلا بعد أن يهدم المعبد على نفسه وعلى من فيه آخذا بنظرية «عليّ وعلى أعدائي». هذا يعنى أن كلينتون سيقوم بتعرية الطبقة السياسية كلها.. وبالكامل، بادئا بأعضاء الكونجرس أنفسهم، أما إذا بدأت إجراءات المحاكمة فإنها ستمضى مطولة شهرا بعد شهر.. مثيرة لدى الشعب الأمريكي كله اشمئزازا بعد اشمئزاز ضد الحزبين معا. الديمقراطي والجمهوري.

إذن.. هل النتيجة تكون هي الحل الوسط؟ ربما. لكن الحل الوسط هنا ممكن في المستويين القانوني والسياسي وهذا يعيدنا من جديد إلى المستوى الأخلاقي في كل هذه القصة من أولها.

حينما نتكلم عن الأخلاق فنحن نتحدث عن حصيلة مكونات عديدة أساسها وخلاصتها، «القيم السائدة» اجتماعيا. هذه القيم تختلف من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. في ثقافتنا السائدة بيننا نحن هنا مثلا.. نجد أننا ننشأ - على الأقل حتى الآن - على أن «الجنة تحت اقدام الأمهات» وأن رعاية الأبناء والبنات للوالدين في كبرهما واجب ديني وأخلاقي. في الثقافة الأمريكية شئ آخر: إذا كبر الوالدان وأصبحا عبئا على الفتى أو الفتاة.. فالحل هو إبعادهما إلى أقرب بيت للمسنين. في الثقافة الأمريكية أيضا هناك مقياس أول وأساسي وجوهري للنجاح هو الفلوس.. معك دولار.. إذن انت بدولار، معك مليون إذن أنت قيمتك مليون. في ثقافات أخرى تظل الفلوس مهمة أيضا، لكنها جزء من اعتبارات أخرى تأتي قبلها وبعدها. تلك مجرد أمثلة.. ليس هدفها الإدانة أو تقريظ الذات ولكن لمجرد التوضيح، فالمجتمع الأمريكي وجد نفسه من خلال قيمة أساسية هي «الفردية» المطلقة ـ أنا ومن بعدى الطوفان ـ بينما ثقافات مختلفة تعطي الأولوية لمبدأ «التكافل الاجتماعي»، حيث «الناس لبعضهم»، و«داين تدان»، والفلوس لها وظيفة اجتماعية قبل أن تكون رصيدا في بنك أو «فشخرة» كاذبة لمعايرة الآخرين.. إلخ.

وفي الفضيحة الأمريكية الرائجة إعلاميا الآن - فضيحة كلينتون/ مونيكا - توجد في الخط شركات ومؤسسات كبرى مستفيدة بمئات الملايين من الدولارات نتيجة الإلحاح على كل شعوب العالم لمتابعة مايجرى تماما كما جرى في حادث مصرع الأميرة البريطانية ديانا قبل سنة. في حينها حول الإعلام الغربي ديانا تلك إلى حالة من الهيستريا الجماعية.. فقط لأنها بذاتها تحولت إلى سلعة تؤدى بدورها إلى ترويج مئات أخرى من السلع. أين الآن هيستريا ديانا؟ والكلام الكبير عن المؤامرة المخابراتية لقتل ديانا؟ لقد اختفى كل هذا في أقل من سنة.. لأن الماكينة الإعلامية

الجهنمية تحولت إلى سـلع «بشـرية» أخرى.. أكبر وأبعد تأثيرا.وأخطر ما فى حكاية كلينتون – مونيـكا.. هذه الفضيحة الأمريكية الملونة.. هو بالضبط ماجاء فى آخرها، عشـرات وعشـرات من المحطـات التليفزيونية والصحف والمجلات (ونحن فى نيلها طبعا) نشـرت تقرير المدعى الخاص كينث ستار ضد كلينتون. تقرير فى ٤٢٥ صفحة. أما شريط التحقيق مع كلينتون نفسه فقد استغرق أربع ساعات و١٢ دقيقة.

وفى بداية النشـر الصحفى والتليفزيونى حرص كل ناشـر على أن ينبه كل أسـرة إلى حقيقة أن هناك ألفاظا خارجة عن اللياقة من المصلحة إبعاد المراهقين والأطفال عن قراءتها أو الاستماع إليها.

المراهقون والأطفال؟ بعد ثمانية أشهر من النشر والالحاح فيه تنبهت الآلة الاعلامية الجهنمية إلى أن فى جمهور «المستهلكين» مراهقين وأطفالا؟

نعم. ومن بين العديد ممن جرى اسـتطلاع آرائهـم فى امريكا لفتت نظرى إحدى الأمهات التى قالت: لم يعد يعنينى أن يبقى كلينتون فى البيت الأبيض أو يروح فى ستين داهية. فقط ابعدوا هذه الحكاية المقززة عن بيوتنا. عن أولادنا وأطفالنا.

❑❑❑

إذن فى امريكا مراهقون ومراهقات، وآخر تقرير عن المراهقين فى أمريكا استمعت إليه فى مساء ١٨ سبتمبر (١٩٩٨)، التقرير عنوانه، أهم المشاكل التى تواجه المراهقين فى الولايات المتحدة، بناء على دراسة تناولت حياة من هم تحت سن العشرين فيما بين سنتى ١٩٨٥ و١٩٩٥.

المشـكلة الأولى هى تزايد ارتكاب الجرائم بنسبة ٦٦٪. المشكلة الثانية هى تضاعف عدد الأسر التى يرعاها عائل واحد. الأب بمفرده أو الأم بمفردها. المشكلة الثالثة هى تزايد معدلات الحمل بين المراهقات. المشكلة الرابعة هى أن الأطفال الذين انحدرت حياتهم إلى مستوى الفقر ارتفعت نسبتهم إلى ٢١٪ أى شخص واحد من بين كل خمسة. المشكلة الخامسة والسادسة والسابعة..

فى الخلاصة يتناول التقرير تفكك القيم العائلية فى الحياة الأمريكية، ثم يمضى فى التشـريح إلـى أن يقول تحديدا: إن المراهقين الأمريكيين أصبحوا يسـتلهمون من مسلسـلات وأفلام هوليود أفكارا شيطانية تجعلهم أكثر عنفا وعدوانية وإباحية واستعدادا للمخدرات يوما بعد يوم.

وفى أى مجتمع يكتشف مثل تلك النتائج المروعة تنقلب الدنيا. لم تنقلب الدنيا. فقط هناك دنيا أخرى مقلوبة تتسلى بحكاية «كلينتون/ مونيكا». فى البيت الأبيض مع أن العلاقة وثيقة ومباشرة تمامـا بين البيت الأبيض وتلك الحقائق السـوداء. فـى البيت الأبيض فضيحـة، لكن فى المجتمع العريـض فضيحة.. بجلاجل. مـع ذلك فكل الأضواء تتفاداها وكل المنبهرين أمام شاشـات أجهزة التليفزيون لايريدون معرفة أى شئ عنها.



الحل ..
هو المشوى !

جاءنى بغير موعد. جاءنى وأنا فى أقل الأوقات استعداداً لاستقبال أى أحد.. أو أى شىء.

وهذا فى قاموســى الخاص دافع كاف للاستفزاز والرد من جنس العمل. للبيوت حرمة وللأوقات الراحة حماية يصبح الناس أفضل كثيرا لو أصبحت حدودهم فيها معروفة ومحددة.

لكن الأمر فى هذه المرة زاد عليه تطور آخر استثنائى. لم يكن ما تبخر من داخلى هو فقط رغبتى فى استقبال الآخرين، ولكن أيضا الإحساس بأننى لا أطيق نفسى.

مجرد أن أطيق نفسى. لقد سار يومى كالمعتاد. وفى العاشرة ليلا تناولت علبة من الزبادى. وبعد المزيد من القراءة أصبحت فى الســرير اســتعداداً للنوم. ففى الصبــاح الباكر لدى برنامج مكثف من الكتابة يتعلق بارتباطات والتزامات ومواعيد.

وفجأة اســتيقظت من ســابع نومة على ســكاكين. كثير من الســكاكين. كلها تتسابق مع بعضها البعض فى تمزيق أحشائى ومعدتى. تطور جعلنى على وشك أن أصرخ من الألم. تطلعت إلى الساعة فوجدت الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل.

موعد غير مناســب بالمرة للاتصال بطبيب. ثم إننى بالطبيعة لســت من هواة التعامل مع الأطباء فى الفارغة والملآنة.

ومعدتى لم تكن ملآنة. فمنذ ثمانى ســاعات على الأقل لم يدخل فيها ســوى علبة الزبادى إياها ومــن نفس الماركة ونفس المحــل اللذين اعتدتهما. هكذا اســتبعدت من البداية أية شــبهة تتعلق بالطعام. إذن.. لماذا المغص المؤلم ومن أين تجىء كل هذه السكاكين الحادة فى معدتى ؟

جئت إلى الســرير بمجموعة من الكتب والصحف لعل الآلام تزول بمرور الوقت. ســطر وآخر. كتاب وآخر. لا مزاج للقراءة. أى قراءة. لا قدرة على النوم أيضا. والوقت، تجاوز الثانية صباحاً.

تناولــت بعض الميــاه. لا فائدة. كوباً من اليانســون. أبدا. محاولة أخــرى وأخرى للاندماج فى القراءة. مستحيل. والساعة فى يدى تبدو عقاربها وكأنها تتعمد التقدم ببطء. فتحت جهاز الراديو

إلى جوارى. تنقلت من محطة إلى أخرى. سمعت مقاطع متنوعة من كل تلك الثرثرات المملة التى أصبحت إذاعاتنا تقلد فيها بعضها. لا فائدة.

مع الفجر بدأت صحف الصباح تردنى. وبالتتابع أجد تلك الصحف ملقاة فى الشرفة المطلة على الشارع العمومى. وبعض آخر يجرى تسريبه من تحت عقب الباب.

الآن صباح جديد ويوم وعالم جديد. لكنه نفس العالم العبثى. مظاهرات فى روسيا بحثا عن لقمة خبز. مناقشات فى أمريكا لتحديد مصير رئيس. رئيس فى أمريكا يشغل وقته بالجمع بين رئيس وزراء إسرائيل ورئيس سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى.

ظرفاء تماما هؤلاء الأمريكيون. كأفراد لهم انجازات كثيرة تستحق الإعجاب، لكنهم تاريخيا.. مجتمع «قص ولزق». شعب بلا ماض. فالولايات المتحدة ـ كدولة ـ عمرها مجرد مائتى سنة وكسور. إحساسهم مسطح تماما بالظلم والقهر والحق والعدالة. الدنيا فى عيونهم بمبى.. والصراعات الكبرى مجرد تعبير عن ضيق الأفق وقلة الحيلة.

والأمريكان عندهم الحيلة. اجمع الخصوم معا فى مكان ريفى جميل للناس الفايقة والرايقة.

اطلب منهم الابتعاد عن الرسميات والاكتفاء بقميص وبنطلون جينز. اعمل لهم «بارباكيو» – أو وجبة لحوم يقومون هم بشوائها لبعضهم فى الهواء الطلق. وحياتى عندك يا «بيبى» تاكل الريشة دى. وحياتك انت يا «عوعو» تاكل الصدر ده. لقمة من هنا. لقمة من هناك. ابتسم علشان الصورة. الكاميرات صورت. الإرسال التليفزيونى اشتغل. خلاص. كله.. كما كنت.كله يغمض عينيه. كله يحلم. دولارات. دولارات.

ويهنىء الأمريكيون بعضهم البعض على هذا الإنجاز المدهش. بل إنهم يصرون أيضا على أن يقوم العالم كله بتهنئتهم. ويطلبون من الشعوب أيضا أن يقلد مواطنوها ما شاهدوه لتوهم على شاشات التليفزيون..

وبالألوان. كل واحد عليه أن يقول: فى طولك فى عرضك.. أنا بتاع المشوى. من لديه «بيبى» سرق بيته أو احتل أرضه أو قتل أخوه.. لا يهم. الحل فى المشوى. اعطه مشوى.. يعطك حناناً.

بالحنان يعيش العالم ويترقى الإنسان. ياراجل. كبر مخك. ما قيمة قتلاك الشهداء أو أرضك المحتلة أو بيتك المسروق أمام لفتة حنان؟ أنت جربت النضال والمقاومة سنوات. لماذا لا تجرب نسيان الماضى وتتطلع إلى المستقبل؟ ما فات مات.. والعلاج الآن هو بعض الحنان. صحيح هذا قتل عائلتك واغتصب أرضك لكن لا تعتبره لصا أو قاتلاً. هو بشر. والبشر علاجهم الحنان. قتل لك قتيلا؟ أعطه الحنان. قتيلا آخر؟ مزيداً من الحنان. قتيلا عاشرا؟ ادخل عليه بالمشوى. اكسفه. افحمه. اعزمه مرة واثنتين وثلاثة. مفيش لحم؟ جرب الفراخ. مفيش فراخ؟ هات له بيتزا. فى الآخر.. لا تيأس. بيتزا بعد بيتزا بعد بيتزا أكيد مزاجه سيعتدل وبالتالى قلبه سيطمئن إليك ويعطيك – هو

الذى سيعطيك – شهادة بحسن السير والسلوك. تسأل.. أين حقوقك.. أو أين أنت نفسك؟ فى الطراوة طبعا. لكن ما رأيك فى الحنان؟!

مغص. مغص. مغص.

إنها التاسعة صباحا. تسع ساعات وأنا أتلوى من الألم. قائماً. مستلقياً. جالساً. بين. بين.

مغص. مغص. مغص. لم أكن أعرف من قبل أن فى معدتى كل هذه السكاكين. لم أكن أعرف أيضا أن جدلها مع بعضها البعض يتزايد بمرور الوقت. أمسكت بسماعة التليفون. بعد لحظة أعدتها إلى مكانها. فنقابة الأطباء التى أعرفها اسمها الدكتور علاء الزيات. نعم هو ابن الأديب الكبير الراحل أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» ذات الدور الشهير والخطير فى الثقافة العربية خلال سنوات الأربعينيات من هذا القرن.

لم ألحق بأحمد حسن الزيات. لكننى لحقت بمجلة «الرسالة» فى مكتبة مدرستنا الثانوية بطلخا وفى دار الكتب بالمنصورة. اعتبرنا أنفسنا محظوظين لأننا نجد أعداد «الرسالة» فى الحفظ والصون بعد توقفها بسنوات.

فيما بعد سافرت إلى بيروت ودمشق وبغداد وجدة ضمن دستة بلدان عربية أخرى.

لم أجد أديبا أو مثقفا عليه القيمة إلا وهو يتذكر مرحلة شبابه. وفى شبابه كان ينتظر شهرا بعد شهر وصول أعداد مجلة «الرسالة» التى يصدرها أحمد حسن الزيات فى القاهرة.

كان الزيات مرتبطا بالرسالة. و«الرسالة» جزء من دنيا عريضة من الثقافة العربية يتنافس فيها النجوم رأسا برأس. من طه حسين إلى أحمد حسن الزيات إلى محمد حسين هيكل إلى أحمد أمين إلى عباس محمود العقاد.. إلخ.

مغص. مغص. مغص.

دخلت فى الساعة العاشرة. جربت من جديد. يانسون. شاى. قهوة. مياه. لا فائدة. فكرت فى استخدام التليفون من جديد وغيرت رأيى من جديد. يجب أن أتحمل هذه السكاكين فى معدتى لوقت أطول فربما ينتهى هذا الشجار الداخلى على خير. ثم إن الدكتور علاء الزيات صباحا لابد أن يكون منهمكا فى عمله الصباحى – أستاذ بكلية طب القاهرة – أو ربما بالمرور على مرضاه فى مستشفى قصر العينى. قلت لنفسى: طول بالك وتحمل. هناك مرضى حقيقيون فى مستشفيات حقيقية ربما يكونون أكثر احتياجا منك لوقت علاء الزيات.

الحل مؤقتا: يانسون آخر. شاى آخر. و.. محاولة للاندماج فى القراءة عندى علاج ذاتى يجرى فى دمائى منذ الطفولة. وأى كتاب اختاره يجعلنى أنسى الدنيا. لم أنس الدنيا. لم أستمر فى القراءة. جربت الاستعانة بحبى الآخر. حب العمر. حب الكتابة. لكن القلم لم يطاوعنى. برج العقل تبخر فى داخلى. لا كتابة.

مغص. مغص. مغص.

فــي الثالثة عصرا كنت اســتهلكت قدرتى على تحمل الألم. هكذا تناولت ســماعة التليفون من جديــد وطلبت علاء الزيــات فعلا. لم يكن يزعجنــى ككاتب أكثر من أن يدق جــرس التليفون إلى جوارى وأنا فى منتصف جملة. من هنا تحسبت مقدما لاحتمال أن يفاجأ علاء الزيات بمكالمتى وهو فى منتصف الكشف على مريض.. أو منتصف عملية جراحية.. أو حتى وهو يخطف لقمة غداء..

بصوته البشوش المعتاد رد علاء الزيات. من غير تحيات ولا سلامات أردت أن ألخص له الحالة بكلمــات برقية خاطفة مركزة. ســألنى الطبيب الصديق: هل توجد حــرارة مرتفعة؟ هل حدث لك قىء ؟ إذن.. أكتب اســم هذا الدواء وتناول منه قرصا كل ســت ساعات. ثم دواء آخر تأخذ منه قرصا واحدا فى حالة اشتداد الألم إلى درجة تفوق احتمالك. يوم واثنين يتم الشفاء بإذن الله. فما أصابك هو ميكروب منتشر فى هذه الأيام.

صلبت جســمى بصعوبة واســتدعيت «عم محمد» لكى يأتينى بالدواء المطلوب من أقرب صيدلية. فى المسافة من الباب إلى السرير مرة أخرة كنت أضغط على معدتى بشدة خشية أن يتمزق منى جدار المعدة فى منتصف المسافة.

لم أكد أســتلقى على الســرير من جديد حتى دق جرس الباب مرة أخرى. هل أســتطيع أن أقطع نفس المســافة القصيرة مرة أخرى بجســم مصلوب؟ آه.. آه.. تلك كانت الصرخة المكتومة فى داخلى قبل أن يفاجئنى شخص غريب بكتاب و: الأستاذ مجدى العمروسى يسلم على حضرتك ويهديك هذا الكتاب و.. و.. يا ترى سيادتك تعرف فين شارع عبدالعزيز آل سعود.. أصل الأستاذ مجدى كلفنى أيضاً بتوصيل نسخة من الكتاب إلى مدام وردة (نجمة الغناء). وبإحدى يدى وبأقصر كلمات ممكنة شرحت له الطريق إلى الشارع القريب بينما يدى الأخرى تمنع معدتى من الانفجار. لكن المسافة فى هذه المرة وأنا عائد من الباب إلى السرير بدت أقصر. فالكتاب فى يدى يحمل غلافه صورة عبدالحليم حافظ ثم عنواناً من أربعة أســطر: كراسة الحب والوطنية.. السجل الكامل لكل ما غنّاه.. العندليب الأسمر.. عبدالحليم حافظ. التوقيع: مجدى العمروسى.

السطر الأول مأخوذ عن الصديق صلاح منتصر من عمود له سبق نشره فى جريدة «الأهرام».

أما الســطور الأخرى فقد جعلتنى أســتلقى على السرير بسرعة. فى هذه المرة بعينين فصيحتين تماما. حالة تعنى بالنسبة لى أننى سأندمج فى الكتاب تماما.

هكذا فاجأنى الكتاب بغير موعد. ومن الناحية الموضوعية فإنه مجرد عمل تســجيلى بالنصوص الكاملة لكل ما غناه عبدالحليم حافظ طوال مشوار حياته الفنية.. من الحب إلى الوطنية وبالعكس.. ومن السينما إلى الإذاعة وبالعكس.

بعض ما في هذا الكتاب كنت شـريكا فيه وأعرف كل تفاصيله وظروفه.. خصوصا تلك الأغانى التى كانت جزءا من مسلسـل «أرجوك لا تفهمنى بسرعة» المأخوذ عن رواية من تأليفى. مسلسل قام عبدالحليم حافظ ونجلاء فتحي وعادل إمام ببطولته إذاعيا في سـنة ١٩٧٣. وبتلك الصفة فإن أغانى المسلسـل الإذاعي - كفكرة وتعبير - ولدت فى بيتى مع أبطالها الأساسـيين: بليغ حمدى ومحمد الموجى ومنير مراد.. وبالطبع عبدالحليم حافظ. أغانى أخرى عشتها مع عبدالحليم كصديق.. أو مع محمد عبدالوهاب كصديق أكبر. أغانى أكثر وأكثر عشتها كطالب فى المرحلة الثانوية - نفس المدرسة التى كان اسـمها مدرسـة طلخا الثانوية - وأصبحت الآن تحمل اسم أحمد حسن الزيات تكريماً له كواحد من أبناء إحدى قرى مركز طلخا.

في المدرسـة كانت عندنا فسـحة بين النشـاطات مدتها ساعة. إنها الفسـحة الكبيرة. فى تلك الساعة كان هناك نشاط مدرسي مفتوح. أحد النشاطات تشغيل الإذاعة المدرسية، وهى مهمة عويصة يتحمل مسئوليتها ثلاثة من الطلبة.. كنت أحدهم.

والمهمـة عويصة لأن ما نختاره من مواد لإذاعته هو من ذوقنا الخاص متوسـمين بالطبع رغبات «المسـتمعين». رغبات زملائنـا الطلبة. والمسـتمعون مزاجهم رايق معظمهم حبيبة وعشـاق تحت العشرين والدور لابسهم !

ومحاميهم العاطفى - وربما محامينا نحن أيضا - هو عبدالحليم حافظ فى أغانيه الرائجة بشدة. أغانـى مثـل: تخونوه.. باحلم بيك.. ظلموه. صافينى مرة.. على قد الشـوق.. أهواك.. توبة.. حلو وكداب.. فى يوم من الأيام.. أبوعيون جريئة. فى يوم فى شهر فى سنة..إلخ.

بمـرور الوقـت بدأنا نحس أننـا - نحن الثلاثة المكلفين بتشـغيل الإذاعة المدرسـية واختيار موادها - محل حظوة ومركز قوة. حتى من قبل جرس الفسـحة بدقائق تبدأ الرجاءات: من أسـبوع وأنتم لا تذيعون «صافينى مرة» ومركزين على «أهواك».. هم بتوع سنة ثالثة كلمتهم مسموعة عندكم أكثر مننا ولا إيه ؟

أو: الفصل كله عايز يسمع «حلو وكداب».. أنتم مش عاجبكم الفيلم؟

أو: عايزين نسمع أغنية «أول مرة تحب يا قلبى».. برضه أنتم كنتم فى سنة أولى زينا.. أعطوا الجيل الجديد فرصة..

أحيانا نضرب لخمة. الأغانى كثيرة والطلبات أكثر ومن الصعب الاسـتجابة إلى كل الطلبات.. فالوقـت محدود. ثم إن هناك فقرات أخرى ثابتة نعرضها فى دقائق. مثل «أقوال الصحف» أو «آخر كتاب ورد إلى المكتبة» أو.. أو..

فى تلك الحالات كنا نسـتعين بالجنيه الذهب الغنائى. إنها أغنية «حكاية شـعب» التى كتب كلماتها أحمد شفيق كامل ولحنها كمال الطويل.

بتلك الأغنية تحديدا لم نكن نضمن فقط رضاء كل «المستمعين» ولكن مشاركتهم فى الغناء أيضا.. أيا كان موقع كل طالب فى ملعب المدرسة لحظتها.

هنـاك «كـورس» تبدأ بـه الأغنية وهو يقـول: قلنا حانبنـى وآدى احنا بنينا السـد العالى.. يا استعمار بنيناه بإيدينا السد العالى.. من أموالنا بإيد عمالنا.. هى الكلمة وآدى احنا بنينا..

وحينما يتدخل عبدالحليم مقاطعا: إخوانى.. تسمحوا لى بكلمة؟ يطغى علينا صوت الزملاء من الملعب مرددا مع الكورس: هيه..

ويبدأ الصمت يطغى من جديد وعبدالحليم يسترسل.. «كان طبيعي نبص للنيل اللى أرواحنا فى إيديه.. مية فى البحر ضايعة والصحارى فى شوق إليه.. قلنا نبنى سد عالى سد عالى...».

مع جرس انتهاء الفسحة كنا نسير وسط الطلبة وكأن كلاً منا هو عبدالحليم حافظ شخصيا.

وأتطلع إلى أقرب من أراه فى سـنة أولى: خلاص يا سـنة أولى ؟ سـمعت «حكاية شـعب» ؟ أظن دلوقت رأسك برأس سنة ثالثة.. هاهاها..

بعـد قرصى الأول مـن دواء الدكتور علاء الزيات.. وقراءتى الأولـى لنصوص أغانى عبدالحليم حافظ المطبوعة.. اكتشـفت أن عقارب الساعة فى يدى قد عادت إلى حركتها الطبيعية.. وأننى لأول مرة منذ منتصف ليلة أمس قد أصبحت أكبر من السكاكين الحادة فى داخل معدتى. هل فاجأها دواء علاء الزيات ؟ أو أغانى عبدالحليم ؟ أو كلاهما معا ؟

أيا كانت الإجابة فإن المعنى الذى استقر فى ذهنى هو: فى الحياة ـ بين وقت وآخر ـ آلام لا مفر منهـا. آلام لا تطاق. وفـى مواجهة هذا الموقف هناك حلان: إما أن نجعـل الآلام أصغر.. أو نصبح نحـن أكبـر. والصغر والكبر هنا يبدأ قبل أى مكان آخر من إرادتنا نحن. من عقولنا. من قلوبنا. من أحلامنا. راح المغص !

❑❑❑

حال الدنيا !

لايكاد يمر يوم إلا وتأتى سيرة «الأمم المتحدة، بشكل أو بآخر. بعد الحرب العالمية الأولى كانت هناك منظمة باسم «عصبة الأمم».. جاءت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ لكى تدفنها بالثلاثة. من فشل «عصبة الأمم» ودروس حربين عالميتين اتفق أصحاب «النظام العالمى الجديد» فى سنة ١٩٤٥ على إقامة منظمة دولية جديدة باسم «منظمة الأمم المتحدة».

فى هذه المرة لم يعد العالم يعترف بمكاسب الغزو المسلح لأن هذا هو بالضبط ما جعل العالم يتحول إلى غابة كبرى فى ظل وجود منظمة «عصبة الأمم». الآن فى ميثاق «الأمم المتحدة» الوليدة أصبح المبدأ الحاكم هو عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالغزو أو بالقوة وبالحرب، ثم شئ آخر هو أن «الأمم المتحدة» لها «أسنان» حقيقية إذا أرادت الدول الكبرى.

فى «الأمم المتحدة» هناك – أساسا – برلمان وحكومة، الجمعية العامة للامم المتحدة هى البرلمان حيث لكل دولة صغرت أو كبرت.. صوت واحد فى المقابل هناك حكومة وسلطة تنفيذية هى مجلس الأمن المشكل حاليا من خمس عشرة دولة.. القاعدة هنا أيضا هى صوت واحد لكل دولة لكن هناك فارقا أساسيا.

فمن بين الخمس عشرة دولة هناك عشر دول تنتخبها الجمعية العامة لكى تصبح أعضاء فى مجلس الأمن لمدة سنتين بعدها عشر دول أخرى .. وهكذا.

فى نفس الوقت هناك خمس دول تحديدا دائمة العضوية. وبتلك الصفة يصبح لها حق النقض، «الفيتو»، فإذا ناقش مجلس الأمن مشروع قرار وفى لحظات التصويت اعترضت عليه دولة واحدة من الدول الخمس دائمة العضوية، يسقط هذا المشروع تلقائيا ويصبح كأن لم يكن، حتى لو حظى بموافقة الأربع عشرة دولة الأخرى الأعضاء فى المجلس. والفكرة هنا هى أن الدول الخمس دائمة العضوية هذه اعتبرت نفسها من البداية أنها القوى التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية، وبتلك الصفة تريد كل منها أن تحمى نفسها ومصالحها ومناطق نفوذها الخاصة من تطفل وتدخل القوى الأربع المنافسة الأخرى.

من الجمعية العامة للأمم المتحدة، البرلمان، يوجد ماهو أقرب إلى الديمقراطية والعدالة والمساواة.. الخ. من مجلس الأمن – أى السلطة التنفيذية – يولد القاموس الآخر. قاموس: كلنا

دول متساوية نظريا مع بعضنا البعض لكن عمليا بعض الدول على رأسها ريشة.. وبعضها فى الهواء الطلق.

مع ذلك فللأمم المتحدة مجالات أخرى للعمل تتولاها إدارات ووكالات متخصصة مجالات بعيدة عن السياسة بمعناها الساخن وإن تكن فى قلب السياسة بمعناها الشامل.

من هنا توقفت مؤخرا عند تقرير سنوى صدر عن إحدى إدارات الأمم المتحدة وموضوعه المتجدد يمكن تسميته بـ «حال الدنيا» هناك تقارير أخرى عديدة مليئة بالحقائق والأرقام والاحصائيات. حقائق مثل متوسط نصيب الفرد من الدخل في دول العالم، أو معدلات النمو الاقتصادى المقارنة بين الدول أو صادرات وواردات كل دولة الخ.

هذا التقرير شيء مختلف. فى هذا التقرير بشر حقيقيون، وحقائق نستطيع أن نلمسها باليد أو نراها بالعين أو نفسر بها بعض مظالم الحياة ومرارات الواقع.

حقائق مثل: ماذا يأكل أطفال العالم؟ من فى كل مجتمع تتسوس أسنانه من الآيس كريم ومن تتسوس أسنانه من سوء التغذية؟ من يملك بدل السيارة عشرة ومن لايجد ثمن ساعة يد؟ لماذا تبدو ايميلدا ماركوس مثلا كما لو كانت شابة فى سن السبعين ولماذا يموت ملايين الأطفال جوعا قبل الخامسة؟.. إلخ.

كلها ماتزال أرقاما لكنها أرقام بوجه إنسانى فى هذه المرة، أرقام تحفز العقل أو توجع القلب.. أو ماتبقى منهما. أرقام هذا بعض منها.

□□□

■ المالكون: خُمس سكان العالم الآن هو الأغنى وخُمسهم فى القاع هم الأفقر. الخُمس الأغنى من سكان العالم يستهلكون بمفردهم ٨٦٪ من كل السلع والخدمات التى ينتجها العالم كله.. بينما الخُمس الأفقر يستهلك مجرد ١,٣٪. فى الواقع إن الخُمس الأغنى يستهلك ٤٥٪ من كل اللحوم والأسماك و٥٨٪ من كل الطاقة المستخدمة و٨٤٪ من كل الورق ولديهم ٧٤٪ من كل خطوط التليفونات ويملكون ٨٧٪ من كل المركبات فى العالم.

■ الأغنياء: الشعوب الثلاثة الأكثر غنى فى العالم لديهم ممتلكات تزيد على كل الإنتاج المحلى لثمان واربعين دولة مجتمعة هى البلاد الأقل نموا.

■ شديدو الثراء: فى عالمنا المعاصر ٢٢٥ فردا هم الأكثر ثراء على المستوى الشخصى فى كل العالم. هؤلاء الأفراد ستون بالمائة منهم أمريكان قيمة ممتلكاتهم ٣١١ بليون دولار.

الـ ٢٢٥ فردا هؤلاء قيمة ثرواتهم تريليون دولار أو مايساوى مجموع الدخل السنوى لسبعة وأربعين بالمائة من كل سكان العالم، الذين يصبحون بتلك الصفة أهم الأكثر فقرا.

■ الموارد الطبيعية: منذ سنة ١٩٧٠ تراجعت مساحة الغابات فى العالم من ٤,٤ ميل مربع لكل ألف من السكان إلى مجرد ٢,٨ ميل مربع لكل ألف من السكان. بالاضافة إلى ذلك فإن ربع كل مخزون العالم من الأسماك جرى استنزافه أو يتعرض لخطر استنزافه عند الحد الخطر بيولوجيا.

■ التعليم وأدوات التجميل. الولايات المتحدة بمفردها تنفق ثمانية بلايين دولار سنويا على أدوات ومساحيق التجميل.هذا المبلغ يزيد بليونين من الدولارات عن كل المبلغ المطلوب لتوفير التعليم الأساسى لكل سكان العالم سنويا.

■ النهر المقدس: فى الهند يعتبر «الهندوس» أن نهر «الجانجز» مقدس حيث إنه يرمز إلى النقاء والطهارة.. وحيث إن الهندوس يؤمنون بأن من يشرب من مياه نهر «الجانجز» أو يستحم فيها يتطهر من الخطيئة. مع ذلك .. فى الهند ٢٩ مدينة كبيرة وسبعون مدينة متوسطة وعدد لايحصى من القرى يلوثون مياه هذا النهر من خلال إلقائهم مخلفات مجارى بشكل مباشر فى النهر تصل كميتها إلى ٢٤٥ مليون جالون. فوق ذلك هناك مصانع هندية تلقى فى هذا النهر بسبعين مليون جالون من مخلفاتها وفلاحون يلقون فى مياه النهر بستة ملايين طن من مخلفات الاسمدة الكيمياوية.. بالإضافة إلى تسعة آلاف طن من الطحالب ومخلفات المبيدات.

■ افريقيا: فى قارة أفريقيا أصبح متوسط ماتستهلكه الأسرة العادية فى اليوم الواحد يقل بنسبة عشرين بالمائة عما كان عليه الحال قبل ٢٥ سنة.

■ الذين لايملكون: هناك ٤٤٠٠ مليون نسمة يعيشون فى الدول النامية حاليا.. وثلاثة أخماس هؤلاء يفتقرون إلى وسائل الصرف الصحى وثلثهم لا يحصل على مياه الشرب النظيفة وربعهم لايعيش فى مساكن ملائمة وخمسهم لا يحصلون على خدمات صحية من أى نوع.

■ اللحوم: متوسط مايستهلكه الفرد الأمريكى من اللحوم سنويا هو مائتان وستون رطلا. فى بنجالاديش المتوسط هو ستة أرطال ونصف رطل.. سنويا.

■ الدخان: فى العالم المعاصر يموت مليونان وسبعمائة ألف شخص سنويا بسبب تلوث الهواء.

هناك أيضا مليونان ومائتا ألف حالة وفاة سنويا بسبب التلوث داخل المنازل، بما فى ذلك الدخان المتصاعد من حرق الاخشاب وروث الحيوانات.. وهو دخان أكثر ضررا حتى من دخان التوباكو.. ثمانون بالمائة من هؤلاء الضحايا هم من فقراء الأرياف فى الدول النامية.

■ المستقبل: سكان العالم حاليا ستة بلايين نسمة فى سنة ٢٠٥٠ سوف يصبحون تسعة بلايين وخمسمائة مليون نسمة. من هؤلاء سيكون هناك ثمانية بلايين نسمة فى الدول النامية وحدها.

■ ساعات اليد وأجهزة الراديو: فى الهند تسعون مليوناً يعانون من الفقر الشديد.. ثلثهم يعيشون حتى تحت مستوى خط الفقر. مع ذلك فإن أكثر من خمسين بالمائة من هؤلاء الناس شديدو

الفقر يمتلكون ساعات يد و٤١٪ يمتلكون دراجات و٣١٪ يمتلكون أجهزة راديو و١٣٪ لايملكون مراوح.

■ خطوط التليفونات: في السويد يوجد ٦٧١ خطاً تليفونياً لكل ألف من السكان. في الولايات المتحدة ٦٢٦ خطا. في افغانستان وكامبوديا وتشاد وجمهورية الكونغو الديمقراطية يوجد خط تليفوني واحد لكل ألف من السكان.

■ الآيس كريم والمياه: الاوربيون ينفقون أحد عشر بليون دولار سنويا على الآيس كريم. هذا المبلغ يزيد بليونين من الدولارات عن كل المبلغ المطلوب سنويا لتوفير مياه الشرب النظيفة ووسائل الصرف الصحي لكل سكان العالم.. سنويا.

■ مرض الإيدز: مع نهاية سنة ١٩٩٧ بلغ عدد الأفراد الأحياء المصابين بمرض «الإيدز» في العالم كله ثلاثين مليون شخص، يتزايدون بمعدل ١٦ الف مصاب جديد يوميا، تسعون بالمائة من هؤلاء هم من سكان الدول النامية، الآن تقول التقديرات إنه بحلول سنة ٢٠٠٠ سوف يرتفع عدد المصابين بالمرض إلى أربعين مليون شخص من سكان العالم.

■ الألغام الأرضية: في العالم الأن أكثر من مائة وعشرة ملايين لغم أرضي نشيط متناثرة في أراضي ٦٨ دولة. بالإضافة إلى مخزون مماثل لدى دول العالم. وفي كل شهر يموت، أو يتشوه، أكثر من ألفي شخص بسبب انفجار تلك الألغام.

■ أغذية وأدوية الكلاب والقطط: الأمريكيون والأوربيون ينفقون سبعة عشر بليون دولار سنويا على أغذية الحيوانات الأليفة (كلاب وقطط. الخ) هذا المبلغ يقل بأربعة بلايين دولار فقط عن كل المبلغ المطلوب سنويا من أجل توفير الأغذية والأدوية الأساسية لكل فرد في العالم المعاصر.

■ كم تساوى أربعين بليون دولار؟: كثيرون في هذا العالم يحلمون بتوفير التعليم الأساسي لكل سكان العالم ويحلمون بتوفير الرعاية الصحية الاساسية لكل سكان العالم ويحلمون بتوفير مياه الشرب النظيفة ووسائل الصرف الصحي لكل سكان العالم.

السؤال هو: كم يحتاج العالم كموارد إضافية - فوق الموارد المتاحة حاليا - لتحقيق كل تلك الأحلام ؟

الإجابة هي: أربعون بليون دولار سنويا.

السؤال الأخير: كم تساوى هذه الأربعين بليون دولار الإضافية ؟

الإجابة الأخرى: تساوى أقل من أربعة في المائة من إجمالي ثروات المائتين وخمسة وعشرين شخصا الأكثر ثراء في هذا العالم المعاصر.

□□□

بعد هذا كله: ما الخلاصة ؟

كوفــى عنان الســكرتير العام للأمم المتحدة هــو - بنص ميثاق المنظمة الدوليــة - كبير موظفى السكرتارية الدائمة للامم المتحدة. هو إذن ليس دولة فوق الدول، ولا حتى تحت الدول. هو.. وكل سكرتير عام قبله أو بعده.. موظف عند الأمم المتحدة.. وعمليا موظف عند مجلس الأمن.

ومجلس الأمن فيه أعضاء عاديون وأعضاء على رأســهم ريشــة. بتلك الريشــة يستطيع بعضهم - حتى - أن يدعى ضيق ذات اليد فيتأخر كما يحلو له عن تسديد مجرد نصيبه فى الميزانية السنوية العادية للامم المتحدة. وبتلك الصفة مثلا فإن الولايات المتحدة مدينة منذ ســنوات وحتى الآن بأكثر من بليون دولار للأمم المتحدة هى أصلا مستحقات عن سنوات سابقة.

بتلك الريشــة أيضا لن يعطى أغنياء العالم لفقرائه دولارا واحدا بل إنهم فى الواقع يعملون بكل نشاط وهمة لـ«شفط» حتى أقل القليل مما يوجد لدى فقراء هذا العالم. أى الأغلبية.

وســواء تكلمنا عن الجات أم العولمة أو صندوق النقد الدولى أم حرية التجارة أم فتح الأسواق فإن الخلاصة فى النهاية تظل هى: الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا.

بالطبع هذا ليس عدلا ومن لايعجبه عليه أن يعتمد على نفســه أو يكتفى بالحصول على مواســاة الأمم المتحدة من خلال مثل هذا التقرير. تقرير عن الوجه الإنسانى لعالمنا المعاصر. أو بالدقة الوجه اللاإنسانى.

□□□



للحزن صباح آخر

حينمــا زارني المطرب الســوري الكبير صباح فخري في غرفتي بالفنــدق وعرض عليَّ فكرته.. تحمســت فورا. فقط أصبح لابد لي من إجراء مكالمة تليفونية لتأجيل موعد كنت قد ارتبطت به في السادســة مساء مع مسئول سوري كبير.. هو وزير الإعلام.إنها دمشق وهذا فندق «الشام» الذي أقيم فيــه منــذ وصولي. أما صديقي الفنان الكبير صباح فخري فقد أثار حماســي منذ الجملة الأولى التي نطق بها. إنه على موعد الليلة لإحياء حفل غنائي في بيروت ، وما رأيك في أن تجيء معي لنذهب معا إلى بيروت فنسهر الليلة سويا ثم نعود معا إلى دمشق ظهر الغد ؟

بيــروت ؟ وصباح فخري ؟ هاتان هديتان يتحمس المــرء لأي منهما.. فما بالك بهما معا.. وفي ليلة واحدة ؟

كانت علاقتي مع بيروت من نوع تلك العلاقات الرومانســية التي لا تكتمل أبدا. في المرة الأولى كانت بيروت في ذروة تألقها وازدهارها. وبعد يومين من وصولي جاءني صوت عمنا العزيز الراحل سعيد فريحة صاحب دار الصياد اللبنانية للصحافة. لقد فاجأني بكلماته المنفعلة المعترضة الغاضبة: كيــف أعــرف بوجودك هنا في بيروت مــن خبر أقرأه في الصحــف؟ لا.. لا.. لا أعذار أقبلها منك بالمرة.. وخلال دقائق ســتصلك الســيارة لكي تصبح ضيفي أنا. يا رجــل.. تجيء بيروت ضيفا على وزارة السياحة وأنا موجود؟ هذا لا يجوز.

وفي العلاقة مع ســعيد فريحة كانت المناقشــة لا تجوز. هو أب وعم وخال وفنان وصحفي كبير المقام قبل السن، وبغير مناقشة قال للسائق: اطلع بنا على شتورا..

قلت له: لكن ماذا عن وزارة السياحة وهي أصلا التي دعتني إلى هذه الزيارة ؟

رد ســعيد فريحة ببســاطة: " دير بالك. بكير أكلم وزير السياحة اعتذر له.. أو حتى أدعوه هو أيضا لكي يلحق بنا في شتورا.

لكن لماذا شــتورا ؟ لأنها مقر البيت الريفي أو الصيفي أو الهادىء لســعيد فريحة وعائلته. ولأن شــتورا هي أيضا جزء من سحر وســخاء الطبيعة اللبنانية، ومن الساعة الأولى اتصل سعيد فريحة تليفونيا بالموسيقار محمد عبدالوهاب – الذي كان هو أيضا في زيارة للبنان – ودعاه إلى شتورا.

وفيما بين محمد عبدالوهاب وسعيد فريحة وشتورا.. ضاعت منى بيروت.

بعدها بسنوات سافرت إلى دمشق للذهاب منها برا إلى بيروت. الحال غير الحال ولبنان كلها دخلت في مفرمة الحرب الاهلية ولم تعد هناك طائرات بين القاهرة وبيروت وبالتالى أصبحت وسيلتى الوحيدة هى السفر جوا إلى دمشق كمرحلة أولى وبعدها برا إلى بيروت كمرحلة ثانية.

فى دمشق نزلت فى فندق «أمية» برفقة ممثل للجامعة العربية استبشرت خيرا حينما حدثنى عن نفوذه الخاص فى دمشق ووعدنى بتسهيل عدة مقابلات مع كبار المسئولين السوريين. إنها وساطة مهمة لأن العلاقات السياسية بين دمشق والقاهرة وقتها كانت شديدة التوتر على مستوى الرئيسين. لكننى فى دمشق وجدت الوقت يجرى يوما بعد آخر بغير أن ينجح ممثل الجامعة العربية فى الحصول لى، أو لنفسه! ، على أية مواعيد.

وبينما أتصفح جريدة سورية قرأت خبرا عن وجود محمد عبدالوهاب فى بلودان فيما بدا أنه - كالعادة - كيف نفسه مع الظروف المتغيرة. لم تعد رحلته الصيفية المعتادة إلى بيروت ممكنة.. فاستبدل بها رحلة صيفية إلى بلودان.

سألت موظف الاستقبال عن أية أرقام تليفونات لفنادق يعرفها فى بلودان فأجابنى بأن المهمة سهلة لأنه لا يوجد فى بلودان سوى فندق واحد يرتاده كبار القوم.

فى التليفون سمعت كلمات عبدالوهاب المألوفة من الود والترحيب إلى أن قلت له إن برنامجى هو الذهاب إلى بيروت. عندها تحولت المودة فى كلمات عبدالوهاب إلى اعتراضات شديدة اللهجة: بيروت؟ بيروت؟ يا حفيظ. معقول عايز تروح بيروت وسط المذبحة الجارية هناك؟

قلت له: نعم أريد الذهاب.. بالضبط بسبب هذه المذبحة. أريد فهمها وتحليلها على أرض الواقع..

اعترض محمد عبدالوهاب من جديد: هذا جنون مطبق. بيروت؟ يا حفيظ. الإنسان يروح للموت برجليه مرة. وأنت تروح مرتين؟ مش كفاية الرباط؟

كان عبدالوهاب يشير بكلماته الأخيرة إلى موقف آخر تابعنى من خلاله فى سنة سابقة حينما كنت أقيم معه فى فندق هيلتون الرباط بالمغرب وجرى انقلاب عسكرى. وليلتها فوجىء عبدالوهاب بأننى نزلت إلى قلب المدينة مرة ومرتين إلى أن قبضوا على فى المرة الثالثة مع الموسيقار محمد الموجى عند أحد قواطع الدبابات. ليلتها ظللنا - الموجى وأنا - معتقلين وسط الظلام والرصاص إلى أن أعادونا إلى الفندق فجرا تحت الحراسة المشددة الغاضبة.

- لا.. لا.. انسى حكاية بيروت الآن تماما. فى الرباط على الأقل كان فيه جيش يقاتل جيشا. لكنك فى بيروت ستجد عصابات فى مواجهة عصابات.. والشارع الواحد أحيانا تحكمه ثلاث أو

أربع عصابات. لا.. لا.. أنت من الآن ستصبح ضيفي وسأحجز لك غرفة معي هنا فى الفندق.. فى بلودان.. والسيارة ستصلك خلال ساعة.. تجىء بحقائبك وتنسى بيروت تماما.

قلت لعبد الوهاب: لكننى أحتاج الاستمرار فى دمشق على الأقل يومين أو ثلاثة على الأكثر انتظارا لمقابلات أسعى إليها مع كبار المسئولين السوريين.

كما هى عادة محمد عبدالوهاب كان لديه دائما رد جاهز على كل سؤال وحل جاهز لكل مشكلة.

لقد قاطعنى قائلا: لا تقلق.. سلم لى نفسك أولا فى بلودان وسأجىء إليك بكل من تريدهم. عايز تشوف مين ؟ الحكومة السورية ؟ سأجىء لك بالحكومة السورية. خلاص المهم أن تنسى بيروت الآن تماما.. مفيش فصال.. وتنسى أيضا صديقك بتاع الجامعة العربية..

لم يكذب محمد عبدالوهاب خبرا. فمنذ المساء الأول الذى أصبحت فيه ضيفا عليه فى بلودان.. وكل ليلة يدعو إلى مائدته بالفندق مسئولا سوريا واحداً بعد الآخر.. أولهم عبدالحليم خدام وزير خارجية سوريا وقتها والخبير رقم واحد بالملف اللبنانى. وبينما السيدة نهلة القدسى زوجة محمد عبدالوهاب تقوم بدورها البشوش كالعادة فى الترتيب لكل أمسية مع زوجات المسئولين السوريين كان عبدالوهاب حريصا على تلبية احتياجاتى الصحفية فى مناخ أوشكت معه أن أصبح جزءا من العائلة السورية. عائلة عبدالوهاب السورية. وبعد عدة ليال فهمت المغزى. فإذا كان على أن أتعامل مع السوريين من خلال مناصبهم فإن عنب اليمن أقرب من تفاح الشام! أما فى التعامل مع السوريين كعلاقات إنسانية فإنهم يصبحون أقرب إلى المرء من حبل الوريد.

وبشعور من الذنب اتصلت بمبعوث الجامعة العربية، رفيق السفر من القاهرة إلى دمشق، والمستمر انتظارا فى فندق «أمية» بدمشق.. وجاءنى صوته: أين غطست؟ كنت فى أشد القلق عليك بالرغم من رسالتك المكتوبة التى أبلغها لى الفندق بعدها بيومين فعرفت أن محمد عبدالوهاب يستضيفك فى بلودان.

قلت له: لا تقلق. فبدلا من أن انتظر الجبل فى فندق أمية جئت بقدمى إلى الجبل فى بلودان. والليلة سوف أقابل زيد الرفاعى رئيس وزراء الأردن (وقتها) لأنه قادم مع زوجته خصيصا للترحيب بمحمد عبدالوهاب قبل أن يعود إلى الأردن غدا..

قال لى مبعوث الجامعة العربية بلهفة: صحيح.. طيب أرجوك.. ممكن أقابله؟

سألته: تقابل من؟ زيد الرفاعى؟

رد باعتراض سريع ولهفة أكبر: لا.. لا.. ممكن أقابل الأستاذ محمد عبدالوهاب؟

□□□

بيـروت مرة أخرى. فى هذه المرة ذهبت مدعوا للمشـاركة فى نـدوة بالغة الأهمية عن «العرب والعولـة»، ولأن ما ربطنى ببيـروت كان دائما علاقة لم تكتمل فقد تحمسـت لقبول الدعوة بفكرة مسبقة متسلطة على عقلى. فكرة أننى بعد الأيام الأربعة – مدة الدعوة – سوف أنتقل إلى فندق آخر فى قلب المدينة لكى أقيم أسبوعا على حسابى الخاص حتى أتنفس بيروت براحتى.

فى البداية سار كل شىء على ما يرام. الدعوة والندوة والعولمة والفندق الآخر. ثم دعانى الصديق الكبير الدكتور حازم الببلاوى المقيم فى بيروت بصفته مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة، دعانى إلى وليمة غداء فاخرة فى واحد من أرقى مطاعم بيروت الكائن مباشـرة على سـاحل البحر الأبيض المتوسط.

كلـه تمام... الطعام شـهى وحديث الدكتـور حازم الببلاوى أكثر متعـة.. حتى وهو يحلل لك العولمة ويغريك بتفاحة النظام العالمى الجديد ويقنعك بأن حبل المشـنقة ليس عقوبة وإنما هو دليل استشهاد.

لكن شيئا واحداً حدث فى خروجنا من المطعم مكيف الهواء. فقد أخذت لفحة هواء معتبرة. هواء نظيف تماما.. صحى تماما... باسـتثناء أن الشعب الهوائية فى صدرى أصبحت منذ سنوات أضعف من استقبال لفحة هواء بمثل تلك القوة والمفاجأة.

والنتيجة: أقمت فى بيروت فعلا لمدة أسـبوع آخر، لكنها إقامة المريض الذى يعانى بشـدة من نوبة أنفلونزا كاسـحة جعلتنى طريح الفراش معظم الوقـت آناء الليل وأطراف النهار... وبالدولار لو سـمحت لأنه الأكثر سـهولة فى التعامل بدلا من أن أحمل فى جيبى مثلا مليونا ونصف المليون ليرة لبنانية.

وقبـل أن تراودنى أية أوهام بأننى مليونير أتذكر دائما هذا المليون ونصف المليون ليرة يسـاوى بالكاد ألف دولار.

الدولارات تجىء وتروح.. لكن بيروت هذه لا تجيئنى أصلا.

والآن تجيئنى بيروت. والواسطة صباح فخرى.

إنــه صوت بديع يمثل عنوانا شـديد الأهمية فــى دنيا الغناء والطرب هو عاشـق أصيل للتراث الغنائى العربى، وصوت ينتمى إلى تلك السـلالة القوية الجبلية القادرة باسـتمرار على استكشاف مواطن الشجن والمتعة والانتماء فى الغناء العربى. فى حفلاته الغنائية القليلة التى بدأ يحييها فى مصـر مؤخرا بدعوة مــن دار الأوبرا تنفد التذاكر قبل موعد الحفل بأسـبوع أو أكثر. مع ذلك كانت مشـاهدتى له فى حفل غنائى هى باسـتمرار مشروع مؤجل. هذا التخلف له أسباب تفهمها من قبل صديقــى الراحل عبدالحليم حافظ ومن قبله سـيدة الغناء العربـى أم كلثوم. ولكن صباح فخرى ظل يتقبل على مضض – وإن يكن تفهما ظاهريا – اعتذارى عن عدم حضور حفلاته الغنائية بالقاهرة.

ثـم إن صباح فخرى مـن أبناء مدينة حلب السـورية.. التى هى بذاتها أحـد المراكز الحصينة للغناء والموسـيقى فى العالم العربى. حلب هذه أعطتنا أصواتـا عذبة عديدة آخرها ميادة الحناوى. فـى بدايتها كان محمد الموجى يقول لى إن لديهـا – قبل الصوت – الصدق الفنى. بليغ حمدى أيضا كان يعول عليها كثيرا فى مستقبل مشرق للغناء العربى الحقيقى. لكننى بمرور الوقت – لم أعرف أيهما خذل الآخر: هل خذلها بليغ برحيله المبكر... أم خذلته هى بتقطع حضورها الغنائى ؟

والآن أصبحت أسـتمتع بصوت صباح فخرى... وفى قلـب بيروت. فى الواقع هذه هى جونية.. الجزء الأكثر تفرنجا فى بيروت.

فى المائدة التى جلست إليها – راجيا صباح فخرى مسبقا بأن تكون فى آخر الصفوف – أصبحت تشـاركنى فى المتعة أسـرة بيروتية من عشاق غناء صباح فخرى. أسـرة مارونية من أب وأم وثلاث بنات.

أصغرهن إلى جوارى اسمها كوليت.. سألتنى: ناوى تبرم فى بيروت ؟

تلعثمت الكلمات على لسانى حتى استوعبت فارق اللهجات فأجبتها: أنا نفسى فعلا أتجول فى بيروت... لكنى سأعود ظهر الغد مع صباح فخرى إلى دمشق.

بعـد قليل دق جـرس التليفون على المائدة. أقصد التليفون المحمول الذى تحمله كوليت. قبل أن تمد كوليت يدها إلى التليفون كانت الأم قد أخذته لكى ترد هى. فى الواقع هى لم ترد وإنما أعطت إنذارا صارما إلى المتحدث على الطرف الآخر... قالت له بحزم: اسـمع.. إذا كانت لديك أية أخبار سـيئة فلتطلبها – تقصد كوليت – غدا. أما الليلة... فنحن نريد أن نسـتمتع بغناء الأستاذ صباح.. بعدها ناولت السماعة إلى كوليت. كلمة ورد غطاها و.. عادت كوليت تندمج بالكامل مع غناء صباح فخرى.

ظرفـاء تماما هؤلاء اللبنانيون. لديهم غالبا قدرة مدهشـة على الحيـاة فى عدة طوابق فى وقت واحد.. كل طابق مستقل تماما عن الطابق الآخر. للتجارة وقت.. وللسعادة وقت... وللأناقة وقت... وللأحزان وقت.

وفى اللحظة الراهنة.... هذا وقت للسـعادة.. وقت لصباح فخرى. أما الحزن.. فله وقت آخر.. وصباح آخر.

طوال السـاعة الأولى أدركت أننى أتنفس هواء الاسـكندرية وعبق بيروت وأصالة الشام.. معا. هذا صباح فخرى يغنى ألحان سيد درويش.. بل ويعيد اكتشاف بعضها فيما أسمعه منه لأول مرة. نعم.. هو نفسـه سيد درويش الذى رحل عنا منذ نحو سبعين سنة.. غير مدرك أن إبداعه الموسيقى سوف يتجاوزه هو شخصيا وجغرافيا وتاريخيا.

هذه كوليت إلى جوارى. شابة لبنانية هيفاء يمكن أن تقابلها صباحا فتعتقد أنها محامية شركة كوكاكولا.. أو كنتاكي... أو حتى البيتزا.. لغتها الأجنبية الأولى فرنسية.. والثانية إنجليزية.. ولها أقرباء سبقوها بالهجرة إلى كندا أو استراليا أو حتى إلى سيراليون. لكنها إلى جوارى تستمتع بصوت صباح فخرى وموسيقى سيد درويش ولهجة مصرية أصبحت بالغناء خبيرة فيها. بعدها أغانى أم كلثوم.. ومازلنا مع صوت صباح فخرى وألحان محمد القصبجي وزكريا أحمد وبليغ حمدى.

فى القاعة الضخمة يتفاعل الجمهور مع صوت صباح فخرى. جمهور أغلبه فى سن الشباب. قبل الغناء بربع ساعة لم يكن يبدو عليهم أن لهم صلة بالغناء العربى.. فما بالنا بالتراث العربى. مع ذلك فحينما بدأ الغناء تحركت الأشجان وتفاعلت المشاعر واستيقظت الأوجاع وتدفقت الانفعالات. أين كان هذا كله مختفيا ؟

فى اليوم السابق كنت أقلب مؤشر الراديو بين محطات إذاعية عربية.. فتوقفت عند محطة محددة تذيع أغنية تقول كلماتها : «لحلحنى وأنا لحلحته.. زغزغنى وانا زغزغته».. لم أصدق أذناى. هل هبط نوقنا إلى هذا الحد وتراجعت أغانينا إلى هذا المستوى ولم نعد نعرف الفارق بين إذاعة عامة ومواخير الليل ؟

الآن أعيش مع غناء حقيقى وموسيقى أصيلة وشباب يدرك عمليا أن السطح المتفرنج يحتفظ تحته مباشرة بعروبة حقيقية.. لا أحد منهم رأى سيد درويش.. ربما لا أحد منهم أيضا يعرف اسمه. لكن هذه ألحان سيد درويش وما تفعله بهم. هذه أيضا أغانى أم كلثوم الخارجة مباشرة من عصر كامل من الرومانسية. وتلك الرومانسية تشق طريقها مختصرا إلى أفئدة مستمعين ربما يعيشون حياتهم عمليين تماما ومن خلال كمبيوتر وبفنجال قهوة بستة آلاف ليرة.

هؤلاء أيضا لبنانون يعيشون هموم بلدهم.. اختيارا أو اضطرارا. فى الجنوب لديهم مقاتلون حقيقيون يرفضون الاحتلال الإسرائيلى المتوحش والمتجبر.. لكن المقاتل يحتاج أيضا لأن يغنى. لأن يحب. لأن يتمسك بالجمال حوله حتى يجيد القتال ضد القبح أمامه.

لقد مضى الوقت بى ساعة بعد ساعة.. وبصباح فخرى أغنية بعد أغنية.. وبالجمهور يتفاعل متعة بعد متعة. مضى الوقت وراح الزمن.. ومع الزمن راحت منى بيروت مرة أخرى.

□□□

أولاد حلال.. مثلنا!

يسافر المرء إلى أنحاء العالم شرقا وغربا.. ويعيش فى أجواء تحت الصفر وفوقه.. ويرتاد أفخم الأماكن أو أكثرها تواضعا.. ويضحك مع الآخرين أو يضحكون عليه.. ويتعرف إلى ألوان من البشر فيهم الأبيض والأسود والأصفر.. ويتحرك بنقود قليلة أو كثيرة (وهى دائما قليلة).. وترتج به طائرة فى مطبات هواء مفاجئة فوق المحيط الأطلنطى.. أو باخرة فى قلب عاصفة وسط البحر الأبيض المتوسط. ويستكشف طباعا مختلفة فى مجتمعات أخرى ويتعلم بضعة أشياء جديدة فى كل مرة.. ويتفاهم مع الآخرين بالصوت أو بالكتابة أو بالاشارة.

مع ذلك تظل الرحلة الأولى دائمة غائصة فى عمق خاص بها داخل بحر الذاكرة، تغوص أو تطفو حسب الحاجة وبكل تفاصيلها الثابتة على ألوانها الأصلية.. زاهية أو داكنة حسب مستوى المعرفة والخبرة التى بدأت بها.

لم تكن هناك خبرة. تلك هى الرحلة الأولى إلى خارج الحدود. وفى جزئها الأول تبدأ بحرا من الإسكندرية. ثم فى جزئها الثانى تبدأ برا من فينسيا. فى جزئها الثالث تبدأ بحرا مرة أخرى من روتردام فى هولندا بالشمال الأوروبى.

من الأسكندرية هى باخرة ركاب تعمل على خط منتظم يذهب بها إلى ميناء «بيريه» فى اليونان ليقضى الركاب هناك يوما بليلة قبل أن تتحرك بهم الباخرة إلى فينسيا فى إيطاليا ثم تعود بعدها إلى الاسكندرية.

هكذا غادرنا ميناء الاسكندرية فى السادسة والربع مساء. واليوم هو الخميس.

ورفيقى فى الرحلة اسمه على أصبح شريكى فى الكابينة رقم ٣٣، كابينة من سريرين ـ تحت وفوق ونافذة زجاجية بيضاوية تطل على البحر.

بعد قليل حان موعد العشاء. وفى المطعم جلس الركاب – نحو مائة، رجالا وسيدات – إلى موائدهم لكى يفاجئهم المسئول الإدارى بخبر سار. هذان اثنان من الركاب – فتى وفتاة – يتطوعان بتأدية فقرة من الغناء والرقص اليونانى على نغمات شريط موسيقى يحملانه معهما. تلك كانت بروفة مبكرة عن اليونان قبل أن نصلها. بعد قليل استحق الراقصان المكافأة التى طلباها مسبقا.. وهى ان يتم نقلهما من الدرجة السياحية إلى إحدى كبائن الدرجة الأولى.

فـي اليوم التالي جاءت البداية خادعة. الطقس مشـمس والهواء منعش والأفق متسـع والبحر هادئ. وعلى حين غرة – مع قربنا من جزيرة كريت – خذ عندك. رقصات أخرى جماعية وفوضوية وإجبارية ومفاجئة. هاج البحر. وطوال ســاعات قليلة بعدها تتمايل السفينة يسارا ويمينا مع أنها ثابتة في طريقها. مع التمايل المسـتمر المتكرر تزايدت حالات القيء والدوخة والاعياء. وفي تقسيم غير مقصود للعمل.. جاءت الدوخة من نصيبي بينما دوار البحر والقيء المسـتمر من نصيب زميلي في الكابينة والرحلة.

– إذن هذا هو «دوار البحر» كما شاهدناه في الأفلام !

هكذا تســاءل زميلي بكلمات متقطعة متفسخة عن بعضها البعض وهو في لحظة استراحة فيما بـين نوبتـين من القيء. لكن دوار البحر في الطبيعة أقسـى وأصعب مما عرفتـه في الأفلام. هكذا استرسل قائلا.. وهو يسترجع عن ظهر قلب أفلاما سينمائية أمريكية شاهدها. فهو منذ عرفته وهو في حالة إدمان مستمر للأفلام الأمريكية. وعلى مدار السنة.. كلما سألته عن آخر صورة يحملها في جيبه.. أعرف فورا اسم آخر فيلم شاهده..

في الكابينة سألته فلم يخيب ظني كالعادة: نعم.. نعم.. هذه هي.. شيرلي ماكلين وجاك ليمون..

– اذن آخر فيلم شاهدته كان «إيرما الغانية» ؟

– نعم.. نعم.. ثلاث مرات وحياتك إيرما لادوس تجنن.. بنت حرام والله.. إنما...

لـم تكتمـل الجملة لأنه فوجـئ بنوبة جديدة من القيء. بعد سـاعتين أو ثـلاث فوجئ بأنني لـن أذهب معه إلى المطعم لتناول العشـاء فقال لي مندهشـا: الآن أنت توفـر لهم وجبتين.. فلا غداء ولا عشاء..

قلت له: المسـألة ليسـت هكذا. فمع أن البحر عاد إلى هدوئه منذ المسـاء.. إلا أنني سـأحتفظ بمعدتي فارغة حتى لا أصبح في مثل حالتك من القيء المتقطع. تكفيني الدوخة.

في الثانية بعد الظهر رست الباخرة على رصيف ميناء «بيريه» باليونان بعد نحو ٤٤ ساعة في البحر. ولأنها الرحلة الأولى فقد بدت على المرء الرغبات المتزاحمة في أن أفعل عشـرين شـيئا في نفس اللحظة. أريد النزول فورا إلى شوارع بيريه.. وأريد الذهاب إلى أثينا العاصمة – على مسافة ربع سـاعة بالسـيارة – وأريد تنفس التاريخ في أكروبوليس.. حيث قدمت لنا المرشـدة اليونانية كاترينا صفحات التاريخ في برشامة. سقراط وأفلاطون والحضارة الاغريقية فيما مضى. بعدها القصر الملكـي لكي نتعرف عليه من خارجه قبل ان نكتشـف ان التجول في معالـم ميناء بيريه هو أيضا جزء من الرحلة السـياحية. مقاه بعد مقاه بعد مقـاه. وبما مخبز هنا ومحل حلويات هناك. بعدها مقاه ومقاه ومقاه. وجرسـونات في وجه أحدهم ملامح قريبة من استيفان روستي لكن من غير ميمي شكيب. بعدها سوق المدينة الرئيسي. وأخيرا سوق اللحوم، كيلو اللحمة بربع جنيه.

في عودتي إلى الباخرة لم أجد زميلي في الكابينة. هل تحتاج شـوارع بيريه ـ التي جئت منها لتـوى – إلى أكثر من خمس سـاعات للتجول فيها؟ يجوز. لكـن ما هو مؤكد أنه في حوالي الثامنة والربع مساء جاءني أحد البحارة وفي يده ورقة. لقد كان لتوه مع عدد من الركاب – من بينهم زميلي في الكابينة – وأرشدهم إلى مكان ينبسطون فيه – و: هذا هو العنوان..

قبـل أي استفسـار كان البحار قد اختفى فـي دهاليز الباخرة لكي يغلبني أنا حب الاسـتطلاع المزمن. على الرصيف أشـرت إلى سيارة تاكسي وقلت للسائق: شارع نوتابا.. نظر السائق إليَّ شذرا فكررت له الاسم من جديد: نوتابا.. نوتابا..

في شـارع نوتابا نزلت من التاكسي لأسأل من جديد: بلاكا.. لو سمحت. لولا أن سائق التاكسي كان قد انصرف فعلا لتصورت أنه أقرض تعبيرات وجهه للرجل الذي استوقفته لأسأله. لقد توقف الرجل ونظر إليَّ شـذرا هو الآخر. نفس النظرة التي لفحني بها سـائق التاكسي في البداية. ثم. في أقل من لحظة. أعطاني الرجل ابتسامة صفراء وهو يشير لي بأصبعه نحو لافتة بأضواء النيون الملونة مكتوب فيها: بلاكا..

دخلت المكان، إنه الطابق فوق الأرضي. الباب نصف مفتوح على صالة واسـعة في مدخلها سيدة جالسة إلى ما يشبه المكتب.. وبعدها رجال متراصون إلى جوار بعضهم البعض لمحت بينهم زميلي في التو واللحظة مع اثنين أعرفهما من ركاب الباخرة.

رمقتني السـيدة بعينيها ثم تطلعت إلى سـاعة يدها باسـتغراب وتمتمت ببضع كلمات لم أفهم منها سوى «دراخما» بينما هي تناولني قطعة بلاستيك تحمل رقما ما. لم أتناولها ولم أعرف المغزى فاتجهت مباشرة إلى حيث يجلس زميلي لكي أستفسر منه عن هذا المكان وكيف أتى إليه.

رد هامسـا بأنه البحار إياه جاء بهم ولكنه سـبقهم إلى المتعة وسـبقهم إلى الانصراف و.. كله بالدور.

– أي دور؟

في تلك اللحظة انفتح باب في الداخل وخرج منه شخص إحدى يديه في كم الجاكتة بينما اليد الأخرى تبحث عن الكم الآخر.. وصوت نسـائي خلفه يصيح بكلمة ما.. فتشير السيدة الجالسة إلى المكتب نحو أحد الرجال المنتظرين فينهض فورا متجها إلى الداخل.

سـألت زميلي مرة أخرى، وبعصبية: ما هذا؟ ماذا يجري هنا؟ قال لي هامسـا: أصل هو عليه الدور. جاء قبلنا..

– أي دور؟

مـد الزميـل يده إلى جيب جاكتتـه وأخرج لي الصورة اياها بحرص شـديد حتى لا يراها أحد غيري، صورة شيرلي ماكلين. ثم قال لي – هامسا أو راجيا او متوسلا لا أعرف بالضبط –: إيرما.. ايرما لادوس..

يا خبر أسود؟ طلعنا من بلدنا وركبنا البحر ونزلنا أوروبا علشان تقول لى ايرما ؟ وشيرلى ماكلين ؟ أنا راجع المركب فورا وانت براحتك.

نهض زميلى خلفى محاولا امتصاص غضبى وكأننى ولى أمره - مع أنه الأكبر سنا - وضبطته فى موقف مشين وهو يحاول التفسير. لكن أى تفسير ؟ هذا بيت بغاء يا أخى وبكل هذا المشهد الحيوانى.. لا فيه إيرما ولا الشغالة بتاعتها. أنا ماشى وانت حر فى نفسك..

قبل أن يسترسل هو كان رجل قد خرج من الداخل - نفس الرجل الذى دخل قبل دقائق - بينما السيدة الجالسة إلى المكتب تشير إلى الساعة المعلقة فى الحائط وهى تقول بحزم: فينيتو و.. انتهى الوقت.. فينيتو.. فى انتظاركم غدا..

فى الشارع جرى استكمال الحوار بعد أن تدخل فيه الراكبان الآخران أحدهما يشرح: هنا البغاء مسموح به قانونا.. ومخصص له هذا الشارع.. والعمل ينتهى يوميا فى التاسعة مساء. والحكاية كلها فرفشة وتسلية ولازم برضه نرجع مصر نحكى اننا عرفنا بنات فى أوربا.. أنا مجرب..

أذهلتنى كلماته فوقفت مكانى على رصيف الشارع مستفسرا بكلمات غاضبة من زميلى أنا: لماذا لم تذكر لى ذلك فى الورقة التى أرسلتها الىَّ؟ لماذا اكتفيت باسم الشارع والمكان دون تفسير يسمح لى بالاختيار أن أجىء أو لا أجىء؟ الآن فقط بدأت أفهم معنى النظرة الغريبة من سائق التاكسى والرجل الآخر الذى دلنى على المكان.

فى تلك اللحظة فوجئنا جميعا بواحد من رجال الشرطة اليونانية. وبكل هدوء قطع علينا الطريق واتجه نحوى أنا على وجه الخصوص. اننى لم أفهم من كلماته اليونانية سوى كلمة الباسبور. ناولته جواز السفر فأمسك به فى يديه وبدأ يتفحصه مليا بتركيز مدهش صفحة بعد صفحة. توزع انتباهى بين جبهتين. أخونا الراكب المجرب من قبل يقول لى هامسا: لا شىء غير عادى. مجرد إجراءات عادية بوليسية روتينية يومية لتأمين المنطقة من شغب الغرباء. فى النهاية المنطقة كلها مسئولة منهم. أما صاحبنا رجل الشرطة فمستمر فى تفحص جواز سفرى بنظرات مدققة واعية حتى لا تفوته شاردة ولا واردة فى أى صفحة. فقط.. حينما وصل إلى صورتى أدرك انه من البداية كان يمسك بجواز السفر بالمقلوب.

لكن.. إذا كان لا يقرأ.. فلماذا يطلب تفحص جواز السفر؟ ولماذا أنا وحدى دون الباقين معى؟

أجابنى الراكب الخبير المجرب الزبون السابق لهذا الشارع بكلمات تقع بين الهزل والجد: المسألة بسيطة.. الشرطة فى كل مكان سلطة. وبجهل أو بعلم.. لازم تقول: أنا هنا. أما لماذا أنت بالذات.. فإما لأنك أصغرنا سنا.. أو لأنك تبدو زعيما لنا.. أو لأنه باين عليه انك غريب فى هذا الشارع وهذه المنطقة ها ها ها ها..

فى فينسيا اتفقت مع زميلى على قواعد صارمة. فبعد ما جرى فى «بيريه» عليه أن ينسى تماما شيرلى ماكلين وإيرما لادوس وكل أفلامه الأمريكانى.. عليه أيضا ألا يتصرف بشكل يفرض على أمرا واقعا ونحن فى الغربة. عليه ثالثا أن يعرف أن نقودنا قليلة ورحلتنا طويلة والبرنامج المحدد للرحلة لا يسمح بأى انحراف او فلتان. هذا وإلا.. فليتفرج هو على أوروبا كما يحب.. ويتركنى أنا أتفرج على أوروبا كما أريد..

فى الحقيقة هو التزم، ولو بحكم الضرورة.. من هنا جاء الخطأ التالى من مسئوليتى أنا وحدى.. وبالكامل.

لقد نزلنا بحقائبنا من الباخرة فى فينسيا لكى نودعها فى محطة قطارات السكك الحديدية ونحجز مكانين فى القطار الدولى. قطار ليلى سوف نستقله متحركا من فينسيا فى الثامنة وخمس دقائق مساء إلى ميلانو.. ومن هناك شمالا وشرقا - عبر سويسرا - إلى ألمانيا.

فى السوق المجاور لمحطة القطارات مضينا نتجول بين المحلات. عند أحدها توقفت أمام مجموعة بديعة من أربطة العنق، التى لا أهواها ولا أستخدمها مطلقا، لكنها تصلح هدايا لمجموعة من الأصدقاء. السعر المكتوب هو ألف ليرة إيطالى. وبحسبة بسيطة أدركت اننى لو اشتريت خمس كرافتات فسوف أتكلف خمسة آلاف ليرة تعادل فى حينها نحو ثمانية دولارات أمريكية. فيما بعد تعلمت درسا مختلفا وهو أنه فى السفر من الأفضل ألا يشترى المرء أية أشياء على الاطلاق حتى يتحرك بخفة وسرعة فإذا كان ولابد من مجاملات فعلى المرء أن يؤجل مشترياته إلى نهاية رحلته قبل العودة إلى مصر وليس فى بداية رحلته.

لكن تلك دروس كانت ماتزال فى علم الغيب فهذه هى الرحلة الأولى خارج الحدود والمرء يريد أن يؤكد لأحبائه فى الوطن أنهم كانوا على باله من اللحظة الأولى ثم إن أربطة العنق لا تمثل هما من حيث الوزن أو المشقة. من هنا أعجبتنى أربطة العنق فقررت أن أشترى منها خمسة فورا.

أمام المحل وضعت صاحبته الكرافتات الخمس فى كيس أنيق بينما أنا مشغول بعد الورقات المالية التى سأدفعها لها. خمس كرافتات يعنى خمس ورقات من فئة ألف ليرة إيطالية. همس زميلى فى اذنى قائلا إياك أن تدفع لها من غير أن تساوم معها هؤلاء طلاينة وكلهم أولاد حرام تحب أقول لك جينا لولو بريجيدا أو كلوديا كاردينالى عملوا ايه فى آخر فيلم أمريكانى؟ الآن قررت أن أجرب نصيحته وبدلا من خمسة آلاف ليرة ثمنا للكرافتات الخمس ناولت السيدة ثلاثة آلاف ليرة فقط من باب الشطارة والمساومة .يادوب أنا عملت كده وياداهية دقى. كلمة منها كلمة منى ولا سميع ولا مجيب. حيطة تكلم حيطة. لا أنا أتكلم طليانى ولا هى تتكلم إنجليزى أو فرنساوى.

فى البداية هى اعترضت بهدوء لكن مع اصرارى تحول هدوؤها إلى السخونة شيئا فشيئا. أصواتنا أصبحت عالية والمشهد يجذب انتباه عابرى الطريق يمينا ويسارا. السيدة توقف أحدهم بعد

الآخر تسأله: سكوزى بيرنافورى. ابدا طلياني طلياني. لا أحد يتكلم انجليزى وزميلى يهمس فى أذنى مهنئا نفسه ومشجعا لى: جالك كلامى ؟ بالضبط الفيلم الأمريكانى. اثبت على موقفك ولا ليرة زيادة هم نصابين لكن إحنا برضه شطار. حتى الثلاثة آلاف ليرة كثير عليها. أصل كلوديا كاردينالى فى آخر فيلم أول ما ردحت للزبون راح فى شربة ميه.

فى النهاية فكرت فى أن أعدل عن الفكرة من أساسها. لا كرافتات. وهاتى الليرات وبين البائع والمشترى يفتح الله.

هنا بالضبط تجهم وجه السيدة وهى تقبض بيدها على الثلاثة آلاف ليرة وهى تقول لى فى حسم: مومينتو.. لقد تركتنى وزميلى واقفين فى الشارع أمام المحل وغاصت هى داخل المحل دقيقة ودقيقتين ثم عادت وفى صحبتها فتاة ربما لا يزيد سنها على السادسة عشرة .إذا لم تكن هذه كلوديا كاردينالى فى صباها فلابد أنها بنت خالتها والا إيه يا على ؟ قال لى زميلى على: ولو.. كفايه عليهم ثلاثة آلاف ليرة. دول فى كل فيلم أمريكانى شغلتهم يشطبوا على أى زبون فى غلوة واحدة. خليك ثابت على المبدأ.. ثلاثة آلاف ليرة والا بلاش البيعة من أصلها.

فى اللحظات التالية بدأت المشكلة تتضح. فبكلمات إنجليزية مهجنة قالت لى الفتاة ما خلاصته: هذه ماما.. ماما تريد أن تقول لك إن الثمن الذى تدفعه لها كثير. فالكرافتات الخمس معا ثمنها كلها ألف ليرة وما تدفعه أنت لها أكثر مما هو معلن من المحل.. لذلك أخذت الفتاة الفلوس من يد أمها لكى تعطينى ورقتين من فئة الألف ليرة.. ثم ناولت أمها ورقة واحدة بألف ليرة قائلة لى مع ابتسامة عريضة: جراتسى.. جراتسى.. طيب على الأقل اسمك إيه ؟ سيلفانا. وأنت ؟

قلت لها: أجبسيانا..

قاطعنى زميلى قائلا: أنا كمان والنبى.. عرفنى بها.

قلت لها: أنت سيلفانا.. وأنا اجبسيانا.. وهو أمريكانا.

ضحكت الفتاة بما يزيد على خمسة آلاف ليرة أخرى. ولأن موعد قطارنا يحل بعد ربع ساعة فقد أصبح لابد أن ننصرف.. والفتاة تقول لنا مع أمها: ارفيديليرا. مع السلامة.. بالعافية شددت زميلى من ذراعه حتى نسرع إلى المحطة. هذا والا.. ربما وقف متسمرا أمام المحل الليل بطوله.

فى القطار كان هو مستمرا فى اندهاشه: غريبة الحكاية دى. يعنى الطلاينة فيهم والله ولاد حلال مثلنا. إنما ليه جينا لولو بريجيدا وكلوديا كاردينالى..

ثم سكت قبل أن يتمتم لنفسه قائلا: معلهش يا كلوديا.. لك يوم أشوفك فى فيلم أمريكانى تبيعى كرافتات. من دلوقت انا طالع من ذمتى لك خمسة آلاف ليرة. أما الأمريكان فلى معاهم حساب تانى.

من باب الخطأ

ليـــس معتادا أن يبـــدأ المرء الكتابة من باب الخطـــأ. فالكتابة فعل إرادى محدد.. ســـواء كتابة مشـــاعر أو حقائق. مع ذلك فهذا هو ما أفعله الآن بالضبط. هناك خطأ شـــائع فيما نقرأه ونسمعه كل يوم. خطأ يزداد شـــيوعا مع الوقت.. بما يجعله فكرة مستقرة عند أغلبية من كتابنا ومعلقينا. الكل يتحدث عن دخولنا وشيكا إلى قرن جديد، أو ألفية ثالثة من السنوات حسب التقويم الميلادى. الكل يتحدث عن ٣١ ديســـمبر ١٩٩٩ ليس فقط باعتباره نهاية سنة.. ولكن أساسا باعتباره ختاما لقرن، هو القرن العشـــرين. بالتالى يتحدث الكل أيضا عن أول يناير القادم – ســـنة ٢٠٠٠ – باعتباره أول أيام القرن العشرين.

الناقدون يتذمرون من أشـــياء عديدة محتجين بقرن جديد. وســـواء بدأ الحديث بمشاكل المرور أو بنســـبة الغياب والحضور فى مجلس الشعب فإن الجملة المعتادة بتنويعاتها هى: ان هذا لم يعد يليق بشعب مصر وهو على عتبة قرن جديد. والمصفقون أيضا يحتجون بالقرن الجديد. وسواء اشترى شخص حذاء أو سيارة.. أو حتى أرضا أو مطبعة.. فإنه يفحمك بقوله: هذا ضرورى استقبالا للقرن الجديد.

والحقيقة أن المســـألة كلها خطأ فى خطأ. وأن ســـنة ١٩٩٩ هذه ليســـت ختاما للقرن العشـــرين. الصحيح انها سنة ٢٠٠٠. فالقرن العشرون ـ حسب التقويم الميلادى مستمر معنا حتى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠. أما القرن الجديد، القرن الحادى والعشرون، فإنه يبدأ يوم أول يناير ٢٠٠١.

هناك إذن فسحة زمنية مستمرة معنا بعد كل هذا الخطأ الشائع فى كتاباتنا وتعليقاتنا.

ليـــس معتـــادا أن يبدأ المرء الكتابة من باب الخطأ. لكنها الضـــرورة. فقبل أن أبدأ فى كتابة هذا المقال كنت أتابع نشـــرة أخبار التاســـعة فى التليفزيـــون. وهالنى من جديد أن يرد فى ســـياق أحد الأخبار المحلية هذا الخطأ الذى أشـــرت إليه. وأحيانا يكون الخطأ سببا فى المزيد من الخطأ. فلابد أن معد النشـــرة اســـتقر فى ذهنه فعلا من الصحف التى يقرأها أن القرن العشـــرين سوف يصل إلينا مع الأول من يناير ســـنة ٢٠٠٠. وسماع هذا الخطأ من تليفزيون حكومى يعطيه مسحة من التأكيد، باعتبار أن الحكومة تعرف أكثر! لكن.. لا الحكومة تعرف أكثر، ولا القرن العشرون سيجىء إلينا قبل موعده. إنه سيجىء فى موعده المقرر تماما.. أول يناير سنة ٢٠٠١.

حينما عادت نشرة الأخبار إلى الوقائع الدولية جاء الخبر عن كوفى عنان السكرتَير العام للأمم المتحدة وهو يستقبل وزيرا أوروبيا فى مكتبه. نفس المكتب الذى أتذكر تضاريسه بالضبط. باثنين شغلا من قبل منصب السكرتير العام للأمم المتحدة.. أولهما هو «أوثانت» الرجل القادم من بورما والذى أصبح السكرتير العام الرابع فى تاريخ الأمم المتحدة.. والثانى هو كورت فالدهايم الرجل القادم من النمسا والذى أصبح خلفا لأوثانت.

ربما كانت هناك صدفة أخرى تالية جعلتنى أكثر اندماجا مع ذهاب الدكتور بطرس غالى إلى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٩٢ ليصبح سكرتيرها العام السادس. كنا ما نزال فى شهر مارس سنة ١٩٩١ والراحل العزيز أحمد الرزاز – وقتها مدير الشئون السياسية بإذاعة القاهرة – يتصل بى ليجرى معى حوارا تليفونيا موضوعه الجامعة العربية.

كان مستقرا عربيا عودة الجامعة العربية إلى القاهرة بعد سنوات من وجودها المؤقت فى تونس نتيجة لقطيعة سابقة مع مصر فى أعقاب اتفاقات كامب ديفيد وما تلاها. مع المثابرة الدءوبة من الرئيس حسنى مبارك وعفة لسانه وحسن صياغته لعلاقات مصر العربية والخارجية أصبحت عودة الجامعة العربية إلى مصر تنتظر فقط حصول مصر على إجماع عربى لمرشحها كأمين عام جديد للجامعة العربية. ومصر رشحت فعلا الدكتور عصمت عبد المجيد، وزير الخارجية حينئذ، ليشغل هذا المنصب.

فى التليفون سألنى أحمد الرزاز حتى يذيع حوارنا هذا عقب نشرة أخبار الثامنة والنصف مساء بإذاعة البرنامج العام. والسؤال هو: هل تعتقد أنه سيحدث إجماع عربى يسمح فعلا بتعيين الدكتور عصمت عبد المجيد أمينا عاما للجامعة العربية؟

لم يكن السؤال من فراغ. فبعد الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ حدث انقسام مروع فى العالم العربى اختارت مصر لنفسها فيه من اللحظة الأولى الموقف الصحيح.. أخلاقيا وسياسيا وموضوعيا. موقف إدانة ورفض الغزو العراقى جملة وتفصيلا. وطوال الشهور التالية استمرت مصر تناشد العراق علنا ورسميا لكى يسحب قواته من الكويت.. اليوم وليس غدا.. لأنه إذا لم يفعل فسوف تشن الولايات المتحدة حربا حقيقية لاسترداد الكويت – ضمن تحالف دولى وإقليمى – حربا لن يدفع العراق ثمنها بمفرده وإنما العالم العربى بمجموعه.

والحرب وقعت. والولايات المتحدة تصدرت. وأصبحت فواتيرها لما بعد الحرب أضعاف أضعاف ما كان يتخيله أكثر المتشائمين. وحين خرج الرئيس الأمريكى – جورج بوش وقتها – أمام الكاميرات لكى يعلن: الآن توقفت الحرب.. أصبح واضحا أن هذه لن تكون خاتمة القصة.. وإنما مجرد انتقال إلى فصل جديد..

وأعـود إلى الدكتور عصمت عبد المجيد موضوع السـؤال الإذاعي التليفوني. قلت لأحمد الرزاز: يا أخي.. أنا أعتقد جازما أن الدكتور عصمت عبد المجيد سـيحصل على إجماع عربي رسـمي يجعله أمينا عامـا للجامعة العربية. للرجل تاريخه المعروف، ورصيـد علاقاته العربية والدولية واضح، وفي اللحظة الراهنة لن تحاول أية دولة عربية الدخول إلى الحلبة بمنافس من عندها.

سألني أحمد الرزاز: إذن لن تكون هناك أى عراقيل؟ لن تكون هناك مشكلة ؟

أجبته قائلا: لا مشـكلة. لكن هناك فرصة أهم من المشـكلة والفرصة مكانها فى نيويورك وليس فى القاهرة.

فى البداية لم يستوعب أحمد الرزاز ما أقصده. فالسكرتير العام للأمم المتحدة حينئذ هو خافيير دى كويلار.. وهو يشـغل منصبه هذا منذ سـنة ١٩٨٢ ومعروف عنه أنه صديق شـخصى للرئيس الأمريكى جورج بوش.. والولايات المتحدة لها ثقل كبير داخل مجلس الأمن فى اختيار السـكرتير العام للأمم المتحدة. والأهم من ذلك أن دى كويلار مستمر فى منصبه بهدوء ولم يكن مثارا فى حينها على الاطلاق – علنا على الأقل – اختيار بديل له.

قلت لأحمد الرزاز لمزيد من الشـرح: الميثاق الذى قامت على أساسه الأمم المتحدة كمنظمة دولية فى سنة ١٩٤٥ ليس فيه حد أقصى لمدة خدمة السكرتير العام ولا تحديد لجنسيته.

مع ذلك هناك عرف اسـتقر بين الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن على نقطة أولى هى ألا يستمر شخص فى منصب السكرتير العام أكثر من مدتين كل منهما خمس سنوات.

لقد كان «تريجفى لى ». من النرويج – هو أول سكرتير عام للأمم المتحدة عند إقامتها. لكنه اضطر إلى الاسـتقالة فى منتصف مدته الثانية سنة ١٩٥٣ بعد أن فقد الاتحاد السوفييتى الثقة فى نزاهته فقرر مقاطعته. وجاء السـكرتير العام الثانى «داج همرشـولد» من السـويد – يعنى من أوروبا ايضا – لكن الحجة كانت هى أنه يكمل مدة خدمة من سبقه. ثم رضى عنه الجميع فجددوا له إلى ان جرى اغتياله فى ظروف غامضة عقب أزمة دولية بسبب الكونغو. ثم أصبح «اوثانت» سكرتيرا عاما جديدا قادما من بورما. يعنى من آسيا – بعده «كورت فالدهايم» من النمسا.. يعنى أوروبا مرة أخرى.

فى سـنوات فالدهايم كانـت دول عدم الانحياز – التى قادها أصلا جمـال عبد الناصر من مصر وجواهـر لال نهرو من الهند وجوزيف تيتو من يوغوسـلافيا – قد أصبحت ذات أغلبية مسـموعة الصـوت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. هذه الأغلبية تشـاورت مع الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن لكى يكون اختيار السكرتير العام للأمم المتحدة أكثر ديمقراطية. فى ميثاق الأمم المتحدة ليست هناك أية شـروط او مواصفات أو مؤهلات محددة يلزم توافرها فى شخص السكرتير العام. فقط لابد أن يرشحه مجلس الأمن، ثم يحظى الترشيح بموافقة أغلبية الدول الأعضاء فى الجمعية العامة.

هنا بالضبط تم الاتفاق، بشكل ودى وغير رسمى، على عرف جديد هو ان يجيء السكرتير العام من قارات العالم بالتتابع. هكذا أصبح جافيير دى كويلار من بيرو - يعنى من أمريكا اللاتينية - سكرتيرا عاما. أوروبا وآسيا جرى تمثيلهما من قبل. الدور الآن على افريقيا. وإذا كنا ما نزال فى مارس ١٩٩١ ودى كويلار تنتهى مدته الثانية فى ٣١ ديسمبر ١٩٩١.. يصبح لازما من الآن أن تتقدم افريقيا بمرشح من عندها ليصبح السكرتير العام السادس للأمم المتحدة.

سألنى أحمد الرزاز بتلقائية: لكن ما شأن هذا بمصر؟

قلت له: لمصر شأن كبير هنا. مصر الآن - والآن تحديدا فى سنة ١٩٩١ - يجب أن تتقدم هى بمرشح من عندها لمنصب السكرتير العام للأمم المتحدة لأسباب محددة. أولا: لأن هناك عرفا مستقرا فى كواليس الأمم المتحدة بأن الدور على افريقيا، صحيح هو عرف غير معلن ولا مسجل ولا مكتوب.. لكن المتابعين بدقة لما يجرى وراء الكواليس يعرفون به. ثانيا: مصر دولة افريقية بحكم الجغرافيا. ثالثا: مصر بحكم التاريخ كان لها دور محورى فى استقلال الكثير من دول افريقيا طوال ايام افريقيا الصعبة. وفى السياسة انت تزرع اليوم لكى تجنى الثمار غدا. الآن.. نحن غدا! رابعا: الولايات المتحدة فى الماضى او المستقبل قد تعترض على أن يصبح مصرى سكرتيرا عاما للأمم المتحدة. لكن بالنسبة لليوم. هناك علاقات وثيقة بين الرئيس الأمريكى جورج بوش والقيادة المصرية، بالتالى ليس محتملا وجود اعتراض أمريكى فى مشاورات الكواليس. لكن المسألة تتطلب مجهودا فى اتجاهات أخرى ويجب البدء فيه مبكرا. وعلى أى حال فهذا هو التحليل الذى أراه ردا على سؤالك. تحليلى خلاصته: اذا لم تصل الدبلوماسية المصرية إلى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة الآن.. فلن تصل إليه فى أى وقت آخر.

انتهى الحوار التليفونى الإذاعى وانشغلت بعده بأشياء أخرى.. فليس من طبعى مطلقا الاستماع إلى ما أقوله.. صوتا وصورة.

فى ظهر اليوم التالى اتصل بى أحمد الرزاز تليفونيا من جديد. فى هذه المرة كلماته قلقة، فقط هو يستفسر منى لنفسه. ومن قبيل المراجعة، قائلا: تفتكر فيه حاجة غلط فى كلامنا المذاع أمس؟

الآن أصبحت أنا الذى أرد عليه بكلمات قلقة: غريبة.. هذه أول مرة أجدك متشككا فى مادة مذاعة.. وبأثر رجعى..

أجابنى بقوله: لست بالضبط متشككا.. لكن وزير الإعلام (صفوت الشريف) استدعانى لمقابلته على أن آخذ له بالذات شريط كاسيت مسجلا عليه حوارى معك الذى أنيع أمس كاملا. مع أن الشئون السياسية فى الإذاعة والتليفزيون هى من صميم اهتمامات ومشاغل كل وزير للإعلام.. إلا أننى كنت أعرف أن صفوت الشريف - تحديدا - يعطى مساعديه مساحة كبيرة من حرية التصرف والثقة بالنفس حتى يحافظوا على أداء مهنى يجذب أذن المستمع وعين المشاهد..

قلت لأحمد الرزاز: ليس عندى تفسير خاص فى التو واللحظة. لكن بكلماتك هذه أصبح عندى حب استطلاع. على أى حال كلامى هو كلامى ومسئوليتى. أى شىء آخر هو تفاصيل. أرجوك.. وأيا كان رد فعل الوزير بعد سماعه للشريط.. اتصل بى..

لم يتصل بى. هذا جعلنى أكثر قلقا فشغلت نفسى بأشياء أخرى.

فى المساء دق جرس التليفون. وبمجرد أن رفعت السماعة قال المتحدث: يا محمود إزيك.. أنا عصمت عبد المجيد..

لم تكن هناك أية علاقة بين أفكارى الداخلية المتوترة فى تلك اللحظة وبين الدكتور عصمت عبد المجيد – وزير الخارجية وقتها – والمرشح رسميا من مصر ليصبح أمينا عاما للجامعة العربية.. لكن الصوت هو الصوت. والرجل هو الرجل بنفس روحه الودودة دائما..

ثم قال الدكتور عصمت: الحقيقة أريد أن استفسر منك أكثر بشأن تحليلك الذى أذيع أمس بخصوص السكرتير العام للأمم المتحدة. انا فى لحظتها كنت بالسيارة فى طريقى إلى دعوة عشاء لابد من المجاملة بالحضور فيها بصفتى وزيرا للخارجية. لم أسمع سوى أجزاء من تحليلك بعد أن طلبت من السائق أن يرفع مستوى الصوت فى الراديو. لذلك اتصلت بالوزير الأخ صفوت الشريف صباح اليوم أرجوه – إذا كان هذا ممكنا – الحصول من الإذاعة على التسجيل كاملا. والآن وصلنى الشريط وسمعت الحوار كما جرى. الموضوع الآن هو..

حينما وصل الدكتور عصمت إلى «الموضوع هو» تبخر من داخلى كل التوتر المعبأ والمتراكم منذ الظهيرة.. فليس مريحا بالمرة أن يعاقب مذيع بسببى.. أو بسبب حرية أتاحها لنفسه – بخاتم النسر – فى إدارة حوار إذاعى مع الآخرين بعد أن قيل له إن المهم هو الأداء المهنى لجذب وإفادة المستمع.

سألنى الدكتور عصمت بعدها عن الفكرة من أساسها. عن حساباتها واحتمالاتها وتقديراتها.. عن وعن وعن.. فالجميع وقتها كانت تمتصه بالكامل مجريات الأمور بعد تحرير الكويت.

هذا يعيدنى مرة أخرى إلى الأمم المتحدة وكوفى عنان والكتابة من باب الخطأ.

فى الأمم المتحدة كان عصمت عبد المجيد نفسه أحد سفراء مصر اليها ومندوبيها لديها. فى الواقع يبدو ان هناك تقليدا اكتسبته السياسة المصرية بعد طول خبرة فى الميدان الدولى. تقليد بأن يكون تمثيلها فى الأمم المتحدة هو الامتحان العملى الذى يرشح الناجح فيه ليصبح فيما بعد وزيرا للخارجية. حدث هذا بالنسبة للدكتور محمود فوزى ومحمود رياض. حدث أيضا بالنسبة لأحمد حسن الزيات وعصمت عبد المجيد وعمرو موسى.

ومــن هؤلاء تابعت علــى الطبيعة، وفى نيويورك، ثلاثة على الأقــل.. أكثرهم الدكتور عصمت عبد المجيد. ففي مقر ســكنه في نيويورك كنت دائما أجد ضيوفا لديه.. في غداء أو عشاء. ضيوف.. اكتشــف هو مبكرا أنهم سيشكلون سياســة أمريكا في المســتقبل.وبعكس أى مجال آخر من العمل الدبلوماسى.. فإن الدبلوماسية الحقيقية فى الأمم المتحدة هى دبلوماسية بيوت وصالونات واجتماعات خــارج نطاق مبنى الأمم المتحدة ذاته. فى الحقيقة.. كانت مفاجأة كاملة بالنســبة لى حينما عرفت لأول مرة أن هناك دولا معينة اعضاء فى الأمم المتحدة تدير مناقشــاتها فى مقراتها الخاصة بمدينة نيويورك.. وداخل غرف مجهزة تكنولوجيا للحماية ضد تنصت وتجسس الآخرين!

لكن تلك قصةَ أخرى.

□□□



الفيتو .. والقانون.. والغابة

هى بلدة صغيرة للاستشفاء تقع على ساحل البحر الأسود. بلدة لم يكن أحد خارج محيطها قد سمع باسمها من قبل. مع ذلك.. فذات يوم من أيام سنة ١٩٤٥ قفز اسم تلك البلدة إلى الصفحات الأولى حول العالم. من يومها لم يعد أحد يستطيع أن يفهم أحداث العالم مطلقا فى النصف الثانى من القرن العشرين بغير أن يتوقف كثيرا أمام ما شهدته تلك البلدة فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥.

البلدة اسمها «يالتا». والمناسبة كانت اتفاق «الثلاثة الكبار» على اختيارها مكانا لاجتماعاتهم فى تلك الأيام العصيبة الحاسمة. هناك حرب عالمية ثانية مستمرة منذ سنة ١٩٣٩ بطرفين أساسيين يتقاتلان باتساع العالم برا وبحرا وجوا. هناك مجموعة «دول المحور» بقيادة ألمانيا وإيطاليا واليابان.. مقابل مجموعة «دول الحلفاء» بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا «العظمى».

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية من فصلها الأخير المعبر عن انتصار «الحلفاء».. اختار «الثلاثة الكبار» بلدة «يالتا» مقرا لاجتماعهم الثانى سعيا للاتفاق على معالم دنيا ما بعد الحرب. إنهم: فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، وجوزيف ستالين الزعيم السوفيتى وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا.

فى نهاية اجتماعاتهم صدرت عنهم بيانات فخيمة حماسية تكررت فيها كلمات الحرية والديمقراطية والانتخابات التى ستنعم بها كل شعوب العالم بعد اندحار وهزيمة العدو.

أما فى الحقيقة فقد كان اجتماع «يالتا» يستهدف أساسا تقاسم «غنائم الحرب» فى وثائق استمرت شديدة السرية لسنوات طويلة بعدها.. بل واستمر مضمونها معمولا به فى أرض الواقع لأكثر من ٤٥ سنة بعدها. هكذا اتفق «الثلاثة الكبار» على تقسيم أوروبا مثلا إلى معسكرين.. أحدهما شرقى بقيادة الاتحاد السوفيتى. والآخر غربى بقيادة الولايات المتحدة.

وبعد تحديد مصير «غنائم الحرب» دولة بعد دولة.. بقيت بعض الحالات المثيرة للجدل. دولة يوغوسلافيا مثلا.. هل تكون من نصيب الشرق أو الغرب؟ فى الاجابة على هذا السؤال أراد الزعيم البريطانى ونستون تشرشل اختصار الوقت اللازم للترجمة، فأمسك بقلم رصاص أمامه وكتب فى ورقة بيضاء: ٥٠٪ – ٥٠٪.

ثــم دفع بالورقة إلى روزفلت بجواره ثم إلى ســتالين معه على نفس المائدة المســتديرة. وتطلع ستالين إلى الورقة متأملا.. ثم هز رأسه علامة الموافقة.

وبذلك تحدد مصير يوغوسلافيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية. والمصير هو: أن يتقاسم الشرق والغرب معا النفوذ السياســى فى يوغوســلافيا.. فلا تحتكرها لنفسها إحدى القوتين البارزتين فى هذا «النظام الدولى الجديد».

لكن «الثلاثة الكبار» اتفقوا أيضا على شيء آخر. فبدلا من منظمة «عصبة الأمم» التى أقيمت بعد الحرب العالمية الأولى وثبت فشلها.. هناك منظمة جديدة ستقوم باسم «منظمة الأمم المتحدة» لتصبح هــى العنوان الديمقراطى لعالم مــا بعد الحرب. فى «الأمم المتحدة» ســتكون فكرة العمل الجماعى للحفاظ على الأمن والسلام هى الأساس.. ومبدأ «عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة أو بالغزو العســكري» هــو المبدأ الحاكم. والأمم المتحدة تقبــل فى عضويتها كل دولة تتعهد مســبقا بالالتزام بالميثــاق المتفق عليه. من مجموع الدول الأعضاء تتشــكل الجمعية العامــة للأمم المتحدة لكى تصبح بمثابــة البرلمان الذى يعبر عن إرادة المجتمــع الدولى، حيث لكل دولة – صغرت أو كبرت – صوت واحد عند اتخاذ القرارات.

هناك أيضا «مجلس الأمن».. وهو بمثابة السلطة التنفيذية ـ أو الحكومة ـ فى الأمم المتحدة. هذا المجلس تفوضه الدول الأعضاء بالأمم المتحدة بســلطات واســعة تسمح له باتخاذ ما يلزم من قرارات لحماية الأمن والســلام الدوليين.. بل وحتى ســلطة فرض قراراته بالقوة على الدولة التى يقرر أنها تتحدى «النظام الدولى الجديد».

مجلس الأمن يتشكل من خمس عشرة دولة. عشر منها يتم انتخابها لعضوية المجلس كل سنتين. أما الخمس الأخرى فتتمتع بالعضوية الدائمة لمجلس الأمن. وهى محددة بالاســم: الولايات المتحدة – الاتحاد السوفيتى بريطانيا – فرنسا – الصين.

فــى اجتماع «يالتــا» – فبراير ١٩٤٥ – اتفق «الثلاثة الكبار» – كل لأســبابه الخاصة – على أن هــذا الامتياز الاســتثنائى ليس كافيا لتمييز المنتصرين فى الحرب علــى غيرهم. فالنقطة الأهم هى أنــه برغم أن «الحلفاء» عملوا معا لهزيمة عدو مشــترك.. إلا أن هذا التحالف كان متلازما أيضا مع درجات متفاوتة من التربص وعدم الثقة.

بريطانيا مثلا ترى نفسها كامبراطورية عظمى لها مصالح باتساع العالم. وهى متخوفة من اتجاه الولايــات المتحــدة بعد الحرب إلى وراثتها هى – ووراثة بريطانيــا – حتى تصبح هى القوة العالمية الأكبر. جوزيف ســتالين كان يرى أنه يمثل الاتحاد السوفيتى الدولة الماركسية التى فرضت عليها ضرورات الحرب التحالف مع دول رأسمالية كأمريكا وبريطانيا. لكن انتهاء الحرب العالمية الثانية

سوف يعنى عودة المسيرة إلى حالتها الأولى حيث إن كلا من الرأسمالية والماركسية تريد قطع رقبة الأخرى. الولايات المتحدة ترى أنها ـ وقد شاركت بقوات من عندها لتحارب خارج أراضيها فى أوروبا والمحيط الباسفيكى وأقرضت بريطانيا الكثير من المال والسلاح – فإن من حقها أن تصبح هى الجالسة بمفردها فى كرسى قيادة الغرب كله.

فى اجتماع «يالتا» جاء الحل. والحل هو أن تتمتع الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن – ومعظمها امبراطوريات سابقة أو لاحقة – بحق النقض – الفيتو – هذا الفيتو معناه أنه لو فاز أى مشروع قرار معروض على مجلس الأمن بأربعة عشر صوتا.. ثم اعترضت عليه دولة واحدة من الخمس دائمة العضوية.. يسقط مشروع القرار تلقائيا.. حتى من غير أن تضطر الدولة المعترضة إلى إبداء أية أسباب!

لم يكن هذا يتمشى بالمرة مع الديمقراطية التى يبشر بها المنتصرون باقى العالم عنوانا لنظام دولى جديد فيما بعد الحرب العالمية الثانية. مع ذلك فالواقع هو الواقع. وكل واحدة من الدول الخمس الكبرى – المنتصرة – وجدت فى تمتعها بحق النقض-الفيتو-ضمانا إضافيا يمنع الدول الأخرى المنافسة لها من التطفل على مصالحها الخاصة باتساع العالم.

هكذا قامت «الأمم المتحدة» رسميا فى سنة ١٩٤٥، بعضوية ٥١ دولة – هى فى حينها كل الدول المستقلة فى العالم – وبالتدريج، مع اتساع حركات التحرر والاستقلال فى العالم الثالث، أصبح أعضاء الأمم المتحدة حاليا ١٨٥ دولة (وتاليا ١٩١).

ومصر شاركت فى المؤتمر التأسيسى للأمم المتحدة سنة ١٩٤٥. وفى حينها لم يكن أحد يستطيع التنبؤ بأن العالم العربى بمجموعه سوف يعانى بشدة من ذلك الامتياز الاستثنائى الذى تحتكره لنفسها الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية فى مجلس الأمن. امتياز حق النقض – الفيتو – أحيانا كان الفيتو لصالح العرب. لكن غالبا كانت الولايات المتحدة تستخدمه لحماية اسرائيل من غضب المجتمع الدولى الذى تمثله الأمم المتحدة.

فى يونيو ١٩٦٧ مثلا قامت إسرائيل بـ «غزوتها» الكبرى التى انتهت باحتلال سيناء والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن. والتطبيق النزيه لميثاق الأمم المتحدة كان يعنى تحرك مجلس الأمن لإصدار قرار بإدانة العدوان الإسرائيلى وإلزام اسرائيل بالانسحاب فورا إلى مواقعها قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧.. إن لم يكن إلزامها أيضا بدفع تعويضات للدول العربية الثلاث المعتدى عليها.

وفيما بين الخامس من يونيو والثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وقفت الولايات المتحدة بالمرصاد داخل مجلس الأمن لحماية إسرائيل من الإدانة ومن الالتزام بالانسحاب الكامل إلى حدود ما قبل حرب يونيو. وأمريكا دولة عظمى على مستوى العالم. *لكنها ليست عظمى بما يكفى لإلغاء*

باقى دول العالم. ومصر أصبحت مهزومة. لكنها ترفض أن تتحول تلك الهزيمة إلى أن تصبح مصر غنيمة حرب لإسرائيل بحماية أمريكية.

هكذا اكتشفت الولايات المتحدة أنها لو استمرت فى إصرارها على حماية العدوان الإسرائيلى بتلك الضراوة والتحدى الصارخ لكل الشرعية الدولية التى تمثلها الأمم المتحدة.. فإنها فى الواقع ستصبح هى المعزول داخل الأمم المتحدة.. وليس مصر.

وإحدى النقاط الحاسمة التى برزت فيها تلك العزلة جاءت فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٧. ففى مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك دقت أجهزة «التيكرز» التابعة لوكالات الأنباء العالمية أجراسها تنبيها لورود خبر استثنائى عاجل وخطير. والخبر هو أن زوارق الصواريخ المصرية قامت بإغراق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» فى مياه البحر الأبيض شمال بورسعيد.

كان الخبر استثنائيا تماما من زاويتين: أولا – أن تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الحروب التى تستخدم فيها زوارق الصواريخ البحرية، وبنجاح كامل، ضد سفينة حربية بضخامة وتجهيزات وأسلحة المدمرة الإسرائيلية «إيلات». ثانيا – ان مصر، وهى الدولة المهزومة عسكريا لتوها قبل أربعة شهور فقط توضح عملياً أن الهزيمة لن تكون فاصلة ولا نهائية.. وأن حرب يونيو الإسرائيلية هى مجرد جولة ستتلوها جولات فى «صراع ممتد».

يومها كان مندوبو دول عديدة فى الأمم المتحدة بنيويورك مسارعين إلى مندوب مصر – محمد عوض القونى وقتها – ليقولوا له باعتزاز: الآن تؤكد مصر عمليا قبولها للتحدى الإسرائيلى ورفضها للغطرسة الامريكية. أما مندوب الهند فى الأمم المتحدة.. فبمجرد أن لمح أمامه آرثر جولدبيرج المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة استوقفه قائلا: مستر جولدبيرج.. قلنا لكم عدة مرات إن حمايتكم للعدوان الإسرائيلى ضد المجتمع الدولى كله معناه أنكم تعيشون فى عالم خيالى من الأوهام. والآن ها هى مصر ترد عليكم عمليا فى الميدان بنفس اللغة. لغة القوة.

لم تكن مصر قد انتهت ـ بعد ـ من إعادة بناء قواتها المسلحة الجديدة بعد هزيمة يونيو. فى الواقع إنها كانت ماتزال فى الفصل الافتتاحى الأول من ذلك العمل البطولى. لكن إغراق المدمرة «إيلات» جاء بالضبط توضيحا مبكرا لمن لا يريد أن يفهم أن مصر لا تذعن أبدا لقانون القوة. قانون الغابة.

فى كواليس الأمم المتحدة اضطرت الولايات المتحدة إلى التواضع بعض الشىء فى غطرستها داخل المنظمة الدولية. هكذا صدر أخيرا قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر كأساس لا تعترض عليه الولايات المتحدة – باستخدام الفيتو – داخل مجلس الامن. ذلك القرار لا يزيد على صفحة واحدة من القطع المتوسط. مع ذلك فكل كلمة فيه كان يجرى التشاور بشأنها بين عواصم دولية عديدة باتساع العالم.

وزيـر خارجية إسـرائيل مثلا اضطر إلى عبـور المحيط الأطلنطى طائرا ذهابـا وإيابا فيما بين نيويـورك ولندن سـعيا لإقناع رئيس وزراء بريطانيا ـ صاحبة المشـروع الأصلـى - بأن تحذف من الصياغة كلمة «الانسـحاب» كالتزام قاطع على إسـرائيل باسـم مجلس الأمن. يومها رد عليه رئيس وزراء بريطانيـا : ليس هناك أمل مطلقا فى أن يمر مشـروع القـرار هذا من مجلس الأمن بغير إلزام إسـرائيل بالانسـحاب. حتى الأمريكيين حاولوا هذا لحسـابكم فواجههم الفشـل الذريع. وإذا لم تسـمعوها من الأمريكيين فها نحن نقولها لكم:... أفيقوا من نشـوة انتصاركم العسـكرى وعودوا بسـرعة إلـى أرض الواقع. كلمة «الانسـحاب» ومبدأ «عدم جواز الاسـتيلاء علـى الأراضى بالغزو العسكرى» «هما المفتاح الوحيد لكى يمر مشروع هذا القرار من مجلس الأمن.

كان وزير خارجية مصر وقتها الذى يمثل مصر فى مشاورات الكواليس بالأمم المتحدة هو محمود رياض. وعلى مدار الليل والنهار كانت مشاوراته لا تنتهى مع كل الدول الفاعلة فى الأمم المتحدة، حتى المندوب الأمريكى نفسه.

وفى بعض اللحظات كان محمود رياض يبلغ القاهرة برقيا بالضغوط الأمريكية المضادة على بعض الدول. والقاهرة تتشاور برقيا مع زعامات دولية واقليمية بحجم «شارل ديجول» فى فرنسا و«أنديرا غاندى» فى الهند و«ماوتسـى تونج» فى الصين و«هوارى بومدين» فى الجزائر و«هيلاسلاسـى» فى أثيوبيـا. والقاهرة تخطر محمود رياض فى نيويورك بالمواقف المؤيدة التى حصلت عليها.. فيجتمع وزير الخارجية من جديد مع مندوبى الدول المعنية.. لكى يجد أن تعليمات حكوماتهم قد سـبقته إليهم لكى ينسقوا بالكامل مع الوفد المصرى.

مـع ذلك لم تكن مصر تريـد أن تترك أى مجال للصدفة أو للتلاعب بالألفاظ فى صياغة اللحظات الأخيرة.. كما هو مألوف فى أحوال عديدة فى مشاورات الكواليس بالأمم المتحدة.

هكذا.. ففى جلسـة التصويت على مشـروع القرار ٢٤٢ بمجلس الأمن مسـاء ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ تكلم مندوبو فرنسا والهند واليابان واثيوبيا وبريطانيا ونيجيريا والبرازيل لكى يوضحوا مفهومهم الدقيق - كأعضاء فى مجلس الأمن ـ لمعنى التزام إسـرائيل بالانسـحاب. ورئيس مجلس الأمن فى ذلك الشهر مستر «مامادو بوباكار» من دولة مالى يحرص فى جلسة التصويت على أن يسجل علنا، وفى المضبطة الرسـمية للجلسة، أن مشروع القرار المعروض على المجلس للتصويت يعنى «أولا - ان انسـحاب القوات الإسـرائيلية كلها من جميـع الأراضى العربية المحتلة منـذ الخامس من يونيو - ١٩٦٧ - لا يمكن أن يكون محلا لأى شرط من أى نوع».

هكـذا حصل القرار ٢٤٢ على كل أصوات أعضـاء مجلس الأمن ـ دائمين وغير دائمين ـ بما فيها الولايـات المتحدة. ومن وجهة النظـر المصرية وقتها لم يكن القرار مثاليا.. فهو - مثلا - لم يفرض

على إسرائيل عقوبات. لكن القرار أيضا لم يعط لإسرائيل أيا من مطالبها الأساسية. هى لم تكن تريد النص على الانسحاب، وكانت تريد مفاوضات مباشرة مع مصر والأردن وسوريا. وتريد علاقات دبلوماسية وتجارية... الخ، لا شىء بالمرة من هذا ورد فى القرار ٢٤٢. فقط إسرائيل ملتزمة بالانسحاب مقابل التزام الدول العربية المعنية (تحديدا: مصر وسوريا والأردن) بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل.

بعد ٦٧ يوما قضاها محمود رياض - وزير خارجية مصر وقتها - فى نيويورك فى معركة دبلوماسية حقيقية انتهت بصدور القرار ٢٤٢ سألته: إذن... هل ينتهى الاحتلال الاسرائيلى؟

اعتدل محمود رياض فى كرسيه وهو يرد بهدوء وتأكد: نحن لم نذهب إلى الأمم المتحدة لأنها هى التى ستنهى الاحتلال الإسرائيلى. فالاحتلال ينتهى فقط بنفس الوسيلة التى جرى بها. ينتهى بالقوة. ولأن إعادة بناء القوات المسلحة المصرية تحتاج إلى وقت.. فقد ذهبنا إلى الأمم المتحدة كسبا للوقت. ذهبنا أيضا إلى مجلس الأمن اتقاء لشرور واثباتا لحقوق. الشرور اتقيناها والحقوق أثبتنا بعضها. تلك لغة دبلوماسية. أما لغة الواقع فهى القوة... والقوة وحدها هى اللغة التى تفهمها إسرائيل.

هل يعنى هذا أن الأمم المتحدة كفكرة ومنظمة وشرعية دولية، قد فشلت؟

فى الواقع هى نجحت أحيانا وفشلت غالبا. فى حالات الفشل كان هذا يرجع إلى أن دولة كبرى من الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن تصر على أن تحتكر لنفسها الحل والربط فى منطقة تريدها تابعة لها بعيدا عن مشاركة أو مزاحمة الآخرين. الشرق الأوسط هنا نموذج لمصالح كبرى تريدها الولايات المتحدة لنفسها.. حتى على حساب حلفاء لها كفرنسا وبريطانيا.

مع ذلك.. يظل عالم توجد فيه «الأمم المتحدة» أفضل من عالم بدونها.

وذات يوم، فى نيويورك، سألت السكرتير العام الثالث فى تاريخ الأمم المتحدة: لماذا تكره إسرائيل دائما التعامل معك ومع الأمم المتحدة؟

رد الرجل الآسيوى «أوثانت» بكلمات رصينة: لأن إسرائيل تعرف أنها لن تجد عندى سوى قرارات مجلس الأمن ضدها فى يدى اليمنى.. ومبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة فى يدى اليسرى.. كلاهما لا تريد إسرائيل الالتزام به.

□□□



أولها .. فلفل !

الفلفل الأسـود لم يوجد من الأصل لكى يبدأ به الكتاب مقالاتهم. لم يوجد أيضا لكى يتم تناوله بمفرده أو مستقلا عن مأكولات يصاحبها أو يضاف إليها. مع ذلك.. وفيما يلى من سطور.. فإن الفلفل الأسود ليس مضافا إلى.. أو مضافا إليه. إنه هنا.. وفى أقل القليل.. صلب الموضوع.

من أجل الفلفل الأسـود تغير وجه العالم. وفى سبيله احتشدت جيوش وجرت معارك وحروب وغـزوات.. وسـقطت ممالك وازدهرت دول وتقـرر مصير امبراطوريات.. بـل أيضا تعرفت إحدى قارات هذا العالم على قارة أخرى لأول مرة.

كان الفلفـل الأسـود، والحبهان، وحزمة أخـرى من التوابل.. تجزى زراعتهـا فى أجزاء من قارة آسـيا. من خلال التجارة اكتشـفت قارة أوروبا أن الطعام إذا أضيف إليه الفلفل الأسـود وباقى البهارات.. يصبح ألذ.. وربما يفتح الشـهية بدرجة أكبر. لكن اوروبا بمجرد أن تفتحت شـهيتها على الفلفل الأسـود اكتشـفت أن مصر والمصريين هم الواسـطة التى لابد منها. فالمصريون، والعرب عموما، يقومون بالمتاجرة مع ممالك وإمارات الهند وآسـيا من بعدها. إنهم يستوردون منها التوابل - وفى مقدمتها الفلفل الأسود - ثم يصدرونها إلى أوروبا. الأرباح هنا مؤكدة وتتجاوز ثلاثمائة فى المائة، وبين البائع والمشترى.. يفتح الله.

ولأن أوروبـا باردة المناخ فلا تصلح فيها زراعة التوابل.. حيث التوابل هى من محاصيل البلدان الحارة القريبة من خط الاسـتواء. فى الهند وسيلان قليل منها. أما مجموعة جزر الملايو فهى غنية بها حتى إنها سـميت «جزر التوابـل». ومنذ ذاقت أوروبا طعم التوابل فـى مأكولاتها، من خلال التجارة مع العرب، فقد أصبحت تريد الوصول إليهـا.. بنفسها.

لم يكن فى القصة أسـرار ولا ألغاز. التاجر عليه أن يسـعى، ويشترى ويبيع، ويرحل شرقا ثم يبيع شمالا، وبالتالى تستطيع أوروبا أن تذهب إلى آسيا كما يذهب العرب. أرض الله واسعة وطرق التجـارة معروفة. ولكن أوروبـا بدأت بالطمع. لقد أرادت أولا أن تضع يدها بالقوة المسـلحة، على العالم العربى.. ذات نفسه.

من هنا، ضمن أسـباب أخـرى، جاءت الحروب الصليبية من أوروبـا حملة بعد حملة بدءا من القرن الحادى عشر. الموافقة صدرت من الكنيسة فى روما، وهى فى زمنها مثل مجلس الأمن والأمم

المتحـدة فى زماننا، والشـعار هو الصليـب. فى أرض الواقع لم يكن للصليب، ولا للمسـيح - عليه السـلام - أية علاقة بالموضوع. المسـألة كلها تجارة وشـطارة وخفة يد.. والمطلـوب هو توفير غطاء لأوروبا فى سعيها إلى السيطرة على طريق التجارة.. إلى الشرق.

بعد أن اسـترد صلاح الدين الأيوبى القدس من احتلال «الصليبيين» فى سـنة ١١٨٧ اكتشـفت أوروبا أنه من رابع المسـتحيلات عليها المضى فى هدفها للذهاب شـرقا فى وجود هذا «السد العالى» أمامها. هذه الدولة العربية القوية الموحدة المشـكلة أساسـا من مصر وسوريا. إذن.. فالحل يبدأ أولا بضـرب هذه الدولة.. أو فى أقل القليل.. تفكيكها. من هنا جاء الجزء الثانى من الحملات الصليبية موجها لضرب العقل المحرك فى جسد الدولة العربية الموحدة. ضرب مصر. هكذا وصلوا إلى دمياط وبعدها مدينة المنصورة. آخرتها.. ملك فرنسـا أسـير فى «دار ابن لقمان» بالمنصورة. والإفراج عنه بفدية معتبرة.. ونهاية الحلم الأوروبى.. مؤقتا.

سنوات طويلة بعدها مضت فى التقاط الأنفاس. أوروبا فى مكانها شمالا تدرس أسباب هزيمتها ومصر فى مكانها تهنىء نفسها. ثلاثة قرون وهى تهنِّىء نفسها.

ولأن التاريـخ لا يعترف بوجود قانون ثابت يقـرر ان يظل القوى على قوته، ولا الضعيف على ضعفه.. فقد انكفأت مصر على نفسها بغير أن تدرك أنها بذلك تخسر قوتها. أما أوروبا فقد درست أسباب ضعفها وبدأت تفكر فى حل جذرى لها.

وطالمـا التجارة، وبالتالـى.. الأرباح الطائلة، هـى الهدف.. فقد صممت أوروبا على أن تشـق طريقها إلى آسـيا و«الشـرق الأوسـط» الأقصى بعيدا عن مصر وسـوريا وكل حراس الطريق الدولى للتجـارة.. طريق الفلفـل.. والذى منه. فى البداية بدا الحل صعبا ومهلكا. الحل هو أن تقوم أوروبا بحركة التفاف واسعة على كل هذا «الشرق القريب» الذى يقوم المصريون - والعرب عموما - بالتحكم فيه وحراسـته. هذا الالتفاف يقتضى استكشـاف طريق بحرى وليس بريا - إلى الشرق «الأقصى» طريـق كان لا يـزال مجهولا بالكامل حتى وقتها.. ويقتضى التقدم بحـرا إلى المحيط الأطلنطى ثم جنوبا بحذاء السـاحل الغربى لتلك الأراضى المجهولة - سـموها فيما بعد «قارة أفريقيا» - أملا فى الوصـول بعدها إلى تلك الأراضى البعيدة جدا جدا وقتها.. أراضى آسـيا والشـرق الأقصى. أراضى الفلفل الأسود والذى منه.

حينما نجح المكتشـف البرتغالى «فاسـكو دى جاما» فى اكتشـاف رأس الرجاء الصالح بجنوب افريقيا فى سنة ١٤٩٧ كان هذا يعنى إنجازاً غير مسبوق فى تاريخ البشرية. هو لا تعنيه البشرية. يعنيـه الفلفل. لذلك فحينما وصل فاسـكو دى جاما بسـفنه الأربع إلى السـاحل الغربى للهند فى ٢٧ مايو سـنة ١٤٩٨ أدرك أنه حقق لنفسـه «الحلم المسـتحيل» الذى سـيحقق له الشهرة ولأميره

الثـروة، وبالمرة.. رضاء الكنيسـة. أما ما لم يدركه – في لحظتها – فهو أنه برحلته تلك.. شـهد العالم ولادة «نظام دولى جديد».

لقد وصل المكتشف البرتغالي قائدا لقافلة بحرية صغيرة واجهت الأهوال والمخاطر طوال الطريق البحرى الطويل الشـاق المجهول الذى سـلكته. وقبل أن يغادر «فاسـكو دى جاما» البرتغال كان من الصعـب أن يقنع الكثيرين من البحـارة بمرافقته فى رحلة البحث عن المجهول. ان التحدث إليهم عن أهمية الذهاب إلى بلاد الفلفل الأسود والحبهان وما أشبه معناه ألا يتبعه أحد بالمرة.. فكل أجر البحار فى سنة لن يكفى لتسديد ثمن ربع كيلو فلفل. وإذا تحدث إليهم مبشرا بأرباح مضمونة فيما بعد.. فإن أهوال الرحلة ومخاطرها هى المضمونة أكثر. وإذا بدأ حديثه بشرح خبرته السابقة بأعالى البحـار والمحيطات فلن يجد كفايته من كبار الأثريـاء لتمويل رحلته والصرف عليها وتوفير المؤن اللازمة لها. الكل يعرف – مسـبقا – أنه ملاح ماهر، خبير مجرب. لكن هذه رحلة غير مسـبوقة ولا أحد جربها من قبل.. وبالتالي فلا خرائط لها ولا ضمان ضد مخاطرها. إنه شيء طيب أن يبشرهم «فاسكو دى جاما» بأرباح طائلة من تجارة الفلفل الأسود وباقى بهارات الشرق. لكن.. هل هو يضمن أولا أنه سيعود إليهم وهو على قيد الحياة ؟

عند ذلك الحد دخلت الكنيسة على الخط. لقد استصدر أمير البرتغال ثلاثة مراسيم متوالية من البابا فى روما توفر «الشـرعية الدولية» اللازمة له لجمع التمويـل اللازم لتجهيز المهمة البحرية الكبرى سعيا إلى الهند.. أينما تكون الهند هذه.. لأن البابا نفسه لم يكن متأكدا أصلا من وجودها. فى أحد تلك المراسـيم يسـجل بابا روما حرفيا ما يلى: «إن سـرورنا لعظيم اذ نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال... قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة...»

البابا هنا يكتب كما لو أن أحلام أمير البرتغال قد تحققت فعلا، وهو فقط يجتر آراء سابقة من تاريخ مضى شـكلته الحروب الصليبية. هذا لا يهم. أما المهم بالنسـبة لأمير البرتغال خصوصا فهو أن يحصل من بابا روما – وهو فى حينها سلطة دينية ودنيوية معا ـ على تفويض مسبق بأن له – أى لأمير البرتغال نفسـه ـ الحق فى أية كشـوف جغرافية يفلح فيها.. حتى بلاد الهند، قطعا للطريق على أمراء آخرين قد يطمعون مستقبلا فى مزاحمته.

ولأن البابا «حويط..» فهو حسـب المرسـوم يسـجل بداية أنه ليس متأكدا أصلا من وجود بلاد بعيدة باسـم «الهند». فإذا كان ولابد من وجود «الهند» هذه.. إذن فسـكانها لابد أنهم مسـيحيون كاثوليكيـون يلزمهم فقط بناء كنائس لهم والابتعاد عن «العرب والكفرة». لكن البابا أيضا – بصفته رجلا دنيويا – يريد لكنيسـته حصة مسـبقة من الأرباح إذا تحقق فعلا حلم كسر الاحتكار العربى للتجارة فى الفلفل الأسود وكل التوابل الأخرى.

حينما وصل «فاسكو دى جاما» بسفنه الأربع إلى الساحل الغربى للهند فى سنة ١٤٥٨ اكتشف أولا أن الهنود فى استقباله يسألونه عن هذه العلامة المرسومة على مقدمة سفنه. علامة الصليب. لكن.. ما هو الصليب؟ اذن هم ليسوا كاثوليكيين ولا مسيحيين وإنما لديهم ديانة أخرى خاصة بهم. هو لم ينزعج. بعدها اكتشف أن من بين مستقبليه تجارا من العرب يقيمون هناك لأن الهند إحدى محطات تجارتهم. الآن.. هو ينزعج. لقد سلك طريقا بحريا طويلا وغير مطروق من قبل وحول افريقيا بهدف الالتفاف على العرب فى مصر والشام.. وفى النهاية يجدهم موجودين فى الهند أيضا؟ أخيرا اكتشف ان كل السفن الأخرى المرابطة فى الميناء غير مسلحة. كان هذا طبيعيا فى حينها. لكنه بدا بالنسبة لرجل قادم من البرتغال، ويعرف الحكاية وما وراءها.. مفتاح الموقف كله.

فى البرتغال اتضحت الرؤية. «فاسكو دى جاما» عاد بحمولة من الفلفل الأسود تغطى كل تكاليف الرحلة والقليل من الأرباح للمساهمين فى التكاليف. مسألة الكاثوليكية والمسيحية لا محل لها من الاعراب. الهند فيها فلفل أسود وبهارات لكن ما بعدها هو الأهم. والأهم الآن هو أن البرتغال عرفت طريقها إلى «الشرق» من غير العرب. والأكثر أهمية فى الرحلات التالية هو أن تحتكر البرتغال لنفسها هذا الطريق الجديد إلى التجارة مضمونة الأرباح. تجارة الفلفل الأسود وكل التوابل. الاحتكار ضرورى تماما، ليس فقط لكى يستبعد العرب من المعادلة التجارية المأخوذ بها حتى ذلك الحين.. ولكن أيضا للتحكم فى أوروبا نفسها. ومن البداية صك الاحتكار موجود وموثق من بابا روما نفسه.

فى رحلته التالية حرص «فاسكو دى جاما» على أن تكون السفن فى قافلته أكثر عددا لكن الأهم هو أن تكون كلها مسلحة بالمدافع. فإذا كان العرب قد ذهبوا إلى الهند لمجرد التجارة.. فإن البرتغال تذهب إلى هناك للتجارة.. والسيطرة. هذا هو القانون غير المكتوب الذى حكم اللعبة كلها طوال المائة سنة التالية. حينما احتكرت البرتغال لنفسها طريق التجارة بين أوروبا والشرق.. ولم يكن ممكنا أن يستمر الاحتكار طويلا بعد أن دخلت أسبانيا ميدان المنافسة. كانت البرتغال وأسبانيا منذ مدة تابعتين لعرش واحد. لكن التجارة وأرباحها الفلكية الطارئة تخلع القلوب وتكسر العروش. هكذا أصبحت البرتغال وأسبانيا فرسى رهان فى هذا السباق المحموم إلى الاستكشاف والاستعمار. فى النهاية اضطر بابا روما إلى التدخل بينهما لإلزامهما بمعاهدة تقسيم مناطق النفوذ الجديدة بينهما. واختار الأسبان التوجه غرباً فى اتجاه أمريكا الجنوبية، بينما فضل البرتغاليون التوجه نحو الشرق. فى الشرق أصبحت الهند مجرد محطة على الطريق لأن البحث ظل مستمرا بهدف الوصول إلى مجموعة «جزر الملايو» التى كانت شهرتها هى «جزر التوابل». من هناك احتكرت البرتغال لنفسها السيطرة على كل تجارة التوابل دوليا.. حتى إن مصر والشام – ومعهم إيران بالمرة – لم تستطع من وقتها فصاعدا الحصول على التوابل إلا من خلال البرتغاليين.

وخلال الستين سنة التالية أصبحت البرتغال محل حسد كل أوروبا. فهذه المملكة الصغيرة - البرتغال - تحولت إلى امبراطورية لها مستعمرات تمتد من البحر الأحمر إلى مسافة ستة آلاف ميل شرقا في آسيا حتى الملايو. بعد قليل لحقت بها أسبانيا قادمة من الاتجاه المضاد. ومن أرباح البرتغال وأسبانيا سال لعاب كل ممالك ودول أوروبا.. فانطلق الجميع يتسابقون إلى استعمار هذا العالم القديم - الجديد عليهم - حتى الصين. وكلما بزغت قوة أوروبية جديدة تقوم فورا بمزاحمة من سبقوها وقطع الطريق على من يمكن أن يلحقوا بها.. بدءا من هولندا ونهاية ببريطانيا. لم تعد الهند وحدها، ولا جزر الملايو واندونيسيا، هي الهدف.. وإنما اتسعت الأهداف لتشمل اليابان والصين.

في الصين - وقد أصبحنا في القرن الثامن عشر - كانت «الغابة» الدولية تعمل بنفس القانون: البقاء للأقوى. ولأن بريطانيا هي الدولة الأولى التي دخلت عصر الصناعة فقد أصبحت هي الأنجح في مزاحمة الآخرين وإزاحتهم من طريقها إلى السيطرة على طرق التجارة الدولية.

وهكذا.. بعد أن قامت بريطانيا باحتلال الهند.. تفتحت شهيتها إلى باقي المنطقة.. والصين في مقدمتها.

ولأن التجارة بيع وشراء.. فقد اكتشفت بريطانيا أن «الميزان التجاري» مع الصين هو باستمرار لصلحة الصين سنة بعد سنة. الصين تبيع من الشاي إلى الحرير إلى عشرات من السلع التي تلح بريطانيا نفسها على شرائها. لكن الصين لا تشترى من بريطانيا الكثير لأنها أصلا لا تحتاج إلى الكثير. الموضوع هنا لا علاقة له بحكومة. فقط عرض وطلب.

أليست «امبراطورية بريطانيا العظمى» هي التي قدمت نفسها إلى الصين باعتبارها حامية حرية التجارة الدولية.. بل لديها عبقري اسمه «آدم سميث» يروج لفكرة أن السوق في التجارة يجب أن تكون حرة بالكامل لأن للسوق قانونا يحكمها تحت عنوان «اليد الخفية» التي اسمها العرض والطلب.

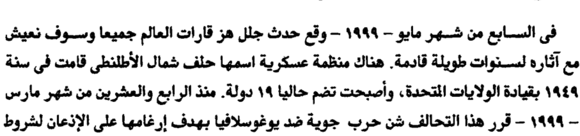
بالطبع بريطانيا «العظمى» تقر بهذا كله. لكن المشكلة مستمرة. والمشكلة هي أن الصين تبيع لبريطانيا أكثر وتشترى أقل. في هذه الحالة - وتلك هي «امبراطورية بريطانيا العظمى» ذات نفسها تتصرف: ملعون أبو التجارة الحرة.. بل وحتى ذلك المدعو آدم سميث شخصيا. التجارة هنا لها معنى واحد: أن يكسب القوى من الضعيف.

في حالات مبكرة - كحالة البرتغال وأسبانيا مثلا في القرن السادس عشر - كان ممكنا تدبير فتوى سريعة من البابا والكنيسة في روما تقول: ان تلك هي رغبة السيد المسيح. لكن بريطانيا شيء آخر. أولا: هي أكبر مقاما من امبراطوريات غاربة ومنتهية في حجم البرتغال وأسبانيا. ثانيا: بريطانيا تتبع كنيسة أخرى غير كنيسة روما. ثالثا: بريطانيا هي صاحبة «النظام الدولي الجديد»

الذى فرضته بحكم تفوقها البحرى. وبتلك الصفة.. تريد بريطانيا العظمى لنفسها أن تكون نبراسا فى الحق والعدل. قالت: إن التجارة الدولية يجب أن تكون حرة.. ولذلك فهى تتمسك بأن تسجد الصين لأصول التجارة الحرة. الأصول.. أصول. بريطانيا «العظمى» دولة اصول.

إن حكومة جلالة «ملكة امبراطورية بريطانيا العظمى» لن تتدخل مطلقا لتصحيح العجز التجارى المستمر لصلحة الصين. هى أرفع من ذلك. فقط: على الصين أن تفتح أبوابها بالكامل أمام تجار بريطانيا لكى يصدروا إلى الصين كل السلع التى يستطيعون تصديرها.. وفى مقدمتها: الأفيون.

❑❑❑



فى التاريخ : طالع .. نازل !

فى السابع من شهر مايو – ١٩٩٩ – وقع حدث جلل هز قارات العالم جميعا وسوف نعيش مع آثاره لسنوات طويلة قادمة. هناك منظمة عسكرية اسمها حلف شمال الأطلنطى قامت فى سنة ١٩٤٩ بقيادة الولايات المتحدة، وأصبحت تضم حاليا ١٩ دولة. منذ الرابع والعشرين من شهر مارس – ١٩٩٩ – قرر هذا التحالف شن حرب جوية ضد يوغوسلافيا بهدف إرغامها على الإذعان لشروط محددة مسبقا.

الحرب من أولها تبدو لمخططيها محسومة فى نتيجتها. فحينما يتحرك أكبر حلف عسكرى فى التاريخ ضد دولة صغيرة ـ سكانها حاليا أقل من عشرة ملايين ـ لابد أن تصبح النتيجة فى النهاية.. تحصيل حاصل.

للحرب وملابساتها وأسبابها وأهدافها قصة أخرى ربما نعود إليها فيما بعد. فقط يكفى أن نعرف مؤقتا أنها ليست كما تبدو عليه حتى الآن – إعلاميا على الأقل – ليست أيضا دفاعا عن الإسلام مع أن معظم ضحاياها فى نهاية المطاف هم مسلمون. ولا هى أيضا دفاعا عن حقوق الإنسان.. فكل أطراف تلك الحرب سجلهم أسود ضد حقوق الإنسان.

والدول الكبرى – بامتداد التاريخ كله – هى بذاتها بلاوى كبرى. بالطبع هى شىء طيب لشعوبها. لكنها الجحيم نفسه بالنسبة للآخرين. إن الكبر والصغر هنا لا يتعلق بالحجم بقدر ما يتعلق بالقوة.

بريطانيا العظمى حينما أصبحت إمبراطورية عظمى لم تكن أكبر دول العالم حجما أو مساحة أو سكانا. إسرائيل حينما احتلت سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان لم يكن هذا لأنها الأكثر تحضرا. هولندا حينما استعمرت اندونيسيا لم يكن ذلك لأنها الأكثر فضيلة. البرتغال حينما أصبحت امبراطورية لم يكن ذلك أيضا لأنها مفوضة من السماء بنشر المذهب الكاثوليكى.. كما ادعت بذلك وقتها فعلا. الولايات المتحدة حينما احتلت الفيلبين واستعمرتها لم يكن هذا لأن السيد المسيح – ذات نفسه – ظهر للرئيس الأمريكى فى المنام وكلفه بالذهاب عسكريا لاحتلال

الفيلبين حتى يكسب رضاء الرب عنه وعن الشعب الأمريكى كما قال بذلك علنا رئيس الولايات المتحدة فى حينها!

الدول الكبرى تصبح كذلك من خلال القوة وتخوض معاركها ومنافساتها ضد الآخرين من خلال السياسة.. وليس من خلال الأخلاق والمثل العليا. والفصل بين القوة والسياسة هو فكرة مضللة تماما.

والدول تكبر وتصغر حسب فهمها الخاص لعناصر القوة فى عصرها ومبادرتها إلى تملكها بأفضل من الآخرين. بل إن الدولة نفسها يمكن أن نجدها كبرى فى عصر وصغرى فى عصر آخر من غير أن يتغير موقعها على الخريطة. هناك سلم صاعد إلى أعلى والحركة مستمرة دائما عبر درجات هذا السلم. من الحركة يولد التاريخ، من التاريخ يتعلم الإنسان. يتعلم أولا أن الدولة القوية لا تصبح كذلك مرة واحدة وإلى الأبد. فالقوة عملية حيوية متجددة يمكن للدولة أن تكسبها.. ويمكن أيضا أن تخسرها إذا تصورت أن على رأسها ريشة أو أن معها تفويضا من السماء. أو نامت على ما يجرى حولها.

ودائما.. دائما.. هناك صاعدون وهابطون على هذا السلم. الصاعدون فى حالة ثقة وغطرسة.. فالقوة بحد ذاتها يمكن أن توهم الدولة بأنها أصبحت على كل شىء قديرة. والهابطون فى حالة انكسار فالضعف يجعل الشعوب مهانة بعد عزة وذليلة بعد أنفة.. ومستباحة بعد حصانة.

وما جرى في السابع من شهر مايو ١٩٩٩ أيقظ كل تلك الهواجس النائمة.. خصوصا لدى دولة لها أصل وفصل مثل الصين. فطائرات حلف شمال الأطلنطى – ومعظمها أمريكية – مستمرة فى قصف أهدافها المختارة داخل يوغوسلافيا من قبلها بأربعة وخمسين يوما بغير انقطاع. الضربات غالبا تصيب.. وقليلا تخيب. فى مساء الجمعة ٧ مايو أصبحت سفارة الصين فى العاصمة اليوغوسلافية بلجراد من بين الأهداف التى جرى قصفها. هكذا تداعى مبنى السفارة وسقط بها ثلاثة صينيين قتلى زائد عشرين جريحا.

وعلى الفور خرجت الصين الرسمية تدين هذا القصف باعتباره عملا بربريا همجيا يؤكد موقف الصين الأصلى باعتبار ضربات حلف شمال الأطلنطي ضد يوغوسلافيا عدوانا سافرا. وطلبت الصين اعتذارا رسميا من الولايات المتحدة وكل دول حلف شمال الأطلنطى. وكذلك التحقيق فورا فى الحادث ومعاقبة المسئولين عنه.. الخ.

الرئيس الأمريكي بيل كلينتون خرج بنفسه يعتذر علنا للصين عما جرى ويصفه بأنه «عمل مأساوى مؤسف».. بعده حلف شمال الأطلنطي ومعظم أعضائه الكبار. لكن الاعتذار بالنسبة للصين لم يكن كافيا. هى تريد إدانة صريحة قاطعة وتحقيقا ناجزا محددا، وكذلك قرارا من مجلس الأمن

الدولي يعتبر ما جرى بمثابة عدوان مدان ضد الصين. الولايات المتحدة ـ ومعها حلفاؤها في مجلس الأمن ـ رفضت قرار الإدانة. الأسف ممكن. الاعتذار واجب. أما الإدانة.. أبدا!

في الوقت نفسه خرج مئات الآلاف من مواطني الصين - في العاصمة بكين وغيرها من المدن الكبرى - في مظاهرات عارمة غاضبة تحاصر السفارة الأمريكية وقنصلياتها وتقذفها بالطوب والحجارة والشعارات الغاضبة.

لأربعة أيام تالية والمظاهرات غاضبة متجددة والسفير الأمريكي محاصر داخل السفارة مع مساعديه قائلا: إنهم أصبحوا بمثابة الرهائن داخل السفارة والرئيس الأمريكي في واشنطن خرج يعتذر علنا من جديد.. ويقول أيضا إنه يحاول بنفسه الاتصال برئيس الصين جيانج زيمين تليفونيا لتقديم أسفه الشخصي.. دون جدوى. لسبعة أيام متوالية ورئيس الصين يرفض الرد نهائيا على مكالمات كلينتون التليفونية.

في البداية اعتبرت الولايات المتحدة أن رد الفعل الصيني مبالغ فيه.. بل إن الحكومة الصينية ربما تكون هي نفسها التي تشجع المظاهرات. لكن.. حينما تجول الصحفيون الأمريكيون بأنفسهم بين الطلاب الغاضبين في بكين اكتشفوا حقائق مختلفة. هؤلاء طلاب جامعات وبالذات جامعات النخبة في الصين. معظمهم يتكلم الإنجليزية بطلاقة لانه يفكر في استكمال دراساته في الولايات المتحدة. معظمهم أيضا شبه معجبين بالنموذج الأمريكي في الحياة من خلال أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون والمحطة الاخبارية الأمريكية «سي. ان. ان». فاذا كان الأمر كذلك.. فكيف ترفضون أيها الطلبة الآن الاعتذار الأمريكي.. بل وتدعون أيضا إلى مقاطعة كل ما هو أمريكي ؟

لأنكم تستخفون بعقولنا. لقد صدقنا إلحاحكم على أنكم أصبحتم القوة العظمى الوحيدة في العالم. صدقنا أن أقماركم الصناعية في الفضاء تصور أدق وأصغر ما يجرى على الأرض وصدقنا أن أسلحتكم الذكية لا تخطىء هدفها.. وأن معلوماتكم دقيقة لا يلحقها الخطأ أو يصيبها الإهمال. الآن تقولون إنكم لم تكونوا تعرفون أن المبنى المستهدف هو سفارة الصين في بلجراد. كيف هذا؟ سفارتنا في بلجراد ليست مكانا سريا. إنها مبنى طويل عريض يرفرف فوقه علم الصين ومكتوب على بوابته اسم الصين. كل دبلوماسييكم دخلوا هذا المبنى من قبل في حفلات استقبال أو غداء او عشاء و.. حتى بغير ذلك.. فعنوان السفارة مسجل في كل الخرائط السياحية لمدينة بلجراد. ومسجل أيضا في دفتر التليفون. هل عجزت مخابراتكم أيضا عن الحصول على نسخة من دفتر تليفونات العاصمة بلجراد ؟!

كان واضحا أن الصينيين يسيطر عليهم الشك في كل ما يقوله وما يفعله الأمريكان. فالسفارة لم يتم ضربها مرة واحدة وإنما ثلاث مرات متتابعة ومن زوايا مختلفة جوا. والسفارة بحد ذاتها مبنى

مدنى وليست ثكنة عسكرية ولا يوجد بجوارها أو بالقرب منها أى ثكنة عسكرية. وفى الآخر.. تقول الولايات المتحدة للصين إن السبب أساسه.. خطأ فنى ؟

المشكلة الكبرى فى حالة الصين تحديدا هى أنها طوال مائة سنة متتالية وهى تتلقى الضربات والصفعات من الآخرين.. بحجة «الخطأ الفنى»! واعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر تحديدا أصبحت كل الإمبراطوريات الغربية البازغة تسابق بعضها تنافسا على افتراس الصين وتقاسم مناطق النفوذ فيما بينها.

فى «حرب الأفيون» الشهيرة التى فرضتها بريطانيا العظمى على الصين كان ذروة الإذلال هو إجبار الصين على فتح أسواقها رسميا أمام تجار الأفيون. وفى إحدى المرات بادرت السلطات الصينية بمحاصرة ومهاجمة أوكار بيع وتسويق الأفيون وصادرت عشرين ألف صندوق أفيون لدى كبار التجار.. وأحرقتها. كيف تجرؤ الصين على ذلك ؟ ألا تعرف مسبقا أن هؤلاء التجار إنجليز ومن رعايا امبراطورية بريطانيا العظمى.. التى تدعو صباحا ومساء إلى حرية التجارة ؟

والنتيجة «بوارج» مسلحة بريطانية وصلت للتو إلى سواحل الصين لكى «تقنع» حكومتها عمليا بعدم التدخل فى حرية التجارة. النتيجة - ثانيا - هى معاهدة تم إرغام الصين على توقيعها. وتضمن فيها الحكومة فتح أسواق الصين أمام الأفيون وأية سلعة أخرى يحقق منها تجار أوروبا أرباحهم الفلكية. وحتى لا يكون لدى شعب الصين أية أوهام بشأن حكومته.. فقد تم إلزام حكومة الصين أيضا بدفع تعويضات فادحة لتجار الأفيون الذين صودرت واحترقت شحناتهم من الأفيون.

فى سنوات تالية استخدمت بريطانيا «العظمى» سلاح الأقليات الدينية ضد الصين. المسلمون مثلا.. هم فى الصين أقلية. لكنهم فى أحد أقاليم الصين - بالشمال الغربى - يمثلون أغلبية. إذن بالنسبة لبريطانيا العظمى: عز الطلب. لقد قامت بريطانيا سرا بتشجيع ذلك الإقليم على التمرد وإعلان الانفصال والاستقلال. وطول ١٤ سنة تحول ذلك الإقليم الصينى الصغير فعلا إلى دولة مستقلة ملكها اسمه «يعقوب» وتسانده بريطانيا بصفتها القوة العظمى فى العالم الحريصة على رفع شأن الإسلام والمسلمين. فى النهاية قامت الصين بقمع التمرد واستعادت سيادتها على الإقليم.. بينما بريطانيا العظمى تذرف دموع التماسيح عطفا على - وحماسا إلى - الإسلام والمسلمين.

وحينما ذهب مبعوث صينى إلى لندن لكى يسأل وزير خارجية بريطانيا فى سنة ١٨٧٦: إذا كنتم تحرضون الأقلية المسلمة فى شعبنا على الإنفصال بكل هذه الحرارة حتى تصبح لهم دولة مستقلة.. فلماذا فى الهند - وأنتم مستمرون فى احتلالها - ترفضون رغبة المسلمين الهنود فى الاستقلال وتحاربونهم بكل شراسة ؟

كان السـؤال بديهيا وعمليا.. لأن مندوب الصين يعرف أن القضية بالنسـبة لبريطانيا العظمى هى إضعاف وتفسيخ الصين وليست أبدا دفاعا عن المسلمين. بل إنه فى خلال ست سنوات فقط قامت بريطانيا باحتلال مصر و«نصف دستة» دول إسلامية أخرى فى الشرق الأوسط. وخلال سنوات قليلة بعدها بدأت بريطانيا تروج دوليا أنها مسـتمرة فى احتلال مصر.. فقط لحماية الأقباط المصريين من اضطهاد المسلمين المصريين.

نعـود لموضوعنا. نعود للصين. فـكل القوى البازغة فى أوروبا ومعهـا الولايات المتحدة - كقوة كبرى وليدة - ذهبت إلى الصين بحثا عن الأسـواق والأرباح والمغانم. كل قوة ترفع لنفسـها شـعارا يفيض رقة وإنسانية.

فرنسا مثلا.. رأت أن ثوابها سيصبح أكبر لو قامت بهداية الشعب الصينى ليدخل فى المسيحية.. وبالذات المذهب الكاثوليكى. وبكل نعومة ومودة.. بدأ القساوسة يتوافدون على مدن الصين بحجة أن تلك هى تحديدا - رغبة السـيد المسيح. القسيس يجى من هنا.. وفى نيله حملة مسلحة! القسيس يبنى كنيسة.. وفى حمايتها ينشأ فورا سوق للخنازير!

لا.. ليسـت الخنازير التى نعرفها. لكن «الخنازير» فى ذلـك القاموس - قاموس القوى العظمى وقتها - هم البشـر.. بالضبط. هكذا كانوا يسمون مواطنى الصين. «خنازير». تطلع قافلة مسلحة إلى أرياف الصين. تخطف ما تيسر من المواطنين الشبان تحشدهم فى قافلة تحت الحراسة المسلحة إلى أقرب سفينة.. حيث تبحر بهم السفينة لكى يتم بيعهم كعبيد فى كل المستعمرات الجديدة بأمريكا الشمالية والجنوبية وبين البائع والمشترى: اسمهم.. خنازير!

الصـين تحتج، تصرخ، تشـكو.. باسـم الحضارة والإنسـانية تصرخ من جديـد. أبدا ليس فى الحضارة والإنسانية مكان مطلقا لأى «خنزير».. يعنى لأى مواطن صينى.

لسنوات عديدة استمرت الصين فى حالة ذهول مما يجرى بها وفيها.

الصين لا تصدق أن ما يجعل الآخرين يستأسـدون عليها بكل هذا القدر من الاحتقار والتوحش. هو ضعفها. إنها لا تزال تعيش على الماضى.. قوة الماضى.

وفى إحدى المرات «شـخط» امبراطـور الصين فى مبعوث أجنبى قائلا لـه: «لا أحد يجرؤ على الشخير قرب سريرى». كلام فخم ضخم موجود فعلا فى تراث الأمثال الشعبية الصينية.

لكن الأقوياء لا تردعهم الأقوال المأثورة.

الأقوياء يردعهم فقط بأن تكون أنت نفسـك أقوى منهم. من هنا.. فوجىء امبراطور الصين بعد قليل.. ليس فقط بأن الأجانب «يشـخرون» قرب سريره.. بل حرقوا سريره هو نفسه.. ضمن القصر الامبراطـورى فى العاصمة بكين.. الذى جرى حرقه أوله عن آخـره.. إثباتا جديدا لحالة الضعف التى وصلت إليها الصين.. فأصبح هذا فى حد ذاته إغراء للآخرين بتشريح جسدها.

لقد أصبحت الصين إذن تدفع ثمن ضعفها.. بينما الآخرون يتجرأون عليها نتيجة لقوتهم.

وكما الأفيال في سـقوطها.. لابد من إرادة فولاذية وعزيمة جبارة حتى تنهض الأفيال نفسـها واقفة من جديد.

الصين ذاتها لم تسترد بعض قوتها إلا في منتصف القرن العشرين.

ومع أنها أصبحت دولة نووية منذ سـنوات السـتينيات.. وتشـهد نهضة اقتصادية كبرى منذ عشـرين سـنة.. إلا أنها لم تسـترد هونج كونج مثلا - وهي التي جرى اقتطاعها من أراضيها في القرن التاسع عشر - إلا قبل سنتين.. لكن لا تزال هناك أقاليم أخرى منشقة لم تعد بعد إلى السيادة الصينية.. في مقدمتها تايوان.

بـكل هذا التاريـخ الطويل والثقيل من إذلال الصين وتفسـيخها.. أصبحـت الصين في داخلها تتوجـس شـرا من كل الآخريـن.. خصوصـا إذا كانوا أقويـاء وخارجين لتوهم مـن قلب الحضارة الغربية.. ويلوحون بشعارات براقة من نوع «حقوق الإنسان».

مصر في سـياقها التاريخي الخاص هي، كما الصين، صاحبة حضارة عظمى سـابقة. لكن هذا كان.. زمـان. مـاذا بعد ذلك؟ ما الـذي يجعل دولة كبريطانيا تجيء من أقصى الشـمال في أوروبا لكي تحتل مصر مثلا لأكثر من سـبعين سـنة ؟ تحتل الهند أيضا؟ تستأسـد على الصين في أقصى الشرق ؟

وفيمـا بين مصر والهند.. تضع يديها كذلك على إمبراطورية كبرى لا تغيب عنها الشـمس في ثلاث قارات على الأقل بامتداد العالم.

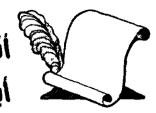
أيضا: لماذا انهارت في النهاية امبراطورية بريطانيا العظمى.. وأصبح المؤرخون يحددون سـنة ١٩٥٦ على وجه الخصوص باعتبارها الضربة القاضية لتلك الإمبراطورية.. حينما قامت مصر بتأميم قناة السويس.. وقاومت بصلابة غزوا مشتركا من بريطانيا وفرنسا معا.. وفي ذيلهما اسرائيل.

إنها مرة أخرى: حركة التاريخ. ليس في التاريخ أقوياء دائمون أو ضعفاء دائمون.

ليسـت هناك أيضا أحكام نهائية من القدر تقول إن القوى سـيظل قويـا دائما.. أو أن الضعيف لا فـكاك له من ضعفه. بالعكس. يسـتطيع الضعيف أن يصبح قويا إذا درس بعمق أسـباب ضعفه.. ولماذا تجاوزه الآخرون فأصبحوا أقوياء. السـلم مفتوح للصاعدين والهابطين. والحركة فيه مستمرة. طالع.. نازل.

في حالة بريطانيا مثلا كانت قوتها مكافأة لها، لأنها سبقت الجميع إلى دخول عصر الصناعة. ولأن السباق مفتوح أمام الجميع فقد اقتحمه آخرون.

وتغيرت من جديد قائمة النازلين.. والصاعدين.



أنت حلمى السعيد ؟ ..
أبوك بيشتغل إيه ؟

فـى رحلة الحياة تجمعنا الظروف بأشـخاص كبار أو صغار.. شـيوخ أو شـباب.. للحظات أو لسـنوات.. لكن نكتشـف فيما بعد أن مصفـاة التجربة قد أعـادت فرز انطباعاتنـا المبكرة عنهم. أحيانـا إلى الأسـوأ وأحيانا إلى الأفضل. مرات يحس المرء بـأن لحظات التجربة معهم كانت أقصر مما يجب.. أو أطول مما يجب.

فـإذا اختلـط العام والخاص هنا.. والموضوعية مع الذاتية.. يصبـح الفرز ـ وإعادة الفرز ـ عملية مهمة فى حد ذاتها. ربما لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى له ذاكرة. وبتلك الصفة تظل الذاكرة منتعشــة دائما بأشخاص قبل غيرهم.. لأسباب تبدو فى سياقها طبيعية.. وفى ظروف متغيرة تبدو غير طبيعية بالمرة. ذلك لأن الأشياء الأكثر جمالا فى حياتنا يصنعها الحالمون والأشياء الأكثر تكرارا يصنعها الواقعيون. وفيما بين الاثنين تتأرجح حياتنا ويتشكل مستقبلنا.. ربما حتى بغير أن ندرك ذلك فى حينه.

وفى حياتنا العامة توقفت كثيرا، غالبا بينى وبين نفسى، عند شخصيات من نوع خاص. بعضها أتاحته لى المرحلة المبكرة من حياتى الصحفية. وبعضها فيما بعد. فى الحالتين كان الجرس يدق فى عقلى منبها فى كل مرة إلى أن الانتماء.. لوطن أو لفكرة أو لمهنة أو لأسرة.. ليس واقعة تحدث مرة واحدة وينتهى الأمر. لكنها فى الواقع عملية تراكمية لا تقاس أبدا بمنطق الربح والخســارة. إنها تقاس بمنطق الزمن: ما الذى سيكنسه الزمن فى طريقه.. وما الذى سيبقيه ؟

حلمـى السـعيد واحد من هؤلاء. واحد مــن فريق الأصالة والانتماء ونكــران الذات. هو لم يكن يســتريح أبدا إلى الأضواء. ولا كان يزاحم غيره ســعيا إلى الصفوف الأمامية مزهوا بموقعه داخل الســلطة. إنســان شديد البساطة والتواضع. يســتمع أكثر مما يتكلم. يستكشــف أكثر مما يتعسف. يســتمد صلابته الخاصة من داخله.. أكثر مما يســتمدها من نفوذ أو منصب. رجل.. عرفت أخيرا، وأخيرا جدا، كم كان قريبا من جمال عبدالناصر فى زمن كان فيه عبدالناصر هو الملهم والزعيم. مع ذلك فلم أسمعه فى أى مرة يعزف اللحن الذى ابتذله غيره، لحن: قلت لعبد الناصر.. وعبد الناصر قال لى..

فـى كتابه الأخير، بل فى الواقـع كتابه الأول، بعنوان «شـهادتى للأجيال» عرفت عن حلمى السـعيد حقائق وأسـرارا لم أعرفها منه مطلقا فى حينها ولا تخيلتها عنـه بعدها. ضابط مهندس عضو بالخلية الأولى التى شـكلها عبد الناصر سـرا باسـم «الضباط الأحرار». رفيق لعبدالناصر فى الحياة العسـكرية وعلى أرض فلسطين. مدير لمكتب عبدالناصر. مستشار لعبد الناصر. رئيس لأحد ثلاثـة أجهزة كبرى تابعها عبدالناصـر. وزير فى عهد عبدالناصر. بعدها وزير أيضا فى عهد أنور السادات. من هناك إلى الاستقالة. من الاستقالة إلى السجن. من السجن إلى مشوار الحياة مرة أخرى فى بداية جديدة وسط ظروف أصعب وأظلم.

وفى مرحلتى الصحفية المبكرة عرفت حلمى السـعيد. أو بكلمات أدق.. كنت واحدا من شـباب الصحفيين الذين اقتربوا منه بحكم المهنة. فى ذلك الاقتراب كان حلمى السعيد أبا وأخا أكبر وقدوة بغير أن ينطق هو نفسه بأى من تلك الكلمات. أكرر: هذا إنسان بسيط. لا يضيف إليه منصب الوزير شيئا ينقصه. هو الذى يضيف إلى المنصب. وبإضافته تلك يجعل المنصب العام أكثر إنسانية وواقعية. الإنسـانية من حيث إدراكه أن السياسـة جوهرها إدارة البشـر. والبشـر هنـا يحركهم الحماس والاقتناع والانتماء بأكثر مما يحركهم التسـلط والتجبر. والواقعية من حيث إنه يرى المنصب العام تكليفا وليس تشريفا. تضحية وليس مغنما. الإدارة بالقدوة وليس الإدارة بالسوط.

فى كتابه الأخير «شهادتى للأجيال» يأخذنا حلمى السعيد بتواضع وإيجاز إلى عالم من السلطة والصراع كان هو فى بؤرته. إننى لم أكن أعرف - مثلا - أنه عاش قصة السد العالى منذ كان مجرد حلم وفكرة. ولم أعرف أيضا أنه كان المحقق الأول فى قضية «انحراف المخابرات» بعد نكسة يونيو ١٩٦٧. ولا عرفت كذلك أنه فى عالم السياسـة يمكـن أن يتحول الضرب تحت الحزام إلى مثل هذا التوحـش. هذه كلماتى أنا وليسـت كلمات حلمى السـعيد. فالرجل منضبط القلـم والكلمات. راقى الإحسـاس بأن عدالة السـماء أبقى من عدالة البشـر. مصمم فى كل مرة على أن أسوأ ما فى المحنة لا يكون وقوعها ولكن الاستسـلام لها والفشل فى الخروج منها. وهو بصلابته الداخلية تصرف فى حياته العامة على هذا الأساس.

لقد أسـعفتنى الذاكرة هنا بشخصيات أخرى من نفس النسـيج. نسيج التعامل مع المنصب العام على أنه تضحية ونكران للذات.. حتى لو كانت التضحية استبسالا ونكران الذات تواضعا.

تذكـرت - مثلا - صدقى سـليمان. ومحمود يونس ومحمود رياض. وأتذكـر أيضا محمد على فهمـى. هناك زلزال كبير فى مصـر والمنطقة. فى الزلزال إرهاصات وتحولات وتحديات لا أول لها من آخر. مع ذلك فبعض التحولات تصبح لها دلالات أكثر من بعضها الآخر.. لأنها فى الواقع تبدأ من نقطة شديدة الانخفاض قاتمة اللون منذرة بأوخم العواقب.

فى حالة (المشير) محمد على فهمى مثلا كانت هناك نكسة كبرى سجلت فيها إسرائيل انتصارا مدويا فى يونيو ١٩٦٧. والقضية التى أجمعت عليها مصر كلها هى ببساطة أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. والقوة ليست سلعة متاحة فى محلات البقالة ودواء متوافرا فى الصيدليات. القوة هى نحن. هى ما نصنعه، هى ما نختطفه وسط غابة دولية لسنا أقوى وحوشها. وإسرائيل بعد انتصار مدو أصبحت تستبيح سماء مصر بطائراتها الأمريكية. والغابة الدولية لا تتيح لمصر سلاحا بسلاح. والمتوحشون فى الغابة يقامرون على الوقت. على الزمن. فبالمزيد من الوقت، لابد أن تستسلم مصر.

ولأن الاستسلام يبدأ من الروح فقد جرى تكليف العميد - وقتها - محمد على فهمى بإنشاء سلاح جديد اسمه «الدفاع الجوى».. لكى يتكامل مع أسلحة المشاة والبحرية والطيران. لم تكن المسألة هنا هى فقط أن تمتلك مصر قوة عسكرية رابعة ضمن قواتها المسلحة. كانت المسألة أساسا هى قطع اليد الإسرائيلية الطويلة. يد الطائرات التى تستأسد يوميا ضد المدنيين فى مدن مصر وقراها.. بمن فيهم أطفال مدارس لم تستوعب عقولهم البريئة - بعد - أى شىء عن العدوان والتوحش وإسرائيل.

وأصبحت مشكلة محمد على فهمى هنا مشكلتين. فهو القائد فى عملية كبرى صامتة لإعادة بناء دفاع جوى حديث لمصر لن يعرف بها العالم إلا حينما تدخل، فيما بعد، فى مرحلة بناء «حائط الصواريخ». وهو أيضا يفعل ذلك فى ظل غارات جوية إسرائيلية يومية على مدار الساعة. ثم إنه يفعل ذلك كجزء من عملية شاملة لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية بالكامل بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لكى تصبح جيشا عصريا بالمعنى الدقيق للكلمة.

فى نكسة يونيو ١٩٦٧ كان أحد الدروس الأساسية التى استوعبتها مصر هو أن بناء جيش عملية أكبر تعقيدا بكثير من شراء أسلحة.. حتى لو كانت أحدث الأسلحة. من الممكن أن تصبح لدينا دبابات ومدمرات وطائرات ومدافع.. بغير أن يعنى هذا أنه أصبح لدينا جيش. تماما كمجموعة آلات موسيقية فى أيدى عازفين. لدينا كمان وعود وناى وأوكورديون وآلات إيقاع. لكن هذا كله لا يصنع لحنا ولا يؤدى إلى قطعة موسيقية متناغمة. العزف الانفرادى موجود. لكن المهم بعد ذلك هو اللحن الجماعى الذى يتم عزفه.

هذا ينقلنا إلى محمود يونس. هو أيضا ضابط مهندس اختاره جمال عبدالناصر أساسا ليتولى تنفيذ قرار سياسى خطير بتأميم شركة قناة السويس. القناة مصرية شقها مصريون على أرض مصرية وبتضحيات مصرية. مع ذلك فطوال أكثر من ثمانين سنة وكسور أصبحت مصر تعمل لحساب قناة السويس بأكثر مما تعمل القناة لحساب مصر.

ثم إن شـركة قناة السويس مملوكة لمسـاهمين أجانب أهمهم فرنسا وبريطانيا.. وكل منهما فى حينها امبراطورية كبرى على مستوى العالم. فى القانون لمصر الحق فى تأميم شركة قناة السويس. لكـن فى الغابة الدولية.. القوة هى القانون. قبلها بسـنوات قليلة جـاءت فى إيران حكومة وطنية برئاسـة محمد مصدق وأعلنت تأميم شـركة البترول اسـتجابة لمطلب شـعبى كاسـح تقره العدالة والقانـون. مع ذلك قرر وحوش الغابة أن قوتهم - وقوتهم وحدها - هى القانون. والنتيجة؟ عملية عسـكرية مخابراتية كبرى أسـقطت حكومة إيـران الوطنية وأعادت البتـرول الإيرانى إلى نفس اللصوص الكبار. وبعدها أصبحت إيران عبرة لمن يعتبر.

وفى سـنة ١٩٥٦ أصبح محمـود يونس وفريقه المحدود مكلفين وطنيـا بأن ينفذوا على أرض الواقع ذلك القـرار السياسـى الخطير بتأميم قناة السـويس. لم يعد شـعب مصر بمفرده صاحب القضية.. بل كل شـعوب العالم الثالث.. بينما المتوحشـون الكبار مصممون على أن يتقيأ المصريون جميعـا قرارهم بتأميم قناة السـويس.. حتى تعود علاقة المصريين بقناة السـويس إلى سـيرتها الأولى. القنـاة وإدارتها وإيراداتها من نصيب الخواجات.. أمـا المصريون فمكانهم الوحيد المتاح هو.. سلم الخدم.

فـى العملية الكبرى كانـت المواجهة غير متكافئة بالمرة.. وفى تلـك المواجهة احتاج المصريون - ويمثلهـم فى هذه الحالة محمود يونـس وفريقه - إلى أقصى درجات الخبرة والعلم والسياسـة والإدارة. وقبل هذا وبعده: إرادة النجاح.

هذا ينقلنا ثالثا إلى صدقى سـليمان. هو ضابط مهندس كلفه جمال عبدالناصر بالإشـراف على بناء السد العالى. الإشراف هنا ليس وجاهة.. ولا امتيازا. لكنه أقصى درجات الانضباط والمسئولية. قرار بناء السد العالى فى حد ذاته كان مسئولية كبرى وخطيرة غيرت جذريا من تاريخ مصر. وفى البحث عن تمويل لبناء السـد العالى جرت فى السـاحة الدولية مناورات ومداورات ومشاحنات من الوحوش الكاسـرة فى الغابة الكبرى. السـد العالى يجعل مصر أكثر قـوة، وأكثر حصانة ضد غدر الطبيعة، وأكثر حماية ضد الجوع والعطش. ولنفس هذه الأسباب بالضبط أصبح مطلوبا من الوحوش الكبار منع مصر من بناء السد العالى.

ولسـنوات طوال أقام صدقى سـليمان فى جنوب أسوان. فى موقع السـد. ومن السادسة صباحا.. يوما بعد يوم.. ولعشـر سنوات متواصلة.. كنا نجد صدقى سـليمان فى الموقع.. بين الصخور ووسط المهندسـين والعمال. عشـرات الآلاف من العمـال. كلهم يبدأون عملهم فجـرا بالتطلع إلى اللوحة الكبرى المضاءة التى أقامها صدقى سـليمان فوق أعلى صخرة بالمنطقة. لوحة تسـجل: باق من الزمن ألف يوم - ٩٩٠ يوما - ٨٢٠ يوما - ٧٩١ يوما.. إلخ.

بقميص وبنطلون، وغالبا بقبعة للوقاية من قيظ شمس أسوان.. أصبح الرجل مقيما وسط جيش المهندسين والعمال. إنه – تماما كمحمود يونس فى قناة السويس قبله ومحمد على فهمى فى شبكة الصواريخ بعده – يعرف أن مستقبل مصر يتقرر هنا.. والعالم كله سوف يحاكم مصر – أو ينحنى لها – هنا. مع ذلك فإن أيا من هؤلاء لم يشغل نفسه بالعالم. شغل نفسه بمصر والمصريين.. وهو يريد – بغير كلمات ولا خطب ولا شعارات – أن يستخلص الدرس الكبير من كل تلك التضحيات: إن أداء المصريين هو الذى يجعل مصر قوية أو ضعيفة.. حصينة أو مستباحة.. أكبر أو أصغر.

هذا فى حد ذاته جعل جمال عبدالناصر يتساءل علنا أمام المصريين جميعا فى خطاب عام: كيف ننجح فى إدارة قناة السويس وبناء السد العالى.. بينما نفشل فى إدارة مستشفى قصر العينى ؟

التساؤل حاسم باتر.. وموجع أيضا. فى التحديات الكبيرة يرتفع دائما أداء المصريين وتنبعث فى داخلهم روح التحدى والإنجاز. لماذا لا يمتد هذا إلى التحديات الصغيرة، بل المسائل البسيطة التى كان يجب أن تصبح محسومة منذ خمسين سنة على الأقل؟ فى المستشفى طبيب ممتاز. لكن يجب أن تكون المرضة ممتازة أيضا. فى المدرسة معلمون. لكن الملاعب هى بأهمية الفصول. فى المصنع إنتاج. لكن جودة الإنتاج هى بنفس أهمية رخص سعره. فى المدينة شوارع. لكن نظافة الشوارع توازى أهمية اتساعها.

على المستوى الفردى لدينا مبدعون وموهوبون وخلاقون ومتفانون. فى الطب كما فى الهندسة والتعليم، لدينا عزف انفرادى. لماذا قبل العزف الانفرادى لا نهتم بروح الفريق؟ لماذا بعد اجتياز الصعب.. يفوتنا السهل.. تفوتنا الإدارة ؟

هذا هو بالضبط ما جعل حلمى السعيد يصبح رئيسا لجهاز مركزى جديد فى مصر اسمه «الجهاز المركزى للإدارة». جهاز كانت الفكرة الأساسية منه هى تطبيق مبادئ الإدارة الحديثة فى الحياة المدنية المصرية. الإدارة التى تجعل السلطة أداة لخدمة المجتمع وليس التسلط عليه.

فى الطريق إلى الإدارة الحديثة أصبح التدريب – وإعادة التدريب – هو المفتاح. لكن هذا ليس كل شىء. الشاب يبدأ متحمسا.. ويتدرب بسلاسة.. وتتوالد فى داخله أفكار جديدة للأداء الأبسط والأكفأ. لكن نفس الشاب يفاجأ بأن رؤساءه الأقدم خدمة والأكبر سنا يسخرون منه ومن حماسه وأفكاره.

إنها ليست مشكلة مصرية. هى مشكلة إنسانية. هى أيضا نفس المأزق الذى واجه ذات مرة دوايت أيزنهاور حينما كان قائدا أعلى لقوات الحلفاء فى المسرح الأوروبى أثناء الحرب العالمية الثانية. فى الحياة العسكرية لابد دائما من التدريب وإعادة التدريب. لكن بعد أن جرى تدريب الضباط الشبان ذات مرة وعادوا إلى وحداتهم انهالت على أيزنهاور مئات الشكاوى من الضباط

الكبار الذين يشكون للقائد الأعلى من أن هؤلاء الضباط الصغار يصبحون بعد عودتهم إلى وحداتهم العسكرية مصدر إزعاج وشغب بحجة أن لديهم أفكارا أحدث وأفضل.

وبدلا من أن يوقف ايزنهاور تدريب صغار الضباط اكتشف أن عليه أن ينظم أيضا دورات تدريبية لكبار الضباط إذا كان يريد «إدارة» سلسة وذات كفاءة للقوات المسلحة.

والإدارة بحر عميق. لكن موضوعنا هو فقط ذلك النوع المدهش من الشخصيات العامة فى مصر الذين عرفوا مبكرا أن البشر فى مصر هم الأساس. وفى اهتمامهم بالبشر أصبحوا نموذجا للتفانى والتضحية والتواضع ونكران الذات.

نظلمهم كثيرا لو جعلناهم وقودا للمشاحنات السياسية. فالسياسة بطبيعتها متقلبة وتهوى التغيير. ليكن. إنما من قبل التغيير ومن بعده هناك حالات عطاء حدثت وانتهى الأمر. حالات لا يستطيع تقلب المزاج السياسى أن يمحوها ولا أن يشطبها من ذاكرة المصريين.

فقط على هؤلاء الناس أن يضعوا على الورق حصاد عمرهم وخبرتهم وتجربتهم.. لأن هذا يوثق حصادهم الكبير. حصاداً من الخبرة والتجربة والمآزق والتحديات.. والكثير من التفاصيل.

فى كتاب حلمى السعيد عناوين عريضة. لكنه يبدو زاهدا فى إعطاء التفاصيل. والزهد قيمة كبرى على المستوى الشخصى فى حياتنا كأفراد. لكنه ليس كذلك بالمرة حينما يتعلق الأمر بتحديات كبرى خصوصا إذا كانت من نوع التحديات التى لا تفرض نفسها على مصر إلا مرة واحدة كل مائة سنة.

وفى انتظار التفاصيل أقف متأملا بعمق عند واقعتين فى حياة حلمى السعيد يرويهما فى إيجاز بليغ.

فى الواقعة الأولى حصل الطالب حلمى السعيد على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) فى سنة ١٩٣٦. ومثل عدد من أقرانه تطلع إلى الالتحاق بالكلية الحربية.. متصورا بحكم سنه أن المصريين سواء أمام القانون. وفى كشف الهيئة الذى سيتقرر على أساسه قبول الطالب من عدمه جلست مجموعة من كبار ضباط الجيش المصرى بصفتهم لجنة الامتحان. فى الامتحان طرح اللواء رئيس اللجنة سؤالا أول على الطالب المتقدم: اسمك حلمى السعيد؟ أبوك بيشتغل إيه؟

رد الطالب الشاب باعتزاز طبيعى: مدرس..

قال الضابط اللواء رئيس اللجنة: طيب.. كفاية كده.. قوم روح.

لم تكن هناك أسئلة أخرى، فإجابة هذا السؤال الأول قطعت الطريق على الأسئلة التالية بما جعلها لا لزوم لها. والنتيجة: الطالب حلمى السعيد غير مقبول ولا يصلح ليكون ضابطا. والسبب غير المعلن: أن أباه ليس من المحاسيب ولا هو من كبار الملاك.

أمـا الواقعة الثانية فبعدها بسـنوات طويلة كان حلمي السـعيد قد أصبـح خلالها – ولظروف أخرى – مهندسـا وضابطا ورفيقا لعبدالناصر ومستشارا ووزيرا ومستقيلا وسجينا. بعد السجن بدأ الحياة من جديد. ليس كوزير سابق وإنما كمواطن يسعى للعمل مستشارا هندسيا فى مكتبه الخاص. المكتب يحتاج إلى مصاريف وتكاليف.. بينما الزمن لم يسـمح له سـوى بملكية البيت الذى يسكنه مع أسـرته.. بحيث أصبح الحل الوحيد المتاح هو بيع هذا البيت حتى يبدأ الرجل حياته الجديدة مع عائلته ويلاطم ظروفا متغيرة بإصرار وتصميم.

ولأنه صاحب أولاد فقد تردد كثيرا فى قراره ببيع البيت. لكن ما حسم الأمر هو أن ابنته قالت له بكل فخر: البيت مش هو اللى جابك.. وبإذن الله تعوض كل شيء.

اذا لم يكن حلمي السعيد قد أعطى لأولاده سوى تلك الرؤية العميقة البسيطة.. فإن هذا إنجاز مدهش.

مع ذلك.. ففيما بين الواقعتين.. كانت قد تدفقت فى نيل مصر مياه كثيرة.

❑❑❑



مات الملك ..
عاش الملك ..

.. هذا وقد تم استدعاء الوزراء وكبار رجال الدولة إلى القصر الملكى لكى يقبلوا يد الملك الجديد تعبيرا عن ولائهم له بينما أفراد الجمهور ....» .

أغلقت جهاز الراديو إلى جانبى لكى تقفز إلى ذهنى فورا ذكريات سابقة لا تزال ساخنة ومتوهجة فى الذهن. ليست ذكريات مع الأمير محمد الذى أصبح لتوه ملكا جديدا للمغرب. ولا عن الوزراء الذين سيقدمون الولاء إليه بتقبيل يده أمام كاميرات التليفزيون. ولا بالضرورة عن والده الملك الحسن الذى رحل لتوه بعد ٣٨ سنة قضاها على عرش المغرب.

الذكريات هنا مفتاحها: عبد الحليم حافظ.

كنا فى مدينة نيويورك الأمريكية ـ عبد الحليم حافظ وأنا ـ نزيلين فى فندق «بلازا».. واحد من أغلى فنادق نيويورك وأفخمها. عبد الحليم موجود للزيارة والعلاج على نفقة الحسن ملك المغرب. وأنا ضيف على عبد الحليم حتى يغادر نيويورك فأعود إلى ما جئت أصلا لمتابعته.. وهو جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة من الفندق الرخيص الذى اعتدت النزول به بالقرب منها.

قبل سفر عبد الحليم قال لى إنه متجه إلى المغرب حيث سيقضى فيها شهرا أو أكثر.. أولا لتقديم الشكر للملك الحسن وثانيا للمشاركة فى احياء حفلات عيد ميلاده ـ عيد ميلاد الملك.

وعرض على عبد الحليم مرافقته إلى المغرب أو اللحاق به فيما بعد.. خصوصا ان الموسيقار محمد عبد الوهاب سيكون هناك أيضا خلال الفترة نفسها من أجل المناسبة نفسها.

لم أتحمس كثيرا رغم حقيقة أننى لم أكن قد زرت المغرب من قبل. وفيما بدا لى ان عبد الحليم اقتنع.. ودعته فى مطار كينيدى بنيويورك وعدت أدراجى لكى أدبر أمورى فيما بقى من برنامج رحلتى المطولة.

بعد يومين فوجئت بمكالمة تليفونية من محمد عبد الوهاب وهو يتحدث من فندق هيلتون الرباط – عاصمة المغرب. ومثل عبد الحليم هو يحثنى على قبول الدعوة لزيارة المغرب. بالطبع هى دعوة من الباطن فمحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ مدعوان من ملك المغرب. وأنا سأصبح

مدعوا منهما.. بالرغم من أن الإقامة معهما بفندق هيلتون زائد تذاكر السفر، ستكون على نفقة الحكومة المغربية.

لكن عبد الوهاب سلك مدخلا آخر غير الأسلوب المباشر من عبد الحليم. لقد سألنى عبد الوهاب: بعد أن تنتهى من مشاغلك الصحفية فى نيويورك.. ماذا سيكون خط سيرك فى الرحلة ؟

أجبته قائلا: إننى سوف أتجه إلى باريس لقضاء أسبوع او أكثر. وبعدها إلى لندن.

قاطعنى عبد الوهاب قائلا: عظيم.. عظيم.. بمجرد وصولك إلى باريس ستجد تذكرة باسمك فى مكتب شركة الطيران المغربية، باريس ـ الدار البيضاء ـ باريس. الفكرة هى أن تخطف رجلك وتيجى تقعد معانا يومين ثلاثة هنا فى الرباط وتتفرج على المغرب. اذا عجبك الحال كان بها وتستمر معنا حتى نغادر المغرب سويا. إذا لم يعجبك لن تخسر شيئا. تذكرة عودتك إلى باريس فى جيبك ومن هناك تستكمل البرنامج الأصلى لرحلتك هيه؟ قلت إيه ؟

لم يعد فى المسألة رأى بعد كلمات عبدالوهاب. من نيويورك إلى باريس فالدار البيضاء فالرباط. فى الرباط أصبحت مقيما فى الهيلتون مع محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ.

فى الفندق اكتشفت أن الصحبة أوسع نطاقا بكثير. فالملك الحسن احتفالا بعيد ميلاده، لم يكتف بدعوة عبدالوهاب وعبدالحليم فقط وانما حشد فى الواقع معظم كبار الفنانين فى العالم العربى. الآن أصبحت ليل نهار فى صحبة عبدالوهاب وعبدالحليم وفريد الأطرش ووديع الصافى وشادية وبليغ حمدى ومحمد الموجى وهدى سلطان وشريفة فاضل ومحمد رشدى وأحمد فؤاد حسن و.. و..

حينما كان كبار رجال الدولة يجيئون لزيارة عبدالوهاب وعبدالحليم والآخرين، أو يذهب إليهم عبدالوهاب كان يقدمنى إليهم مداعبا بقوله: هذا ابنى الذى كنت أتمنى أن أنجبه.. ابنى المشاغب.

بعد أيام لاحظ عبدالوهاب أننى أفكر فى العودة إلى باريس لأننى أدركت فى قرارة نفسى أننى بقدومى إلى هنا لا أقوم بزيارة المغرب. فقط أزور فندق هيلتون. وفى الهيلتون، أو أى فندق كبير آخر، لا يحس المرء بأن أى بلد تختلف عن أى بلد. حتى تصميمات الفنادق ومأكولاتها ومقاهيها تكاد تكون مستنسخة من بعضها البعض.

وقال لى عبدالوهاب: فهمت فكرتك. فقط اعطنى مهلة يومين على الأكثر. سوف أطلب من الوزير المختص هنا أن يعد لك البرنامج الذى تريده لكى ترى المغرب بالطريقة التى تناسبك. أما الآن فعليك فقط أن تستعد لكى تأتى معنا للذهاب إلى جلالة الملك (الحسن) والسهر معه فى قصره الخاص..

قلت له مستغربا: طيب أنتم ضيوف الملك ومهنتكم الغناء والموسيقى.. لكن لا أنا أغنى ولا الملك يعرفنى أصلا..

ضحـك عبدالوهـاب من مقاطعتي التي بدت له سـاذجة وفي غير محلها.. ثـم قال: يا محمود يا حبيبي أنت أصلك جديد على معرفة الملوك.. مفيش هنا شـاردة ولا واردة إلا بعلم الملك. صحيح أنا وعبد الحليم رتبنا مجيئك هنا.. لكننا من الأصل في عهدة جلالة الملك. وأنا بنفسي بلغت القصر الملكي من سـاعة واحدة بأنك ستكون معنا في السهرة الخاصة الملكية الليلة. يعني لو فيه اجراءات أمنية مثلا.. سـتكون عليك وعلينـا. لا تحبكها واترك لي التصرف. ألسـت أنا أبوك وأنت ابني.. المشاغب؟

فـي القصر الملكي ليـلا أدركت من الدقائق الخمـس الأولى أن ألف ليلة وليلة ليسـت مجرد أسـاطير. هي الآن أمامي صوتا وصورة. السهرة شـديدة الخصوصية.. وبالطبع ليست هناك إذاعة ولا تليفزيون. فيها فقط كبار الفنانين هؤلاء.. زائد الفرقة الموسيقية بقيادة أحمد فؤاد حسن. ومن وراء سـتار رقيق – كما فهمت همسـا – يوجد «الحريم» الملكي. أما النجم الأكبر في السهرة كلها فهو الملك الحسـن.. ذات نفسـه.. بقميص وبنطلون وروح من الدعابة جعلته يقول لهدى سـلطان كلمات قلقة: ياسـت هدى.. كيف حالك الآن؟ مزيان؟ سـمعت أنك مرضت.. لكن لا بأس.. أنت الآن مزيان..

هذا بدوره أقلق هدى سلطان. هي في الفندق شكت للبعض عصرا من أنها ربما على وشك الإصابة بنوبـة بـرد. بعد دقائق كانت تصلها في حجرتها أدوية ضد البـرد. يعني.. لما الواحدة تعطس في «أودتها» الملك ياخد خبر؟ هكذا تساءلت هدى سلطان همسا في أذني بأسلوبها التلقائي المدهش.

لم يسعفني الذهن بتفسير. ولا هدى سلطان كررت تساؤلها. فقط الملك الحسن خلال مأدبة العشاء يتحرك بيننا لطيفا مجاملا رقيقا.. حريصا بين وقت وآخر على أن يعد بنفسـه طبق طعام أو حلوى لأحد ضيوفه هؤلاء.

بعد العشـاء عادت جلسة الغناء والموسـيقى. في هذه المرة الملك الحسـن يقود الفرقة الموسيقية بنفسـه بعد أن فاجأ شادية بأنه يطلبها للغناء. من مقعدي وسط عبدالوهاب إلى يميني وعبدالحليم إلى يسـاري أسـمع تفسـيرات متقطعة عن هوايات الملك وحبه للفن والفنانين. حتى إنه أمر بإنشاء فرقة لموسيقى التراث الغنائي المغربي على غرار فرقة الموسيقى العربية في القاهرة.

هو ايضا..

لكن قبل «ايضا» هذه قطع الملك كل أفكارنا بأن ألقى قنبلة: الأستاذ عبدالوهاب استجاب مشكورا لرغبتي في أن يغني لنا بصوته أغنية «ودارت الأيام».

أحسسـت برجفة عبدالوهـاب إلى يميني في التـو واللحظة. لقد «بغبـغ» بكلمات من نوع: يا جلالة الملك هذا مرسوم ملكي لا أستطيع عصيانه لكن..

لم يبد على الملك أنه يستمع، أو يريد أن يستمع، إلى كلمة «لكن» وما بعدها من عبدالوهاب. لقد استرســل الملك قائلا: غدا فى الظهيرة ســيكون الغداء الملكى الرسمى.. لكن غدا فى العشية سيكون احتفالــى الخاص جدا معكم هنا.. لكى تطربنا يا أســتاذ عبدالوهاب بصوتك مغنيا «دارت الأيام».. وفى ظنى أن الوقت كاف يا أســتاذ عبد الوهاب لكى تستعد.. وسأقود لك الفرقة الموسيقية بنفسى.. مزيان ؟

مزيــان أو غير مزيان – تمام أو غير تمام – لــم يكن من صفات عبدالوهاب فى أى وقت معارضة السلطة.. ابتداء من عسكرى مرور إلى ملك بحجم ومودة وكرم الملك الحسن. وبطريقته التى حفظتها عن ظهر قلب رســم عبدالوهاب على وجهه قناع الســعادة والامتثال، بينما هو يغطى شــفتيه بيده اليسرى وهو يهمس بكلمات متتابعة فى أذنى متصورا أننى أسمعه، فى الواقع لم يكن ماأسمعه منه ســوى تمتمة.. غمغمة.. لا أكثر. فقط أصبحت همساته فى أذنى مسموعة فى اللحظة التالية حينما أشار الملك الحسن إلى فريد الأطرش قائلا: الآن.. تفضل يا أستاذ فريد.

وهمسات عبد الوهاب فى أذنى هى: ربنا «يثتر.. ربنا يثتر».

الكلمــات واضحة، ربنا يســتر، لكن مالم افهمه لحظتها هو: يســتر على مــاذا؟ على تكليف عبدالوهاب ملكيا ليغنى «دارت الأيام» بعد ٢٤ ساعة؟ أم.. ربنا يستر الآن على فريد الأطرش، وهو يغنى استجابة لرغبة ملكية ؟

حينمــا بدأ فريد الأطرش الغناء لم يبد عليه أنه جاهز بصوته فقط، بل وجاهز أيضا بأغنية قال إنه أعدها تكريما للملك الحسن شخصيا، بل وكان قد سلم لأحمد فؤاد حسن مسبقا النوتة الموسيقية الخاصة بها.

ومع انسجام الحضور الملكى من غناء فريد الأطرش نهض الملك الحسن متجها اليه مصافحا له.. قائلا: أحسنت ياأستاذ فريد.. مزيان مزيان..

بدا فريد الأطرش منتشــيا بتلك اللفتة الرقيقة من الملك الحســن فرد قائلا: هذا كرم كبير منك ياجلالة الملك أعتز به.. وهذا يؤكد أن جلالتك حساس.. حساس جدا..

فى تلك اللحظة بالضبط وقعت أربعة تطورات متلازمة. أولا: امتقع وجه الملك الحســن. ثانيا: انســخطت وجوه الأشــخاص الثلاثة أو الأربعة الموجودين من حاشــية الملك. ثالثــا: ارتفعت اليد اليســرى لعبدالوهاب إلى شفتيه لكى تسترهما وهو يتمتم لنفسه بكلمات هامسة، فى هذه المرة هى آيات من القرآن الكريم، رابعا: اســتدرت إلى عبدالحليم حافظ إلى يسارى مستفسرا فوجدته يشيح بوجهه عنى المتقع لتوه أيضا – مائلا على أذن بليغ حمدى إلى يساره.

لحظـات كما الدهـر، وبينما يد فريد الأطرش لاتزال ممتدة فى الهواء نحو الملك الحســن.. إذا بأسـارير الملك تنفـرج بعد عبوس ويمد يده إلى فريد مصافحا وقائلا بشـكل يبـدو كريما: تفضل ياأستاذ فريد.. استرح.

وبينمـا فريـد الأطرش يتجه إلى مقعده بـدا عليه أنه أقل الحاضرين تنبهـا إلى لحظة التوتر المفاجئة التى خيمت بثقلها. وبقدر ما أسـعفتنى البديهة وقتها أدركت أن هناك لبسـا خطيرا فى الموقف كان حسن ادراك الملك ومودته هما فقط المفتاح إلى تجاوزه لما تبقى من هذا الاحتفال «العائلى» الضيق.

فى صالون محمد عبدالوهاب بالفندق عرفت سـر اللبس الخطير الذى جرى. فكلمة «حسـاس» فى اللغة العربية لها المعنى البريء المعتاد الذى نعرفه وتقال غالبا فى سـياق مجاملة شخص رقيق المشـاعر. لكن كلمة «حساس» نفسها معناها فى اللهجة المغربية الدارجة مناقض تماماً بما يجعلها أقرب إلى الإهانة. حساس بالعامية المغربية معناها: شاذ..

وطول الليل لم يسلم فريد الأطرش من لسان عبدالوهاب اللاذع. الله يخرب عقلك يافريد.. سنين طويلـة وانت مفهمنا انـك أدرى بالأمراء والملوك.. ده انت كنت هاتوديتـا كلنا فى مصيبة.. تقول للراجل انه حساس؟ وكمان.. حساس جدا ؟

وفريد الأطرش بكل الطيبة والتلقائية، أو ربما السذاجة، يأخذ كلمات عبدالوهاب بجدية كاملة قائلا: والله ياأستاذ عبدالوهاب أنا لا أعرف مطلقا اللهجة المغربية، أنا أقولها من قلبى كفنان يقدر فى الملك روح الفنان.

وعبدالوهاب يسـتفزه: فنان إيه يا فريد؟ انت خليـت فيها فن وفنان؟ أنت خليتها خل.. ياعم من هنا ورايح أنا لاشـفتك ولا أعرفك.. سـامعة يانهلة (زوجته) أنت كمان من هنا ورايح فريد ده لا عرفناه، ولا شفناه..

وفريـد الأطرش بكل جدية يدافع عن نفســه أمام عبدالوهاب ونهلة القدسـى: والله ياأسـتاذ عبدالوهـاب أنا اصبحت مقتنعا بغلطتى.. طيب سـاعدنى أصلح غلطتـى. أطلب مقابلة جلالة الملك اعتذر له.. وأشرح له جهلى وحسن نيتى؟

رد عبدالوهاب: لاتشـرح ولا تعمل حاجة أبدا، جلالة الملك نفسه تجاوز الموقف بلباقته إدراكا لحسـن نيتـك. هـذا وإلا.. كان زمانك دلوقتى أطرش فقط مـن غير فريد.. يا حفيـظ.. يا حفيظ.. يا حفيظ..

فى الفجر فوجئت بدقات على باب غرفتى. فتحت الباب لكى أجد أمامى محمد عبدالوهاب. لم يبـد عليـه أنه ذاهب إلى مكان أو قادم من مكان، هو بالروب النبيذى فوق بيجاما داكنة وقادم لتوه

من جناحه بنفس الطابق فى الفندق على مسافة أقل من خمسين مترا من حجرتى، الملامح فى وجهه مشدودة والكلمات متقطعة وعيناه تجولان بأنحاء الغرفة وتساؤله ميكانيكى: ايه.. كل دى جرائد ومجلات ؟ اشتريتهم أمتي؟ مش اتفقنا أنك هنا فى إجازة من الشغل والصحافة ؟

لم آخذ تساؤلات عبدالوهاب بجدية، لكن مجيئه على هذا النحو هو الذى أخذته بجدية. فى الأساس كان يستطيع أن يتصل بى من جناحه كما يفعل على مدار اليوم.. أو يدعونى للذهاب إليه، ثم إنه بالبيجاما والروب، ولا يبدو عليه أنه نام جيدا فى الساعات القليلة التى مضت.

زائد انه لم يجلس إلى مقعد واستمر واقفا. فى النهاية تحدث عبدالوهاب بكلمات شديدة القلق قائلا: بعد عودتك إلى مصر.. هل ستحكى لها ؟

فاجأنى السؤال فقلت له: أحكى.. لمن ؟

– ثومة ياأخى.. أم كلثوم..

مرة أخرى لم أستوعب كلمات عبدالوهاب فسألته بانزعاج: ومادخل أم كلثوم فيما فعله فريد الأطرش ؟

انفرجت أسارير عبد الوهاب بعض الشيء، وقال مفسرا: ياأخى أنا لا أقصد فريد الأطرش، أقصد طلب جلالة الملك منى لأغنى «دارت الأيام» له بصوتى.. ألم تسمع بنفسك ماقاله الملك قبل ساعات ؟

الآن فهمت نصف المشكلة، ففى علاقة أم كلثوم بكل الملحنين الكبار الذين تعاملت معهم كان هناك قانون غير مكتوب خلاصته أنه بمجرد أن تقبل هى أغنية من ملحن فهذا يعنى فى نفس اللحظة التزاما من اللحن بألا يرددها بصوته فى أى مكان. بالطبع كل الملحنين كانوا يعرفون ذلك ويقبلون به سعادة بأن أم كلثوم وحدها أصبحت من لحظتها فصاعدا هى المعبر – كلمات ولحنا – عن الأغنية أمام الناس.

لكن يبقى النصف الآخر من المشكلة، النصف الذى لم افهمه، هل يتخيل عبدالوهاب، ولو بنسبة واحد بالمائة – أن صداقتى بأم كلثوم تلزمنى بأن احكى لها ماأراه أو أسمعه ؟ ثم إن الملك الحسن هو الذى طلب، وعبدالوهاب استسلم.. أو حتى تجاوب، وموافقته كانت أمام عشرين فنانا وموسيقيا على الأقل فلماذا يستبعد عبدالوهاب كل الآخرين.. ويستنطقنى أنا بالذات ؟

استدرك عبدالوهاب قائلا: انت تضايقت؟ مفيش فايدة فيك.. ابنى لكن مشاغب يا أخى.. ممكن عشرين واحد يقولوا الحكاية لأم كلثوم لكن لو انت بالذات حكيت لها، حاتصدقك.

لم اســترح لتفسير عبدالوهاب بالمرة، هكذا انتابنى الصمت.. بينما هو يتجول بعينيه للحظات فى ســقف الحجرة ثم فــى اركانها. بعدها ســحبنى من يدى قائــلا: تعال معايا نتمشــى «ونقر» (ندردش) سوا.

– اتمشى ازاى وانا بالبيجاما؟ على الأقل ألبس قميصا وبنطلونا.

أبدا.. منطق عبدالوهاب مختصر، نحن لن نغادر الفندق ولا حتى هذا الطابق.

فقط سنتمشــى فى المســافة بين جناحه وحجرتى إيابا وذهابا اســتمرارا لبرنامجه اليومى فى المشى.

فى الممر قلت لعبدالوهاب: على العموم ليس امامك ســوى أحد خيارين، أن تغني«دارت الأيام» على العود بصوتك فينبســط الملك وتحاســبك أم كلثوم.. أو لاتغنيها فيحاســبك الملك وتنبســط أم كلثوم.

رد عبدالوهاب: حساب أم كلثوم يوجعنى أكثر.

قلت له: اذن لم يعد سوى إنقاذ ما يمكن انقاذه، يعنى بكل معزتك عند الملك الحسن ممكن تأخذ منه وعدا مسبقا قبل الغناء بألا يتسرب شريط التسجيل فيما بعد إلى الإذاعة المغربية مثلا..

– أخ.. هو كمان ممكن يبقى فيه تسجيل؟

هكذا توقف عبد الوهاب عن المشــى فجأة وكأننــى ألقيت فى أذنه بقنبلة. لم ينطق. لم يعلق. لم يتحرك. فقط قال لى: اســمع، ارجع أنت لجلاتك وجرائــدك وعلى الغداء نتكلم.. أنا وانت ونهلة فقط.

لكن، فقط، هذه لم تتحقق لأســباب عمليــة. عبد الوهاب موجود فى الفندق لأنه اعتذر عن عدم الذهاب إلى الغداء الرســمى الملكى، وحجته المقبولة مقدما هى أنه يســتعد للغناء الليلة أمام الملك. أنا مع عبدالوهاب وزوجته بناء على طلبه المســبق. عبد الحليم حافظ فى مقر الإذاعة المغربية لعمل بروفــات علــى أغنية أعدها للمناســبة. باقى الفنانين.. إمــا انهم فى الغداء الرســمى الملكى بقصر الصخيرات مع ألف مدعو آخر من رجال الســلك الدبلوماسى وكبار المدعوين.. أو انهم يتسوقون فى محلات الرباط .

فى مطعم الفندق جاء إلينا فريد الأطرش ووديع الصافى منضمين إلى مائدتنا وتوجه عبدالوهاب بسؤاله إلى فريد الأطرش: إيه يافريد.. معقول الغداء فى الصخيرات انتهى ؟

رد فريد: لايأستاذ عبدالوهاب.. فى الواقع الغداء كان على وشك أن يبدأ حينما قررت أنا العودة إلى الفندق ومعى وديع. المدعوون كثيرون والوقت بدرى.. لكن هنا سآكل براحتى..

قاطعه وديع الصافي قائلا: أكمل يافريد.. احكى للأستاذ عن الرصاص و ..

عبد الوهاب ينزعج ويقاطع: رصاص ؟ هو الغداء كان فيه رصاص ؟

ابتسم فريد الأطرش بثقة وتأكد قائلا: أبدا يا أستاذ.. أصل وديع فاهم غلط. مشكلته انه لا يعرف أى شيء عن طقوس احتفالات الأمراء والملوك.. الحكاية اننا بعد ماخرجنا من قصر الصخيرات سمعنا أصوات رصاص، وديع أخد الحكاية بجد، لكن طبعا أنا شرحت له أن هذا لابد يكون جزءا من تقاليد الاحتفال، قل له: انت يا أستاذ عبد الوهاب. فهمه..

عند تلك النقطة سقطت الشوكة والسكين من يد عبدالوهاب، انت قلت ايه يافريد؟ رصاص؟ إزاى ؟ إمتى ؟ فين ؟ سمعت بأذنيك ؟ متأكد انه رصاص ؟ إزاى ؟ إمتى ؟ فين ؟ قلت لى انك متأكد أنه رصاص ؟ وكمان رصاص حقيقى ؟ إزاى ؟ إمتى ؟ فين ؟

فى الدقائق التالية بدأت المفارقة تتضح قطعة قطعة. بالأمس كان فريد الأطرش فى قلب موقف جاد تحول إلى مزحة، الآن هناك مزحة تبين انها موقف جاد.

ذلك أن ماحدث يومها لم يكن بأقل من انقلاب بالقوة المسلحة استمر لعشرين ساعة تالية.. نجا منه الملك الحسن بأعجوبة.لكن الأعجوبة لم تكن بنفس القدر بالنسبة لعبد الوهاب.. ولا عبد الحليم.. ولا باقى الفنانين.

□□□



الأسلحة علينا .. والقتل عليك !

السـؤال بسـيط ومباشـر : هل من حق شـركة أن تتصل بى فى القاهرة لكى تعرض علىّ أحدث ما لديها من مسدسات وبنادق ورشاشات سريعة الطلقات وكواتم للصوت وأجهزة رؤية ليلية.. فضلا عن تشـكيلة معتبرة من الأسـلحة البيضاء ؟ هل من حق الشـركة أن تلح علىّ أيضا بمزايا كل سلاح ومدى دقته فى قتل «الهدف» والمسافات التى يصبح فيها هذا القتل مؤكدا أو نصف مؤكد ؟

هل من واجب تلك الشركة، ولها فروع فى جانبى المحيط الأطلنطى، أن تبشرنى.. وأنا المواطن المصرى.. بأنها سـتعطينى خصما خاصا فى السعر يصل إلى عشرة بالمائة إذا اشتريت السلاح فورا.. ترتفع إلى عشرين بالمائة إذا اشتريت السلاح مع ذخيرته.. ترتفع مرة أخرى إلى خمسين بالمائة إذا جئت إليها بزبون جديد – مشتر جديد – غيرى أنا شخصيا ؟

حتى إن الشـركة تعرض على تسـهيلات فى الدفع، حيث التقسـيط ممكن فى بعض الحالات.. وتعرض أيضا هدايا مجانية إذا زادت قيمة السـلاح – مسـدس يدوى مثلا – عن ثلاثمائة دولار.. وتعرض جنسـيات مختلفة من الأسلحة وليس فقط الإنتاج الأمريكى.. حيث تقوم هى أيضا بتسويق أسلحة من إنتاج بلجيكا وإيطاليا والنمسا والبرازيل وسويسرا.. وبالمرة إسرائيل.

والشـركة المذكورة مستعدة لشـحن طلباتى على عنوان منزلى أو أى عنوان آخر أحدده لها. كما أن كل سـلاح مصحوب بضمان مسـبق بأنه سـيؤدى مهمتـه – وهى القتل – بكفـاءة كاملة. أما إذا اكتشـفت عيبا فى الصناعة.. كأن انحشرت رصاصة فى المسدس مثلا ولم تنطلق إلى «الهدف».. فإن الشـركة مستعدة فورا لإعطائى مسدسـا جديدا مجانا.. مع ذخيرته. أما إذا رغبت بعد فترة فى أن اسـتبدل بالسلاح الذى اشـتريته آخر أحدث أو أكفأ.. فإنها مستعدة لذلك أيضا بتسهيلات معتبرة فى الأسعار.

والشـركة المذكـورة (وهى تكـرار لحالات أخرى حدثـت معى) لا تعرفنى شـخصيا. وبالطبع لا يعنيها من أمرى شيئا.. سواء كنت صغير السن أو كبيره.. مصرياً أو لبنانياً أو سعودياً أو ماليزياً أو موريتانيا.. عدوانيا أو مسـالما أو بين بين.. يلزمنى السـلاح للقتل أو لمجرد الفشـخرة.. كل هذا

لا يهـم. أنا بالنسـبة لهم مجرد زبون محتمـل – والزبون يلزم «إقناعه» – بـل إغراؤه – بأن هذه السلعة لازمة له بشدة حتي ولو كانت نتيجتها قتل الآخرين.. أو ربما الرغبة فى الانتحار.

هكـذا وصلنى بالبريد الجوى ذلك «الكتالوج» مرة بعد مرة. الصفحات ملونة، والطباعة فاخرة، والأسـلحة تـكاد تقفز من صورها على الـورق لتصبح فى حجرى! كل ما هـو مطلوب هو أن أختار ما يعجبنى من أسـلحة.. وأحدد طريقة تسـديد الثمن.. بالنقد أو بالشـيكات أو ببطاقات الائتمان. بعدها سـتتولى الشركة الباقى.. مع تنبيه خاص إلى أن الأسلحة المطلوبة سوف تصلنى خلال فترة ما بين أربعة إلى سـتة أسـابيع، بافتراض أنه : «لا توجد موانع قانونية معمول بها لدى سـلطات الجمارك فى بلد المشتري» الذى هو.. أنا.

بالطبـع، وحتـى الآن على الأقل، لا يزال القانون فى مصر يمنع حيازة الأسـلحة إلا بترخيص مسبق. لكن المسألة على هذا النحو تثير بضعة أسئلة جوهرية. أولها وأهمها هو: كيف عرفت تلك الشركة – وشركات أخرى غيرها – عنوانى الخاص؟.. عنوان منزلى ؟

جزء من الإجابة بدا سـهلا للوهلة الأولى. فمنذ سـنوات أتعامل بالبريد الجوى مع مؤسسـات صحفية وثقافية عديدة فى أوروبا والولايات المتحدة. هناك مطبوعات عديدة أشـتريها، ومطبوعات أخـرى أجدد اشـتراكى فيها سـنويا وبانتظـام. كلها تبـدأ وتنتهى بالكتب والمجـلات والصحف والمطبوعات الدورية وغير الدورية. أحيانا كنت أتلقى «كتالوجات» ومطبوعات ترويجية لأشـياء لم أطلبها. مطبوعات سياحية مثلا.. أو نوادى جديدة للكتب.. أو مكتبات كبرى تعرض مساعدتى فى الحصول على كتب نفدت من الأسواق.. إلخ.

بعد قليل بدأت أتلقى مطبوعات ترويجية لم تخطر لى على بال. شـراء أسهم وأوراق مالية مثلا من خلال بورصة نيويورك. أو اليانصيب مثلا. هذا يانصيب مستمر لخمسة أشهر بجوائز تصل إلى ملايـين الدولارات. والعرض هو: بـدولارات قليلة تدفعها الآن يمكن أن يجعلك الحظ مليونيرا فى لحظة. والمشـكلة هنا موجودة فى داخلى أنا نفسـى. فمن قديم نشـأت لدى حصانة تلقائية ضد كل مـا يتعلق بالحظ أو العشـوائية أو اليانصيب أو القمـار ـ واليانصيب أحد تفريعات القمار ـ بل إننى قضيت ذات مرة ٢٤ ساعة فى لاس فيجاس.. وهى المدينة الأمريكية التى أقيمت فى صحراء نيفادا الأمريكيـة لكى تصبح عاصمة للقمار وعنوانا له.. ليس فى الولايات المتحدة وحدها وإنما فى العالم كله. وفى لاس فيجاس، من لحظة وصولك الأولى، تحاصرك إغراءات القمار من كل جانب. الفنادق هى الأفخم مع أنها الأرخص. والعروض الغنائية الراقصة أكثر إبهارا مع أن تذاكرها هى الأسهل. وفى صالات القمار داخل كل فندق تجد المأكولات والمشـروبات مجانا. فقط كل المطلوب من «الزبون» هو أن ينقطع عن العالم و.. يقامر . فطالما وصل إلى هنا بقدميه لابد من اعتصاره.

وخلال الأربع وعشرين ساعة التي قضيتها لم يعتصرني أحد لأن عقلي من الأصل مغلق تماما أمام القمار وحواشيه وتنويعاته. فقط كانت دعوة من صديق مقيم في لوس أنجلوس المدينة القريبة من لاس فيجاس.. وحب استطلاع من جانبي لمشاهدة أجواء القمار هذه. والنتيجة: وجدت نفسي مشدودا تماما للاعبين وليس لألعابهم التي لم أستوعبها أصلا. ساعات وساعات أدركت خلالها أنني لو ألقيت بقنبلة بجوار لاعب قمار فإن عينيه ستظلان مشدودتين إلى ما يلعبه سعيا إلى الوهم الكبير الذي تعلق به. وهم أن تهبط عليه الثروة الطائلة في لحظة حظ. بالطبع هناك بعض من يحدث لهم ذلك. من هنا يبدأ «المرض» . وهناك أيضا من تخرب بيوتهم. بل ومن ينتحرون فعلا.. ولا نعرف أسماءهم إلا في الصباح التالي أو الأسبوع التالي أو الشهر التالي.. إذا اهتم أحد أصلا بنشر قصصهم وأسمائهم.

□□□

بعد قليل بدأت أتلقى مطبوعات ترويجية أخرى من نوع مختلف: هل تريد الحصول على جنسية أخرى بجواز سفر إضافي؟ نحن نستطيع أن نحقق لك ذلك بأقل من خمسمائة دولار شاملة كل التكاليف بما فيها ثمن جواز السفر. فقط.. املأ الاستمارات المرفقة، مع الصور الشخصية، وحدد لنا طريقة تسديد المبلغ المطلوب.. وخلال أسابيع يصبح في جيبك جواز سفر إضافي تسافر به حول العالم بغير ان تضطر إلى تسجيل تحركاتك الدولية في جواز سفرك الأصلي. إنها فرصة العمر أمامك. لا تضيعها.

تأملت الأوراق المعروضة أمامي سارحا بخيالي بحثا عن إجابة لسؤال: من هو «الزبون» المستهدف والمحتمل هنا ؟ شخص ثري يريد أن يخفي سفرياته عن زوجته ؟ هارب من الشرطة ويريد التسلل إلى الخارج بالرغم من منعه من السفر ؟ باحث عن المغامرة وإن كانت بشكل مريب ؟ أو سارق لأموال الناس والبنوك ويريد الاختفاء في دولة اخرى .. مجهولة ؟

بالطبع كل هذه الشركات، الكفيلة بمثل تلك الإنجازات، لابد أن تكون لها علاقة وثيقة بالجريمة المنظمة بشكل أو بآخر. لكن.. ماذا عن تلك الدول التي تجعل الحصول على جنسيتها وجواز سفرها بمثل هذه السهولة والعشوائية؟ نحن هنا لا نتكلم عن الولايات المتحدة أو ألمانيا أو سويسرا أو مصر أو السعودية أو اليابان أو أي دولة حقيقية لديها نظمها الصارمة الخاصة في صرف جوازات السفر لمواطنيها. نتكلم عن دول صغيرة مجهولة لها شكل ورموز الدولة بغير أن تملك إمكاناتها أو سلطاتها.. أو حتى إرادتها.

في «الأمم المتحدة» مثلا ١٩٩ دولة عضوا.. تشكل في مجموعها المجتمع الدولي الذي نعرفه. لكن من بينها نحو أربعين دولة سكانها أقل من مليون نسمة، وإمكاناتها في الحضيض، وسلطاتها الرسمية تعيش على الإعانات أو الصدقات أو.. الرشاوى .

في هذا الشهر مثلا انضمت ثلاث دول جديدة إلى عضوية الأمم المتحدة.. كلها جزر في المحيط الباسـيفيكى ، ولم يسـمع كثيرون بأسـمائها من قبل. إنها – أولا – دولة «نويجا» بسـكان عددهم ٩٨ ألفا ومسـاحة ٢٢٨ ميلا مربعا. ثانيا ـ دولة «كيريباتي» وسـكانها ٨٢ ألفا متناثرون في ٣١٦ ميـلا مربعا من الجزر. أما الجزيرة – الدولة – الثالثة فهى «ناورو» التى هى مجرد جزيرة أخرى مساحتها ثمانية أميال مربعة وسكانها أحد عشر ألفا. يعنى.. لا يصل عدد سكانها إلى ثلث أعضاء نادى الجزيرة فى القاهرة أو ربع أعضاء نادى الصيد .. أو حتى عشـر سكان شارع «السكة الجديدة» فى المنصورة !

بالطبع سـمعنا من قبل عن دولة اسـمها «ميكرونيزيا».. وهى أيضا تقع فى المحيط الباسيفيكى بمسـاحة ٢٧١ ميلا مربعا، وسـكانها ثلاثون ألفا. والمرة الوحيدة التى سـمع فيها القارئ العربى بوجود دولة بهذا الاسـم كانت قبل سـنوات قليلة بمناسـبة قرار أصدرته الجمعيـة العامة للأمم المتحدة ضد اسـرائيل. وفى حينها وافقت كل الدول الأعضاء على القرار ولم ترفضه سـوى إسرائيل – بالطبع – ومعها الولايات المتحدة و.. ميكرونيزيا. فدولة مثل ميكرونيزيا سابقا أو تيمور الشرقية لاحقا (وهى نصف جزيرة صغيرة سـكانها أقل من ٨٠٠ ألف، فى طريقها حاليا إلى الاسـتقلال عن أندونيسـيا برغبة سامية من أصحاب المصلحة الكبار فى غابتنا الدولية ومحاميهم المستجد من نوع «كوفى أنان» السكرتير العام للأمم المتحدة) موجودة ومستمرة، أو مطلوبة لمصالح دولية أخرى .

والمشكلة فى هذا النوع من الدول هى أنها لا تملك أصلا مقومات البقاء والاستمرار كدولة. بالتالى تظـل فـى حاجة دائمة إلى صدقات الآخريـن أو حمايتهم.. أو كليهما معـا. وفى مثل هذا المحيط توجـد وتترعرع أنـواع خفية من المصالح والنشـاطات.. من أول تأجير القواعد العسـكرية برخص الفلوس، إلى بيع الصوت فى الأمم المتحدة بصندوق تفاح.. إلى بيع الجنسية وجوازات السفر للزبائن «العشوائيين» حول العالم بحفنة دولارات.

لكن ما اسـتجد بعد مرات ومرات.. وفى القاهرة.. هو إغراءات بشراء أسلحة. والإغراء يصلنى فى منزلى. هنا يعود السؤال: من أين حصلت تلك الشركة الأمريكية على عنوان منزلى ؟

شـغلنى الأمر قبـل أن أدقق أكثر فى عـروض الكتب والمطبوعات التى تصلنـى بانتظام. مع كل عرض توجد بطاقة مطبوعة، ومظروف للرد ، جاهزان لإعادة الإرسـال بعد أن أسجل أسماء وأرقام المطبوعات التى أريدها. فى ركن جانبى من إحدى البطاقات لاحظت سطرا يقول: هل لديك مانع من تلقى مطبوعات ترويجية وتنشـيطية من شـركات ومؤسسات أخرى ؟ ثم وجدت مربعين صغيرين، أحدهما تحت كلمة «نعم» ، والآخر تحت كلمة «لا» . المشـكلة هى أن هذا السـطر مطبوع بحروف صغيرة جدا لا تلفت الانتباه إلا إذا كان هناك حرص مسبق على التدقيق فى كل شىء .

إذن لابد أنها كانت غلطتي قبل أي طرف آخر.. فواضح أنه فاتني التأشير على مربع «لا» في واحدة أو أكثر من البطاقات السابقة. لكنني فعلت ذلك من قبل تحت تصور أن مؤسسات الثقافة والنشر لابد أنها تروج فقط لبعضها بعضا. وفي تلك الحال لا بأس من أن أتلقى المزيد من «الكتالوجات» والمطبوعات. هذا حدث فعلا حيث كنت أشترى كتابا من أمريكا مثلا فتصلني بعده مطبوعات ترويجية من هولندا. أو اشترى مجلة مقرها لندن فتصلني مطبوعات ترويجية من شركات مقرها الفلبين.. وهكذا.

□□□

لكن في نهاية المطاف: ما هي علاقة المطبوعات الثقافية والصحفية.. بالأسلحة؟

هذا التساؤل الذاتي قادني إلى تفاصيل أكثر. فمعظم الشركات، موضوع الحديث هنا، هي بذاتها.. أو على علاقة مع .. شركات دولية متعددة الجنسيات. هذه شركات وجدت أنها تستطيع أن تبيع المعلومات إلى بعضها بعضا. شركة للنشر مثلا تتراكم لديها سنة بعد سنة قوائم بزبائنها حول العالم.. خصوصا إذا كانوا زبائن من النوع الدائم والمنتظم ومضموني التسديد. في إحدى النقاط لا تجد هذه الشركة بأسا في أن «تبيع» قوائم زبائنها هؤلاء إلى شركة دولية أخرى لديها ما تريد تسويقه والترويج له باتساع العالم.تلك الشركة «الأخري» سرعان ما تمطر الزبائن المحتملين هؤلاء بمطبوعاتها الترويجية الخاصة بها سعيا إلى كسب زبائن جدد. المشكلة الأساسية في حالتنا هذه هي أن «الزبون» المقصود لم يستأذنه أحد بوضوح وصراحة في تعميم بياناته الشخصية.. التي يمكن أن تكون مجرد عنوان إقامته.. أو تمتد إلى وظيفته .. وتليفونه المنزلي.. وبطاقته الائتمانية.. إلخ.

بالطبع لا يزال الزبون المحتمل قادرا في نهاية المطاف على تجاهل الموضوع برمته. فهو يستطيع الرد أو عدمه.. وبعد محاولتين أو ثلاث ستتوقف المطبوعات غير المرغوب فيها عن الوصول إليه. لكن.. ماذا لو أدى الإلحاح عليه إلى توليد رغبة في داخله ـ لم تكن موجودة أصلا ـ في شراء سلعة لم يفكر فيها؟ أو حتى الإقبال عليها من باب حب الاستطلاع؟ سلعة كأوراق اليانصيب في بورصة مالية هو على غير دراية بها.. أو الحصول على مستند جديد يعطيه هوية اضافية في شكل جواز سفر.. أو شراء تشكيلة «جذابة» من أسلحة يدوية وأوتوماتيكية كتلك التي تلقيت «كتالوجات» فخمة بصورها وإمكاناتها على عنوان منزلي بالقاهرة !

□□□

إن التراسل مع شخص على عنوان إقامته يظل مسألة شخصية بحتة لابد من استئذان صاحب الشأن فيها مسبقا بغير لف ولا دوران. وإذا كان البريد الجوى هو الوسيلة الحالية التي يجرى عادة اقتحام الآخرين من خلالها.. فقد تطور الأمر أخيرا إلى بريد إليكتروني أيضا من خلال الكومبيوتر والإنترنيت وما إليهما مما يتيحه التطور التكنولوجي الآن ومستقبلا.

فى الأصل يرحب المرء بكل تطور. فالتكنولوجيا عمل إنسانى، وسلاح إضافى لتوسيع قدرات المرء الفعلية والعملية. لكن التكنولوجيا – مثل أى شىء آخر – سلاح ذو حدين. التكنولوجيا كسكين المطبخ.. مفيدة فى أعمال المنزل.. ومفيدة فى القتل أيضا. والمرء لن يكون أكثر أمانا بمنع تداول السكاكين. لكنه يصبح أكثر حكمة بتحريم وتجريم القتل. ومن باب أولى.. بمنع الأدوات التى لا وظيفة لها.. سوى القتل.

وفيما حكيته من عروض تلقيتها عشوائيا أصبحت النقطة الجوهرية التى توقفت عندها هى: أن اقتحام خصوصية الآخرين بحجة أن التجارة شطارة.. أو أن من حق البائع أن يلح بتجارته، ومن حق الزبون أن يرفض.. هو قول شديد الخطورة.

ربما كان هذا هو ما دفعنى إلى متابعة أخبار جولات مكثفة من الاجتماعات الحكومية بين الولايات المتحدة من جانب وخمس عشرة دولة أوروبية من جانب آخر.. تشكل فى مجموعها دول «الاتحاد الأوروبي» وفكرة تلك الاجتماعات هى أن دول أوروبا تنوى إصدار قوانين صارمة تلزم الشركات الكبرى بعدم «بيع» أو «إعارة» أو إخطار الآخرين بما لديها من بيانات شخصية عن زبائنها إلا بعد حصولها على موافقة كتابية مسبقة ومحددة من كل زبون على حدة.

الولايات المتحدة ترفض هذا الإجراء بشدة.. قائلة إنه يكفى التوصل إلى «ميثاق شرف» فيما بين الشركات الدولية وبعضها البعض. وبالطبع «ميثاق الشرف» مهم، لكنه مجرد التزام معنوى لا يقترن بعقوبات صارمة ضد الشركة المخالفة. فى النهاية.. اتفق الجانبان ـ الأوروبى والأمريكى على طرح المشكلة على مستوى رؤساء الدول.. بيل كلينتون من الجانب الأمريكى ورؤساء الحكومات فى خمس عشرة دولة أوروبية من جانب آخر.

عند هذا الحد أدركت أن تساؤلاتى الشخصية لها محل من الإعراب.. فى محيط دولي! وتساؤلاتى هذه اتسعت لكى تمتد من الحق فى الخصوصية إلى تلك المعضلة التى حيرتنى دائما.. معضلة: لماذا المجتمع الأمريكى بالذات هو الأسبق تكنولوجيا.. وفي الوقت نفسه هو الأكثر تفسخا اجتماعيا؟ لماذا المجتمع الأمريكى هو الأكثر ترحيبا بانتشار الأسلحة الشخصية.. والأكثر معاناة من انتشار الجريمة.. والأكثر انحرافا فى محيط الصبية والأحداث.. إلى درجة انه صدر أخيرا قانون فى العاصمة الأمريكية «واشنطن» يمنع الشباب تحت سن السادسة عشرة من التجول خارج بيوتهم بعد الساعة الحادية عشرة مساء ويعاقب الوالدان أيضا فى حالة القبض على ابنهم فى الشارع بعد الموعد المحدد؟!

الإجابة تطول.. ولها حديث آخر.



عيال .. اللغة الرابعة !

السلاح لا يقتل. لكن الشخص حامل السلاح هو الذى يقتل. وفى معظم الحالات لا يتحول الشخص إلى قاتل فجأة.. فلا بد أن توجد فى داخله أولا حالة ذهنية سابقة تسمح بالعنف، أو العنف إلى درجة القتل. تلك الحالة، ومدى كثافتها، هى التى يؤدى انتشارها إلى التفرقة بين مجتمع وآخر.. وثقافة وأخرى.. وتربية أسرية وتنشئة اجتماعية وأخرى .

فى الحياة اليومية يتشاجر الناس مع بعضهم البعض بين وقت وآخر. لكن احتمال أن ينتهى الشجار إلى قتل أو الشروع فيه.. هو احتمال إذا وجدناه فى مصر مثلا قابلا للتحقق مرة.. ففى أمريكا نجده قابلا للتحقق عشرين مرة. (هذه المعادلة تتغير فى مصر الآن إلى الأسوأ، لكن تلك قصة أخرى).

هناك سببان عريضان لذلك. ثانيهما هو مدى توافر الأسلحة القاتلة. أما أولهما فهو مدى الاستعداد المسبق للعنف. هذا يدخلنا فورا إلى مناقشة طبيعة الثقافة السائدة.

وأتحدث هنا عن الثقافة بمعناها العريض الذى يتشكل من حصيلة أسلوب الحياة والتفكير. إنها العادات والتقاليد والسلوك بقدر ما هى أيضا الموسيقى والفن والأدب. الثقافة السائدة فى مجتمعنا مثلا ليست فقط طه حسين وعباس العقاد وزكى نجيب محمود وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ ورياض السنباطى وبليغ حمدى ومحمد عبدالوهاب وفاتن حمامة وسعاد حسنى. إنها أيضا محمود شكوكو ونجيب الريحانى وكرة القدم والأهلى والزمالك وعمرو دياب ومحمد هنيدى. إنها أيضا ما نأكله وما نقبل عليه بقدر ما هى ما نقرأه. إنها الفول والطعمية والعدس والعرقسوس والتمر هندى وجحا وألف ليلة وليلة.. بأكثر مما هى الهامبورجر وكنتاكى وبيتزا وكوكاكولا وحامل المسدس من فوق حصان جامح.

وهى أيضا نوع المعايير السائدة للصواب والخطأ. المسموح والممنوع. الصلاح والفساد. الحوار والعنف.

فى مدارسنا لم نكن مثاليين. ولا كنا ملائكة. ولا حتى مقسمين بالتساوى بين أخيار وأشرار. الفرد الواحد منا كان فى داخله مزيج من كل هذا.. معا. والصبى الواحد بيننا كانت تراوده بين

وقت وآخر فكرة الخشونة والعنف مع زملائه.. خصوصا إذا خرج لتوه من مشاهدة أحد أنواع أفلام رعاة البقر الأمريكية.. حيث «الشجيع».. يشعل عود الثقاب من حذائه ويعلق فى وسطه حزاما من الرصاص والمسدس. أحيانا مسدسين .

بالطبع لم يكن فى متاجرنا مسدسات للبيع. ولا كان فى مصروفنا ما يسمح أصلا بالشراء. لكن الميل إلى التقليد يظل طبيعيا تماما فى تلك السنوات المبكرة من الصبا والمراهقة. كثيرا ما كنا نتشاجر كطلبة فى فصل واحد أو مدرسة واحدة. ربما بسبب كرة القدم. أو المقارنة بين فريد شوقى وفيلم الشجيع «زورو» أو حتى التحيز لصوت فريد الأطرش مقابل محمد فوزى. أو لمجرد أن صبيا واحدا من بيننا هيئ له أنه الفتوة .

الشجار وارد. ربما فى «الفسحة» بفناء المدرسة.. أو بعد الخروج من المدرسة. بالطبع هناك لكمات ولكمات مضادة. أحيانا هناك كدمات وإصابات خفيفة. ثم يقع شىء نادر. يحدث مثلا أن نفاجأ فى أحد الشجارات بأن أحدنا أخرج من حقيبته مطواة.. هنا بالضبط تقوم القيامة.

أولا - نكتشف أن الأهل كانوا يتابعون من بعيد شجاراتنا الصبيانية خصوصا إذا بدت آثارها واضحة فى الوجه أو الملابس. ونظل نحن متصورين أن شجاراتنا هى أسرار صغيرة بيننا لا يعرفها أحد. أما حينما تظهر المطواة بيننا فإن الأوضاع كلها تنقلب رأسا على عقب بما يجعل حياتنا جميعا هى الجحيم ذاته لفترة طويلة تالية. إذا ظهرت المطواة فى مشاجرة مدرسية فالقرار فورى: استدعاء ولى أمر الطالب المذكور لمقابلة ناظر المدرسة ذات نفسه مع وقف التلميذ الصبى عن الدراسة أسبوعا أو أكثر وإعلان هذا كله - مع إنذار بالفصل - على الطلبة جميعا من ميكروفون المدرسة فى الصباح التالى. أما إذا كانت المشاجرة خارج المدرسة فإن خبر المطواة ينتقل إلى آباء وأمهات الطلبة جميعا.. بل إلى الشارع كله. هناك مداولات ومشاورات ومعاتبات وإدانات. تلك كانت أول فكرة عرفناها فى صبانا المبكر عن «مجلس الأمن» و «الأمم المتحدة».

فى شارعنا تقرر «الأمم المتحدة» أن هناك وباء طارئا يجب محاصرته ومقاومته. هناك مطواة تسللت خلسة إلى حياة «العيال».. الذين هم حضراتنا. وبغير قرار واضح تنشأ حالة مقاطعة للعنصر «الدسيسة» حامل المطواة.. وهناك أيضا تفتيش مفاجئ لحقائبنا المدرسية.. فى البيت وفى المدرسة. وهناك مزيد من التقصى عن أفعالنا اليومية. وهناك كذلك رغبة فى فك حالة «النفور الجماعي» ضد «العنصر الدسيسة» بيننا. حالة احتواء. لماذا يا بنى ؟ لماذا المطواة ؟ ضربك أحد، اضربه. لكمك، الكمه. لكن لا تستخدم سلاحا أبدا. أنت تلميذ.. أم «صايع» ؟

فيما بعد كبرنا وفهمنا سر حالات الطوارئ النادرة تلك. فالعنف ليس سيئا فى حد ذاته فقط لكن الأكثر سوءا هو الاعتياد عليه. إذا جرى تحمل وجود مطواة واحدة بين مراهقين يوم السبت

فسوف تصبح عشرين مطواة قبل يوم الخميس. وإذا اعتاد مراهق على سلاح فى يده – أيا كان هذا السلاح – فإنه فى نفس اللحظة سوف يعتاد فكرة أن لديه قوة استثنائية لا يمتلكها آخرون. لقد أصبح قادرا على الأذى بغير أن يتعرض هو نفسه للأذى. لكن بعد قليل يريد الآخرون حماية أنفسهم من الأذى.. والنتيجة: مستوى أعلى وأكثر خطورة – من العنف.

❑❑❑

ولأن الحياة تلف بنا والوعى ينمو فى داخلنا والتجارب تتراكم فى عقولنا.. فقد ذهلت ذات سنة حينما عشت فى مدينة «لوس أنجلوس». هذه مدينة كبرى فى الغرب الأمريكى تقع على ساحل المحيط الباسيفيكى. ولأن الحد الأقصى لارتفاعات المبانى محدد قانونا بسبب وجود المدينة فى منطقة زلازل دورية، فقد أصبحت المدينة ممتدة أفقيا.. بما يجعلها من حيث المساحة تكاد تعادل المسافة بين القاهرة وطنطا.. أو بين المنصورة وبورسعيد. ويكفى أن نعرف أن «هوليود» عاصمة السينما الأمريكية والعالمية هى مجرد جزء من لوس أنجلوس.. و «بيفرلى هيلز» هو أرقى أحيائها لأنه المكان المفضل لإقامة نجوم السينما وكبار الأثرياء.

فى «بيفرلى هيلز» كنت أقيم .. بغير أن أكون نجم سينما أو مليونيرا. فقط كنت مدعوا لفترة طويلة من أصدقاء، والفيللا التى أقيم فيها تضم اثنين دائمين من الخدم من الفلبين بخلاف غير الدائمين. الأهم من هذا هو الحراسة المسلحة المحيطة بالفيللا.. وكل الفيللات المجاورة.. حراسة قطاع خاص يحمل أفرادها مسدسات دائما وأحيانا بنادق سريعة الطلقات.

لكن: الحراسات والأسلحة لحماية من.. وضد من وماذا؟ إنها بالضبط لحماية هؤلاء النجوم والأثرياء لأنهم يعيشون كجزيرة وسط فقر مدقع. إنها بيئة طبيعية لنمو العنف.. والعنف المسلح تحديدا.. لكن هذا ليس كل شيء.

ففى الولايات المتحدة على وجه الخصوص توجد أعلى معدلات الجريمة فى العالم.. وبالذات الجريمة التى تستخدم فيها أسلحة نارية. وإذا كان تعداد الشعب الأمريكى حاليا مائتين وخمسين مليونا فإن عدد قطع السلاح المنتشرة بين أفراده تجاوز مائتى مليون. بالطبع هذا لا يعنى أن نأخذ بالمتوسط ونقول ان كل مواطن أمريكى بالضرورة يحمل مسدسا أو بندقية .. فقد يعيش المرء وسط مائة مواطن أمريكى لا يملك أحدهم سلاحا على الإطلاق ولا يعرف حتى طريقة استخدامه. لكن الأرقام تعنى أنك قد تجد فى بيت واحد خمس قطع سلاح أو عشراً . ومرة أخرى.. هذا لا يعنى أن حائزى تلك الأسلحة هم قتلة بطبيعتهم أو لديهم أصلا استعداد للقتل.. لأن النسبة الكبرى منهم تحوز السلاح كضمان إضافى لحماية أنفسهم. فإذا عرفنا أن نحو أربعين ألف مواطن أمريكى يموتون سنويا قتلا بأسلحة نارية.. نكتشف إذن أن السلاح فى نهاية المطاف لا يحمى. لكن انتشاره يصبح فى حد ذاته سببا إضافيا للمزيد من العنف.

والسـبب الأول فى ذلك هو السـهولة الكاملة فـى الحصول على الأسـلحة النارية فى المجتمع الأمريكـى. لقـد ذهبت ذات يـوم فى صحبة صديـق أمريكى فى «لوس أنجلوس» إلـى غداء محدد سلفا.

وفى الطريق أوقف سـيارته أمام «سوبر ماركت» ونزلنا معا لكى اكتشف بعد لحظات أنه يتفرج داخل المحل الكبير على أحدث أنواع الأسـلحة النارية ويسـتبدل بمسدسه مسدسا أحدث، مسدداً فارق السـعر للبائع بمثل السهولة التى اعتدنا بها فى مجتمعنا على الدخول إلى محل بقالة لشراء جبن أو زيتون.

فى التاريخ الأمريكى جذور لتلك الظاهرة. لكن أهمها على الإطلاق هو شـركات السـلاح. فلأن تلك الشـركات المنتجة تحقق أرباحا فلكية من بيع الأسـلحة.. فقد شكلت فيما بينها منظمة تسمى «الرابطة الوطنية للبنادق» وجاءوا بممثل سينمائى مشهور ليرأسها كواجهة، وتقيم سنويا معارض للترويج قانونيا لأحدث منتجاتها، مستهدفة المراهقين والشباب على وجه الخصوص.

وكمـا تابعنا مؤخرا يحـدث بين وقت وآخر ان تقـع جريمة مروعة يهتز لهـا ضمير المجتمع الأمريكى.. كأن يقوم طالب أو طالبان معا فى مدرسـة ثانوى بقتل عشـرة أو عشـرين من زملائهما وزميلاتهما داخل المدرسة.. وباستخدام الأسلحة الأوتوماتيكية.. ويفعلان ذلك ضاحكين مع بعضهما البعض كما لو أن الأمر مجرد تسـلية أخرى.. ثم فى النهاية ينتحران بنفس الأسـلحة. اللافت هنا أن التلميذين المراهقين «بيض» ، وليسوا «سود» ومن عائلات ثرية وليست فقيرة، ومن زبائن شبكة «الإنترنت» وليسا من «صياع» الشوارع ولكن الأبوين فى كل حالة مواطنان صالحان ورعان.

هذا فى حد ذاته يقلب المفاهيم النمطية السـائدة عن أن الفقر هو منشـأ الجريمة أو أن «السـقوط الاجتماعى» هو فقط البؤرة الممكنة للعنف والجريمة.

هنا فقط تنقلب الدنيا ويثور الرأى العام وتكتب الصحف. بل ويخرج الرئيس الأمريكى نفسـه لكى يدين هذا العنف مبشرا الرأى العام الأمريكى بأنه الآن – والآن فقط – سوف يتصرف من خلال السـعى إلى اسـتصدار قوانين واعتماد مبالغ لمحاربة العنف. تشريعات من نوع تحريم بيع السلاح لأصحاب السوابق.. وأموال لتوفير أجهزة الكشف عن الأسلحة عند باب كل مدرسة من النوع السائد فى مطارات العالم.. أو رفع سن الشخص المسموح له بشراء السلاح إلى ١٨ سنة.. إلخ.

لكن .. ماذا عن الحل المنطقى بمنع وتحريم بيع الأسلحة للأفراد من الأساس؟ أبدا. كله إلا هذا. لماذا ؟ لأن الدسـتور يسـمح.. ولأن من حق المواطن أن يحمى نفسـه.. ولأن كل مواطن مسـئول عن أفعالـه.. ولأنه ليس من مهام الحكومـة أن تحمى الأفراد من بعضهم البعض. كل واحد خلاصه فى رأسه. كلام جميل يصلح للأغانى. لكن الحجة الباترة فى كل مرة هى بالضبط الحجة غير المعلنة.

فشركات صناعة السلاح أموالها ضخمة وبتلك الأموال تشترى ذمم ما يكفى من أعضاء الكونجرس الأمريكي – البرلمان – للتصويت ضد أية قيود لا تعجب شركات الأسلحة. بالضبط كما فعلت شركات صناعة السجائر من قبل حينما فرضت ستارا من الكتمان على التقارير الطبية الموثقة بأن التدخين مسبب للسرطان، وسايرها فى ذلك الكونجرس الأمريكي طوال أربعين سنة. وفى نهاية المطاف جرى فرض غرامات ضدها.. ولكن فى مقابل أن تطلق الحكومة الأمريكية أيديها – أى أيدى شركات السجائر ـ فى دول العالم الثالث. فقط على الحكومة الأمريكية أن تضمن لشركات السجائر الأمريكية حصة معتبرة فى أسواق الدول النامية تحت عنوان «ضرورة فتح الأبواب للتجارة الحرة» هكذا.. بكل بساطة.

وفى انتخابات الرئاسة الأمريكية الحالية ضغط الناس على أحد المرشحين البارزين لكى يتبنى فى برنامجه فكرة إصدار تشريع بمنع بيع وحيازة الأسلحة، فكان رده هو: إننى لم أسمع أبدا عن قانون يرغم الناس على أن يحبوا بعضهم بعضا.

كلام جميل. ولا ليلى مراد مع أنور وجدى. والمرشح الأمريكي للرئاسة نفسه يعرف ذلك. إنما المشكلة كلها أن المرشح المذكور – وربما نجده الرئيس القادم للولايات المتحدة – «قلبه محتار.. بين صاحبه وخطيبته» استعارة من الأغنية الشهيرة فى فيلم لـ «محمد عبدالوهاب».

جمهور الناخبين صاحبه. لكن شركات السلاح خطيبته لأن مساهماتها المالية فى حملته الانتخابية مضمونة ومؤكدة. الخلاصة إذن هى: الفلوس، هى التى تقرر القانون.. وليس القانون هو الذى يقرر الفلوس.

❑❑❑

مع ذلك يظل توافر الأسلحة مجرد جانب واحد من الصورة. أما الصورة الشاملة فهى مكان ومكانة العنف فى الثقافة السائدة. هذا يعيدنا إلى لوس أنجلوس وهوليود.. حيث يتزايد مؤخرا الشعور العام ـ داخل أمريكا ـ بأن أفلام هوليود السينمائية هى سبب رئيسى فى انتشار العنف.. ليس فى أمريكا وحدها.. وإنما حول العالم.

فى بريطانيا مثلا – وهى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى يستمتع السياسيون فيها بفكرة العمل خدما لأمريكا ـ صعق الإنجليز عن بكرة أبيهم حينما روعتهم جريمة قتل ارتكبها صبيان فى الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر. صبيان انتهزا فرصة انشغال مواطنة بمشترياتها داخل «سوبر ماركت» كبير فاستدرجا طفلها، وعمره لا يتجاوز الثامنة، لكى يصحباه معهما إلى أن أصبحوا فى شارع مهجور فأخرجا سكينا وذبحاه.

لقد انقلب المجتمع الإنجليزى رأسا على عقب من تلك الجريمة المروعة وأصبح السؤال المحورى هو: كيف ومتى انزرعت فكرة القتل بالسكين داخل عقل صبيين فى تلك السن المبكرة ؟ والإجابة:

أفلام الفيديو. أو بكلمات أدق.. أفلام سينمائية *شاهداها منزليا فى الفيديو*. وعلى *الفور* عقد رئيس وزراء بريطانيا ـ جون ميجور وقتها ـ اجتماعا طارئا بمندوبى كل شركات الإنتاج السينمائى والتليفزيونى لكى يهددهم باستصدار قوانين صارمة ضدهم إذا لم يتورعوا عن نشر العنف فى أفلامهم.

هذا وإلا: «هل تريدون أن يصبح انتشار الجريمة عندنا كما المجتمع الأمريكي؟» هكذا صاح فيهم رئيس الوزراء غاضبا.

وليس بالضرورة أن يشاهد المرء جريمة قتل فى فيلم سينمائى، أو عشرين، فيخرج بعدها ليفكر في القتل. لكن الفكرة الجوهرية هى أن الاعتياد على مشاهدة العنف هى أقصر الطرق لممارسته. تماما كما يصاحب المرء جماعة تتسم فى سلوكها وألفاظها بالخشونة والسوقية. بعد فترة سيفاجأ هو نفسه بأن قاموسه الخاص تسلل إليه قدر من الخشونة والسوقية.. خصوصا إذا كان فى سن لا تسمح له – بعد – بفرز الطيب من الخبيث.. أو فى أسرة ترك فيها الأبوان الحبل على الغارب لأبنائهما وبناتهما. بل إن نفس الابن الذى يحصل من أبويه على مصروف استثنائى يتجاوز كثيرا ما يحصل عليه زملاؤه وأقرانه فى المدرسة.. لن يدرك إلا فى سن متأخرة أنه أصبح أكثر قابلية للفساد والعنف.. وأكثر اعتمادا على قدرات لم يحققها هو بجهده وإمكاناته.

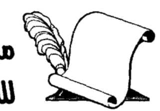
وفى مدينة جنيف بسويسرا حكى لى مؤخرا صديق عزيز من أصل مصرى حكاية ملفتة. إنه أكثر من مليونير وأصبح سويسرى الجنسية ويقيم فى قصر واسع ولديه بدل السيارة الواحدة أربع بعد حياة حافلة بدأ فيها من الصفر. وذات يوم لم يلحق ابنه ـ الصبى ذو الثانية عشرة ـ بأوتوبيس المدرسة فاستخدم سيارة أبيه المرسيدس آخر موديل طالبا من السائق الخاص الذهاب به إلى المدرسة بسرعة. وفى الصباح التالى فوجيء الأب صاحبنا باستدعاء تليفونى له من ناظرة المدرسة وإصرار على أن يحضر أولا إلى المدرسة بنفسه لكى تخطره هى بسبب استدعائه.

وترك صاحبنا اجتماع مجلس إدارة الشركة التى يرأسها ذاهبا إلى الناظرة التى قالت له بكل صرامة: مسيو.. كثيرون من أولياء أمور التلاميذ فى هذه المدرسة أثرياء.. وربما أكثر منك ثراء. وأنت نفسك تبرعت لهذه المدرسة من قبل بمبالغ طائلة من الفرنكات شكرناك عليها فى كل مرة. لكننا فى هذه المدرسة لا نعطى للتلاميذ تعليما فقط. نعطيهم أيضا سلوكا رشيدا وشخصيات قادرة على التميز فى الحياة مستقبلا بجهدهم وإحساسهم الذاتى بالمسئولية والاعتماد على النفس. ومجيء ابنك بغير أوتوبيس المدرسة يقوض جزءا من نظام الدراسة.. أكتفى فى هذه المرة بلفت نظرك إلى خطورته. ابنك تأخر عن أوتوبيس المدرسة؟ ليكن. إذن عليه أن يجيء بالمواصلات العامة من مصروفه الخاص.. أو حتى يأتى سيرا على الأقدام ويتحمل نتيجة خطأه.. والآن.. دعنى أهديك

نسـخة أخرى من كتالوج بصور وسـيرة بعض البارزين الذين تعلموا فى هذه المدرسة ونتابعهم فى حياتهـم العملية بكل اعتزاز. كلهم ناجحون وبارزون وبعضهم - حتى الآن - يجىء إلى المدرسـة بين وقت وآخر ليقول: شكرا.

بينمـا صديقى يحكى لى الحكاية دخل علينا المذكور: ابنه. صبى الثانية عشـرة القادم لتوه من مباراة فى التنس نظمتها المدرسـة فى يوم العطلة هذا - السـبت - وهو سعيد لأنه خرج من المباراة فائزا ومتفوقا. أما الإضافة الأكثر أهمية فهى أنه يتعلم فى المدرسة ثلاث لغات.. والآن يريد منى أن أتحدث معه بالعربية.. ليس فقط لأن أباه مصرى الأصل.. ولكن لأن الصبى يريد أيضا أن يتقن لغة رابعة.. يصبح بها أكثر تميزا عن أقرانه.

□□□



موسيقى عذبة .. للنصب على نغماتها !

فى نفوسنا جميعا حافز للقول بأننا لانفعل مانفعله إلا تعبيرا عن رسالة سامية. والأمر يحتاج بعد ذلك إلى ملاطمة الواقع كثيرا حتى نقتنع بأنه بدلا من إصلاح الكون.. فإن من الأجدى أن نبدأ أولا بإصلاح نصف المتر الذى نقف عليه من الكون.

لكن الأمر يختلف تماما مع الدول العظمى. فادعاء حمل الرسالة هنا يكون مصحوبا بدبابات وصواريخ وطائرات تتولى عند الضرورة مهمة «الاقناع» بتقبل تلك «الرسالة السامية» التى تبشر بها الدولة العظمى الآخرين. فالولايات المتحدة مثلا، تقوم بين وقت وآخر، وعن طيب خاطر، بتكليف مشاة البحرية لديها بالذهاب إلى هذه الدولة أو تلك فى أمريكا اللاتينية بهدف «إقناع» أولى الشأن فيها بأن ماتراه امريكا لهم هو أفضل مما يرونه هم لأنفسهم !

روسيا هى الأخرى، قبل أن تتنكر تحت اسم الاتحاد السوفيتى، رأت فى عشرينيات القرن التاسع عشر أن من مهامها الكبرى فى هذه الدنيا أن تحمل هم الشعب المصرى. وهكذا كتب القيصر الروسى إلى والى مصر - محمد على وقتها - يحثه على التدخل بقوة بين الزوج وزوجته داخل الشعب المصرى حتى لايتناسلا بكثرة. لأن فى مثل هذا التناسل خطورة على الإنسانية، ومن ثم خطورة على سياسات القيصر الروسى فى عاصمته بطرسبورج. يعنى.. روسيا، التى تفصلها عن مصر بحار وقارات ومسافات، مهتمة بحماية صحة الشعب المصرى، وتعداده وقتها أقل من خمسة ملايين، ولذلك فهى تحثه على تنظيم النسل !

وهموم مثل تلك «الرسالة السامية» تدفع الدولة الكبرى بين وقت وآخر إلى خوض الحرب.. ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة. وفى نهاية المطاف تسفر كل حرب تشنها دولة كبرى عن شىء آخر مختلف تماما عما بدأت به. بريطانيا العظمى مثلا.. ذهبت فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر تدق الصين بطلقات بوارجها المسلحة حتى «تقنع» شعبها بالانضمام إلى الحياة المتحضرة، لكى تسفر الحرب فى النهاية عن معاهدات فرضت بها بريطانيا على الصين ان تسمح للتجار الانجليز ببيع الأفيون جهارا نهارا لأفراد الشعب الصينى .

والحرب الفرنسية البروسية فى سنة ١٨٧٠، كان ظاهرها الذى بدأت به هو النزاع على العرش الأسبانى. أما السبب الخفى فكان مقاومة فرنسا لتوحيد ألمانيا. وفى المعاهدة التى فرضت على فرنسا شروط المنتصر نسي الجميع تماما أى شئ عن عرش أسبانيا. وفى سنة ١٨٩٨ شنت الولايات المتحدة الحرب على كوبا - وهى جزيرة صغيرة - بهدف معلن هو تحرير الشعب الكوبى من الحكم الأسبانى المتسلط الظالم. وانتهت الحرب طبعا بخروج اسبانيا.. لكنها انتهت ايضا بوضع كوبا تحت الحماية الأمريكية.

ولأن الانتصارات العسكرية تشجع الدول الكبرى دائما على المزيد من «الرسالات السامية» فإن الولايات المتحدة سرعان ماقامت فى نفس السنة بضم الفيلبين إليها بالقوة المسلحة. لكن حتى لايتفلسف أحد بالحديث عن مصالح أمريكية غير سامية، خرج الرئيس الأمريكى «ويليام ماكينلى وقتها» ليقول فى خطاب علنى إن السيد المسيح طلب منه، فى المنام!، أن يضم الفيلبين إلى ممتلكات أمريكا، لأن من واجب أمريكا: «أن تعلم شعب الفيلبين، وترفع من مستواه، وتدخله فى الدين المسيحى، وأن تجعله شعبا متحضرا، وأن تفعل بهذا الشعب ماتشاء بفضل الله باعتبارهم إخوة لنا مات المسيح من أجلهم أيضا» .

وحينما دخل نابليون بونابرت إلى الاسكندرية فى سن ١٧٩٨ قال فى منشوره إلى المصريين إنه لم يأت إلى بلادهم غازيا - حاشا لله!، ولكن لأنه أدرك فجأة مدى حبه للإسلام والمسلمين. وتأكيدا لذلك - افتتح ذلك المنشور بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لاولد له ولا شريك له فى ملكه» مقررا أنه لم يجئ إلى مصر بقواته إلا ليخلص المصريين من أيدى الظالمين، ثم «ياأيها المشايخ والقضاة والأئمة.. قولوا.. قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون».

أما حينما ذهبت فرنسا تحتل الجزائر فى سنة ١٨٣٠ فإنها استخدمت فى البداية حججا أكثر واقعية. لقد تحرك الأسطول والجيش الفرنسى إلى الجزائر غازيا لأن حاكم الجزائر تجرأ فى غضبه وخبط ذراع القنصل الفرنسى بمنشة فى يده.. وهى إهانة كبرى لاتغتفرها فرنسا. وحينما ثار السؤال: لماذا لم ترد فرنسا الإهانة بمثلها.. بلكم الحاكم الجزائرى مثلا ردا على خبطة المنشة ؟! أصبح على فرنسا أن تعود إلى قاموس «الرسالات السامية» الذى تستخدمه الدول الكبرى.

فالحقيقة - وفرنسا تقسم بأنها لاتقول غير الحقيقة - ان فرنسا تحتل الجزائر عسكريا دفاعا عن مصلحة مشتركة تهم «العالم المتحضر» وبالتحديد: وضع حد لقرصنة التجار الجزائريين.

بمجرد أن تم لفرنسا احتلال الجزائر نسيت كل مايتعلق بالعالم المتحضر، والقضاء على إرهاب وقرصنة التجار الجزائريين. لقد توسعت فى احتلالها لكى يمتد إلى تونس ومراكش (المغرب) ووصل بها الأمر إلى اعتبار الجزائر ذاتها إقليما فرنسيا له نواب فى البرلمان الفرنسى كأى مقاطعة

أخرى داخل فرنسا. بالطبع لم يتوقف أبدا كفاح الجزائر من أجل حريتها لكن هذا الكفاح لم يتحول إلى وجع حقيقى فى قلب فرنسا إلا بعد أن قررت مصر، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، الوقوف بجانب الثورة الجزائرية. وحينما استقلت الجزائر فعلا فى سنة ١٩٦٢ برئاسة أحمد بن بيللا كان هذا أولا بفضل أبنائها. وفي الوقت نفسه بسبب دعم مصر لثورتها.. وهو أمر حفظه الجزائريون للشعب المصرى دائما ولجمال عبدالناصر تحديدا. فعبد الناصر لم يساعد الجزائر فى استرداد حريتها فقط وانما استرد الجزائر للعروبة وللإسلام، وكلاهما حاولت فرنسا القضاء عليه طوال ١٣٢ سنة.

❑❑❑

لكن لنبق في موضوعنا الاساسى، موضوعنا هو الشعارات الجذابة التى ترفعها الدول الكبرى، أو «الموسيقى العذبة» التى يعزفها أقوياء الغابة الدولية للنصب على ضعفاء الغابة.. وأحيانا للنصب على بعضهم بعضا.

فى سنة ١٩٣٣ مثلا وصل أدولف هتلر وحزبه النازى إلى السلطة فى المانيا... وصل بوسائل ديمقراطية تماما وببرنامج لم يكن يخفيه. بل إنه فى سنة ١٩٣٧ مثلا ألقى خطابا عاما فى مدينة نورمبرج قال فيه «إذا أردت مهاجمة خصمى فإننى لن ألجأ إلى التفاوض واضاعة الوقت وقضاء عدة أشهر فيها لكننى أعمل ما عملت دائما: أخرج فى جنح الظلام وأنقض عليه كالبرق الخاطف».

مع ذلك.. فحتى الانقضاض فى جنح الظلام يحتاج من الدول الكبرى إلى شعارات جذابة للتمويه. وهكذا، فبعد أن استولى هتلر على النمسا رفع شعارا جميلا جذابا هو «الدفاع عن الأقليات» فى الدول الأخرى.. واضعا عينيه فى هذه المرة على تشيكوسلوفاكيا. إن حجة هتلر المعلنة هى أن تشيكوسلوفاكيا - الدولة المستقلة - تقوم باضطهاد الأقلية الناطقة بالألمانية فى شعبها.

لم يكن هذا صحيحا بالمرة.. فالدولة القائمة فى تشيكوسلوفاكيا كانت تعامل الأقليات فى شعبها بلا تمييز ولا تفرقة، وبأفضل من أى دولة أخرى وسط أوروبا. ثم إن تشيكوسلوفاكيا دولة ديمقراطية، وقوية، ولها حلفاء أقوياء مثل فرنسا وروسيا. مع ذلك.. فتحت شعار «مساعدة هتلر فى الدفاع عن الأقليات» تخلى الحلفاء عن حليفهم، وفرضوا على تشيكوسلوفاكيا التخلى لألمانيا عن مقاطعاتها الحدودية ذات الأغلبية الناطقة بالالمانية.

هل يهدأ هتلر؟ أبدا. لقد شجعته التنازلات على طلب المزيد منها. وذهب اليه رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا لاسترضائه. فى هذه المرة يريدون منه أن يسجل طلباته كتابيا حتى لايفاجئهم فيما بعد بطلبات أخرى. وفعلا.. عملها هتلر. وقرأ رئيس وزراء بريطانيا مذكرة هتلر المكتوبة فأصابه الذهول. إن الاستجابة إلى هذه الطلبات معناها تفكيك تشيكوسلوفاكيا - أو ماتبقى منها - عمليا. أبدا ابدا.. أبدا هكذا أجاب هتلر قرناءه.. مضيفا: دعكم من مضمون هذه المذكرة،

ركزوا فقط على عنوانها والعنوان هو «السـلام».. أنا رجل سـلام والهدف من تلك الطلبات هو فقط تحقيق السلام.

وباسـم السـلام وافق المجتمعون على طلبات هتلر. وافقوا حتى بغير استشـارة الدولة الضحية تشيكوسلوفاكيا ذاتها. إنها «معاهدة ميونيخ» الشهيرة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨.

وعاد رئيس وزراء بريطانيا إلى بلاده مبشـرا شـعبه بأنه حقق «السلام فى عصرنا» ومنع حربا قد يشـنها هتلر فى أوروبا. أما رئيس وزراء فرنسـا فقد عاد بالطائرة إلى باريس ليجد الآلاف فى انتظاره للترحيب به، باعتباره بطلا للسلام. وهمس رئيس الوزراء فى أذن أقرب مساعديه متهكما بقوله: آه لو يعرف هؤلاء البلهاء مضمون هذا «السلام» الذى يهتفون من أجله.

بعد قليل.. عرفوا. ففى شهر مارس سنة ١٩٣٩ قامت ألمانيا باحتلال ماتبقى من تشيكوسلوفاكيا. ولأن التنازلات تفتح الشهية إلى طلب المزيد والمزيد من التنازلات.. فقد أصبحت بولندا هى الضحية التالية لهتلر. وفى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ قامت ألمانيا بغزو بولندا. بعدها حاولت فرنسا التصدى لألمانيا فاحتلها هتلر. بعدها حاولت بريطانيا - بعدهما الولايات المتحدة ومن هؤلاء - زائد الأتحاد السوفيتى تشكلت مجموعة «الحلفاء»، ضد مجموعة «المحور» من ألمانيا وإيطاليا واليابان. لقد بدأت الحرب العالمية الثانية:

□□□

كانت الشـعارات المطروحة هـى أن الحرب تجرى دفاعا عن الديمقراطيـة. ومن أجل مواجهة الخطر المشـترك اضطر ونسـتون تشرشـل، الزعيم الجديد لبريطانيا، إلى ابتلاع كل عدائه السابق للاتحاد السوفيتى وماركسيته وزعيمه جوزيف ستالين.. مبررا ذلك بقوله: «إننى سأتحالف حتى مع الشـيطان فى سـبيل مصلحة بلادى». هكذا أصبح الاتحاد السـوفيتى جزءا أساسيا من مجموعة «الحلفـاء». وبدأت الصحف الأمريكية تكتب غزلا فى سـتالين والاتحاد السـوفيتى. نفس الاتحاد السـوفيتى الذى ظلت الولايات المتحدة تعاديه، وترفض حتى الاعتراف به دبلوماسـيا حتى سـنة ١٩٣٣، الآن هو الحليف المخلص وتتدفق عليه الأموال والأسـلحة الأمريكية بصفته الجديدة عضواً فى التحالف من أجل الديمقراطية.

□□□

فى الحرب العالمية الثانية كان تعرض بولندا للغزو الألمانى هو السـبب المباشـر فى اشـتعالها اسميا.

مع ذلك فبقدوم سنة ١٩٤٥ أصبح مؤكدا انتصار معسكر «الحلفاء» ضد معسكر «المحور». واختار المنتصرون تبشير العالم بنظام دولى جديد، أساسه العدل والحرية والديمقراطية، ورمزه هو منظمة

جديدة باسم «الأمم المتحدة». وهكذا شهدت مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية فى شهر ابريل ١٩٤٥ انعقاد المؤتمر التأسيسى للإعلان رسميا عن اقامة منظمة «الأمم المتحدة». والدول المدعوة للحضور هى بالطبع – التى خاضت الحرب ضد دول «المحور» أو كانت ضحية لها.

إنهـا نحو خمسـين دولة (مصـر كانت بينها). أمـا المفارقة الكبرى فهـى أن بولندا – الدولة الضحية التى نشأت الحرب العالمية الثانية أصلا باسم الدفاع عنها – لم تحضر الاجتماع. والسبب أن المنتصرين الكبار لديهم مشـاغل أكبر وأهم من تلك الجزئيات والفرعيات. أكبر مشاغلهم هى توزيع الغنائـم فـى هذا النظام الدولى الجديد الـذى قرروا إقامته. بكلمات أخرى: إعادة رسـم الخريطة الدولية.

النظـام الدولى الجديد عنوانــه هو الديمقراطية والحرية والمسـاواة. إنهـا – مرة أخرى نفس «الموسيقى العذبة» التى يتم عزفها من جانب الأقوياء فى آذان الضعفاء.. فيصبحون أكثر سلاسة فى الانقياد.. وأكثر التزاما بالطاعة.

❑❑❑

يـدور الزمـن. يتغير الواقـع. يخرج الاتحاد السـوفيتى من اللعبـة بعد أن كان أحد شـركاء «الانتصار» فيما مضى. لكن السياسة لاتعترف أبدا بما مضى. السياسة هى «الآن». وهى «المستقبل». ومن يريد المستقبل يبدأ من الآن. أما الحديث عن أمجاد عصر مضى، فهو موضوع المؤرخين.. وليس السياسـيين. تكلمنى عن أصلك وفصلك وأبيك وجدك؟ جميل، لكن، ماذا تسـاوى أنت؟ والآن؟ هل تعيش على حساب ماتركه لك الأب والجد.. أو أنك تصنع – بمجهودك الخاص رصيدا جديدا يجعل الأب والجد فخورين بك فى قبريهما ؟!

فى شـهر مارس سنة ١٩٩١ وقف الرئيس الأمريكى جورج بوش وقتها – أمام اجتماع مشترك فى واشنطون لمجلسى الكونجرس – البرلمان – الأمريكى. المناسبة هى «انتصار» الولايات المتحدة فى حرب تحرير الكويت من غزو قام به حاكم العراق. هى أولا لم تكن حربا تخوضها الولايات المتحدة بمفردها، فقد حرصت – بدأب وحصافة – على أن تضم إليها، ولو بشكل رمزى، نحو ثلاثين دولة أخرى. هى ثانيا – كانت حملة تأديبية بأكثر مما كانت حربا. فلا العراق هو ألمانيا.. ولا الكويت تزرع خيارا وجزرا.

كانت حرب بترول.. لا أكثر ولا أقل. وهى فى الأساس إعادة توزيع للحن قديم مستمر.

فـى خطاب الرئيس الأمريكى أمام برلمانه، فى مـارس ١٩٩١، كان مألوفا الحرص على تهنئة الـذات، هذا طبيعى. وكلمات كبيرة رنانة. هذا طبيعى أيضـا. والرئيس الأمريكى يقرأ خطابه من الورق فيصفق له الكونجرس مقاطعا، بحيث إن مدة الخطاب اسـتغرقت ثلاثين دقيقة.. ربما عشـر

دقائق منها كلمات من الرئيس الأمريكى وعشرون دقيقة تصفيق من الكونجرس. هذا طبيعى.. مرة ثالثة.إنمــا المهم، ولايزال الرنين فى أذنى حتى الآن برغم مرور الســنوات، هو تلك الكلمات التى ارتجلهــا الرئيس الأمريكى قائلا فى هذا الســياق «لقد هزمنا العــدوان». تصفيق حاد.. و«الحرب انتهت». تصفيق حاد .و«الآن سنصنع السلام» وقوف وتصفيق حاد.

ثــم: «لقد أثبتت التكنولوجيــا الأمريكية تفوقها. عاصفة من التصفيــق. إنها الأفضل فى العالم كلــه. وقوف وتصفيــق وتلويح بالعلــم الأمريكــى. والآن أقــول للأمريكيين: اقترضــوا.. وانفقوا وتوســعوا.. فأمريــكا هى الأقوى والأفضل والقــرن الأمريكى قادم أمامنا. وقــوف وتصفيق وتلويح بالعلم الأمريكى.

كل هذا مفهوم تماما، فى ســياق رئيس يخاطب شــعبه، إنما السؤال فى نهاية المطاف هو: هم ينتجون، ولديهم فائض يبيعونه للآخرين. ونحن مســتهلكون، ولدينا نقص يجب أن نشــتريه من الآخرين. وإذا اســتمرت المعادلة على هذا النحو فلا أحــد يحتاج إلى احتلالنا.. نحن نصبح قابلين للاحتلال فعلا. والموسيقى التصويرية رقيقة وعذبة: باسم الحرية افتح سوقك، افتح تجارتك، افتح جيبك الخ.

إنهــا حرية التجــارة. وكل حديث عن الحرية يظل ممتعا، لأنها ـ مــن قبل ومن بعد ـ الحلم الأكبر للإنســانية. وبتلك الصفة فلنبدأ أولا بالطرب من كلمة «الحرية» لأن أمامنا بعد ذلك مانفكر فيه – ونفكر بجد – حينما ننتقل من «الموسيقى العذبة» إلى النصف الآخر من الجملة.

❑❑❑



عوطوه .. الله يرحمه !

حينمـا كتبت المقال الماضى متناولا فيه – ضمن أشـياء أخرى معنى حرية التجارة كما تطرحه الدول الكبرى.. لم يكن فى خيالى أن الأحداث السـاخنة ستأتى بكل تلك السرعة لكى توضح عمليا ما أقصده. لم أتوقع أيضا أن يخرج كل هذا البركان الغاضب من صدور شـبان وشابات فى قلب مدينة أمريكية تفصلها عنا بحار ومحيطات.. مدينة هى بذاتها مقر لجزء من «غرفة العمليات» التى ترفع شعارات «العولمة» و«تحرير التجارة» و«افتح جيبك تأكل ملبن» وكل تلك الشعارات الجميلة البراقة طالما هى شعارات. أما فى اللحظة التى تخضع فيها للمناقشة والفحص والمساءلة.. فإنها تكشف عن منطق الغابة الذى يريد الكبار الأقوياء فى الساحة الدولية فرضه على الصغار الضعفاء .

لم يخطر فى بالى مثلا أن يخرج شباب غاضب فى مدينة جنيف السويسرية لكى يقطعوا الكهرباء عن مقر منظمة التجارة العالمية قائلين: إن «الإنسان ليس سلعة». أو أن يخرج شباب غاضب آخر فى مدينة لندن عاصمة بريطانيا رافعين شـعارات من نوع «منظمة التجارة العالمية هى منظمة اللصوص العالمية». أو أن يخرج جون ريتشارد سون ممثل المفوضية الأوروبية فى واشنطون لكى يتهم الولايات المتحدة بـ «الإمبريالية الاقتصادية» وبأنها لا تحاول أن تفرض على شـعوب العالم فقط كيف تحكم نفسـها.. ولكن تفرض عليها ما تشتريه وما تأكله وما تلبسـه وما تستهلكه. ولا أن يخرج مهاتير محمـد رئيس وزراء ماليزيا لكى يقول: «إن الناس يحتجون على منظمة التجارة العالمية لأن القوى الاقتصادية الكبرى تريد نشـر مخالبها حتى تسـتولى على العالم بأسره بالمعنى الحرفى للكلمة.. وتجعله يعمل تحت إمرة حفنة من الشركات القوية».

لم يخطر على بالى كذلك أن يخرج خمسون ألفا من الشباب – معظمهم أمريكيون – لكى يعبروا عن غضبهم ضد اجتماع وزارى يحضره ممثلو ١٣٥ دولة فى مدينة سياتل الأمريكية. ومع أنه اجتماع لمنظمة التجارة العالمية والوفود فيه حكومية برئاسـة وزراء التجارة.. إلا أن الحكومة الأمريكية لم تتحمل دولارا واحدا من التسعة ملايين دولار تكاليف المؤتمر. السبب بسيط: إن الشركات العملاقة الأمريكيـة تطوعت، ربما عـن طيب خاطر، بتحمل تلك التكاليف. بل وأعد بعضها مسـبقا برامج

مبهــرة لكي تقوم تلك الوفود بزيارة مصانعها لعلهم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم هاتفين بانبهار: تعيش حرية التجارة.

الحرية جميلة . لكن حرية التجارة شيء آخر. تماما كأن نقوم بإلقاء صبى فى العاشرة من عمره فى البحر قبل أن نعلمه السـباحة. أو حتى نعلمه السـباحة ثم نلقى به فى قلب المحيط الأطلنطى قائلين: إن عليه أن يتسابق. فلكى يلقى هذا الصبى بنفسه فى البحر عليه أولا أن يتعلم السباحة.

بعدها يتعلم أن يسـبح فقط فى حدود كفاءته الجسـمانية.. بغير هذا وذاك نكون كمن يدفع هذا الصبى إلى الانتحار. المسـألة ليسـت مكابرة ولا شـعارات.. لأن الله اعطانا عقولا لكى نستخدمها وليس لكى نلغيها.. أو نرهنها عند الآخرين.

فى الواقع الدولى حولنا شيء من ذلك. الدول التى سبقتنا إلى عصر الصناعة لم تولد هكذا . لقد بدأت مثلنا فقيرة.. ضعيفة.. متخلفة زراعية وإقطاعية.. إلخ. مع بدايتها مشوار النهضة الصناعية كان عليها أولا أن تحمى صناعاتها الناشـئة حتى يشـتد عودها. كان عليها أيضا أن تقيد وارداتها حتى لا تتراكم ديونها للآخرين فيجيئون اليها ببوارجهم المسلحة. ثم بعد مائتى سنة من النهضة المسـتمرة أصبحت دولا صناعية كبرى كما نراها الآن. لكنها بعد أن أصبحت كذلك نسـيت ما بدأت به. وانهمكت فى إمطارنا نحن بمواعظها عن حرية التجارة.

مرة أخري: الحرية جميلة. والتنافس أجمل. لكن التنافس يكون بين متكافئين. أو على الأقل.. بين متقاربين. إنما.. صبى فى العاشرة يدخل فى مباراة ملاكمة مثلا مع محمد على كلاى حينما كان بطلا للعالم فى الملاكمة النتيجة واضحة. وهى سقوط الصبى بالضربة القاضية أو حتى من الخضة.

وفى السنوات الأخيرة جرى إغراقنا بشعارات براقة وجذابة من نوع «العولمة» .. «الخصخصة».. حرية رأس المال.. حرية التجارة.. إلخ.. كلها كلمات حق يراد بها باطل.. وفلوس. والفلوس يجرى شفطها فى اتجاه واحد فقط من الضعفاء إلى الأقوياء.. ومن الفقراء إلى الأغنياء.

فى سنة ١٩٩٧ مثلاجرى زلزال اقتصادى روع العالم كله. زلزال عنوانه «الأزمة المالية فى دول جنوب شرق آسيا». حتى ذلك الوقت كانت الدعايات السائدة تطلق اسم «النمور الآسيوية» على حفنة من الدول.. مثل ماليزيا وسـنغافورة وكوريا الجنوبية وتايلاند وأندونيسـيا. حتى أول يناير سنة ١٩٩٧ كانت تقارير صندوق النقد الدولى تبشر دول العالم الثالث كله بأنها إذا كانت تحلم بالنهضة الصناعية والاقتصادية السريعة فعليها أن تقلد تلك «النمور الآسيوية». طوال عشرين سنة كنا نسمع هذا الموال.والموال لم يكن من فراغ. بالعكس. تلك الدول نجحت فعلا فى اقتحام عصر الصناعة خلال جيل واحد. وحققت فى عشـرين سـنة نهضة حققتها أوروبا وأمريكا فى ضعف تلك المدة. هذه دول تعبت وتعلمت وتدربت وعبأت كل مواردها لاقتحام صناعات محددة والتصدير إلى الآخرين بأسعار

أرخص. من مكاسبها هذه أصبحت تتمتع بفائض متراكم من الأرصدة وعملات قوية وحصانة ضد السقوط مرة اخرى فى بئر الفقر والجهل والمرض الذى خرجت منه.

فى القصة أيضا سياسات دولية. فبعد الحرب العالمية الثانية تبلور الصراع العالمى بين نظامين اقتصاديين: الرأسمالية ومعسكرها تقوده الولايات المتحدة.. والماركسية ومعسكرها يقوده الاتحاد السوفيتى. ولأن «خلافهم رحمة» فقد وفرت تلك المنافسة مساحة لدول العالم الثالث - ومصر فى قلبه - حتى تناور لصلحة شعوبها.. لأن كلا من المعسكرين يريد أن يجذبها إليه.

المعسكر الرأسمالى هنا كان أذكى.لقد حسبها فوجد أن إغراء العالم الثالث بالنموذج الرأسمالى، كما تطور تاريخيا فى أرض الواقع، لن يحقق لتلك الشعوب أحلامها فى وقت قصير، ولا بثمن مقبول. ففى القرن العشرين لم يعد أحد مستعدا للقبول بالمنطق المتوحش الذى عاشت به الرأسمالية فى القرن التاسع عشر. وقتها لم تكن هناك حقوق للعمال ولا نقابات تدافع عن مصالحهم، ولم يكن صاحب المصنع ملتزما بالضرائب ولا برعاية عماله صحيا أو اجتماعيا. باختصار.. هى رأسمالية متوحشة وجد فيها الروائى الإنجليزى تشارلز ديكنز مادة خصبة لقصصه الباقية معنا حتى الآن.

مع التنافس بين الماركسية والرأسمالية عقب الحرب العالمية الثانية أصبحت الرأسمالية أبعد نظرا من ناحيتين. أولا - اقتبست لنفسها بعض أفكار العقيدة الماركسية ذاتها. فأصبح هناك حد أدنى للأجور وشبكة تأمينات اجتماعية ونقابات للعمال - والأكثر أهمية - نظام صارم تماما للضرائب يخضع له الغنى قبل الفقير. فى الولايات المتحدة مثلا.. لو ثبتت تهمة التهرب من الضرائب على أى شخص - وزيرا أو غفيراً - الآن أو قبل عشرين سنة - فلا هزل بالمرة. إنما المصادرة والسجن وفقدان أهلية الترشيح لمناصب عامة. ثانيا: ركزت الولايات المتحدة على بضع دول صغيرة لكى تطرح من خلالها نموذجا آخر معدلا للرأسمالية. دول بحجم سنغافورة وماليزيا وتايوان وكوريا الجنوبية مثلا.. وكلها فى مجموعها أقل من مائة مليون نسمة. لماذا تلك الدول ؟ ولماذا فى آسيا ؟ لأن شبح النموذج الماركسى فى التنمية موجود ومطروح بقوة فى صورة دولة بحجم الصين. صين ماوتسى تونج. فإذا رأى ألف مليون صينى بعيونهم مثلا أن نموذجهم فى التنمية الاقتصادية لا يوفر لهم بعد ربع قرن أكثر من الغذاء والكساء.. فهذا شىء.. أما إذا رأوا دولا صغيرة قريبة منهم نجحت فى ربع قرن أيضا فى أن توفر لشعوبها الغذاء والكساء والدواء والمسكن والسيارة ودفتر توفير بالبنك.. فهذا شىء مختلف.. ونموذج أكثر إغراء بالتقليد .

إذن.. ما نجح فى جنوب شرق آسيا.. وفى دول «النمور الآسيوية» تحديدا.. لم يكن الرأسمالية التقليدية. لكنها الرأسمالية المحسنة المقيدة المنضبطة المسئولة اجتماعيا.. والتى تقوم فيها الدولة بكل سلطاتها بدور الدينامو المحرك للاقتصاد والمعبىء للمدخرات والمدعم للصادرات والمقيد للواردات والمقيد - بدرجة أكبر - لقواعد السوق الحرة والتجارة الحرة.

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الماركسية ـ فى أوروبا على الأقل ـ وتفكك الاتحاد السوفيتى.. التقطت الولايات المتحدة أنفاسها لأول مرة منذ سنة ١٩٤٥. التقطتها.. مؤقتا. صحيح أن انتهاء الحرب الباردة معناه هزيمة الماركسية. لكن هذا مجرد نصف المعادلة. أما النصف الآخر المستمر فى علم الغيب فهو: انتصار الرأسمالية. والولايات المتحدة هنا كانت فى سنة ١٩٤٥ أكبر دولة دائنة للآخرين لكنها فى سنة ١٩٩٠ أصبحت أكبر دولة مدينة فى التاريخ.

والحل ؟ أفكار كثيرة جرى طرحها، أفكار من نوع أن سقوط الماركسية هو نهاية التاريخ. فحيث إن حركة التاريخ تتشكل من الصراع بين الشيء ونقيضه.. وحيث إن النقيض اختفى. إذن: الصراع اختفى. إذن: انتهى التاريخ. افتحوا الأبواب للمنتصر.. وقدموا له فروض الطاعة.

الكلام كبير. لكنه مضلل. يكفى أن نتذكر أن التناقضات والصراعات والمواجهات والحروب البشرية كانت موجودة قبل الماركسية وتظل موجودة بعدها. ثم إن المنتصر الآن يريد المكافأة والجائزة. يريد ثمن انتصاره. ويريده من جيوب الآخرين. والمنتصر هنا ليس مجرد فكرة أو دولة أو سياسة.. وإنما شبكة ضخمة من شركات عملاقة متعددة الجنسيات عابرة القارات. أكبر ثلاثمائة شركة منها تسيطر فعلا على سبعين بالمائة من الاقتصاد العالمى. ثلثا تلك الشركات أمريكية. والثلث الآخر موزع بين أوروبا الغربية واليابان. إذن.. هؤلاء الأغنياء فى الشمال تفتحت شهيتهم وتحركت مصالحهم فى اتجاه بعضهم بعضا. لكن أساسا فى اتجاه دول الجنوب. دول العالم الثالث. يعنى: حضراتنا.

والمصالح الكبرى تحتاج دائما إلى التنكر وراء شعارات كبرى. شعارات من نوع «العولمة» مثلا: يا أخ.. انتبه.. العالم الآن قرية صغيرة واحدة عالمية. الحدود فقدت معناها والقيود عديمة الجدوى وسيادة الشعب على اقتصاده مفهوم متخلف وسيادة الدولة على مواردها مفهوم أكثر تخلفا. الآن.. ها هى فرصة العمر. افتح حدودك. افتح جيوبك. اختصر أوهامك. لا تحمل هم فقرائك لأنهم يستحقون فقرهم ولا مرضاك لأنهم يستحقون مرضهم. أمامك فرصة العمر. انفتح علينا لأننا العالم ولأنه ـ بمزاجك أو غصب عنك ـ سوف يتم «عولمتك». أنت الجانى على نفسك.. إذا لم تفتح مخك وبسرعة. عندنا مشاغل أخرى وزبائن آخرون.

الكلام مهم. فيه بعض الإغراء لكن فيه أيضا الوجه القبيح. والانذار الأول هنا جاء عمليا فى سنة ١٩٩٧. ففى غمضة عين وجدت دول «النمور الآسيوية» إياها أنها تحولت إلى فئران مذعورة. لقد تبخرت كل مدخراتها وأرصدتها من العملات الأجنبية، . وانهارت قيمة عملاتها الوطنية، وبعد أن كانت دائنة أصبحت فجأة مدينة. والفاعل هنا مجهول.. مؤقتا على الأقل.

فى حينها كتبت سلسلة مقالات فى جريدة «الحياة» التى تصدر من لندن محورها السؤال المنطقى التالى: كيف تنام شعوب بكاملها ليلا وهى غنية وقوية وبنوكها المركزية عامرة بالأرصدة الضخمة

ثم تستيقظ نفس هذه الشعوب صباحا لتجد نفسها فقيرة معدمة وجائعة ومدينة وعملتها الوطنية بسعر التراب والملايين من عمالها فى حالة بطالة ؟ المصانع هى نفسها وانتاجها بنفس الجودة والشعوب هى نفسها وأبناؤها بنفس التعلم المرتفع وعمالها هم أنفسهم وبنفس الكفاءة الإنتاجية.

إذن: ما هو السر فى كل هذا الزلزال ؟

كان السر بسيطا. لقد قيل لهم: تعولوا. افتحوا الأبواب. افتحوا الأسواق.اشطبوا القيود على دخول وخروج الأموال لتكون بلا رقيب ولا حسيب. فى البداية دخلت الأموال قادمة من الخارج فى شكل قروض. طبعا قال البعض وقتها: إن هذا تعبير عن الثقة وشهادة بحسن السير والسلوك يعززها صندوق النقد الدولى إياه. لكن.. فجأة خرجت تلك الأموال فى غمضة عين حيث أصحابها يريدونها مرة واحدة.. وفورا . ألم يتفق الجميع من البداية على أن جوهر «العولمة» هو تحرير دخول وخروج رءوس الأموال ؟

جوهر العولمة أيضا هو حرية التجارة.

هذا يعيدنا إلى المؤتمر الوزارى الأخير لنظمة التجارة العالمية فى مدينة سياتل الأمريكية. هذه المنظمة نشأت أصلا فى سنة ١٩٩٥ لكى تصبح هى الشرطى الثالث عالميا بعد صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. فقد تأخر ميلادها حتى سنة ١٩٩٥ لأنها لم تكن ممكنة طوال سنوات الحرب الباردة. والمنظمة مقرها مدينة جنيف وتضم حاليا ١٣٥ دولة.

فى صندوق النقد الدولى تصدر القرارات حسب حصص الدول الأعضاء فى رأس المال. فى الأمم المتحدة تصدر القرارات بالتصويت المتساوى.. يعنى لكل دولة صوت واحد.. كبرت أو صغرت. أما فى منظمة التجارة العالمية فقد ولدت بدعة جديدة هى أسلوب «التوافق». تماما كالبرلمانات الشكلية فى أشد الدول استبدادا وديكتاتورية.. حيث يجلس رئيس البرلمان فى المنصة متسائلاً: موافقون ؟ وقبل أن يلتقط أى أحد أنفاسه يرد نفس الشخص: طبعا موافقون. إذن ننتقل إلى البند التالى فى جدول الأعمال .

ولأن هذا هو ماجرى فعلا فى إنشاء منظمة التجارة العالمية والمعاهدة العجيبة المترتبة عليها.. فقد امتد الوضع إلى داخل معظم دولها. فى برلمان واحدة من دولنا المعتبرة مثلا وقف الوزير المختص يطلب من الأعضاء باسم الحكومة التصديق على الالتزامات الجديدة لتحرير التجارة. ثم وقف أحد الأعضاء يطلب أولا توزيع نصوص هذه الالتزامات حتى يمكن مناقشتها برلمانيا. لكن الوزيرالمختص رد عليه مستنكرا: تقرأوا ماذا ؟ وتناقشوا ماذا؟ تناقشواخمسمائة صفحة التزمت بها الحكومة مع منظمة التجارة العالمية وانتهى الأمر؟ هل ستعرفون أحسن من الحكومة ؟

لكن المشكلة ليست فى عدد الصفحات، ولا حتى فى صياغاتها التى تبدو فنية. المشكلة هى أن تحرير التجارة هنا يمس مصير شعوب بكاملها. يمس حياة ملايين بعد ملايين. يمس

مـا يأكله الناس وما يلبسـونه ومـا يحصلون عليه من دخل ومرتبـات ـ الأخطر من هذا كله ـ يمس فرصهم فى التوظف أو عدم التوظف.. وبالتالى يمس مستوى حياتهم ومستقبل أبنائهم. ثم إنه قبل أى حديث عن حرية التجارة يجب أن نضمن أولا عدالة التجارة.

والشـركات عابـرة القارات هنا تريد من الجميع فتح الأبواب أمـام التجارة العالمية لأن هذا هو جوهر العولمة. وهى بالطبع غير مسـتعدة للتحدث فى مضمون هذه الحرية فما بالنا بسيرة العدالة. الولايـات المتحدة تريد من الدول النامية إطلاق حرية الاسـتيراد تحت عنـوان حرية التجارة لأن لديهـا هى – أى لدى الولايات المتحدة – فائض كبيـر تنتجه وتريد تصديره إلى الآخرين. إذن فى المقابل: هل تفتح الولايات المتحدة أبوابها أمام العمالة الشـابة القادمة من الدول النامية؟ أبدا. لأن هذا يعنى مزاحمة العامل الأمريكى داخل بلده.

وتحرير التجارة يتضمن – من بين أشياء أخرى – أن تبيع الدول النامية بنوكها، حتى ولو قطاعا خاصا، إلى الآخرين وتفتح أبوابها أمام «التجارة الإلكترونية».. فقط لمجرد أنها الأكثر تقدما فيها، وبشرط أن تصبح الواردات من أمريكا هنا معفاة بالكامل من أية رسوم أو جمارك عند دخولها.

لكن..لكى نسـتورد «بكبسـة» زر.. يجب قبلها أن نصدر «بكبسـة زر». ولكى نفعل ذلك يجب أن يكـون لدينـا فائض نصدره. ولكى يصبح لدينا فائض يجـب أولا أن ندخر ونتعلم ونعمل ونتعب ونؤجل بعض الاحتياجات المهمة.. حتى نستوفى أولا الاحتياجات الأهم. لكى نسبح يجب أولا أن نتعلم السباحة. ولكى نسبح فى المحيط الأطلنطى يجب أن نكون فى حالة بدنية وصحية تسمح لنا بمسابقة الآخرين فى مياه المحيطات المفتوحة.

فى مدينة سـياتل الأمريكية انفجر بركان الغضب. وانفجر فى آخر مكان توقعه أحد.. فمدينة سـياتل بذاتهـا مقر لعدد من الشـركات الأمريكيـة العملاقة صاحبة المصلحـة المؤكدة فى تحرير التجارة العالمية. شـركات مثل «بوينج» المنتجة للطائـرات وقيمة مبيعاتها فى العام الماضى فقط ٥٦ مليار دولار منها ٢٧ مليار دولار صادرات إلى الدول الأخرى. هى أيضا مقر لشـركة ميكروسـوفت أكبر شـركة صانعة لأجهزة الكمبيوتر وتوابعها. فى مواجهة هؤلاء وأمثالهم خرج خمسـون ألف شـاب معظمهم أمريكيون يمثلون جمعيات أهلية.منهم من يسعى إلى حماية العمال الأمريكيين من مزاحمة الأجانب، ومنهم من يسـعى إلى حماية البيئة، أو حتى لحماية العدالة كقيمة إنسـانية كبرى تسبق الحرية.

كان هـذا مفاجئا فى جانب وغيـر مفاجيء فى جانب آخر.. كان مفاجئا من حيث حجم الغضب لكنـه غير مفاجيء من حيث موضوعه. فمن قبل كانت هناك إرهاصات تابعناها فى جنيف وباريس ولندن ومدن أوروبية أخرى. والشـرارة البسـيطة التى انطلق منها الغضب كانت رفض أوروبا فتح

أبوابهـــا أمـــام الأغذية الأمريكيـــة المعالجة هرمونيا لوجود شـكوك علمية فى أنها تصيب النســاء بســرطان الثدى والرجال بسـرطان البروستاتا، أمريكا استخدمت سـطوتها داخل منظمة التجارة العالميــة لارغــام أوروبا علــى ابتلاع اعتراضهـــا. حرية التجــارة تعنى حرية التجــارة.. لا إحم ولا دستور. أنتم حلفاؤنا.. أهلا وسهلا. لكن مصالحنا التجارية أهم.

يعنى الخناقة بدأت على كبير. وبعدها فقط بدأت الدول الصغيرة في عالمنا الثالث تفيق على هول ما التزمت به ســابقا، وفوق ذلك ما أصبح مطلوبا اضافته إلى التزاماتها فى اجتماع ســياتل. وحتى لا تتوهم الدول النامية، وهى ثمانون بالمائة من الدول الأعضاء، أن المسألة فيها تشاور أومناقشة أو ديمقراطية بدأت الرئيســة الأمريكية للمؤتمر بتحذير الــوزراء المجتمعين من اللحظة الأولى قائلة لهم: إن فشل المؤتمر غير وارد. بعدها قالت لممثلى الدول النامية: عليكم بتأييد الموقف الأمريكى.. وإلا وجــدت «معكم» حلا آخر. وحينمــا أرادت وكالات الأنباء تلخيص بــركان الغضب لدى الوفود الحاضرة نقلت عن الدبلوماســى المصرى المخضرم منير زهران قوله: «إنهم يعاملوننا كالحيوانات.. يبقوننا بالخارج فى البرد ولا يبلغوننا بأى شىء».

أما خارج مقر المؤتمر، حيث البرد والصقيع، فقد كانت مظاهرات خمسين ألف شاب وشابة أكثر تفجرا. مظاهرات اضطرت السلطات الأمريكية فى مواجهتها إلى إنزال الآلاف من الشرطة المحلية ثم القوات الخاصة الاتحادية ذات الملابس والتجهيزات الخاصة كما لو كانت تخوض حرب النجوم والكواكب.. مســتخدمة القنابل المسيلة للدموع.. فارضة حالة الطوارئ وحظر التجول على المدينة.. حيث لم يكفها اعتقال خمسمائة فتى وفتاة.

من هؤلاء الشــباب استردت شــعوب العالم بعض ثقتها الضائعة فى نفسها وفى مستقبلها.. فى مواجهة شركات كبرى عاتية تلح على شعوب العالم بدعواتها الجذابة المتكررة: تعولوا.. وبسرعة حتى لا يفوتكم القطار.. لكنها تحذف الوجه الآخر من الجملة: تعولوا... يرحمكم الله. أوبكلمات أخري: ارموا أنفسكم فى المحيط.. حتى قبل أن تتعلموا السباحة.

❑❑❑



.. آخرها بترول !

الجماعة حلفاء.. والحرب عالمية.. والخطر مشترك.. واللقاءات متكررة.. والكاميرات جاهزة.. والوجـوه كلها ابتسـامات.. والكلام فخـم ضخم عن الحريـة والديمقراطية، والعدالة والمسـاواة، والمستقبل المشرق.. وكلنا في الهوا سوا. يعني لأول وهلة: البساط أحمدى !

إنما.. لحظة لو سـمحت. في السياسـة قد يوجد بسـاط. لكن لا يوجد «أحمدي». توجد مصالح. والمصالـح لها حسـابات وفيها مقايضات، وتقررها عقول بـاردة، وتخططها أحيانا بأقصى درجات السرية.

و.. شيء من هذا شهدته مصر ذات أيام ثلاثة محددة من شهر فبراير سنة ١٩٤٥، حينما دارت على أرضها ـ أو في مياهها الإقليمية بمعنى أدق ـ مفاوضات حاسمة بين أطراف محددة. من الأطراف مثلا: ملك مصر – فاروق وقتها – ولم يكن له.. لا في «الطور ولا في الطحين» ومنهم ملك عربى لدولة جديدة عمرها ١٣ سنة ويتحسس طريقه لأول مرة في غابة السياسات الدولية... هو عبدالعزيز آل ـ سعود. ومنهم امبراطور بالأسم ولكن من غير فعل.. هو هيلاسلاسى امبراطور الحبشة (أثيوبيا فيما بعد) ومنهم ونسـتون تشرشـل رئيس حكومة الامبراطورية البريطانية العظمى، التى حتى تلك الفترة ـ لم تكن الشـمس تغيب عن أراضيها.. لكنها بعد الاجتماع سـتدرك أن مشوارها في الهبوط إلى أسـفل قد بدأ. ومنهم أيضا من ليس امبراطـورا، ويرفض أصلا أى كلام امبراطورى مكتفيا بأنه «فرانكلـين روزفلت» وبصفته رئيسـا للولايات المتحدة.. الذى يتحسـس الطريق لكى تصبح بلاده مستقبلا أهم من أى امبراطورية.. سابقة أو لاحقة.

هؤلاء الخمسة لم يجمعهم على أرض مصر وقتها اجتماع مشترك واحد.. لكنها كانت اجتماعات منفـردة منفصلة. وفى كل منها يغنى كل طرف على ليلاه! أما «ليلي» الحقيقية في القصة كلها فلن يتحدث عنها أحد علنا.. لا بالخير ولا بالشر. «ليلى» هذه هى البترول !

ونسـتطيع ان نطلق على القرن العشـرين عشـرات الأوصاف. إلا أن ما يعنينا هنا هو أنه: قرن البترول. بغير البترول لا تكتمل أبداً فكرتنا عن القرن العشرين كله. من البترول انطلقت حروب، وسقطت عروش، ونشأت عروش، وحيكت مؤامرات، وتربى جواسيس كبار.. لا يهتمون فقط برصد

العدو.. وإنما أيضا - بل وربما أساسا - بتحليل بول ودم «الصديق»، من غير أن يدرك هو بالطبع أن البول والدم والحالة الصحية له شخصيا عنصر أساسى فى تشكيل سياسات دولية !

هو البترول إذن الذى شكل جزءا أساسيا من ملامح القرن العشرين.. مع أنه فى مادته الخام مجرد سائل لزج أسود اللون. لقد بدأنا رحلتنا بالقرن السادس عشر بصفته قرن «الفلفل» ونريد أن نصل إلى القرن العشرين بصفته قرن البترول.. وكله أسود.. فى أسود!

لم تبدأ القصة من هنا. فى الواقع أن البشرية استمرت حتى القرن السابع عشر تستخدم الأخشاب كمصدر للوقود والطاقة. مع بدء الثورة الصناعية لم تعد أخشاب وغابات العالم كله قادرة على ملاحقة احتياجات المصانع الجديدة. هنا.. تحولت المصانع الجديدة إلى الفحم كمصدر للطاقة. وبريطانيا - باعتبارها أول من دخل عصر الصناعة ـ كانت لديها كميات ضخمة من الفحم.

لكن مع التوسع الصناعى المتسارع بدا أن مناجم الفحم قد لا تستطيع أيضا ملاحقة الطلبات الجديدة.

وفى سنة ١٨٦٥ أعد اقتصادى بريطانى بارز تقريرا يحذر فيه من احتمال أن ينضب مخزون بريطانيا من الفحم بحلول سنة ١٩٠٠. الإنذار نفسه شغل بال الدول الصناعية الأخرى فرنسا وألمانيا مثلا فى الجانب الأوروبى.. والولايات المتحدة فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى .

لقد بدأ الجميع سعيهم إلى استكشاف مصادر جديدة للطاقة، تكون بديلا عن الفحم أو احتياطيا له.

المصدر هو البترول. حتى العقد السابع من القرن التاسع عشر كان البترول معروفا كمصدر ثانوى للإضاءة والتدفئة. فى الواقع أن العرب عرفوا منذ القرن العاشر كيف يكررون البترول.. ومن مشتقاته كانت المصابيح الحكومية فى شوارع القاهرة وغيرها تضاء ليلا.

لكن المشكلة مع البترول لم تكن المعرفة.. وإنما التكنولوجيا. فالثورة الصناعية التى حمل الغرب لواءها منذ القرن الثامن عشر، إذا كانت ستتجه إلى البترول كمصدر للطاقة يلزمها ابتكار طرق جديدة لاستخراجه بكميات ضخمة، ثم تكريره بأسعار تجارية معقولة. يعنى.. المطلوب لم يكن الحفر فقط تحت سطح الأرض.. وإنما التنقيب فى باطن الأرض ومن خلال تكنولوجيا جديدة. تلك التكنولوجيا توافرت فقط فى العقد السابع من القرن التاسع عشر.. لكنها استمرت تنتشر ببطء، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤.

الحرب دائما تعنى تعبئة الطاقات وتركيز الموارد، واستثمار العقول، لأنها تضع مصائر دول بكاملها على المحك. فى السلاح البحرى مثلا يعطى استخدام البترول مزية حاسمة للسفن الحربية. فالسفن التى تستخدم الفحم يمكن للعدو أن يرصدها من مسافات بعيدة من خلال رصد

الدخان المتصاعد منها نتيجة احتراق الفحم. تصميم السفن أيضا يجب أن يوفر مساحة كبيرة لتخزين الفحم. يجب أيضا استخدام أيد عاملة كثيرة من أجل تخزين الفحم ونقله داخل السفينة ذاتها. إنما باستخدام البترول يختفى كل هذا. فالبترول سائل، والطاقة الحرارية الناشئة منه أكبر، والأيدى العاملة المطلوبة أقل.. من خلال استخدام الأنابيب.

وبريطانيا أصبحت امبراطورية عظمى من خلال أسطولها البحرى فى المياه الدولية. من هنا أصبحت وزارة الحرب البريطانية هى التى تلح على الحكومة بكل قوة للتحول فورا إلى البترول، ضمانا لاستمرار التفوق البحرى. هذا يعنى العمل على استكشافه فى بلاد أخرى، لأن بريطانيا ـ حتى ذلك الوقت ـ لم يكن لديها سوى الفحم.. بينما الولايات المتحدة استكشفت حقولها الخاصة من البترول، وفرنسا فعلت ذلك فى مستعمراتها، وألمانيا فى الطريق.

هذا التحول من الفحم إلى البترول أصبح حاسما. ففى بداية سنوات السبعينيات من القرن التاسع عشر بلغ المستخرج من البترول فى العالم كله مليون طن سنويا. مع نشوب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ قفز الرقم إلى ستين مليون طن. مع نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ قفز الرقم من جديد إلى ٣٥٠ مليون طن. والآن – فى سنة ٢٠٠٠ – قفز الرقم إلى عشرة أمثال !

فى سنة ١٩٠١ اطلع مغامر بريطانى على تقرير سرى فرنسى يتحدث عن إمكانية وجود مخزون ضخم من البترول فى جوف الأرض الإيرانية. وبسرعة تمكن من الحصول على امتياز التنقيب عن البترول فى نحو نصف مليون ميل مربع من الأراضى الإيرانية، مقابل مجرد أربعين ألف جنيه استرلينى نقدا وبضائع، زائد ١٦٪ من الأرباح لحكومة إيران .

لكن بعد ثلاث سنوات احتاج المغامر البريطانى إلى شركاء جدد. وفى هذه المرة تم استكشاف البترول فى إيران فعلا سنة ١٩٠٩. هنا فقط استيقظت قرون استشعار الامبراطورية فى بريطانيا فقررت الحكومة شراء أسهم هذه الشركة فى سنة ١٩١٤ بناء على إلحاح من وزير البحرية فيها.

معنى هذا القرار عمليا هو أن حكومة الدولة الرأسمالية الأولى فى العالم تقوم بتأميم شركة قطاع خاص. لكن الأكثر أهمية هو أن صاحب تلك المشورة كان ونستون تشرشل وزير البحرية (الذى سيرفض بعدها بأربعين سنة قيام حكومة إيران ذاتها بتأميم الشركة البريطانية لصالح شعب إيران!).

مع الأيام المبكرة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة أصبح الحديث عن البترول – واحتمالاته ومناطق وجوده – هو من أهم الأسرار العليا فى عواصم الدول الكبرى التى يخفيها كل طرف عن المنافسين. وصرح اللورد كرزون وزير خارجية بريطانيا: «سوف يكشف المستقبل أن الحلفاء قد أبحروا إلى النصر فوق أمواج من البترول».. لكن المضمون الحقيقى لكلماته كان لايزال

ســرا مقصورا على الجنرالات وضباط المخابرات، الذين بدأوا يتدفقون على الشــرق الأوســط أساسا، تحت مسميات مختلفة حتى لا تعرف شعوب المنطقة ذاتها سر هذا الاهتمام.

أدى البترول إذن إلى فتح شــهية بريطانيا للســيطرة - قبل الآخرين - على مناطق عديدة من إيران، ثم العراق ومعظم الخليج العربى، باستثناء بعض مناطق وجدت بريطانيا أنها مجرد صحراء قاحلة لا يلزمها التعجل.

فى تلك الصحراء كانت تدور قصة أخرى. فعبد العزيز آل ســعود أمير منطقة نجد فى صراع مع الشــريف حسين أمير الحجاز. وفى المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى استخدمت بريطانيا الشــريف حســين لطرد الوجود التركى العثمانى مقابل أموال ووعده بأن تجعله فيما بعد ملكاً على دولة عربية موحدة تمتد إلى فلســطين وسوريا ولبنان. فى نفس الوقت أرادت بريطانيا ضمان حياد عبدالعزيز آل سعود فقررت له معونة قدرها خمسة آلاف جنيه إسترلينى.

بعد خروج بريطانيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى نســيت كل وعودها الســابقة واكتشــف العرب أنها فى الحقيقة اتفقت مع فرنســا سرا على توزيع أراضى العرب غنائم بينهما، فيما عرف باسم «خريطة سايكس - بيكو»، والغنائم هنا كانت على كبير!

لكــن فى نفس الوقت فوجئت بريطانيا بتطور آخر. فعبد العزيز آل ســعود نجح بحد الســيف والسلاح فى التوسع من نجد إلى الحجاز فى سنة ١٩٢٦، وأعلن نفسه ملكا لكليهما. وفى سنة ١٩٣٢ أعلن قيام الدولة الموحدة الجديدة باسم «المملكة العربية السعودية».

لم تعترض بريطانيا الامبراطورية على هذا التطور، لكنها أيضا لم تطمئن إليه. فى النهاية رأت أنها باحتلالها للعراق ولمشيخات الخليج شمالا وشرقا، ووجودها العسكرى فى عدن جنوبا ـ فإنها تحاصر الدولة الجديدة الناشئة. أما الملك عبدالعزيز نفسه فقد بدأ يتعامل مع الواقع أمامه.

والواقع أنه يرأس مملكة مســاحتها مليونا كيلومتر مربع.. لكن مواردها محدودة تماما. بعدها جــاءت الأزمة الاقتصادية العالمية، التى بدأت أصلا فــى أمريكا وأوروبا، لكن نتائجها امتدت إلى آخرين.. هو من بينهم.

لم تكن للدولة الســعودية الناشئة علاقات تجارية تجعلها ضحية للكساد العالمى بشكل مباشر. لكنها أصبحت ضحية فعلا من حيث لم تحتســب. فالمورد الأساســى للمملكة يأتى من توافد مسلمى العالم للحج، بمعدل مائة ألف شــخص ســنويا. فى ســنة ١٩٣٠ انخفض الرقم إلى أربعين ألفا، ثم إلى أقل من ثلاثين ألفا. وبحلول سنة ١٩٣٥ أصبح الملك السعودى لا يجد موارد كافية تسمح بمجرد تســديد مرتبات موظفيه.. حتى حينما اقترض بعض الأموال من كبار التجار المحليين لم تتراجع أزمته المالية. وفكر الملك الســعودى فى تدبير شــئونه بطريقة أخرى. فالدولة الأولى التى اعترفت

به ملكا كانت الاتحاد السوفيتي بقيادة جوزيف ستالين.. بل وأقامت لها سفارة عنده. هكذا أوفد عبدالعزيز آل سعود في سنة ١٩٣٥ وفدا ممثلا له إلى موسكو برئاسة ابنه الامير فيصل (ملك السعودية فيما بعد)، لإقناع الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين بإعطاء معونة إلى السعودية إذا تيسر.. أو قرض إذا أمكن. في التفاوض قال ستالين: إن بلاده ذاتها تعاني من حصار دولي تقوده الولايات المتحدة.. التي لم تعترف أصلا بقيام الاتحاد السوفيتي (وظلت كذلك حتى سنة ١٩٣٣). وإنه إزاء ظروفه لا يملك أموالا نقدية يمنحها. لكنه في نفس الوقت يريد علاقة طيبة بالسعودية.. وبالتالي فعربونا للصداقة سوف يعطي للسعودية شحنة من البترول السوفيتي تبيعها بمعرفتها وتحصل على الثمن.. مجانا.

على ضوء ما نعرفه بعد ذلك.. فإن المفارقة هنا مزدوجة. أولا: أن الاتحاد السوفيتي يهدى جزءا من بتروله إلى دولة ناشئة لا يعرف هو، ولا تعرف هي، أنها ستصبح فيما بعد صاحبة أكبر احتياطي بترولي في المنطقة كلها !

ثانيا: أن كبار اللاعبين في الغابة الدولية كانوا يبدون أيضا كما لو أنهم في حالة اكتفاء بما تحت أيديهم من مناطق بترولية.. بما جعلهم يستكشفون البترول فعلا شمال وشرق وجنوب السعودية.. ولكن من غير السعودية ذاتها. بالطبع بريطانيا مهتمة بالسعودية.. لكن عبدالعزيز آل سعود - بالتجربة - لم يكن يثق في دوافعها. فرنسا وألمانيا لديهما تكنولوجيا قادرة على استكشاف مناطق البترول، لكنهما يركزان على مناطق أخرى. والولايات المتحدة تريد بترولا لحسابها خارج أراضيها لكنها لاتزال تترك المهمة لشركات القطاع الخاص.. مؤقتا إلى أن يتأكد وجود البترول على الأقل.

من المفارقات التي نلاحظها هنا وسوف تتكرر كثيرا كلما كان في القصة بترول.. هو أن شركات البترول الانجليزية والأمريكية هي التي نراها في الواجهة لكن في الخلفية دائما ارتباط وثيق لها بحكومة بلدها وعلى وجه الخصوص بأجهزة المخابرات في بلدها.

كل شركة تحرص على أن يكون لها رجالها المقربون من الملك السعودي.. وكذلك لمراقبة رجال الطرف الآخر المنافس داخل نفس الدائرة.

من المفارقات أيضا أن شركة البترول البريطانية نجحت في «زرع» أحد عيونها داخل دائرة الملك السعودي.. اسمه جون فيلبي. لكن جون فيلبي هذا هو نفسه الذي نصح الملك عبدالعزيز آل سعود سرا بأن يعطي الأولوية للأمريكيين.. في خيانة غير معلنة لجانبه البريطاني (من مفارقات التاريخ أيضا أن كيم فيلبي ابن جون فيلبي الذي أصبح في مرحلة تالية من أهم رجال المخابرات البريطانية في المنطقة - تبين في النهاية أنه عمل سرا جاسوسا للأتحاد السوفيتي على كل من المخابرات البريطانية والأمريكية معا. ولم تكتشف الدولتان ذلك إلا بعد لجوئه إلى الاتحاد السوفيتي).

وفى سـنة ١٩٣٣ حسم الملك السعودى التنافس البريطانى الأمريكى المستتر.. فأعطى للشركات الأمريكية امتياز التنقيب عن البترول فى المنطقة الشرقية (المطلة على الخليج) مقابل أن تدفع له فورا خمسة وثلاثين ألف جنيه استرلينى، ثم عشرين ألفا بعد ١٨ شهرا، وخمسة آلاف كإيجار سنوى، وخمسين ألفا عند ظهور البترول، وخمسين ألفا أخرى بعد اكتشاف البترول بسنة.. على أن تخصم كل تلك المبالغ فيما بعد من ثمن البترول المستخرج ذاته. بحسبة أخرى تكون الشركات الأمريكية قد احتكرت لنفسها امتياز البترول السعودى مقابل أقل من مائة وسبعين ألف جنيه استرلينى طوال السنوات الثلاث التالية.. تصرف كسلفة مؤقته للملك السعودى.. زائد اعتراف أمريكا به ملكا.. وإن كان تبادل السفارات سيتأخر سنوات أخرى حرصا على عدم استفزاز بريطانيا.

ربما تبدو الأرقام هنا مفجعة. لكن علينا أن ننظر إليها فى إطار ظروفها وزمنها.. خصوصا أن الملك السعودى لم يكن متأكدا أصلا من وجود بترول لديه. الأمريكيون فقط كانوا يرجحون الاحتمال من خلال تقارير سرية سابقة وباعتبار أن المنطقة الشرقية بالسعودية امتداد جغرافى للكويت والعراق وإيران، التى تأكد فيها وجود البترول. وفى النهاية بدأ فعلا استخراج البترول السعودى المتوقع فى سنة ١٩٣٨، وبكميات تجارية من النوع الذى يلهب خيال كبار اللاعبين !

هنا فقط بدأ الكلام الجاد. فالوحوش الكاسرة فى الغابة الدولية لا تراقب الآخرين فقط، ولكنها أيضا تراقب بعضها بعضا.

بترول ؟!.. يعنى: مصدر خطير للقوة.. اقتصاديا واستراتيجيا ونفوذا وسيطرة.. يعنى.. المستقبل.

إنما لأن ألمانيا بدأت الحرب العالمية الثانية ومعها إيطاليا وبعدهما اليابان، فيما أصبح يسمى «دول المحور».. أصبحت بريطانيا غير قادرة على المواجهة بمفردها، ولابد لها من إقناع الولايات المتحدة بالدخول فى الحرب حليفة لها.. بل وأيضا إغراء «البعبع» الكبير.. أو الشيطان الأكبر – وهو الاتحاد السوفيتى بأن يصبح جزءا من معسكر «الحلفاء» ضد معسكر «المحور». ولتتراجع – مؤقتا – كل الخصومات الأخرى ضد الشيوعية والماركسية.

وكان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يمثل تقليدياً كل ميراث وغطرسة الامبراطورية البريطانية التى لا تغيب الشمس عن أراضيها. وبتلك الصفة هيأ لنفسه أنه قد ينجح فى استخدام الآخرين لحسابه ولحساب امبراطوريته.

وإزاء الخطر العاجل المشترك.. تظاهر كل طرف بأنه يساير الآخر.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها المظفرة ضد «المحور» و «لصالح» الحلفاء.. اجتمع القادة البارزون الثلاثة فى «يالطا» بشبه جزيرة القرم فى الاتحاد السوفيتى. والموضوع

المطروح هو: اقتســام غنائم الحرب. والغنيمة المطروحة فى تلك اللحظة كانت أوروبا. والصفقة التى فوجيء تشرشــل بأن الرئيس الأمريكى روزفلت يوافق عليها هى: شــرق أوروبا من نصيب الاتحاد السوفيتى.. وغرب أوروبا من نصيب الغرب بقيادة الولايات المتحدة.

وتوجس تشرشل سرا مما يجرى، لأنه كان قد أقنع نفسه - بقدرة قادر! - بأن بريطانيا العظمى يجــب أن تكون الفائز الأكبر. الآن يكتشــف ـ بكل لطف وكياســة ـ أن الولايــات المتحدة لم تدخل الحرب لحسابه، ولا لحساب بريطانيا.. وإنما لحساب الولايات المتحدة نفسها !

وعشــية انتهاء مؤتمر «يالطا» اكتشف تشرشــل مفاجأة أخرى. أنه ـ أى تشرشل نفسه ـ سيعود بالطبع مباشرة إلى بلاده. أما الرئيس الأمريكى روزفلت فلديه مشوار بسيط قبل العودة إلى بلاده. مشوار إلى.. مصر!

أى مصــر ؟! هل يقصــد الرئيس الأمريكى مصر.. المملكة المســتقلة اســميا ولكنها المســتعمرة البريطانية فعليا ؟! مصر التى يديرها الســفير البريطانى، ويسيطر عليها مئات الآلاف من الجنود البريطانيين ؟! مصر التى فتحتها بريطانيا أمام عشــرات الآلاف من الجنود الأمريكيين فى ســياق جهــود «الحلفاء» خلال الحرب العالمية الثانية ؟! مصر.. التى أصبحت الولايات المتحدة تســتخدم فيها القواعد العسكرية البريطانية.. - بل ولها - حتى مطارات خاصة فيها.. كذلك المطار فى منطقة «الدفرسوار» قرب الإسماعيلية ـ بشكل مستقل تماماً عن القوات البريطانية المحتلة لمصر ؟!

بالضبط. بالضبط. الرئيس الأمريكى ذاهب إلى مصر. وستهبط طائرته فى نفس مطار «الدفرسوار» الذى تديره القوات الأمريكية. لكن.. حتى لا يتصور مســتر تشرشــل أن الولايات المتحدة ستزاحم بريطانيا على مصر.. فإن الرئيس الأمريكى ســيكون له برنامج عمل مســتقل.. وسيمارسه من «المياه الإقليميــة» المصريــة، وليس مــن الأراضى المصرية. بالطبــع هذا يقتضى اســتقبالا بروتوكوليا للملك مصر - من قبيل المجاملة - . لكن ليس هناك ما هو أكثر! ولم يســترح ونســتون تشرشــل بالمرة إلى ما سمعه. خصوصا أنه قرر لتوه أن يتجه إلى مصر أيضا.. بينما الرئيس الأمريكى يقول له: إن هذا شــأنه الخاص. الآن توجد مصالح جديدة على المحك.. فى صحتك يا عزيزى ونســتون.. وتصبحى على خير يا بريطانيا العظمى !!

□□□



فى الحلوة .. والبحيرات المرة !

لاجدتى ولا جدتك - ربما - سمعت عن ونستون تشرشل رئيس وزراء امبراطورية بريطانيا العظمى طوال سنوات الحرب العالمية الثانية. إنما جدتى كانت بين وقت وآخر تستدعى من ذاكرتها مخزونها من الأمثال الشعبية.. فتتساءل مثلا: إيه رماك على المر؟.. وتردد فى نفس اللحظة: الأمر منه! والحكمة هنا هى: أن الحياة ليست دائما اختيار بين الجيد والسىء وإنما تصبح أحيانا بين السيىء.. والأسوأ!

تشرشل فى عز مجده اقترب من نفس المعنى حينما قال: إنه شئ سيئ ان يحتاج المرء إلى حلفاء من أجل خوض الحرب.. لكن الأسوأ هو أن يخوض الحرب بغير حلفاء.

وحينما بدأت ألمانيا الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ كان الخيار الأول لبريطانيا هو أن تتصدى لها بالاشتراك مع فرنسا. لكن بعد أن استسلمت فرنسا وصعد نجم ألمانيا بسرعة البرق اكتشفت بريطانيا - حتى وهى امبراطورية عظمى - أنها لن تستطيع مواجهة ألمانيا بمفردها فبدأت تلح على الولايات المتحدة بالانضمام إليها ضد المانيا (ومعها إيطاليا، ثم اليابان).

الأمريكان حسبوها من حيث المكسب والخسارة. هم فى بلدهم يفصلهم المحيط الأطلنطى عن أوروبا شرقا والمحيط الباسفيكى عن آسيا غربا، لماذا وجع الدماغ؟ ولماذا التضحية والخسارة ؟

إنما - وبغير أن نحسب المكاسب هنا بالدولارات - اختارت الولايات المتحدة أن تمد بريطانيا بالاسلحة، والدفع نقدا أو حين ميسرة. و.. يا بخت من نفع واستنفع! يعنى مصانع الأسلحة الأمريكية تشتغل وتبيع وتكسب.. وبريطانيا تحارب هناك.. فى أوروبا ضد عدوها الجديد الذى تخشاه. ضد ألمانيا وباقى دول المحور.

ثم قامت اليابان فى ديسمبر سنة ١٩٤١ بضربة جوية ضد القاعدة البحرية الأمريكية فى «بيرل هاربر» فى الساحل الغربى الأمريكى. وفى غمضة عين ضاع كل الأسطول الأمريكى فى القاعدة.. من طائرات وسفن حربية. أسباب الضربة لها قصة أخرى، إنما المهم أن امريكا بعدها دخلت الحرب العالمية الثانية رسميا.. ولأنها الأكبر والأغنى فقد اشترطت أن يعمل معسكر «الحلفاء» تحت قيادتها.

في الحرب أسـلحة.. وبشر. الأسلحة يمكن شراؤها بالنقد أو بالدين أو بالاستعارة. إنما البشر قصة معقدة. فبالتدريج، وباسـم المجهود الحربي، أصبح يتدفق على بريطانيا نفسها مئات الآلاف مـن الجنـود الأمريكيين في قواعد حربية خاصـة بهم، مع ذلك كانت مشـاعر المواطنين العاديين نحوهم خليطا من الترحيب والتأفف. الترحيب لأن الضرورة لها أحكام. أما التأفف فلأن الانجليز حتـى تلـك اللحظة كانوا ينظرون للأمريكان على أنهم همج، نـاس أصبحوا أغنياء قبل أن يصبحوا حكمـاء. ويتصرفون بعنجهية قبـل أن يصبحوا متحضرين. وفي النـوادي الليلية يقضون إجازتهم بالوقـوع في غـرام الفتيات الإنجليزيات. حتى دوايت إيزنهـاور – الجنرال الأمريكي الذي أصبح قائدا عاما لقوات «الحلفاء» في أوروبا، دخل في علاقة غرامية مع السكرتيرة الانجليزية.. متناسيا أنه متزوج ورب أسرة.. حتى ولو كانت أسرته بعيدة عنه في أمريكا.

مـن التحالف أيضـا أصبح على بريطانيا أن تعطي لامريكا تسـهيلات في كل بلـد يخضع للنفوذ البريطانـي. في مصر مثلا.. حيث بريطانيا هي قوة الاحتلال ولها قواعد عسـكرية ضخمة ومعاهدة رسـمية تضع مصر كلها تحت تصرفها.. تدفق عشـرات الآلاف من الجنود الأمريكان. وبالطبع يصبح لهم نفس الامتيازات المكفولة للجنود البريطانيين في مصر.. وأولها الدخول والخروج بغير اسـتئذان أو حتى تأشيرة دخول من الحكومة المصرية. في الواقع إن الحكومة المصرية ذات نفسها لم تكن تعرف أي شـئ عن كل تحركات قوات الحلفاء على أرضها حتى حينما تقدمت القوات الألمانية بقيادة ثعلب الصحراء، روميل، من ليبيا نحو الأسكندرية، ثم حينما حشدت بريطانيا جيشا بقيادة مونتجومري لمواجهته عند السلوم.. كانت الحكومة المصرية تعرف بما يجري من الصحف ووكالات الأنباء!

وأحد الأسـباب الجوهرية في هزيمة «روميل» في معركة العلمين واضطراره إلى الانسـحاب.. كان نجاح الأسـطول البحري البريطانـي في منع وصول إمدادات البترول إليه. وبريطانيا نفسـها أصبحت تحصل على احتياجاتها من البترول من أمريكا. وكله.. بحسابه.

حينمـا اجتمع الحلفاء الثلاثة الكبار – روزفلت عن امريكا، وتشرشـل عن بريطانيا وسـتالين عن الاتحاد السـوفيتي في «يالتا» سـنة ١٩٤٥ كان الاجتماع للاتفاق على توزيع غنائم الحرب، بعد أن أصبحت هزيمة المانيا النهائية محسـومة خلال اسـابيع وبعدها اليابان. في الاجتماع أعيد رسم خريطة أوروبا بعد الحرب.. وعلى الهامش جزء بسيط من الشرق الأوسط في مقدمته إيران.

فالزعيم السـوفيتي جوزيف سـتالين – الذي تحتل قواته شـمال ايران – يريد الاعتراف لبلده بمصالح دائمة في إيران ما بعد الحرب.

تشرشل هنا.. رأسه وألف سيف. ايران يعني البترول. وبريطانيا مصممة على أن بترول إيران، – زائـد العـراق والخليج – هو من نصيبهـا. ونصيبها وحدها. هنا بالذات قـام الرئيس الأمريكي

بتأييد تشرشل فى موقفه. أحد الأسباب كان وجود اتفاقية سرية سابقة عرفت باسم «اتفاقية الخطوط الحمــراء» تعترف فيها الولايات المتحدة بأن تكون الشــريك الاصغــر فى بترول المنطقة، لأنها هى بذاتها دولة بترولية كبرى.. بينما بريطانيا هى الشريك الأكبر..

وقبل أن يهنئ تشرشــل نفســه على هذا الدعــم الأمريكى فى مواجهة ســتالين جاءته المفاجأة الأكبر. ففى الليلة الأخيرة لمؤتمر «يالتا» انتحى الرئيس الأمريكى روزفلت بتشرشــل جانبا ليقول له بشكل عابر إنه ربما يمر بمصر فى طريق عودته إلى الولايات المتحدة.. مصر ؟.. طيب يلزمك أى شــئ نرتبه لك فى مصر؟ تحب أبعث لســفيرنا فى القاهرة لكى يعطى تعليماته لملك مصر ليكون فى استقبالك ؟ تحب أجىء أنا نفسى معاك فيظهر للعالم كله مرة أخرى كم نحن حلفاء ؟

لا.. لا.. ياعزيزى ونستون.. طول عمرك كريم: إنما مشوارى إلى مصر لا علاقة له بمصر أصلا. المســألة هى أن أبنائى الجنود الأمريكيون هناك. الزيــارة لرفع معنوياتهم وبعدها عندى برنامجى الخاص. إنما إذا كان لديك إصرار بهذا الشــكل.. فيمكن لنا الاجتماع معا فيما بعد.. فليكن مثلا فى ميناء الاسكندرية.. تصبح على خير .

بالنسبة لبريطانيا العظمى.. الموضوع لاعلاقة له بالخير !

الموضوع فيه برنامج خاص، وعزف منفرد، وآخرة المشوار. هكذا، لعب الفأر فى عب تشرشل.

بريطانيا تحالفت مع امريكا على الحلوة والمرة. الحرب – وهى المرة – فى طريق النهاية.

أين الحلوة ؟

لم يشــف الرئيس الأمريكى غليل ونســتون تشرشــل. فقط اســتقل الطائرة إلى مطار الدفرسوار فى مصر. ومن هناك بالســيارة إلى شــاطئ قناة الســويس. وهناك انتقل إلى طراد امريكى جاهز فى انتظاره. ســفينة حربية اســمها «كوينسى». فى تلك السفينة ســيعاد رسم خرائط النفوذ الدولى فى الشــرق الأوسط لعشــرات قادمة من السنين، وحتى بغير أن تعرف دول الشــرق الأوسط نفسها أى شىء.. وفى مقدمتها مصر التى يوجد الرئيس الأمريكى فى مياهها الأقليمية الآن لعدة أيام !

فى اليوم الأول قام الرئيس روزفلت باســتقبال فاروق ملــك مصر من باب المجاملة. وبمجرد أن جلس الملك فاروق فى مقعده انفجر فى الشــكوى والاســتغاثة. أما الشكوى فمن سوء معاملة السفير البريطانى فى مصر للملك و: ياسيادة الرئيس.. حتى لو كانت بريطانيا تحتل مصر.. إلا أن سفيرها يمكن ان يجاملنى قليلا بصفتى ملك مصر والسودان. أما الاستغاثة فهى لكى يدعوه الرئيس روزفلت إلى زيارة أمريكا رسميا فربما يرفع هذا من مكانته فى نظر سفير بريطانيا فى مصر!

وحصل الملك فاروق يومها من روزفلت على كثير من الابتســامات وبعض كلمات المواســاة. لكن ليس أكثر.

بعده اســتقبل الرئيس الأمريكى «هيلاسلاسى» امبراطور الحبشة. لقد جاءت به من أديس أبابا طائرة حربية أمريكية بغير أن يعرف سبب استدعائه، خير؟.. صحيح أن أمريكا ليست لها حاليا مصالــح كبرى فى الحبشـــة.. إنما يمكن أن يكون لها فى المســتقبل.. فتحتاج مثلا إلى تســهيلات لاستقبال الطائرات الأمريكية الذاهبة إلى – أو القادمة من – الهند وما وراءها.

ثم جاء الاجتماع الثالث الذى هو مربط الفرس فى كل هذا المشــوار. اجتماع مع الملك عبدالعزيز آل ســعود ملك الدولة السعودية الناشــئة حديثا ولا يوجد لأمريكا سفير لديها.. وإنما مجرد وزير مفوض أو قائم بالاعمال، لأن بريطانيا اعتبرت من قبل أن وجود سفير لأمريكا فى السعودية سيكون تطورا غير ودى أو طمعا فى مصالحها. أمريكا ســايرت الأنجليز حتى لا تثير شكوكهم قبل الأوان. وســواء كان الأسم «ســفيرا» أو «غفيرا» فهو ممثل رسمى لأمريكا فى الســعودية، أما الأكثر أهمية فهــو أن أمريــكا نجحت فى أن يكون لها رجلها الخاص – اســمه الكولونيــل ويليام إيدى – الذى أصبح مقربا من الملك تحت اســم «مستشار خاص» وتتحمل الحكومة الأمريكية مرتبه. وفى الدوائر الأمريكية المعنية كان يعرف «ويليام إيدي» بأنه رجل المهمات الخاصة، .. وهو يجيد اللغة العربية تماما. وهو الذى سيتولى حالا مهمة الترجمة بين الملك السعودى والرئيس الأمريكى.

وحتى يجئ الملك الســعودى فى شــكل أمريكى لائق، فقد ارســلت إليه أمريــكا مدمرة ضخمة – أصبحت أول ســفينة حربيــة امريكية تدخل مياه جدة – مع تعليمات مشــددة لقائد المدمرة بأن يوفر للملك وصحبه كل وســائل الراحة. وفى الرحلة من جدة إلى قناة الســويس لابأس من إطلاع الملــك على الأمكانيات الحربية الجبارة للمدمرة بــل وحتى إطلاق بعض قذائف الأعماق فى عرض البحر الأحمر اســتعراضا لقدرة التكنولوجيا الأمريكية فى اصطياد السفن المعادية.. حتى ولو كانت غواصات تحت الماء.

هكذا استقل الملك عبدالعزيز المدمرة مع ٤٨ من أفراد حاشيته. وحينما طلب الملك من قائد المدمرة شحن بعض الخراف الحية ورءوس الضأن لزوم مآدب الغذاء والعشاء التى سيقيمها.. رحب الضابط الأمريكى بالطلب فورا، فبعد كل شئ.. هى الولايات المتحدة – فقط – التى تستطيع سفنها الحربية التكيف مع أية مفاجأة !

كانت تلك هى المرة الأولى التى يغادر فيها الملك عبدالعزيز أراضيه إلى الخارج. فى هذه المرة يسافر بدعوة من فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، الدولة الكبرى التى تتزعم معســكر المنتصرين فى الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من ســنه المتقدمة.. وحالته الصحية غير الطيبة بسبب ضعف متزايــد فى قدميه.. فإنه كان يقظ الذهن بما يســمح له بملاحظة ذلــك القدر من التنافس على مملكته الناشئة خلال السنة الأخيرة. تحديدا التنافس بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

قبل عشـرة أشـهر فقط عملت بريطانيـا بهمة على اقناع الملك باسـتبعاد بعـض كبار موظفيه المقربين منه.. على أساس أنهم أصدقاء مقربون من الأمريكان.. وأمريكا كلامها كثير وفعلها قليل.. وبريطانيـا العظمـى هى فقط التى يمكن الاعتمـاد عليها لأن مصالحها فى المنطقـة كبيرة ودائمة.. بينما اهتمام امريكا بالمنطقة سينتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية. وقبل أربعة اشهر فقط عادت بريطانيـا تلـح على الملك عبدالعزيز من جديـد ليرفض طلبا امريكيا بالسـماح لها – أى للولايات المتحدة – بإقامة قاعدة جوية لها فى الظهران.. شـرق السـعودية. والآن.. هاهو الرئيس الأمريكى نفسه يدعو الملك عبدالعزيز إلى الاجتماع به فى المياه الاقليمية المصرية بقناة السويس. إنما السؤال هو: إذا كان الرئيس الأمريكى قد اسـتقل الطائرة من شـبه جزيرة القرم فى الاتحاد السوفيتى إلى مصـر.. فلماذا لم يذهب مباشـرة إلى جدة أو الرياض فيتم الاجتماع المطلوب على أرض السـعودية ذاتها ؟ هل لأن الولايات المتحدة لاتريد إغضاب بريطانيا ؟

لكن بريطانيا هى فى مصر قوة احتلال.. وبالتالى فهى صاحبة النفوذ الأول فيها.. فهل اختيار البحيرات المرة وسـط قناة السـويس، وعلى متن سفينة حربية أمريكية بحراسة أمريكية هو ضمان كاف ضد تلصص بريطانيا العظمى على ما سيجرى ؟

لـم تكن لدى الملك السـعودى إجابات قاطعة على تلك التسـاؤلات. ليس بعـد. انما الأمر الذى كشـفته الوثائق فيما بعد هو أن التنافس بين بريطانيا وأمريكا أصبح على أشـده مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها. تنافس شـديد الضراوة بين امبراطورية عظمى تعتبر أن الشرق الأوسط فى معظمه هو من بين ممتلكاتها، وبين قوة بازغة – أكبر – ترى أن الزمن يتغير لصالحها. صحيح أن بريطانيا امبراطورية عظمى.. بل ويجمعها مع الولايات المتحدة لغة مشـتركة.. إنما السياسـة مصالح دول وشعوب.. وفى لغة المصالح الباترة لامجال لمجاملات أو تهيآت. هناك فقط حقائق حتى ولو كان من نتائجها جرحى ودماء.. وسيل من الدولارات.

تلك الحقائق كانت حتى تلك اللحظة محاطة بأسوار مرتفعة من السرية. أقصى درجات السرية. فى الواقع إنه قبل اجتماع البحيرات المرة هذا بسنة، وبالتحديد فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٤ – بعث ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ببرقية سرية خشنة اللهجة إلى الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت تصرف فيها الأول على أن دولته امبراطورية عظمى بينما الثانية هى مجرد عابر سبيل.

كانت الولايات المتحدة تفكر فى عمل اجتماع مشـترك مع بريطانيا لمناقشـة مسألة البترول فى الشـرق الأوسـط . فى البداية وافقت بريطانيا على أساس أنه سيكون اجتماع خبراء. لكن بمجرد أن عرفت أن الوفد الأمريكى سـيكون برئاسة وزير الخارجية توجست الشر كله.. فهذا التحول يعنى أن الموضوع سيصبح قضية سياسية تكون فيها أمريكا الطرف الأقوى. هكذا كتب تشرشل إلى حليفه

الكبير روزفلت مسـجلا اعتراضه، لأن هذا قد يعنى «رغبة لـدى الولايات المتحدة فى حرماننا من ممتلكاتنا البترولية فى الشرق الأوسط، وهى التى يعتمد عليها، - ضمن اعتبارات أخرى - أسطولنا البحرى فى كل امداداته».

يومهـا رد الرئيس الأمريكى على تشرشـل يطمئنه إلى أن الولايات المتحدة ليسـت لها مطامع فـى بتـرول إيران والعـراق. وردا على هذا الكرم كتب تشرشـل من جديد إلـى الرئيس الأمريكى برقية سـرية فى الرابع من مارس سنة ١٩٤٤ يقول له فيها: «أشكركم شكرا جزيلا على تأكيداتكم الخاصـة بعدم التطلع إلى حقول بترولنا فى إيران والعـراق، ودعنى أعاملك بالمثل فأعطيكم التأكيد بأنه ليس لدينا أى تفكير فى محاولة إقحام انفسـنا فى مصالحكم أو ممتلكاتكم فى المملكة العربية السعودية».

مـع ذلك، فقد اتخذ تشرشـل خطوتـين، أولا: ألح علـى الرئيس الأمريكى بـأن تظل كل هذه المداولات بين البلدين عن بترول الشـرق الأوسط مداولات سرية، أقصى درجات السرية، ربما لكى لايتنبـه المنافسـون الآخرون إلى مايجرى، وربمـا لكى لاتعرف دول المنطقة ذاتهـا أهمية الثروة الضخمة هذه التى توجد فى أراضيها.

أمـا الخطـوة الثانية فقد كانت أبسـط من ذلـك.. فحبا فى الإنسـانية ورغبة فـى مكافحة الجراد المحتمل خطره فى شـرق السعودية.. أرسلت بريطانيا خمسمائة خبير من عندها لبحث الموقف.

وخلال فترة قصيرة تلقى الرئيس روزفلت مكالمة تليفونية من وزير بحريته «جيمس فورستال». فى المكالمة ينقل الوزير إلى رئيسـه اكتشـافا خطيرا جرى للتو: إن الخمسـمائة رجل الذين بعثت بهم بريطانيا متنكرين تحت اسم خبراء لمكافحة الجراد من باب الإنسانية. هم جواسيس وخبراء هدفهم الحقيقى هو: «أن يروا ماذا نفعل نحن هناك وما حجم البترول الذى اكتشفناه فى تلك المنطقة شرق السعودية».

ونصحه الرئيس الأمريكى بالهدوء وطمأنة «رجالنا» - أى رؤساء شركات البترول الأمريكية - و: «دعنا نتظاهر بأننا نصدق بريطانيا فى حبها للإنسـانية، ونتصرف نحن أيضا باعتبارنا محبين للانسانية! وبالعكس.. ساعة الجد قد يكتشف البريطانيون أننا أكثر منهم حبا فى الإنسانية».

لـم يكن هـدوء الرئيس الأمريكى هنا من فراغ.. فالعيـون والآذان الأمريكية كانت تحيط بالملك السـعودى وأسـرته من كل جانب فى شكل مستشـارين أو مجرد ممثلين لشركة البترول الامريكية العاملة فى شـرق السعودية. شركة اسمها «ارامكو» تنوب بدورها عن أربع شركات بترول أمريكية كبرى .

وكما كشفت الوثائق فيما بعد فإن العلاقة كانت وثيقة بين رجال شركة «أرامكو» هذه وبين «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الذى تحول فيما بعد إلى «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية» .

وحسب كتاب جديد بعنوان «البترول والله والذهب: قصة أرامكو والملوك السعوديين» لمؤلفه أنطونى براون وصدر فى سنة ١٩٩٩ من ٤٢٠ صفحة يكشف المؤلف مثلا عن أنه فى احدى العمليات السرية مبكرا فى سنة ١٩٤٥ عملت شركة «أرامكو» بتنسيق مع «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الأمريكي للحصول على عينات من بول وبراز الملك عبدالعزيز ال سعود سرا وتحليلها طبيا لتشخيص وضعه الصحى الحقيقى . مهمة علق عليها مسئول بوزارة الخارجية الأمريكية قائلا: «نادرا ماأصبح المرحاض الذى يستخدمه عاهل أجنبى موضع اهتمام بهذا القدر من رجال مخابراتنا» .

هذا يعيدنا إلى ذلك اليوم الحاسم، ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥، فى البحيرات المرة وسط قناة السويس المصرية.. حينما بدأ أخيرا ذلك الاجتماع بين الملك عبدالعزيز آل سعود والرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت.. بناء على دعوة من الأخير .

وبعد ترحيب بالملك السعودى قال فرانكلين روزفلت: إننى سعيد برؤيتك. والآن أحب أن اسمع منك.. ماذا تود أن أفعل لك ؟

وبعد الترجمة فوجئ الرئيس روزفلت بالرد. قال له الملك القادم من الصحراء: اننى سعيد باستقبالكم الودى لكنك أنت الذى رغبت فى رؤيتى ولهذا أفترض أن لديكم ماتقولونه لى!

❑❑❑

.. أمر يخصنا وحدنا !

على الرغم من أننا لانزال فى سنة ١٩٤٥ والأحداث على أرض فلسطين ساخنة فإن المستقبل كان باديا فى الافق. فبريطانيا هى سلطة الانتداب التى تحتل فلسطين لكنها أيضا صاحبة «وعد بلفور» الذى وعد مبكرا بمساعدة اليهود على أن يكون لهم وطن قومى فى فلسطين. مع ذلك، وبرغم الخطط المتتابعة لتهجير أكبر عدد ممكن من يهود أوروبا إلى فلسطين... فإنهم استمروا أقلية سكانية صغيرة.

لقد عوضوا ذلك بالانخراط فى تشكيلات مسلحة، علنية وسرية، لم تعد تهاجم الفلسطينيين فقط، وإنما بدأت تهاجم أيضا سلطات الانتداب البريطانية. والهدف الثابت من كل هذا هو التعجيل بإقامة دولة يهودية فى فلسطين على حساب أصحاب الأرض انفسهم، بعد أن اضطرت بريطانيا إلى إعطاء العرب وعودا مناقضة، مكافأة لهم على مساعدتها فى مجهودها الحربى:

وفى هذه المرة الأولى التى يجتمع فيها الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت مع الملك عبدالعزيز آل سعود فى البحيرات المرة بقناة السويس أراد روزفلت أن يبدأ أولا بفتح شهية الملك السعودى للحديث فقال له: أريد أن اسمع رأيك بشأن المشكلة الفلسطينية... بصفتك قائدا عربياً بارزا.

هكذا انطلق الملك السعودى فى رده على رئيس الولايات المتحدة - قائد معسكر «الحلفاء» فى الحرب العالمية الثانية التى تقترب من نهايتها - يفند له الحجج المطروحة صهيونيا فى عواصم الغرب. فلسطين ملك لشعبها، وحق العرب فيها ثابت منذ ٣٥٠٠ سنة، بينما اليهود كانوا فيها من قبل مجرد عابرين، وهم الآن دخلاء على فلسطين. وإذا أراد الغرب حلا للمسألة اليهودية فليفعل ذلك عالميا.. ولكن ليس على حساب فلسطين. والمساعدة الغربية للصهيونية فى فلسطين لن تكون خطرا يهدد فلسطين وحدها، بل سيهدد سائر البلاد المجاورة بامتداد الشرق الأوسط كله.. خصوصا أن مطامع اليهود ليست فى فلسطين وحدها بل هم ينوون العدوان على ما يجاورها من البلدان العربية وستكون الدولة اليهودية أكبر العوامل فى إفساد مابين العرب و«الحلفاء».

استمع الرئيس الأمريكي إلى كل ذلك باهتمام مكتفيا بالرد بأنه شخصيا لن يتخذ أى قرار بالنسبة لفلسطين دون استشارة مع كل العرب واليهود... لكنه مجرد رئيس للفرع التنفيذى (الحكومة).. وبالتالى لايستطيع أن يمنع مناقشات الكونجرس والصحافة الأمريكية فى هذا الموضوع !

بعدها انتقل الرئيس الأمريكى إلى صلب الموضوع، الذى جاء له أصلا إلى هنا فى البحيرات المرة، وجعله يدعو الملك السعودى إلى مقابلته لأول مرة، وهو: البترول. ولأن روزفلت كان يتابع خلال السنة الأخيرة تحديدا مناورات الإنجليز خلف الكواليس تنافسا مع الولايات المتحدة على النفوذ السياسى والبترولى فى منطقة الخليج - ومن بينها السعودية - فقد بدأ بكلمات موحية.. قال فيها للملك عبد العزيز: إننا نحب الإنجليز لكننا أيضا نعرف الأنجليز ونعرف الطريقة التى يصرون بها على فعل الخير بأنفسهم. أنت وأنا نريد الحرية والرخاء لشعبينا ولجيراننا بعد الحرب (العالمية الثانية). أما كيف وبيد من تتحقق الحرية ويجئ الرخاء.. فهذا أمر يخصنا وحدنا.

الكلام واضح.. وما أوله شرط، آخره نور. فما يتكلم فيه رئيس الولايات المتحدة مع ملك السعودية هو أمر يجب ألا تكون بريطانيا ـ أو غيرها ـ طرفا فيه، حتى ولو كانت بريطانيا هذه أقرب الحلفاء إلى الولايات المتحدة طوال الحرب العالمية الثانية. أصحاب... أحباب.. حلفاء على العين والرأس. إنما المصالح.. مصالح .

ثم أضاف الرئيس الأمريكى قائلا: إن الانجليز أيضا يعملون ويضحون من أجل تحقيق الحرية والرخاء للعالم لكن بشرط أن تتحقق تلك الأمور على أيديهم وأن تصدر مكتوبا عليها «صنع فى بريطانيا».

هم إذن - أولئك الانجليز - محبون للخير والحرية والرخاء. والأمريكيون يريدون أيضا نفس الخير والحرية والرخاء للعالم.. لكن ابتغاء مرضاة الله وثواب الدنيا والآخرة !

إذن: لنتكلم أولا فى.. الدنيا. فى البترول. وليكن هذا «أمرا يخصنا وحدنا».

والنتيجة: اتفاق امريكى سعودى من ثلاثة أجزاء: فأولا: تدفع الشركات الأمريكية إلى الحكومة السعودية ٢١ بنسا - بدلا من ١٨ بنسا - عن كل برميل بترول تستخرجه من السعودية (الدولار الأمريكى يساوى مائة بنس). ثانيا: توسيع منطقة الامتياز التى تحتكرها الشركة الأمريكية لتصبح مليونا ونصف المليون كيلومتر مربع أى نحو ثلاثة أرباع كل مساحة المملكة. ثالثا: يستمر العمل بهذا الاتفاق ستين سنة تنتهى فى سنة ٢٠٠٥.

بهذا الاتفاق - الذى ظل مضمونه سريا لبعض الوقت، تكون الولايات المتحدة قد سجلت انقلابا حقيقيا فى موازين القوة الاقتصادية والاستراتيجية لصالحها، وأغلقت الباب مسبقا أمام منافسة

ومزاحمة الصديق والعدو. انقلاب جعل جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية تعلق خلال أسبوع على ماجرى في البحيرات المرة باعتبار أنه يشكل «المرحلة الثانية من محادثات يالتا».

كان اجتماع «يالتا» هدفه تقاسم مناطق النفوذ في أوروبا بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.. بينما بريطانيا تصبح ذيلا للأخيرة. أما في اجتماع البحيرات المرة فقد بدأت الولايات المتحدة عمليا في إزاحة بريطانيا من عرش سيطرتها البترولية في الشرق الأوسط. بالطبع.. ستظل بريطانيا مسيطرة بتروليا في إيران والعراق ومشيخات الخليج لكن الولايات المتحدة غير متعجلة، لأنها – وقد ضمنت إبعاد الاتحاد السوفيتي عن الشرق الأوسط انشغالا بمكاسبه في أوروبا الشرقية – تريد الآن زحزحة حليفها البريطاني من الشرق الأوسط بكل لطف وكياسة وحب للخير والحرية والرخاء والانسانية.. نفس الحب الذى تتغنى به بريطانيا.

ولأن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا استعمارى مخضرم.. وامبراطورى بالثلاثة.. وقال من قبل إنه مصمم على ألا يشهد في حياته تصفية الامبراطورية البريطانية.. فقد غير برنامج رحلته بعد انتهاء مؤتمر «يالتا». فبدلا من العودة إلى بلاده مباشرة ذهب أولا إلى اليونان، ومن هناك إلى الاسكندرية لكى يجتمع مرة أخرى، ومنفردا، مع الرئيس الأمريكي روزفلت.

في الاجتماع انتظر تشرشل من حليفه الكبير أن يتحدث معه، ولو من باب الثرثرة، عن نتائج اجتماعاته في البحيرات المرة وسط قناة السويس، أبدا. وبدل أن يحدثه روزفلت عن السعودية وبترولها، حدثه عن اليابان وآخر معاركها الضارية ضد معسكر «الحلفاء» في أسيا والمحيط الباسيفيكي .

الفأر لعب في عب تشرشل. اليابان؟ ومعاركها الضارية؟ اليابان تطالع في الروح وهزيمتها النهائية مجرد مسألة وقت. إنما البترول.. وبترول الشرق الأوسط تحديدا.. أين محله من الإعراب ؟

لم ييأس تشرشل.. لقد تظاهر بأنه يصدق الرئيس الأمريكي، ويصدقه من كل قلبه.إذا كان الرئيس الأمريكي يرى ان اليابان هي موضوع الساعة.. فليكن.. هى موضوع الساعة .إنما بالنسبة لتشرشل.. البترول هو موضوع الدقيقة.. هذه الدقيقة. هكذا ترك تشرشل الرئيس الأمريكي لكى يكمل رحلته عائدا إلى بلاده وبعدها مباشرة خطف تشرشل رجله إلى القاهرة. بالطبع تشرشل لايعنيه في القاهرة مقابلة الملك فاروق، ملك مصر، حيث الملك هو من عهدة السفير البريطاني. سيقابله تشرشل طبعا، وفى حضور السفير، إنما من باب الفضول لاأكثر.. لأن الرئيس الأمريكي قابله في البحيرات المرة. تشرشل سيقابل أيضا هيلاسلاسى امبراطور الحبشة. ومرة أخرى.. سيقابله فقط تحسبا لملابسات «استدعائه» لمقابلة الرئيس الأمريكي في البحيرات المرة. لا.. لا..

تشرشــل عينه على ملك الســعودية. أين الملك عبدالعزيز؟ إنه يســتجم فى الفيوم. إذن.. هيا بنا يا أنتونى (إيدن.. وزير خارجيته) إلى الفيوم.فى الفيوم حاول تشرشل الاستعمارى العجوز استنطاق الملك الســعودى بأى شــئ مما جرى بينه وبين الرئيس روزفلت. اسكت.. هس. الملك حويط. ثم إن روزفلت كلماته مســتمرة فى الرنين حيث: مابيننا هو «أمــر يخصنا وحدنا». والآن، إذا كان لدى مســتر تشرشــل ـ باعتباره رئيس حكومة الامبراطورية العظمى ومحبا للخير والإنسانية ـ مايقوله أكثــر مــن الرغبة فى الحرية والديمقراطية والرخاء، فالملك يرحب بالاســتماع. فيما عدا ذلك، فإن كل مــا لدى الملك ليقوله مــن انطباعات عن اجتماعه مع الرئيس الأمريكي فى البحيرات المرة هو أن مستر روزفلت رجل لطيف وظريف ومجامل.. وأهداه فورا كرسيا متحركا حتى لايتعب الملك قدميه الضعيفتين أكثر من اللازم!

بالطبع.. لم يجئ تشرشــل إلى الفيــوم خصيصا لكى يعبر عن اهتمامــه بالحالة الصحية للملك عبدالعزيز ال ســعود.. معلهش يازهــر! معلهش بريطانيا العظمى! انت قيمة ومركز واســتعمار امبرطــورى ميرى.. إنما للزمن احــكام. والآن تخرج بريطانيا العظمى مــن معمعة الحرب العالمية الثانية وهى منتصرة عســكريا – صحيح – إنما الوجه الآخر للعملة هو انها أصبحت مدينة بســتة مليــارات دولار لذات نفس امريكا.. حليفها الكبير. إنها مدينة أيضا لدول عديدة من بينها مصر، التى حكمت عليها بريطانيا بالعمل لحسابها مساهمة فى المجهود الحربى البريطانى مقابل الدفع.. حين ميســرة. مصر هذه – الدائنة لبريطانيا وليس عندها ولاعند ملكها – فاروق – ســوى الســمع والطاعة. إنما حينما تكون أمريكا هى الدائنة، يصبح على بريطانيا السمع والطاعة.

وأمريــكا هذه خرجت مــن الحرب العالمية الثانيــة وهى الأقوى اقتصاديا واســتراتيجيا على مســتوى العالم.. فمقابل خســائر قليلة، بشــريا وماديا، أصبحت الولايات المتحدة تملك بمفردها *نصف الرصيد العالمى من الذهب بما فى ذلك مخزون بريطانيا من الذهب فى جنوب افريقيا، الذى* اشــترط روزفلت مســبقا التنازل عنه لحساب أمريكا حتى تســتمر أمريكا فى إعطاء الأسلحة إلى بريطانيا لكى تستمر الأخيرة فى مواجهتها العسكرية ضد المانيا ودول «المحور». وأمريكا خرجت مــن الحــرب أيضا وهى بمفردها تنتج نصــف ماينتجه العالم كله من البتــرول والفحم والكهرباء وأســطولها التجارى أصبح لأول مرة أكبر وأضخم من اسطول الامبراطورية البريطانية وموجود فى كل محيطات العالم.

الآن تكســب الولايات المتحدة أيضا مواقع جديدة حاكمة على حساب بريطانيا. آخر تلك المواقع هى الســعودية التى ســيتأكد مع الوقت أن فى أراضيها الصحراوية الجرداء أكبر مخزون بترولى تملكه دولة منفردة فى العالم كله.. باستثناء أمريكا نفسها.أمريكا نفسها دولة بترولية. وتستطيع الاستغناء ببترولها عن كل بترول العالم. لكن بترول العالم – خصوصا فى السعودية وايران والعراق

والخليج - يظل أرخص تكلفة وأضخم ربحا! ثم إن البترول ليس مجرد سلعة تجارية تحقق الأرباح الفلكية لمن يسيطر عليها بل له ايضا قيمة استراتيجية.

فبالقلم والمسطرة.. هناك حرب عالمية سوف تنتهي وشيكا، بعد خراب الحرب. هناك توجه حتمي إلى إعادة بناء وتعمير ماخربته الحرب. فاليابان - وكل أوروبا الغربية - سوف تكون عطشى للبترول.. خصوصا وهي جميعا حتى تلك اللحظة ليس لديها أى بترول تختزنه أراضيها. في تلك الحالة ليس هناك - حتى تلك اللحظة - سوى مصدرين اثنين للحصول على البترول. أولا: من الولايات المتحدة نفسها.. وقد فعلت ذلك بالنسبة لحلفائها حينما قطعت ألمانيا عليهم خطوط إمدادهم بالبترول فى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. لكن أمريكا فعلت ذلك لظرف طارئ تحتمه الحرب. الأن قرارها أصبح هو أن تحتفظ لنفسها ببترولها الخاص بنظرية.. القرش الأبيض ينفع لليوم الاسود. ثانيا: من مصادر البترول المبشرة فى الشرق الأوسط. خصوصا ان تكلفة استخراجه وتسويقه أقل كثيرا.. والباقى كله مكسب.. ومكسب معتبر.. للشركات التى تستخرجه، وكلها شركات أجنبية، معظمها أمريكية وبريطانية.

وتلك الشركات أصبحت هى التى تسيطر على وتتحكم فى سوق البترول حول العالم من حيث الكميات والأسعار. ومع انها غالبا شركات قطاع خاص.. إلا أنها لاتتحرك قبل ضمان موافقة حكومات بلادها.

الحكومة الأمريكية مثلا نبهت على شركاتها بعدم التصرف فى أى جزء من أسهمها ورأس مالها إلا بعد الحصول مسبقا على موافقة حكومية. كذلك فإنها لا تتجه إلى التنقيب عن البترول فى أى بلد إلا بعد موافقة الحكومة الأمريكية. والمعلومات التى تحصل عليها سواء بوجود بترول من عدمه.. وأماكن وجوده وتقدير كمياته.. تظل هى سر الأسرار الذى يجب حجبه تماما عن البلد نفسه صاحب الأرض والبترول، حتى لايعرف ذلك البلد حجم وطبيعة الكنز الموجود فى باطن أراضيه!

حتى الأرباح الفعلية التى تحققها شركات البترول هى أيضا أسرار عليا. وفى السنوات مابين ١٩٣٤ و١٩٤٣ مثلا حققت الشركة البريطانية التى تستخرج البترول من إيران ثمانمائة مليون دولار أرباحا صافية.. بينما كل مادفعته لايران من رسوم فى نفس الفترة أقل من مائة مليون دولار. فى السعودية اتفقت امريكا لتوها على أن تدفع شركاتها إلى الحكومة السعودية ٢١ سنتا عن كل برميل.. بينما استمرت ٢٨ سنة بعدها تبيع البرميل بدولارين. فى العراق نفس الشيء. هكذا أصبح البترول عنوانا لأكبر عملية نهب منتظمة فى القرن العشرين.

وشركات البترول لم تكن مجرد شركات. كانت تتصرف على أنها دول داخل الدول. فى «الشركة البريطانية الإيرانية للبترول» مثلا أصبحت للشركة أجهزة مخابراتها الخاصة وشبكة معلوماتها التى تتابع أولا بأول.. ليس فقط الوضع السياسى فى إيران.. ولكن الحالة المالية

والاقتصادية والصحية لكل النخبة الحاكمة.. بما فيها من سياسيين ووزراء وأحزاب وصحف وبنوك وحكومة ومعارضة ونقابات عمل ونواد كبرى. ومن الغريب أن دول البترول فى تلك السنوات لم تكن تطالب بأى زيادة فى الرسوم التى تحصل عليها ثمنا للبترول المستخرج من أراضيها. بالعكس. كانت تطالب فقط بزيادة المستخرج من البترول. وفى حالة إيران مثلا كان أقصى طموح للإيرانيين هو السماح لهم بحد أدنى من المشاركة.. كأن يصبح لهم مثلا عضوان فى مجلس ادارة الشركة يمثلان حكومة إيران. لم يكن هذا طلبا عويصا، ولا هو بالشئ الكثير. مع ذلك فإن الرئيس الإنجليزى للشركة فهم المغزى فوراً. وحينما قيل له إنه يستطيع كسب ثقة الإيرانيين بمجرد وظيفتين.. فإنه رد بانفعال وسخط وغضب قائلا: هل تريدونهم أن يطلعوا على دفاترنا ويعرفوا أسرارنا.. فيطمعوا فينا؟!

بالطبع لم تكن الأسرار ستظل أسرارا إلى الأبد. ومع تزايد الطلب العالمى من البترول.. والأرباح الفلكية التى تحققها شركات البترول العالمية مقابل سعر التراب الذى تحصل عليه الدول صاحبة البترول.. بدأ الغليان الشعبى بدرجات متفاوتة بين دولة وأخرى. فى إيران مثلا جاء الغليان الشعبى بحكومة جديدة فى السلطة برئاسة محمد مصدق. وفى البداية تظاهر محمد رضا بهلوى شاه ايران بمسايرة الطوفان الشعبى.. إلى أن اتخذت الحكومة – ووافق البرلمان على ذلك – قرارا بتأميم شركة البترول «البريطانية الايرانية للبترول».

بعدها لم يعد الحال إلى ماكان عليه مطلقا.. لا فى ايران، ولا فى كل منطقة الشرق الأوسط.

كان التأميم قانونيا مائة فى المائة.. وهو حق من سلطة الدولة.. وحكومة إيران – حتى – مستعدة لتعويض حملة الأسهم بسعر تلك الأسهم فى السوق الدولية. مع ذلك حاولت بريطانيا أن تقلب الدنيا على حكومة ايران. وارتفع صوت تشرشل الاستعمارى المخضرم محتجا بأن ايران يحكمها اللصوص. بالطبع هو لايقصد رجال البترول الانجليز وانما يقصد حكومة إيران!

لقد لجأت حكومة ايران إلى محكمة العدل الدولية، فصدر الحكم لصالحها ضد بريطانيا العظمى.

إنما.. ابداً. بدل القانون جاء منطق القوة. ولأن قوة بريطانيا لم تكن كافية فى تلك اللحظة، فقد اضطرت إلى الاستعانة بالولايات المتحدة ، هكذا دبرت المخابرات الأمريكية انقلابا عسكريا أطاح بمحمد مصدق وحكومته فى سنة ١٩٥٣ ، وبعدها فقط عاد شاه إيران من منفاه المؤقت فى الخارج، لكى يصبح من وقتها فصاعدا رجل أمريكا فى ايران.. ضد شعب إيران. كانت الفكرة كلها من شقين. فأولا: يجب أن تظل عملية نهب البترول بسعر التراب مستمرة على حساب الشعوب صاحبة هذا البترول. وثانيا: يجب أن يتحول محمد مصدق وحكومته إلى أمثولة تردع كل من تسول له نفسه حول العالم باسترداد الحقوق المنهوبة لبلده.

ولأن التاريــخ لا يســير أبدا فــى خط مســتقيم، ولأنه فى جوهــره خليط متتابع مــن الهزائم والانتصارات.. فســرعان ماجاءت الضربة المضادة فى ظــروف مختلفة تماما.. ومن مكان لم يرد فى خيال أصحاب السطوة فى عرش القوى العالمية.

الضربة فى هذه المرة.. جاءت من مصر. ففى الســادس والعشــرين من يوليو ســنة ١٩٥٦ وقف جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية فى ميدان المنشية بمدينة الاسكندرية لكى يعلن تأميم «الشركة العالمية لقناة الســويس». إنها – قانونا – شــركة مســاهمة مصرية مع ذلك لم تكن مصر تملك فيها شيئا، ولا تعرف عن أسرارها أى شئ. ومع أن القرار المصرى نص على تعويض حملة الأسهم حسب قيمة أسهمهم التجارية عشية التأميم.. فإن أقوياء الغابة الدولية انتفضوا غضبا واعتراضا، وسرعان ماجهزوا ســكاكينهم الطويلة لقطع رقبة هؤلاء المصريــين الذين هيئ إليهم زورا أنهم اصحاب قناة السويس.

ساعتها.. لم تكن عيون وحوش الغابة مسلطة فقط على قناة السويس.. وإنما مسلطة بنفس القدر على البترول.. كنز القرن العشرين.

❑❑❑

النجاة بحرا
.. والغرق برا !

المسألة هي طفل في السادسة. الطفل بشوش، ومحبوب من زملائه، ومجتهد في دراسته. الطفل أيضا تعلم السباحة في المدرسة، ويهوى الرسم بالألوان في البيت بعد أن يستذكر دروسه. وبالرغم من أن والديه انفصلا بالطلاق قبل سنتين.. فإنهما اتفقا وديا على أن تستمر رعاية الطفل مسئولية مشتركة بينهما.. طوال الأسبوع هو في مدرسته ومع أبيه، وفي عطلة نهاية الأسبوع هو مع أمه وأسرتها في نفس المدينة.

ذات ليلة.. لم يعد الطفل إلى منزل أبيه. في البداية لم ينزعج الأب كثيرا.. فربما تكون الأم قد رأته مبكرا ففضلت الذهاب به مباشرة إلى المدرسة في الصباح. لكن الأب فوجئ في اليوم التالي بأن طفله غير موجود بالمدرسة، لأن الأم لم تذهب به أصلا إلى هناك. الآن بدأ القلق. لقد ذهب الأب إلى منزل زوجته السابقة فوجد الباب مغلقا بالضبة والمفتاح. مزيد من القلق..

بالسؤال والتقصي فوجئ الأب بصدمة عمره.. فالأم صحبت طفلهما وآخرين للأبحار ليلا إلى الولايات المتحدة على بعد ثمانين كيلومترا. وعند هذا الحد عاد الأب إلى منزله منهارا قائلا لزوجته الجديدة: اليوم انتهت حياتي.

لم تنته حياته. لكن الذي بدأ هو كابوس طويل مرعب، سرعان ماسيتحول إلى أزمة دولية غير مسبوقة! طرفاها الولايات المتحدة ورئيسها بيل كلينتون في جانب. وكوبا ورئيسها فيديل كاسترو في جانب آخر!

وفيما بينهما أصبحت صحف العالم ومحطاته التليفزيونية تتابع يوميا مايجرى على مدار الساعة. وسواء كان العنوان هو أزمة أو مأساة، فإن اسم بطلها أصبح طوال الأشهر الخمسة الأخيرة أشهر من نار على علم، الأسم هو «إيليان»!

المسألة هي طفل في السادسة. والطفل إيليان صحبته أمه إلى الساحل ليلاً، حيث يوجد قارب صغير طوله أقل من ستة أمتار. في هذا القارب الصغير احتشد ١٤ شخصا، وفيهم عجائز فوق السبعين وفيهم ايضا «إيليان» في السادسة من العمر، وأمه، ثم مقاول تلك الرحلة السرية الذى هو

أيضــا صديق حميم جديد لوالدة إيليان، والذى جعل من مثل تلك الرحلات الســرية مهنته، حيث يتقاضى من الشخص الواحد ألف دولار حتى يبحر به على هذا النحو إلى الشاطئ الآخر فى البحر الكاريبى.. الشــاطئ الأمريكى.. حيث الفكرة الرائجة عنه هو أنه شــاطئ اللبن والعســل، والغنى والثــراء، والمليون دولار فى لمح البصر. كثيرون عبروا هذا الطريق البحرى من قبل وبنفس البدائية والســرية. بعضهم وصل فعلا إلى الأرض الأمريكية واســتقر هناك ومعظمهــم هزمته أمواج البحر العالى فغرق فى الطريق.

من هنا قال والد ايليان منهارا: اليوم انتهت حياتى.. قالها لأن قلبه ارتج فورا من شــبح الموت غرقا لطفله ذى الســنوات الســت، وبغير أى فرصة تتخيلها له أمه ليصبح مواطنا أمريكيا فى أرض اللبن والعسل والدولارات على قفا من يشيل!

فــى بحر القلــق تذكر «خوان جونزاليز» – والــد ايليان – أن له عما هاجر مــن كوبا مع أقرباء آخرين واســتقروا منذ سنوات فى مدينة «ميامي» الأمريكية، نفس المدينة التى أصبح فيها عشرات الآلاف من المهاجرين الســابقين الذين حصلوا على الجنســية الأمريكية وقتها وأصبحوا يشــكلون جالية كبيرة. واتصل الأب من كوبا تليفونيا بعمه فى مدينة ميامى الأمريكية. هل عندكم أى اخبار عــن وصول مهاجرين جدد مــن عندنا؟ هل هناك حتى أى أخبار بحالات غرق أو انتشــال جثث، طمئنونى من فضلكم.. فابنى إيليان مع أمه دخلا طريق الموت هذا.

كان التاريــخ هو ٢٢ نوفمبر ١٩٩٩. العم ليس عنده اخبار. لكنه وعد بالمتابعة و: قلت لى ابنك اسمه إيه؟ متى أنجبته؟!

المســألة هى طفل فى السادســة. وخلال أيام فرضت الحقيقة نفســها بغير جهد من أحد. فالذى حدث هو أن تلك الرحلة الســرية فشــلت فى المحاولة الأولى، فعاد القارب بركابه مرة أخرى إلى الســاحل الكوبى.. ســعيا إلى إصلاح موتور القارب بسرعة.. بعيدا عن عيون السلطات الكوبية. هنا أفاق بعض الركاب إلى هول المغامرة فتراجعوا. الطفل إيليان هو الآخر بكى وصرخ مســتعطفا أمه، مناشــدا لها بتركه يعود إلى مدرســته. الأم هدأته، وناولته حبــة دواء يحميه من دوار البحر..: اركب يا حبيبى... وبعد كام ساعة ستصبح فى مدرسة أكبر وأجمل وأغنى.

وســط البحر تعطل موتور القــارب من جديد. تعطل تماما. وقرر الرجــال فى القارب التخلص مــن هذا الموتــور اللعين تخفيفا للحمولة، فألقوا به فى عرض البحــر. فى تلك اللحظة اختل توازن القارب بشــدة، فانقلب بالجميع. ولأنه قارب بدائى اشتراه المقاول بـ ٢٥٠ دولارا فقط فلا توجد به أية وســائل للنجاة ســوى أنابيب مطاطية، هى ثلاثة إطارات داخلية من عجل الســيارات منفوخة بالهواء. اثنان من المســافرين تشــبثا بأحد الاطارات.. اطار آخر اختفى.. الطفل إيليان ذو السنوات

الســت تشــبث بالاطار الثالث غير مدرك فى الظلام أن مياه البحر ابتلعــت كل الآخرين بمن فيهم والدته نفسها.. ربما لأن القارب متهالك.. لكن ايضا لأنهم لايعرفون السباحة!

إيليان الصغير يعرف السباحة. وبتلك المعرفة اختار له القدر مصيرا آخر.

❑❑❑

فى الســاحل الأمريكى شاهد صيادو الاســماك جثة طافية. وبخبرتهم السابقة أدركوا فورا أنهم أمام مأساة جديدة مما اعتادوا عليه طوال سنوات. لقد خرجوا يبحثون فى عرض البحر، حيث الجو نهار، والشــمس حارقة، والأمواج عالية. من بعيد لمحوا شــيئا طافيا يتأرجح مع الأمواج، وحينما اقتربوا هالتهم المفاجأة.. هذا طفل صغير مستلقى على ظهره فوق إطار السيارة المنفوخ. الطفل ملتهب الوجه والجسم بفعل الشمس والمياه المالحة.. الطفل أيضا غائب عن الوعى..

فى مدينة ميامى الأمريكية بذل أطباء المستشــفى جهدهم لمعالجة الطفل الناجى لتوه بمعجزة.. وبمجرد أن استرد وعيه بدأوا يستفهمون منه.

فى البيت دق جرس التليفون، فاختطف والد إيليان السماعة مذعورا ومتلهفا: هل لك طفل اسمه إيليان؟ هل عنوان منزلك هو..صرخ الأب الملتاع مقاطعا: نعم .. نعم.. ماذا جرى لإيليان؟

هدأ الطبيب الأمريكى من روعه.. إيليان هنا فى المستشفى تحت العلاج، ونريد منك الاستفسار عن ســجله الطبى حتى نحتاط لكل احتمال. فى الواقع إيليان هو الذى أعطانا رقم تليفونك فى كوبا وعنوان المنزل والمدرسة.. نرجوك أن تهدأ قليلا لأن انفعالك هذا قد يضر بالطفل. أصر الأب على أن يسمع أولا صوت الطفل لكى يصدق ويطمئن. أخيرا.. هذا إيليان يتكلم باكيا: بابا.. أنا شاهدت ماما وهى تضيع فى المحيط، ماما غرقت.. حقيبة كتبى غرقت. لبس المدرسة غرق أيضا.. بابا..

تمزق الأب فى التو واللحظة بين اطمئنانه على طفله، وبين حالة التشــوش الطاغية فى كلماته المتقطعــة. لقــد تقمص الهدوء وهو يرد: لا يا إيليان.. لاياحبيبى. لبســك المدرســى وحقيبة كتبك موجودة أمامى هنا فى المنزل.. بل إن إحدى مدرساتك كانت تسأل عنك بنفسها قبل لحظات. ابتهج إيليــان لأول مرة وقال لوالده فرحا: صحيح يابابا؟.. طيب قل لها أن تحافظ على درجى فى الفصل وسأعود بسرعة.

❑❑❑

لــم يعد إيليان حتى اللحظة.. لابســرعة ولاببــطء! ففى الظروف العادية تقــرر قواعد القانون الدولــى أن علــى الدولة المعنية – هى الولايات المتحدة فى حالتنا هــذه – أن تعيد الطفل إيليان إلى ابيه فى كوبا فورا.. مع أقصى درجات الشكر على اهتمامها الإنسانى بإسعاف الطفل وعلاجه. لكن الذى حدث هو أن هذه الحالة الإنســانية انقلبت بفعل فاعل إلى أزمة دولية كبرى.. اختلطت فيها

السياسة بالإنسانية.. والكراهية بالمحبة.. والأسرة بالدولة. هكذا ظهر أقرباء والد إيليان في مدينة ميامي الأمريكية فورا، وتسلموا الطفل للقيام برعايته.. مؤقتا. لكن عم والد إيليان - ويعمل «سمكري» سيارات في مدينة ميامي أصر على الاحتفاظ بالطفل.. بينما العم الآخر لوالد إيليان - ويعمل بائع سمك - اختلف مع شقيقه مصمما على أن الحق والأصول والقانون والإنسانية تحتم إعادة إيليان إلى أبيه في كوبا. ولان الأول رفض الفكرة تماما فقد تشاجر معه الثاني مقررا مقاطعته نهائيا لقسوة قلبه وفظاظة أسلوبه.

في الجالية الكوبية بمدينة ميامي وكل ولاية فلوريدا انتشر الخبر كالنار في الهشيم. الجالية في معظمها هاربون سابقون من كوبا.. إما تعبيرا عن السخط على فيديل كاسترو ونظامه.. أو بحثا عن حلم الثراء في امريكا في غمضة عين أو بمزيج من الاثنين معا. في الجالية أيضا أعضاء في عصابات المافيا الإجرامية. والمافيا، لها ثأر قديم مع كاسترو ونظامه في كوبا.

كوبا هذه جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي، سكانها عشرة ملايين. في سنة ١٩٥٩ قامت في كوبا ثورة شعبية استولت على السلطة من نظام فاسد ومتحالف مع عصابات المافيا. أمريكا كدولة كبرى لم تقبل بتمرد كوبا الصغيرة هذه ضدها، فأعلنت عليها الحصار فكان رد كاسترو على ذلك هو التحول إلى الشيوعية، حتى يغري الاتحاد السوفيتي بالقدوم إلى مساعدته. تلك كانت ذروة سنوات الحرب الباردة ، حيث يناوش كل معسكر المعسكر الآخر. لكن أمريكا ترفض المناوشة، وترفضها قطعا إذا كانت على مسافة ثمانين كيلومترا من حدودها، ومن «حشرة» صغيرة اسمها كوبا يمكن أن يؤدي تمردها إلى تشجيع كل «الحشرات» الأخرى من دول امريكا الجنوبية على تقليدها. هكذا بدأت محاولات متتابعة لاغتيال كاسترو، ثم لغزو كوبا، ثم لإغراء أكبر عدد ممكن من شعب كوبا بالتمرد على حكومته.. ولو بالهجرة إلى أمريكا. كاسترو أيضا، وبمنطق قدرة النملة على مضايقة الفيل، خرج ذات يوم وأعلن بالصوت «الحياني» فتح الباب بلا قيد ولا شرط أمام كل الراغبين بالهجرة إلى أمريكا والإقامة فيها. هكذا وجدت أمريكا عشرات الآلاف من الكوبيين يطلبون الهجرة إليها.. وفي مقدمتهم كل العجائز وأرباب السوابق. هنا فقط تنبهت أمريكا إلى الفخ الذي ذهبت إليه بقدميها، فالحرية وحقوق الانسان والديمقراطية شعارات جميلة طالما يتحمل الآخرون ثمنها. أما إذا أخذ الكوبيون الكلام بجدية وصدقوا الشعارات وسعوا إلى الهجرة إلى أمريكا فعلا.. فهنا تصبح في المسألة حسابات أخرى. حسابات من نوع حماية العامل الأمريكي مثلا من مزاحمة الأجانب له في بلده على فرص العمل المتاحة.

واختارت أمريكا حلا وسطا، فأصدرت أعجب قانون على الإطلاق. قانون له رقم رسمي، لكن له عنوان شعبي، هو قانون «كوبا». بمقتضى هذا القانون تلتزم السلطات الأمريكية بعدم تشجيع أية هجرات غير مشروعة إليها إنما - وهنا جوهر القانون - أي مواطن أجنبي يصبح بقدميه في الأرض

الأمريكية أو فى مياهها الإقليمية وعلى مسـئوليته الشـخصية يكون من حقه فورا الحصول تلقائيا على تصريح حكومى بالإقامة الدائمة تمهيدا لإعطائه الجنسية الأمريكية.

بكلمـات أخرى.. أمريكا لن تحرض مواطنى كوبا علـى القدوم إليها غضبا عن حكومتهم. بذلك تصبح أمريكا ملتزمة حقا بقواعد القانون الدولى. إنما من شـاء من مواطنى كوبا أن يتحمل المخاطرة ويطب فجأة على الساحل الأمريكى، فتلك مسئوليته.. هو بمفرده يتحمل وزرها. بعدها فقط تعطيه أمريكا جنسيتها من باب الإنسانية و«يا بختك يا فاعل الخير».

وفى التاريخ الامريكى كله لم يصدر قانون أمريكى تفضيلاً على جنسية محددة إلا هذا القانون. هذا هو السر فى استمرار الرحلات البحرية غير المشروعة للهروب من كوبا إلى الساحل الأمريكى. رحلات فيها من الموتى أكثر مما فيها من الأحياء وفيها من السياسة أكثر مما فيها من الشرعية.

والآن جاءت مأساة الطفل «إيليان» لكى تلخص هذا كله. لقد خرج الآلاف من الجالية الكوبية فى كوبـا يطالبون بعدم إعادة إيليان إلى أبيه فى كوبا، وبأن تعطيه الحكومة الأمريكية تصريح الإقامة الدائمة فورا.. وتعطى لعم والده – «السمكرى» – الحق القانونى فى حضانته.

فى المقابل خرج مئات الآلاف فى كوبا يتظاهرون تضامنا مع الأب وحقه فى استرداد طفله. ومع الوقت بدأت المأساة تخرج من نطاق العدل والإنسانية لكى تغرق فى أوحال السياسة. لقد جاء الطفل إيليـان بقدميه إلى امريكا سـعيا إلى الحرية والديمقراطية والإنسـانية والثراء والمليونيرات، هذا دليـل جديد على عظمة أمريكا وبؤس كوبا وحاكمها الديكتاتـور. أمريكا يجب ألا تعيد الطفل إلى أبيه، لأن الغنى لايستسلم للفقير.. والقوى لايستسلم للضعيف.. والديمقراطية لاتستسلم للاستبداد. مـن الناحية الرسـمية، خرجت امريكا بصوتين. هنـاك أولا: صوت العقل والقانـون والالتزامات الدولية، ويمثله الرئيس كلينتون.. فبحكم مسـئولية منصبه قال إن القانون الأمريكى الداخلى فى مثـل هـذه الحالة يفرض عودة الطفل إلى حضانة أبيه. أما نائبه – ألبرت جور – فبصفته مرشـحا قادما للرئاسـة هو محتاج بشدة إلى حشـد أصوات انتخابية لصلحته. وأصوات الجالية الكوبية فى مدينة ميامى وكل ولاية فلوريدا جاهزة لحسـاب من يزايد سياسـيا. إذن الحل عند البرت جور هو اسـتصدار قانون جديد من الكونجرس خصيصا باعطاء الجنسـية الأمريكيـة فورا إلى الطفل إيليان وأبيه و – فوق البيعة – كل أقربائهما الراغبين فى مغادرة كوبا والذهاب إلى الولايات المتحدة.

انقلبت المأساة إذن رأسا على عقب. فى الكونجرس الأمريكى مثلا قاموا باستدعاء الطفل الصغير إيليان، و.. هات ياجلسـات اسـتماع كل هدفها هو ان يثبت كل سياسى لناخبيه المحتملين حرصه علـى بقاء الطفل فى أمريكا. فى القضاء أيضـا.. من محكمة إلى محكمة.. بدأت المناورات. فيما بين المناورات بدأوا يأخذون الطفل إيليان فى رحلات ترفيهية تصورها كاميرات التليفزيون وهو سـعيد

تماما، حاملا العلم الأمريكي وسط بحر من الحلوى والهدايا والألعاب والملابس الجديدة الزاهية.. وأيضا وسط مدينة الملاهي الشهيرة ديزني لاند. لقد خصصوا للطفل الصغير إيليان سيارة من طراز «لكيزس» – افخم من السيارة المرسيدس – لزوم الابهار، بل وأعلنوا أيضا أن كل ماعلى الأب الكوبى أن يفعله هو أن يختار لنفسه ولطفله الإقامة فى أمريكا.. وساعتها سيحصل الأب فورا على سيارة خاصة ومنزل ووظيفة مجزية وأموال مجانية تصل إلى مليونى دولار. بالطبع كل هذا فوق قدرات «السمكري» عم الأب المقيم فى ميامى والمختطف – عمليا – للطفل إيليان فهو وأسرته مستورو الحال، ولم يسبق لهم أصلا أن عرفوا هذا الطفل أو سألوا عن اخباره، لكنها السياسة.. وعصابات المافيا.

فى كوبا اجتمعت جدتا الطفل ايليان – جدته من الأب وجدته من الأم – لكى تعلنا بصوت واحد: نحن هنا فى كوبا قد لانكون أغنياء، هم هناك فى أمريكا سحروا الطفل إيليان بعالم ديزنى لاند.. ليس عندنا فى كوبا مدينة ملاه مثل ديزنى لاند إلا أن فيها والده واخاه وأهله وأصدقاءه وأقرباءه الذين يحبونه. بعدها سافرت الجدتان معا إلى امريكا بناء على اتفاق مسبق بأن السلطات الأمريكية ستسمح لهما بلقاء الطفل إيليان لمدة يومين لكن الزيارة جرى اختصارها إلى ساعة ونصف ساعة وفى التنفيذ تحولت إلى ربع ساعة. وبعيون باكية عادت الجدتان لكى تقولا بلوعة: هذا ليس نفس إيليان الذى عرفناه.. إيليان كان طفلا ذكيا منطلقا طبيعيا «حبوبا» تلقائيا.. الآن هو مخلوق آخر طفل متردد يتلعثم ويخشى من شئ ما.. الآن نحن أصبحنا أكثر إصرارا على أن هذا الطفل لابد من إنقاذه.

حتى أبوه تولدت لديه نفس المرارة.. فى البداية كان يتصل به تليفونيا فى منزل الأقرباء فى ميامى. لكن خلال المكالمات كان الأب يحس بشئ غير طبيعى قائلا: كنت أحس أنهم يصيحون فى الطفل فى أثناء حديثه معى عبر التليفون.. أو يرفعون من صوت التليفزيون حتى لايسمعنى جيدا.. أو يدسون الحلوى فى فمه حتى يصعب على فهم مايقوله. فى النهاية عرض فيديل كاسترو حلاً رآه الرئيس الأمريكى معقولا. فإذا كانت السلطات الأمريكية تقول إنها فى انتظار حكم قضائى يقرر لمن تكون حضانة الطفل.. فإنه يقترح سفر الأب نفسه إلى أمريكا ليأخذ طفله.. ويستمر الاثنان معا فى أمريكا حتى يصدر الحكم القضائى الموعود.

لكن الأب ذهب إلى واشنطون، وأقام فى بيت دبلوماسى كوبى محاولا استعادة الطفل.. ولم يحدث. إنما الذى حدث أمران.. أولا: فوجئ الأب بشريط فيديو تذيعه كل محطات التليفزيون الأمريكى على مدار الساعة. فى الشريط يوجه الطفل الصغير إيليان عينيه إلى الكاميرا قائلا: يابابا أنا لااريد الذهاب إلى كوبا فإذا كنت تريد أن ترانى.. فعليك بالمجئ إلى هنا فى ميامى. كلمات أدركت كل أم أمريكية فورا – والأمهات تحديدا – أن هذه لايمكن أن تكون كلمات طفل فى السادسة.. أيا كان.

أمـا الأمر الآخر فهو نفس الأب جالسـا أمام جهاز التليفزيون في واشـنطون..متابعا برنامجا أمامه في التليفزيون احتفالا بعيد ميلاد طفله هو.. وسـط أقرباء في ميامي للأب لم يكونوا من قبل يعرفون سـابقا أي شئ عن الأب أو عن طفله. ولأن الأب لايزال ممنوعا من استعادة طفله.. فقد بدت مشـاهدة طفله أمامه في التليفزيون بديلا تاليا بحكم الضرورة. وما رآه أمامه على الشاشـة هو طفله مرتديا خوذة قتال من النوع الذي يسـتخدمه الجنود فـي الحروب.. وهو ملتف بالعلم الأمريكي.. ومحاط بأسلحة نارية معتادة في السياق الأمريكي!

وصرخ الأب مذعورا.. ليس هكذا أريد أن ينشأ طفلي.

في الحقيقة إن هذا جرى قبل فترة قصيرة من قيام صبي آخر في مثل عمر إيليان ــ صبي أمريكي في هذه المرة من سـكان مدينة ميتشـجان الأمريكية ــ باستخدام أسلحة مثل هذه لإطلاق النار على زميله في الفصل الدراسي.. فأرداه قتيلاً على الفور.

المسألة هي طفل في السادسة. الطفل كانت أمواج البحر العاصف رحيمة به. لكن أمواج السياسة – حتى اللحظة – يعنيها شئ آخر.. حتى لو كان هذا يعني تحويل الطفل ذاته إلى مجرد وقود في معركة أكبر تماما من اسمه ومن قدراته.

وفجر السـبت ٢ ابريل سنة ٢٠٠٠ قامت الشـرطة الفيدرالية الأمريكية باقتحام منزل الأقرباء بميامي لأخذ الطفل بقوة القانون وتسـليمه إلى والده في واشـنطن بشرط ألا يغادر الاثنان الولايات المتحدة حتى تنعقد المحكمة الاستئنافية يوم ١١ مايو الحالي على الأقل.

□□□



مولد .. وصاحبه غائب !

طفل فى السادســة مكانه الطبيعى الذى يعيش فيه هو مع والديه. طفل فى السادســة أصبح يتيم الأم مكانه الطبيعى هو مع والده. طفل فى السادسة أصبح يتيم الأم بعد أن رآها بعينيه وهى تموت.. أو تضيع فى المحيط حســب تعبيره.. مكانه الطبيعى مع والده وأســرته وزملائه ومدرســته وكتبه وألعابــه وهواياتــه وبيئته التى اعتاد عليهــا.. مع دعاء الجميع للأب بأن يمــارس أقصى درجات الحكمة والحنان والمحبة والرعاية.. بما يمتص من نفس طفله صدمة انكســاره النفسى المفاجئ هذا فى مثل تلك السن المبكرة.

هذه ليســت مســألة عويصة ولا صعبة الإدراك بهذا القدر الذى صوره لنا الإعلام الأمريكى منذ شــهر نوفمبر الماضى (١٩٩٩) بمناســبة الطفل الكوبى إيليان جونزاليز. هذه مسألة تقررها الفطرة والأديان والقوانين والإنسانية والحس السليم و- فوق هذا كله - مصلحة الطفل نفسه إذا كنا نريد له تجاوز الصدمة والخروج به إلى الواقع الحقيقى فيما بعد كشخصية سوية طبيعية متوازنة.

لكــن لأن الطفل فى السادســة، ولأنه نجا من الغرق بينما أمه تحــاول الهروب به من كوبا إلى أمريكا، ولأن أمريكا تكره كوبا كنظام وسياســة.. فقد تحولت هذه المأســاة الإنســانية الصغيرة إلى ســيرك إعلامى خطير يشــغل بها الإعلام الأمريكى شــعبه وبعده كل شــعوب العالم. هناك ايضا الأقرباء البعيدون لوالد الطفل وهم أنفســهم هربوا ســابقا من كوبا وأصبحوا مواطنين أمريكيين فى مدينة ميامى بولاية فلوريدا الأمريكية.

هــؤلاء الأقرباء لم يكونوا من قبل يعرفون أى شــئ عن هذا الطفــل أو ابيه. لكنهم رأوها فرصة للتعبير عن كراهيتهم السياسية لنظام الحكم فى كوبا ورئيسها فيديل كاسترو.

الطفل ايليان جونزاليز ذو السادســة من العمــر قد يعرف عن الملوخية أكثر مما يعرف عن كوبا أو كاســترو. الطفل فى السادسة يعرف أسرته وشــارعه وجيرانه ومدرسيه وألعابه وتعليمه. لكن الأقــارب العقارب رأوها فرصة لاحتجاز الطفل - حتى لانقول: اختطاف الطفل - عندهم فى مدينة ميامــى، رافضين تماما إعادته إلى أبيه فى كوبا... وبحجة أن أمريكا الغنية تكفل مســتقبلا للطفل

أفضل مما ينتظره فى كوبا الفقيرة. حينما لم تنطل هذا الحجة على أحد قالوا: إن القانون الأمريكى يمنع إعادة الطفل إلى والده فى حالة عدم أهلية هذا الوالد لرعايته.

الكلام صحيح. لكن مايقصده القانون بعدم أهلية الأب شئ أخر. شئ كالانحراف أو الإجرام أو المخدرات أو الجنون. إنما الأب فى حالتنا هذه طبيعي ولم يقصر من قبل فى رعاية طفله، مشهود له بين جيرانه بحسن السمعة والسلوك، بل إن الحكومة الأمريكية ذاتها أوفدت لجنة من عندها لكى تذهب إلى الأب فى كوبا وتعاين على الطبيعة مستوى حياته، وسابق رعايته لطفله. الأب قد لايكون غنيا فحياته مستورة. لكنه أيضا ليس معتوها. ليس منحرفا. ليس فاقد الأهلية لرعاية طفله كما بدأ يدعى الأقارب العقارب فى ميامى.

إنما.. تقول لمين؟! الغرض مرض. ولأن غرض الأقرباء فى مدينة ميامى الأمريكية هو شحن المشاعر الأمريكية فى قضية سياسية تهمهم هم وعصابات المافيا وبعض السياسيين الأمريكيين.. حتى على حساب مصلحة الطفل نفسه.. فقد ساقوا فيها وصمموا على الاحتفاظ بالطفل. فاذا لم يكن هذا يعجب الأب فى كوبا..إذن عليه أن يأتى إليهم بنفسه فى ميامى..

الكلام افتراء.. لكن الأب يظل فى النهاية هو الأب. لقد قرر أن يسافر بنفسه إلى امريكا مع زوجته الجديدة وطفلهما ذى الشهور الستة الذى هو نصف شقيق لإيليان. لكن الأب خوان جونزاليز وقف فى مطار هافانا – عاصمة كوبا – لكى يعلن قبل صعوده إلى الطائرة: إننى ذاهب إلى أمريكا لاستعاده طفلى. لكنى لن أتحدث إلى هؤلاء الأقرباء الذين يختطفون طفلى. ولن أقبل بأى شرط ولن أشارك فى أية مبارزات دعائية حول استعادة إيليان.

هكذا لم يذهب الأب إلى مدينة ميامى حيث طفله مع الأقارب العقارب. وإنما ذهب إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ليقيم مؤقتا فى بيت دبلوماسى كوبى انتظارا لأن تمكنه السلطات الأمريكية من استرداد طفله.

أسبوع وراء أسبوع بينما السيرك الإعلامى منصوب على مدار الساعة. بل إن وزيرة العدل الأمريكية ذات نفسها اجتمعت بهذا الأب لمدة ساعة لكى تعرض عليه التقدم بطلب للجوء إلى أمريكا فيصبح فورا واستثنائيا مواطنا أمريكيا هو وطفله معا. الأب لايريد اللجوء، الأب يريد طفله، ويريد العودة إلى بلده كوبا.

لأسباب تاريخية وسياسية عديدة. هى أيضا لاتخلو من العبث، أصبح اسم كوبا وكاسترو عند بعض السياسيين الأمريكيين يتعادل مع الجحيم و «أبو رجل مسلوخة». والسياسيون الأمريكيون – وتلك أيضا مشكلة أخرى – عينهم على الانتخابات وأصوات الجالية الكوبية فى ولاية فلوريدا جاهزة لحساب من يدخل المزايدة. تماما كما فى حالة الأقلية اليهودية الأمريكية المنظمة لحساب إسرائيل بحجة ان العرب ليس لهم فى الانتخابات الأمريكية لا أصوات ولافلوس.. بينما اليهود

الأمريكيون جاهزون بالأصوات والفلوس. عند بعض السياسيين الأمريكيين المسألة محددة: معك الحق والقانون والعدالة.. يفتح الله. معك الأصوات وجاهز بالفلوس.. أنا فى طولك وعرضك.

المظاهرات المنظمة فى مدينة ميامى الأمريكية أصبحت يومية وشعارها: لاتعيدوا إيليان إلى أبيه لأن الأب سيعود به إلى كوبا.

أما فى كوبا فهناك مظاهرات مضادة. حتى زملاء إيليان فى مدرسته الابتدائية ـ وهذا ملفت فى سن السادسة ـ وضعوا على كرسى إيليان فى فصله الدراسى ورقة كتبوا فيها: ممنوع الجلوس. هذا كرسى محجوز لإيليان. أما خارج المدرسة فقد جمع المعارف والجيران والأصدقاء تبرعات للمساهمة فى تغطية تكاليف رحلة الأب إلى أمريكا لاسترداد طفله.

الأب استمر فى واشنطن ينتظر مقهورا وليس أمامه سوى مشاهدة التليفزيون بعد أن أصبحت المحطات الأمريكية تتسابق فى متابعة حياة إيليان مع اقرباء أبيه فى ميامى وسط ألعابه الجديدة وملابسه الأمريكية والمظاهرة الدائمة المحيطة بالمنزل.

ربما نقول هنا «رزق الهبل على المجانين».. حيث رزق محطات التليفزيون ارتبط بمجانين ميامى.. لكن.. لا هؤلاء هبل ولا أولئك مجانين. فلأن هذه الدراما الإنسانية موضوعها طفل فى السادسة نجا من الغرق بحرا وجرى إنقاذه بالصدفة بعد ٤٨ ساعة كاملة قضاها فى المحيط نائما فوق انبوبة مطاطية بلا طعام ولاشراب.. فقد مست القضية أوتارا إنسانية فى قلوب المشاهدين الأمريكيين. ولأن محطات التليفزيون الأمريكية فى منافسة ضارية مع بعضها البعض.. ولأن هدف تلك المنافسة هو الحصول على جمهور أكبر من المشاهدين.. ولأن الجمهور الأكبر معناه مزيد من الإعلانات التجارية وبالتالى أرباحا أضخم.. فقد تحولت المأساة إلى سيرك.. والسيرك إلى هيستيريا و: يابخت من أفاد.. واستفاد..

فى إحدى اللقطات التليفزيونية مثلا رأى المشاهدون الطفل إيليان وهو يلهو بسيارة أطفال مبهرة لمن فى عمره، بينما السعادة بادية فى وجهه المبتسم. وبسرعة البرق.. بدأت الشركة المنتجة لسيارة الأطفال هذه فى حملة إعلانية بملايين الدولارات شعارها: «إذا كنت تريد لطفلك أن يكون سعيدا هكذا مثل إيليان.. اشتر له هذه السيارة اللعبة فورا». ومن السيارة إلى الملابس إلى ألعاب الفيديو إلى أنواع الحلويات.. إعلانات إعلانات إعلانات. مبيعات. مبيعات. مبيعات.. أرباح. أرباح. أرباح. أرباح.

رزق الهبل على المجانين ؟ لا هؤلاء هبل ولا أولئك مجانين. إنما الكل نسى الطفل نفسه... هذا الطفل تحديدا الخارج لتوه من محنة مفاجئة. ومحنة.. قد لايسعفه وعيه فى التعبير عنها. ربما يكون هذا الطفل قد أصبح متقطعا فى نومه. ربما يفاجأ فى نومه بكابوس رؤيته لأمه «تضيع فى المحيط أمامه». ربما يصرخ مناديا: ماما. ربما يبحث عن كتبه أو ملابسه المدرسية. ربما يتمتم

فى اللاوعى باسـم أبيه.. أو باسم جدته.. أو حتى باســم زميله وصديقه فى الكرسى المجاور بفصله الدراسى. ربما.. وربما.. وربما.. وكلها أشياء متقطعة ومنفصلة لايدركها سوى من تربى هذا الطفل بينهــم... أو من اطمــأن هو إلى حبهم له واهتمامهم به أو حتى من تشـاجر معهم على كرســى.. أوكتاب.. أولعبة.. أو.. أو.. أو..

الكل نسى الدراما الاساسية. وموضوع الدراما. الكل نسى الطفل نفسه.. واعتبروه مجرد مناسبة جذابة لترويج مصالحهم أو سياساتهم. قليلون هم الذين اعترضوا على هذا «المولد» وتقززوا من هذه الهيســتيريا الجماعية. هيسـتيريا طاغية كما لو أن هذا الطفل إيليان سيصبح رئيسا لأمريكا لو بقى فيها.. أو سيجرى قتله فى كوبا لو عاد إليها.

الطفل نفســه كأى طفل فى السادســة: ولا هنــا. هكذا يبدو إعلاميا على الأقــل. بل إن الأقرباء الأوصياء فى ميامى بعد أن تأكدوا من إصرار الأب على استرداد طفله والعودة إلى بلده كوبا تقدموا إلى الحكومة الأمريكية بطلب مكتوب باسم إيليان. طلب يقول فيه إنه يريد من الحكومة الأمريكية الحصول على حق اللجوء السياسى. لجوء؟ وسياسى؟ الطفل ذات نفسه لايعرف معنى هذا ولاذاك. ولايعــرف حتــى اللغة الإنجليزية المكتوب بها الطلب. فالطفل لغته الأسـبانية ككل شـعب كوبا. الطفل أيضا، وهو فى السادســة، يكاد يكتب اسـمه الكامل بصعوبة.. فهو لايزال فى السنة الأولى الابتدائية.

إنما السيرك سيرك. والهيستيريا هيستيريا. والسياسة تريد مزيجا من كليهما.

السياســة والمصلحــة عملت مــن الحكاية مولــد.. والمولد صاحبــه غائب. وهو غائـب لأنه فى السادسة.

أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكى نســى أنه عضو منتخــب فى الكونجرس وأن مصلحته هى فــى منافقــة الناخبين المنظمين مثل هؤلاء فى ولاية فلوريدا، وتذكر فقط موقفه وشــعوره كأب. لقد كتــب هذا النائب مقــالا يحتكم فيه إلى عقل وقلب كل أمريكى قائلا ما خلاصته: ياجماعة.. فكروا بالعقــل.. مــاذا لو كان الوضع معكوســا وكان هذا الطفــل أمريكيا أصلا وهربت بــه أمه إلى كوبا.. ورفضت كوبا إعادة الطفل إلى أبيه الأمريكى. كيف كان سيصبح شعورنا فى تلك الحالة؟ ياجماعة.. أنا أكثركم كراهية لكاســترو حاكــم كوبا ونظامه. لكن إيليان هذا طفل صغيــر فقد أمه فأصبح أكثر احتياجا إلى أبيه. إننى شخصيا أب لأربعة أطفال منهم ثلاثة صبية. وأعرف جيدا كم يصبح الآباء مهمين لأطفال فى سن السادسة. ياجماعة.. السؤال فى هذه الحالة هو: هل الأفضل لإيليان أن يعيش فــى بلدنــا العظيم بغير أبيــه.. أو أن يعيش مع أبيه فى كوبا؟ لاوجــه للمقارنة. لهذا أقول بأعلى الصوت أعيدوا الطفل إلى أبيه - اليوم وليس غدا.

وفى ٢٣ أبريل (٢٠٠٠) الماضى، بسلطة القانون وقوة الشرطة وإشراف وزيرة العدل الأمريكية شخصيا، أعيد الطفل إيليان إلى أبيه. إذن.. هل يعود الاثنان إلى كوبا؟ أبدا. فحتى الحكومة الأمريكية لا تريد أن تبدو – فى سنة انتخابية – وكأنها أقل نفاقا من كل السياسيين. كل ما فعلته هو اعادة إيليان إلى أبيه المقيم مؤقتا فى واشنطن.. ثم ابعاد الاثنين إلى قاعدة عسكرية، ثم إبعاد الاثنين زائد زوجة الأب والطفل نصف الشقيق إلى بيت ريفى بعيد عن واشنطن ممنوع على أى دبلوماسى كوبى الاقتراب منه.. ثم السماح لأربعة تلاميذ من زملاء إيليان فى مدرسته فى كوبا بالقدوم لصاحبة إيليان فى مقر إقامته المؤقت هذا. بناء على إصرار الأب والحاح زوجته وإصرار مدرساته وجدتيه. من الأب ومن الأم المتوفاة.

لماذا كل هذا؟ لماذا لايعود الأب وطفله إلى بلدهما؟ لماذا لا يعود إيليان إلى مدرسته وتعليمه بعد أن ضاعت عليه فعلا ستة أشهر وكسور؟ لأن الحجة فى هذه المرة هي وجود دعوى جديدة من الأقارب العقارب في ميامي يطلبون فيها من المحكمة الاستئنافية ان تقرر باسم الطفل ان الأب ليس بمفرده صاحب الحق فى اختيار المكان والبلد التى يقيم فيه طفله. وإلى أن تفصل المحكمة فى الدعوى.. يصبح الأب وطفله ممنوعين من مغادرة أمريكيا والعودة إلى كوبا.

إذن.. أصبحنا أمام عبث جديد فى سيرك منصوب إعلاميا منذ ٢٥ نوفمبر الماضى حينما جرى إنقاذ الطفل إيليان من مياه البحر العالى. ما تأثير تلك الأشهر التى مضت، والتى يمكن أن تمضى، على الصحة النفسية بالنسبة للطفل ذاته؟ قليلون انشغلوا بهذا السؤال، لكن رسام كاريكاتير أمريكى موهوب – والكاريكاتير بطبيعته هو فن التركيز والدخول فى صلب الموضوع بغير لف ولادوران ـ لفت نظرى برسمه الكاريكاتيرى. الرسم، وبتصرف، تقف فيه وزيرة العدل الأمريكية بجسمها الضخم فاردة ذراعيها ترحيبا عند الباب وهى تقول للطفل إيليان تعال.. هات حضن كبير وقبلة لعمتك أمريكا. أما الطفل إيليان نفسه، بجسمه الضئيل وعينيه الجاحظتينى خوفا ورعبا فيقف ممسكا بسماعة التليفون قائلا: هالو.. بابا، متى سنعود إلى كوبا ؟

رسام كاريكاتير آخر، فى لندن عاصمة بريطانيا فى هذه المرة، نشر رسمين متجاورين. فى الرسم الأول يصور حالة الهيستيريا السائدة فى ولاية فلوريدا الأمريكية حيت يتصارع فريقان.. أحدهما يرفع علم كوبا مطالبا بالطفل إيليان.. والفريق الآخر يرفع علم أمريكا يريد أيضا الطفل إيليان. أما إيليان نفسه فيقف صغيرا نحيل الجسم مغلوبا على أمره فى الوسط صامتا مرتعبا. وفى الرسم المجاور يصور الحال فى أثيوبيا بقارة أفريقيا.. حيث الشمس مشرقة، لكن الأطفال كما الأشباح.. بلا وجوه ولا معالم.. ويتساقطون جوعا وفقرا وحرمانا.

بكلمات أخرى يريد رسام الكاريكاتير هنا أن ينبه الجميع إلى جوهر النفاق فى هذه القصة.. حيث طفل واحد يكاد يموت نفسيا من طوفان الادعاء بالاهتمام به وبمستقبله.. بينما فى العالم أطفال بالملايين يموتون فعليا من نقص الاهتمام بهم وبطعامهم.

قارئ من سويسرا بعث برسالة إلى جريدته يقول فيها: إيليان لديه أب يرعاه فاتركوه له.. وحولوا ولو جزءا بسيطا من اهتمامكم إلى ملايين الأطفال الآخرين فى العالم الذين يموتون يوميا بلا رعاية ولا اهتمام ولا أم ولا أب.. لأن كلا الوالدين توفيا أصلا فقرا وجوعا وحرمانا. ثم أم أمريكية بعثت هى الأخرى برسالة غاضبة إلى جريدتها المفضلة تقول فيها: إنكم تفرضون علينا كل هذا الاهتمام الهيستيرى.. ليس حبا فى الطفل إيليان وإنما كراهية لجنسيته. لو كان هذا الطفل من المكسيك أو نيجيريا أو حتى هايتى.. هل كان سيحظى بكل هذا الاهتمام وتلك الأضواء الإعلامية ؟

أما وزيرة العدل الأمريكية فبعيدا عن الأضواء ذهب اليها عدد من السياسيين الأمريكيين غاضبين أصلا من مجرد إعادة الطفل إيليان إلى والده. فقالت لهم: قبل أن تعترضوا على إعادة إيليان إلى أبيه ورغبة أبيه فى العودة بطفله إلى كوبا.. فكروا فقط فى أن لدينا عشرة آلاف من الأطفال الأمريكيين لهم حالات مماثلة بالضبط ونعمل جاهدين على استردادهم من دول أخرى لأن أحد الوالدين أمريكى الجنسية.. ومن حقه طبقا للقانون الأمريكى استعادة طفله فإذا لم نبدأ بأنفسنا... كيف نقنع الآخرين بالامتثال لفكرة القانون من الأساس؟

لم تصل المناقشة إلى نتيجة على الأقل حتى اللحظة. فالفكرة السائدة عند بعض السياسيين الأمريكيين هى ببساطة: أمريكا هى الأقوى. الأغنى. الأكبر. وبتلك الصفة تصبح أمريكا هى القانون. ماتفعله أمريكا هو القانون. يجب أن يعجبك هذا فإذا لم يعجبك أنت حر. إنما الطفل إيليان – وحتى إشعار آخر – هو غنيمة أمريكية. وبالمناسبة.. هل شاهدت الطفل إيليان ومدى سعادته بينما يلعب بسيارة أطفال أمريكية؟ هل اشتريت لطفلك مثل تلك السيارة؟ إذا لم تكن قد فعلت.. فأنت الجانى على نفسك.

□□□



محنة .. فوق رءوسنا !

مرة أخرى أجدنى مشدودا إلى الكتابة عن نفس الموضوع، بل نفس الشخص، خلال فترة وجيزة. الشخص هنا طفل فى السادسة تفصلنا عنه بحار ومحيطات. والدراما التى أصبح هو فى قلبها شغلت دولـة كبرى بضخامـة الولايات المتحدة.. وصغرى بضآلـة كوبا. وفيما بينهما احتـار العالم كله، متسائلا: ما هذا السيرك الإعلامى المنصوب على مدار الساعة؟ طفل فى السادسة نجا من الغرق بعد أن فقد أمه يجب تسهيل عودته إلى أبيه وبلده. كيف يحدث العكس ويصبح كلاهما محتجزين معا فى العاصمة الأمريكية واشنطون وممنوعين من العودة إلى بلدهما ؟

أعود مرة أخرى إلى الطفل الكوبى إيليان جونزاليز. أعود لأسـباب شـخصية وموضوعية معا.. ولأماكن تتراوح بين مدينة طلخا التى يفصلها نهر النيل عن المنصورة.. وبين نيويورك على الساحل الشرقى الأمريكى ولوس أنجلوس على الساحل الغربى .

فى طلخا اجتمعنا كالعادة لتناول العشاء. وسط العشاء سمعنا «ندّاهة» عبر الشارع تكرر صياحها على السـامعين: «عيل تايه يا أولاد الحلال». النداهة هنا امرأة يتم اسـتئجارها للطواف بالشوارع ليلا أو نهارا إعلانا لخبر.. أو توسـلا لمسـاعدة. الآن هى تعلن الخبر وتطلب المسـاعدة: عيل تايه يا أولاد الحلال .

فـى تلك اللحظة انحشـرت اللقمة فى زور أمى – حرفيـا – وانقبض صدرها وهى تتمتم بصوت حزين: اللهم ألهم أمه الصبر.. اللهم ألهم أمه الصبر .

لـم تقل أمى ما هو أكثـر.. وبعدها لم تكمل طعامها. وتطلعنا نحـن الإخوة الصغار إلى بعضنا البعض، ثم أسـرع بعضنا إلى الشارع نصف المظلم ملاحقين النداهة مع آخرين نسألها: هذا الطفل.. كم عمره؟ أين تاه؟ ما لون ملابسه؟ أين أهله؟ .. إلخ.

فى اليوم التالى أصبحت كالمعتاد فى فصلى الدراسـى بالسـنة الأولى من مدرسة طلخا الثانوية. مدرسة حكومية نشأت حديثا ويحاولون فيها ممارسة أسلوب نموذجى فى التعليم. فبعكس مدارس أخـرى ثانوية أيضـا.. كانت هذه لهـا ملاعبها الخاصة الفسـيحة فى كرة السـلة والكرة الطائرة

والملاكمــة والمصارعة وكرة الطاولة. وفيها مطبخ ومســرح ومكتبة وصالة للموســيقى . وفيها إذاعة مدرسية يديرها التلاميذ أنفسهم.. لوقت قصير فى الصباح، ثم لمدة ساعة فى فسحة الغداء .

فى الفسحة، وفى الإذاعة، اقترحت على زملائى فى لجنة الإدارة نوعا من التغيير. فإلى جانب أغانــى عبدالحليــم حافظ ومحمد فوزى وفريد الأطرش وأقوال الصحــف مثلا.. لماذا لا نذيع تنويها عــن حــادث ضياع الطفل بالأمس، وعــن أوصافه وظروف ضياعه وعنوان أهلــه ؟ لقد رحب زملائى التلاميذ على الفور بحماس وقلق بالغين.. فسمعنا كل تلاميذ المدرسة الموجودين فى الملعب يمرحون ويلعبون.. يتنبهون. فبغير حتى أن تسعفنا عقولنا وقتها بتفسيرات أو نظريات كان الحس البدهى بيننا هو ان محنة طفل فى السادسة تتجاوز أهله لتصبح محنتنا جميعا. محنة فوق رءوسنا .

والمجتمــع المحلــى القريب تصرف فى لحظتها بشــعور تلقائــى من التضامن والمســئولية أمام الواقعة .

□□□

هــذا يقفز بى إلــى مدينة نيويورك. فى تلك المدينة الأمريكية نشــأت علاقة صداقة بينى وبين النجم الأمريكى المعروف أنتونى كوين، وأقمنا فى فندق واحد لنحو ثلاثة أســابيع. وأنتونى كوين مشــهور فى العالم العربى ببطولته لفيلم «زوربا اليوناني» وفيلم «عمر المختار» ضمن أفلام أخرى .. وبحكــم وجودنا معا طوال اليــوم وأطرافا من الليل فقد بدأ أنتونى كويــن يحكى لى بعض ذكرياته شديدة الخصوصية .

من تلك الذكريات واقعة محددة استمرت محفورة فى عقل أنتونى كوين لعشرات السنين.

هــو فى الأصل مكســيكى الجنســية. وبحكم ان المكســيك هى الجار الجنوبــى الفقير للولايات المتحدة.. وبحكم ان الدعاية السائدة فى المكسيك تبشر بجاذبية الدولار الأمريكى والثراء الأمريكى والحياة الأمريكية.. فقد أصبح الكثيرون يتطلعون إلى يوم يهاجرون فيه إلى الولايات المتحدة .

ولأن أســرة أنتونــى كوين تعيش فى فقر مدقــع فقد أصبح كل طموح الأم هــو أن تصحب طفلها هذا – أنتونى – كل صيف فى هجرة غير مشــروعة عبر الحدود.. للبحث عن فرصة عمل فى أقرب مزرعــة أمريكية. وهذا النوع من الهجرة خصوصا كانت ســلطات الحدود الأمريكية تغمض عيونها عنــه لمصلحة محددة. فأصحاب المزارع الأمريكية فى تلك المنطقة يريدون عمالة رخيصة . وشــرطة الحدود تسمح لهم بذلك لأنها تعرف أن العامل المكسيكى الذى يوجد على الأرض الأمريكية بطريقة غير قانونية يصبح أكثر قابلية للتحكم فيه والسيطرة عليه بعيدا عن الحقوق والقوانين والنقابات.. إلخ. فمع أى خطأ يرتكبه العامل المكسيكى هذا يستطيع صاحب المزرعة أن يسلمه إلى الشرطة فيجد نفسه معتقلا.. بلا حقوق ولا نقود ولا هوية.. وربما بمصيبة فوق رأسه.

في المزرعة الأمريكيـــة أصبح الطفل أنتونى كوين وأمه ضمن «عمال التراحيل».. هؤلاء القادمين موســميا من المكسيك بأجور شحيحة مقابل جمع الفواكه طوال الصيف. وذات ظهيرة وقفت صاحبة المزرعة الأمريكية بحصانها أمام أنتونى كوين وأمه. ثم ترجلت واتجهت إلى الطفل الصغير تتأمله وتداعبه. فى اللحظة التالية تحدثت مع أمه. فى الحوار أجابت الأم على الأسئلة: نعم لديها أولاد آخرون فى قريتها بالمكسيك. نعم هم يعانون من الفقر المدقع. نعم هى تتحمل شقاء هذه الرحلة كل صيف سعيا لأى نقود قليلة تساعدها على قسوة الحياة فى بلدها. نعم هى لم تفكر ـ بعد ـ فى إلحاق أنتونى بأية مدرسة لأن «العين بصيرة واليد قصيرة» .

فى اللحظات التالية همســت صاحبة المزرعة فى أذن الأم بما اعتقدت انها الكلمات الســحرية. هــى تملك هذه المزرعة الضخمة مع زوجها.. وكلاهما يقترب من الســبعين عمرا.. وبلا أولاد. الآن تراودهــا منــذ مدة فكرة الحصــول على طفل لكى تتبناه مــع زوجها ويورثانه جــزءا من ثروتهما الطائلــة. الآن هى تجد هذا الطفــل أمامها. تجد أنتونى. والآن هى تعرض على الأم مبلغا مغريا من الدولارات تعود به إلى المكســيك وتضمن لها حياة مريحة مــدى العمر لها ولباقى أولادها.. مقابل التنازل لها عن هذا الطفل – أنتونى . فقط. الشــرط هو أن يجرى تســجيل هذا كله فى عقد اتفاق.. تتعهــد فيه الأم بأنها لن تحاول مســتقبلا.. وبأى شــكل وتحت أى ظــروف.. رؤية طفلها هذا من جديد.. حيث سيصبح له اسم آخر، وحياة أخرى، وجنسية أمريكية، ومستقبل أكثر إشراقا. هه، ما رأيك؟ ما أوله شرط. آخره نور .

فى نيويورك يجلس معى أنتونى كوين ســارحا بخياله وذاكرته إلى تلك النقطة البعيدة البعيدة من طفولته.. وبالتحديد إلى تلك اللحظة بالضبط. قائلا: لحظتها تطلعت إلى أعلى.. إلى أمى وهى تســتمع باهتمام وصمت إلى صاحبــة المزرعة الأمريكية. ولعدة لحظات تاليــة بدت لى بطول دهر بأكمله.. صمتت أمى.. بينما أحس أنا بجســمى النحيل الضئيل يكاد يرتعش.. وحينما نطقت أمى أخيرا وطاوعتها الكلمات.. كانت إجابتها هي: هذا يا ســيدتى عرض مدهش أشــكرك عليه بشدة . فقط. أتوسل إليك أن تمهلينى بعض الوقت للتفكير .

ركبــت صاحبة المزرعة حصانها وهى تــرد بكلمات واثقة: لا بأس.. أمامك يومان وليس أكثر.. مفهوم؟

مــع مضى الليل ظلت الأم يقظة تماما وصامتة بجوار طفلها فى عنبر النوم مع العاملات والعمال الأجــراء الآخرين. أنتونى كوين نفســه حاول اليقظة أيضا أو حتى التحدث همســا إلى أمه. لا هى مصغية إليه ولا هو اســتمر يقظــا.. فالأم فيها ما يكفيها، وطفلها لايزال فى السادســة، وقطعا لن يفهم شــاغلها فى تلك اللحظة، لأنه بالتأكيد لم يســتوعب أصلا مغزى ما جرى، وقد غلبه النعاس فى نهاية المطاف.

عنــد الفجر فوجئ الطفــل أنتونى بأن أمه توقظه برفق وهدوء وصمت بعد أن عبأت ملابســهما القليلة فى سلة متوسطة الحجم. وبينما هو يتحرك بين النوم واليقظة .. كررت أمه بأصبعها على فمها مشــيرة إليه بألا ينطق بحرف ولا يثير ضجة. فقط. عليه أن ينهض ويســير فى صحبتها.. وبسرعة.

هكذا هربت الأم مع طفلها من المزرعة فجرا إلى مكان آخر أقرب ما يمكن إلى الحدود الأمريكية مع المكسيك.. سيرا على الأقدام أحيانا أو بركوب سيارة أو أتوبيس أحيانا أخرى .

فيمــا بعــد تغيرت الظروف وتعدلت الحياة ومضت الســنوات. وأنتونى كوين نفســه هاجر فى مطلع شــبابه إلى الولايات المتحدة لكى يجرب حظه فيها ملاكما قسوة الحياة عند القاع فى المجتمع الأمريكى. لقد فشــل فى مهن عديدة، وجرب محاولات أكثر.. إلى أن وضع قدميه بعد مشوار طويل علــى طريق النجاح كممثل ســينمائى. بعد النجاح جاءت الشــهرة والثروة .. وهــو أيضا جاء بأمه من المكســيك لكى تعيش معــه تحت رعايته لعله يعوضها عن بعض الحرمان والشــقاء والمعاناة فى المكسيك .

برغم هذا كله.. ومع عشــرات الســنين التالية.. اســتمر المشــهد إياه حاجزا نفسيا داخليا لدى أنتونى كوين نحو أمه. حاجز من المرارة والتشكك وعدم اليقين. أخيرا فى لحظة تجلي – وكان الطفل الصغير أنتونى قد أصبح فى الستين من العمر – أطلق من صدره سؤاله المختزن ضد أمه: كيف كدت أهــون عليك إلى هــذا الحد؟ هل يعقل أنك فكرت، ولو للحظات قليلة أن تبيعينى لصاحبة المزرعة؟ لقد تطلعت إلى وجهك لحظتها مليا.. وأنت تطلبين منها مهلة للتفكير.. مهلة لكى تبحثى مسألة التخلص منى مقابل حفنة دولارات ! طبعا هذا لم يحدث.. إنما طلبك منها مهلة للتفكير معناه أنه كان يمكن أن يحدث ..

انزعجت الأم بشــدة من كلمات وتســاؤلات طفلها.. فحتى لو أصبح فى الستين عمرا.. يظل هو طفلهــا. وبعد لحظة تغيرت ملامح وجهها إلى الغضب ، وهــى تقول له: هل ظل هذا هو انطباعك الذى كتمته فى صدرك طوال كل تلك الســنوات ؟! لماذا لم تصارحنى بأفكارك هذه من وقتها؟ لماذا لم تسألنى يومها ؟ أو فى اليوم التالى.. أو فى السنة التالية ؟! لماذا غاب عنك، حتى بعد أن كبرت وخبرت الحياة.. ما يمكن أن يكون ســببا فى إجابتي؟ نحن فقراء وهى غنية. نحن غرباء وهى فى بلدها. نحن ضعفاء وهى قوية. نحن تحت سيف الإقامة غير المشروعة فى مزرعتها وفى بلدها. لقد فكــرت لحظتها.. ليس فى الصفقة التى تعرضها هى .. ولكن فقط في: ماذا يكون رد فعلها لو أننى رفضت الصفقة في التو واللحظة. هل ســتخطفك منى ؟ هل ستسلمنا إلى الشرطة فندخل السجن معا بتهمة الإقامة غير المشروعة هل.. وهل.. وهل..؟!

ثم أضافت الأم: تلك هى بالضبط كانت مشاغلى وتساؤلاتى الداخلية فى نفس اللحظات التى أصابنى فيها الصمت الكامل من هول المفاجأة. بعدها اخترت أن أتظاهر بالموافقة مبدئيا.. ورجوتها فقط فى مهلة يوم أو يومين.. حتى أجد حلا ينجينا معا – أنت وأنا – من المأزق.

والحل كان ما فعلته بالضبط .. أن أهرب بك إلى أبعد مكان عنها.. لأنك طفلى الذى لا تعادله كل أموال العالم. والآن.. بعد كل هذا العمر.. لاتزال تحتفظ فى داخلك بغضبك هذا منى ؟! الآن.. أنا التى أصبحت غاضبة منك.. ومن قلبك الأسود هذا .

لكن أنتونى كوين لم يكن أسود القلب. فقط كان طفلا فى السادسة. فى وقائع تلك السن تصبح الذاكرة متفتحة تماما، وترصد الصغيرة قبل الكبيرة. ترصد الوقائع كمادة خام، بلا مراجعة ولا تكرير ولا تفحص. فكلما تعلقت الوقائع بمن نحبهم ونهتم بهم كلما اتسعت لها الذاكرة لأطول وقت بعدها. فالطفل فى تلك السن المبكرة تحركه كلمة تشجيع.. أو لحظة حنان.. أو دفعة طموح.. أو حسن تربية. ليست هناك علاقة حتمية فى هذا السياق بين حسن التربية ودرجة الفقر أو الغنى. فالطفل قد ينشأ موهوبا فى بيئة فقيرة.. وقد يفسد فى محيط غنى. قد يتحمل المسئولية عن محيطه فى سن مبكرة.. وقد يظل قاصرا فى تفكيره حتى مع تقدم العمر.وحينما اجتمعت مع أنتونى كوين بعد ذلك مرة أخرى فى مكان إقامته بمدينة لوس أنجلوس الأمريكية.. فوجئت به يتطلع إلى بعض الخدم المكسيكيين العاملين فى بيوت كبار الأثرياء وفجأة أشار إلى أحدهم، وهو يقول لي: لقد كنت فى مثل سنه حينما جئت إلى هذه المدينة لأول مرة باحثا عن مستقبلى.

قلت له مداعبا: لكنك على الأقل لم تكن فى سن السادسة.. وإلا كنت قد انطلقت فى ذكرياتك بنفس التحديد والوضوح !

□□□

هذا يعيدنى من جديد إلى الطفل الكوبى إيليان جونزاليز. طفل فى السادسة . فبعد سبعة أشهر قضاها محتجزا فى أمريكا.. سمح له القضاء الأمريكى فى نهاية المطاف بالعودة مع أبيه إلى وطنهما كوبا. عودة تمت فعلا فى ٢٩ يونيو الماضى .

مع عودته أعرف أما مصرية كانت تتابع الخبر تليفزيونيا وإلى جوارها أحد أطفالها.. واسمه حسام. الأم كانت فرحة لعودة إيليان – الذى لا تعرفه ولا تعرف بلده – أخيرا إلى أهله ومدرسته. لكن طفلها حسام لم يكن فرحا بنفس القدر قائلا لأمه: يا ماما.. نحن هنا انتهينا من امتحاناتنا فى المدرسة .. هذا معناه أن إيليان ضاعت عليه الامتحانات وضاعت عليه السنة! فوجئت الأم بالملاحظة.. ففكرت لحظة قبل أن ترد: لن تكون هذه مشكلة .. فيمكن للمدرسة أن ترتب له امتحانا خاصا مراعاة لظروفه ..

رد عليها طفلها من جديد: جائز بعد كده زملاؤه يعايرونه فى المدرسة.. بأنه ينجح بالكوسة !.. يعنى بالواسطة ! تلك هى أيضا كل اهتمامات طفل مصرى.. طفل فى السادسة !

❑❑❑

البعض فسر عودة إيليان إلى بلده بأنه انتصار للاستبداد على الديمقراطية. والبعض قال: إنه إذعان من الدولة الأقوى فى هذا العالم إلى الدولة الصغيرة فى محيطها. فى الواقع إن الفائز الوحيد فى كل تلك الدراما هو الطفل نفسه الذى عاد إلى محيطه وبيئته الطبيعية.. بغير أن نحشر السياسة فى غير مكانها.

أما مكان السياسة فيوجد لدى الجالية الكوبية فى الولايات المتحدة. جالية من المهاجرين الكوبيين الذين أصبحوا مواطنين أمريكيين بداخلهم مخزون من الكراهية ضد كوبا ونظامها السياسى. هم أحرار فى «التمتع» بهذا المرض. لكن ما ليسوا أحرارا فيه هو محاولتهم جعل السياسة الخارجية الأمريكية نحو كوبا رهينة فى أيديهم.. حتى ولو كان هذا ضد مصالح أمريكا نفسها.

أقول هذا ونحن – كعرب – نعانى أيضا من شىء مشابه. نعانى من جالية يهودية صهيونية فى أمريكا.. نشيطة ومنظمة وفعالة.. مع أنها لا تمثل أكثر من اثنين بالمائة من الشعب الأمريكى. هؤلاء «الاثنان بالمائة» يصبون فى الحياة السياسية الأمريكية قدرا استثنائيا من الكراهية ضد كل ما هو عربى.. ولحساب كل ما هو إسرائيلى. انها قصة أخرى .. أما فى اللحظة الراهنة فيكفينى أن أتذكر أنه بعودة طفل فى السادسة إلى أسرته وأهله ومدرسته.. يصبح الأمل فى عالم أفضل أكثر قوة .. وأقرب منالا.

❑❑❑



لبنان .. بالزيتون والرصاص والجبنة !

لبنان. حالات وصور. في الغناء مثلا شجن قليل ورقص كثير. ناس رايقة وفايقة تريد أن تنبسط وتعيش لحظتها وتدع الخلق للخالق. أحيانا تنفعل بشدة مع فيروز وهي تغني: «حبيتك بالصيف.. حبيتك بالشتا».. وأحيانا تفاجئك - مثل صباح - وهي تشكو من حبيبها لأنه: «عالعصفورية.. وصلني بأيده.. وما طل علي». أين الغلط؟ ولماذا الشكوى وقد وضعها الحبيب مع الطيور والعصافير وكل ما هو رقيق؟! لكن.. انتظر. لأن «العصفورية» في اللهجة اللبنانية هي.. هي.. هي: مستشفى المجانين!!.

بين وقت وآخر يفاجئك لبنان بشيء من العقل.. فيختار وديع الصافي مثلا معنى غير مألوف حينما يغني: «الله يرضى عليك يا ابني.. ضهري انكسر والهم دوبني.. سوسو ما عندها عليك حنية. ومعودة ع الرقص ليليه». إذن.. هل أصبح اللبناني يكره الرقص لنفسه ولابنه؟ انتظر مرة أخرى. فوديع الصافي يرشح عروسا لابنه - اسمها ليلى فيغني له: «خذ ليلى.. بنت ضيعتنا.. بتعيش يا ابني مثل عيشتنا.. ليلى يا ابني إن جارت الأيام.. بتعيش عالزيتون والجبنة.. صار لي عمر يا ابني أربي فيك.. يا ابني ع درب الخير عم باهديك. خذا ليلى ولا تعذبني. الله يرض عليك يا ابني».

يعني الحكاية إن الحياة الحقيقية فيها ما يتجاوز الرقص. الحكاية فيها زيتون وجبنة وتحسب لشدائد الأيام.

في ٢٤ مايو سنة ٢٠٠٠ عاش لبنان الوطن ذروة الشدائد وأجمل الأيام. ذروة لبنان.. والزيتون والجبنة.. والرصاص والمقاومة والانتصار.. وتحرير لبنان من احتلال اسرائيلي استمر ٢٢ سنة.

❑❑❑

لبنان. حالات وصور. مواطنة لبنانية شابة - صحفية بالمناسبة - اسمها «كوزيت» ترددت صورتها حول العالم نقلا عن وكالة الأنباء الفرنسية. المواطنة الشابة جرى تحريرها للتو من سجن «الخيام» الإسرائيلي الشهير مع ١٤٣ آخرين. بمجرد فرار الاحتلال الاسرائيلي لحق به عملاؤه اللبنانيون من ميليشيا أنطوان لحد تاركين أسلحتهم وما رخص من ملابسهم.

لقد قام خمسمائة مواطن لبنانى باقتحام السجن وتكسير أبوابه وسط زغاريد النساء. المعتقلون خرجوا من الزنازين إلى ضوء الشمس لأول مرة. فبعضهم معتقل بلا محاكمة وتحت التعذيب منذ نحو ١٥ سنة. الصورة هنا لهذه المواطنة اللبنانية الشابة حاملة فى يدها اليسرى زجاجة ماء. أما يدها اليمنى فتلوح بها عاليا بعلامة النصر. ربما سنعرف لاحقا الأهوال التى عاشتها داخل السجن.

أما فى اللحظة الراهنة فوجهها المبتسم يقول كل شىء.. تشير بيدها إلى أعلى، والصليب يتدلى من سلسلة بسيطة فى عنقها، وإلى جوارها سيدة لبنانية مغطاة الرأس عريضة الابتسامة. فى الخلفية شبان لبنانيون مسلحون ومرفوعو الرؤوس. ملفت تماما أنهم جميعا مرفوعو الرؤوس. ملفت أيضا أن المواطنة مسيحية.

لبنان. حالات وصور. فى خط الحدود مباشرة بين إسرائيل ولبنان هذه ثلاثة مدافع اسرائيلية - برواية وكالة رويترز - هجرها جنود الاحتلال نجاة بجلودهم. فى قلب الصور خمس نساء. إحداهن تحمل رضيعا إلى صدرها بيدها اليسرى، بينما تمسك بيدها اليمنى طفلة لها فى سن أقل من العاشرة. الأب الغائب من الصورة. ربما كان من شهداء الاحتلال، أو يقوم فى تلك اللحظة بمهمة أخرى لتطهير الأرض المحررة. لكن الصورة أمامنا لنساء وأطفال يريدون التأكد بأعينهم من مصير احتلال ونهاية كابوس.

لبنان. حالات وصور. فى خط الحدود مباشرة بين لبنان وإسرائيل يقف جندى إسرائيلى «متمترسا» بسلاحه الأوتوماتيكى الموجه إلى أسفل. على مسافة مترين أو ثلاثة يوجد السياج الفاصل، وبعده مباشرة مواطنون لبنانيون متحمسون. بعضهم يرفع علم لبنان. بعضهم يرفع راية «حزب الله». وسطهم شيخ يحمل طفله فوق كتفيه، حتى يملأ الطفل عينيه بالمشهد فيتذكره مستقبلا لو حاول أحد ترويعه أو إرهابه بكابوس آخر.

لبنان. حالات وصور. امرأة لبنانية عائدة لتوها من إسرائيل عبر نقطة حدود. قبل الصورة كانت ترتعد خوفا لأنها أصلا فرت إلى إسرائيل رعبا وخوفا. المرأة لها زوج يعمل فى ميليشيا أنطوان لحد العميل لإسرائيل.. وغائب منذ أيام فى مهمة بإسرائيل لا تعرفها هى. فى تشوش الانسحاب الإسرائيلى وفراره كادت المرأة تفقد رشدها، ففرت من بيتها فى بلدة «بيت جبيل» مع طفليها. فى إسرائيل وجدت نفسها مع آخرين تنتظر الساعات فى خيمة ببلد غريب، لا تعرف به أحدا، ولا يهتم بها أحد - على حد قولها - . هكذا انسحبت فى هدوء عائدة مع طفليها إلى الحدود سيرا على الأقدام محاولة التغلب على الرعب الآخر فى داخلها من المصير الذى قيل لها إنها ستواجهه على أيدى مقاتلى «حزب الله» المسلمين. عند الحدود نقلتها سيارة الأمم المتحدة إلى قريتها. بمجرد أن نزلت من السيارة مع طفليها أحاط بها شباب المقاومة اللبنانية - من «حزب الله» وغيره -

مقدمين لها زجاجة مياه قائلين لها: لا تخافي.. فلن يصيبك مكروه. بعد دقائق أصبحت في منزلها وسط أقربائها وأحضانهم ودموعهم.

❑❑❑

إســرائيل. بعض صور. الصحف تنشــر البيان الرسمي بانســحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان بلا قيد ولا شــرط. الانســحاب ـ الفرار ـ تاريخه فجر ٢٤ مايو سنة ٢٠٠٠. مع البيان صورة بعرض الصفحة الأولى لجنود إســرائيليين غمر الفرح وجوههم، بينما أحدهم يتحدث في تليفون. العنوان فوق الصورة هو: «ماما.. غادرنا لبنان»!. صحيفة إسرائيلية أخرى عنوانها هو: «الإذلال».

إســرائيل. بعض صور. الجنرال اللبناني أنطوان لحد يتحدث بمرارة إلى صحيفة إســرائيلية. يتحدث عن خديعة إســرائيلية له: «قلتم لنا دائما إننا حلفاؤكم. لكنني فجأة أدركت أن إســرائيل لا تخدم إلا نفسها». هو سافر إلى بيته الآخر في باريس ، مطمئنا إلى أن الوقت متسع.من باريس اســتمر يتصل تليفونيا برؤســائه في إســرائيل. كله تمــام. حتى وهو في مطار باريــس عائدا إلى إســرائيل. كله تمام. ثم هبط في إســرائيل ليفاجأ بالانهيار – أو هكذا يقول! إنه يقول أيضا: «لقد تركتم الشــريط الحدودي من دون وضعي في الأجواء، وتركتمونا خلفكم مثل الحيوانات.. الآن كل شيء انتهى.. الآن لا تنادوني بالجنرال». له حق. اسمه العميل.. أو الخائن. لكن ليس الجنرال.

❑❑❑

الصور كثيرة والمفارقات أكثر. إسرائيل هي إسرائيل. لكن الذي تغير هو لبنان. لبنان في طبعته الجديــدة مفاجيء ومدهش للجميع.. أصدقاء وخصوما. مدهش حتى لمواطنيه. لا أحد يتوهم للحظة أن لبنان في قوة إســرائيل عســكريا.. أو حتى قادر على منعها من غزوه مرة أخرى كلما ناســبها ذلك. الذي تغير هو المواطن اللبناني نفســه. مواطن سنة ٢٠٠٠ أكثر ثقة بنفسه وبشعبه وببلده. هو لم يحارب إســرائيل رأســا برأس. حاربها رأسا بدبابة. لقد تصرف بســلاح محدود تماما بيده في مواجهة القوة العسكرية الضاربة في الشرق الأوسط بكفالة أمريكية.

لم يكن مشــوار المقاومة مجانيا، ولا كان نزهة. كان مشــواراً مــن التضحيات والدمار والخراب والحرائق والدموع. حتى أســابيع قليلة سابقة كانت إســرائيل تهدد بحرق لبنان. هي فعلا قادرة، لأنها فعلت ذلك بالضبط مرات عديدة ســابقة. لقد مارســت ضد لبنان عقابا جماعياً حول الشــعب اللبناني كله إلى رهائن للقصف المستمر من طائراتها. في إحدى الحملات الإسرائيلية الكبرى قالت إسرائيل صراحة وعلنا وبكل تبجح إن هدفها من القصف العشوائي على مدار الساعة هو إرغام نصف المليون لبناني في الجنوب على الهجرة شــمالا إلى العاصمة بيروت، ســعياً إلى الضغط على حكومة لبنان، أملا في الضغط على حكومة ســوريا، تعجيــلا للضغط على حكومة إيران، وصولا إلى الضغط على «حزب الله» والمقاومة الوطنية في الجنوب.. فيتوقفوا عن مضايقة الاحتلال الإسرائيلي!

لم تفكر إسـرائيل أبدا في أن أقصر الطرق هو أكثرها اسـتقامة. لم تفكر أصلا في أن لبنان دولة مستقلة. إسرائيل نظرت إلى لبنان دائما باعتباره ورقة في يدها ولحسابها ضد باقي العالم العربي. وفي سـنوات جولدا مائير كرئيسة لوزراء إسرائيل كانت تقول دائما: «إنني لا أعرف - بعد - من تكون الدولة العربية الأولى التي تسـعى إلينا صلحا، لكني متأكدة أن لبنان سيكون الدولة الثانية» تعني: إن كانت المسألة هي لبنان، فلبنان في جيب إسرائيل وجاهز لحسابها. المهم هم الآخرون.

لبنان لم ينظر إلى نفسـه أصلا على أنه في جيب إسـرائيل أو غيرها. لبنان في جيب اللبنانيين. وبصرف النظر عن أن كل ما ساهم به في حرب فلسطين الأولى كان مجرد ألف عسكري ببنادق خفيفة.. فإن لبنان كان هو الدولة العربية الأولى التي اختارت أن تكون في حالها وتترك إسرائيل لحالها.

لبنـان عربي. طبعـا. لكنها عروبة علـى الهادى.. وفي الطـراوة.. ومع المزات والمشـهيات! واللبنانيون أحبوا الحياة لأنفسهم ولغيرهم. أحبوا التفاح والأزياء والموضة والدبكة والتبولة والكبَّة والمواويل السياسية شعرا.. وحين ميسرة! أحبوا أم كلثوم وفيروز ووديع الصافي ومحمد عبدالوهاب والمصارى.. وفرنسا شعرا.. وأمريكا نثرا. أحبوا جبلهم وثلوجهم وأمطارهم زخات.. زخات. أحبوا فـي الحياة لونها اليمبى.. والدنيا ربيع والجو بديع و«قفلـي على كل المواضيع». والرجل اللبناني حينما يراك منزعجا من شخص فأسهل رد عنده هو: ما تدير بالك.. بكير أنا أقوصه. يعني باكر هو سيطخه.. يقتله.. بالرصاص. لا تقلق. باكر سيجييء وهو لن يقتل أحدا - لن يقوصه - بالرصاص.. لأنـه بلا رصاص! والفتاة اللبنانية حينما تقول «تقبرني» فقد يصاب المواطن العربي الآخر بالخضة والارتباك لأن هذه الفتاة تتكلم بتلك البسـاطة عن القبر والموت وما أشـبه. هي لا علاقة لها بالموت. هي تقول «تقبرني» حبا في الحياة وغراما .

في تلك الطبعة الأولى من لبنان هو يريد من الآخرين أن يتركوه في حاله ليعيش ويغني ويرقص ويتاجر ويجمع كبوش التوت ليضيع القلب في بيروت، ويذهب العقل إلى بلاد المهجر، حتى يعود بالمال والنفوذ. الآخرون جميعا تركوا لبنان في حاله.. إلا إسرائيل.

إسـرائيل كدولة قامت في سـنة ١٩٤٨. وأول رئيس لحكومتها كان ديفيد بن جوريون. لكن في سنة ١٩٣٧ - يعني قبل قيام إسرائيل بإحدى عشرة سنة - وضع بن جوريون عينه على لبنان تحديدا قائلا: «لبنان هو الحليف الطبيعي لليهود في أرض إسرائيل.. إن قرب لبنان منا جغرافيا سيجعله حليفا للدولة اليهودية بمجرد قيامها».

بعد قيام إسرائيل كدولة، ومن الدقائق الخمس الأولى في حياتها، شرع بن جوريون في ممارسة أفكاره عمليا. لم يكن في بال لبناني واحد مطلقا أن بلده الصغير المسـالم هذا بند محورى وجوهرى وأساسي في خطط الدولة الوليدة لتوها.. إسرائيل. مع ذلك فقد بدأ أول رئيس حكومة لإسرائيل في تبادل الأفكار كتابيا مع وزير خارجيته موسى شاريت. أفكار وخطط محورها: علينا أن نبحث عن

ضابط مارونى صغير نستأجره لحسابنا فى لبنان، وندفعه إلى إقامة دويلة صغيرة للمارونيين، نقوم نحن بدعمها وتمويلها وحمايتها واستخدامها تقسيما للبنان وضربا وإضعافا للآخرين. تلك وغيرها أسرار إسرائيلية موثقة جرى الكشف عنها بعد سنوات طويلة.

حينما تبادل رئيس وزراء إسرائيل رسائله السرية تلك عن لبنان مع وزير خارجيته لم يكن هناك - بعد - جمال عبد الناصر ولا خوميني ولا عرب محيط أو خليج ولا جندى سورى واحد ولا «حزب الله» ولا أيضا أى وجود سياسى للشيعة ولا نفوذ إيرانى ولا حتى طائرة عسكرية لبنانية واحدة يملكها لبنان.. ببساطة لأن موارده على قد الحال ومواطنيه مشغولون بالحياة برا أو بالترحال بحرا وجوا إلى بلاد الله سعيا إلى الرزق.

فكرة لبنان فى هذا كله هى ظروفه وتركيبته الخاصة. زائد الفكرة الأهم.. وهى أنك إذا تركت الشر فى حاله.. فسوف يتركك الشر فى حالك. العرب سايروا لبنان فى تفكيره هذا وأخذوه بعقله. والعقل اللبنانى رفع شعارا خلاصته هو أن لبنان طالما تصرف كدولة ضعيفة مسالمة ماشية جنب الحيط.. وتعمل بهمة لجذب السياح والخروج من جيوبهم بالمصارى.. فكله تمام !

لكن فكرة إسرائيل عن لبنان كانت مختلفة تماما. لبنان ضعيف. لبنان مسالم. لبنان فى حاله. إنما لبنان أيضا بلد أقليات. هناك غالبية مسلمة وأقلية مسيحية. إنما تحت هذا العنوان العريض هناك مسلمون سنة. ومسلمون شيعة. ومسلمون دروز بالمقابل. بل هناك مسيحيون. إنما بين المسيحيين هناك موارنة. كاثوليك. وأرثوذكس. فى كل هؤلاء من يستقوى لنفسه بالعروبة. ومن يتطلع إلى فرنسا. ومن يتطلع إلى مصر.. أو سوريا. أو أمريكا.. وفى كل الأحوال يتطلع إلى جيبه. إلى «المصارى» التى هى أصلا صفة للعملة المصرية حينما كان المصريون قبل مائة سنة هم الأكثر توجها إلى لبنان للاصطياف .

فكرة إسرائيل فى هذا كله هى استخدام لبنان لضرب العرب جميعا.. من خلال رفع حجة «الدفاع عن الأقليات».. بدءا من المارونيين.. وانتهاء بإلغاء لبنان ذاته ليصبح محمية إسرائيلية .

هكذا بدأت الحرب الأهلية فى لبنان سنة ١٩٧٥. بدأت بفعل فاعل. وبحجة مبدئية هى تخليص لبنان من سيطرة أربعمائة ألف لاجىء فلسطينى وأسلحتهم. فجأة.. فى لبنان.. البلد الصغير الضعيف المسالم المتعايش مع بعضه بدأ القتل الأعمى من وداخل كل طائفة ودين. البلد كله تحول إلى «عصفورية».. إلى مستشفى مجانين !

لكن الخيوط كلها لم تكن بأيدى مجانين.. وإنما مخططون. فى سنة ١٩٧٨ قامت إسرائيل بغزوتها الأولى ضد لبنان. وفى ١٩٨٢ قامت بغزوتها الكبرى الثانية.. فأصبحت داخل قصر رئيس جمهورية لبنان ذات نفسه بقلب بيروت. بعد فترة انسحبت إسرائيل لكنها احتفظت بنحو ألف كيلومتر مربع تحت احتلالها داخل لبنان، وأطلقت عليها اسم «الحزام الأمنى».

لكن اللبنانيين كانوا قد استوعبوا الدرس. ولو متأخرين. درس أن صاحب الأرض هو المسئول عن تحريرها. وهكذا بدأ سكان الجنوب اللبنانى وهم بالمناسبة الأكثر فقرا فى كل لبنان - ينظمون أنفسهم فى تنظيمات مقاومة وطنية، أبرزها «حزب الله» الذى لم يكن موجودا قبل سنة ١٩٨٢. مقاومة حقيقية جادة.. تضرب وتختفى. وهى تضرب المحتل الإسرائيلى فقط ومن أصبح عميلا له. لم تكن مواجهة متكافئة بالمرة.. فإسرائيل هى القوة العسكرية الضاربة فى كل الشرق الأوسط. بينما أفراد تلك المقاومة الوطنية اللبنانية أقل من خمسة آلاف يقاتلون لحساب وطنهم.. لا لفئة ولا لطائفة ولا لمذهب. هكذا بدأ يولد لبنان الجديد. لبنان الذى أعاد اكتشاف معنى الوطن والأسرة والتعايش والمقاومة والتحالفات الصحيحة.. مواجهة للأخطار المؤكدة. بعد ٢٢ سنة من الاحتلال الإسرائيلى المباشر، اكتشفت إسرائيل أيضا – ولو مؤقتا – أن لبنان الضعيف هذا يصبح قويا بوحدته الوطنية.. وبالتمييز بين الحليف والعدو يتضح أنها هى العدو. هكذا لجأت إسرائيل إلى الأمم المتحدة بعد طول كراهية، واستغاثت بفرنسا بعد طول رفض، وخرجت من لبنان بسرعة.. متخلية حتى عن العملاء الذين استأجرتهم هى ضد شعب لبنان!

لقد تظاهرت اسرائيل بأنها تنسحب تنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥.. الذى صدر أصلا فى سنة ١٩٧٨ مطالبا إسرائيل بالانسحاب الكامل من لبنان.. واستمر حبرا على ورق إلى أن نجحت المقاومة اللبنانية المسلحة فى إرغام إسرائيل على تنفيذه بعد أن استمرت تتجاهله ٢٢ سنة.

إسرائيل دخلت لبنان بحجة إنقاذه.. فانتهت إلى تخريبه. وإسرائيل حرضت بعض لبنان ضد بعضه الآخر، ودفعت كل طائفة ضد الأخرى، فانتهت إلى توحيد كل لبنان ضدها. وإسرائيل عاقبت شعب لبنان جماعيا، وأظلمت مدنه.. فانتهت إلى أن تهرب هى فى جنح الظلام. وإسرائيل خططت تنفيذ انسحابها فى يوليو فإذا بها تضطر صاغرة إلى الفرار فى مايو. وإسرائيل أطلقت على منطقة احتلالها فى الجنوب اللبنانى اسم «الحزام الأمني» فأصبحت تلك المنطقة تحديدا هى الأقل أمنا بالنسبة لإسرائيل.

لم يكن فى القصة لغز ولا سر. كان فيها فقط لبنان جديد يواجه إسرائيل بسلاحه هو.. وليس بسلاحها. إنها مواجهة بين إرادة القوة فى جانب وقوة الإرادة فى جانب آخر. القوة تستطيع أن تدمر وتحرق وتحتل. لكنها لا تستطيع أبدا أن تحقق الأمن للاحتلال.

ودرس آخر: لقد بدأ لبنان بأن ترك إسرائيل فى حالها.. لكنها إسرائيل التى لم - ولن - تتركه أبدا فى حاله. لقد تجبرت إسرائيل بقوتها على لبنان الضعيف المسالم. ولبنان أرغم إسرائيل على أن «تخطف نيلها فى أسنانها» وتنسحب فجرا بلا قيد ولا شرط!

بالزيتون والجبنة، والرصاص والمقاومة، والوحدة الوطنية.. يستحق اللبنانيون فعلا وطنهم الجديد هذا.. الذى ولد صوتا وصورة فجر الرابع والعشرين من مايو سنة ٢٠٠٠.

آه .. يا بلد الدروس الخصوصية !

غمرتنى الحيرة فى كل مرة أمسكت فيها بالقلم لكى أكتب فى موضوع محدد يشغلنى منذ مدة.. موضوع نظامنا التعليمى المعاصر من أساسه. فى الموضوع أطراف عديدة.. من الأسرة إلى المدرسة إلى الجامعة إلى الطالب نفسه. فى الموضوع أيضا مجتمع واسع وقيم محددة يريد أن يزرعها مبكرا فى نفوس وعقول أبنائه. فى الموضوع كذلك مصالح اقتصادية وسياسية عاتية، حتى لو بدأنا بمجرد ظاهرة الدروس الخصوصية التى أصبحت متفشية كالوباء.. بحيث انقلبت الآية وأصبحت الدروس الخصوصية هى الأصل والمدرسة هى الفرع .

الآن لم تعد مصر هى بلد الأهرام والسد العالى. أصبحت بلد الدروس الخصوصية. لقد سافرت إلى عشرات الدول الأجنبية شرقا وغربا وشمالا وتأملت مجتمعات متقدمة من أمريكا إلى اليابان.. ومجتمعات نامية من نيبال إلى موريتانيا.. فلم أجد فى أى بلد مثل هذا الكابوس فى كل منزل. كابوس الدروس الخصوصية .

وفى جميع مراحلى التعليمية، من المدرسة إلى الجامعة، اعتبرت نفسى محظوظا لأن التعليم الذى تلقيته كان عاديا فى جوهره، والتعليم العادى الذى أقصده هو ذلك الذى تتكافأ فيه فرص الجميع ويتشرب الناس منه أهم قيمة على الإطلاق.. قيمة الاعتماد على الذات.

فى مدينتنا الصغيرة كانت هناك مدارس حكومية عديدة ومدرسة خاصة واحدة اسمها «مدرسة العدوى». وبعكس ما أصبح رائجا حاليا فإن صورة المدرسة الخاصة فى أذهاننا كانت سلبية تماما. حيث الأصل هو الالتحاق بمدرسة حكومية لأن التعليم فيها جاد ومنضبط ومجانى وبوابة المدرسة يتم إغلاقها فى الموعد المحدد كل صباح ولو حدث أن تأخر أحدنا دقيقة واحدة، ومهما يكن وضعه الاجتماعى أو عذره الشخصى، فإن النظام هو النظام .

فى المقابل كانت المدرسة الخاصة الوحيدة غير ذلك. بالطبع هى بمصروفات. لكن الأهم هو أن الذين يلتحقون بها هم التلاميذ الذين تخلصت منهم المدارس الحكومية بسبب سوء السير والسلوك أو عدم الانضباط أو لتعدد مرات الرسوب أو مجرد الرغبة فى الحصول على شهادة بأى تكاليف وبأقل مجهود.

من المدرسة الإعدادية الحكومية، تعلمت حب القراءة. بل إن ناظر المدرسة نفسه كان يؤلف كل سنة مسرحية من فصل أو فصلين.. ثم يختار بنفسه التلاميذ الذين يوزع عليهم أدوار المسرحية. وبعد التدريبات - أو شيء كالتدريبات - تتم دعوة المدرسة كلها للاحتشاد فى الفناء الخلفى حتى نؤدى المسرحية أمامهم وسط التصفيق الحاد. لكن الأهم من ذلك هو المسابقة السنوية فى القراءة والتى تكون جوائز التفوق فيها مجموعات من الكتب المتنوعة يجيء مندوب المنطقة التعليمية لتسليمها للفائزين مع التقاط الصور التذكارية التى احتفظ بها حتى الآن .

لا أقول: إننا كنا جميعا - أبناء الفصل الواحد - نحب القراءة بدرجة متساوية. فبعضنا كان يهوى الرياضة أو مشاهدة أفلام السينما أو الرحلات فى الإجازات.. إلخ. لكننى أقول فقط. إن النظام التعليمى كان حريصا على أن يكون لكل منا هوايته الخاصة التى يحبها ويتفوق فيها إلى جانب الدراسة .

وفى حالتى الخاصة كان طبيعيا أن تشدنى فى البداية مجلات الأطفال ثم قصص أرسين لوبين البوليسية المسلية، ومع الوقت بدأت أرتقى إلى الروايات ثم الكتب الأكثر جدية. وفى تسعين بالمائة من الحالات كنت أستفيد فى ذلك من المكتبة العامة فى المنصورة.. وهى مكتبة كانت تقع فى حينها على النيل مباشرة فى موقع شديد الجمال والجاذبية والهدوء. وبعد فترة بدأ أمين المكتبة نفسه يشجعنا على استعارة الكتب خارجيا بشرط المحافظة عليها واعادتها فى الموعد المحدد.. ولأننى اعتدت الذهاب إلى المكتبة مع زميل صديق فى نفس فصلى الدراسى، اسمه سمير جرجس، فقد أصبح أمين المكتبة يرعى قراءاتنا كما لو كان أبا إضافيا لنا .

مع الأحداث الجارية بدأت أتعلق بقراءة الصحف - جرائد ومجلات. ولأنها لم تكن متوافرة فى المكتبة العامة، ولأن المصروف الشخصى لم يكن قادرا على الوفاء بالمهمة، فقد اتفقت مع اثنين من باعة الصحف على الاستعارة منهما.. ولمصلحة الطرفين. فالمجلة الأسبوعية التى تصدر فى القاهرة يوم السبت مثلا يشحنونها إلى الأقاليم مساء الجمعة. وتظل فى حوزة البائع ثلاثة أيام على الأقل. وبحسبة بسيطة كنت أستعير المجلة من البائع مساء الجمعة كى أعيدها إليه بعد يوم أو يومين على الأكثر فيسجلها هو ضمن مرتجعاته. هكذا أكون بامتداد الشهر قد قرأت كل الصحف المتاحة مقابل ملاليم.. ويكون البائع نفسه قد استفاد هو الآخر حتى ولو بالملاليم .

لابد أن «القراء الصغار» من أمثالى كانوا ظاهرة عامة أرقت دور الصحف فابتكرت لها الحلول. مثلا.. أصبحت المجلة تصدر مقصوصة من جانبين فقط بحيث لابد لمن يقرأها أن يقوم هو باستخدام السكين أو المقص لفتح الطرف الأعلى غير المقصوص.

والفكرة هنا هى عدم قبول أية مرتجعات من البائعين يكون قد جرى قصها من أعلى. لكن اللعبة لها أيضا لعبتها المضادة. فالقراء الصغار أمثالى دربوا أنفسهم عمليا على قراءة المجلة بغير الاضطرار إلى قص طرفها الأعلى.. وإن يكن بقدر من الصعوبة.

من القراءة بدأت أعيد اكتشـاف كتاب كبار مثل طه حسـين.. أو اكتشـاف كُتاب جادين بحجم أحمد بهاء الدين.. أو سـاخرين بحجم محمد عفيفى.. أو رسـامى كاريكاتير موهوبين بحجم صلاح جاهـين وبهجت وحجـازى.. بغير أن أدرك فـى حينها أن معظم هؤلاء سـتربطنى بهم فيما بعد علاقات شخصية وثيقة .

ولأن القراءة هى أصلا هواية أساسها حب الاطلاع والمعرفة.. فقد اعتدت منذ صغرى على التعامل مع كتبى، وحتى كراريسى المدرسية بعشق يجعلنى أشترى ورق تجليد خاص أزرق اللون للمحافظة عليها.. الورق كنا نشـتريه مـن المكتبات أفرخا كاملة.. ثم يقوم المـرء بقصقصة ما يكفى لمقاس كل كراس وكتاب.. حتى لا تبلى الأغلفة سريعا من كثرة الاستخدام. ومن الملفت هنا أننى مازلت أحتفظ حتى الآن بالكثير من كتبى الدراسـية من الإعدادى إلى الثانوى إلى الجامعة، وفى كل كتاب توجد علامات بالقلم الرصاص والمسطرة فى الصفحات التى أحب أن أركز معانيها تلخيصا للمضمون .

بامتداد سـنواتى الدراسـية، وبكل مراحلهـا، لم يحدث فى أى وقـت أن احتجت إلى مدرس خصوصـى، لا أقـول ذلك إيحاء بأننى كنت خارقا.. لكن تأكيدا على أننى كنت «الشـخص العادي» ففى أيامنا كانت الدروس الخصوصية عورة تسـىء إلى من يتلقاها.. وتسـىء أكثر إلى من يعطيها. فالمدرسون معنا فى المدرسة والكتب فى أيدينا.. والدراسة جادة.. وبعد ذلك فليتنافس المتنافسون .

بـين وقت وآخر كانـت تحدث مطبات. فى السـنة الثانية الإعدادية مثلا جاءت الشـهادة من المدرسة مسجلة الخبر الجلل. خبر أن ترتيبى الدراسى بين تلاميذ الفصل قد تراجع بالمرة .

والأهم من ذلك أن عندى فى الشـهادة ثلاث «كعكات» و«الكعكـة» هنا هى دائرة بالقلم الأحمر تسـجلها المدرسـة على الدرجة التى حصلت عليها فى إحدى المواد.. تنبيها لولى الأمر بأن التلميذ المقصود هنا مهدد بالرسوب فى هذه المادة. الآن عندى بدل «الكعكة».. ثلاث .

حينما يلعب الأطفال معا فى تلك السن ويرغب أحدهم فى الخشونة.. فإنه يعاير زميله بما يراه نقصا فيه. وذات يوم رآنى أبى مكتئبا ومنزويا فسـأل أمى عن السـبب، وببسـاطة ردت هى عليه: لعب عيال.. أصحابه عايروه بالثلاث «كعكات» فى الشـهادة فخاصمهم وانسحب من الشارع وأصبح على هذه الحال .

فى لحظتها لم يبد أبى اهتماما يذكر لكنه فى أول فرصة أغلق باب الحجرة جالسا يتحدث معى بلهجة يختلط فيها الحزم مع المودة.. قال لى: اسـمع جيدا ما سـأقوله لك الآن لأننى لن أكرره مرة أخرى.. حينما ترتكب خطأ يجب أن تتعلم شجاعة أن تحاسب نفسك عليه بدل أن تلوم الآخرين.. أنـت كنت مجتهدا فى الدراسـة لكنك فى المرة الأخيرة تخلفت. أنا لا يهمنى فى شـهادتك كعكة واحدة أو ثلاثاً أو حتى عشراً. يهمنى أن تتعلم أنت الدرس، والدرس هنا هو أنك لم تستذكر كتبك

بما فيه الكفاية فتخلفت عن زملائك.. وهم ليسوا أفضل منك إلا بمجهودهم. فإذا كنت حزينا حقا لهذا السبب عليك أن تثبت ذلك عمليا بأن تعود إلى التفوق فى المرة المقبلة. مخاصمتك لزملائك ليست الحل.. انسحابك من الشارع ليس الحل. إنما الحل هو أن تعطينى الآن وعدا من رجل بأنك ستكون متفوقا فى شهادتك المقبلة.. أنا لن أحدد لك كيف تذاكر أو متى تلعب.. أنا سأعتمد فقط على كلمتك لى الآن.. كلمة رجل لرجل.. مفهوم ؟

الشيء الملفت هنا تماما، بعد كل مامضى من سنوات العمر، هو استخدام أبى لتعبير «كلمة رجل لرجل».. لقد ولّد هذا التعبير فى داخلى إحساسا غريبا وممتعا بالمسئولية. فى حينها لم يكن الأهل يساعدوننا فى المذاكرة.. لم تكن هناك أيضا بالمرة بدعة الاستعانة بمدرسين خصوصيين.. لكن قيمة الاعتماد على النفس كانت هى الأكثر أهمية، وحينما يكتسب المرء تلك القيمة فى سن مبكرة تلازمه بعد ذلك طول العمر.

وكما وعدنى أبى على انفراد فإنه لم يفاتحنى بعدها مطلقا فى شئونى المدرسية، وإذا كان يتابعنى من بعيد فلابد أن هذا لم يكن ظاهرا لى.. الشيء الوحيد الذى طغى على هو أن أفى له بوعدى الشخصى. وعد: رجل لرجل.

حينما جاءت الشهادة التالية كانت هى فى الواقع شهادة إتمام المرحلة الإعدادية.

لم أكن متفوقا فقط على مستوى المدرسة.. وإنما على مستوى كل المنطقة التعليمية بمحافظة الدقهلية وجميع مدارسها الإعدادية.. الآن أصبحت من العشرة الأوائل على مستوى كل مدارس المحافظة.

بالطبع كان أهم شخص فى حياتى يهمنى صدى النتيجة عنده.. هو أبى. وسواء أكان السبب هو حالته الصحية شبه المعتلة أخيرا.. أو لأنه كان قد نسى كلامه معى قبل سنة.. فإن درجة ترحيبه بالنتيجة ومكافآته لى عنها.. جاءت بأقل مما توقعته. هو فى مرضه لم يكن يحب الشكوى مطلقا بما جعله يبدو بالنسبة لى وكأنه محصن ضد المرض. وهو فى حزمه أيضا لم يكن قاسيا.. لكنه أيضا لم يكن يحب التدليل.

ومرة أخرى انفرد بى فى أول فرصة ليقول لي: أنا لم أنس اتفاقى معك فى العام الماضى. إنما الذى يهمنى أكثر أنك أنت الذى لم تنس وعدك لى. وعد رجل.. لرجل. الآن أنا مطمئن إلى أنك استوعبت الدرس. تقصيرك فى العام الماضى لم يكن كارثة. وتفوقك فى هذه السنة ليس معجزة. فقط لا تنس أن حلاوة النجاح هى بقدر اعتمادك على الذات وثقتك بنفسك. أنت قصرت فتراجعت.. وأنت اجتهدت فتفوقت.. و... و.. و.. الآن اغرب عن وجهى فأنا أريد أن استريح.

برغم الجملة الأخيرة من كلمات أبى – والتى لم أدرك مغزاها إلا بعد أسابيع قليلة – فإننى اعتبرت كلمات أبى أكبر وسام يكافئنى به. فمع أننى عند أمى والشارع كله لاأزال مجرد «واحد من

العيال».. فإن هذا الأب الصارم الحازم قليل التعبير عن مشاعره قاطع الكلمات فى تحديد مواقفه.. أدخل فى قاموسى الصغير مبكرا كلمات من نوع «الشعور بالمسئولية» و «الاعتماد على الذات» و «محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين» و.. التفوق ليس حلما.. وإنما هو إرادة وإصرار وتعب ومجهود ومسئولية.

من التصرفات الغريبة للقدر أن كلمات أبى فى ذلك اليوم أصبحت هى آخر ما سمعته منه. فمن يومها، وربما من لحظتها، أصبح طريح الفراش.. وممنوعا علينا – نحن الصغار – دخول غرفته. هذا يعنى أن الوضع خطير.. حيث هو كان يرفض أصلا فكرة الاستسلام للمرض.. وفى نفس الوقت هو فى لحظات ضعفه النادرة كان يختار الاحتفاظ بها لنفسه فقط بغير أن يحَمل همها للآخرين. فقط هى أمى المسموح لها بالدخول إلى غرفته والخروج منها ونشرتها الصحية المتكررة فى آذاننا هي: أبوكم بخير.. هو دور بسيط وإن شاء الله يخرج منه.

فى تلك اللحظات كنت أنا الذى أكثر من الخروج.. وأذهب تحديدا إلى مدرسة طلخا الثانوية – المدرسة التى سألتحق بها. وبغير حتى أن أنتظر فتح أبواب المدرسة لتقديم الأوراق.. فقد كنت أذهب إليها يوميا مع مجموعتى الخاصة من الأصحاب.. حتى نستكشف تلك الدنيا الجديدة التى سندخلها خلال وقت وجيز.

لقد بدا لنا مبنى المدرسة فى حينه أضخم مما اعتدناه.. وملاعبها الفسيحة تفسح لنا عن نقلة كبيرة فى حياتنا ستجعلنا جزءا من عالم «الكبار» الذين هم سبقونا ليصبحوا «تلامذة ثانوي» .. كما لو أن هذا بحد ذاته اعتراف رسمى بأننا انتقلنا من دنيا «العيال» إلى دنيا «الرجال». اعتراف بخاتم النسر.

المدرسة موجودة وقريبة منا ومررنا أمامها مرات من قبل. لكنها الآن ـ والآن فقط ـ أصبحت بؤرة حياتنا واهتمامنا. وكما لو أن المرء دخل فى حالة غرامية – فتلك بداية سن المراهقة الفائرة – أصبحت المدرسة الثانوية الموعودة هى «المحبوبة» التى تحتفظ فى داخلها بسحرها الخاص وجاذبيتها الطاغية.

وتذكرت ذات يوم أن لى قريبا سبقنى إلى تلك المدرسة قبل سنتين. قريب اسمه نبيه جمعة.. مهذب ولطيف وشديد الانجذاب إلى دنيا الرياضة.. خصوصا لعبة الكرة الطائرة.. أو «الفولى بول» التى أصبح تفوقه فيها محل إعجاب فى مدينتنا الصغيرة.

سألت نبيه جمعة مندهشا: كل هذه الملاعب بالمدرسة؟ وكل هذه الكتب؟

ضحك نبيه وهو يتعامل مع حب استطلاعى المبكر قائلا: انتظر ولا تتعجل.. فالوجود بالمدرسة ليس كل شيء. صحيح فيها ملاعب تكفى لممارسة الكرة الطائرة وكرة السلة والملاكمة والمصارعة

وملعب صغير لكرة القدم.. إنما المدرسة تعتمد أيضا فى كرة القدم على ملعب كبير فى المنصورة تتم اتاحته للمدارس بالتناوب.. وعلى أى حال فأنت قد تجد نفسك أكثر فى كرة السلة.. وبالمدرسة مدربون ممتازون فى تلك اللعبة أيضا .

سألته متلهفا: وماذا عن الكتب؟ رأيت قبل أيام شحنات ضخمة من الكتب مع أن الوقت لايزال فسيحا قبل بداية العام الدراسى.. وحتى باب تقديم الأوراق للقبول بالمدرسة لم يفتحوه بعد .

قال نبيه: لا.. تلك كتب لابد أنها واردة لمكتبة المدرسة.. ففى العادة تصل الكتب الدراسية قبيل السنة الدراسية بأسبوع أو اثنين ..

قلت له: يعنى المدرسة فيها مكتبة أيضا؟ وفيها نظام للاستعارة الخارجية؟ احتار نبيه فى الإجابة للحظات قبل أن يرد: طبعا فى المدرسة مكتبة كبيرة وموقعها فى الطابق الأرضى. أما عن الاستعارة من عدمها فلا أعرف بالضبط لأن مخى كله فى الكرة الطائرة .

عدت إلى البيت فى حالة معنوية مرتفعة لم أجد لها انعكاسا فى وجه أمى. هذا يعنى أن النشرة الصحية ثابتة على ما كانت عليه. لا تقدم فى الحالة الصحية لأبى .

بعد قليل جاء «البوسطجى» إلى بيتنا مناديا بصوت مرتفع: ياست أم محمود.. ياست أم محمود ..

الرجل نعرفه.. فهو من أهل البلد. والرجل يعرف الأصول. وفى البلد الأصول ليس فيها محمود. فيها فقط اسم الابن الأكبر. وأنا لست الأكبر. ماذا جرى؟ هل الناس نسوا الأصول ؟

خرجت أمى إلى باب البيت.. وأنا فى أثرها من باب الاستطلاع. فتلك أول مرة اسمع فيها اسمى على لسان بوسطجى. هذا الرجل الطيب.. «البوسطجى». وبعكس أى مرة سابقة رفض أن يسلم أمى الخطاب إلا بعد الحصول على «الحلاوة» . الكلمة هنا شعبية وتبشر بخبر طيب يريد رجل البريد الحصول على مكافأته عنه مقدما. لكن.. كيف يعرف هو مسبقا أن فى هذا الخطاب المسجل خبرا طيبا، بينما الخطاب ذاته مغلق ؟!

هرش البوسطجى رأسه بيده وهو يتطلع نحوى قائلا لها: لأن الخطاب وارد باسم ابنك هذا، ولأنه من وزير التربية والتعليم كما هو مسجل عليه هنا. ولأن عليه أيضا خاتم بكلمة «مبروك».. تبقى الحكاية باينة من عنوانها .

ثم تطلع نحوى ووضع يده على كتفى سائلا فى عشم ومودة: انت يا ابنى فى سنة كام ؟

قلت له باعتزاز: رايح أولى ثانوى.. قال بسرعة بديهة: هايل.. يعنى أصبحت من حملة الشهادات الإعدادية.. ودى شهادة مهمة.. ربنا يوفقك يا ابنى.. انما قبل أى شيء لازم الحلاوة.. بعدها فقط توقع حضرتك هنا بالاستلام فأعطيك الخطاب..

في الواقع هو أعطاني الخطاب فعلا، ومعه قلمه الخاص لكي أوقع في دفتره بالاستلام.. وتركته أنــا مــع أمي لكي تعطيه ما يرضيه. إنما ما شــغلني في تلك اللحظة أمــران. أولا - هو يتحدث عن وزيــر التربية والتعليم الذي لم أتخيل أنه يعرف مدرســتي ولا حتى مدينتي. ثانيا - قبل رغبتي الملحة في فتح الخطاب لمعرفة محتواه.. أريد أن أطير داخل البيت إلى أبي في غرفته لكي يفتح هو الخطاب ويقرأ ما بداخله قبلي .

نادتني الأم بحزم مذكرة لي بالتعليمات. ممنوع الدخول. هي وحدها التي دخلت غرفته وبعد دقائق خرجت من الغرفة لكي تقول لي بما توهمته مؤقتا من دمعة عابرة في عينيها: خذ يابني.. أبوك يقول لك: إن هذا الشيك هو مكافأتك.. وأنت وحدك تصرفه.. وأنت وحدك تتصرف في فلوسه كما تشاء .

أمســكت بالخطاب المفتوح بغير أن استوعب أصلا معنى كلمة «شــيك» .. إنما الكلمات والأرقام واضحة: خمسة وعشرون جنيها. هذا في حينه مبلغ ضخم يساوي مرتب خريج جامعي عن توظفه وعمله لمدة شهرين. أما الرسالة المرفقة ففيها كلمات مطبوعة رقيقة تنتهي بتوقيع من وزير التربية والتعليم فعلا.. كمال الدين حسين.

مع شعوري الكبير بالمفاجأة والفرحة الطاغية.. إلا أن أكثر ما أهمني في تلك اللحظة هو أن أسأل أمي: ماذا قال أبي.. ولماذا لا أسمع تلك الكلمات منه هو ؟

لحظتها ترقرقت في عيني أمي دمعة حقيقية وهي تتمتم لنفسها: الله يكون في عونه.. وحينما تصلي ادع له.. أما الآن فدع أباك في حاله .

لم نترك أبي في حاله. لكنه هو الذي تركنا في حالنا. فبعد يومين.. فارق الحياة .

□□□



وتعطلت ..
لغة الكلام !

رتبت لنفسي أمسية هادئة أساسها الوحدة والأوراق والأقلام، استعدادا لمقال ارتبطت مسبقاً بموعد نشره، وأصبحت تلك الأمسية هي فرصتي الأخيرة لكتابته. الفكرة جاهزة، الموضوع محدد الملامح، ولم يبق فقط سوى أن أجلس إلى مكتبي المنزلي لكي أبدأ في الكتابة. هكذا أمسكت بالقلم وبدأت فعلاً. سطر وسطرين.. وفي مقدمة السطر الثالث وقع ما لم أتحسب له. لقد دق جرس التليفون.. وبمجرد أن رفعت السماعة في حالة شديدة من الضيق والانزعاج جاءني صوته هاشاً باشاً..

إنه الموسيقار محمد عبد الوهاب. قلت له: حمد الله على السلامة. متى عدت من لبنان؟ رد عبد الوهاب: أمس. ولك معي سلامات من أصدقاء عديدين في مقدمتهم سعيد فريحة. أبعدت الأوراق من أمامي لكي أتابع من خلال محمد عبد الوهاب أخبار الصحفي اللبناني الكبير سعيد فريحة صاحب دار "الصياد" وأصدقاء آخرين .. كذلك أخبار لبنان خلال الشهرين اللذين قضاهما عبد الوهاب هناك .

لكن عبدالوهاب بعدها فاجأني بسؤال: ما هي أخبار الناس مع الغناء ؟

قلت له: أي غناء ؟!

قال: يعني مثلاً.. أغنية "فاتت جنبنا" عامله إيه مع الناس ؟

وبشكل تلقائي أجبته: لاشيء.. الأغنية ذاتها لاشيء. أنت سافرت بعد أن اطمأننت كالعادة على سرعة انتشارها لكن بعيداً عن نفوذك الإذاعي لا أظن أن الأغنية ستعيش طويلاً .

قال عبد الوهاب: يا «ساتر» ليه ؟!

قلت له: لأنها مفككة الكلمات والنغمات. ولأنها ساذجة المعاني . ولأنها لن تكون من أفضل ألحانك. ولأنها باختصار.. هي أغنية سيئة .

تمتم عبد الوهاب تعبيره الأثير عند الانزعاج والقلق: يا حفيظ. يا حفيظ. اسمع.. عندك ضيوف ؟ مرتبط بالخروج ؟ أنا معطلك ؟ حينما أجبت أسئلته بالنفي قال عبد الوهاب: إذن سأطلبك مرة أخرى.

جربـت العـودة إلى الأوراق أمامى من جديد أمسـكت بالقلم وعدت إلى مـا كنت فيه.. عدت إلى السـطر الثالث. وقبل أن أشـرع فى الكتابة دق جرس التليفون من جديد.. إنه محمد عبدالوهاب مرة أخرى . الآن هو الذى يستكمل مكالمته الأولى بالتساؤل: قلت لى إن الأغنية سيئة؟ أجبته: نعم.. ولن تحسب من أفضل ألحانك.. وليس هكذا يتغنى الناس الآن. و.... استمع محمد عبد الوهاب بكل اهتمام وانزعاج وبغير مقاطعة.. بعدها سألنى من جديد: أنت مرتبط بالخروج ؟ إذن سأطلبك مرة أخرى .

حاولت العودة إلى الأوراق من جديد. العودة إلى السـطر الثالث. أبداً.. لقد أصبح ذهنى مشـتتاً بين ما أريد أن أكتبه وبين الانزعاج الشـديد الذى تسـببت فيه لمحمد عبد الوهاب. صحيح هناك بيننا صداقة عميقة وثقة كاملة لكن هو فى الموسيقى والغناء اسمه محمد عبد الوهاب بكل ما يعنيه هذا من رصيد !

لقد غنى عبد الحليم حافظ فى حفله السنوى الأخير أغنيتين جديدتين، إحداهما من ألحان عبد الوهاب وهى " فاتت جنبنا " والأخرى من ألحان بليغ حمدى وهى " أى دمعة حزن لا " ولأن الثلاثة أصدقاء حميمون لى.. فإن أساس الصداقة هو الصدق والموضوعية. مع ذلك .. فبعد مكالمة عبد الوهاب الثانية بدأت أنا أشـعر بالانزعاج الشديد .الانزعاج من نفسى. لماذا أقول لعبد الوهاب عن أغنية من ألحانه أنها سـيئة ؟ ولماذا يأخذ عبد الوهاب نفســه كلماتى بمثل هذا القلق ؟ فى النهاية . أنا لست متخصصاً فى الموسـيقى والغناء وعلاقتى بهما مجرد مسـتمع عادى كملايين آخرين .. ألا يجوز أن يتصـور عبد الوهاب فى داخله أننى بذلك أتحيز لبليغ حمدى وهو ملحن الأغنية الجديدة الأخرى فى نفس حفل عبد الحليم حافظ قبل شهرين ؟!

قبل أن أتأكد بالضبط من رد فعل عبد الوهاب الحقيقى جاءتنى مكالمته الثالثة .. الآن هو يشرح باسـتفاضة متسـائلاً: ما رأيك فى أن صديقك المخضرم سـعيد فريحة هنأنى فى بيروت على أغنية " فاتت جنبنا " بالذات .. وقال لى أنه يحب الاستماع إليها تكراراً كلما ذهب إلى بيته الريفى فى شتورا ؟!..

قلت لعبد الوهاب أنت تعرف سـعيد فريحة أفضل وأقدم منى . تعرف طبيعته المجاملة الرقيقة وانحيازه الكامل لكل ألحانك .. قديمها وجديدها .. وحينما تسـتمع إلى رأى سـعيد فريحة فإنك تستمع إلى رأى محمد عبد الوهاب فى محمد عبد الوهاب !

لأول مرة ضحك عبد الوهاب بشدة وهو يقول لى : حلو التعبير ده .. والله سأقوله له نقلاً عنك فى أول مكالمة معه . والآن .. عندك مانع أطلبك من جديد ؟

بالطبـع لم يعد عندى مانع .. ولم تعد عندى أيضاً الرغبة فى العودة إلى القلم والورق من جديد. لقد جاءت مكالمة عبد الوهاب الأولى فى السابعة مساء . والآن تقترب الساعة من الثامنة ، والبال لم

يعد رائقاً ولا متسعاً لأكثر من "فنجان" شاى . قبل الشاى جاءت المكالمة الجديدة من عبد الوهاب.. فى هذه المرة هو مستمر فى الحديث كما لو لم يحدث انقطاع بين المكالمات.

يقول عبد الوهاب أنت فاجأتنى برأيك فى أن الأغنية سيئة .

لحظتها قلت له مستدركًا : يا سيدى لو كان رأيى يزعجك فهو فى النهاية مجرد رأى .. وأنا لم أتطوع به .. فلتكن الأغنية غير سيئة لكنها على الأقل لم تضف أى جديد .. لا معنى ولا مغنى.. رد عبد الوهاب : ما رأيك فى أن هذه الأغنية بالذات أنا صاحب فكرتها ؟ لقد جئت بحسين السيد واقترحت عليه أن يكتب لى أغنية تكون هى الوجه الآخر لأغنية «ساكن قصادى» .. فاكر «ساكن قصادى» ؟ فاكر النجاح الهائل الذى حققته وقتها ؟ تمام .. إذن أنا الذى اقترحت الفكرة على حسين السيد والآن يبدو أننى الذى ورطته.

قلت له : لا أحد ورط أحداً . وقد لا يكون إحساسى بالأغنية هو القاعدة .. لابد أن هناك كثيرين غيرى سيقولون لك فى الأغنية رأياً آخر .. رأيا أفضل.

قال محمد عبد الوهاب: لكننى أردت رأيك أنت ..

قلت له بعد أن أدركت الورطة التى أصبحت فيها: رأيى قلته لك من البداية . فى أقل القليل .. لم تضف الأغنية أى شيء تأليفاً ولحناً ..

قال عبد الوهاب: غريبة .. مع أن نزار قبانى قضى معى سهرة كاملة فى بيروت وهو يمتدح فكرة الأغنية وكلماتها ..

قلت له ضاحكاً : وهل يأخذ أحد برأى نزار قبانى فى كلمات حسين السيد ؟! أنت تعرف كما رويت لى أنت نفسك من قبل أنه لا يجمع بينهما سوى أن كُلاً منهما كان فى داخله حلم بأن يكون ممثلاً .. وكلاهما فشل. أما فى الشعر الغنائى فالأكثر صواباً هو أن تعرف رأى حسين السيد فى نزار قبانى وليس العكس ! على الأقل حسين السيد طرق فى الأغنية العربية معانى وصوراً جديدة وجميلة لم يسبقه إليها أحد. بالتالى فمديح نزار قبانى فى أغنية "فاتت جنبنا" ربما لا يكون أكثر من عربون يقدمه لك حتى تغنى من كلماته هو فى المرة المقبلة.

تساءل عبد الوهاب متمعناً : عربون ؟! والله هو قدم لى فعلاً نحو عشرين من قصائده لعلى أختار إحداها لتلحينها . بالطبع لم أعده بشيء لأن القليل مما يكتبه نزار يصلح للغناء .. أقصد الغناء العاطفى وليس الحسى ..

ثم سكت عبد الوهاب لحظات قبل أن يضيف مكرراً : اسمع . خليك بالبيت . سأطلبك مرة أخرى.

طلبنى مرة أخرى . فى هذه المرة هو يضيف : ما رأيك فى تقى الدين الصلح غير أنه رئيس وزراء لبنان ؟ الرجل يفهم فى الشعر وفى الغناء ورأيه إن " فاتت جنبنا " أغنية بديعة ..

قلت له مداعباً : وهل يصدق أحد آراء السياسيين .. خصوصاً فى لبنان ؟!

ضحك عبد الوهاب تحت حساب أنه سيطلبنى تليفونياً مرة أخرى ! وهكذا فعل مرة ، ومرة ، ومـرة ، ومرة. فى النهاية .. تجاوز الوقت منتصف الليل . لقد أزحت الأوراق من أمامى ، فلم يعد فى الذهن متسـع للـكلام . . صوتاً وكتابة . لقد تعطلت لغة الـكلام.. وتبخرت الليلة عن آخرها. لكن.. أبداً . التليفون مرة أخرى . وهذا محمد عبد الوهاب من جديد مع حكايات إضافية عن بيروت والجبل ولبنان والأصدقاء وكلها تصب فى نهاية المطاف عند أغنية «فاتت جنبنا».

قلـت لمحمد عبد الوهاب : على فكرة أنا سـحبت رأيى. الآن اقتنعت فعلاً بأن الأغنية هائلة وبديعة وإضافة كبرى للغناء العربى.

سألنى عبد الوهاب بتلقائية : بتتكلم جد ؟

قلـت لـه : كل جد . فقـط أريد منك خدمة بسـيطة . لقد بـدأت مكالماتك معى فى السـابعة. والآن مضت خمس سـاعات أقنعتنى بعدها فعلاً بأن أغير رأيـى فى الأغنية. فإذا كنت تريد التأكد والاطمئنان حقاً.. لا يبقى سوى أن تتصل تليفونياً بكل واحد من الثلاثين مليون مصرى وتتحدث مع كل منهم خمس ساعات بمثل ما فعلت معى .. وبعدها سيصبح كل شىء .. «تمام» .

جاءنـى صوتـه ضاحكاً مجلجلاً : ها ها ها .. لا يا حبيبى. الآن أنا الذى اقتنعت. تصبح على خير .

بعـد تلك الليلة التليفونية مـع عبد الوهاب بمدة اتصلت بى مذيعة مخضرمة بالإذاعة المصرية. مذيعـة صديقة كانت قد شـهدت من قبـل جانباً من علاقتـى بمحمد عبد الوهاب . لقد بشـرتنى بمفاجأة كبرى سـتأتينى بها . المفاجأة هى شـريط بصوت عبد الوهاب .. وبه شـىء يخصنى .. هى نفسـها فوجئت به. كان عبد الوهاب يسجل سهرة إذاعية سألته المذيعة خلالها عن السر فى تطوره الدائم وانتقال الإعجاب به من جيل إلى جيل . فى التسـجيل أجابها عبد الوهاب بأن سره الأكبر هو شـعوره الدائم بعدم الرضاء عن نفسـه . بالطبع .. هو كفنان لا يخرج إلى الناس بلحن إلا إذا كان راضيـاً عنـه . لكن .. " يحدث بين وقت وآخر أن أضع لحناً يهيئ لى فى لحظتها أننى " جبت الديـب من ذيله " ثم يفاجئنـى صديق أثق فى محبته وأمانته وصدقه بأن يدلق على رأسـى جردل مياه يجعلنى أسـترد من جديد حالة عدم الرضاء هذه .. فأحاول فى المرة التالية أن أكون أحسـن وأفضل". سـألته المذيعة بحب اسـتطلاع : وهل فى حياتك يا أستاذ عبد الوهاب من تتقبل منه مثل هذا الرأى السلبى؟ رد عبد الوهاب : " نعم : هناك فى حياتى صديقان أو ثلاثة أدخرهم لأى موقف

أحتاج فيه إلى لحظة صدق ". تزايد حب الاستطلاع لدى المذيعة المخضرمة فألحت على محمد عبد الوهاب لكي يقوم بتسمية هؤلاء الأصدقاء النادرين . لكن عبد الوهاب اعتذر .. وأقصى ما فعله هو أنه وعدها بأن يستجيب إلى رجائها .. إنما بعد انتهاء التسجيل الإذاعى .

والذى حدث فعلاً هو أن التسجيل انتهى ، ومدت المذيعة يدها إلى جهاز التسجيل قائلة لعبد الوهاب : الآن أصبحنا خارج التسجيل يا أستاذ عبد الوهاب والآن كلي فضول واشتياق لمعرفة من هم أصدقاؤك هؤلاء الذين قلت في التسجيل إنك تدخرهم للحظة صدق. لحظتها أفصح لها عبد الوهاب فعلاً .. ذاكراً اسمى تحديداً . أما المفارقة التى لم يتوقعها عبد الوهاب، ولا حتى المذيعة نفسها كما أقسمت لى ، فهى أن الشريط لم يتوقف .. والجهاز استمر فى التسجيل .. ولم تدرك هى تلك الحقيقة إلا بعد عودتها إلى منزلها وتشغيلها للشريط من جديد. الآن تفاجئنى المذيعة الصديقة بالشريط ذاته.. وبالدقة تفاجئنى بالجزء الشخصي الذى ائتمنها عليه محمد عبد الوهاب. والآن هى تهدينى هذا الجزء من الشريط بشرط واحد هو أن أفسر لها السبب فى عدم تطرقى من قبل إلى هذا الجانب الشخصى فى علاقتى بعبد الوهاب بالرغم من البرامج الحوارية العديدة التى كنت فيها الضيف المتحدث. قلت لها : أولاً دعينا نتفق على أن ما قاله لك عبد الوهاب بشكل شخصى يظل بالفعل شخصياً ما دامت تلك هى رغبته. ثانياً.. من حيث إننى لم أتطرق من قبل إلى هذا الجانب فى علاقتى بعبد الوهاب فالسبب بكل أمانة هو أن هذا ليس من حقى. هذا من حق صاحب الشأن نفسه.. الذى هو محمد عبد الوهاب. ولو لم أسمع الآن بأذنى صوت عبد الوهاب نفسه على هذا الشريط لما سمحت لنفسى أن أرويه لأحد.. حتى فى حدود الصداقة .

قالت المذيعة : لكن هذه فضيلة نادرة !

قلت لها : مرة أخرى.. دعينا نحدد.. أولاً.. فضيلة من؟ الفضيلة الأساسية هنا هى لمحمد عبد الوهاب نفسه. فلو لم يعطينى هو حرية مصارحته.. لما فعلت. ولو لم يكن هو قد أصبح متضخم الخبرة بالحياة والبشر.. لما فعل. دعينى هنا أنبهك إلى حقيقة أخرى حاكمة . فالفن ذاتى.. بينما العلم موضوعى . والفنان بطبيعته عنده كلمة "أنا" تجيء قبل كلمة "نحن".. والفارق بين فنان ذكى وآخر غبى هو أن الأخير يعيش على مدار الساعة داخل كلمة "أنا".. بينما الأول يحرص باستمرار على الخروج من ذاتيته ليتعلم فضيلة النظر إلى نفسه بعيون الآخرين.. بمن فيهم من ينتقدونه. ولو لم يكن محمد عبد الوهاب بذلك الذكاء لما أصبح عبد الوهاب الذى نعرفه. عبد الوهاب المستمر معنا بفنه والمتجدد باستمرار. هذا فنان وضع فى عقله، وفى حياته، " فلتر " يصفى له الوهم من الحقيقة. فنان أدرك أن النجاح شيء.. والاستمرار فى النجاح شيء آخر. فنان لم يجد أى غضاضة فى أن يتعلم.. حتى ممن هم فى سن أولاده .. فنان لم يسمح للغرور بأن يسيطر عليه.. ولا للشهرة والأضواء أن تعمى بصره. محمد عبد الوهاب هو فى الحياة كانت له نقائص كأى شخص آخر..

وأعرفها عنه قبل غيرى. لكنه فى الفن كان يتعلم دائماً بأن العبرة ليست فقط بما تحقق فى الماضى.. ولكن بـ"ماهى أحلام المستقبل؟".

فى الواقع إن مشـوار الحياة أتاح لى مبكراً الاقتراب بشـدة من أسماء سـبقتنى بجيل واحد أو جيلـين. كلهم أسـاتذة.. بغير أن يقصـد أى منهم أن يصبح له تلاميذ. كلهـم مثمرون مرتين: مرة بعطائهم الذاتى، ومرة بالقيم التى أتاحوها للآخرين. اختلفت طباعهم فى أشياء وأشياء.. واتفقت فى شـىء واحـد: أن الموهبة بحد ذاتها عطاء من الله.. لكن حماية الموهبة هى من صنع الإنسـان، والإنسـان يحمى موهبته بالعلم والتعلم ، بالواقعية والأحلام، بالتطلع إلى منافسة الأفضل.. وليس الأسوأ، بالتواضع وليس بالتكبر.. والعطاء قبل الأخذ.. والإصرار دائماً على أنه بعد الحسن لا يزال هناك الأحسـن.. فهذا هو سـر التطور. لقد لمست هذا السـر متكرراً عن قرب شديد.. ليس فقط فى علاقتى بمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ولكن بطه حسـين أيضاً وكل العصاميين الكبار الذين أوهمونا بأنهم يتعلمون منا.. بينما الحقيقة المجردة هى أننا الذين كنا نتعلم منهم.

وفـى تلـك الليلة التليفونية التى تناولتها هنا مع محمد عبد الوهاب – من بين ألف ليلة أخرى وأخرى – ضاع منى المقال الذى كنت أسـتعد لكتابته.. فتأجل إلى حين ميسرة وعلى حد تعبير عبد الوهاب الذى سـجل بصوته – فيما بعد – بعيدا عنـى ووصلنى بغير قصد من أحد – فإننى" دلقت على رأسه جردل مياه "..الخ.

هذا سـخاء من محمد عبد الوهاب لا يدهشـنى. أما الذى يدهشنى ولم يقصده هو قطعاً – فهو أنى تعلمت لنفسى فى تلك الليلة درساً خطيراً.. لابد أن أعود إليه لاحقاً .

□□□



رئيس فوق .. ورئيس تحت !

بمجرد أن جلست إلى مقعدى داخل الطائرة المتجهة إلى أبو ظبى، وربطت حزام المقعد، منيت نفسى ببضع ساعات قليلة من النوم العميق الذى أصبحت فى أشد الحاجة إليه بعد يومين من الإرهاق المتواصل. لقد مرت المضيفة بيننا حاملة حزمة من الصحف الأجنبية والعربية.. اخترت من بينها ثلاث مجلات أجنبية وجريدة واحدة، ثم وضعت الحزمة فى حقيبة يدى لكى أقرأها فيما بعد.. وحين ميسرة .. أما الآن فى هذه اللحظة فكل ما أريده هو النوم.. النوم.. النوم.

راح النوم. فى الواقع أن الراكب فى المقعد المجاور بدأ يتبادل الحديث مع الراكبين أمامنا.. فواضح أنهم أصدقاء. ومع تبادلهم التعليقات .. طار النوم .لقد اختلطت مشاعرى بين الضيق والارتياح . فمقابل حرمانى من النوم كان موضوع الجدل بين الثلاثة هو نفسه الذى دعيت إلى أبوظبى للتحدث بشأنه فى حوار على الهواء من المقرر إذاعته فى المساء التالى من قناة أبوظبى التليفزيونية الفضائية.. مع مشاركة بالتليفون والفاكس من المشاهدين فى دول شتى. الموضوع هو: الانتخابات الأمريكية . الانتخابات التى ضبطت فيها الولايات المتحدة فى حالة تلبس . أما نوع حالة التلبس هذه فيتوقف على المشاهد نفسه . هناك من يرى أنها قمة الديموقراطية . ومن يرى أنها مثال فى التخبط. هناك من يتابعها كما الألعاب البهلوانية فى السيرك .. ومن يتابعها كما لو كانت مباراة فى كرة القدم التى تحسمها الضربات الترجيحية . هناك من يتحمس لألبرت جور مرشح الحزب الديموقراطى إلى الرئاسة .. ومن يتحمس لجورج ووكر بوش مرشح الحزب الجمهورى . هناك من يهتف لأمريكا ومن يسخر من أمريكا .

وفجأة استدار جارى نحوى مشيراً بيده إلى المجلة الأمريكية بين يديه وسألنى : بذمتك .. أليس هذا نوعا من الظلم ؟ هذه الانتخابات يجب أن يفوز فيها جورج بوش .. انظر إلى الخريطة..

أشار جارى فى المقعد إلى خريطة توضيحية بعرض صفحتين فى المجلة الأمريكية بين يديه . والخريطة توضح الولايات التى فاز فيها كل من المرشحين، باللون الأزرق تعبيراً عن جورج بوش والأحمر تعبيراً عن البرت جور. الأزرق يكسب لأنه كما يبدو فى الخريطة فاز بأصوات العدد الأكبر من الولايات . أليس كذلك ؟

قلت: يبدو كذلك . لكن يا أخي الكريم حينما نتكلم عن أى شيء يتعلق بأمريكا يجب أن نفرق أولاً بين ما هو "كذلك" وبين "ما يبدو كذلك" . إنما دعنا أولاً نتعارف قبل أن تفرض أمريكا نفسها علينا في هذه الرحلة.

تعارفنا. هو مهندس كمبيوتر ، وكذلك زميلاه في المقعدين أمامنا. والثلاثة من مواطني سلطنة عمان ويعملون في شركة بترول. هم غير منغمسين في السياسة ، ولكنهم انجذبوا تلقائياً إلى انتخابات الرئاسة الأمريكية بمناسبة المفاجآت المتتابعة الجارية منذ السابع من نوفمبر (٢٠٠٠) يوم الانتخابات. أو ليست هذه هي الديموقراطية ؟

قلت له مداعباً : دعني أسألك أولاً ثلاثة أسئلة . ما هي أكبر دولة ديموقراطية في عالمنا المعاصر ؟ وما هي أقدم دولة ديموقراطية ؟ وما هي الدولة الأكثر إنسانية في نظامها الديموقراطي ؟

رد تلقائياً وبغير تردد: هذه ليست ثلاثة أسئلة . كلها سؤال واحد وإجابته عندى واحدة . إنها أمريكا .. فهي الأكبر والأقدم والأكثر إنسانية .. بدليل كل هذا الذى نتابعه .

قلت له: أنت معذور في إجابتك الحاسمة القاطعة هذه ، لكن دعني أطرح عليك الحقائق المجردة، أولاً . فأكبر دولة ديموقراطية في عالمنا المعاصر هي الهند (ألف مليون من السكان) وأقدم دولة ديموقراطية (حسب التعريف الغربي المعاصر للديموقراطية) هي بريطانيا. أما النموذج الديموقراطي الأكثر إنسانية وإحساساً بالمسئولية الاجتماعية فتجده إما في فرنسا أو في ألمانيا .. أنت وذوقك.

تساءل هو فيما يشبه الاحتجاج : وأمريكا تجيء بعد كل هؤلاء ؟

قلت له: أمريكا تجيء قبلهم جميعاً .. ليس لأنها النموذج الأفضل أو الأكبر أو الأقدم أو الأدفأ قلباً . هي قبلهم لأنها الأعلى صوتاً والأغنى ثروة والأقوى عضلات . وفي الغابة الدولية يحصل الأقوى على ميزة مجانية هي اهتمام الآخرين به . إنه اهتمام مجاني قرين للقوة الأمريكية الراهنة .. بدليل ما نحن فيه الآن .. ها نحن الأربعة أصبحنا نناقش الانتخابات الأمريكية ربما بحماس أكبر من معظم المواطنين الأمريكيين أنفسهم . فما لا تقوله هذه الخريطة المنشورة أمامك في المجلة الأمريكية مثلاً هو أن المجتمع الأمريكي هو الأقل مشاركة في الانتخابات من بين كل الدول الديموقراطية . حتى في إيران مثلاً تقترب نسبة المشاركة من الثمانين بالمائة. أما في أمريكا فالمشاركون في التصويت أقل من خمسين بالمائة . هؤلاء نحو مائة مليون ناخب . ذهبت أصوات نصفهم إلى مرشح الحزب الديموقراطي .. والنصف الآخر إلى مرشح الحزب الجمهوري . وفي نهاية المطاف سيصبح واحد منهما هو الرئيس.. وسيصبح رئيساً للجميع برغم أنه حصل على ربع أصوات من لهم حق الانتخاب .

قال جارى مهندس الكمبيوتر : لكن النتيجة لم تحسم بعد . فإذا كانت العبرة بفارق الأصوات يكون البرت جور هو الرئيس . وإذا كانت العبرة هى بمجموع الولايات يصبح الفائز هو جورج بوش. هل هذه مسألة صعبة ؟

أجبت قائلاً : فى حالات أخرى هى ليست صعبة . لكنها فى الحالة الأمريكية تحديداً تصبح صعبة لأن ظروف أمريكا لا تنطبق فى العالم كله إلا على أمريكا . وللأسف لدى بعضنا تصور شائع بأن أمريكا دولة مثل كل الدول . لا. أمريكا دولة غير الدول . أمريكا حالة خاصة فريدة تماماً بظروفها وتاريخها ونموذجها الديموقراطى . وهذا التفرد أحياناً يكون ميزة .. وأحياناً يكون عبئاً .

انضم إلينا الراكبان فى المقعدين أمامنا وتقاطعت الأسئلة مع الأجوبة وفى النهاية طار النوم من عينى .. أحد الثلاثة قال مثلاً : أنه هو نفسه قضى سبع سنوات من عمره فى الدراسة بأمريكا ، وكان يعتبر نفسه حتى هذه اللحظة عارفاً بكل ما هو أمريكى . لكنه مع هذه الانتخابات الرئاسية فى أمريكا اكتشف أنه يجهل الكثير عن نظامها الانتخابى .

قلت له مطمئناً : لا بأس فى ذلك.. فالذين يفهمون النظام الانتخابى الأمريكى من بين الأمريكيين أنفسهم لا يزيدون على ثمانية بالمائة حسب آخر استطلاع منشور قبل أسبوع واحد . مقابل هؤلاء هناك ٩٢٪ من الأمريكيين كانوا يعتقدون حتى الآن أنهم بأصواتهم الحرة المباشرة هم الذين يختارون الرئيس أيا كان . الآن يكتشفون أن فى الأمر قصة أخرى .

تدخل أحد الثلاثة متسائلاً : تقصد نظام " المجمع الانتخابى " أو " الكلية الانتخابية "؟

قلت له : بالضبط. فالانطباع الرائج هو أن الرئيس الأمريكى يفوز بمنصبه بالانتخاب الحر المباشر . وهنا يوجد انتخاب حر ومباشر . ولكن الكلمة الأخيرة والفاصلة يقررها "المجمع الانتخابي" وهو عبارة عن ٥٣٨ مندوباً يمثلون ولايات أمريكا الخمسين زائد العاصمة . واختيارهم يجرى حسب نظام آخر مختلف أساسه تمثيل الولايات بشكل نسبى حسب مجموعة عوامل مختلطة هدفها الأساسى هو أن تصبح لكل ولاية – صغرت أو كبرت – مصلحة أساسية فى انتخاب الرئيس ونائبه .

وقاطعنى أحد "الجيران" الثلاثة بالطائرة متسائلاً: ولماذا كل هذا التعقيد ؟ إن هذا يعنى أن "المجمع الانتخابي" بهذا الأسلوب يقوم بدور الرقيب أو الوصى على إرادة الناخبين..

قلت له : بالضبط .. وهذا كان هدفه من الأصل . هدفه ممارسة الوصاية على الإرادة الانتخابية للشعب الأمريكى .

تراجع الحماس فى نبرة جارى فى المقعد معترضاً بقوله : وهل هذه تصبح ديموقراطية ؟

قلت له : أنت تتكلم عن الديموقراطية بالمطلق . ليس فى السياسة شيء مطلق . فى السياسة كل الأمور نسبية . وما نتحدث عنه هنا هو نموذج محدد من الديموقراطية .. يختلف عن نماذج أخرى .. لكنه فى رأى الأمريكيين أنفسهم وتلك بلدهم على أى حال هو الأكثر مناسبة لهم ولتاريخهم .

لولا أن الضيفة قاطعتنا بالشاى والقهوة لما عاد الاثنان اللذان أمامنا إلى مقعديهما. لكنها خمس أو عشر دقائق حتى عادت المناقشة تفرض نفسها من جديد.. ولأنى فقدت أملى فى نوم عميق.. فقد أصبحت المشاركة واجبة.

قلت للجيران الثلاثة : لكى نفهم أمريكا علينا أولاً أن نعود إلى الأساسيات . فهذه الدولة العظمى التى نراها حالياً كل عمرها ككيان سياسى هو مائتا سنة وكسور . هى أصلاً لم تبدأ كدولة. بدأت كمجموعة من الدول . والاسم الرسمى لأمريكا هذه هو " الولايات المتحدة الأمريكية " لكن الترجمة الحرفية للأسم الإنجليزى كان يجب أن تكون " دول أمريكا المتحدة "لأنها بدأت بثلاث عشرة دولة مستقلة اتفقت معاً على إقامة دولة اتحادية تجمع بينهم. فى هذه الدولة الاتحادية الجديدة تتحول الدول المستقلة سابقاً إلى ولايات، وتتنازل عن جزء من سلطاتها إلى الدولة الاتحادية، بينما تحتفظ لنفسها بجزء آخر من السلطات. هناك مثلاً سياسة خارجية واحدة ودستور واحد وبرلمان واحد وقوانين اتحادية.. الخ. لكن فى نفس الوقت لكل ولاية برلمانها الخاص وقوانينها المحلية الخاصة وقضاؤها الخاص وحتى شرطتها الخاصة..الخ.

فى حينها ابتكر مؤسسو الدولة الاتحادية الجديدة نظام " المجمع الانتخابى " بهدفين..

أولاً: لكى تطمئن الدول الصغيرة التى تنضم إلى الاتحاد فتصبح ولايات صغيرة إلى أن صوتها لن يتم تجاهله فى اختيار رئيس الدولة ونائبه. فلو جرى الاحتكام فقط إلى التصويت المباشر لاهتم المرشحون فقط بالولايات الأكثر سكاناً وتجاهلوا الولايات الأخرى . ثانياً: كانت هناك فكرة سائدة لدى النخبة السياسية ترى أن المواطنين العاديين ليسوا أكثر من رعاع أو غوغاء أو أميين.. " كلمة تجيبهم وكلمة توديهم ".. أكثر من ذلك . فى النموذج الديموقراطى الأمريكى كانت البدايات متواضعة تماماً ومن أكثر النقاط انخفاضاً . مثلاً.. هذه الدولة العظمى التى نعرفها باسم دارج هو " أمريكا " بدأت أصلاً بحرمان كل الفقراء من حق التصويت والمشاركة فى الانتخابات . فلكى يحصل المواطن العادى على هذا الحق يجب أن يثبت أولاً أنه من أصحاب الأملاك العقارية أو المنقولة. بدأت أيضاً بحرمان النساء – كل النساء – من حق التصويت. بدأت كذلك بحرمان السود – كل السود – من حق التصويت . بل إن المواطن الأمريكى الأبيض لو كان فقيراً يجرى حرمانه من حق التصويت ، ولا ننسى أنه بالرغم من حرب أهلية لتحرير العبيد (أى الأمريكيين السود) جرت

في القرن التاسع عشر فإن المساواة القانونية بين البيض والسود داخل المجتمع الأمريكي استمرت ناقصة تماماً حتى أقل من ٣٥ سنة مضت .وحتى رئاسة داويت أيزنهاور مثلاً للولايات المتحدة، يعني حتى سنة ١٩٦٠ ، كانت الدولة الاتحادية تضطر إلى إنزال جيشها الاتحادي إلى الشوارع حتى ترغم المدارس الأمريكية على قبول التلاميذ السود بين صفوفها لأن القوانين المحلية لبعض الولايات كانت مستمرة في تمييز المواطن الأمريكي الأبيض ضد المواطن الأمريكي الأسود.

مع أن وجبة الغداء داخل الطائرة أتاحت بعض الاستراحة .. إلا أنه بمجرد أن جمعت المضيفة أطباق الطعام الفارغة عاد موضوع الساعة لكي يفرض نفسه من جديد . في هذه المرة قال أحدهم : أنا عندي حل سريع لهذا الإشكال الانتخابي الأمريكي .. " يختاروا الرئيس بالقرعة..أو بلعبة " ملك أو كتابة " .. هاهاها .. قال الآخر : " أو يطلبوا من الأمم المتحدة إيفاد مراقبين للإشراف على الانتخابات الأمريكية بمثل ما تفرض أمريكا وصايتها هي على دول كثيرة في هذا العالم.

قلت من جانبي: أو أن يفعلوا ما قررته البرازيل مثلاً قبل شهر ، ففي انتخابات المجالس البلدية بطول البرازيل وعرضها جعلوا التصويت يتم باستخدام نظام إلكتروني بالكامل حتى على مستوى المدن الصغيرة . وبالتالي أصبحت نتيجة الانتخابات محسومة ومعلنة في أقل من ٢٤ ساعة .

اعترض جاري في المقعد قائلاً: أليس غريباً أن أمريكا التي تبشر العالم كله بأهمية الاعتماد على التكنولوجيا تصبح هي بذاتها الأكثر افتقاراً إلى التكنولوجيا في نظامها الانتخابي .. وعند الاختلاف يحتكمون من جديد إلى نظام فرز الأصوات يدوياً ؟

قلت له : هذا حدث لمجرد أن الفرز الميكانيكي للأصوات أعطى نتيجة متقاربة تماماً .. فلم يعد يفصل بين مرشح وآخر في ولاية فلوريدا ضمن ستة ملايين صوت أكثر من ٥٣٧ صوتاً. وهو ما جعل ألبرت جور يبدأ سلسلة من " التماحيك "القانونية لإعادة فرز الأصوات يدوياً في دوائر انتخابية محدودة ومحددة يعرف الجميع مسبقاً أن الحزب الديموقراطي مسيطر فيها.

تدخل أحد الثلاثة معترضاً: لكنه حصل على ما طلبه بحكم من المحكمة العليا بولاية فلوريدا. أليس القضاة هنا محايدين وهم صوت القانون ؟

قلت له : مرة أخرى دعني أذكرك بما ينقصنا معرفته عن أمريكا . ففكرتنا التقليدية عن القضاء هو أنه محايد وعن القضاة هي أنهم أناس مهنيون محترفون ومتفرغون وغير مسموح لهم بأي انتماءات سياسية أو التعبير علناً عن ولاء سياسي لطرف دون آخر . في النظام القضائي الأمريكي تختلف المسألة جذرياً . فتعيين القضاة أنفسهم تتدخل فيه السياسة . والقضاة مسموح لهم بالانتماءات السياسية . من هنا لجأ ألبرت جور مثلاً مرشح الحزب الديموقراطي إلى المحكمة

العليا فى ولاية فلوريدا لمعرفته المسبقة بأن كل قضاتها السبعة لديهم إنتماء إلى حزبه السياسى. بالمثل .. لجأ جورج بوش إلى المحكمة العليا (الاتحادية) فى واشنطن لمعرفته أيضاً بأن أغلبية قضاتها التسعة لديهم مواقف وانتماءات سابقة أقرب إلى حزبه السياسى الحزب الجمهورى . هكذا رأينا مثلاً حكماً تصدره المحكمة العليا المحلية فى فلوريدا لصالح ما يطلبه ألبرت جور من إعادة فرز الأصوات يدوياً . وفى اليوم التالى مباشرة قامت المحكمة العليا الاتحادية فى العاصمة واشنطون بنقض الحكم مقررة وقف الفرز (أو فى الواقع .. إعادة الفرز) يدوياً . أى أنها حكمت جوهرياً لصالح جورج بوش . وكان جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق والناطق باسم جماعة جورج بوش يقول علناً معبرا عن حالته من الحيرة : نحن أصبحنا يوم فوق .. ويوم تحت . فى الواقع تابعنا جميعاً أنه أحياناً كان المرشحان المتنافسان يتبادلان المواقع فى يوم واحد . مرة فوق .. ومرة تحت . وكله قانونى بالمفهوم الأمريكى.

بعد الطائرة والفندق وليلةٌ من النوم العميق حملتنى السيارة إلى استوديوهات قناة أبو ظبى التليفزيونية الفضائية حتى يبدأ البرنامج فى تمام الساعة التاسعة مساء .

الكلام يجيب بعضه . فقبلها بأسبوع واحد كنت ضيفاً فى تليفزيون القاهرة مدعواً من المذيعة اللامعة درية شرف الدين للتعليق على فيلم تعرضه بإحدى حلقات برنامجها المعروف " نادى السينما. " البرنامج مسجل . ليس على الهواء . وجملة المدة التى يستغرقها تعليقى سواء قبل الفيلم المعروض فى الحلقة أو بعده ، لا يتجاوز عشرين دقيقة . مع ذلك احتاج إعداد الاستوديو لتلك العشرين دقيقة إلى أكثر من ساعتين . ولولا تقدير خاص لمكانة درية شرف الدين فى نفسى كمشاهد لكنت استغنيت عن التسجيل .. وعن التليفزيون المصرى بأكمله.

بتلك الحالة المسبقة ذهبت إلى استوديوهات قناة أبو ظبى التليفزيونية الفضائية .. وعمرها كله لا يتجاوز الأشهر المعدودة . رتبت نفسى لعدم المفاجأة من شخص يمسك فى يديه بمقشة لكى يكنس أرض الأستوديو . وشخص ما فى الاستوديو وظيفته ضبط الإضاءة فيقوم بضبطها وإعادة ضبطها عشرين مرة قبل أن يقرر أنه مستعد لبدء التسجيل. ورتبت نفسى كذلك للمبات إضاءة فى الأستوديو تحوله إلى محرقة تجعل المرء يتصبب حرارة حتى من قبل أن يفتح الله علينا بكلمة. ورتبت نفسى فى نهاية المطاف لمعايشة قدر من التوتر .. وحرق الدم .. تفرضه برامج الهواء بطبيعتها على المذيع فى الأستوديو وتنتقل منه بالعدوى إلى ضيفه داخل الأستوديو .

لم ندخل الأستوديو إلا قبل الطلوع على الهواء بخمس دقائق .. فقط .

السبب بسيط كما فهمت . هناك برنامج آخر على الهواء كان قبلنا وينتهى فى التاسعة إلا خمس دقائق . دخلنا لكى نجد كل شىء مرتباً كما الساعة والدقيقة والثانية . شىء واحد كان هو

المفاجأة غير المفاجئة . إنه الأسئلة التلقائية على الهواء مباشرة من مشاهدين غير مرتبين يساهمون بملاحظاتهم أو إستفساراتهم .. وفى معظم المرات بعكس ما تتوقعه السيدة ليلى الشيخلى صاحبة البرنامج .

فى نهاية ساعة الحوار التليفزيونى على الهواء سألتنى المذيعة اللامعة صاحبة البرنامج : هل لدينا دروس نخرج بها من انتخابات الرئاسة الأمريكية هذه ؟ قلت لها : الدروس كثيرة لكن من منظورنا نحن فى بلادنا هذه سيكون الدرس الأكثر أهمية هو أن أمريكا التى اعتادت طويلاً على إعطاء الآخرين مواعظ ومحاضرات فى الديموقراطية .. سوف تتعلم من الآن فصاعداً أن تتواضع كثيراً وتنظر إلى نفسها فى المرآة . فقبل كل شيء هى لا تحتكر الديموقراطية. وبعد كل شيء لا يمثل نموذجها الديموقراطى النموذج الأقوى ولا الأفضل فى هذا العالم .. ولا هو أيضاً النموذج الخالى من النواقص والثغرات. والمواطنون الأمريكيون هم وحدهم الذين يحق لهم اختيار ما يناسبهم ويناسب ظروفهم . كذلك الآخرون . إنه درس مهم لنا أن نعرفه . ومهم لأمريكا أن تتعلمه .. فهذا سيكون أفضل لها.. وللعالم .

هكذا عدت إلى الطائرة من جديد مغادراً أبو ظبى بعد ٧٢ ساعة .. كان الموضوع الطاغى خلالها هو انتخابات الرئاسة فى أمريكا.ومرة أخرى: هذه ميزة مجانية يحصل عليها أقوياء الغابة .. مكافأة أخرى لقوتهم وعلو صوتهم .

□□□



شاى ..
وموسيقى !

بمجرد أن اقتربت من مدخل منزلى خرقت أذنى أصوات أبواب سـيارة قريبة تنفتح ثم تنغلق بالتتابع، وأكثر من صوت ينادينى ويستوقفنى بعصبية ظاهرة. وحينما تلفت حولى فوجئت بثلاثة أشـخاص يسرعون نحوى تسـبقهم كلمات متداخلة لا أعرف إن كانوا يوجهونها إلى أو لأنفسهم. خـلال لحظات بدأت تتضـح ملامح المفاجـأة، فقد أصبحت داخـل مثلث من الرفـض والاحتجاج والعصبية. هؤلاء الثلاثة انتظروا معا داخل سـيارة أحدهم وعيونهم تطلق شراراً نحو مدخل منزلى ترقبـاً لحضورى. أما وقد حضرت.. فقد حاصرنى شـرار العيون، وحدة الكلمات بما لا يسـمح لى بالفهـم أو حتى بالمقاطعة. إننى بالنسـبة لهم جميعاً مدان لو تكلمـت.. ومدان لو لم أتكلم. فقط هم مرتاحون لحقيقة مؤكدة: إننى تحت القبض والتساؤل والاستجواب.

حاولت أن أفهم أولاً ما هو الموضوع. فى البداية لم أفهم أى شـىء. فهمت فقط أن فى القصة عبد الوهاب. نعم. الموسـيقار محمد عبد الوهاب. وأن هناك غلاً وغضباً متفجراً داخل الأشخاص الثلاثة ضد محمد عبد الوهاب وضدى لمجرد صداقتى بعبد الوهاب. وأن الحل الوحيد الباتر هو وقف إذاعة كل أغانى عبد الوهاب من الغد وحتى إشعار آخر.

عنـد هذا الحد تحول الموقف من مأسـاة إلى ملهـاة. منع إذاعة أغانى عبـد الوهاب بصوته أو بموسيقاه؟ هكذا.. خبط لزق ؟ " اللهم اجعله خير. " فقط يا إخواننا هل ستعلو أصواتكم فى الشارع علـى هذا النحو؟ تفضلوا أولاً الشـاى والقهوة وثانياً لأفهم منكم الحكايـة من أولها لأننى لا أحب دعوتى إلى دخول الفيلم من منتصفه .

صعدنا معاً إلى شقتى. بينما ارتمى الثلاثة على أقرب المقاعد فى طريقهم، دخلت أنا إلى المطبخ أعد الشـاى والقهوة.. فالثلاثة تربطنى بهم صداقات وثيقة تسـمح لى بأن أقرر من البداية ما الذى يـروق لأمزجتهم. والثلاثة فى تلـك الليلة هم إبراهيم صبرى ومحمد أنور، وكلاهما مذيع بارز فى محطة إذاعة الشـرق الأوسط القاهرية. ثم محمد علوان كبير مخرجى الدراما بنفس المحطة. الشاى والقهوة. ثم أول سؤال من عندى: ما هى الحكاية بالضبط. ومن أولها لو سمحتم ؟

الحكاية هى أننا نقترب من العيد الكبير. عيد الأضحى. وكما فى شهر رمضان تتنافس محطات الإذاعة بالقاهرة لكى تقدم لمستمعيها أحلى تشكيلة ممكنة من الأغانى والحوارات والبرامج. محطة إذاعة الشرق الأوسط تحديداً طرأت لها فكرة تقديم سهرة حوارية مع الموسيقار محمد عبد الوهاب لمدة ساعتين فى مساء اليوم الأول من عيد الأضحى. سهرة استثنائية. فمن حيث الشكل هناك مذيعان للتحاور مع عبد الوهاب. وبدلاً من الإخراج الإذاعى التقليدى سيتطوع بأخراجها محمد علوان، وهو مخرج الدراما المعروف عند المستمعين بخبطاته الإذاعية السنوية المعتادة فى شهر رمضان. ولأن مثل تلك السهرة الاستثنائية تحتاج إلى تعديل مسبق فى خريطة البرامج فقد عرض الثلاثة فكرتهم على السيدة/ مديحه نجيب مديرة المحطة. ومديحه نجيب سيدة هادئة وديعة بالغة التهذيب وعريقة الخبرة. وإزاء أى فكرة جديدة كان هدوء مديحه نجيب يتحول فوراً إلى حماس مشتعل وإصرار على توفير شروط النجاح.. والبداية هى أولاً ضمان موافقة عبد الوهاب نفسه.

فى وجود " الفرسان الثلاثة " بمكتبها رفعت مديحه نجيب سماعة التليفون طالبة عبد الوهاب لمعرفة رأيه . من جانبه استمع عبد الوهاب إلى شرح لفكرة السهرة من مديحه نجيب وأنه بمجرد موافقته على التسجيل وتحديد موعد للحوار معه فى منزله، ستقوم هى فوراً بتعديل خريطة البرامج والتأكد من التنويه عن السهرة تكراراً من قبلها بيومين حرصاً على جذب أكبر عدد ممكن من المستمعين. هه ؟ موافق يا أستاذ عبد الوهاب ؟

وعبد الوهاب يرد : طبعاً طبعاً يا مديحه هانم. هذه المعاملة الاستثنائية من محطتكم شرف كبير لى لا أستطيع رفضه. أنا أيضاً سألغى ارتباطاتى وأكون فى انتظار الأساتذة الثلاثة بمنزلى غداً فى السابعة مساء إنما....

قاطعته مديحه نجيب بتفاؤل: إنما إيه يا أستاذ عبد الوهاب ؟ لو لك أى طلبات خاصة أنا موافقة مقدماً..

وعبد الوهاب يرد: العفو.. ليست لى طلبات. فقط لى رجاء واحد لو سمحت. أن يجيء معهم صديق لى أتونس به. إنه محمود عوض.. تعرفينه طبعاً ..

ردت المديرة بحماس : طبعا يا أستاذ عبد الوهاب. هو أيضا صديق لنا جميعا وسوف أنبه على الثلاثة ـ وهم أمامى الآن ـ بالمجيء إليك غداً فى السابعة مساء وبصحبة محمود عوض..

إلى هنا والكلام طبيعى. إذاعة ستسجل سهرة حوارية وموسيقار نجم يتحمس واسمى ورد فى رد عبد الوهاب بشكل عابر. خير.. أما غير الطبيعى بالمرة فهو ما جرى ذلك.

أولاً.. فى صباح اليوم التالى المحدد للتسجيل اتصل بى الثلاثة من الإذاعة لإبلاغى برغبة محمد عبد الوهاب . بالصدفة لم أكن موجوداً طوال اليوم.. لا بالمكتب ولا بالبيت. ولأن الحصول

على موعد للحوار الإذاعي مع محمد عبد الوهاب هو مكسب استثنائي لا يجب التفريط فيه.. فإن " الفرسان الثلاثة " ذهبوا معاً إلى بيت عبد الوهاب في حي الزمالك ومعهم جهاز التسجيل، ذهبوا أيضاً ومعهم عذرهم.

سعاد مديرة البيت استقبلتهم بمودة مألوفة وقالت لهم: الأستاذ معه الآن الشيخ – المقرئ – مصطفى إسماعيل لكنه على وشك الانصراف .. والأستاذ فى انتظاركم على أى حال . تفضلوا. بعد قليل انصرف الشيخ مصطفى إسماعيل، وكان عبد الوهاب شديد الإعجاب بصوته، وجاءت سعاد إلى الضيوف الثلاثة بفناجيل الشاى. وبعد المجاملات المألوفة شرح الثلاثة لمحمد عبد الوهاب مضمون التنويهات التى بدأت إذاعتها فعلاً عن السهرة منذ عصر اليوم. تنويهات مستمرة اليوم وغداً وبعد غد أول أيام العيد ـ حيث ستذاع السهرة لساعتين اعتباراً من الحادية عشرة مساء. بالطبع عبد الوهاب يرحب ويتمتم : هايل.. هايل..

بعدها تدخل محمد علوان سائلاً عن أقرب فيشة كهرباء موجودة بالصالون ، وطالباً من زميله تحضير الجهاز استعداداً لبدء التسجيل و.. هنا قاطعه عبد الوهاب منزعجاً : تسجيل إيه يا أستاذ علوان ؟

ارتبك علوان ، وهو المخرج الكبير، فرد بتلقائية : تسجيل السهرة التى نتحدث عنها واتفقنا معك عليها منذ الأمس.

قال عبد الوهاب بكل هدوء: نعم اتفقنا بالأمس على تسجيل وعلى سهرة ، وعلى موعد لإذاعة السهرة. كل هذا صحيح. لكن لم يكن هذا كل الاتفاق . مثلاً قلت لمديحه هانم، وهى انسانة فاضلة وصادقة، وسمعت منها فى التليفون أنكم معها فى المكتب موجودون وسامعون الحديث.. أننى أرجوكم فى حضور محمود عوض كصديق أتونس به..

رد عليه الثلاثة مؤكدين كلمات بعضهم البعض : تمام يا أستاذ عبد الوهاب.. مضبوط. لكننا لم نستطع العثور عليه.. عشرين ثلاثين مرة طلبناه فى البيت وفى كل مكان ولم نجده . وحتى تتأكد من ذلك بنفسك.. نرجوك أن تطلبه الآن فى بيته.. فإذا كان موجوداً ادعه للحضور..

قال عبد الوهاب معترضاً : هو ليس موظفاً عندى لكى أدعوه بهذا الشكل. أنا قلت لكم بالأمس ما أرجوه.. مفهوم.. حاولتم ولم تنجح المحاولة . أنا أيضاً استجبت وحاولت.. إذن : لا تسجيل..

صعق الثلاثة من هول الرد فحاولوا أن يشرحوا لمحمد عبد الوهاب فداحة النتيجة ، بعد أن جرى تعديل خريطة البرامج فعلاً والتنويه إذاعياً عن أهمية السهرة فعلاً . الآن ستتحول المسألة من سهرة كبرى إلى فضيحة كبرى. كيف يفسرون الأمر للسيدة مديحه نجيب ؟ ولرئيس الإذاعة؟ وللمستمعين؟ هذا شأنكم أنتم وليس شأنى .. عن إذنكم.. وبغير انتظار لمزيد من الجدل تركهم محمد عبد الوهاب فى صالون بيته وغادر متوجهاً إلى أبعد مكان ممكن : حجرة نومه.

بتلـك الحالة من الصدمة والغضب المكتوم غـادر الثلاثة بيت محمد عبد الوهاب متوجهين إلى بيتى. وفى الشـارع جلسوا فى السـيارة قبالة البيت انتظاراً لحضورى.. ربما لأن راحتهم الليلة لن تتحقق إلا إذا أخرجوا من داخلهم بركان الغضب فى وجه أحد. أى أحد. فى الشـارع أصبحت ـ أنا ـ هذا الأحد وفى بيتى اسـتمعت إلـى الحكاية بكل اهتمام ومفاجأة ، الثلاثة فى شـدة الانفعال.. والثلاثـة يكـررون رواية الموقف حرفياً وبكل تفاصيله كما لو أننـى كنت رابعهم. أو بالدقة : لكى أصبح رابعهم . مع ذلك.. فبعد معرفة الحكاية كلها.. من طقطق لسـلامو عليكم.. فوجئت بنفسـى أنفجر من الضحك.

لقد بدت ضحكاتى فى لحظتها نشـازاً مروعاً مع الحالة النفسية والاندماج الكامل لدى الفرسان الثلاثـة .. وهم بالأصل أصدقاء. وبكل همة وإباء اسـتنكر الثلاثة رد فعلى الضاحك بشـدة، فقالوا بصوت واحد : جئنا نحكى لك عن كارثة عملها فينا صديقك عبد الوهاب .. فتضحك ؟

تعجبـت أولاً مـن حكاية " صديقك " عبد الوهاب فقلت لهم : أولاً عبد الوهاب صديق للايين.. ربمـا أكـون واحداً منهم. ثانياً.. أنا أضحك لأن محمد عبـد الوهاب الذى تحكون لى عنه الآن ليس مطلقاً عبد الوهاب الذى أعرفه.. فى الواقع أنا مندهش تماماً مثلكم. بل ربما أكثر منكم..

لا أدرى مَنْ من الثلاثة انطلقت منه بعد ذلك فكرة مفاجئة وافق عليها الآخران فوراً . لابد من رد الصفعـة إلى عبد الوهاب. لا أقل من منع إذاعة أغانيه من المحطة فوراً. غداً ندخل إلى السـيدة مديحه نجيب بطلبنا المشـترك الموحد هذا لإقناعها ، حتى يتعلم عبد الوهاب أنه إذا كان يسـتغنى عن الإذاعة ويهينها بهذا الشكل.. فإن الإذاعة تستطيع هى أيضاً الاستغناء عنه.

لـم أرد ولم أعلق بالرغم مـن أن هذا الانفعال الغاضب، الطارئ ، أعاد إلى ذهنى فوراً ما حكته لى أم كلثوم تفصيلاً ، ولغير النشـر ، حينما تعرضت هى لما يشـبه الإهانة الملتوية قبل سنوات من هذه المحطة الإذاعية، وقبل سنوات من تولى السيدة / مديحه نجيب مسئولية إدارتها ، فطلبت أم كلثوم وقف إذاعة أغانيها فى تلك المحطة حقاً لها وانتصاراً لكرامتها. وقتها انقلبت الدنيا وجرى تصحيح الموقف بكل هدوء وموضوعية.

لـم أرد ولم أعلـق لأن الموقف هنا مختلف جذرياً من ناحية.. ولأن هؤلاء " الفرسـان الثلاثة " يتكلمون فقط بغضب اللحظة.. ومع صديق لجأوا إليه من باب المودة ، كما لو كان " صندوق الشكاوى " المتاح أمامهم. ثم إننى اعتبرت نفسـى أصلاً خارج الموضـوع بالمرة . فلا أنا وعدت أحدا ثم خالفت وعدى.. ولا أنا موظف عند محمد عبد الوهاب أو عند الإذاعة.. ولا أنا ..ثالثاً أفهم أصلاً لماذا تكون لى أية علاقات بسهرة حوارية تريدها إذاعة ويتحمس لها عبد الوهاب.. وفجأة يفقد حماسه.

كان الوقـت متأخراً حينمـا انصرف الثلاثة من عندى. مع ذلك فقد أصبحت أنا أكثر اندهاشـاً

مــن الحكاية كلها. فعبد الوهــاب الذى أعرفه غير ذلك بالمرة . إنه شــديد الرقة والمجاملة مع أهل الإذاعــة تحديــداً . وحينما تكون له أغنية جديــدة مثلاً ، بصوته أو بمجرد ألحانه، فإنه يمســك بســماعة التليفون ناقلاً حماسه للأغنية إلى الجميع.. من أول رئيس الإذاعة .. إلى مذيعى البرامج و" ما يطلبه المســتمعون ".. بل حتى إلى عمال الســويتش فى تليفونات الإذاعة.. والآن ، بكل تلك البســاطة، يغامر محمد عبد الوهــاب بإغضاب محطة إذاعية كاملة على هــذا النحو ؟ ولأول وهلة فكــرت أن أطلبه تليفونياً لأفهم منه أصل الحكايــة. لكننى فكرت أيضاً فى أن الأمر لابد أنه مجرد دعابــة. فلو كانت المســألة بما تبدو عليه من أهمية لكان عبــد الوهاب قد بادر بالاتصال بى . إذن.. فلأنس الموضوع والصباح رباح.

وكما عرفت فيما بعد .. فإن المشــهد فى اليوم التالى انتقل إلى مكتب الســيدة مديحه نجيب . وسواء لأنها تحتفظ داخلها بضمير القاضى، أو حرصاً على نجاح المحطة، أو اعتزازاً بمكانة محمد عبــد الوهاب ، فقد كانت هى التــى نهرت الثلاثة جميعاً ، قائلة بغضب : نمنع إيه ؟ نمنع أغانى عبــد الوهاب ؟ أنتــم فى حالة جنان ؟ ثم .. لازم أعرف أولاً .. ومنــه هو.. ما الذى حدث بالضبط وأمسكت المديرة بسماعة التليفون.

صباح الخير يا أســتاذ عبد الوهاب .. أمامى الآن محمــد علوان وإبراهيم صبرى ومحمد أنور.. زعلانين جداً مما حصل لهم عندك أمس..

قاطعها عبد الوهاب بهدوء: ماذا يا مديحه هانم ؟ هل أنا .. لا سمح الله .. أسأت معاملتهم ؟ ألم يقولوا لك أننى اســتقبلتهم فى الموعد المحدد فعلاً ؟ ألم يقولوا لك أننى دعوتهم لشــرب الشاى.. وشــربوه فعلاً.. حتى واحد منهم لم يعجبه الشاى فى فنجان وعايزه فى كوب زجاجى.. فعملنا له شاى جديداً وفى كوب زجاجى..؟

– أيوه يا أســتاذ عبد الوهاب.. لكن التسجيل لم يتم.. والمسئولية هنا كبيرة عليهم .. والمشكلة أكبر..

– لا لا يا هانم.. ربنا لا يجيب مشــاكل .. أنا أيضاً زعلان مثلهم.. وكان بودى التســجيل يتم فعلاً..

– يعنى أنت يا أستاذ عبد الوهاب لم تغير رأيك ؟ يعنى ممكن التسجيل يتم.. وفى الوقت الضيق الباقى على العيد؟

– طبعاً طبعاً يا مديحه هانم.. وبكل سرور.

– الحمــد للــه.. أنا كان رأيــى دائماً أن إذاعتنا لها معزة عندك.. طيب يســجلوا معك أمتى يا أستاذ عبد الوهاب ؟

– مفيش مشكلة أبداً.. يسجلوا النهاردة الساعة السابعة مساء لو أرادوا..

– طبعا يا أستاذ عبد الوهاب كلنا نريد التسجيل .. خلاص.. النهاردة الساعة السابعة مساء بالدقيقة سيكون الثلاثة عندك فى البيت.

قاطعها عبد الوهاب بهدوء مرة أخرى قائلاً : فى هذه المرة يا مديحه هانم أرجو أن تكونى أنت الشاهدة .. أنا عايز محمود عوض يحضر التسجيل. مفيش محمود عوض يبقى مفيش تسجيل.. ولا حتى شاى.

ضحكت مديحه نجيب، وهى تكرر كلمات عبد الوهاب على مسمع من الثلاثة معها فى المكتب قائلة من عندها : الرجل معه حق . بدل ما يطلب منى " فلوس " طلب محمود عوض. الباقى عليكم.. أنتم وشطارتكم..

حتى تلك اللحظة كان حب الاستطلاع يتملكنى إزاء ما أسمعه.. حتى بعد أن اتصل بى من جديد " الفرسان الثلاثة " زائد السيدة مديحه نجيب. لقد أصبحت عندى صورة متكاملة فعلاً عما جرى. لكن .. كلما عرفت أكثر ، استغربت أكثر. فى نحو الواحدة ظهراً دق جرس التليفون بجوارى. ورفعت السماعة لكى أجد صوته هو.. محمد عبد الوهاب. وقبل أى حديث فوجئ هو بنوبة ضحك تنتابنى. أما هو فقد استمر هادئاً.. وبعدها بدأ يشرح جانباً من الحكاية.

❑❑❑



فين الشاى .. يا سعاد ؟

حينما اتصل بى الموسيقار محمد عبد الوهاب تليفونياً فوجئ بأننى أسأله مندهشاً : بذمتك إنت قلت للسيدة مديحة نجيب فعلاً أن أحد " الفرسان الثلاثة " طلب فى بيتك الشاى فى كوب بدلاً من الفنجان ؟

رد عبد الوهاب بكل جدية : آه.. قلت لها هذا فعلاً.. ماذا فى ذلك ؟

قلت له غريبة .. لا أحد يتخيل أن محمد عبد الوهاب يكون عنده ضيوف فى بيته ، وهو واخد باله بدقة من كل واحد شرب إيه .. وفى فنجان أو كوب مياه ..

فجـأة تنبه عبد الوهاب إلى المفارقة ورد بخفة دمه المعتادة : أصلك لا تعرف ، هو طلب شـاى جاء له الشـاى . ثم اعترض على أنه فى فنجال ، فقلت لسـعاد (مديرة المنزل) تاخذ الشـاى من أمامه ، وتعمل له شاى جديد تجيء به فى كوب زجاجى . هو اعترض مرة أخرى ، وقال لها تترك له فنجال الشـاى لأنه سيشربه .. إنما بالنسبة للشاى الجديد فهو يريده فى كوب زجاجى . يعنى عايز يشرب الشاى مرتين وهذا ما حدث فعلاً .. وبعدها رايح يشتكى لمديرة المحطة ؟!

ثم اقترح محمد عبد الوهاب أن نجلس قبيل السـاعة السـابعة .. موعد وصول فرسـان الإذاعة الثلاثة لتسجيل السهرة الإذاعية المقرر إذاعتها فى اليوم التالى أول أيام العيد . لكنى قلت له أنهم أصروا على المرور على بمنزلى ضماناً لذهابى معهم .. قدماً بقدم .

بعد المكالمة سرحت فى هذا الجانب من شخصية عبد الوهاب . فمن جانبه كان مؤمناً بأنه لا يكفى أن يكون موسيقاراً جيداً فقط ، وإنما متحدث لبق أيضاً . هو ليس هاوياً للقراءة لمتاعب فى عينيه . لكنه يتعمد إثارة القضايا العامة السائدة مع المقربين من أصدقائه . أحياناً ينكش الواحد منهم عمداً ، حتى يجرجره للحديث فى موضوعات السـاعة . ولأن محمـد عبد الوهاب مخلوق تليفونى فقد كان التليفون أداته المستمرة للاتصال والثرثرة فى موضوعات شتى من اهتمامات الناس .

فى بعض الأحيان كنت أقول له مداعباً : على فكرة .. أنا اسـتمعت لنفسـى أمس فى الراديو .. بصوتك !

ويفهـم عبد الوهاب الداعبة فوراً .. لأنه فى العادة يكون قبلها بيومين أو ثلاثة قد تحدث معى فى مكالمة تليفونية مطولة مستفسـراً عن هذا الموضوع أو ذاك من حديث الناس وقضايا الساعة. وبعد أن يأخـذ الحوار مجراه وأنسـاه تماماً .. أفاجـأ بعدها بيوم أو يومين ببرنامج إذاعى اسـتمع إليه بالصدفة فإذا بمحمد عبد الوهاب يدلى فيه، على لسـانه، بنفس الآراء التى سـمعها منى سـابقاً . بالتجربـة عرفت إلى أى حد يهتم عبد الوهاب بأحاديثه الإذاعية، وفى سـبيل ذلك لابأس من أن يستفزنى بأسئلة لكى أطرح أجوبة ، أفاجأ بعدها أنها أصبحت أجوبته هو إذاعياً . فى البداية كان هذا يلفت نظرى فأسـأله .. لماذا لم ينبهنى إلى أنه ينوى اقتباس آراء لى فى مكالمة عابرة .. فربما لو نبهنى لكنت اهتممت بصياغتها أفضل ..

لكن عبد الوهاب كان عنده غالباً رد جاهز لكل شـيء. فبكل بسـاطة يقول : ألم نتفق على أننى فى مقام والدك وأنت ابنى ؟ طيب .. إذا كنت ترتدى رباط عنق وأعجب به والدك .. هل سـتعترض إذا أخذه منك ليسـتخدمه هو ؟ وأرد عليه: لابأس فى ذلك. بشـرط أن يكون عندى أولاً رباط عنق.. ويكون على ذوق والدى .

وفـى إحدى المـرات كنت مدعواً فى بيت عبدالوهاب فرجانى عدم الانصراف لأحضر تسـجيل سـهرة إذاعية مع نجوى أبو النجا ، وهى فى حينها مذيعة بارزة فى محطة " صوت العرب " وهو نفسـه معجب بصوتها. قبل أن يبدأ التسـجيل أراد عبد الوهاب أن ينكشـها مسبقاً لمعرفة موضوع السـهرة المقرر لها أن تستمر سـاعة . وحينما نظر إلىّ عبد الوهاب محتاراً قلت له : إننى أقترح مدخلاً مختلفاً لهذه السهرة يكون أقرب ما يكون إلى عنوان " زوجى محمد عبد الوهاب " واستغرب الفكرة تماماً ، فهو اعتاد أن يكون النجم والعنوان . قلت له إن العنوان لا ضرورة له ، لكننى أقترح فقط نوعاً من السـيناريو التمثيلى الخفيف يسـمح للمذيعة بأن تقول أنها وصلت مبكرة عن موعدها فاستقبلتها نهلة (زوجته) .. وأنه فى انتظارك يجرى الحوار بينهما عن جانبك المنزلى فى الحياة اليوميـة . أربع أو خمس دقائق بالكثير- كما يبدو للمسـتمع - تصل أنت إلى الصالون فيدور الحوار بعدها معك فيما تريده المذيعة .

فكـر محمـد عبد الوهاب قليلاً قبل أن تروق له الفكرة . لقد نهـض متوجهاً إلى الداخل ، لكى تنضم نهلة القدسـى إلى السـيناريو الفورى بالصدفة . ومضت الفكرة فى سياقها الطبيعى بعد ذلك بأفضل مما توقعته لها . أما الغريب فعلاً فهو أنه بعدها بأسـبوعين فوجئت بالحوار منشـوراً شبه كامل وحرفياً فى صفحتين من مجلة أسـبوعية قاهريـة وبعنوان " زوجى محمد عبد الوهاب " لكن على أنه حوار خاص انفردت به مندوبة المجلة ، وليس منسوباً مطلقاً .. لا إلى صوت العرب ولا إلى نجوى أبو النجا . وقلت لمحمد عبد الوهاب : هذه سـرقة علنية .. وبجاحة . أنا شـخصياً أحس أننى تعرضت للنشل برغم أن الحوار الإذاعى لم يكن منسوباً إلى من بعيد أو قريب .

أما الأكثر غرابة هو رد عبد الوهاب نفسه . فبكل هدوء وارتياح قال لى: أنا على العكس منك.. مبسوط. صحيح أن الفن فكرة . لكن الفن أيضاً .. انتشار . واللصوص لا يسرقون إلا الأشياء التى يرونها ثمينة . وفى الآخر .. هناك من استمتع بحوار عبد الوهاب مسموعاً .. والآن يستمتع به مقروءاً . لا يهم إذن من ينسب الفضل لنفسه فى إذاعة أو فى مجلة . الحوار أعجب الناس والفكرة لفتت أنظارهم.. وهذا هو الأهم.

والآن نحن فيها من جديد . إنما الوضع فى هذه المرة يختلف .. حيث " الفرسان الثلاثة " من محطة إذاعة الشرق الأوسط ، هم المخرج الإذاعى الكبير محمد علوان .. ثم محمد أنور وإبراهيم صبرى كمذيعين . فى الوسط يجلس محمد عبد الوهاب .. بينما أجلس أنا كصديق للطرفين بمناسبة إصرار عبد الوهاب على فكرة أنه "يتونس " بى .

الآن يبدأ التسجيل .. السؤال الأول من المذيع : الليلة أول أيام عيد الأضحى المبارك يا أستاذ عبد الوهاب واختارت محطتنا الاحتفال به معك فى بيتك ياترى .. تقول إيه لنا وللمستمعين ؟ وعبد الوهاب يرد باختصار : " أقول .. كل سنه وانتم طيبين ". السؤال التالى من المذيع الثانى : ياترى أستاذ عبد الوهاب .. إيه ذكرياتك عن العيد ؟ يعنى .. بيفكرك بإيه ؟

- بيفكرنى بالخروف واللحمة والفتة ..

السؤال التالى : هل يختلف العيد يا أستاذ عبد الوهاب زمان .. عن العيد الآن ؟ مرة أخرى يرد عبد الوهاب بتحفظ وإيجاز : العيد أساساً زمان والآن يفرح به الأطفال . أما الكبار ففرحتهم سببها أنه أجازة عن العمل .

لعشر دقائق تقريباً مضت الأسئلة والأجوبة على هذا النحو . سؤال ورد غطاه. ووجدت نفسى أتململ وأكاد أحترق فى داخلى . وتخيلت نفسى مستمعاً فى البيت يجلس بجوار الراديو أتابع مثل هذا الحوار . تخيلت نفسى أيضاً ويدى تمتد إلى مؤشر الراديو لكى أغير المحطة تلقائياً بحثاً عن مادة إذاعية أخرى تكون أكثر جاذبية .

هكذا وجدت نفسى أمد يدى فى صالون عبد الوهاب إلى جهاز التسجيل لكى أوقفه محتجاً : معقول يا جماعة سهرتكم دى تشد المستمعين .. ولمدة ساعتين .. أو حتى عشر دقائق على بعض ؟

لم يكن هناك خطأ من أحد . الكل أستاذ فى مجاله. لكنها مشكلة مذيعين منبهرين بعبد الوهاب.. ومشكلة عبد الوهاب نفسه الذى يتعامل مع الناس على موجتين إحداهما ما أراه الآن أمامى من إجابات تقليدية لأسئلة أكثر تقليدية .

ورغبة فى تخفيف حزام الاندهاش الذى حاصرنى قلت ضاحكاً: دعونا نعيد شريط التسجيل إلى بدايته لتكون البداية مختلفة تماماً . دعونا نبدأ مثلاً بسؤال من أحدكم: يا أستاذ عبد الوهاب نحن عندك منذ ساعة ولم تعزم علينا حتى بالشاى ؟

تطلع " الفرسان الثلاثة " نحوى للحظة . ولكنهم تطلعوا لمحمد عبد الوهاب للحظات فى محاولة لاستكشاف رد فعله هو. وهو يسألنى : طيب وسؤال زى ده .. له رد ؟ قلت له : عشرين رد . يعنى تقول لهم مثلاً .. أمس كنتم هنا وعزمتكم على شاى ولم يتم التسجيل . الليلة فيه تسجيل ومفيش شاى . إنتم أصحاب الاختيار والقرار .. عايزين تسجيل .. أو عايزين شاى ؟

فجأة تهللت أسارير محمد عبد الوهاب . إنما الذين انفكت عقدتهم فعلاً فهم " الفرسان الثلاثة " مطمئنين إلى حسن رد الفعل عند عبد الوهاب . خصوصاً بعد أن جلجلت ضحكته فجأة وهو يرد فرحاً كطفل : والله رد فيه فكرة وفيه ابتسامة .. وبعدين ؟

قلت مقترحاً : بعدين يجىء السؤال التالى . يعنى مثلاً .. لماذا أنت مشهور عنك البخل يا أستاذ عبد الوهاب ؟ والرد مثلاً هو ..

خمسة أو ستة أسئلة اقترحتها على هذا النحو وبعدها ذاب الجليد تماماً بين عبد الوهاب وفرسان الإذاعة الثلاثة . عبد الوهاب أصبح أكثر سلاسة ودفئاً بالنسبة لهم .. والثلاثة أصبحوا أكثر فصاحة واقتحاماً بالنسبة له . ثم أكملت الفكرة باقتراح آخر . لماذا يجلس المخرج الكبير محمد علوان صامتاً مكتفيا بكونه مخرج السهرة ؟ لماذا لا يشارك بنفسه أمام الميكروفون ؟ فمثلاً .. بعد كل إجابة من عبد الوهاب يقوم محمد علوان بدور المعلق على الإجابة قبولاً أو رفضاً .

فجأة نهض محمد عبد الوهاب واقفاً كما لو كان على وشك الرقص فرحاً لولا أن استدرك نفسه فى منتصف المسافة . لكنه قال للفرسان الثلاثة بحماس بالغ : كده فعلاً نضمن المستمع معانا، لأنه يلاقينا فى شكل فنى جديد ومختلف . ما هو الفن ؟ الفن فكرة . والفكرة جميلة وشكلها مختلف . ثم سكت فجأة مفكراً للحظات قبل أن يضيف : إنما حيث كده نكمل الفكرة على أصولها .. يعنى عندى إضافة .. أنا أجيب عن سؤال .. فالأستاذ علوان يعلق على إجابتى مرة .. بعدها فى إجابتى التالية سيادتك إنت تعلق على إجابتى .. وهكذا. هكذا أصبحت إضافة عبد الوهاب هى أن يحولنى من مستمع إلى مشارك فى السهرة ومعلقاً على نصف آرائه . ولم يكن ممكناً أن أرفض المشاركة فى فكرة كنت أنا الذى اقترحتها لتوى .

لقد مضى الحوار الإذاعى كما لو كان مباراة " بنج بونج ". أحياناً كنت أسحب محمد عبد الوهاب بعيداً. إلى قصة مجهولة له هناك فى لبنان لم يقدر لها أن تكتمل . أو أسحبه إلى قريب . إلى محمود شكوكو ، الوحيد فى طفولتنا الذى صنعت له التماثيل الصغيرة التى يقوم الباعة بإغرائنا بها مقابل مجرد زجاجات قديمة فارغة تحت عنوان " شكوكو بالقزايز يا أولاد " كيف خطر لعبد الوهاب أن يلحن لمحمود شكوكو وآخرين ضمن أغنية سينمائية بديعة شاركت فيها ليلى مراد وإسماعيل ياسين وآخرون منهم من بنى من الفول سبع عمارات ، ومن هو مربوط على الدرجة

التاسعة .. والناس درجات .. ومرشح ياخد الثامنة غير العلاوات .كيف تعطى الموسيقى هنا ملامح غنائية مختلفة تماماً لكل شخص حسب بيئته وطموحه فى الحياة .

الأغنية من الباب للباب. وعبد الوهاب فى حواره يخرج من كل الأبواب . السؤال وإجابته ثم تعليق بالسلب والإيجاب من محمد علوان أو منى .. وبتلقائية يتوقعها المستمع . والأكثر غرابة كان محمد عبد الوهاب نفسه الذى انفتحت نفسه فبدأ يدلى بآراء غير تقليدية بالمرة من التى اعتاد عليها فى معظم حواراته الإذاعية . آراء غير مسبوقة . آراء فى الفن . فى الشعر . فى الموسيقى . فى أم كلثوم . فى طه حسين . فى عبد الحليم حافظ . فى فيروز . فى لبنان . فى جارة الوادى . فى أحمد شوقى . فى الفارق بين غناء الصالونات وغناء المسارح للجماهير . فى معنى الفلوس عنده ومقياس البخل والكرم . فى حكاية الوسوسة . فى معنى السعادة . فى كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى . فى العلاقة بين " تخونوه " و" ظلموه ". فى .. وفى .. وفى

حينما انتهى الشريط الأول ، ومدته ساعة ، كنا كما لو أننا جميعاً لاهثو الأنفاس بعد سباق محموم فى الجرى . عبد الوهاب نفسه يتساءل مع تغيير الشريط: معقول مضى من الوقت ساعة بحالها ؟ دى مش سهرة .. دى محاكمة .. قالها بحماس . وانعكس حماسه عملياً فى مناداته على سعاد – مدير المنزل – باستغراب وحماس بالغ : إنت فين يا سعاد ؟ فين الشاى والقهوة وأى طلبات للضيوف يا سعاد ؟ الشاى ييجى مرتين يا سعاد .. مرة بالفناجيل ومرة بالأكواب . كفاية فضايح يا سعاد . فين العصير يا سعاد ..

قلت له متظاهراً بالهمس : لا تبالغ فى الحماس .. بعدين الضيوف يطلبوا عشاء ..

عاد محمد عبد الوهاب إلى ضحكته المجلجلة . أما محمد علوان فكله اندهاش . إنه تعامل سابقاً مع محمد عبد الوهاب إذاعياً كمخرج لحلقات " شىء من العذاب " التى كتبها أحمد رجب . لكن علوان مندهش الآن من هذا الكرم المفاجئ من عبد الوهاب .. حوارا ومشروبات . ثم قال متسائلاً : معقول فاتت ساعة ؟ معقول يا أستاذ عبد الوهاب نفسك مفتوحة لكل هذه الأجوبة التى نسمعها منك لأول مرة .

والآن يرد عبد الوهاب بهدوء ، ولكن بضغط على الكلمات : أظنك يا أستاذ علوان تعذرنى الآن وتفهم لماذا تمسكت بوجود محمود عوض. لأننى فى حاجة دائماً إلى من ينكشنى حتى أتحمس .. ومن يدهشنى حتى أنطلق. فالفن ليس له كبير. يعنى أنا محمد عبد الوهاب.. إنما لو قلت لى أقعد اسمع محمد عبد الوهاب نفسه يتكلم فى الراديو لمدة ساعتين سأصاب بالزهق والملل . لابد يكون فيه فكرة. فيه جاذبية. فيه شيء جديد. فحتى محمد عبد الوهاب يحتاج إلى الجديد ليتحمس مستمعاً لمحمد عبد الوهاب.

الشــىء الغريب فعلاً هو أن تلك الســهرة الإذاعية المطولة ســجلت بعد إذاعتها فى اليوم التالى نجاحاً غير مســبوق بسيل من مكالمات وبرقيات المســتمعين يطلبون إعادة إذاعتها ثلاث مرات وهى سابقة غير مألوفة فى تلك المدة القصيرة.

أما فى حينها فقد كان رد الفعل الأول الذى لفت نظرى هو من عبد الحليم حافظ. لقد اتصل بى بعد الإذاعة بيومين ليقول لى متســائلاً : بذمتك.. كم من الوقت احتجتموه ، لإعداد هذه الســهرة أنــت وعبد الوهاب ؟. وحينما حكيت له بالضبــط ما حدث ، وكيف أن الأمر كله جاء صدفة ، غير عبد الحليم موضوع الحديث فجأة وسألنى : هو العيد الصغير (عيد الفطر) باقى عليه كام ؟. قلت له حوالى عشــرة أشــهر. قال عبد الحليم بكل هدوء وجدية : طيب من دلوقتى سأرتب مع فرسان الإذاعة الثلاثة ليكونوا عندى فى البيت مع جهاز التســجيل ليلة الوقفة (بعد عشــرة أشهر).. إنما يا ريت تشرفنى معهم..

قلت لعبد الحليم بنفس البراءة : ماشى .. سأكون عندك بالصدفة بعد عشرة أشهر . إنما الساعة كام ؟

□□□

إعلانات ..
والأجر على الله !

جلست أمام جهاز التليفزيون محدداً من البداية ما أريد أن أشاهده وأتابعه. لا أفلام ولا مسلسلات ولا برامج ولا حتى نشرات أخبار أريد متابعتها . أتطلع فقط لمعرفة حال بلدنا .. وأعرفه من إعلاناتها . فالإعلانات ، خصوصاً في التليفزيون والصحف ، مكلفة للغاية . والذين يعلنون لديهم بالطبع ما يريدون الإعلان عنه .لكن قبل ذلك لديهم الأموال اللازمة لتسديد ثمن إعلاناتهم .ثم إن الإعلانات لا ترفع ضغط الدم . ولا يوجد من يدفع لكي يعلن للمشاهدين خبراً سيئاً . كلها أشياء مبهجة . كلها سلع أو خدمات مغرية. والإعلانات عنها تكون غالباً راقصة .. لا أعرف لماذا . وبين إعلان وآخر يقدم لك المعلن نفسه من خلال نجوم مسرح أو سينما رأوا فلوس الإعلانات أسهل وأكثر من فلوس الفن فاختصروا الطريق إلى داخل بيوتنا .. نحن نشترى السلع وهم يقبضون العمولة في حين أن المعلنين يفوزون بالأرباح .

هى إذن سهرة للتسلية .. كبداية . هى أيضا هواية أمارسها بين وقت وآخر حتى فى رحلات خارج مصر .

أتذكر أننى ذات رحلة مبكرة إلى الولايات المتحدة وكندا قضيت فيها شهوراً لدراسة الشخصية المصرية المهاجرة ومدى تفاعلها مع المجتمع الأمريكى أو الكندى الذى هاجرت إليه . الدراسة نشرت بعض حلقاتها فى " أخبار اليوم " ثم أصدرتها فى كتاب بعنوان " مصرى بمليون دولار ". فى الكتاب فصل بعنوان " مستر أمريكا " حاولت فيه أن أصحب القارىء معى فى رحلة لفهم الحياة الأمريكية كما هى عليه فعلاً . مع ذلك كانت الإعلانات ـ وإعلانات التليفزيون تحديداً ـ هى أحد الأبواب الخلفية التى طرقتها لفهم ما أراه . فى حينها لفت نظرى تماماً أن التليفزيون بالنسبة للأمريكيين هو كالمكتبة بالنسبة للفرنسيين ، والصحف بالنسبة للإنجليز ، والمقاهى بالنسبة للمصريين .. مع فارق أساسى جداً هو : أسلوب ونوع الإعلانات التى تتخلل برامج التليفزيون الأمريكى . فى حينها أيضاً كانت محطات التليفزيون فى أوروبا تنظر إلى محطات التليفزيون الأمريكى بترفع وازدراء والسبب هو أن المحطات الأمريكية كلها قطاع خاص وهدفها الأول تحقيق الأرباح. وبالتالى نحن

أمام تليفزيون تجارى يحقق أرباحه من إيرادات الإعلانات . وحينما تقرر الاستطلاعات أن مشاهدى محطـة تليفزيـون هم الأكثر عدداً.. فإن هـذا يعنى إقبالاً أكبر من الشـركات الضخمة للإعلان فيها عن سـلعها فتحقق المحطة أرباحاً أكبر. ونتيجة لذلك ابتدعت المحطات الأمريكية أسـلوب حشـر الإعلانات فى لحظات الذروة.. بل ويجرى قطع الفيلم المذاع ، أو البرنامج أو حتى نشـرة الأخبار ، عدة مرات بفواصل إعلانية لضمان الإذعان المطلق من المشـاهد حيث إنه: أينما تكونوا .. تحاصركم إعلاناتنا. فمهما يكن الفيلم أو البرنامج أو الخبر المذاع فلابد أن تتخلله الإعلانات . الخبر عن القمر.. والإعلان عن مسـحوق غسيل. الخبر عن الزلزال فى اليابان.. والإعلان عن إعداد الشوربة. الخبر عن رئيس الجمهورية.. والإعلان عن استخدام زيت الشعر لغزو قلوب النساء.

فى أوروبا كانوا يعتبرون هذا سوقية وقلة احترام لحقوق المشاهدين . لكن باحترام أو من غيره صاحب الفلوس حر فى شـروطه وطلباته .. ومحطة التليفزيون تريد مزيداً من الإعلانات . كثيرون مـن المثقفين الأمريكيـين الذين عرفتهم كانوا مشـمئزين أيضاً .. ويحسـدون المواطن الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى مثلاً لأن فلوس الإعلانات لا تحاصره إلى هذه الدرجة فى محطاته التليفزيونية كمـا هى الحال فى أمريكا. والاعتراض ليس حتماً على الإعلانات من حيث المبدأ ولكن على فرضها داخل البرامج والمسلسـلات ونشرات الأخبار .. لأن هذا يقلب المسألة رأساً على عقب.. فبدلاً من أن تكون الإعلانات فى خدمة البرامج تصبح البرامج فى خدمة الإعلانات.

الجـدل هنا مسـتمر . لكـن ما أتذكره الآن هو أننـى كتبت تحديداً فى ذلـك الكتاب المبكر فى حياتى: " إن مشـاهدة التليفزيون الأمريكى توحى لك للوهلة الأولى بأنهم شعب يعانى من تسوس الأسـنان وتسـاقط الشـعر والصداع المزمن والمغص الدائم . نسـاؤهم تحتاج إلى سـوتيانات محشوة ورجالهم يعتمدون فى جاذبيتهم على زيوت الشعر . إن المجتمع الأمريكى .. كما تصوره الإعلانات هو كابوس من الخوف والغيرة والثرثرة والاغتياب والحسـد والطموح والجشـع والطمع والشهوة.. حيـث الغاية تبرر الوسـيلة .. حيث العاطفة يجـب أن تكافأ والمثل العليا يجـب أن تداس والقيم تلوث . إن الأمريكى المثالى ، كما ينطبع فى ذهنك من الإعلانات هو شخص يعيش فى عذاب القلق والشـهوة.. شخص لا قيمة لأى شيء عنده إلا إذا ارتبط بنتائج عملية سريعة. إنه يقرأ الكتب لكى يتحدث جيداً . يسـتمع إلى الموسـيقى لكى يؤكد مركزه الاجتماعى . يختار ملابسه لكى تؤثر على تجمعات رجال الأعمال. يسلى أصدقاءه لكى يتقدم فى وظيفته . يقدم الهدايا المستمرة لزوجته لكى تحبه ، ولأولاده لكى يحترموه .. فحتى الحب والاحترام ـ بالنسبة للإعلانات الأمريكية لا يتمان إلا بالرشوة . "

" إنها إعلانات لا ترى شيئاً مقدساً ولا شيئاً شخصياً . إنها للحقيقة تخاطب مشاعر الأمومة أو الزواج أو الدين أو الصداقة أو الصحة أو النظافة . ولكنها تصور الحب مثلاً كشـىء تنافسـى يذهب

لهؤلاء القادرين على شراء أغلى الهدايا . تصور الصداقة على أنها سلعة فى المزاد ، لا يحصل عليها من يقدم لأصدقائه مشروباً رخيصاً أو يجلسهم على أثاث متواضع . إن الترقى والتقدم فى الحياة لا يأتى عن طريق العمل أو الذكاء أو الشخصية أو أية قيمة متعارف عليها.

" إنه يأتى بمزيج ذكى من الخداع والرشوة و" القر " والابتزاز . إن كل هذا يوقع دارس الشخصية الأمريكية فى مشكلة مربكة . إن من مهمة المعلنين أن يدرسوا أولاً عناصر هذه الشخصية قبل أن يخاطبوها . مواردهم تمكنهم من الحصول فى دراستهم هذه على أحدث أبحاث علماء النفس والاجتماع . وعلى ذلك فإذا كانت هذه الإعلانات تتم بناء على تحليل صحيح للشخصية الأمريكية فإن هذا يعنى أن الشعب الأمريكى هو شعب فاسد متدهور .. بينما الحقيقة هى عكس ذلك تماماً . إن المعلنين يخاطبون فى الشعب الأمريكى مشاعر الخوف والاستعلاء والأنانية . ومع ذلك فليس فى الشخصية الأمريكية ما يؤكد وجود هذه الدوافع مطلقاً .. تناقض».

كانت تلك هى انطباعاتى المكتوبة مبكراً من زمن سابق . انطباعات بأن ثقافة الاستهلاك هى التى يجرى ترويجها والإلحاح عليها .. بفكرة أن إستهلاكاً أكثر يغرى بإنتاج أكبر .والآن أصبحت فيها .. إنما من خلال سهرتى مع إعلانات التليفزيون المصرى . كنا أوروبيين – تليفزيونياً – حتى سنوات قليلة مضت . الآن.. متأمركين . الآن لا توجد فواصل إعلانية فقط . بل الإعلانات فى قلب البرنامج والفيلم والمسلسل . لم يبق سوى نشرة الأخبار .. ربما لأنها ملك الحكومة .. والحكومة لا تقبل المنافسة . الإعلانات جذابة مبهرة سريعة الإيقاع معظمها ينتهى بعنوان أو رقم تليفون أو عبارة : اتصل بنا الآن .. اشترى الآن. طيب .. نشترى وفهمناها . إنما : نشترى ماذا ؟

خذ عندك : أجهزة تكييف من كل نوع .. فالجو صيف وعيب الناس تقول عليك متخلف . والبوتاجازات أشكال وأنواع وحرام الدول المتقدمة تتمتع بها وأنت بعيد . جاهزون لتأثيث منزلك من الألف إلى الياء لو أنت جاهز نحن رهن الإشارة . الأثاث من إيطاليا والكريستال من فرنسا والموكيت من هونج كونج وطبق الدش من تايوان . السيارات من شرق وغرب .. وبالتقسيط المريح. حتى شركة الأسواق الحرة ، التى كان هدفها الأصلى البيع المحدود للعائدين من الخارج مقابل عملات صعبة .. تعرض الآن بيع نفس السلع المستوردة بالجنيه المصرى ، وبغير جواز سفر ، وباستعداد لتوصيل السلع إلى المنازل بسيارات الشركة مجاناً . هذا جهاز للمطبخ . يابانى أصلى. جهاز لشفط البطن .. لزوم الريجيم . مسحوق غسيل من أمريكا لزوم النظافة . هذه بطاقة إئتمان تحت أمرك لتمويل مشترياتك من الخارج رأساً . معقول الحمام فى بيتك بلاط قيشانى ؟ يا ستى عيب . أنت لست أقل من جارتك .. حمامها سيراميك. نحن جاهزون بالسيراميك حتى لحجرة الاستقبال فى منزلك وبعدها يحبك زوجك أكثر . مكانس من كوريا . حرير من الصين . مسحوق طعمية أكرر : طعمية من لبنان . تليفون محمول صناعة السويد . للمرأة الجميلة وتبحث عن جمال

أكثر .. عطور من فرنسا . بعدها كل الرجال تحت أمرك . للرجل المتدين مسبحة وسجادة صلاة صناعة الصين . للأولاد فوانيس سحرية من ماليزيا وأحذية رياضية من تايلاند . هيا يا بطل : بابا يريدك رياضياً متفوقاً والتفوق يبدأ من الحذاء المناسب إلى البطاطس المحمصة وساندويتشات الهامبورجر وفراخ كنتاكى ماركة الخواجة إياه وعشرين صنف جبنة من سويسرا والدانمرك من أجلك خصيصاً . المرأة تجيء قبل الطفل وبعده . تريدين جمال كلوديا شيفر ونحافة يسرا أوحتى قالب ليلى علوى ؟ كله موجود . مساحيق للتجميل ووصفات للسمنة وموديلات من روما وباريس وزيوت للشعر من مدريد وشريط أغان من بيروت وصل تواً من مطربة تقول إن أباها أوصاها من صغرها بأن عليها : « إذا عشقت .. تعشق مضبوط » وحسب تلك الأغنية الوثيقة - تخبرنا المطربة المحترمة: إذا باعشق أعشق مضبوط. إذا باحكى أهندس كلماتي. إذا بامشى أركز خطواتي. إذا باضحك ادرس بسماتي.. وكله كله تنفيذا وصايا الأب. هذا النوع الغنائى الإعلانى من الأب.

إعلانات إعلانات . إعلانات . السهرة جميلة ومسلية ومغرية و: اشترى الآن . اتصل الآن قبل أن يسبقك جارك إلى الشراء . تلحلح يا أخينا ولا تدفن نفسك بالحياة . الحياة حلوة بس نفهمها . والحياة جميلة بس كبر مخك وافتح جيبك .

إعلانات.إعلانات.إعلانات . والحساب يجمع . الحساب يطلع أولاً من جيوب المشاهدين المستهلكين . فيصب رأساً فى جيوب البائعين بعد أن يحصل التليفزيون فى منتصف المسافة على عمولته . لكن السؤال بعد هذا كله هو : إذا عرفنا من يدفع .. فمن يكون المستفيد ؟ فى كل السلع التى تابعتها إعلانياً لم أجد بينها سلعة واحدة مصرية باستثناء السيراميك وبعض السجاد . حتى الطعمية كغذاء مصرى من يومه .. يصدرها لنا لبنانى شاطر . يعنى .. كل أمم الأرض أنتجت ونحن تم اختصارنا إلى مجرد مستهلكين لإنتاجها . هل الحياة الواقعية تسير هكذا؟ ألا يحب كل أبوين لابنهما أن يجد الوظيفة والشقة والسيارة وجهاز التكييف والسفر للسياحة بالخارج فوراً ؟ لكن كل أبوين يجدان من اللازم تربية ابنهما على مبدأ أساسى هو : بقدر لحافك ـ مد رجليك .. تذاكر .. تنجح .. تزرع .. تحصد .. تدخر .. تأمن . تعتمد على نفسك .. تضمن النجاح فى الحياة والتفوق على كل منافسيك . تريد أن تستهلك .. كن أولاً منتجاً فتتعامل مع الآخرين رأساً برأس.

والآن .. ماذا ننتج ؟

كنا ننتج ، مثلاً ، أفلاماً سينمائيةً نصدرها لكل العالم العربى . الآن بعد خمسين فيلماً فى السنة أصبحنا ننتج.. يادوب - خمسة . كنا ننتج أدوية مصرية وعالمية تستوردها منا أفريقيا وآسيا. الآن أصبحت الصيدليات الكبرى هى التى تروج للأدوية الأجنبية لمجرد أن مكسبها فيها أكبر . كنا نفخر بصناعة نسيج من القطن المصرى بدأها طلعت حرب بشركة المحلة الكبرى وضاعفها عزيز صدقى بالتصدير إلى أوروبا . الآن تحولت صناعة النسيج عندنا إلى «بنت الجارية». كنا شديدى

الاعتـزاز بصناعة الأثاث في مدينـة دمياط التي تصدرها إلى أوروبا الشـرقية. الآن راحت دمياط ودخلت روما على الخط. كنا ننتج سيارة «فيات ١٢٨» .. ولو بالتجميع .. سعرها في متناول الطبقة المتوسـطة . الآن تخبرنا الإعلانات بعشـرين ماركة سيارات كلها مسـتوردة بالكامل وأسعارها من العيار الثقيل وكل المطلوب منا – كمستهلكين – أن نوقع على فواتير الشراء فتلتزم الحكومة بتحويل جنيهاتنا المصرية إلى عملات أجنبية .. ولو بالاقتراض والدين .

الفكرة هنا من شـقين . أولاً: حاجتنا إلى نوع مطلوب من الوطنية هو « الوطنية الاقتصادية ». هذه الوطنية ليست أبداً « دقة قديمة » فالزعيم الأمريكي الراحل إبراهام لنكولن مثلاً كان يخطب في مواطنيه الأمريكيين قبل مائة وأربعين سنة قائلاً: أنا لست خبيراً في الاقتصاد . أنا قانوني بحكم الدراسـة . لكنني أيضاً مواطن أمريكي بحكم المولد والانتماء . وما أعرفه هو أن المواطن الأمريكي حينما يشـتري سـلعة من إنتاج بريطانيا مثلاً فقد دفع هو الثمن . أما الذي اسـتفاد من ورائه فهو صاحب مصنع في بريطانيا ، وعمال إنجليز ، وسـفينة شـحن بريطانية .. إلخ . لكن نفس المواطن الأمريكي حينما يشـتري سـلعة أمريكية يكون بذلك قد ضمن وظيفة لعامل أمريكي ، وحقق ربحاً لصنـع أمريكي ، وأفاد بائعاً أمريكياً .. وفـي نهاية المطاف يصبح الاقتصاد الأمريكي أكثر قوة .. وأهم نتائج القوة هنا هو أن يجد الشاب الأمريكي فرصة عمله في انتظاره.

أخيـراً قـرأت في باب تقليـدي في جريدة أمريكية خبراً نشـرته قبل مائة سـنة . في الخبر يسـجل مراسل الجريدة في نيويورك أن السلطات المختصة بدأت بكل حزم تطبيق القانون الأمريكي الجديد الصادر وقتها ، بمنع اسـتيراد المنسـوجات من الخارج تماماً . وإحدى السـفن التي وصلت إلى ميناء نيويورك ضبط فيها رجال الجمارك سـيدة أمريكية بدت منتفخة الجسـم بشـكل لافت وتبين بعدها أن السـبب هـو كومة الملابس التي ترتديها وكومة أخرى مـن الملابس في حقيبة لها قائلة لمأمور الجمارك أن هذا كله لاسـتعمالها الشـخصي. وبعد أن راجع مأمور الجمرك الموقف قال لها: يا سيدتي.. هذه ملابس جديدة تماماً ولا يبدو عليها أنك استخدمتها أصلاً . أقدم لك اعتذاري. لكـن القانون هو القانـون . كل تلك الملابس يتم مصادرتها مع فرض الغرامـة القانونية التي يجب عليك تسـديدها حالاً.. وإلا: الحبس . في نفس الجريدة الأمريكية ، قبل مائة سـنة ولكن بعدها بأسبوع واحد خبر آخر في الصفحة الأولى لمراسلها من باريس ،يسجل فيه أن وزيراً في الحكومة الفرنسـية هاجم قانون الجمارك الأمريكي الجديد معلناً أن فرنسا تعتبره إعلان حرب تجارية ضد كل أوروبا.

بحرب أو بغيرها ، وبسـوق مفتوحة أو مغلقة ، لم تكن أمريكا سـتصبح على ما هي عليه الآن لولا أنها اسـتوعبت مبكراً الدرس الجوهري : يجب أن تنتج أولاً قبل أن تستهلك، وتصدر قبل أن تستورد. وسواء تكلمنا من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين فإن المسألة فعلاً هي حياة أو

موت . هي حياة لجيل جديد من الشباب يصبح في سن العمل .. وهذا هو الشق الآخر المهم . فحينما نشاهد إعلاناً عن سلعة مصرية نصبح أمام واقعة محددة . واقعة أن مصنعاً جديداً جرت إقامته في بلدنا. لايهم أن يكون المصنع قطاعاً خاصاً أو عاماً، بالضبط كما أنه لايهم أن تكون القطة بيضاء أو سوداء . المهم هو أن تصطاد الفئران. المهم أن نبني اقتصاداً منتجاً يتيح فرص العمل لكل الشباب .

وحينما أشاهد إعلاناً عن سلعة أجنبية لترويجها داخل مصر فهذا خبر طيب للشباب هناك في البلد المنتج . لكنه أيضاً خبر سيئ للشباب هنا في مصر المستوردة . هذه ليست دعوة لمنع الإعلانات. هذه دعوة لكي نصحح حياتنا من تحت لفوق. في أول زيارة لي إلى اليابان قبل سنوات طويلة فوجئت بأن السلع اليابانية تباع في طوكيو بأغلى مما هي خارج اليابان . هذا لأنهم يردعون الاستهلاك المحلي ويشجعون التصدير . أما المفاجأة الأخرى فهي المنع المطلق لاستيراد سلع محددة.. أهمها الأرز . اليابان جزيرة كما نعرف ومعظمها صخرية . والأرز الياباني بتلك الصفة من أردأ أنواع الأرز في العالم . واليابان دولة غنية ، وهي قريبة من أمريكا حيث الأرز الأمريكي أجود وأرخص . لكن .. أبداً . لو استورد المواطن الياباني كيلوجرام واحداً من الأرز لا يصادر الأرز فقط ولكن يعاقب المواطن نفسه بالغرامة والحبس . ليس في الموضوع أي عداء لأرز الآخرين . ولكن حماية زراعة الأرز الياباني من البوار.

وفي صبانا لم نكن نشاهد خارج المدن مخبزاً للخبز الأفرنجي – العيش الفينو – وكانت بيوتنا تصنع خبزنا . بعد أن كبرنا عرفنا أن الفكرة من قديم هي تشجيع القرية المصرية على أن تكون قرية منتجة لخبزها ودجاجها ولحومها وبيضها .. إلخ.

وأخيراً قرأت أن وزارة التموين تبحث إطلاق تراخيص مخابز العيش الأفرنجي بحجة أن مواطن الريف من حقه أن يأكل نفس العيش المتاح لمواطن المدينة . كلام كبير لكنه مضلل . فأولى درجات العدالة هي أن نبقى على قيد الحياة . أن ننتج خبزنا وكساءنا . أما إذا كنا سنولد ونتعب ونتعلم ونتخرج لكي نصبح في نهاية المطاف عاطلين مستوردين ومستهلكين .. فلنا الله . لكن الله حينما أراد هدايتنا بعث إلينا بأنبياء يعملون ويكدحون ويصنعون طعامهم ويكسبون عيشهم .

ويوم نجد الإعلانات الرائجة في بلدنا هي عن سلع مصرية يصبح من حقنا أن نطمئن لمستقبل أفضل . أما في اللحظة الراهنة فتحاصرنا الإعلانات على مدار الساعة . إعلانات أمريكاني . ولو كانت أمريكا عاشت حياتها كما نفعل نحن أخيراً لما أصبحت أمريكا التي نراها الآن . أمريكا المنتجة والمصدرة والمغرقة لأسواق الآخرين بسلعها بناءً على حسبة بسيطة يكررونها دائماً : كل سلع بألف مليون دولار تصدرها أمريكا إلى الآخرين .. معناها عشرين ألف وظيفة جديدة للشباب الأمريكي . حقيقة أدركوها من أيام إبراهام لنكولن قبل ١٤٠ سنة والآن يحصدون ثمراتها . هم ينتجون ويصدرون. حلال عليهم . نحن نستورد وندفع ونقترض ونتعطل . حرام علينا .



شيك .. يأخذ العقل !

الحكايــة فــى أولها تبدو مســلية. هذه رســالة واردة إلى بالبريد الجوى وقادمة من أشــخاص لا أعرفهم بالمرة. هم توصلوا إلى اســمى وعنوان منزلى ، والرســالة مطبوعة على ورق فاخر ملون، وتبدأ باســمى مطبوعــا بالانجليزية، وبحــروف كبيرة، مع خبر مثير: يا مســتر محمود عوض.. هناك٤١٠ ملايين دولار فى انتظارك.الرسالة واردة من استراليا وموقعة أولا من امرأة اسمها ديانا. وهى ككل امرأة من هذا النوع..تدخل مباشرة فى صلب الموضوع..

والموضوع بكلمات الراسلة هو: اننى أعشق ألعاب اليانصيب. وبين وقت وآخر كنت أكسب جائزة متواضعة بعشرة دولارات. لكننى أصبحت مع أصدقائى نكسب مئات الجوائز كل أسبوع. لذلك نحب أن تشــاركنا..لقد بحثنا حول العالم عن ألعاب يا نصيب بجوائز أضخم وفرص أســهل للفوز هناك وتكون الجوائز نقدا ومعفاة من الضرائب. هكذا وجدنا نوعين من اليانصيب. هناك البريطانى ويتيح ١٢٥ فرصة للفوز بالجوائز، وكذلك اليانصيب الاسترالى ويتيح ألف جائزة. مجموع جوائز النوعين معا ٤١٠ ملايين دولار. بعض هذه الملايين يمكن أن يصبح من نصيبك يا مستر محمود عوض.

ولكــى تدخــل الســحب الأول كل المطلوب منك هو شــراء تذكرة بمجــرد ٣٥ دولارا. من الآن احتجزنــا لك رقما خاصا لعضويتك الشــرفية معنــا. أيضا نريد تاريخ ميلادك باليوم والشــهر لأن الاحتمــال كبير بأن نفاجئك بهدية معتبرة فى نفس التاريخ. كذلك نريد رقم تليفونك لكى نخبرك على وجه السرعة بكل مرة تفوز فيها بمبلغ يتجاوز خمسة آلاف دولار....

الحكاية فى أولها تبدو مسلية لكننى نحيت الرسالة جانبا... نسيتها.

بعدها رسالة أخرى وبالبريد الجوى . فى هذه المرة هى من لندن وتبدأ كما يلى:

يا صديقى العزيز فيما وراء البحار . أنت مدعو للاشــتراك فى أســرع يانصيب نموا فى التاريخ. هذا اليانصيب بدأ فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٩٤ بالملكة المتحدة (بريطانيا). بعدها بشهر واحد كسب شــخص بمفرده مبلغ ١٧ مليونا و٨٧٠ ألف جنيه اســترلينى. أى ما يعــادل ٢٨ مليونا و٢٠٠ ألف دولار. فى أبريل١٩٩٥ فاز شخص واحد أيضا بجائزة تساوى ٢٢ مليونا و٣٠٠ ألف جنيه استرلينى. ومبكرا فى سنة١٩٩٦ فاز ثلاثة أشخاص معا بمبلغ مشترك هو ٤٢مليون جنيه استرلينى.

ثم الآن هناك سحب جديد متوسط جوائزه للشخص الواحد تسعة ملايين و٩٠٠ ألف جنيه استرليني. المكسب هنا معفى من الضرائب تماما والسحب يتكرر كل أسبوع. مطلوب منك فقط ٦٥ دولارا مقابل المشاركة طوال تسعة أسابيع، أو ١٣٠ دولارا مقابل المشاركة ١٨أسبوعا، أو٢٦٠ دولارا مقابل المشاركة لمدة ٣٦ أسبوعا. كلما دفعت أكثر أصبحت فرصتك في الفوز أكبر.

الحكاية في أولها تبدو مسلية. لكنني، مرة أخرى، نحيت الرسالة جانبا ونسيتها.

شهر والثاني ثم رسالة ثالثة . في هذه المرة من كندا. إنه اليانصيب الكندى بجوائز إجمالية قيمتها ثمانية ملايين دولار.كل المطلوب مني للمشاركة فيه من مكاني بالقاهرة هو تسعون دولارا. الرد يكون بالبريد أو بالفاكس و: سارع بالمشاركة لأن التذاكر المخصصة للأجانب فيما وراء البحار محدودة والاقبال عليها يتزايد يوما بعد يوم.

بعد استراليا وبريطانيا وكندا جاء الدور على أسبانيا. هذه الرسالة بالبريد الجوى واردة على عنوان منزلي بالقاهرة. انه يانصيب آخر باسم «الجوردو» الكلمة أسبانية ومعناها السمين أو التخين أو الضخم. الرسالة المطبوعة، باسمي في مقدمتها، تبدأ بكل رقة: يا صديقي العزيز فيما وراء البحار: أنت مدعو للدخول في واحد من أكبر سحبين لليانصيب الأكثر شعبية في كل أوروبا. هذا يا نصيب تشرف عليه الحكومة الأسبانية والسحب يتم مرتين سنويا... الأصغر في يوليو والأكبر في ديسمبر. الباقي فقط مائة ألف تذكرة بينما المطروح هو ٣٨ ألفا و٩٩٩ جائزة يعنى هناك فائز واحد من بين كل ثلاثة مشتركين، بينما اليانصيب الكندى هناك فائز واحد بين كل ٥٤ مشتركا. وفي اليانصيب الأسترالي فائز واحد بين كل ٢١٠ مشتركين. وفي يا نصيب ولاية نيويورك فائز واحد من بين كل ٣٣٣ .

في السحب القادم – أول يوليو سنة ٢٠٠١ يحصل الفائز على ١٣ مليون دولار. الثاني يحصل على أكثر من ستة ملايين دولار. والجوائز الأخرى هي.... وكلها معفاة من الضرائب. كل المطلوب منك الآن هو شراء تذكرة واحدة مقابل ٧٥ دولارا ، أو تذكرتين مقابل ١٤٥ دولارا ، أو ثلاث تذاكر مقابل ٢١٠ دولارات... »

ومع أن الرسالة واردة من أسبانيا الا أن الرد يكون على عنوان في هولندا حيث مقر الوكالة المتخصصة للزبائن المحتملين أمثالي ممن يقيمون وراء البحار.

الحكاية في أولها تبدو مسلية. لكنني مرة رابعة، نحيت الرسالة جانبا ونسيتها.

بعدها جاءت الرسالة القنبلة من ألمانيا. وهي قنبلة لأنها تبدأ، باختصار وبغير مواربة، بصورة شيك مصرفي مطبوع وموقع للصرف. خمسة وعشرين مليون مارك ألماني (تساوى تقريبا عشرة ملايين دولار أمريكي) يتم دفعها بمدينة هامبورج بألمانيا في تاريخ محدد هو ٣٠ ديسمبر سنة ٢٠٠١ لأمر المستفيد الذى هو: محمود عوض. مصر.

شـيء جميل ومنعش أن يتلقى المرء شـيكا مصرفيا، وبالماركات الألمانية، وبهذا المبلغ الضخم الذى يسـاوى حاليا نحو أربعين مليون جنيه مصرى. شـيء..ولا فى الأحلام. حتى هارون الرشيد فى زمانه لم يكن بكل هذا الكرم والسخاء. هو على الأقل كان يطلب أولا قصائد شعر تمدحه وتمجد فيه. لكن هذه الرسـالة تبدأ من غير طلبات، وبشـكل مفحم خلاصته ٢٥ مليون مارك، ولكى يصبح الكلام عمليا فإن الرسالة تقترح على مسبقا برنامجا متكاملا لاستثمار هذه الخمسة وعشرين مليون مارك.

فالرسـالة الواردة إلـى بعنوانى فى القاهرة تقتـرح على البرنامج التالى لكـى أختصر الطريق إلى "الاسـتقلال والحرية ": أولا أشـترى فيللا فاخرة فى أجمل مكان فى العالم لن يتجاوز ثمنها مليونين ونصف المليون مارك . أشـترى سيارة من أفخر ماركة ثمنها مائتا ألف مارك . أقوم برحلة ترفيهية مدهشـة حول العالم ككل المليونيرات سـتكلفنى مائتى ألف مارك . أشـترى شقة إضافية للإجازات السـريعة بأى مكان فى أوروبـا كالريفيرا مثلاً بثمانمائة ألف مـارك . بعد هذا الإنفاق والبذخ سـيتبقى لدى من قيمة الشيك مبلغ ٢١ مليونا وثلاثمائة ألف مارك . لحظتها أضع المبلغ فى أى بنك كوديعة للاسـتثمار . ولو أعطانى البنك مجرد أربعة بالمائة فائدة فهذا يعنى حصولى على دخل شهرى قيمته ٧١ ألف مارك أبعثرها يميناً ويساراً كما أشاء ... بينما يظل مبلغ الوديعة ثابتاً كما هو .. وديعة بإسمى لدى البنك .

الآن عـدت أتأمـل الشـيك من جديد والرقم مرة أخـرى: ٢٥ مليون مارك . فيه من الشـيك كل صورته وأركانه . فيه تاريخ محدد للصرف واسـم محدد للمستفيد وتوقيع محدد للدافع ورقم محدد للمدفوع بالحروف والأرقام ثم مكان الصرف . فقط مطبوع أيضاً فى الركن الأعلى يساراً إشارة إلى أنه نموذج «عينة»... بمـا يعنـى أنه " بروفة " للشيك الحقيقى الذى يحتمل أن يكون من نصيبى فيما لو شـاركت بهذا اليانصيب الألمانى بمدينة هامبورج . أما المطلوب مقابل كل هذا السـخاء ، بل تلك الثروة المحتملة الهابطة من حيث لم أحتسب ، فهو أن أشارك بدفع ٤٥ دولاراً أو ٧٢ أو ١٤٠ دولاراً حسـب مزاجى .... فترتفع فرص فوزى من ٨٩٪ إلى ٩٨٪ إلى ١٠٠٪ وكل شـيء بكلامهم محسوب بالكمبيوتر . والمسـألة كلها مجاملة موجهـة إلى شـخصياً ، حيث يقول صاحب الرسالة المطبوعة : يامسـتر محمود عوض ..... هذه دعوة شخصية لك للمشاركة فى هذا اليانصيب : فأنا لا أرسل مثل هذه الدعوة إلى أى شخص . والسبب هو أننى أتعمد حصر عدد الزبائن فى هذا اليانصيب، فكلما قل العدد زادت فرص الفوز . ومع ان الجائزة الأولى هى ٢٥ مليون مارك .. إلا أن هناك جوائز أخرى. فإذا كان السـحب الكبير سيجرى فى ٣٠ سبتمبر سنة ٢٠٠١ لكن منذ الآن ، أى من قبلها بشهور، هناك سـحب يومى جائزته الأولى مليون مارك يومياً ، والثانية سـيارة مرسـيدس ثمنها ٦٠ ألف مارك، وبعدها ٢٤ جائزة من كل عشرة آلاف مارك و..... و.....

إنما خلينا فى حكاية الشـيك . ادفعوا مبلغ خمسـة وعشرين مليون مارك لأمر ... شيء يهبل. شـيء يأخذ العقـل . فيخبطة حظ مثل هذه يصبـح المرء طرزان مدينتـه ومليونير عصره وهارون زمانه... وبأقل القليل - مجرد ٤٥ دولاراً أو حتى ١٤٠ لو كان الطمع أكبر . وبمثل هذه الألعاب من الذى لايطمع .... ومن الذى لاتتفتح شـهيته للمزيد مـن والمزيد من الطمع ؟ الحكاية ممكن تخيب .... وممكن تصيب أيضاً بدعاء الوالدين أو بأحلام اليقظة . فاليانصيب نوع من القمار.

بالفعل .... قمار . والقمار ضعف إنسـانى غريزى تربطه علاقة عكسية مع العقل . فبالعقل فقط يدرك المرء أن المكسب والثراء السريع موجود فقط فى الروايات والأساطير والجرائم ومثل هذا النوع مـن ألعاب الحواة ... «ألعاب الثـلاث ورقات» البدائية كما عرفناها صغاراً ، لكن فى هذه المرة على أكبر ... وبالخواجاتى .

إنما نرجع للشيك . لقد تأملته من جديد وتأملت الرسالة المرفقة به وعدت إلى الرسائل السابقة من أسـبانيا واسـتراليا وكندا وبريطانيا . كلها شـركات عابرة للقارات لديها مثل تلك الإمكانات لاصطيـاد الزبائن المحتملين حول العالم وإغرائهم ودغدغة مشـاعرهم خصوصـاً فى عالمنا الثالث . حتى الرسائل المطبوعة على ورق فاخر وبألوان جذابة يشترك فى صياغتها خبراء فى علم النفس لأن الرسـالة هنا تلعب على مجموعة نقاط ضعف بشـرية .... كالتخاطب الشخصى ، وطبع اسم المرسل إليـه بحروف كبيـرة والإيحاء له بأن كثيرين فـازوا قبله والفرص المتاحة أمامـه عديدة ومتنوعة ومغريـة ، وأنه كلمـا دفع أكثر أصبحت فرصه فـى الفوز أكبر ... وبالملايـين. طبعاً حاجه تهبل وشـيكات تأخذ العقل ... إنما فى حالة واحدة فقط . أن يكون المرء ناقص عقل ودين وتربية وثقافة ومعرفة .. ويكون أيضاً بالغ الطمع فى الفلوس السـهلة. وفى تجربتى الخاصة هنا شـغلنى أمران. كيف أصبح اسمى وعنوان منزلى متاحا بهذا الشكل لشركات لا أعرفها ما بين كندا واستراليا؟ ولماذا لم تبدأ مثل تلك الرسائل فى الورود إلا فى خلال السنوات القليلة الأخيرة ؟

فى الاجابة عن السـؤال الثانى وجدت الرد بسـيطا. وبغير أن نفتح النقاش واسـعا فى مسـألة «العولمة» فقد أصبح انفتاح الأسواق الدولية على بعضها البعض يعنى حرية حركة الأموال. فإذا كان فى جيبى بطاقة ائتمان بالقاهرة بالعملة الأجنبية فهذا يعطينى حرية شراء أى سلعة من أى مكان فى العالم وأعطى للشركة الأجنبية رقم بطاقة الائتمان الخاصة بى وتوقيعى... فيصبح البنك المصرى الذى أتعامل معه ملتزما بتسديد المبلغ فورًا وتحويله إلى الشركة الأجنبية وبالعملة الأجنبية . فى هذا الجانب خير ... وفيه شر أيضاً .

أما الإجابة عن السـؤال الأول فقد توصلت إليها بعد أن تكررت مثل هذه الرسـائل شـهراً بعد شهر. وأصل الحكاية هى أننى على مدار السنة أشترى كتباً أجنبية عديدة وأدفع اشتراكات سنوية

في عشـرات من المجلات والصحف ونـوادى الكتب الأجنبية. مع كل بطاقة أشـتراك لم ألاحظ فى البداية أن هناك سؤالا مطبوعا ومتكررا، وإن يكن بحروف صغيرة للغاية. سؤال يقول: هل ترغب - أو لاترغب - فى تلقى مطبوعات دعائية من شركات ومؤسسات أخري؟

السـؤال برىء... وفى البداية لم أكن أضع أية إجابة... سـواء بالرغبة أو بعدمها. مع الوقت اكتشـفت أن الشـركات الكبرى عابرة القارات هذه حولت قوائم زبائنها المشتركين لديها إلى سلعة إضافيـة... فأصبحت تبيع قوائم المشـتركين وعناوينهم إلى بعضهـا البعض. من هنا المفاجأة. فأنا أسـدد اشـتراكا لنادى كتب في الولايات المتحدة مثلا... لأفاجأ بعدها برسائل دعائية ترد إلى من شركة مجوهرات فى هونج كونج مثلا، أو سلسلة مخابز وحلويات فى ولاية تكساس بأمريكا، أو مصنع أسلحة شخصية فى سويسرا، أو شركة سيارات في السويد، أو شركة توظيف أموال فى جبل طارق،أو حتى شركة توفير جنسيات أجنبية بديلة وجوازات سفر إضافية من دول صغيرة جدًا فى جزر المحيط الهادى أو بعض دول إفريقيا.

هذه المسألة بحد ذاتها موضع خلاف سياسى كبير مؤخراً بين الولايات المتحدة من جانب وبعض دول أوروبا الغربية من جانب أخر. فالحكومات الأوروبية ترى أن تراسـل شـركة مع مواطن دون استئذانه وموافقته مسبقا يمثل نوعا من الإعتداء على حق المواطن فى الخصوصية... وبالتالى لابد من تجريم قيام الشركات ببيع أو تبادل قوائم الزبائن مع بعضها البعض إلا بشرط وجود موافقة كتابية صريحة مسبقة من المواطن المعنى فى كل حالة. فى المقابل ترى الحكومة الأمريكية حتى الآن إطلاق حرية الشركات فى اقتحام حياة الزبائن المحتملين بالمطبوعات الدعائية كجزء من حرية التجارة.

انما...نرجع للشـيك..فلكى يصلنى مثل هذا العرض بالقاهرة لابد من سـهولة تحويل الأموال وهذا ما تشـترطه قوى" العولمة " تحت شعار حرية التجارة. لابد أيضا من قلة العقل. هم يصطادون الزبون من خلال إغرائه بالمال الضخم السـهل السريع وبغير مجهود وبضربة حظ. يعنى: "قمار". وبامتـداد التاريخ كان القمار أقصر الطرق إلى الخراب. ومـن هنا تتدخل الحكومات لمنعه والأديان لتحريمـه. إنمـا على طريقـة" اذا لم ينتقل الجبل إلـى محمد فعلى محمـد أن ينتقل إلى الجبل" اقتحمـت حياتنا مؤخرا إغـراءات أخرى... هى نصـف الطريق إلى القمار. برامج المسـابقات فى التليفزيون مثلا. هى أصلا للتسـلية والترفيه وبالتالى فجوائزها كانت معنوية ورمزية بغير تركيز زائد عن الحد على الفلوس.... وبالذات الفلوس الضخمة.

ونتذكر قبل سـنوات قليلة اقتحام شركات محلية لشاشات التليفزيون المصرى ببرامج خاصة فى شـهر رمضان أسـاس جوائزها الفلوس... وبالآلاف... وبالكاميرات تعرض يوميا مشهد" سعداء الحظ" وهم يتناولون من مندوب الشـركة المختصة شـنطة الفلوس. وقتها أصبحت تليفونات القاهرة

والأقاليم تصاب بالشــلل لســاعتين أو ثلاث يوميا.. التى هى الفترة المحــددة للأتصال بالتليفزيون تليفونيا..لعــل وعســى. أكثر من ذلك.. لاحظنا مؤخرا اقتحام برنامج مســابقات لبنانى لشاشــات التليفزيون المصرى بإغراء غير مسبوق للمشاهد المصرى هو أن يكسب المليون. فإذا لم يكن هذا نصف الطريــق إلــى القمار... فماذا يكون ؟ وإذا كان الطريق إلى الثروة بمثل هذا الحظ العشــوائى.. ومثل تلك السهولة... فلماذا يأخذ الناس حياتهم بجدية؟ التسلية واردة.. ومرغوبة.... ولازمة بين وقت وآخر. ولكن جر الرجل إلى القمار وتنويعاته شــيء مختلف. إنه اســتبدال بالحياة الحقيقية أوهام تهبل. أوهام تأخذ العقل وتشفط الفلوس ، أوهام أولها فلوس سهلة. طيب.... وآخرتها ؟

❑❑❑



التعليم .. ضد التيار !

حينما فاجأني الطبيب ذات مساء بأن إحدى الكليتين في جسمي معطلة بالكامل، ومنذ سنوات طويلة سـابقة، نحى جانبا أوراق التحاليل والفحوصات ثم بدأ يشـرح لي كصديق.. معنى ان يعيش المرء بكلية واحدة. لكن الطبيب الصديق فوجيء بأن سؤالي الأساسي هو: هل يعني هذا أنني أعيش منذ عشـرين سنة على الأقل بكلية واحدة ؟ رد الطبيب بالإيجاب. ولحظتها فوجيء بأنني انطلقت فـي نوبة حادة من الضحـك.. بعد ان صدمتني تلك المفارقة الكبـرى. مفارقة ان أجيء إلى الطبيب لشكوى محددة.. فإذا المصادفة البحتة تكشف لي عن شيء آخر مختلف تماما.. وبطريقة عابرة.

لقـد تنفس الطبيـب الصديق الصعداء قائلا لي: الحمد لله انك تأخذ الأمر ببسـاطة.. فقد كنت أحمل هم الكلمات التي أشـرح لك بها الموقف. وعلى أي حال فإن هذه هي الحكمة الإلهية الكبرى. حكمة أنه بالنسـبة لوظائف الجسم الأساسـية أعطانا الله بدل العضو الواحد عضوين. هناك رئتان بـدل الرئـة الواحدة. وعينان بـدل العين الواحدة. وأذنـان وقدمان ويدان بـدل الأذن والقدم واليد الواحدة.. الخ.

لكن محنتي اليوم شـيء مختلف. محنتي اليوم فشـلت تماما، وطوال شهور. في التعامل معها ببسـاطة.. او التغلب عليها بالسخرية. محنتي اليوم هي المدرسة التي تعلمت فيها. مدرسة كآلاف المدارس المنتشـرة في بر مصر. لكنها بالنسـبة لي مسـألة مختلفة تماما. في مصر انهيار عام في العملية التعليمية نلاحظه سنة بعد أخرى ونقرأ عنه في الصحف ونلمس نتائجه ونراه بعيوننا.

هنـاك هبوط عام في مسـتوى التعليم، وعلاقـة غير صحية بين الطالب وأسـتاذه، وعنف غير مسبوق بين الطلبة أنفسهم، ومحنة مستمرة داخل كل أسرة اسمها: الدروس الخصوصية.

مـع ذلـك يظل المرء متابعا لكل هذا.. باقتناع داخلي أكيـد بأن كل هذا اذا حدث في كل مدارس مصر.. فلن يحدث أبدا في المدرسـة التي تعلمت فيها. ليس لأنني شـخصيا على رأسي ريشة. لكن لأنني اعتقدت دائما بأن مدرسـتي بالذات على رأسـها ريشـة. مدرسـة ثانوية قضيت فيها ثلاث سـنوات من عمري وأكاد أحفظ تضاريسها وترتيب فصولها ومساحات أبنيتها عن ظهر قلب. أتذكر

وجوه مدرسيها واحدا بعد الآخر وملامح اثنين من النظار تعاقبا علينا وشجاراتنا الصبيانية كطلبة خارج فصولها بسبب مسائل كان يهيأ لنا في حينها أنها تحدد مصير العالم.

أتذكر مدرس اللغة الفرنسية ـ مسيو جورج ـ الذى جعلنى أعشق اللغة الفرنسية من بساطة عشقه هو لها. أتذكر الأستاذ يوسف مدرس التاريخ الذى كان يشرح لنا مباديء الثورة الفرنسية وشخصيات نابليون بونابرت وجنرالاته كما لو كان يحكى عن أصدقاء له يعرفهم شخصيا. أتذكر الأستاذ كساب مدرس اللغة العربية الذى كان يشرح لنا بغرام وهيام فكرة ان اللغة هى التذوق والوضوح والسلاسة والموسيقى.. وهى التعامل مع الألفاظ برقة ودقة. وكان يكرر لنا أن المقرر الدراسى موجود معنا فى الكتاب لكن مهمته الأولى كمدرس هى أن يجعلنا أولا نعشق اللغة ونتذوقها لأن هذا لو حدث ستصبح اللغة بعد ذلك تحت تصرفنا بدل ان نكون نحن تحت تصرفها.

أتذكر الكتب المدرسية التى كانت تصل إلى المدرسة قبيل بدء السنة الدراسية بأسبوع أو أسبوعين لكى تجدنا فى انتظارها على أحر من الجمر. وبمجرد ان يتسلم كل منا كتبه المدرسية كنا نتسابق على شراء أفرخ كاملة من ورق التجليد – أزرق اللون أحيانا وشفاف غالبا ـ حتى لا تبلى الكتب فى أيدينا بعد ذلك من كثرة الاستعمال. بل إننى كنت على وجه الخصوص حريصا على أن أخطط بالقلم الرصاص والمسطرة فى صفحات كل كتاب مدونا على الهوامش ما يساعدنى بعدها على التذكر والتركيز، حريصا فى معظم الأحيان على أن يظل الكتاب بين يدى محتفظا برشاقته ونظافته. وبعد كل سنوات العمر لا أزال احتفظ ببعض تلك الكتب كما هى بالضبط بأوراق تغليفها، كما لو ان تلك الكتب هى تحويشة العمر، بل هى العمر، الذى يضيف إليه الزمن ولا يخصم منه.أتذكر ملاعب المدرسة ومنشآتها. ملاعب كرة السلة والكرة الطائرة والهوكى وتنس الطاولة والمصارعة. أما كرة القدم فقد كان لها ملعب آخر فى المنصورة تشترك فيه المدارس الثانوية التى لا تتسع مساحات كل منها لوجود ملعبها الخاص بها. أتذكر مسرح المدرسة الذى كنا نقدم فيه مسرحية واحدة على الأقل فى السنة نتنافس فيها مع المدارس الأخرى. أتذكر المطبخ الذى كنا نتناول فيه الوجبة الساخنة يوميا. وأتذكر غرفة الموسيقى والبيانو يتصدرها. وأتذكر المكتبة التى كنا نمارس فيها القراءة الحرة فى الشعر والقصة والتاريخ والأدب والسياسة.. باللغة العربية دائما وبالانجليزية غالبا وبالفرنسية أحيانا. أتذكر صحيفة الحائط التى كنت أشرف على تحريرها مع زملاء آخرين وحصلنا بها على جوائز لمدرستنا. أتذكر مكتب ناظر المدرسة الذى كنا ندخل إليه فى حالتين فقط: حالة التوبيخ قبل استدعاء ولى الأمر.. أو حالة التهنئة حينما تتفوق المدرسة على مدارس أخرى. وإلى جوار المكتب منضدة مستطيلة تزاحمت عليها كؤوس وجوائز سابقة حصلت عليها المدرسة فى تنافسها مع مدارس أخرى بالمحافظة او القطر المصرى.. بينما عم سيد الفراش مكلف من الناظر بأن مهمته الأولى كل صباح هى تنظيف تلك الكؤوس لكى تظل براقة ولامعة.

أتذكر رحلات المدرسة، سواء فى أجازة نصف السنة أو فى الأجازة الصيفية. رحلات يصحبنا فيها مشرف واحد فى كل مرة رغم شقاوتنا التى كانت فى حينها تجعلنا نبدو بالنسبة له كما لو كنا عفاريت مصورة. فى إحدى تلك الرحلات ذهبنا إلى مصانع المحلة الكبرى للغزل والنسيج. وفى الرحلة ذهابا وإيابا كان المشرف يشرح لنا ببساطة قيمة تلك المصانع ومغزاها. فى سنوات الاستعمار كان الانجليز يحكمون علينا بالاكتفاء من القطن بزراعته حتى يأخذوه إلى بلادهم فيحولونه إلى منسوجات وملابس يصدرونها إلينا بأضعاف الثمن. أما بمصانع مثل هذه التى نراها فى المحلة الكبرى فقد أصبحنا نحن الذين ننتج ملابسنا.. بل ونصدر أقمشتنا إلى الآخرين.

وفى المصانع نفسها بالمحلة الكبرى فاجأتنا المساحات الضخمة لعنابر الغزل والنسيج، والتخطيط البديع للمساحات الفضاء الخضراء والشوارع والحدائق والنظافة الكاملة لمطابخ العمال التى تقدم لكل وردية وجباتها الساخنة من اللحم او الدجاج او الأسماك بأسعار رمزية تماما. والعمال أنفسهم يجلسون إلى جوار رؤسائهم من المهندسين على نفس الموائد المستطيلة بعد أن يكون كل منهم قد حمل بين يديه طاولته الخاصة من الصلب اللامع المقسم إلى مستطيلات ومربعات تستوعب مفردات الوجبة الكاملة.أتذكر أيضا تلك الرحلة الكبرى التى لم تتم. رحلة ظللنا نحلم بها منذ السنة الأولى فى هذه المدرسة الثانوية. رحلة إلى أسوان لزيارة خزان أسوان ويقوم بها فقط طلبة السنة الثالثة.

لكن على حظنا توقفت رحلة أسوان بعد أن بدأت مصر فى بناء السد العالى. وناظر المدرسة يعزينا من خلال الميكروفون فى طابور الصباح بأن البلد كله أصبح معبأ لبناء السد العالى رغم أنف دول كبرى وصغرى حاربتنا لكى نظل أسرى لفيضان النيل بدل أن نصبح سادة لمياهه.

وفى حالة مدينتنا على وجه الخصوص لم يكن الناظر محتاجا إلى مزيد من الشرح. فقد رأينا بأعيننا كيف أن فيضان النيل فى سنة سابقة أشاع فى البلد كله حالة من الطوارىء لأن مياه الفيضان خرجت عن نطاق السيطرة وأغرقت نصف مبانى مدرستنا الإعدادية فتأخر بدء السنة الدراسية بها إلى حين ميسرة. وكنا نذهب بين يوم وآخر لنتطلع إلى مدرستنا الواقعة على نهر النيل مباشرة .. وقد غرقت نصف مبانيها فى المياه.. ونحن نكاد نبكى لأن تلاميذ آخرين فى مدارس أخرى انتظموا فى دراستهم لبعد مدارسهم عن نهر النيل.. بينما مدرستنا نحن على وجه الخصوص عاجزة عن استقبالنا إلى ان يلطف الله بالبلاد والعباد وتنحسر مياه الفيضان.

أتذكر إذاعتنا المدرسية التى كنا نديرها كلجنة منتخبة من الطلبة أنفسهم. وأتذكر على وجه الخصوص حرصنا على اذاعة «اسطوانة» أغنية «حكاية شعب» لعبد الحليم حافظ وهى تبدأ بغناء المجموعة: قلنا حانبنى وادى احنا بنينا السد العالى. أغنية لعبد الحليم من الحان كمال الطويل. وقد عشقتها مبكرا بغير ان أدرك ان مشوار العمر سيجمعنى فيما بعد بعبد الحليم وكمال الطويل فى صداقة عميقة.

أتذكــر أيضا أن هناك كلمات محددة كانت مشــطوبة بالكامل من قاموســنا. هناك مثلا الدروس الخصوصية وهى بدعة شــاذة تماما لم يكن لها وجــود بالمرة فى حياتنا. لا فى حياتنا كصبية صغار ولا فى حياتهم كمدرســين كبــار. ولم يحدث فى حالة واحدة طوال ثلاث ســنوات ان احتاج تلميذ واحــد أعرفه إلــى دروس خصوصية.. ولا حدث لمرة واحدة ايضا أن احتــاج مدرس واحد إلى إعطاء دروس خصوصية.

هناك أيضا تعبير «مدرســة نموذجية». لم تكن مدرستنا نموذجية فالتعبير نفسه لم يكن واردا. المدرســة هى المدرســة. أما أنها كذلك أو ليست كذلك. مدرســتنا كانت كذلك، هى مدرسة حكومية أقيمت حديثا فى مدينة «طلخا» والتعليم فيها مجانى بالكامل. وإذا لم تكن «مدرسة طلخا الثانوية» هذه نموذجية فلابد أنها أقرب ما يمكن إلى النموذجية. ربما لم ندرك ذلك فى حينها وانما أدركناه فيما بعد.. وبعد تطورات فادحة فى العملية التعليمية برمتها.

أقول إنها مدرســة حكوميــة لأن القاعدة العامة فى حينها هــى أن التعليم كله حكومى. هناك مدارس قليلة خاصة وأهلية وبمصروفات. لكن الذين كانوا يلتحقون بها هم فقط الذين كانت ترفضهم المدارس الحكومية لســبب يتعلق بالفشل الدراسى او بسوء الســير والسلوك. فى مدينة طلخا كانت توجد مدرسة واحدة من هذا النوع اسمها «مدرسة العدوى» كان أهلنا ينظرون لتلاميذها كما لو أنهم وباء بشرى يجب علينا الابتعاد عنه.

والفارق بين المنصورة وطلخا هو نهر النيل، تماما كالقاهرة والجيزة، وأحد زملائى فى مدرسة طلخا الثانوية، وأصدقائى أيضا، اسمه طلعت شعراوى والده مقاول من كبار الأثرياء. لكن الأهم من ذلك هو ان أسرة طلعت شعراوى تسكن فى المنصورة، وبالضبط قبالة مدرسة المنصورة الثانوية ذاتها. مــع ذلك، وبرغم المشــوار اليومى الطويــل ذهابا وإيابا. كان والد طلعت قد اختار له مدرســة طلخا الثانوية بناء على حسن سمعتها الدراسية الشائعة فى المنصورة وطلخا خلال سنتين من وجودها.

أتذكر.. وأتذكر.. وأتذكر.

لكننــى اليوم أتذكر هذا الذى مضى بغصة فــى حلقومى ووجع فى قلبى. فذات يوم، وعلى حين غرة، قرأت فى جريدة «المساء» خبرا واردا إليها من مراسلها الصحفى فى المنصورة – نادر عمارة – بالعناوين التالية: «اســتبعاد مدير مدرســة الزيــات الثانوية – الفصل نهائيــا لـ١٣١ طالبا وإبلاغ الكونترول باسمائهم».

يا إلهى هذه هى مدرستى أنا. هذه مدرسة طلخا الثانوية التى قضيت فيها ثلاث سنوات من أهم ســنوات عمرى. لقد غيروا اسمها قبل سنوات قليلة لتصبح «مدرســة أحمد حسن الزيات الثانوية» بحجة الرغبة فى تكريم اســم الأديب الكبير الراحل الذى كان من أبناء مركز طلخا. فى حينها لم

تــرق لى الفكرة بالمرة لان التكريم الحقيقى لا يكون باطلاق اســم الزيات على مدرســة قائمة وانما بانشاء مدرسة جديدة كاملة، وأحدث. تحمل منذ يومها الأول اسم الأديب الكبير.

إنما لأن المســألة استسهال ومجرد تكريم إدارى شكلى، فقد اكتفوا بتغيير اسم المدرسة من غير حتى أن يفكروا فى إعطائها المضمون الاســتثنائى المتميز الذى يتناســب مع القيمة الأدبية الكبرى لاسم أحمد حسن الزيات.

أما الأســوأ على الإطلاق فهو فاجعتى الأساســية. فبدلا من ان تصبح مدرستى أفضل وأحدث مما كانــت عليه فــى أيامى وهو التطور الطبيعى فقد أصبحت الآن أســوأ. وبدلا مــن أن يحافظ الجيل الحكومــى الحالى على تفوق تلك المدرســة ـ وهذا أضعف الإيمان ـ فإنه يحولها إلى أى شــيء آخر يختلف تماما عن معنى كلمة «مدرســة». وبدلا من أن أقرأ عن مدرستى النموذجية تلك فى الصفحة الأولى اذا بى أقرأ عنها فى صفحة الحوادث فى هذه المرة. ونتيجة لزيارة تفتيشية مفاجئة قام بها اللواء محمد مصطفى الشــناوى محافظ الدقهلية وقتها، اذا بالزيارة تكشف عن فساد كامل فى إدارة المدرســة وفساد أكبر فى سلوك الطلبة ومدرســين غائبين تماما تفرغا للدروس الخصوصية وطلبة لم يعد لأحد سلطان عليهم وأصبحوا يتعاملون مع بعضهم البعض بالمطاوى والسكاكين ونفوذ الآباء لدى المدرسين.

يا إلهى من هذه الصدمة المروعة. أعرف تماما ان العملية التعليمية فى مصر كلها تنهار بالخطوة الســريعة فى الســنوات الأخيرة، وأعرف وأقرأ يوميا عن الفســاد والعنف والانحراف فى مدارس عديدة.. لكننى لم أتخيل يوما ان يصل شيء من هذا بالمرة إلى مدرستى التى عرفتها.

بالضبط كما يفاجأ المرء بأن المدينة زاد فيها عدد اللصوص.. لكن المرء يظل على ثقة من أن شارعنا نحن الذى تربينا فيه لا يمكن أن يكون فيه لصوص.. وبيتنا نحن لا يمكن ان يدخله فاسدون.

المفارقة الأكبر هى أنه بدل أن يتقوى الجزء الأضعف فى مجتمعنا بالجزء الأفضل فيصبح مثله، إذا بالجزء الأفضل ينهار فيتراجع إلى مستوى الجزء الأضعف. وبدل أن يحافظ جيل على انجازات جيل سابق ويضيف إليها.. اذا به يفرط فى تلك الانجازات ويخصم منها.

المصيبة الواضحة الآن هى أن هذا هو ما حدث. وبرغم ان الخبر المنشــور الذى قرأته مضت عليه شــهور.. إلا أننى كنت أتطلع نفســيا إلى خبــر آخر يصححه. ليس بمعنــى ان يكون الخبر الأول كاذبــا.. ولكن بمعنى أن يتحول الخبر الصدمــة إلى مقدمة لتصحيح ما جرى ورد الاعتبار إلى هذه المدرســة تحديدا. هناك محافظ شــجاع كشف الفساد وضبطه متلبســا. لكن الناقص هو محافظ آخر شجاع يضع علاجا سريعا لعلاج ما جرى ويشرف بنفسه على تصحيح ما جرى.

لا أقول هذا لان مدرستى على رأسها ريشة (مع انها كانت كذلك).

لكننى أقوله فقط لان المدرسة كانت نموذجية فعليا وتعليمها كان الأفضل واقعيا ونتائجها كانت السابقة فعلا.

وشـىء آخر. قبل أربع أو خمس سـنوات قرأت فى الصحف ان «مدرسـة الملك الكامل» الثانوية بالمنصورة أصبحت من المدارس الأفضل على مسـتوى الجمهورية كلها من خلال النتائج التى حققها طلبتها فى الثانوية العامة. يومها قلت فى حديث اذاعى لمحطة «صوت العرب» اننى اعتبر ان هذا الخبر من أهم الانجازات المصرية فى السـنة كلها. والسـبب عندى كان بسـيطا للغاية. فمنذ صبانا كانت سـمعة تلك المدرسـة تحديدا هى أنها الأسوأ والأكثر تسيبا فى نظامها وتأخرا فى نتائجها.. الآن يتبين انه بعد ان تسـلم ادارتها ناظر جديد واختار بنفسـه مدرسين جددا وتابع الجميع نظاما جديدا للدراسـة على مدار الساعة.. فقد تحققت للمدرسـة تلك النتائج المدهشة خلال سنة واحدة. والأكثر أهمية ان طلبة المدرسة المتفوقين على مستوى الجمهورية شهدوا بأنهم وصلوا إلى ذلك دون الحاجة مطلقا إلى أى دروس خصوصية لأن المدرسـة ذاتها تحولت إلى خلية نحل تعليمية حقيقية ينضبط فيها المدرسـون والطلبة معا فى سـباق تربوى وتعليمى نذر نفسه لمهمة واحدة: رد الاعتبار إلى العملية التعليمية من الألف إلى الياء.

يومها خرجت من خلال اذاعة «صوت العرب» أسـجل تحية علنية إلى ناظر تلك المدرسـة وكل طاقمه من المدرسين.. مستخلصا النتيجة الجوهرية التى تعنينى أساسا: ان تغيير الأسوأ لكى يصبح الأفضل ممكن فعلا. والنجاح فى حالة واحدة هنا يصبح بحد ذاته معديا لكل المحيط القريب والبعيد من المدارس.. ومشيعا للأمل فى أن يصبح بلدنا أفضل حالا مما هو عليه.

الآن مضت شهور بغير ان أقرأ الخبر الذى طال انتظارى له. خبر عودة مدرستى – مدرسة طلخا الثانويـة أو أحمد حسـن الزيات – إلى ما كانت عليه فى أيام دراسـتى بها.. بل وأفضل مما كانت عليه. هناك محافظ جديد للدقهلية هو احمد سـعيد صوان لا أعرفه شـخصيا لكننى أعرف فقط انه لو أشـرف بنفسـه – وضمن مسـئولياته الأخرى على رد الاعتبار إلى تلك المدرسـة.. فكأنما يرد الاعتبـار إلـى كل العملية التعليمية فى محافظته. والنجاح هنا لا يقاس بالأسـهل ولكن بالأصعب فلنترك جانبا حسـين بهاء الدين وزير التربية والتعليـم وتصريحاته التليفزيونية. دعونا نبدأ من الموقـع العملى والحقيقى للتحدى. لو وضـع كل محافظ ضمن جدول أعماله اليومى بمحافظته إخراج عشـر مدارس فقط كل سـنة من دائرة السقوط إلى دائرة النهضة.. فسيصبح من حقنا كشعب ان نأمل فى مسـتقبل أفضل. ربما يبدو ما أقوله هنا سـباحة ضد التيار. لأن مبررات الفشـل قائمة وأعذار الاستسـلام للواقع متاحة ومتراكمة. لكن لا بأس. يسـتطيع المرء ان يفقد إحدى كليتيه وتستمر به الحياة. لكن المجتمع لا يستطيع ان يفرط فى مدارسه ويدعى فى نفس الوقت انه قادر على النهضة. من المدرسة تبدأ النهضة.

حريف .. عابر للقارات !

هى رسالة فى باب" بريد الأهرام ". السطور قليلة والصورة مفجعة لكن الفجيعة هنا بدت جزءا من مأساة أكبر. الجزء المسكوت عنه ؟ ربما. الجزء الذى يمس معانى وقضايا أكبر؟ يجوز. الجزء الذى يرد إلى وعاظ قضايا حقوق الإنسان سيفًا اعتادوا سابقا على استخدامه ضدنا؟ محتمل. لكن مهما اختلفت التفسيرات والإجابات فإن فى الرسالة بشراً حقيقيين من لحم ودم حسنى النية إلى أقصى درجة منبهرين بالنموذج الأمريكى فى الحياة ولو لسنوات محدودة فى سن التشكيل، لقد ذهبوا إلى هناك لأن "هناك " هذه بدت من بعيد فيلما آخر من أفلام هوليود.. حيث الحياة سهلة والعيش رغد والأحلام عريضة.. لكى يكتشفوا فى لحظة صدمة أن الحياة كما يمكن أن تكون سهلة، يمكن أيضا أن تكون مرعبة.

هى رسالة فى باب " بريد الأهرام" ربما يراها البعض نتيجة فرعية لصدمة أكبر، هى صدمة ما جرى فى الولايات المتحدة يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حينما أفاق الأمريكيون ومعهم العالم كله على عمل إرهابى غير مسبوق بالمرة . ثلاث طائرات ركاب مدنية (الرابعة سقطت أو أسقطت فى بنسلفانيا) استخدمها خاطفوها كصواريخ طائرة.. فدمرت اثنتان منها أعلى برجين فى نيويورك ودمرت الثالثة أحد الأجنحة الخمسة لمبنى وزارة الدفاع الأمريكية.(البنتاجون) فى العاصمة واشنطن . وخلال أقل من ساعة كانت الانهيارات غير المسبوقة قد وقعت مخلفة وراءها نحو ثلاثة آلاف قتيل، بينما الطائرات بركابها أصبحت جزءا من الأشلاء والركام: دافنة معها سرها الكبير. لم تكن أهمية ما جرى هى فقط فى أنه عمل إرهابى غير مسبوق، ولكن أولا فى الكيفية التى جرى بها ، والأماكن التى وقع فيها: نيويورك العاصمة المالية.. وواشنطن العاصمة السياسية للولايات المتحدة – القوة العظمى المنفردة عالمياً بعرش القوة منذ عشر سنوات على الأقل. دولة اعتادت تاريخياً على أن ترى نفسها محصنة ضد عدوان الآخرين.. ليس فقط بحكم القوة العسكرية والتفوق التكنولوجى.. ولكن أيضا بحكم الطبيعة. فى شرقها محيط أطلنطى يفصلها عن أوروبا.. وفى غربها محيط باسفيكى يفصلها عن آسيا. وفى شمالها حدود ممتدة مع كندا هى الأكثر هدوءا بين كل

الدول. وفى جنوبها حدود مع المكسيك حيث المشكلة الوحيدة هى منع التسلل غير القانونى للعمالة المكسيكية الرخيصة. فجأة، وسط هذا الاطار التاريخى من الحصانة والمناعة، أفاق الأمريكيون فى صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر على هول ما جرى. ليس فقط أن عملا إرهابياً بهذه الضخامة والفاعلية جرى فى مدنهم.. ولكن أيضاً لأن الفاعل بدا مجهولاً فلم يترك خلفه ذرة من دليل تحدد هويته أو ملامحه أو حتى أهدافه. فى الساعات القليلة الأولى بدأ يتسلل فى الإعلام الأمريكى (خصوصاً التليفزيونى منه .. وهو الأكثر انتشاراً وتأثيراً) أخبار كما الإشاعات.. حيث لا مصدر تستند إليه ولا وسيلة متاحة للمراجعة. أخبار أو إشاعات بأن هذا الإرهاب المفاجىء غير المسبوق لابد أن يكون فلسطينياً أو عربياً أو إسلامياً أو مزيجاً من هذا كله .. معاً.

لم يكن هذا غريبا فى حد ذاته . ففى سنة ١٩٩٥ ارتاع الأمريكيون أيضا من هول تفجير ضخم جرى فى المبنى الحكومى الفيدرالى بمدينة أوكلاهوما أدى إلى أكوام من القتلى والجرحى . يومها أيضا لم تكن التحقيقات الحكومية قد بدأت - بعد - إلا أنه وفى اليوم التالى خرجت الصحيفة الكبرى للجالية اليهودية الصهيونية فى الولايات المتحدة بعنوان مانشيت بعرض الصفحة الأولى عبارة عن كلمة واحد هى : عملوها.

أما من الذين عملوها .. فشرحه فى السطر التالى : " الإرهاب العربى الاسلامى وراء تفجير أوكلاهوما " وخلال ساعات قليلة كانت مشاعر الغضب الشعبى قد ركزت هدفها على كل من يبدو عليه أنه عربى الانتماء أو مسلم الديانة . لقد تتابعت الاعتداءات ضد أقرب المساجد الإسلامية أو الجيران من أصل عربى .. وأقرب الملامح التى يبدو منها عروبة أو إسلام.

لكن المفاجأة الكبرى وقعت حينما كشفت التحقيقات ، وبالمصادفة البحتة، عن أن مخطط ذلك التفجير غير المسبوق هو مواطن أمريكى اسمه " تيموثى ماكفى " - مجند سابق فى الجيش الأمريكى المحارب فى الخليج سنة ١٩٩١، بل وملفه العسكرى مزدحم بشهادات التقدير، وأن هذا الأمريكى القح لديه أسبابه الخاصة (مع آخرين) لتفريغ شحنته المعبأة من الغضب ضد ما اعتبره رمزاً حكومياً فيدراليا فى أوكلاهوما .. وبالشكل الارهابى الذى خطط له وحكم عليه بالإعدام بسببه فيما بعد.

اذن خرج العرب انتماء والمسلمون ديانة براءة من إرهاب أوكلاهوما .. وإنما بغير أن يعتذر لهم أحد عن الإهانات والتحرشات التى جرت ضدهم كمواطنين يحملون الجنسية الأمريكية.

وفى ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ يجىء إرهاب نيويورك وواشنطون بمستوى أكبر وأضخم . وفى هذه المرة عاد نفس السيناريو وإن يكن على نطاق أخطر . ربما لأن ما جرى فى هذه المرة جاء كالصدمة الصاعقة. فى الساعات الأولى لما جرى فى ١١ سبتمبر لم تكن الحكومة الأمريكية نفسها قد استوعبت - بعد - طبيعة وحجم وأسباب ما جرى. مع ذلك بدأت تتسلل إلى الاعلام أخبار

كما الإشـاعات. أخبار من نوع: جرى اكتشـاف سـيارة بيضاء اللون فى موقف السـيارات القريب من مطار بوسـطون وبداخلها كتاب باللغة العربية عن قواعد قيـادة الطائرات "بوينج ٧٥٧"- التى اسـتخدمت فى تدمير برجى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن- وعلى الكتاب أسماء لخمسة أشخاص من أصل عربى.

كانت صياغة الخبر على هذا النحو ضد أبسط القواعد المهنية، فهو منسوب إلى مصدر مجهول، ولا يحدد من الذى قام" باكتشاف " السيارة.. ولا ما هى الأسماء الخمسة من أصل عربى. والأهم من ذلك.. إن قيادة طائرة بوينج ٧٥٧ لا تتم بمجرد قراءة كتاب عنها قبل ربع ساعة من اختطافها. مع ذلك، وفى حالة الذهول العام عند الشعب الأمريكى من هول ما جرى فى نيويورك وواشنطن، أصبح هذا التضليل هو نقطة البداية فى توجيه الغضب العام نحو اتجاه محدد: العروبة انتماء والإسـلام ديانة.

الأحداث التالية بعد ذلك معروفة. لقد تدحرج الاتهام بعد سـاعة إلى شـبكة يقودها من بعيد شـخص اسمه أسامة بن لادن ومنظمة حاكمة فى بلد اسمه أفغانستان، ثم قائمة اتهام رسمية تحدد تسعة عشر شخصاً بالاسم على أنهم الذين اختطفوا الطائرات وماتوا معها ومع ركابها. الأسماء كلها لعرب ومسـلمين. وفيما بعد تبين أن تلك القائمة الحكومية الرسمية الأمريكية لمن قاموا بتفجيرات ١١ سبتمبر فيها من توفاه الله قبل سنة، ومن أبلغ قبل سنتين عن سرقة جواز سفره، ومن لم يغادر السـعودية أصلا ومن يقيم فى تونس ولم يغادرها منذ تسـعة أشـهر... الخ. إنما بقدرة قادر.. هم أصبحوا القادة الإرهابيين لطائرات ١١ سبتمبر.

فى الشـعب الأمريكى (٢٧٠ مليونا) يوجد سبعة ملايين مسلمو الديانة. من هؤلاء نحو مليون من أصل عربى. كلهم حصلوا على الجنسية الأمريكية بالشروط الأمريكية . كلهم مواطنون صالحون اختاروا الحياة والتصرف والتفكير كأمريكيين. جزء من النسيج الوطنى الأمريكى مثل كل الأقليات الأخرى التى يتشكل منها المجتمع الأمريكى. يسددون الضرائب ويعملون بالشركات وبعضهم حتى يتطوع لخدمة القوات المسلحة الأمريكية وبين وقت وآخر.. ربما يشاركون فى الانتخابات.

فجأة وجد هؤلاء أنهم أصبحوا مشـتبهين فيهم، وبشـكل جماعى، عن جريمة لا تعرف الحكومة الأمريكيـة - بعد - كل أبعادها. لقد أصبحوا متهمين والغضـب الجماهيرى يحاصرهم من كل جانب والتحرش الأعمى يطاردهم على مدار السـاعة. وخلال أسبوع واحد سجلت الشرطة الأمريكية بلاغات مقدمة إليها بستمائة حالة تحرش عدوانى من هذا النوع ضد عرب ومسلمين أو من يبدو عليهم كذلك.

فى مدينة لوس أنجلوس مثلا قام مجهولون بالإعتداء على مواطن أمريكى من أصل مصرى فأردوه قتيلاً. فيما بعد تبين أنه قبطى مصرى هاجر إلى أمريكا قبل عشرين سنة قضاها بكل همة فى إقامة

محله الخاص للبقالة أقبل عليه فيه كل الزبائن تناغماً مع حسن خلقه ومعاملته وكان جيرانه فى السكن والعمل أول من صعقهم خبر مقتله. مواطن آخر جرى العدوان عليه غدراً لمجرد أن ملامحه تبدو شرق أوسطية، فإذا به هندى الجنسية وإن يكن طويل الذقن، إنه من طائفة السيخ. طلبة عديدون مبعوثون من بلادهم أو يدرسون فى الجامعات على حسابهم الخاص وجدوا أنفسهم فجأة محل تحرشات عدوانية فى الشارع. قنابل حارقة يجرى إلقاؤها على مساجد فى مدن أمريكية مختلفة. تهديدات بالقتل تتكرر تليفونياً من غرباء. السفارة السعودية تنصح رعاياها المبعوثين (نحو سبعة آلاف) بألا يسيروا فى الشارع فرادى. لو ابتعدوا عن الشارع يكون أفضل. لو بقوا فى منازلهم يكون أفضل وأفضل. أما لو عادوا إلى وطنهم فهذا أفضل وأفضل . السفارة الكويتية أبلغت مواطنيها المبعوثين للدراسة بتشجيع أمريكى باستعدادها لتحمل ثمن تذاكر العودة لمن يخشون الخطر على حياتهم. طبيب سعودى أوفدته إلى تكساس شركة أرامكو البترولية للدراسة.. فوجىء بالشرطة تقتحم منزله وتسحبه بملابس النوم من بين زوجته وأولاده للاعتقال دون إبداء الأسباب وبمنعه من الاتصال بمحام إلا عن طريق الشرطة وبعد مرور عشرة أيام كاملة من الاعتقال... الخ.

ولأننا فى عصر العولمة فقد أصبح الإعلام التليفزيونى خصوصاً - يجعل الإشاعات فى مدينة أمريكية صغيرة تتحول فى لمح البصر إلى أخبار مذاعة صوتاً وصورة باتساع العالم. عالم المحطات الأمريكية المصورة. فقد أصبح العرب انتماء والمسلمون ديانة أو مظهرا داخل حريق من الكراهية يجرى الترويج له عالمياً كما هى الحال فى أمريكا. إنها التحرشات المتكررة تنتشر باتساع قارات من أوروبا إلى استراليا إلى أمريكا الجنوبية.

هذا يعيدنى إلى باب " بريد الأهرام " وتلك الرسالة المحددة التى تم نشرها ذات صباح فجاءت على الوجيعة. الرسالة تقول فيها السيدة شويكار خليفة رئيس قناة الدراما : ".... لم تفعل ابنة أخى رغدة فريد خليفة شيئاً تستحق عليه من أجله هذا الضرب المبرح الذى أدى إلى إصابتها بارتجاج فى المخ وكسر فى الأنف.. فكل ما فعلته هو أنها جلست مع صديقة مصرية لها تتحدثان فى مطعم قريب من جامعة وندسور بكندا، وهى الجامعة التى تدرس فيها.. وأحست ابنة أخى وصديقتها بتحركات غريبة فى الطاولة القريبة منهما والتى يجلس حولها ست من البنات الأمريكيات . وفجأة وبدون سابق إنذار هجمت الأمريكيات الست على رغدة وصديقتها وانهلن عليهما ضرباً لمجرد أنهما عربيتان تتحدثان اللغة العربية. والأغرب من هذا هو ذلك التواطؤ المشين من جانب رجال الشرطة الكندية الذين أفرجوا بسرعة عن الأمريكيات وأتاحوا لهن الفرصة للهرب والعودة إلى أمريكا عبر الحدود القريبة بينما تحفظ رجال الشرطة على المصريتين، وعلى طالب مصرى آخر حاول أن يتدخل لفض الاشتباك. وإحقاقا للحق فقد تدخل أحد الطلاب الكنديين وشهد لصالح رغدة وصديقتها فتمت ملاحقة عصابة البنات الأمريكيات وقبض عليهن قبل أن يدخلن

الحـدود الأمريكية وتبين أنهن مسلحات بمسدسات أيضاً. والحمد لله أنهن لم يستخدمن هذه المسدسات فى عدوانهن على رغدة وصديقتها. والسؤال هو: ماذا يمكن أن نفعل حتى نطمئن على بناتنا وأولادنا الدارسين فى أمريكا فى ظل هذه الهجمة العنصرية الشرسة ؟ "

جاءتنى تلك الرسالة المنشورة على الوجيعة.. فطوال أيام قبلها كنت أتلقى مكالمات تليفونية من أصدقاء لى فى أمريكا وكندا وأعرفهم من زمن . وفى كل مكالمة تتكرر الحكايات عن التحرشات العدائية المفاجئة والحياة التى تحولت إلى جحيم بسبب ذلك التيار الأعمى من الكراهية العشوائية منذ ١١سبتمبر . قبلها بأيام أيضاً كنت قد قرأت مقالاً لصحفية أمريكية تناشد فيها مواطنيها الأمريكيين بالاحتكام إلى عقولهم وعدم الانزلاق إلى سلوك عنصرى كالذى أصبحت هى تلمسه فعلاً فى حياتها اليومية . هى أمريكية أبا عن جد ومتزوجة بأمريكى مسلم يبدو أنه من أصل عربى وبتلك الصفة تخاطب مواطنيها متسائلة : كيف نتحول فجأة فى عيون جيراننا الذين يعرفوننا منذ سنوات إلى إرهابيين محتملين لمجرد أننا مسلمو الديانة ؟ كيف يتحرش الناس فى الشوارع بشقيقات زوجى لمجرد أنهن يرتدين الحجاب ؟ كيف أقنع طفلى الصغير بأن الغرباء الذين كانوا يبتسمون له حتى ١١ سبتمبر أصبحوا يكشرون فى وجهه بعدها؟ أى خلل فادح هذا الذى تفرضه علينا ثقافتنا ويشيعه بيننا إعلامنا ؟

أعادنى هذا أيضا إلى خبر نقلته وكالة الأنباء الفرنسية موضوعه كاتب لبنانى مارونى اسمه إلياس خورى كان يشارك فى ندوة فى جنوب شرق فرنسا .. ففوجىء فى الثامن من أكتوبر ٢٠٠١ برجال الشرطة الفرنسيين المسلحين يقتحمون عليه غرفته بالفندق لتفتيشها ثم استجوابه لمدة ٤٥ دقيقة باعتباره إرهابيا محتملا . فى النهاية تبين أن موظفة بالفندق سمعته يتكلم فى التليفون باللغة العربية ويتلقى رسالة بالفاكس بالعربية فهيىء إليها أنه يخطط لعملية إرهابية ومن هنا استدعت له الشرطة التى جاءت على وجه السرعة.

طائرات مدنية فى أمريكا يتوجس فيها راكب من جاره ذى الملامح العربية .. وخلال لحظات يأمر قائد الطائرة بإنزال هذا " المشتبه فيه " من الطائرة كشرط لإقلاعها وشرطة المطار تنفذ الطلب بلا مناقشة . طائرات أخرى تتعمد فيها سلطات المطار إعادة التفتيش مرات ومرات لراكب لمجرد أن ملامحه عربية . وفى إحدى الوقائع أمروا راكبا بخلع طاقم أسنانه لأن به جزءا معدنيا ربما يكون به سلاحا إرهابيا من نوع جديد . أحداث وأحداث وأحداث حولت حياة الملايين عرب الانتماء أو مسلمى الديانة إلى كابوس. فى أمريكا منهم سبعة ملايين. فى أوروبا الغربية ١٢ مليونا . صحيح خرج كبار السياسيين بمستوى جورج بوش مثلا ينبهون مواطنيهم إلى التفرقة بين الإسلام والإرهاب . وبعضهم تعمد زيارة مراكز إسلامية . مع ذلك استمر التيار الغالب فى الشارع يمارس كل الكراهية العمياء التى يغذيها الإعلام . هذا يعنى أحد أمرين :

إمــا أن التصحيحات الرســمية أضعف مما يجــب .. أو أن المصالح المحركة لتيــار الكراهية في الشارع أقوى مما يجب .

أما المســألة الأكثر خطورة علــى الإطلاق فهى : لايوجد حتى الأن دليل واحد تعلنه الســلطات الأمريكيــة ويحــدد بالضبط شــخصيات أو دوافع أو جنســيات أو مصالح أولئك الذيــن قاموا بذلك. الإرهــاب ثابت بالصــوت والصورة . وتلك هى الحقيقة الوحيدة المؤكدة حتى الآن . أما كل ما بعدها فــلا يزال، رغــم كل هذا الحريق العابر للقارات، مجرد شــبهات هائمة ... قد لا نعرف حقيقتها إلا بعد زمن طويل قادم .

وسؤال أخير : هل يعرف أحد منذ سنة ١٩٦٣ وحتى الآن.. من الذى خطط فعلا لاغتيال جون كيندى الرئيس الأمريكى الراحل ؟

❑❑❑



حالة اشتباه !

جلست أتابع ما يجرى فى جلسة الأمم المتحدة بنيويورك بمشاعر مختلفة تماماً . لقد بدأت الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة لتوها .. لكن فى حال غير الحال وزمن غير الزمن . الآن إجراءات أمنية غير مسبوقة .. ليس فقط فى مبنى الأمم المتحدة ذاته .. وإنما فى كل المنطقة المحيطة به والشوارع المؤدية إليه . هناك قواطع أمنية على الأرض وحراسات بوليسية خاصة ببنادق أوتوماتيكية بنظارات معظمة فوق أسطح كل المبانى القريبة . وتعديل مسارات المرور وسيارات إسعاف ميدانية للطوارىء وغرفة عمليات تشرف على هذا كله.

فى الأمم المتحدة كما نعرف يوجد مجلس الأمن الذى هو" الحكومة " أو السلطة التنفيذية المفوضة بحماية السلام والأمن الدوليين . وهناك " الجمعية العامة " التى هى بمثابة البرلمان الذى تتساوى فيه الدول الأعضاء فى التزاماتها وحقوقها . هذه الجمعية العامة تعقد دورة سنوية فى أواخر سبتمبر من كل عام . فى العادة يذهب إلى الأمم المتحدة فى تلك المناسبة رؤساء دول وحكومات ، والقليل من وزراء خارجية . ليرأسوا وفود بلادهم . وغالباً ليلقى كل منهم خطاباً طويلا أو قصيرا يطرح فيه رؤية بلاده للواقع الدولى . فى العادة أيضا يلقى الرئيس الأمريكى كلمة بلده كما تابعنا جورج بوش الابن مؤخراً.

فى هذه المرة جاءت الدورة العادية للأمم المتحدة بكل ما هو غير عادى . هى أولاً تأخرت عن موعدها لظروف أمنية عنوانها ماجرى فى ١١ سبتمبر الماضى . هناك أيضاً المناخ النفسى الذى تعيشه مدينة نيويورك تحديداً من يومها .. لأن ماجرى فى ١١ سبتمبر كان له وقع الصدمة على المواطن الأمريكى العادى.

وفى كل المرات التى كنت أسافر فيها إلى نيويورك لحضور اجتماعات الدورة السنوية للأمم المتحدة أو اجتماعات مجلس الأمن .. كان طبيعياً أن أبدأ يومى الأول باستخراج بطاقة مرور من قسم الإعلام بمبنى الأمم المتحدة . لكن عملياً لم يحدث فى أى مرة أن استوقفنى رجال الأمن عند مداخل المبنى طالبين الاطلاع على ذلك التصريح . ليس لأنه غير مهم ولكن ربما بحكم تمرسهم وخبرتهم .

الآن أعتقـد جازمـاً أن هذا أصبح من الماضي . أكثر من ذلك . ربما يسـتجوبني الأمن في كل مرة على نحو خاص واستفزازي تحسباً من أن ملامحي , بل وبدءاً من اسمي، ربما تكشف عن إرهابي متنكر.

فمنذ ١١ سـبتمبر (٢٠٠١) وما جرى فيه من اسـتخدام ثلاث طائـرات ركاب مدنية كصواريخ لتدميـر برجـي مركز التجـارة الدولي في نيويورك وجـزء من مبنى وزارة الدفـاع الأمريكية في واشـنطن .. والحالة " جيم " في أمريكا. يعني الحالة .. طواريء . تشـريعات تصدر في لمح البصر وإجراءات استثنائية يتم إتخاذها بقليل من المناقشة والمراجعة وتضييق على حريات الناس بموافقة ممثليهـم في البرلمان.. الكونجرس.. وتركيز خاص على الأجانـب، ثم تركيز أكثر وأكثر على كل من هو عربي الانتماء أو مسـلم الديانة من بين الأجانب . أما إذا كان عربي الأصل أو مسـلم الديانة مابين ١٨ و ٤٥ سنة عمراً .. فيا داهيه دقي . هو أكيد إرهابي إلى أن يقوم هو بإثبات العكس .. لو استطاع إلى ذلك سبيلاً.

لنأخذ مثلا هذه الحالة . طالب من دولة الإمارات العربية المتحدة اسـمه سـيف المحيرتي أراد العودة إلى بلاده بعد أن انتهى من دراسـة ماجاء لأجله . لقد أغلق حسـابه المصرفي في أحد بنوك مدينة بوسـطون التي يقيم فيها وأنهى عقد إيجار شـقته وباقي ارتباطاته استعداداً للسفر في اليوم التالي . المشـكلة هي أن هذا اليوم التالي كان ١١ سـبتمبر الذي جرى فيه ما جرى فارتاع الشعب الأمريكـي بكامله. فـي حينها أوقفت السـلطات الأمريكية كل الرحلات الخارجـة من أمريكا أو القادمة إليها جواً وبحراً وبراً لكي تبدأ فوراً الحملة الشاملة للتحري والتحقيق

الطالب المذكور بحثت عنه الشرطة ضمن بحثها عن كل من كانوا ينوون المغادرة في ١١ سبتمبر ، وخصوصـاً عربيي الأصل ومسـلمي الانتماء. لماذا التركيز على هـؤلاء تحديداً .. وبهذا الهوس غير المبرر .. تلك قصة أخرى . في النهاية اتصلت به الشـرطة الأمريكية على تليفونه المحمول طالبة حضوره للرد على بعض استفسارات . لقد وافق بكل سرور . إنما من حسن حظه أنه قام بخطوتين: أولاً . أخطر سـفارة بلاده في واشـنطن فنصحته باصطحاب محام على سبيل الاحتياط وهو ما فعله كخطوة ثانية . في الشـرطة قالوا للمحامي : عد من حيث أتيت لأن المذكور من الآن رهن الاعتقال. لماذا ؟ وما هي التهمة ؟ لا تهمة . ولا تفسـير . من الشـرطة تلاحقت الأسـئلة فلابد من سر خطير دفع المذكور إلى إغلاق حسابه البنكي وإنهاء عقد إيجار شقته والحجز للسفر في ذلك اليوم تحديداً - ١١ سبتمبر .

لقد فتشـوه وكل متعلقاته أينما وضعها اسـتعداداً للسـفر وتحروا عنه وعن زملائه وأصدقائه والأماكـن التي اعتاد الذهاب إليها طوال الأسـابيع السـابقة ومراجعـة الكمبيوتر الخاص به وكل الرسائل الواردة إليه أو الصادرة منه .. إلخ . إلخ .

بعد كل هذا .. هل أفرجوا عنه ؟ أبداً . المحامى من ناحية والسفارة من ناحية: هل توجد تهمة محددة تبرر الاستمرار فى اعتقاله ؟ أبداً . لاتوجد تهمة . مجرد احتياط . لعل وعسى . أسبوع بعد أسبوع . وبعد طلوع الروح : أفرجوا عنه.

المذكور هنا كان محظوظاً برغم تجربته بالغة المرارة هذه . فمنذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تبين أن السلطات الأمريكية تعتقل - حتى كتابة هذه السطور - نحو ألف ومائتين على هذا النحو .. كلهم عربيو الأصل ومسلمو الديانة . كلهم بغير تهمة محددة تبرر الاستمرار فى اعتقالهم . بل إن السفارات العربية فى واشنطن تحاول منذ ١١ سبتمبر الحصول من السلطات الأمريكية على مجرد أسماء المعتقلين وأماكن اعتقالهم .. بلا جدوى .

فى ظروف عادية كان يمكن لأى إعتقال على هذا النحو أن يثير ضجة واعتراضاً أكبر داخل أمريكا ذاتها .. لأن المواطن الأمريكى كان يعتز دائماً بأنه يعيش فى مجتمع يتمتع فيه بحماية القانون . الآن تبخر هذا . وتبخر أكثر وأكثر بالنسبة للأجانب . كل الأجانب كقاعدة عامة .. وعربيو الانتماء ومسلمو الديانة بصفة خاصة.

وهكذا صدرت التشريعات على وجه السرعة , التى تعطى للشرطة الأمريكية سلطات لم تحلم بها من قبل . سلطة الاعتقال لمجرد الشبهة . سلطة إستمرار الإعتقال مفتوحاً لأجل غير مسمى. سلطة مراقبة البريد والتليفون والمراسلات الإلكترونية . سلطة تفتيش المنازل دون سند قانونى وبغير علم أصحابها. بل إنهم بدأوا يفكرون فى اعطاء الشرطة سلطة استخدام وسائل «الضغط الجسمانى» على المعتقلين لأول مرة - يعنى التعذيب - مع الاستعانة بخبرة إسرائيل فى هذا الخصوص ووسائلها المتوحشة المعروفة فى تعذيب المعتقلين الفلسطينيين... إلخ.

أكثر من ذلك.. أعطيت للشرطة سلطة الحصول من المدارس والكليات الجامعية أولا بأول على كل البيانات المتعلقة بكل طالب أجنبى يدرس فيها. من الآن فصاعدا على كل مدرسة ومعهد وكلية وجامعة أن تخطر الشرطة أولا بأول بأسماء وجنسيات وأماكن إقامة الطلبة الأجانب الذين يدرسون فيها.. وتخطرها أيضا بمن ينتظم فى دراسته أو يتخلف عنها ولأى سبب تخلف. تخطرها كذلك بأى تغيير فى عنوان الإقامة ومصدر التحويلات المالية التى ترد اليه وهل له بريد اليكترونى. والشرطة تراجع تلك البيانات أولا بأول مع الطالب الأجنبى، فإذا اختلفت أقواله عن الحقيقة فى أى شىء.. كأن يكون قد نسى مثلا الإبلاغ عن التغيير فى محل إقامته.. فللشرطة هنا أن تقرر ترحيله إلى بلاده فورا إذا كانت رحيمة به.. أو تعتقله دون أسباب ولا اتهام إذا شاءت ذلك. نفس الشىء إذا تجاوز مدة تصريح اقامته بيوم واحد. للشرطة أيضا إلغاء تصريح الإقامة الدائمة (الكارت الأخضر) فى أى وقت، مع الترحيل إلى الخارج لمن ترى فيه شبهة.. حتى من غير وجود أدلة.

كل هــذا أو حتــى بعضه، لم يكن متخيلاً بالمرة أن يحدث فى أمريكا قبل ١١ ســبتمبر . أمريكا كانــت تعاير البلاد الأخرى مؤخــراً بأنها بلد الحريات المدنية التى يحميهــا القانون. كانت أيضاً تعطى لنفسها حق القيام بدور الواعظ للدول الآخرى عن حقوق الإنسان.. بل ورقيباً أيضاً على باقي المجتمع الدولى فيما يناسبها هى من مصالح. الآن إنتهى كل هذا بجرة قلم.. وبشطحة قانون. وبدلاً من أن يسموه " قانون الطوارىء " أو " قانون مكافحة الإرهاب " سموه " القانون الوطنى ". وبدلاً من أن يأخذ القانون حقه فى المناقشة المستفيضة جرى التسرع فى إصداره.. وبحجة أن السلطات المختصة ســتراعى فى التنفيذ من باب الذوق والأريحية أن تســتخدم سيف هذا القانون ضد الأجانب فقط أو الذيــن هم من أصل أجنبى . من الطلبة فقط يوجد فى أمريكا ســتمائة ألــف . أما من العمال فيوجد ملايين .. معظمهم من المكسيك .. الجارة الجنوبية للولايات المتحدة.

المشكلة هنا أن الدولة التى تفعل ذلك هى أمريكا على وجه الخصوص لأنها أصلاً دولة مهاجرين. بل أن القوانين الأمريكية كانت تشجع قدوم المهاجرين إليها، خصوصاً المتعلمين، لكى يعملوا بها. والســبب عملى واقتصادى تماماً. فحينما تحصل أمريكا علــى مهاجر أجنبى متعلم وخريج جامعى مثــلاً. تكون قد حصلت عليه مجاناً بينما مجتمعه الأصلى هو الذى تحمل تكاليف تربيته ورعايته وتعليمه . فى تلك الحالة يصبح المهاجر إضافة إلى اقتصاد أمريكا .. ومجاناً . وحتى بالنسبة للطلبة الأجانب الذين يذهبون إلى أمريكا للدراســة فإنهم يذهبون إليها بفلوســهم . وفى ولاية كاليفورنيا وحدها تحصل الكليات الجامعية على ألف وســتمائة مليون دولار سنوياً كرسوم للدراسة من الطلبة الأجانب الذين يجيئون إليها.

طيب . بطواريء أو بغيرها .. أمريكا حرة فى نفســها . إنما المشــكلة التى تعنينا نحن هنا حقاً هى أن الذى يجرى مؤخراً يجرى تحت عنوان عريض هو مواجهة " الإرهاب الإسلامى " الذى أصبح أســامه بن لادن عنواناً له . بن لادن هذا اختراع أمريكى من أصله . لاهو رشــح نفسه فى انتخابات ولا زكاه علماء الأزهر أو أئمة الشــيعة فى إيران ولاترددت السعودية فى سحب جنسيتها منه قبل خمس ســنوات . لاشــيء من هذا يذكره الإعلام الأمريكى مطلقاً . الأهم من ذلك أن بن لادن هذا كان صنيعة أمريكية فى هوجة اســتخدام أمريكا لراية " الجهاد " الإســلامى لحسابها .. يوم كانت لها مصلحة فى إرغام الاتحاد الســوفيتى السابق على الانسحاب من أفغانستان . وحتى تفجير سفارتى أمريكا فى تنزانيا وكينيا فى أغسطس ١٩٩٨ لم تنشر أية وسيلة إعلام أمريكية كلمة واحدة سيئة .. لا عن بن لادن ولا عن حركة " طالبان " التى تؤويه فى أفغانستان . وكلاهما وضعتهما أمريكا تحت المقصلة منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

الموضــوع يهمنــا أيضاً لأن ســوء النية المســبق واضــح عند رفع شــعار " الإرهاب الإســلامى». فــى ايرلندا الشــمالية مثلاً مواجهــة دامية منذ عقود بين الســلطات البريطانيــة ومنظمة الجيش

الجمهورى الأيرلندى السـرية . مواجهة وصلت ذات مرة إلى حد نسـف مبنى بكامله سـعياً إلى اغتيال مارجريت تاتشر فى داخله، وهى وقتها رئيس وزراء بريطانيا. مع ذلك.. ولأكثر من ثلاثين سـنة.. لم تسـتخدم جريدة بريطانية واحدة تعبير "الإرهاب الكاثوليكى ". ولا استخدمت جريدة أيرلنديـة تعبير " الإرهاب البروتسـتانتى ". أنديرا غاندى أيضاً، رئيسـة وزراء الهند الراحلة، جـرى اغتيالهـا وهى التى كانت أحد رموز دول عدم الانحياز وراثة عن والدها الزعيم جواهر لال نهرو. ومع ذلك لم تستخدم جريدة غربية واحدة تعبير" الإرهاب البوذي".

المسـألة الجوهرية هى أن الإرهاب لايحسـب على جنس أو ملة أو ديانة على النحو المروع الذى نتابعه منذ ١١ سبتمبر. إسحاق شامير مثلا، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، شارك بنفسه سابقاً فى اغتيال وزير بريطانى بمدينة القاهرة، اسمه اللورد موين. فى حينها أصدرت بريطانيا أمراً بالقبض عليه بصفته إرهابياً مطلوباً تقديمه إلى العدالة. لكن أحداً فى بريطانيا لم يقل فى حينها إن هذا هو " إرهـاب يهودى ". وفى أمريكا أيضـاً.. جرى القبض فى الثمانينات على مواطن يهودى أمريكى إسـمه " جوناثان بولارد " يعمل محللاً للمعلومات فى البحرية الأمريكية – وبتهمة التجسـس – مقابل أجر ثابت من إسـرائيل.. ناقلاً إلى إسـرائيل أدق أسرار معلومات التجسس الأمريكية، ومن بينهـا التجسـس على دول عربية وثيقـة الصلة بأمريكا . وبلغت القضية مـن الخطورة إلى درجة قيام السـلطات الأمريكية بفرض أقصى درجات السرية عليها... مع شهادة مكتوبة من وزير الدفاع الأمريكى وقتها بأن تلك الحالة التجسسـية هى أخطر ما واجهته أمريكا فى كل القرن العشـرين. مع ذلك.. لم تكتب جريدة أمريكية واحدة فى تلك المناسبة عن "الإرهاب اليهودى " أو " التجسس اليهودى " ومن باب أضعف الإيمان «التجسس الصهيونى».

فـى النهايـة.. الإرهاب إرهاب. بلا جنـس ولا ملة ولا دين. لماذا إذن وضع شـعوب بكاملها، وديانة من أساسـها، موضع الاتهام أو التبرير أو الدفاع؟ ويصبح العرب والمسـلمون جميعاً فى موقع الاتهام والمحاكمة.. إلى أن يثبتوا لأمريكا – وأمريكا تحديداً – ما هو عكس ذلك ؟

نعـرف أن الرئيس الأمريكى جورج بوش قال وكرر علناً لشـعبه: إن أمريكا تحارب الإرهاب وليس الإسـلام. على عينى ورأسـى. إنما الإجراءات الفعلية التى تمارسها السلطات الأمريكية فى أرض الواقع تذهب فى اتجاه آخر.

آخرهـا مثـلاً .. قيام أمريكا بفرض إجراءات اسـتثنائية ضد طالبى تأشـيرة الدخول إليها من ٢٦ دولة، كلها عربية إسـلامية... فى مقدمتها مصر والسـعودية والأردن والكويت ولبنان وسوريا والمغرب وتونس... إلخ. والإجراءات تصبح أكثر وأكثر صرامة إذا تراوح سن طالب التأشيرة ما بين ١٨ و٤٥ سنة. هنا يا شاطر حساب الملكين : أصلك وفصلك واسم والدتك وأفكارك وقراءاتك وابن مين فى البلد وهل تذكرة سفرك ذهاب فقط أو ذهاب وعودة... إلخ.

أما الأكثر خطورة، وفى الحالة الراهنة من الهوس الأمريكى، فهو أن تتلاحق علينا وعلى العالم فى السنوات القادمة مئات الكتب والأفلام والمسلسلات التليفزيونية التى تعيد وتزيد فى إرهاب ١١ سبتمبر وأن المسئولين عنه عرب ومسلمون.

وفى رأيى المتواضع هنا: إنهم.. ليسوا عرباً مسلمين. فحتى الآن لا يوجد دليل واحد قدمته أمريكا إلى شعبها أو للعالم يثبت صحة الشبهات التى ترددها على مدار الساعة منذ ١١ سبتمبر. دليل واحد يقبله محقق مهنى أو قاض نزيه. هناك مصالح كبرى وراء ما جرى. وفى تاريخ أمريكا ذاتها ما يوضح ذلك.

والحقيقة فيما جرى لابد أن تظهر يوماً ما . لكن المشكلة هى أنه.. إلى أن يحدث ذلك... فإن أمريكا تضعنا جميعاً - عرباً ومسلمين - فى حالة اشتباه أمام العالم بمنطق " خذوهم بالصوت " واسترضاء للشعب الأمريكى بتقديم كبش فداء له على وجه السرعة امتصاصاً لحالته من الصدمة والغضب. أمريكا تقول لشعبها : العدو ليس هنا.. فى داخلنا إنما هناك عدو بديل... هناك بعيداً بعيداً ... وبالصدفة أيضاً لديه مصالح مهمة سنصادرها لحسابك.

والحقيقة فيما جرى يوم ١١ سبتمبر لابد أن تظهر يوماً ما. أكررها مرة أخرى. إنما المشكلة الآن هى أن حالة الاشتباه هذه ليست عنصرية فقط. انها جريمة أخرى اضافية فى حق كل العائلات الأمريكية لضحايا ١١ سبتمبر.

□□□



صباح الخير .. يا أوروبا !

مع وصول هذا المقال وهذه المجلة إلى القراء , يعنى اعتباراً من الساعة الأولى من يوم أول يناير سنة ٢٠٠٢ ، سيكون ثلاثمائة مليون مواطن فى ١٢ دولة أوربية قد أفرغوا جيوبهم من كل ما فيها مـن أوراق مالية وعملات.. وتنازلوا عنها نهائيـاً.. لكى يحصلوا بدلاً منها على نفس قيمتها وإنما بعملة جديدة يتعاملون بها لأول مرة فى تاريخهم. عملة اسمها " اليورو ".. وهى الحروف الأربعة من كلمة أوربا باللغة اللاتينية.

بالطبع من حق كل مواطن أن يحتفظ لنفسـه بما يشـاء من العملات الملغاة. لكنها فى تلك الحالة ستصبح عملات تذكارية لها قيمة عاطفية وإنما بغير قيمة مالية مقبولة التداول.

قد لا تكون هذه أول مرة فى التاريخ يجرى فيها سحب عملات من الأسواق نتيجة لإلغائها. لكنها بالتأكيـد أضخم عملية من نوعهـا. فالعملات الورقية الجديدة التى سـيبدأ العمل بها لو جرى رص المطبوع منها بجوار بعضها البعض فسوف يتجاوز طولها المسافة بين الأرض والقمر خمس مرات.

النـاس فـى أوروبـا أو بالضبط فى ١٢ دولـة فى أوروبا اسـتعدت لذلك من زمـن.. بالرغم من ارتباطاتهـم العاطفية بالعمـلات الوطنية الملغاة. بعضهـا ، كالمارك الألمانى مثـلاً، كان رمزاً لأداء اقتصادى مدهش حققته المانيا بعد خراب الحرب العالمية الثانية. بعضها ، كالفرنك الفرنسى مثلاً، اسـتمر معمولاً به ٢٠٦ سـنوات رغم تحول فرنسـا من الجمهورية إلى الملكية إلى الجمهورية من جديد . بعضها كان رمزاً للاستقلال الوطنى كالفرنك البلجيكى مثلاً الذى ولد كعملة وطنية فى سنة ١٨٢٣، بعد إسـتقلال بلجيكا بسـنتين . بعضها، المارك الألمانى مرة آخرى، كان رمزاً أيضاً للدولة القوية الجديدة التى أقامها بسمارك من توحيد ولايات صغيرة متفرقة وأصبح المارك عملتها الموحدة منذ سنة ١٨٧٦. بعضها اعتاد الناس عليه لنحو سبعة قرون ، كالفلورين الهولندى الذى بدأ العمل به كعملة فى سنة ١٣٢٥ ... الخ.

من الآن فصاعداً سـتختفى كل تلك العملات الاثنتا عشـرة نهائيا من التداول وسـيتعامل ٣٠٠ مليـون مواطـن بالعملة الموحدة الجديدة : هؤلاء المواطنون فـى ١٢ دولة أوروبية لا يتحدثون حتى

لغة واحدة مشتركة . فى الواقع هم يتحدثون ١١ لغة مختلفة . لا يجمع بينهم أيضاً حدود سياسية واحــدة .. فكل منهم مســتمر فى حدود دولته التى ستســتمر بدورها كدولة مســتقلة لها حدودها السياسية المعروفة على الخريطة .

مع ذلك فاعتباراً من أول يناير سنة ٢٠٠٢ ستصبح نفس تلك الدول قوة أكبر فى الساحة الدولية، وسـيضطر العالم كله شرقاً وغرباً وشـمالاً وجنوباً إلى وضعها فى حسابه وأخذها فى اعتباره بشكل مختلف أكثر جدية. هى دول اعتادت سـابقاً على العزف المنفرد . وفى عزفها المنفرد هذا لم تكن أى منها ضعيفة بالمرة . فى الواقع أن منها، كألمانيا مثلاً ، من أصبح بمفرده أكبر قوة اقتصادية على مسـتوى وسط غرب أوربا . ومنها، كفرنسـا مثلاً، من يمتد تأثيرها الثقافى إلى خارج حدودها بما سـمح لها بتشـكيل تجمع خاص بها للدول الناطقة باللغة الفرنسـية . بعض تلك الدول هى الأكثر سـكاناً (ألمانيا مثلاً ٨٣ مليوناً) . وبعضها الآخر ربما أقل سـكاناً من حى شـبرا فى القاهرة، مثل لوكسـمبورج حيث تعداد سـكانها أقل من نصف مليـون . بعضها كان له أصـل وفصل فى التاريخ كأمبراطوريات فى زمن غابر... كالبرتغال وأسبانيا وهولندا وفرنسا.

وبعضهـا على قدر حاله عاش بجوار الحائط كأيرلندا مثـلاً . بعضها ثقافته اغريقية كاليونان. وبعضهـا ثقافتــه خليط من عدة ثقافـات ولغات. فنلندا مثلاً . كلها مسـيحية الديانة لكن بمذاهب مختلفة... مع ذلك فبعضها من بين سكانه ملايين المسلمين كفرنسا ... الخ .

فى الخلاصة.. نحسـبها يمين أو شـمال .. لغات أو ثقافات .. تاريخ أو على هامش التاريخ ... تطلع الحكاية من شـامى إلى مغربى . إنما الشامى والمغربى عندنا على الأقل لهم لغة واحدة تجمع بينهـم هى العربية . لكن هـؤلاء فى أوروبا يتحدثون ١١ لغة مختلفـة . عند جماعتنا لغة عربية واحــدة من المحيط إلى الخليج ومع ذلك فلهم عشـرون عملة مختلفـة.. إنما من الآن فصاعداً هؤلاء أصبحت لهم عملة واحدة يتعاملون بها مع أنفسهم ومع العالم ... هى : اليورو "

اليورو " هذه بدأت بفكرة بسـيطة قبل أقل من أربعين سـنة .. الفكرة هى : لماذا لا نتكامل معاً اقتصادياً .. فنصبح أكثر كفاءة لمصلحتنا كدول ولمصلحتنا فى مواجهة الآخرين ؟ الفكرة بدأت بست دول . بعدها تطورت الفكرة البسـيطة إلى فكرة أكبر : لماذا لا نقيم بين دولنا سـوقاً مشتركة ؟ بعد نجاح السوق الأوروبية المشتركة هذه تطورت الفكرة إلى إقامة " الاتحاد الأوربى " ويضم ١٥ دولة.. سـتصبح وشـيكاً ٢٥ دولة. ولأن الفكرة لم تكن مجرد خيال شعراء وإنما تقوم على المصالح المشتركة فقد تجاوب معها الجميع. من سـت دول إلى ١٥ ثم ٢٥ تاليا. إنما المشـوار لم يكن سمناً على عسل. كان فيــه مطبات وعواصف وأعاصير. عند كل إعصار يعيـد البعض تفكيرهم من جديد : نرجع إلى العزف المنفرد ونفضها سيرة ... أو نستمر معاً فى المركب الواحد ؟

بريطانيا مثلا ، ومن البداية ، استنكفت هذا التفكير الأوربى من أساسه . بريطانيا كانت لاتزال ترى نفسها رمزاً لامبراطورية كبرى .. وإن تكن الشمس قد غربت عنها بعد هزيمتها فى بورسعيد سنة ١٩٥٦ . بريطانيا أيضاً جزيرة ويفصلها البحر عن أوروبا . وبتلك الصفة كانت ترى نفسياً أنها شىء .. وأوروبا شىء آخر منفصل. بريطانيا - ثالثاً - كانت ترى أن عليها اللعب فى المضمون. والمضمون فى القاموس البريطانى وقتها هو أمريكا . اذا كان على بريطانيا أن تختار من تربط مستقبلها به .. فليكن أمريكا وليس أوروبا.

أوروبا أيضاً كانت متوجسة من بريطانيا.. من هنا تزعمت فرنسا ، خصوصاً على أيام زعيمها شارل ديجول ، معارضة أى محاولة من بريطانيا للانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة. فكرة ديجول كانت هى أن بريطانيا لن تكون أبداً مخلصة لأوروبا . هى مخلصة وستظل مخلصة لأمريكا . بالتالى فإنه بقبول عضويتها فى السوق الأوروبية المشتركة فسوف تلعب بريطانيا دور حصان طروادة داخل السوق لحساب أمريكا . أو بالقليل ستقوم بدور الفرامل لإبطاء سرعة التوجه الأوروبى نحو التكامل. فقط بعد رحيل ديجول نجحت بريطانيا فى الانضمام إلى عضوية السوق الأوروبية المشتركة.

أمريكا ذات نفسها أعطت لبريطانيا الضوء الأخضر للانضمام إلى أوروبا لحسابات أخرى خاصة بها. فى وقتها كانت الحرب الباردة فى ذروتها بين أمريكا والاتحاد السوفييتى ورأت أمريكا أنه قد يخدمها تكامل أوروبا الغربية اقتصادياً.. طالما أن نفس دول أوروبا الغربية هذه هى فى معظمها أعضاء فى منظمة حلف شمال الأطلنطى ... وهو التحالف العسكرى الذى تقوده أمريكا.

بعدها أصبح الكلام أكثر جدية. دول " الاتحاد الأوروبى " تريد من العالم أن يتعامل معها ككتلة اقتصادية واحدة . العالم مستعد . لكن كيف يحدث هذا ونفس الخمس عشرة دولة تتعامل مع بعضها البعض بخمس عشرة عملة وطنية مختلفة ؟ من هنا أصبحت الخطوة الضرورية التالية هى : عملة أوروبية موحدة .

ولأن الأساس من البداية هو المصلحة المشتركة فكان الاتفاق بين الجميع هو أن القرارات الكبرى تكون بالإجماع. لو أجمعت ١٤ دولة مثلاً على قرار ثم جاءت لوكسمبورج مثلاً لتعترض- وهى بسكان أقل من حى شبرا - اذن يسقط القرار أو تخرج هى من الاتحاد. أكثر من ذلك.. هناك ١٥ دولة يضمها الاتحاد الأوروبى. لكن جميع المداولات لابد فى نفس اللحظة من ترجمتها إلى الإحدى عشرة لغة المعمول بها وقتها فى نفس تلك الدول. هذه الجزئية فى حد ذاتها أصبحت معناها هو أن الميزانية الإدارية المعتمدة سنوياً لمؤسسات الاتحاد الأوروبى يذهب ثلثاها فى مجرد تغطية تكاليف ترجمة وثائق ومداولات الدول الأعضاء.

كلهـا مطبات كان يمكن فى أى منها أن ينفرط عقـد " الاتحاد الأوروبى" مرة بعد مرة. مع ذلك كانت الإرادة السياسـية عند الدول الأعضاء أقوى من كل العقبات. السياسـيون كأشـخاص: تغيروا مرات بعد مرات فى الدول المعنية. أحزاب حاكمة تغيرت وتوجهات سياسـية تعدلت. مع ذلك لم يجرؤ سياسـى واحد، ولا حزب واحد، على الانقلاب على من سـبقوه. المسـألة ليست مجرد حلم مشترك بل أساساً مصالح مشتركة. مصالح الدول ومصالح الناس.

أوروبا لم تكن تريد لنفسها أن تظل فى مقعد المتفرج بينما الدنيا تتغير. فى الغرب هناك أمريكا التى هى بذاتها وبمواردها وإمكانياتها قوة اقتصادية عظمى. فى الشرق هناك اليابان وهى – بنصف سـكان أمريكا – قوة اقتصادية كبرى. لو اسـتمرت دول أوروبا فى العزف المنفرد فسـوف تطحنها هذه وتلك. إنما لو تصرفت أوروبا كمجموعة اقتصادية واحدة فسـوف تصبح لاعباً اقتصادياً يحسب له الجميع كل حساب.

هكـذا اتخذت الخمس عشـرة دولة فى "الاتحاد الأوروبـى" قراراً إجماعيـاً بالعملة الموحدة. وفى سـنة ١٩٩٢ وقعت معاهدة مشتركة – تسـمى معاهدة ماستريخت – لضبط معايير هذه العملة الجديـدة.. وإقامة بنك مركزى جديد تفوضه الـدول الأعضاء فى إدارة العملة الجديدة, وتحدد أول يناير ٢٠٠٢ تاريخاً لبدء تداول العملة الموحدة الجديدة.

بريطانيا خصوصاً (ومعها الدانمرك والسويد) وافقت فعلا ثم خلعت نفسها بعد ذلك... ليس من الاتحاد الاوروبى ولكـن بالذات من الالتزام بعملة أوروبية موحدة. براحتها. هكذا فكر الآخرون. فالموضوع من الأسـاس هو الاقتناع بوجود مصلحة مشتركة بين الدول الأعضاء ولصالح شعوبها حتى تتعامل مع المجتمع الدولى بصوت واحد.. اقتصادياً.

كل هذا طبيعى وعادى على مسـتوى السياسيين. إنما فى نهاية المطاف يتصرف السياسيون هنا فـى مصالح الناس ولابد من تجاوب الناس مع ما يجـرى.. خصوصاً وأن المطلوب من الناس فى هذه المرة هو الاسـتغناء عن عملاتهـم الوطنية التى تآلفوا معها واعتادوها جيـلاً بعد جيل.. بل لقرون طويلة فى بعض الحالات.

لقد مضت ١٢ دولة أوروبية فى مشوار العملة الأوروبية الموحدة حسب المواعيد المقررة. إنما فى نفس السـياق بدأ البحث عن الأفكار العملية التى تضمن حماس الناس للعملة الموحدة الجديدة وإقبالهم عليها.

المسـألة ليسـت أوامر تصدرها الحكومات وبعدها على الشعوب السـمع والطاعة.المسألة هى أن يقتنـع كل مواطن باختياره الحر بـأن فيما يجرى تحقيقاً لصالحه هو وأولاده... ومسـتقبلاً أفضل تتسع فيه المصانع.. وتتضاعف فرص العمل وتنخفض فيه تكاليف الإنتاج. وفى أقل القليل فإن نفس

المواطن يصبح قادراً على استخدام نفس الفلوس فى جيبه داخل ١٢ بلداً أوروبياً، بغير أن يضطر إلى أن يستبدل بها عملة آخرى كلما عبر الحدود متحملاً رسوم استبدال العملة.

لقد أصبحت كل دولة حريصة على شرح مسألة العملة الموحدة هذه لمواطنيها كل بطريقتها الخاصة.. وقبل الموعد المحدد بفترة كافية. مائتا مليون كتيب جرى إرسالها إلى الناس فى بيوتهم. آلاف الإعلانات التليفزيونية جرت إذاعتها عن مزايا العملة الجديدة ومدى حصانتها ضد التزوير. حتى أساقفة الكنيسة مثلاً رأت حكومة اليونان أن تشركهم معها فى حملات التوعية.. فأرسلت إليهم بالمطبوعات راجية لهم أن يوزعوها على المصلين كل يوم أحد بعد شرح مضمونها.

أما على مستوى الاثنتى عشرة دولة فقد استعان البنك المركزى الأوروبى الجديد. بجيش من أخصائيى العلاقات العامة لتصميم حملة متكاملة يجرى تكرارها فى وسائل الإعلام لتشرح للناس مغزى هذا التحول الجديد فى حياتهم. أما الأكثر أهمية فهو التوجه إلى الشباب. من بين الأفكار التى أجمع عليها الخبراء مثلاً الذهاب إلى جميع المدارس لشرح المسألة للتلاميذ. منها أيضاً فكرة أن الأطفال فيما بين سن الثامنة والثانية عشرة يكونون فى العادة الأسرع تكيفاً مع المتغيرات الجديدة.. بل وهم غالباً الذين يشرحونها لآبائهم وأمهاتهم.

بالتالى ذهبت الحملة الإعلامية إلى هؤلاء الأطفال فى مدارسهم لتطرح عليهم الدخول فى مسابقة على مستوى الاثنتى عشرة دولة، لمدة شهر ونصف الشهر، أساسها توجيه خمسة أسئلة عن العملة الأوروبية الجديدة ليقوم كل تلميذ بالإجابة عليها. هناك ١٢٠٠ جائزة مالية فورية للفائزين. وفيما بعد الفوز هناك مسابقة تالية بين الفائزين وعنوانها "نجوم فوق العادة". الجوائز ٢٤ دعوة مجانية، بمقتضاها، يسافر كل فائز، مع والديه، إلى فرانكفورت مقر البنك المركزى الأوروبى.. حيث يتسلم كل فائز أمام الكاميرات مجموعة متكاملة من الأوراق المالية والعملات التى يصدر بها "اليورو".. مجاناً. وكل هذا فى احتفال خاص مذاع على الهواء مساء ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠١ .

الكل استجاب. وأوروبا (١٢ دولة) تكاملت اقتصادياً وأصبحت لها عملتها الجديدة الموحدة. هؤلاء الذين تكاملوا – لصلحة شعوبهم – لا تزال تفرق بينهم ١١ لغة مختلفة. لكن من الآن فصاعداً أصبحت أوروبا الجديدة هذه لاعباً رأساً برأس مع أمريكا واليابان ومن يستجد.

من المثير للتأمل هنا أن (الاتحاد الأوربى) الذى أصبح يضم ٢٥ دولة أوربية وتقف دول أخرى على أبوابه تنتظر السماح لها بالإنضمام (تركيا مثلا) بدأ باللغة الأساسية فى السياسة. لغة المصالح المشتركة. بدأ باتحاد لمنتجى الصلب ثم سوق أوربية مشتركة ثم اتحاد أوربى وعملة رسمية واحدة تناطح العملة الأمريكية فى الاقتصاد العالمى رأسا برأس.

من المثير للتأمل أيضا أن مشـروع (السـوق العربية المشتركة) سـبق فى الظهور (السوق الأوربية المشتركة). لكن بينما تاهت السوق العربية المشتركة فى دهاليز السياسة وتقلباتها، كانت السياسة هى التى حافظت على قوة الدفع لاكتمال المشروع الأوربى ضد تقلبات الزمن.

مـن المثير التأمل ثالثا أنه.. بينما (الحلم الأوربـى) انطلق من دول متفرقة فى الطريق إلى كيان أكبر ما تزال له أبعاد أوسع وأعمق.. نجد عندنا العكس. دول موجودة تسعى إلى التشرذم. وبدل أن تسعى إلى القريب منها، بل المجاور لها، فإنها ترتبط أكثر وأكثر بالغريب والبعيد عنها. الآخرون يبحثون عن ما يجمع بينهم.. بينما الساسـة فى دولنا ينزلقزن إلى ما يفرق بيننا. هذا لا يعنى أن الآخرين أفضل منا أو أننا أقل منهم. يعنى فقط أن العروبة الرسمية ما تزال أقل من مستوى وقدرات العروبة الواقعية.

في الواقع أن لدينا بعض (جزر) النجاح التى كان يمكن الانطلاق منها والبناء عليها. لدينا مثلا بنك أقيم فى سنوات السبعينات برأسمال مشترك من خمس دول عربية. وفى إحدى اللحظات وصل التوتر السياسى بين اثنتين من الدول المشاركة فى أس مال البنك - مصر وليبيا - إلى ذروته.. بل حتى إلى القطيعة الكاملة. لكن أحدًا لم يجرؤ على المسـاس بالبنك أو الخروج منه.. ببسـاطة لأنه أصبح مصدرًا للأرباح المتعاظمة التى تتقاسمها أولا بأول الدول المؤسسة.. كل بحسب حصتها.

لدينا أيضا خط (سوميد) للبترول المقام على الأرض المصرية كمشروع مشترك بين حفنة من الدول العربية.. ومستمر فى تحقيق الأرباح المتصاعدة للجميع سنة بعد أخرى.

لدينـا (الهيئـة العربية للتصنيع) التى كان يفتـرض فيها أن تقيم صناعة عربية للسـلاح بدل عشرات المليارات التى تدفعها الدول العربية كل سنة للإستيراد من الآخرين. وقبل أن تنطلق الفكرة إلى النجاح أصابتها اتفاقات كامب ديفيد بالشلل.

وبعيدًا عن الأسـلحة.. أمامنا المفارقة الأكبر وهى اعتمادنا فى غذائنا على الإستيراد من الخارج بينمـا منحنـا الله كل امكانيـات وقدرات الاكتفاء الذاتـى، بل والتصدير أيضا إلـى الآخرين. فى السودان مثلاً ملايين الأفدنة من الأراضى القابلة للزراعة بأقل تكلفة، ولكن ينقصها البشر والأموال. ولدى مصر السوق المتسعة وفائض من البشر لكن تنقصها الأرض والأموال. ولدى ليبيا أموال بترولية فائضة ولكن تنقصها المياه والسوق المتسع. نفس الشيء ينطبق على السعودية.

وبين فترة وأخرى يفرض المنطق السـليم نفسه متسائلاً: لماذا لا يتكامل المال والبشر والأرض هنا فينتج الجميع غذاؤهم ويصدرون الفائض إلى الآخرين.. وكله مكسب وفرص عمل وقوة إضافية؟ لكن الذى يحدث هو العكس على طول الخط: ليبيا تدفع عشـرين مليـار دولار تكلفة لإقامـة ما سـمى بـ (النهر العظيم) ولا يزيد فى جوهره عن خط أنابيب لنقل مياه جوفية على بعد مئات الكيلومترات

جنوبا لكى تروى شـمالا أراض محدودة.. لا هى هنا ولا هناك. السـعودية تزرع قمحًا بعشر أمثال تكلفته فيما لو استوردته من السودان. ومصر التى كانت فى حالة اكتفاء ذاتى من الغذاء - أو ما هو قريب منها - خفضت مساحاتها المنزرعة من القمح لكى تستورد القمح الأمريكى.. وبمئات الملايين من الدولارات.. سنويا.

أحيانًا تكون أحلام الناس أكبر من قدراتهم. لكننا هنا أمام حالة عكسـية: أحلامنا تصبح أصغر وأصغر من قدراتنا. وبالمقارنة مع أوربا.. هذا ليس فارقا فى العقول. إنه فارق فى السياسات.

لقد كتبت سـابقا - بالعربى الفصيح - دفاعا عـن لغتنا العربية فى مواجهة اللهجات المحلية. وكتبت - بالعربى الصريح - عن ما جرى للبترول العربى فى أكبر عملية نهب فى القرن العشرين. فـى هذه المرة أكتب - بالعربى الجريح - عن سـيطرة العزف المنفرد على سياسـات دولنا العربية فتصبـح كل منها أكثر ضعفًا واعتمادًا على الآخرين. وإذا كانت السياسـة فى أبسـط تعريفاتها هى حسن إدارة مصالح الناس ومستقبلهم.. فإن ما صنع الاتحاد الأوربى - والعملة الموحدة إحدى ثماره - هو نقل لفكرة (الاتحاد قوة) إلى أرض الواقع اعتمادًا على لغة المصالح المشتركة فى أبسط صورها.

و .. صباح الخير يا أوربا.

مساء الخير يا عرب.

❑❑❑

الترتيب الزمنى للمقالات
حسب نشرها بمجلة الشباب

الموضوع	التاريخ
عزيزى عبد الحليم: وحشتنا	مارس ١٩٩٧
زوربا: الحياة بالطول والعرض	أبريل
الله يعطيك العافية.. وحكايات أخرى	مايو
قضية كل جيل وسؤال كل عصر	يونيو
غرام يقصف العمر	يوليو
هونج كونج؟ غطينى يا صفية	أغسطس
فى العاصفة:	
الطالبة دينا تسأل والرئيس يشرح	سبتمبر
سندريللا.. بالمقلوب	أكتوبر
رجال اليوم السابع	نوفمبر
عبد المنعم رياض: نهاية البداية (٢)	ديسمبر
من غزو مصر إلى الهيستيريا (٣)	يناير ١٩٩٨
الحق والقوة: تلك هى المسألة (٤)	فبراير
ضباب الحرب والسياسة (٥)	مارس
مشاعر من لحم ودم	أبريل
سكين فى وجهى	مايو
مصر.. ناقص واحد	يونيو
أم أحمد زويل.. وبالعكس	يوليو
جول.. من غرفة الكونترول	أغسطس
أرز وحب وحقوق إنسان	سبتمبر
الفضيحة.. بجلاجل	أكتوبر
الحل.. هو المشوى	نوفمبر
حال الدنيا	ديسمبر
للحزن صباح آخر	يناير ١٩٩٩
أولاد حلال.. مثلنا	فبراير
من باب الخطأ	مارس
الفيتو.. والقانون.. والغابة	أبريل
أولها.. فلفل	مايو
فى التاريخ: طالع.. نازل	يونيو
أنت حلمى السعيد؟.. أبوك بيشتغل إيه؟	يوليو
مات الملك.. عاش الملك	أغسطس
الأسلحة علينا.. والقتل عليك!	أكتوبر
عيال اللغة الرابعة!	نوفمبر
موسيقى عذبة.. للنصب على نغماتها!	ديسمبر
عولمه.. الله يرحمه	يناير ٢٠٠٠
.. آخرها بترول	فبراير
فى الحلوة.. والبحيرات المرة	مارس
أمر يخصنا وحدنا	أبريل
النجاة بحرا.. والغرق برا..!	مايو
مولد.. وصاحبه غائب	يونيو
محنة فوق رءوسنا	يوليو
لبنان.. بالزيتون والرصاص والجبنة!	أغسطس
آه.. يا بلد الدروس الخصوصية	سبتمبر
وتعطلت لغة الكلام!	أكتوبر
رئيس فوق.. ورئيس تحت	يناير ٢٠٠١
شاى.. وموسيقى	أبريل
فين الشاى يا سعاد؟	مايو
إعلانات.. والأجر على الله!	يونيو
شيك يأخذ العقل	يوليو
التعليم ضد التيار!	أكتوبر
حريق عابر للقارات	نوفمبر
حالة اشتباه	ديسمبر
صباح الخير.. يا أوروبا	يناير ٢٠٠٢

المحتويات

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول - (دار الشرق) - الطبعة السابعة
- أفكار إسرائيلية - (كتاب الإذاعة) - الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة - سرى جدا - (المكتب المصرى) - الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله - (دار الشروق) - الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام - (دار المستقبل العربى) - الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص - (دار الشروق / دار المعارف) - الطبعة التاسعة
- شخصيات - (دار المعارف) - الطبعة الثانية
- سياحة غرامية - (دار الشروق) - الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار - (مكتبة الأنجلو) - الطبعة الثالثة
- أوراق إلى حبيبتى - (دار الشروق) - الطبعة الأولى

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد - (كتاب اليوم) - الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد - (دار المعارف) - الطبعة الثالثة

فى الرواية والقصة

- أرجوك لا تفهمنى بسرعة - (روز اليوسف) - الطبعة الثالثة
- شىء يشبه الحب - (كتاب اليوم) - الطبعة الأولى

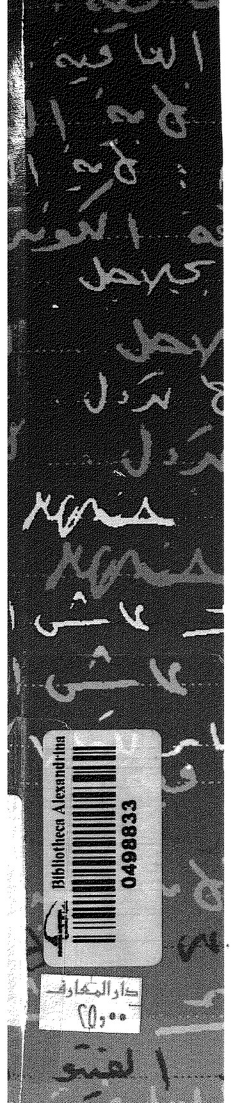
تحت الطبع

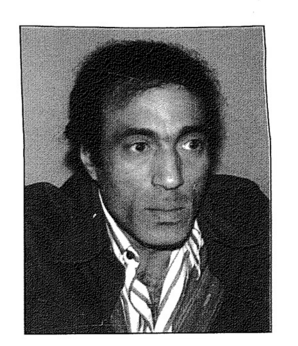
- اليوم السابع - دار ميريت
- مختارات - دار ميريت

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٢٠١٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6909-3

١/٢٠٠٥/٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)





من الحب إلى الحرب.. ومن التاريخ إلى الجغرافيا.. ومن هونج كونج إلى نيويورك ومن لبنان إلى المغرب تجول بك صفحات هذا الكتاب.

من محمد عبد الوهاب إلى صباح فخرى ومن رجال اليوم السابع من أكتوبر إلى عبد الحليم حافظ ومن ملك المغرب إلى سعد زغلول.. ومن ونستون تشرشل إلى أنتونى كوين تتلاحق معك اللقطات فى هذا الكتاب.

من العولمة إلى الموسيقى العذبة للنصب على نغماتها.. ومن حضارة الفلفل فى جنوب شرق آسيا إلى معارك البترول ومن التجارة الحرة إلى الحريق عابر القارات.. ومن حرب الاستنزاف إلى نزيف الإعلانات، يتفاعل الكاتب الكبير محمود عوض مع القراء فى هذا الكتاب. هذا التفاعل الحى الخلاق بين رشاقة الأسلوب الذى تميز به كاتبنا الكبير وعمق المعانى وبساطة الكلمات ودقة العبارات هو حصيلة هذا الكتاب المتميز من كاتب متميز إلى قارئ متميز.



